الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

الزوايات الاوروبية الاغريقية واللاتينية «الحملة الاولى»

١ ـ الالكسياد ـ للاميرة اناكومينا

٢ ـ يوميات صاحب اعمال الفرنجة ـ لمؤلف مجهول

٣ ـ تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس ـ لريمون دي جيل

٤ ـ تاريخ الحملة الى القدس ـ لفولتشراوف تشارترز

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

الجزء السادس

دمشق

١٩٩٥ - ١٤١٦هـ

الروايات الاوربية الاغريقية واللاتينة (الحملة الاولى)

١ ـ الالكسياد ـ للاميرة اناكومينا
٢ ـ يوميات صاحب اعمال الفرنجة ـ لمؤلف مجهول
٣ ـ تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس ـ لريمون دي جيل
٤ ـ تاريخ الحملة الى القدس ـ لفولتشر اوف تشارترز

دمشق ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

من حسن حظ المهتمين بتاريخ الحروب الصليبية ان لديهم اربعة نصوص وثائقية حول بداية هذه الحروب وماعرف باسم الحملة الاولى ، وثلاثة من هذه النصوص كتب باللاتينية من قبل افراد شاركوا بالحملة وكانوا ضمن العاملين بها ، لكن كل واحد منهم ارتبط بواحد من قادة الفرنجة وبذلك عبر عن موقفه ، فضلاً عن ان كتابات كل واحد من هؤلاء تأثرت بثقافته واختصاصه وخلفياته ، وهي على العموم ليس كتابات تاريخية رفيعة المستوى لكنها مع ذلك هامة لانها وثائقية .

واما النص الرابع فقد كتب بالاغريقية من قبل الاميرة (حنة)انا كومينا ، ابنة الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين ، وكان على عرش القسطنطينية اثناء الحملة وشغل في احداثها دوراً كبيراً ، وولدت انا لابيها في كانون اول سنة ١٠٨٣ م في « الغرفة الارجوانية » في القصر الامبراطوري ، ولقيت منه عناية كبيرة حتى غدت ثقافتها ممثلة لمعارف عصرها ، وللنزعات التي كانت تسود الفكر البيزنطي في القرن الحادي عشر وبدايات الثاني عشر .

كتبت الاميرة انا كتابا حمل اسم « الالكسياد » وهذا الاسم مقتبس من اسم والدها اوقفته للتأريخ لحياة ابيها

ولما شهده عهده من وقائع جليلة ، ورسمت انا في كتابها صورة رائعة لحياة ابيها منذ ولادته وشرحتها شرحا وافيا يفيد الباحث التاريخي من كافة الجوانب ، لكن يلاحظ ان الاميرة انا كومينا قد كتبت تاريخها بلغة صعبة جدا ، واسلوب جاء في غاية التعقيد ، وذلك نتيجة مباشرة للثقافة الكلاسيكية التي تلقتها في القصر الامبراطوري في القسطنطينية ، وهي لاشك ثقافة كان فيها شعر وتاريخ وفلسفة اغريقية ، ولطبيعة اسلوب الاميرة انا كومينا وجدت صعوبات جمة في عملية النقل الى العربية ، وفي الحقيقة واجهت الصعوبات لدى ترجمة كل نص من نصوص موسوعتنا ، فلكل كاتب بالاصل اسلوبه وعقليته وطرائق عرضه لاخباره ، ولهذا من المحال الاتيان باسلوب واحد ، او بالحري فرض اسلوب محدد لنصوصنا كلها ، ويسوغ هذا طبيعة العمل وعنوانه الموسوعي .

ويعد كتاب الالكسياد مصدرا متفردا بالنسبة للتاريخ البيزنطي ، وخاصة بما يخص الفترة التي يغطيها ، زد على هذا كما سلف بي القول انه مصدر اساسي لتاريخ الحروب الصليبية يرقى الى الدرجة الوثائقية ، فمن هذا الكتاب نستقي معلومات عن محاولة بيزنطة اعادة امجادها ، وعن اجتماع المسيحية الشرقية والغربية على تنفيذ هدف واحد ، وهو الحملة الصليبية والقضاء على الاسلام والمسلمين بكل وسيلة ممكنة ، ويلاحظ القارىء ان الاميرة انا كومينا استولت عليها عواطفها وميولها ولهذا بالغت في وصفها لبعض الاحداث وتعمدت طمس بعض الاخطاء ، وهي كسيدة عالية الثقافة شديدة الملاحظة بارعة في الوصف ، عميقة الاحاسيس ، وهذه المزايا مع المعلومات التي استطاعت

الوقوف عليها بحكم مركزها الرفيع والتي ضمتها كتـابها ، قد جعلت هذا الكتاب فـريداً مـن نوعه ، متميزا في بـابه ، ونموذجا رفيعا للكتابات التاريخية البيزنطية .

وانا لم اترجم كتاب الالكسياد بمجمله بل ترجمت منه فقـط ماتعلق باحداث الحروب الصليبية ، وسيجد القارىء متعـة وفائدة عظيمة في مقارنة مواد الاميرة انا كومينا عن وقـائع الحملة الاولى بمواد المصادر اللاتينية الثـلاثة التـي اشرت اليها اعلاه ، واول هذه المصادر واهمهـا مجهـول المؤلف ، اختلف المؤرخون حول تحديد شخصيته ، وكان برفقه الامير النورمندي بـوهيموند ، وقـد كتـب يوميات « عن اعمـال الفـرنجة » ويرجـح انه كان انسـانا عاديا ، مشى في ركاب الامير بوهيموند واعجب به لهذا نراه يطـريه في كل مـوضع ومناسبة ، ويهتم بأخباره اكثر من اخبـار غيره مـن قـادة الفرنجة ،وقد روى أخباره بكل بساطة ودونما تصـنع وذلك تناسب مع ثقافته ووضعه كجندي عادي .

ونعرف ان بوهيموند استحوذ على انطاكية بعد الاستيلاء عليها وجعل منها مقرا لامارة خاصة بـه ، وانه بسـبب ذلك خاض صراعات مع عدد من امراء الحملة الاخرين خاصة مع ريموند صنجيل .

ولهذا عندما زحفت الحملة نحو القدس بعـدما مغـادرتها لمعرة النعمان ، ذهب صاحب اليوميات مـع الامير تـانكرد الى القدس ودون اخباره حتى سنة ١٠٩٩ ، ولاندري سبب توقفه مع هذا التاريخ ولامصيره الشخصي ، وانتشر كتابه في القدس سنة ١١٠٠ م ، وقد حمله بوهيموند معه الى اوربـا

وسعى الى نشره والترويج له ، ربما لاعتقاده انه يتضمن الاطراء له .

ولئن اوقف صاحب اليوميات جل مواده على بوهيموند وتانكرد ، فانه كان برفقه ريموند صنجيل من كتب اخباره ، وهوَ الكاهن الخاص به واسمه ريمون دي جيل (اوريموند اوف اغويلرز) وماكتبه رجل الدين هذا يختلف بالاسلوب والرؤى والاهتمامات عما كتبه صاحب اليوميات ، وهو لهذا يكمل كل منهما الاخر ، ولاشك ان القارىء الكريم سيقدر كتاب ريمون كثيرا بعد قراءته لما جاء في الكتاب الرابع من موسوعتنا حول الاوضاع الدينية الاوربية اثناء الحملة الاولى وبعدها

وكان ريمون دي جيل قد بدأ مشروع كتابه بالتعاون مع فارس مغمور اسمه بونز بالأزون و كان من فرسان صنجيل ، و قد لاقى في حتفه أثناء حصار عرقه لذلك تولى ريمون اكمال المشروع لوحده ، ولم يكن ريمون عالي الثقافة ، لكنه كان رجل دين متعصب جداً يؤمن بالغيبيات ، وهو بالوقت نفسه بارع في اداء الطقوس الكنسية ، ومتشرب بعقيدة النصر النهائي للنصرانية ، ولايعرف التسامح ولهذا سوغ ابشع الاعمال التي اقترفها الفرنجة مثل الابادة الجماعية للمسلمين واكل لحوم الموتى منهم .

ولم اُثقل متن كتاب دي جيل بالحواشي تجنبا للتكرار ، وحافظت قدر الامكان على اسلوبه على غرابته لابل على ركاكته ، فهمي منحصر هنا بالمعلومات وليس بالسمو الادبي.

ومر بنا من قبل انه بالاضافة الى بوهيموند وصنجيل كان

غودفري واخوه بلدوين بين ابرز قادة الحملة الاولى ، ولقد رأينا بلدوين يمضي مع قوة خاصة به شرقا قبل حصار انطاكية ، إلى الرها حيث اسس دويلة صليبية فيها ، وبعدما احتل الفرنجة القدس اختاروا غودفري ليتولى الحكم فيها ، واثر وفاة غودفري جاء اخوه بلدوين من الرها وتسلم الحكم في القدس ، وقد عده المؤرخون اول ملوك المملكة اللاتينية في القدس ، لأنه ارسى قواعد هذه المملكة ، بل لأن لقب غودفري كان « حامي القبر المقدس».

ولم يكن بلدوين اقل حظا من بوهموند وصنجيل حيث اهتم به فولتشر اوف تشارارز ، وهو فرنسي ولد في تشارترز سنة ١٠٥٨ او ١٠٥٩ م ، وشارك في الحملة الاولى وادرك الاهمية الخاصة لهذه الحملة فاهتم بامر تدوين اخبارها مما شاهده اوسمع به ، وحين توجه بلدوين الى الرها عام ١٠٩٨ م رافق اليها وبقي معه عامين اي الى ان جاء القدس وتسلم عرشها ، وكان فولتشر كاهن بلدوين الخاث ، ولهذا رافقه في حروبه واسفاره ، ولعله عمل ايضا كمستشار له.

وجاء تاريخ فولتشر زاخرا بالمعلومات ، لأن وضع صاحبه مكنه من الاطلاع عن كثب على دخائل الامور وكثير من التفاصيل مما لم يره غيره ولم يسجله ، ووقع هذا التاريخ في ثلاثة اقسام ، او كتب ، بدأ اولها بأخبار البابا اوربان الثاني ومجمع كلير مونت وانتهى بموت غودفري في القدس ، وغطى الثاني اخبار حكم بلدوين الاول حتى وفاته في العريش ، اما الثالث فتضمن اخبار بلدوين الثاني حتى

- ٢٤٢٩ -
سنة ١١٢٧ م حيث من المرجح وفاة المؤلف في هذه السنة ، او عجزه عن متابعة الكتابة.

مما تقدم تتضح اهمية النصوص الاربعة التي نقدم لها الآن ، هذه النصوص التي لم يسبق لكتاب عربي جمعها ، لكن لابد من التذكير انها لاتحتوي على جميع المواد الاخبارية عن الحملة الاولى في التراث الاوربي ، ففي تاريخ وليم الصوري - الذي كنت قد ترجمته ونشرته في بيروت - المزيد من التفاصيل المفيدة ، فضلا عن انه لدى العرب والسريان الكثير مما يقال ويروي ويصور الأحداث ، وهذا ما سنلحظه في ثنايا كتابنا بمجمله.

وايضا لم اثقل فولتشر بالحواشي تجنبا التكرار ، واملي كبير في ان اكون قد وفقت في عملي والله المعين والمرشد الى السداد ، له الحمد والشكر والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى اله واصحابه اجمعين.

دمشق ١٠ شوال ١٤١٣

سهيل زكار

٢ نيسان ١٩٩٣

من كتاب الألكسياد للأميرة آنا كومينا

الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٤ - ١٠٩٩م)

وسمع (الأمبراطور الكسيوس) قبل أن يتمكن من نيل قسط كاف من الراحة ، اقاويل تتحدث عن قرب وصول عدد كبير من جيوش الفرنجة لاعد لها ولاحصر ، وقد خشي من وصولهم ، على اساس معرفته بطباعهم واخلاقهم التي لايمكن ضبطها ، وبولعهم في الفوضى وحبهم لعدم الاستقرار ، هذا اذا ماأغفلنا الحديث عن بقية طباع الفرنجة وصفاتهم السيئة ، وماكان ينجم عن ذلك من مشاكل ، فجشعهم - مثلا - للمال ، غالبا ماقادهم الى نقص اتفاقاتهم دون أي مسوغ مهما كانت درجته ، وكان الامبراطور قد سمع هذا عنهم بشكل متواتر ، وقد تأكد جميعه لديه فيما بعد ، ومع هذا حافظ الامبراطور على رباطة جأشه ، واقدم على اتخاذ كافة الاجراءات ، واستعد لخوض الحرب اذا مادعت الضرورة لذلك ، وكان ماحدث بالفعل ، اكبر بكثير مما اوحت به مضامين الاشاعات والأقاويل ، انه لأمر رهيب حقا ، فالغرب كله مع جميع شعوب البرابرة التي عاشت فيما بين شواطىء البحر الادرياتيكي ومضيق جبل طارق انطلقت مهاجرة في كتلة واحدة نحو أسيا ، وقد زحفت عبر أوربا ، بلدا بلدا ، تحمل معها جميع ماكانت تمتلكه وتقتنيه ، ويمكن التعرف الى سبب هذا الجيشان العام في أخبار الأحداث التالية :

فقد قام بين الفرنجة رجل يدعى بطرس ، ويشتهر باسم كوكو بطرس (١) ، وكان قد سافر للتعبد في جوار القبر المقدس ، وبعدما عانى كثيرا من سوء المعاملة على ايدي التركمان والمشارقة الذين كانوا يجوبون البلاد ناهبين لها ولجميع اراضي آسية ، عاد الى موطنه بعد صعوبات جمة ، ولم يسلم بالهزيمة ، لذلك استهدف القيام برحلة ثانية على الطريق نفسه ، لكنه لاحظ انه من الحماقة

بمكان ان يسافر وحيدا – ذلك ان نوازل كبيرة كان يمكن ان تحل به – لجأ الى ابداع خطة بارعة.

فقد قرر أن يبشر في جميع البلدان اللاتينية ، ويعلن بأن هاتفا سماويا جاءه يأمره ان يعلن الى جميع امراء فرنسا ، أن عليهم مغادرة أوطانهم ، والسفر للتعبد في كنيسة القيامة ، وان يبذلوا نفوسهم وجميع طاقاتهم في سبيل تحرير القدس من ابناء هاجر ، وانه لمن المدهش أن نرى درجات النجاح التي لاقاها ، حتى لكأن قلوب الجميع قد دخلت اليها القناعة عن طريق وحي رباني ، وعلى هذا تجمع الفرنجة جميعا من جميع الأطراف ، واحدا تلو الآخر ، ومعهم اسلحتهم وخيولهم ، وبقية معدات الحرب ، وتقاطرت الحشود على الطرقات ، واندفعت بكل حماس واصرار ، وانضم اليها عدد كبير من اهالي المدن ، حتى فاقت أعدادهم رمال شواطىء البحار ، ونجوم السماء ، ورفعوا جميعا سعف النخيل وحملوا الصلبان على عواتقهم .

وكان هناك ايضا عدد كبير من النسوة والأطفال تركوا هم ايضا ديارهم ، وتدفق الجميع من كافة الجهات تدفق السيول والروافد على النهر العظيم الذي اتجه نحونا بكامل زخمه وقواه عبر بلاد داشيا ، وكان قد حدث قبيل وصول هذه الحشود ان تعرضت الأراضي التي مروا بها الى اجتياح الجراد لها ، وعف هذا الجراد عن القمح واتلف الكروم ، وقد أول المفسرون في ايامنا هذه الظاهرة، على أنها تشير الى أن جيوش الفرنجة ستتمنع عن التدخل في شؤون المسيحيين ، لكنها ستحل سفك الدماء ، وإنزال الأذى بكل شدة بأبناء اسماعيل البربريين ، الذين هم عبيد لمعاقرة الخمور ، ولعبادة الشيطان ، وهم منغمسون في جميع انواع الرذائل الجسدية ، وهم وان ختنوا في اجسادهم ، لم يختنوا ابدا لا في طباعهم ولا في أخلاقهم ، واذا ماأردت معرفة الحقيقة فاعلم ان أبناء اسماعيل هم عبيد – لابل عبيد ثلاث مرات – لجميع شرور افروديت واثامها ، حيث أنهم يعبدون معها عشتار

وعشتروت ، ويقدسون في بلادهم تمثال القمر ، ووثن نجم شوبأر الذهبي (٣) ، الذي يحظى بمكانة سامية جدا .

ولما كان القمح يتمتع بمكانة عالية ، ويحظى بأهمية خاصة ، ونظرا لكونه في الوقت نفسه أكثر الأطعمة تغذية وفوائد ، فقد اعتبر رمزا يدل على المسيحية ، وفي ضوء هذا ، فسر العلماء الأتقياء الاشارة الى الخمر والقمح .

هذا مايتعلق بهذه النبوءات ، أما مايتعلق بقضية البرابرة ، فقد تابعوا زحفهم حسبما بينت ، لكن كان هناك شيء غريب في هذا الموضوع ، يمكن للعقلاء من الناس ادراكه ، وهو ان الحشود لم تصل جميعا في الموعد نفسه ، كما انها لم تتخذ جميعا الطريق نفسه ، اذ كيف يمكن لها أن تعبر البحر الأدرياتيكي دفعة واحدة ، ذلك ان كل فئة منها وجماعة انطلقت من بلد دون الآخر في أعداد هائلة ؟! ولهذا قامت هذه الحشود برحلتها على شكل مجموعات متفرقة ، مجموعة في البداية تليها مجموعة ثانية ، وهكذا بقية المجموعات ، حتى تمكن الجميع من الوصول ، ثم شرعوا في زحفهم عبر ايبروس (٣) .

وكما سلف بي القول ، فان كل واحد من الجيوش سبقه قطيع من الجراد ، الى حد ان كل من شاهد هذه الظاهرة في عدة اماكن ، صار يلاحظ ان قطعان الجراد ، ماهي في زحفها الا علامة على مسير الفرنجة على اثارها ، ولدى عبور الفرنجة لمضايق لومبارديا في مجموعات صغيرة ، استدعى الامبراطور عددا من قادة القوات البيزنطية ، وبعث بهم على راس عساكرهم الى المنطقة الكائنة حول دير اخيوم وافلونا ، وزودهم بتعليمات تقضي باستقبال الرحالة الفرنجة بكل لطف ، وأن يجلبوا اليهم — من جميع المناطق — كميات كبيرة من المؤن ، وذلك طوال سفرهم ، وان يعمدوا الى مراقبتهم بشكل دقيق ومسايرتهم حيثما توجهوا ، حتى اذا ماراوهم يحاولون الافلات للنهب في المناطق المجاورة منعوهم من

تنفيذ أغراضهم عن طريق المناوشات الخفيفة ، وجرى ارفاق هؤلاء القادة بعدد من المترجمين الذين يفقهون اللغة اللاتينية ، وكان واجبهم الحيلولة دون حدوث مصادمات او مشاكل بين الفرنجة وسكان المناطق المحليين . هذا وبودي أن اقدم هنا رواية أكثر تفصيلا حول هذه المسألة :

وانتشرت أخبار أعمال بطرس التبشيرية ، وعمت كل مكان ، وكان غودفري (٤) على رأس الذين باعوا اراضيهم ، وأخذ الطريق نحو القدس ، وكان رجلا غنيا جدا ، وفخورا بأصالته وعراقة نسبه ، وبشجاعة وامجاد أسرته ــ ذلك أن كل فرنجي تتملكه الرغبة الدائمة في التفوق على أتباعه ــ وكانت الفوضى التي ثارت ، وتبعت زحف الرجال والنساء لامثيل لها ولانظير في ذاكرة الأحياء من الناس ، ويلاحظ هنا أن الفقراء والمساكين من الحشود كانوا صادقي النية ، دافعهم الرغبة في التعبد عند ضريح ربنا ، ولزيارة الأماكن المقدسة ، لكن ذوي الصفات الشريرة ــ خاصة بوهيموند وامثاله ــ كانت لهم غايات أخرى ومقاصد مغايرة ، ذلك انهم أملوا انهم سيتمكنون ، اثناء رحلتهم ، من الاستيلاء على العاصمة نفسها ، وكانوا يرون ان الاستيلاء عليها سيكون نتيجة طبيعية لحملتهم ، وكان بوهيموند قد أفسد نوايا العديد من الأمراء ، ذلك انه كان مايزال يحمل ضغائنه وأحقاده القديمة ضد الامبراطور .

وكان بطرس الناسك اول من عبر مضايق لومبارديا ، وذلك بعدما اتم التبشير بحملته ، وجاء عبوره مع ثمانين الفا من الرجالة ، ومائة الف من الفرسان ، ووصل الى العاصمة عبر هنغاريا (٥) ، ومعروف ان الفرنجة هم في جميع الأحوال قوم شديدو الاندفاع وعاطفيون ، ولديهم قدرة كبيرة على التحمل ، لكن سرعان مايمكن افسادهم واثارتهم واذا ماأثيروا يغدون وقتها ممن لايمكن مقاومته .

وعرف الامبراطور ماعاناه بطرس من التركمان من

قبل ، ونصحه ان ينتظر وصول بقية الامراء ، لكنه لم يتقبل النصح ، واغتر بأعداد اتباعه ، وعبر بحر مرمرة ، واقام معسكره على مقربة من مكان صغير اسمه هيلينوبولس ، وقد انضم اليه فيما بعد بعض النورماندين ، وكان تعدادهم عشرة الاف ، لكنهم مالبثوا أن تميزوا عن بقية الجيش ، وانفصلوا عنه ، وشرعوا بنهب المنطقة المحيطة بنيقية ، وانزلوا بالأهالي جميعا صنوفا من الفظائع مرعبة ، فقد قاموا بتقطيع بعض الأطفال الى قطع ، ووضعوا بعضهم الآخر على قضبان خشبية ، وقاموا بشيهم فوق النار ، وجرى اخضاع الشيوخ لجميع انواع العذاب .

ولدى الوقوف على اخبار ماكان يحدث ، فتحوا في الحال ابواب المدينة ، وحملوا عليهم ، وثار اثر ذلك قتال ملحمي ، قاتل فيه النورمان بحماس واندفاع شديدين ، مما حمل أهالي نيقية على التراجع الى داخل حصنهم ، وهكذا عاد النورمان الى هيلينوبولس يحملون جميع الغنائم ، وهناك ثار جدال بينهم وبين البقية ــ الذين لم يشاركوا في الاغارة ــ وتطور هذا الجدال المعتاد في مثل هذه الأحوال ، والذي سببه حسد البقية وغيرتهم من الذين قاموا بالاغارة ، تطور الى شجار صاخب ، وقام اثر ذلك الأبالسة النورمان بالانفصال ثانية للاغارة على اكزرغوردوس التي استولوا عليها ، وكانت ردة فعل السلطان تجاه ماحدث ان بعث بواحد من نوابه على رأس قوة كبيرة ليتولى حسم دائهم ووضع حد لأذاهم ، ووصل هذا القائد الى اكزرغوردوس واستولى عليها ، وكان مصير النورمان ان جعل بعضهم طعمة للسيف ، واخذ بعضهم الآخر اسرى ، ثم قام بوضع خطة مناسبة لتوجيه ضربة قاصمة لظهور البقية الذين كانوا مايزالون برفقة بطرس ، ونصب عددا من الكمائن في أماكن مناسبة ، على أمل أن العدو سيمر بها وهو في طريقه الى نيقية ، وانه سيقع في الشراك المنصوبة له دونما ادراك ، وحينذاك سيتم تدميره وافناء رجاله ، وحيث انه كان على بينة من حب الفرنجة للمال ، اختار اثنين من رجاله من ذوي المهارة والبراعة ، وبعث بهما الى معسكر

بطرس . وامرهما ان يعلنا هناك بأن النورمان قد استولوا على نيقية ، وانهم يقومون بتوزيع غنائم المدينة فيما بينهم ، وكان لهذه الحكاية فعل السحر على رجال بطرس ، الذين ما ان سمعوا عبارتي « توزيع » و « مال » حتى هاجوا وماجوا وتسارعوا لتوهم مندفعين دون توقف باتجاه طريق نيقية ، وهم في حالة فوضى كاملة ، ودونما أدنى مراعاة لمسائل النظام العسكري ، وشروط التعبئة الصحيحة التي ينبغي أن يتسم بها الرجال الزاحفين إلى الحرب ، لكن كما قلت من قبل : إن الجنس اللاتيني جشع للثروة في جميع الأحوال ، فهم حين يخططون لغزو بلد ما ، لا يمكن ضبطهم لا بالعقل ولا بالقوة ، تراهم ينطلقون في فوضى شاملة ، لا يلتفت صاحب على صاحبه ولا يلوي رفيق على رفيقه ، ووقعوا على مقربة من موقع اسمه دراكون في كمين التركمان ، فذبحوا بكل تعاسة وشقاء ، وكان عدد الحشود الفرنجية والنورماندية التي أفنتها سيوف أبناء اسماعيل كبيرا جدا ، إلى حد أنهم لما جمعوا بقايا الذين قتلوا ، في مكان واحد ، شكلوا ما يماثل مرتفعا كبيرا جدا ، أنا في الحقيقة لا يمكنني أن أقول إنه مثل قطعة عظيمة من جبل أو أنه تل أو قمة ، لكن أقول إنه جبل بارتفاع كبير وعميق وعريض وعظيم جدا ، إلى حد أن بعض الرجال — من الجنس نفسه — عندما تمكنوا فيما بعد من قتل البرابرة ، وجدوا أنفسهم وهم يقومون ببناء أسوار دفاعية [حول معسكرهم] تشبه أسوار المدينة ، يقدمون على استخدام عظام الموتى باعتبارها موادا لسد الشقوق ، وهكذا صار من الممكن القول أن المدينة غدت قبرا لهم ، وما زالت هذه المدينة قائمة حتى يومنا هذا وهي محاطة بأسوار مشيدة من مزيج من الحجارة والعظام .

ولدى انتهاء عملية القتل تمكن بطرس وحفنة من الرجال فقط من الفرار والعودة إلى هيلينوبولس ، ورغب التركمان في التمكن من أسره ، فأقاموا لهذه الغاية الكمائن ، ونصبوا الشراك ، لكن الامبراطور الذي سمع أخبار ما حدث ، وخاصة أخبار المذبحة الرهيبة ، رأى أن الأمر سيكون عظيم الوقع إذا ما وقع بطرس

بالأسر ، لذلك بادر إلى ارسال قسطنطين بورفوربينوس ، كاتا كالون (الذي غالبا ما ورد ذكره في هذا التاريخ) مع جيش قوي ، ركب ظهر عدد من السفن الحربية ، وذلك عبر المضائق ، لتقديم المساعدة له ، والعمل على انقاذه ، ولدى وصوله فر التركمان ، وبادر كاتا كالون دونما تأخير الى التقاط بطرس وأصحابه (فلقد كان هناك قلة فقط) وجلبهم سالمين إلى الكسيوس ، الذي ذكر بطرس بحماقاته منذ البداية ، واخبره أن النوازل التي حلت به ، ما كانت إلا بسبب عدم اصغائه لنصائحه ، وأعلن بطرس بعجرفة لاتينية ورعونة معتادة ، عدم مسؤوليته عما حدث ، ولام رجاله على ذلك ، لأنهم ـ كما قال ـ كانوا غير مطواعين ، وتبعوا رغبات نفوسهم ، وقد دعاهم باسم عصابات ولصوص أوغاد ، وعلى هذا كانوا غير لائقين بالانتساب إلى المخلص ، وغير جديرين بعبادته عند القبر المقدس .

وكان بعض الفرنجة على شاكلة بوهيموند وعصاباته قد وجدوا في دعوة بطرس فرصة مناسبة ، فأحدثوا فوضى عظيمة عن طريق خداع الأناس السذج ، ذلك أن الشهوة إلى تملك الأراضي البيزنطية ، والرغبة في الاستيلاء عليها قد استولت على نفوسهم منذ زمن بعيد ، ولهذا اقدم هؤلاء القوم على بيع أراضيهم ، بدعوى أنهم مغادرون البلاد لحرب التركمان ، ولتحرير القبر المقدس .

وقام احدهم واسمه هيوج (٦) ، وكأن اخا لملك فرنسا ، كما انه كان شديد الفخار بمكانته ونبالة اصله ، وثروته وقوته ، قام وهو عازم على مغادرة بلاده ـ بالظاهر بدعوى الحج الى القبر المقدس ـ بارسال رسالة غامضة إلى الامبراطور ، بأنه من المتوجب أن يقدم له ـ أي لهيوج ـ استقبالا رائعا ، قائلا : « اعلم ايها الامبراطور ، بأني أنا ملك الملوك ، واعظم كل من هو تحت قبة السماء ، وإنها ارادتي وأوامري ، بأن تقوم بلقائي لدى وصولي ، وباستقبالي بكل مظاهر الأبهة والحفاوة التي تليق بمقامي النبيل » .

وحدث أثناء وصول هذه الرسالة إلى الكسيوس أن كان جون بن اسحق المشرف العام للامبراطورية ، هو دوق دراخيوم ، ونيقولا مافروكان كاتاكالون قائدا للاسطول ، وكان قد القى مراسي سفنه مرة حول ميناء كان هناك ، وقام من هذه القاعدة بعدة رحلات استطلاعية ، لمنع سفن القرصان من الابحار مفلتة من المراقبة ، وبعث الامبراطور إلى هذين الرجلين بتعليمات مستعجلة ، كان فيها على الدوق أن يرقب وصول هيوج برا وبحرا ، وأن يخبر الامبراطور الكسيوس ساعة وصوله ، وكان عليه أن يستقبله بحفاوة كبيرة ، وكان على أميرال الاسطول أن يديم اليقظة بلا انقطاع ، ودون أن تكون هناك أية راحة أو اهمال مهما كان نوعه .

ووصل هيوج إلى لومبارديا سالما ، وبعث من هناك برسله إلى دوق دراخيوم ، وكان تعدادهم أربعة وعشرين رجلا ، وكانوا مسلحين بالدروع المحلاة بالذهب ، وكان بصحبتهم كونت وليم النجار(٧) والياس (الذي تخلى عن الامبراطور في سالونيك) ، وتوجه الرسل بالخطاب إلى الكونت على النحو التالي : « ليكن بمعلومك أيها الكونت بأن سيدنا هيوج سيكون هنا بعد وقت قصير ، جالبا معه من روما راية القديس بطرس الذهبية(٨) ، واعرف ايضا انه هو القائد الأعلى لجيوش الفرنجة ، قم بإعداد استقبال لائق بمكانته ، واستعد أنت نفسك للقاء به » ، وبينما كان الرسل يسلمون هذه الرسالة ، قدم هيوج من روما إلى لومبارديا ــ كما سبق وقلت ــ وابحر من باري باتجاه ايليركيوم ، لكن واجهته أثناء عبوره عاصفة شديدة ، ففقد معظم سفنه بما في ذلك المجذفون والبحارة ، ونجت سفينته فقط حيث رميت على الشاطىء في مكان بين دراخيوم وبقعة اسمها بيلز ، وكانت أنئذ نصف محطمة ، وقد عثر عليه اثنان من حرس الشواطيء ممن كان ينتظر وصوله ، وقد انقذاه بمعجزة وخاطباه بقولهما : « إن الدوق ينتظر وصولكم بفارغ الصبر ، وهوتواق إلى رؤيتكم » ، وحالما سمع هذا ، طلب لنفسه حصانا ، فترجل واحد من الخفيرين وقدم له حصانه بكل سرور ، وعندما رآه الدوق ، وعرف الطريقة التي انقذ بها ، حياه ورحب به ، ثم سأله عن

رحلته ، وعما سمعه حول العاصفة التي أغرقت السفن ، وحاول التخفيف عنه وبعث الشجاعة في نفسه ، واحتفى به بمائدة فخمة ، وبعد الاحتفاء به ، ترك الدوق هيوج ليرتاح ، لكنه أبقاه تحت المراقبة ولم يمكنه من حريته الكاملة ، ثم بادر إلى اعلام جون بأخبار المغامر الفرنجي ، وانتظر تعليماته الجديدة ، وقام الامبراطور الكسيوس حال تسلمه الأخبار ببعث تومتز إلى إبيدامنوس (التي دعوناها في مناسبات عدة باسم دراخيوم) لمرافقة هيوج ، لكن ليس عبر طريق مباشر ، وإنما عبر الطريق المغاير المار بفيليبوبولس إلى العاصمة ، ذلك انه كان خائفا من حشود الفرنجة المسلحين القادمين بعده ، واستقبل هيوج في العاصمة استقبالا لائقا من قبل الامبراطور ، الذي استطاع بسرعة اقناعه عن طريق التوسع بالعطاء ، واظهار كل معاني الصداقة ، أن يصبح واحدا من اتباعه بوساطة حلف اليمين المعتاد لدى اللاتين .

وكانت هذه الوقائع مجرد مقدمة ، فبعد مرور خمسة عشر يوما فقط عبر بوهيموند شواطىء كابليون (٩) ، وجاء إثره مباشرة الكونت رتشارد صاحب برنسبيت(١٠) ، وطلب هو أيضا لدى وصوله إلى شواطىء لومبارديا ، الجواز إلى إيليركيوم ، وتم هناك استئجار سفينة قرصان ذات ثلاثة أشرعة وحمولة كبيرة ، بمبلغ ستة الاف قطعة ذهبية ، وكانت هذه السفينة تحمل مائتين من المجدفين ، وتجر وراءها ثلاثة قوارب شحن ، ولم يمض ريتشارد إلى افلونا كما فعلت بقية الجيوش اللاتينية ، لكنه بعدما توقف توقفا قصيرا ، غير اتجاهه قليلا ، وابحر في ريح طيبة مباشرة إلى خيمارا [ذلك انه كان خائفا من الأسطول الروماني « البيزنطي »] إنما كان حاله كالفار من الدخان ليقع في النار ، فهو تجنب السفن التي كانت راسية في مختلف النقاط في مضائق لومبارديا ، لكنه اجتاز ممر القائد العام للاسطول الروماني كله ، وهو نيقولا مافرو كاتاكالون نفسه ، وكان هذا الأخير ، قد سمع منذ زمن عن سفينة القرصان هذه ، فأرسل عددا من سفن الاستطلاع السريعة ، والسفن ذوات صفين من المجاذيف ، وذوات الثلاثة صفوف ، وذلك من بين القوات

الرئيسية ، وتحرك من قاعدته في أسـون إلى كابليون حيث تمـركز هناك ، وأرسل القائد صاحب الترتيب الثـاني بغليونه(١١)لمواجهـة البحارة العاديين) ليقوم بإضاءة مشعل عندما يرى المجـدفين قـد أسدلوا حبل الجر من سفينة العدو ورموه في البحر ، ونفذت الأوامر دونما تأخير ، وما إن رأى نيقولا الاشارة حتى أقلع ببعض سفنه ، بينما جرت سفن أخرى بواسطة التجديف ـ وبـدو وكأنهـم كألف واحد ـ ضد رتشارد ، الذي كان الآن وسط البحر ، وقد لحقوا بـه قبل أن يقطع مسافة ثلاث عقد ، وكان ذلك كله حرصا على الوصـول إلى الشاطىء المقابل لأبيدامنوس ، وكان معه على ظهـر السـفينة ألف وخمسمائة من العساكر ، مضافا إليهم ثمانمائة حصـان عادت في ملكيتها إلى نبلائه ، وعندمـا رأى القبـطان نيقـولا ، أخبـر الفرنجة ، وخاطبهم بقوله « الاسطول السوري حولنا ، ونحن الآن معرضون لخطر القتل طعنا أو تقطيعا » ، وحالما سمع الكونت هـذا أمر عسكره بحمل السـلاح والاسـتعداد للقتـال ، و كان الوقـت منتصف الشـتاء ـ اليوم المقـدس المكرس لذكرى نيقـولا الحبـر الأعظم (١٢)وكان هناك سكون مميت ، والقمر بدر ، وقد أشرق مشعا أكثر مما يفعل عادة في فصل الربيع ، ونظرا لتوقف حركة الريح ، لم يعد بإمكان سفينة القرصان التقدم بـواسطة الأشرعة ، لذا وقفـت هادئة بلا حراك وسط البحر ، وعند هذه النقطة من تاريخي أرى أنه لا بد لي من وقفة لأقدم الشكر والعرفان لما قام به مـاريانوس مـن انجازات ، فقد سأل أبـاه الدوق قـائد الاسـطول أن يعـطيه بعض القوارب الخفيفة ، ثم اتجه مباشرة نحو سـفينة رتشـارد ، وهناك ألقى بنفسه فوق مقدمة هـذه السـفينة ، وحـاول أن يصعـد إلى ظهرها ، وعندما رآه البحارة اندفعوا على الفور نحـوه ، ذلك أنهـم رأوه مسلحا وجاهزا للدخول في المعـركة ، لكن مـاريانوس ، الذي أحسن التكلم بلغتهم ، خاطب هؤلاء اللاتين وأخبرهم أنهم ينبغي ألا يخشوا أمرا ، وحضهم على عدم القتال ضد اخـوانهم المسـيحين ، ومع ذلك فقد أخذ واحد منهم قوسه وفوقه ورمـاه بنشـابة أصـابت خوذته(١٣) ، ونفذت خارقة أعلاها ، انما دون أن تمس شعرة مـن رأسه ـ أي عبرتها بسلام ـ ودونما تمهل أطلقت نشابة ثانية نحو

الكونت فأصابت ذراعه ، وخرقت ترسه ، ونفذت من خـلال درعه ، وخدشت طرفه ، وصدف أن كان هناك راهب لاتيني واقفا في مؤخرة السفينة مع اثني عشر من المقاتلين ، وقد رأى ما حدث ، فأقدم على الرماية بقوسه عدة مرات باتجاه مـاريانوس ، ورفض مـاريانوس حتى هذه الساعة التسليم ، وقاتل بشجاعة ، قاتل بنفسـه وشـجع رجاله ليحذو حذوه ، ولهذا وجد رفاق هذا الراهب أنفسهم ، ثـلاث مرات على التوالي ، يتراجعون بسبب الجراح والتعب ، أما الراهب نفسه فإنه على الرغم من أنه ضرب مرة تلوالأخرى ، وغطي بالدماء المتدفقة من جراحه ، فانه تابع القتال دونمامبالاة (١٤) ، وبعد قتال مرير استمر منذ المساء وحتى منتصف اليوم التالي ، تراجع اللاتين امام عزيمة ماريانوس ، وطلبوا منه الرحمة ، ومع هذا فإن الراهب اللاتيني المحارب لم يتوقف عن القتال على الرغم من اعداد ترتيبات الهدنة ، فبعد أن أفرغ جعبته من السهام ، التقط بعض الحجـارة ، وقذفها باتجاه ماريانوس ، الذي وقى رأسه بتـرسه ، لكن التـرس تحطم إلى أربع قطع ، وانشـطرت خـوذته ، وأصـابته الضربـة ، فسقط إلى الأرض فاقدا وعيه ، وظل فترة من الوقت صامتا لا يتكلم كما حدث لهكتور الشهير ، عندما أصيب بحجر اجاكس ، وبصعوبة بالغة تمكن من استرداد وعيه ، واستعاد قـوته ، فـأطلق عددا مـن الأسهم ضد عدوه ، فأصابه بثـلاث جـراحات ، ووجـد هـذا المقدم [ذلك انه كان أعلى مـن أن يكون مجـرد واحـد مـن الرهبان] نفسه أنه لم ينته من القتال ، على الرغم من أنه اسـتنفد الأسهم والحجارة وكل ما كان لديه ، فبات محتارا : مـاذا يفعـل ، و كيف يدافع عن نفسه ضد عدوه ؟و ازداد اضطرابا و غضبا ، فأعد نفسه للانقضاض مثل حيوان متوحش هائج ، و صار على استعداد لأن يستخدم كل ما تصل إليه يداه ، حتى أنه عندمـا صـدف سـلة مملوءة بالكعك المصنوع من الشعير ، أخذ يقذف بـالكعكات كمـا لو كن من الحجارة ، و كان يتناولهن و يرمي بهـن كمـا لو أنه كان في حفل ، أو أثناء تأديته للقداس ، محولا الحرب إلى نوع من الطقوس المقدسة ، و التقط احدى الكعكات و رماها ، بكل ما أوتي من قوة ، نحو وجه ماريانوس فـأصاب وجنتـه ، ودون اضـافة لمزيد مـن

التفاصيل حول هـذا الراهـب ، نخلص الى القـول ان السـفينة وبحارتها وكذلك الكونت رتشارد نفسه سلموا انفسـهم جميعـا الى ماريانوس ، وتبعوه بـكل رضى ، وعندمـا وصـلوا الى اليابسـة ، ونزلوا اليها ، استمر الراهب المذكور يبحث عن ماريانوس ، ذلك انه لم يعرف اسمه لكنه عرف صفته ، وقد نعتـه للون ثيابـه ، وعندمـا وجده أخيرا ، القى بسلاحه جانبا ، وضمه اليه وقال متبجحـا:« لو قابلني على اليابسة للاقى عدد كبير منكم حتفه على يدي» وتناول من وسط ثيابه كأسا كبيرا من الفضة يساوي مبلغ مائة وثلاثين قـطعة ذهبية ، وناوله لماريانوس ، وهو يتفوه بعباراته ، ثم سقط ميتا.

وعبر في تلك الأثناء الكونت غودفري ومعـه عدد مـن الكونتـات بصحبة جيش قوامه عشرة آلاف فـارس وسـبعين الفـا مـن الرجـالة ، ولدى وصـوله الى العـاصمة ضرب معسـكره في بربوتنس ، ما بين الجسر القريب من الكوسميدسيون (دير القدس كوسماس) وكنيسة القديس فوقاس ، لكن عندما حضه الامبراطور على التوجه حتى النهاية القصوى لبـروبوتنس ، تقـاعس وأجـل التنفيذ من يوم الى آخر ، وأخر عملية العبور بسلسلة مـن الأعذار المختلفة ، وفي الواقع كان غودفري ينتظر وصـول بـوهيموند وبقية الأمراء ، ومعروف أن بطرس الناسك كان قد قام في البداية بـرحلته الكبيرة للقتال عند القبر المقدس ، لكن الزعماء الآخرين ــ وخاصة بوهيموند ــ عاشوا على دغدغة أحـلام جشـعهم القـديمة ضـد الكسيوس ، وانتظروا الفرصة المناسبة للانتقام للنصر الرائع الذي ناله الامبراطور في لاريسا ، لقد عاشوا جميعا على أمـل واحـد في بلورة احلامهم بالسيطرة على القسطنطينية ، ولهذا تبنوا سـياسة عامة واحدة ، فأنا غالبا ما أشرت الى هذا وأوضحت بـأنهم كانوا يتظاهرون بأنهم على نية الحج ، ولكنهم في الحقيقة كانوا قد خططوا لخلع الكسيوس والاستيلاء على العاصمة ، و لكن لسوء حظهم كان الامبراطور يعرف خساسة طباعهم ومـا جبلوا عليه ، وذلك نتيجـة لطول التجربة ، ولهذا أصدر أوامره بتحريك القوات الاحتياطية كتلة

واحدة من أثيرا الى فيليا (فيليا موقع على شاطىء البحر الأسود) وكان عليها التربص حتى وصول رسل غودفري وهم في طريقهم الى بوهيموند وبقية الأمراء وحدث في نفس ذلك الوقت الحادث التالي: وجه الامبراطور الدعوة الى بعض الأمراء الذين كانوا برفقة غودفري لمقابلته ، وابتغى من وراء ذلك أن ينصحهم بأن يحرضوا غودفري على تقديم يمين الولاء للامبراطور ، واضاع الأمراء اللاتين - كما جرت عادتهم - الوقت كله بكلماتهم الجوفاء المعتادة ، وبولعهم بالقاء الخطابات الطويلة ، ولذلك انتشرت اشاعة كاذبة وراجت حتى وصلت الى الفرنجة ، و كان فحواها بأن الأمراء قد اعتقلهم الكسيوس ، لذلك ما لبثوا أن ثاروا واخذوا يزحفون في صفوف متتالية نحو القسطنطينية ، مبتدئين بالهجوم على القصور القريبة من البحيرة الفضية (١٥) ، فدمروها تدميرا كاملا ، ثم هاجموا اسوارها لكن ليس بالمنجنيقات - ذلك انه لم يكن لديهم هذا السلاح - إنما بكتلهم اعتقادا منهم انهم بأعدادهم الكبيرة يمكنهم اشعال النيران في البوابة التي دون القصر (١٦) على مقربة من مشهد القديس نيقولا (١٧) ولم يكن سواد العامة في بيزنطة وحدهم الذين تولاهم الهلع ، نظرا لعدم معرفتهم بفن الحرب ، ولهذا ضربوا صدورهم وانتحبوا عندما راوا صفوف اللاتين ، بل استولى الرعب حتى على الجماعات المقربة من الامبراطور والشديدة الاخلاص له ، متذكرين يوم الخميس الذي سبق وتم الاستيلاء به على المدينة (١٨) وكانوا يخشون أن يحل بهم في هذا اليوم الانتقام (١٩) (بسبب ما حدث لهم يومذاك) وتسارع جميع الجنود المدربين نحو القصر في فوضى ، لكن الامبراطور بقي هادئا: فلم يحاول التسلح ، أو حتى وضع درع على جسمه ، أو حمل ترس أو رمح بيده ، أو اشهار سيفه ، بل جلس بكل هدوء وثبات على العرش الامبراطوري ، ينظر اليهم بوجه مشرق ، مشجعا اياهم ، وباثا الروح العالية والطمأنينة في قلوبهم ، وكان الامبراطور في تلك الساعة مجتمعا مع أقربائه وكبار القادة للبحث والتشاور حول خطط المستقبل ، وقد أصر - بالدرجة الأولى - على أنه ينبغي ألا يغادر شرفات الأسوار لقتال اللاتين

مهما كان السبب ، بسبب سمة قداسة ذلك اليوم (كان يوم الخميس من الاسبوع المقدس ، أعظم الاسابيع قداسة في السنة حيث ذاق الرب فيه آلام الموت في سبيل خلاص العالم أجمع) وبالدرجة الثانية لأنه رغب في تجنب سفك الدماء بين المسيحيين ، وقام عدة مرات بارسال المبعوثين الى اللاتين ناصحا إياهم بالامتناع عن مثل هذه الأعمال قائلا لهم : « ابذلوا الاحترام لهذا اليوم ، فالرب ضحى بنفسه من أجلنا مزدريا كل من الصليب والمسامير والحربة كوسائل لعقاب مرتكبي الأثام ، لانقاذنا ، وإذا كان لا بد لكم من الحرب ، فنحن سنكون بدورنا جاهزين ، لكن بعد مرور يوم قيامة الرب » ، لكنهم كانوا أبعد من أن يصغوا لكلماته ، وبدلا من ذلك زادوا من تقوية صفوفهم ، وكانت رشقات سهامهم كثيفة الى حد أن واحدا من حاشية الامبراطور أصيب بصدره ، وعندما رأى بقية رجال الحاشية ذلك ، تحلقوا حول الامبراطور من جميع الجهات ، لكنه بقي جالسا غير مضطرب ، مهدئا لهم وموجها النقد اليهم بطريقة لطيفة ، ثم قام وسط دهشة الجميع ، عندما رأى المهاجمين اللاتين يقتربون من الأسوار ، ويرفضون النصائح المفيدة ، قام باتخاذ أول اجراء — للمرة الأولى — فاستدعى صهره نقفور (قيصري) وأمره أن ينتخب افضل المحاربين من الرماة المجربين ، ويمركزهم على شرفات السور ، وأن يقوموا جميعا برشقة جماعية من الأسهم نحو اللاتين ، إنما دون تسديد ، بل في الفراغ بغية اخافة الأعداء ، لكن مع تجنب القتل بأي ثمن ، ذلك أنه — كما سبق لي أن بينت — كان يخشى تدنيس ذلك اليوم ، ويرغب في منع الاقتتال الأخوي ، وأمر مجموعة من الرجال المنتخبين ، كان بعضهم يحمل القسي ، وبعضهم الأخر رماحا طويلة ، أمرهم بفتح بوابة القديس رومانوس ، وأن يندفعوا ببطء ، يتصف بالقوة والعزيمة والعنف ضد الأعداء ، وكان مع كل رماح ترسين ليتمكن من وقاية نفسه وحمايتها من على الجانبين ، وكان بامكانهم ، وهم في هذه التشكيلة ، أن يزحفوا بخطى تامة ، وأرسل الامبراطور أمام هؤلاء عددا من الرماة المهرة ، ليتولوا الرماية نحو العدو من مسافة

بعيدة ، وأن ينتقلوا يمنة ويسرة حسب ما يقتضيه الحال عندما تضيق المسافة في جانب من الجوانب ، بين الجيشين ، وكان بعد هذا على القادة أن يشيروا الى الرماة الذين كانوا برفقتهم ليقوموا برمايات كثيفة نحو الخيول وليس نحو الخيالة ، ثم الاندفاع بسرعة تامة ضد العدو ، وكانت الغاية من جهة واحدة تمزيق تجمع قوى الهجوم الفرنجي بعقر مطاياهم (حيث إنهم لن يجدوا من السهولة الركوب في تلك الحالة) ومن جانب آخر (وهذا أكثر أهمية) تجنب قتل المسيحين ، وروعيت تعليمات الامبراطور وطبقت بكل سرور: فتحت الأبواب على مصراعيها ، وأعدت الخيول ، وقيدت نحو العدو ، وتم قتل العديد من الفرنجة ، وقلة فقط من الروم هم الذين اصيبوا ـ ذلك اليوم ـ بجراح.

ولندع الآن هؤلاء ، ونعود الى سيدي القيصر ، حيث تركناه يقود رماته المجربين ، ويمركزهم على الأبراج ، حيث وجهوا من هناك رماياتهم ضد البرابرة ، وكان مع كل واحد منهم قوس صحيح بعيد المدى ، وكانوا جميعا من الشباب ، البارعين براعة تيسر Teucer بالرماية عند هومر « لم يشد وتر قوسه حتى يلامس صدره ، ليجر بعدها السهم ، حتى يكون رأسه المعدني قرب القوس (٢٠) ذلك أنه لم يكن يقوم بعرض للبراعة في الرمي حسب طرائق الصيادين ، بل قام ـ وكأنه هرقل جديد ـ برمي اسهم مميتة ـ من قوس غير ميت ، واصاب أهدافه حسبما أراد ، وكان في أوقات سابقة ، عندما شارك في مباراة للرماية ، أو في معركة ، لم يخطىء له سهم هدفه قط ، مهما كان الجزء ـ من جسم الانسان ـ المسدد نحوه ، فقد كان لا مندوحة من اصابته هناك ، وكان يقوم بشد وتر قوسه والرماية به بسرعة مذهلة ، الى حد أن تيسر والأجكسان ، لم يكونا معادلين له في الرماية ، ومع هذا كله ، وعلى الرغم من براعته بالرماية ، فإنه راعى ـ في تلك المناسبة - حرمة ذلك اليوم ، وتمسك بعرى تعاليم الامبراطور ، لذلك عندما كان يرى واحدا من الفرنجة ، يقترب من الأسوار بحماقة واضطراب ، حاميا نفسه بدرع وخوذة ، كان يفوق

سهمه ويشد وتر قوسه ، ويرمي نحوه ، لكن لا ليصيب الهدف ، بل لتأتي النبلة أمامه أو خلفه ، فمن أجل قداسة ذلك اليوم تمنع عن الرمي بشكل مباشر نحو اللاتين ، ومع ذلك فعندما كان واحدا من هؤلاء يصر في تعنته وحماقته ، ليس عن طريق الرماية على المدافعين الواقفين خلف الشرافات ، بل حتى بصب كميات كبيرة من الشتائم والسباب بلغته ، عندها قام القيصر بشد وتر قوسه « ولم يدع السهم يطير عبثا من بين يديه » بل ليخرق ، الدرع الطويل الذي حمله الفرنجي ، وليمر خارقا سابغته ، وبذلك كان يصيب سلاحه ويجرح جنبه ، وهكذا يجعله « يسقط بلا حراك » ــ كما يقول الشاعر (٢١) فتصعد اصوات الروم الى عنان السماء تحية وتشجيعا لقيصرهم ، ومثله يعلو عويل اللاتين باكين محاربهم المقتول ، وهكذا تجدد القتال بشدة ، وتحارب فرسانهم ورجالنا ــ على مقربة من الأسوار ــ بكل شجاعة ، وكان القتال ضاريا ومريرا على كلا الطرفين ، لكن عندما قذف الامبراطور بحرسه الى قلب المعركة ، انعطفت صفوف الفرنجة ، ولاذوا بالفرار ، وعليه قام هيوج في اليوم التالي بتوجيه النصيحة الى غودفري كيما ينصاع الى رغبات الامبراطور ، هذا إذا لم يكن يرغب أن يتعلم للمرة الثانية عن مدى خبرة الكسيوس وبراعته باعتباره قائدا حربيا ، لكن غودفري انتقده بشدة قائلا : « لقد تركت بلادك وانت ملك تمتلك الثروات ، وجيشا قويا ، وانحدرت الآن بنفسك من السمو الى درجة العبيد ، ثم تأتي الي بعد هذا وكأنك قد لاقيت نجاحا عظيما لتطلب مني أن افعل الشيء نفسه ، لقد كان علينا إذا أن نبقى في بلادنا ، ونحفظ أيدينا ونرفعها عن بقية الناس » واجابه هيوج « لكن اما وقد اتينا في بلادنا كل هذه المسافة ، نحن نحتاج الى حماية الامبراطور ، ولن نحصل على أية منافع ما لم نطع أوامره » ولم يجد هذا نفعا ، وطرد هيوج دون أن يحصل على شيء ، ولم تثمر جهوده ، ولهذا السبب ولحصول الامبراطور على معلومات مؤكدة ، فيها أن جميع الأمراء الفرنجة يتقدمهم غودفري قد اقتربوا من اسوار المدينة ، قام الكسيوس بارسال بعضا من خيرة ضباطه ، وبصحبة كل منهم قواته ، لتوجيه

النصائح اليهم مرة ثانية ، أو حتى للعمل على اجبارهم على عبور المضائق.

وما ان اصبح على مرأى من اللاتين ، حتى نهضوا من غير تردد ولو للحظة واحدة ، وحتى من غير التوقف لسؤالهم: ماذا يريدون ، وقاموا بالهجوم عليهم ، وشرعوا بقتالهم ، وسقط في القتال عدد كبير من القتلى بين الجانبين ، وفقدوا حياتهم في هذا الالتحام المرير ، واصيب جميع رجال الامبراطور ــ الذين قاتلوا بشجاعة ــ بالجراح ، ونظرا لشجاعة الروم ، وارتفاع معنوياتهم ، تراجع اللاتين ، وقرر غودفري تقديم الطاعة من غير تأخير ، فجاء الى حضرة الأمبراطور ، وأقسم يمينا أملي عليه ، فيه أنه ما من بلد ، أو موقع أو حصن ، سيكون في المستقبل من الممكن الاستيلاء عليه ، و كان من قبل يعود في ملكيته للأمبراطورية الرومية ، سيقوم بالتخلي عنه ، وتسليمه الى الضابط المنتدب من قبل الامبراطور خصيصا لهذه الغاية ، وتسلم غودفري ــ بعد اقسامه لليمين ــ هدايا سخية ، ودعي الى مجالسة الامبراطور ، حيث جرى الاحتفاء به في مأدبة رائعة ، ثم جاز عقب هذا الى بليكانوم ، واقام معسكره ، واصدر الامبراطور ، إثر ذلك تعليماته بتوفير كميات كبيرة من المؤن له ولرجاله.

ووصل في آثار غودفري الكونت راؤول ، (٢٢) وبرفقتة خمسة عشر الف من الخيالة والرجالة ، وعسكر مع الأمراء الذين كانوا برفقته في بربوتنس على مقربة من دير البطريرك (٢٣) ، بينما عسكر البقية على امتداد الساحل حتى سوزنيون ، وقد حذا حذو غودفري ، حيث توقف ينتظر وصول هؤلاء الذين كانوا قادمين بعده ، واستخدم الامبراطور ، الذي كان يخشى هذا (متوقعا ما يمكن أن يحدث) كل وسيلة مادية ونفسية ليجعلهم يسرعون الى عبور المضائق ، من ذلك على سبيل المثال ، انه استدعى اوبوس ــ الذي كان رجلا له اخلاق رفيعة ، وما من احد يفوقه في معلوماته العسكرية ــ ولما مثل في حضرة الامبراطور ، بعثه مع عدد

من الرجال الشجعان الى راؤول ، وكانت التعليمات الصادرة اليه واليهم ، العمل على اجبار الفرنجة على المغادرة الى الجانب الآسيوي ، وعندما وضح له أن راؤول ليست لديه النية في الذهاب ، بل اتخذ موقفا معاديا كله رعونة تجاه الامبراطور ، حمل سلاحه ، وصف رجاله وعبأهم للمعركة ، ربما لاخافة البرابرة ، ظنا منه بهذه الوسيلة يمكنه أن يقنعهم بالابحار ، لكن ردة فعل الفرنجي جاءت بالحال ، حيث تقبل ، مع رجالته المتوفرين ، التحدي « مثل الأسد الذي يبتهج عندما يجد صيدا كبيرا » واندلعت نيران معركة حامية الوطيس ، ووصل في تلك الساعة بيجاسيوس ، بواسطة البحر ، لنقل الفرنجة الى الطرف الآخر ، ولدى رؤيته القتال على الأرض ، وأن الفرنجة يرمون بأنفسهم دون مبالاة على صفوف الرومان ، نزل الى اليابسة ، واشترك في القتال ، فهاجم الأعداء من الخلف.

وسقط في هذا المعترك عدد كبير من القتلى ، لكن عدد الجرحى كان اكبر ، وسأل الناجون من الفرنجة ، وهم في الوضع الجديد ــ أن يتم نقلهم عبر المضائق ، ظانين أنهم إذا ما التحقوا بغودفري وأخبروه بتفاصيل ما حل من كوارث ، لربما يثيره ذلك ، لاتخاذ اجراء ما ضد الروم.

واستجاب الامبراطور ــ بكل تعقل لمطلبهم ــ ووضعهم ــ بكل سرور ــ على ظهر السفن ، ونقلهم الى الطريق نحو قبر المخلص ، سيما أنهم هم أنفسهم كانوا يريدون ذلك ، وأرسلت بعد ذلك رسائل ودية كلها أمان ووعود جميلة الى الأمراء الذين كانوا ما يزالون ينتظرون ، ونتيجة لذلك ، فإنهم عندما وصلوا الى القسطنطينية نفذوا بكل رضى تعليمات الامبراطور.

هذا ما كان من أمر الكونت راؤول ، فقد وصلت من بعده فرقة كبيرة جدا ، فيها حشود من الناس تفوق العد والحصر ، تجمعوا جميعا من جميع أراضي الفرنجة ، ومعهم قادتهم (من ملوك

وسوقات وكونتات وحتى أساقفة) ، وارسل الامبراطور رسلا من لدنه للترحيب بهم ، واتبعهم برسائل لطيفة ، وكان من عادة الكسيوس عدم اللجوء الى الطرق الماكرة ، وكان يعرف كيف يتمسك بنقاط التفوق أمام خصمه ، وجرى تعيين عدد من الضباط للقيام بمهام تلقي الحشود ، وأمروا بإعداد الميرة اللازمة للرحلة ، ذلك أنه من المتوجب الا يجد الحجاج سببا للشكوى ، مهما كان ، وتابع الحجاج في الوقت نفسه اندفاعهم بكل حماس ورغبة نحو العاصمة ، ويمكن للمرء أن يقارن تعدادهم بنجوم السماء أو بذرات الرمال على الشواطيء وكان عددهم في الحقيقة وهم مندفعون نحو القسطنطينية مثل « أوراق الربيع وزهوره » (٢٤) [كما قال هومر]

ومع رغبتي الشديدة في الاقدام على تسمية قادتهم ، فإنني أفضل عدم فعل ذلك ، لأن الكلمات تخونني بسبب عدم مقدرتي على التفوه بالأسماء البربرية – ذلك أنها غير موائمة لنا – ثم إنني أجد نفسي ارتجف أمام أعدادهم الكبيرة ، وعلى كل حال لا أجد سببا مسوغا يفرض علي تسجيل أسماء عدد هائل من الحشود ، لا سيما وأن معاصريهم أصبحوا الآن ينظرون إليهم بلا مبالاة .

وعندما وصل هؤلاء الأمراء أخيرا إلى العاصمة ، صفوا عساكرهم – قرب دير القديس كوسماس والقديس دامين وامتدوا حتى الهيرون ، واحتاج ضبطهم إلى تسعة من المنادين – حسب العادة الاغريقية القديمة عن طريق النداء ، وقد رافقهم عدد مناسب من الجنود الذين أقنعوهم باطاعة أوامر الامبراطور ، مع فكرة فرض القسم نفسه الذي أقسمه غودفري ، ودعا الامبراطور الأمراء إلى زيارته فرادى وتحدث معهم على انفراد ، حول رغبته ، واستخدم كل الوسائل المعقولة لاقناع المترددين ، وعندما رفضوا نصائحه – لأنهم كانوا ينتظرون بقلق عظيم قدوم بوهيموند – وابتدعوا طرائق غبية للتملص بتقديم المزيد من المطالب ، رفض بدوره اعتراضاتهم من غير أية صعوبات ، وضغط

عليهم بمائة وسيلة حتى أجبرهم على تأدية القسم ، وتمت دعوة غودفري نفسه للعبور من بيلكانوم ليشهد الاحتفال ، وعندما حضر الجميع ، بما فيهم غودفري ، وبعد أن أخذ اليمين على كل واحد من الأمراء ، تجرأ واحد من النبلاء [اللاتين] بالاقدام على الجلوس على عرش الامبراطور ، وتحمل الكسيوس هذا دون أن يتفوه ببنت شفة ، عارفا الطبع الرديء لجماعة اللاتين ، لكن كونت بلدوين توجه نحو الرجل وامسكه من يده وجعله يقوم ، ثم وجه إليه توبيخا شديدا ، وقرعه بقوله : « كان عليك الا تفعل شيئا من هذا القبيل أبدا ، خاصة بعدما اقسمت وتعهدت بأن تكون واحدا من اتباع الامبراطور ، إن الأباطرة الروم لايدعون رعاياهم يجلسون معهم ، وهذه هي العادات هنا ، وعلى الرجل الذي اقسم يمين التبعية لصاحب الجلالة الامبراطورية أن يراعي عادات البلاد » ، ولم يجب الرجل بلدوين بأي شيء لكنه نظر شزرا نحو الكسيوس ، وتمتم في نفسه ببعض الكلمات في لغته الخاصة قائلا : « أي فلاج هذا ، يجلس وحيدا ، بينما يقف قادة كبار مثل هؤلاء إلى جانبه » ، ورأى الكسيوس شفتاه تتحركان فاستدعى واحدا من المترجمين الذين يفهمون لغته ، وسأله عما قال ، وبعدما أخبره بمقولته لم يوجه أي تعليق للرجل في تلك اللحظة ، إنما ابقى التعليق في نفسه ، لكن عندما كانوا يقومون بتوديعه بعث خلف ذاك الرجل الأرعن المتعجرف ، وسأله من يكون ، ومن أين جاء ، وما هو نسبه ؟ فأجابه : « أنا فرنجي نقي ، وصاحب أصل نبيل ، وأعرف شيئا واحدا : هناك عند مفترق الطرق في البلاد التي ولدت بها ، معبد قديم (٢٥) يأتي اليه كل من يرغب بالدخول في مبارزة فردية ، فيستعد للقتال ، ويدعو الله ان يسعده ، ويمكث هناك ينتظر الرجل الذي يجرؤ أن يرد على تحديه ، عند مفترق الطرق هذا ، أمضيت وقتا طويلا انتظر بكل شوق الرجل الذي سيقدم للمبارزة ، لكن لم يأت أحد قط ، ولم يوجد من تجرأ على ذلك » ، ولدى سماع الامبراطور ذلك قال له : « إذا لم تحصل على من تقاتله انذاك ، بعد انتظار طويل ، فالآن لديك فرص ممتازة لأكثر من مبارزة ، لكنني أوصيك بكل شدة الا تتمركز في مؤخرة الجيش ، ولا في المقدمة ، ولكن اتخذ موقفك في قلب الجيش مع

المراتب الأدنى ، إنني عارف بطرائق الأعداء ، ولي تجارب طويلة مع التركمان ، ولم يوجه الامبراطور النصيحة له وحده ، لكنه أنذر الجميع لدى مغادرتهم إياه وحذرهم من المخاطر الكثيرة والمعقدة التي يمكن أن تواجههم أثناء الرحلة ، وأوصاهم بعدم مطاردة العدو بعيدا إذا ما منحوا النصر عليه ، خشية الوقوع في الكمائن التي ينصبها القادة التركمان ، فيكون نصيبهم القتل .

هذا ما كان بالنسبة لغودفري وراؤول ومن جاء معهما ، ووصل بعد هذا بوهيموند إلى ابروس مع بقية الأمراء ، عارفا نفسه أنه لم يكن من أصل نبيل ، ومن غير قوات عسكرية خاصة به من الأتباع ، لقلة موارده ، وكان يرغب في كسب رضى الامبراطور ، لكنه كان في الوقت نفسه يخفي مشاعره العدوانية ونواياه الخبيثة ضده ، وأسرع بوهيموند ، على رأس عشرة من الفرنجة بغية الوصول إلى العاصمة قبل وصول الآخرين ، وأدرك الكسيوس خططه ، ذلك أنه خبر منذ زمن مديد دسائس بوهيموند ، وطبيعته الخيانية ، ولذلك رغب بالحديث معه قبل وصول أتباعه ، لقد كان يريد أن يسمع ما يمكن أن يقوله بوهيموند دون أن يملك الفرصة لافساد البقية ـ ذلك أنهم لم يكونوا على مسافة بعيدة ـ وأمل في اقناعه بالعبور إلى آسيا .

وعندما مثل بوهيموند في حضرة الامبراطور ، باداه بمنحه ابتسامة وسأله عن رحلته ، وأين ترك بقية الأمراء ؟ و أجابه بوهيموند على أسئلته بكل صراحة ، وقدم له أحسن ما كان لديه من معلومات ، وذكره الامبراطور بكل لطف بأعماله الجريئة ضده في لاريسا ودراخيوم ، وبنشاطاته العدوانية السابقة ، فأجابه بوهيموند : « لقد كنت آنذاك عدوا ، لكنني قدمت الآن بمطلق حريتي وإرادتي لأكون صديقا لك يا صاحب الجلالة »، ثم تحدث الكسيوس معه أحاديث طويلة ، وبشكل جانبي لعله يكتشف مشاعر الرجل الحقيقية ، ولدى استخلاصه بأن بوهيموند على استعداد لأداء يمين الولاء قال له : « إنك الآن متعب من الرحلة ، اذهب واسترح ، وفي الغد يمكن أن نتباحث في القضايا ذات الاهتمام المشترك ، ومضى

- ٢٤٥١ -

بوهيموند إلى قصر كوسمديون حيث أعد له جناحا خاصا ، وهيئت لأجله مائدة عليها جميع أنواع الأطعمة اللذيذة ، وجاء الطباخون ، بعد وقت قصير ، بكمية من لحوم الحيوانات والطيور غير مطبوخة وخاطبوه بقولهم : « كما ترى لقد أعددنا الطعام حسب طرائقنا المعتادة ، و إن كان ذلك لايناسبك ، ها هنا لحم نيء يمكن أن يطهى تبعا للطريقة التي ترغب بها » ، وحين قال الطباخون ما قالوه وفعلوا ما فعلوه إنما كانوا ينفذون تعليمات الامبراطور ، فلقد كان الكسيوس ذكيا ، لديه قدرة الحكم على صفات أي رجل ، وكان يقرأ بعمق التفكير الداخلي له ، وكل ما كان يدور في خلده ، ولمعرفته بالجبلة الخبيثة لبوهيموند ، فقد كان محقا حين قدر ما يمكن أن يحدث ، وحتى لا يرتاب ، أمر بجلب اللحم النيء إليه ووضعه أمامه ، وكان هذا التصرف حركة بارعة جدا من قبله ، ذلك أن الفرنجي الماكر لم يكتف برفض تذوق أي جزء من الطعام ، واقدم على توزيعها بين خدمه ، دون أي اشارة إلى شكوكه الخفية ، بل بدا وكأنه يحسن إليهم ويصنع معهم معروفا ، لكن ذلك كان رياء اكثر منه حقيقة ، فإذا ما تفحص المرء هذه القضية بدقة ، يجده في الحقيقة قد قدم لهم كأس المنون ، ولم يكن هناك أية محاولة لتغطية عمله الخياني هذا ، فهو اعتاد على معاملة خدمه باللامبالاة التامة ، ومهما يكن الحال ، فقد أخبر طباخه الخاص أن يقوم باعداد اللحم غير المطهو حسب الطريقة الفرنجية المعتادة ، وسأل في اليوم التالي خدمه عن أحوالهم ، فأجابوه أنهم بخير ، وأضافوا أنهم لم يشعروا بأي ضرر من تناول ذلك الطعام ، ولدى سماعه هذه الكلمات ، أباح عن مكنون تخوفاته بقوله : « بالنسبة لي ، إنني عندما تذكرت الحروب التي خضتها ضد الامبراطور ، بغض النظر عن المعركة المشهورة التي حاربته بها ، كنت أخشى أن يعمل على قتلي بدس السم في طعامي » .

هذه هي أعمال بوهيموند ، ولا بد لي من القول : إنني لم أر في حياتي رجلا شريرا مثله ، حاد في جميع أعماله واقواله عن جادة الصواب ، تماما دون توسط أو اعتدال .

واستدعى الامبراطور بعد هذا بـوهيموند ، وطلب منه ، كما طلب من الآخرين ، أن يقسم يمين الولاء اللاتيني المعتـاد ، وادراكا مـن بوهيموند لحقيقة وضعه الخاص استجاب بـكل سرور ، ذلك انه لم يكن رجلا نبيل المحتد ، كما انه لم يكن عظيم الثراء ، فقواته لم تكن كبيرة العدد ، بل حوت عددا ضـئيلا مـن الفـرنجة ، ومهمـا يكن الحال ، فإن بـوهيموند كان في طـبيعتـه مخـادعا كذابـا ، وكان الامبراطور الكسيوس قد أمر بعد انتهاء الاحتفال ، بغرفة من غرف القصر ، محددة الأطراف ، ففـرشت بجميع أنواع الأشـياء الثمينة والذخائر من : ملابس ، وذهب ، وفضة ، ونقود ، وأشياء أخـرى كلها ذات قيمة كبيرة ، وقد بعثرت هذه الأشياء في الغرفة ، فمـلأت المكان وغطته تماما ، إلى حد انه كان من المحال على اي انسـان أن يمشي بها ، وأمر الامبراطور رجلا انابه عنه أن يري بوهيموند هـذه الذخائر ، وطلب منه أن يفتح أبواب الغرفة بصورة مفاجئة ، ولقـد تولت بوهيموند الدهشة ، وصعق لدى رؤيته لهذا المشهد ، فقال على الفور : « لوانني امتلكت مثل هذه الثـروات لتمـكنت مـن أن أغدو سيدا لكثير من البلدان » ، فأجابه الرجل : « كل هذا هو اليوم لك ، وهو هدية مقدمة من الامبراطور ، وطار بوهيموند فرحا لدى سماعه ذلك ، وقام بعدما أبدى تقبله لهديته ، وتقديمه شكره بمغادرة المكان والذهاب إلى مأواه لينال قسطا من الراحة ، ومع هـذا فإنه عندمـا حملت هذه الأشياء إليه ، ورغم ما سبق له وأبـداه مـن اعجـاب ، تظاهر بتغيير رأيه ، فخـاطب الخـادم الذي حمـل إليه الأشـياء بقوله : « لم اكن اظن انه ستوجه إلي إهانة مثـل هـذه مـن قبـل الامبراطور ، خذهم بعيدا وأعدهم إلى مرسلهم » ، وكان الكسيوس معتادا على تصرفات اللاتين ، عارفـا بـأخلاقهم لهـذا ردد القـول الدارج : « يكدح هو يكدح على رأسه » ، وسـمع بـوهيموند هـذا القول ، ولهذا عندما شاهد الخدم يعدون ويشرعون بجمـع الهـدايا بكل عناية لاعادتهم ، غير رأيه مجددا ، وعوضا عن أن يرسلهم وهو مغضب ، ابتسم لهم ، وتصرف كالحرباء التي تغير لونها كل لحظة ، وفي الحقيقة كان بوهيموند منافقا سريع التراجع حسب الظـروف ، وقد فاق جميع اللاتين الذين مروا بالقسطنطينية في ذلك الحين خداعا

وشجاعة ووقاحة ، وكان في الوقت نفسه والحال أقلهم ثروة ، وأضعفهم مواردا ، ومع ذلك كان أعظمهم في صنع المساوىء والشرور ، وبالنسبة لسرعة التغير ، فقد فعل ذلك بشكل الي ، وهذه عادة جميع اللاتين ، لذلك لم يكن امرا غريبا او مدهشا أنه سر سرورا بالغا بأخذه الأموال التي سبق له أن رفض تسلمها ، فهو عندما غادر بلاده كان رجلا مفلسا ليس لديه أية أملاك مطلقا ، وقد تظاهر آنذاك بأنه ذاهب للتعبد عند القبر المقدس ، لكنه كان في الحقيقة يبتغي أن ينال السلطة لنفسه ـ أو بالحري الاستيلاء على الامبراطورية الرومية ، إذا كان ذلك ممكنا ـ كما اراد ابوه واستهدف من قبل ، فهو ـ كما يقال ـ كان على استعداد لأن يفعل أي شيء ، لكن ذلك احتاج منه اموالا كثيرة ، وكان الامبراطور يعرف طباعه ونفسيته التي لا تعرف الرضى ولا الاستقرار ، ويعرف مكره ، ولهذا عمل ببراعة على ابعاده عن كل شيء يمكن أن يساعده على تنفيذ مأربه ، ولهذه الأسباب حدث انه عندما طلب بوهيموند أن تتم تسميته لمنصب « دمستق الشرق » لم يكتف الامبراطور برفض طلبه هذا ، بل لم يبد حتى استعداده لسماع ذلك ، ذلك ان الكسيوس كان يخشى أنه ما أن يملك بوهيموند السلطة حتى يقدم على استخدامها لاخضاع بقية الأمراء لسلطانه ، وجعلهم يتبعون السياسة التي يختارها ، وفي الوقت نفسه ، وحتى لا يظن بوهيموند بأن خططه مكشوفة ، وعده الامبراطور ومناه بأمان فارغة قائلا : « لم يحن الوقت بعد لمثل هذا ، لكن مع نشاطك واخلاصك لن تنتظر طويلا حتى تنال الشرف » .

وبعدما تحدث الامبراطور طويلا مع قادة الفرنجة ، مبديا لهم مشاعر الود والصداقة ، عن طريق الهدايا والخلع ، جلس في اليوم التالي على عرشه الامبراطوري ، وبعث فاستدعى بوهموند وبقية الأمراء ، وحذرهم من الأشياء التي يمكن أن تواجههم أثناء رحلتهم ، وقدم لهم نصائح جمة ، وأعطاهم تعليمات حول الطرائق التي جرت عادات التركمان على استخدامها أثناء القتال ، وعلمهم كيف يصفون صفوفهم ويعبؤونها للمعركة ، وكيف ينصبون

الكمائن ، ونصحهم بعدم مطاردة الأعداء بعيدا عندما يفرون ، وقد استطاع الامبراطور باعتماده لهذه الوسائل من مال ونصائح أن يلين من حدة طباعهم ، ثم اقترح عليهم أن يقوموا بعبور المضائق .

وابدى الامبراطور المزيد من الاهتمام والعاطفة تجاه واحد من قائد الفرنجة ، وهو ريموند كونت سان جيل (٢٦) (صنجيل) وذلك لعدة اسباب ، منها انه كان عالي الثقافة ، وله سمعة ممتازة ، وحياة نقية ، ثم لمعرفة الامبراطور الواضحة للمدى الواسع الذي قـ٠ ريموند به الصدق ، فقد كان في جميع الظروف والأحوال يحترم الصدق ، ويقدره فوق كل شيء آخر ، وفي الحقيقة بز صنجيل جميع اللاتين ، وفاقهم بجميع الصفات ، وكان بالنسبة لهم كالشمس بالنسبة للنجوم ، ولهذا احتفظ به ألكسيوس بعض الوقت ، وهكذا كان بعدما ودعه الآخرون ، وشرعوا برحلتهم بعبور المضايق إلى دا ماليون (٢٧) وعندما وجد نفسه وقد تحررت من مضايقات وجودهم بعث يستدعيه في عدة مناسبات وأوضح له بشكل اكثر تفصيلا لون المخاطر التي على الفرنجة توقعها أثناء زحفهم ، وبين له بكل وضوح شكوكه حول خططهم ، وفتح أثناء هذه المحادثات ، حول هذا الموضوع ، قلبه للكونت ، وأطلعه على خبيئة نفسه ، وحذره دائما وأبدا من بوهيموند ، وطلب منه أن يبقى يقظا تجاه أضاليله حتى إذا ما حاول أن يخرق المعاهدة يمكنه تعويقه وتعطيل خططه ، وأوضح صنجيل بدوره أن بوهيموند قد ورث المكر والخداع عن ابائه ــ وذلك كله نوع من الوراثة ــ وقال : « إنه سيكون نمطا من المعجزات إذا احتفظ بوهيموند بأيمانه ، أما بالنسبة لي فإنني سأبذل جهدي وافعل كل ما يمكنني فعله لمراعاة أوامرك » ، وقام بعد هذا بتوديع الامبراطور ، وذهب بغية الالتحاق ببقية جيوش الفرنجة (٢٨) .

وكان الكسيوس يرغب بدوره في المشاركة أيضا في الحملة ضد البرابرة ، لكنه خشي من الأعداد الهائلة للفرنجة ، ورأى انه من الحكمة أن ينتقل إلى بيليكانيوم ، ليقيم مركز قيادته الدائم على مقربة من نيقية (٢٩) حيث يمكنه الحصول على معلومات متواترة بلا

انقطاع حول مسيرة زحف الفرنجة وفي الوقت نفسه حول نشاط التركمان خارج هذه المدينة [نيقية] و حول أوضاع السكان و أحوالهم في داخلها ، و رأى أنه من العار بالنسبة له إذا لم ينل – في هذه الظروف – بعض النجاحات العسكرية ، و ذلك عندما تحين الفرصة ، و خطط للاستيلاء على نيقية بنفسه ، وكان يفضل أن يتم ذلك بتسلمها من الفرنجة(تبعا لشروط الاتفاقية التي أبرمت معهم) ، و قد احتفظ الامبراطور بهذه النية لنفسه ، و كان ذلك معروفا من قبله فقط في جميع الأحوال و الأوضاع و مهما كانت الاسباب ، كل هذا على الرغم من انه عهد بهذه المهمة الى بوتومايتز (موضع ثقته الوحيد) وقد أوعز إلى بوتومايتز بأن يعمل على استمالة البرابرة في نيقية إليه ، بمختلف الوعود والمواثيق بتأمينهم على انفسهم ، وبإعلامهم أنه ليس أمامهم سوى هذا المخرج ، أو التعرض للتشتت أو حتى للهلاك والقتل – إذا ما تسلم الفرنجة المدينة – وكان الامبراطور واثقا تمام الثقة باخلاص بوتومايتز ، وكان يعرف أنه في مثل هذه الحالات سيبذل جميع جهوده .

إن تاريخ الوقائع التالية سيتم عرضه بشكل متسلسل منذ البداية .

والتقى بوهموند ببقية الأمراء وتجمعوا في مكان واحد عزموا على الابحار منه الى كيبوتوز ، وانتظروا جميعا ومعهم غودفري وصول صنجيل ، الذي كان قادما بصحبة الامبراطور ، وتقرر الآن ، وقد اتحدت قواهم جميعا ، اخذ الطريق نحو نيقية ، وكانت أعدادهم كبيرة جدا ، لذلك تعذر الانتظار مدة أطول لنقص المؤن ، ولهذا وزعوا جيوشهم الى قسمين : قسم زحف عبر بيثينيا ونيقوميديا نحو نيقية ، وعبر القسم الآخر المضيق الى كيبوتوز ، وتجمعوا في تلك البقعة فيما بعد ، ولما وصلوا الى نيقية على هذا الشكل ، انقسموا الى مجموعات ، عهد الى كل منها بالزحف والدخول بالقتال ، وقامت الفكرة على أساس الهجوم على الأسوار حسب هذه المجموعات بالتناوب ، ذلك أن التنافس بين الفرق

المختلفة سيكون كبيرا ، وسيباشر الحصار بشدة أكبر ونشاط اعظم ، وتركت البقعة التي جعلت من نصيب صنجيل خاوية حتى ساعة وصوله .

ووصل في تلك الأثناء الامبراطور الى بيليكاتوم ، وعينه على نيقية (كما سبق لي وأوضحت) وبعث البرابرة – في الوقت نفسه – من داخل المدينة بالرسائل المتوالية الى السلطان (٣٠) يسألونه النجدة ، لكنه ظل حيث هو يضيع الوقت ، ومضى الحصار ، واستمر لأيام عديدة ، وامتد من شروق الشمس حتى مغيبها ، وصارت احوال (التركمان) قاسية جدا ، وتوقفوا عن القتال ، وقرروا انه خيرا لهم الاتفاق مع الامبراطور من الوقوع بيد الفرنجة ، وفي ضوء هذه الأوضاع ، استدعوا اليهم بوتومايتز ، الذي وعدهم ، عبر سيل غير منقطع من الرسائل بأن هذا الشرط او ذاك الأمان المرغوب به ، سيمنحهم اياه الامبراطور اذا ما وافقوا على التسليم له دون سواه ، كما أفصح لهم الآن بتفاصيل اكبر عن نوايا الامبراطور الطيبة تجاههم ، وقدم لهم عهدا مكتوبا ، ولهذا استقبل اثر هذا من قبل التركمان استقبالا طيبا ، ذلك انهم كانوا في حالة قنوط في وقفتهم ضد قوة عدوهم الطاغية ، ورأوا من الحكمة ان يتنازلوا طواعية للامبراطور اليكسيوس ، وينالوا منحه وهداياه بمعاملة مشرفة ، من ان يصبحوا ضحايا للحرب من غير هدف ، ولم يمض يومان على وجود بوتومايتز في ذلك المكان ، حتى وصل صنجيل عازما على الهجوم على الأسوار من غير تأخير ، وكان لديه معدات للحصار جاهزة لانجاز المهمة ، وانتشرت في الوقت نفسه العزيمة والشجاعة والأمل في نفوس التركمان ثانية ، فأقدموا في الحال على طرد بوتومايتز .

أما مايتعلق بالسلطان فانه بعث بقسم من قواته لتراقب هجوم الفرنجة مع أوامر بقتالهم عند التقائهم بهم ، وجرت مشاهدتهم عن بعد من قبل رجال صنجيل ، وحدث اشتباك لكنه جاء سيء النتائج بالنسبة للتركمان ، وذلك ان بقية الأمراء مع بوهموند قام كل منهم

لدى سماعه بخبر الاشتباك باختبار مائتين مــن رجــاله ، وبعثهــم للانجاد ، وقد شكل هؤلاء جيشا معتبرا ، وفــاجأ هؤلاء البــرابرة وطاردوهم حتى حلول الظلام ، وكان السلطان بعيدا عن مسرح هذه الانتكاسة ، ومع هذا فعندما جاء صباح اليوم التالي كان على تعبئة كاملة هو وجميع اتبــاعه في المنبســـط الكائن خــارج أســوار نيقية ، وسمع الفرنجة بهــذا ، فحملوا أســلحتهم وانقضــوا على أعدائهم مثل الأسود ، وحدث قتال عنيف ومرير ، ومع أن القتال لم يكن حاسما بالنسبة لأحد الطرفين ، الا ان التركمان لانوا بــالفرار مع غياب الشمس ، وبهذا انهى حلول الظلام القتال وسقط العــديد من القتلى بين الطرفين ، واصيب معظم المقاتلين بالجراح ، وهكذا ربح الفرنجة نصرا رائعا ، وحمل الفــرنجة عددا كبيرا مــن رؤوس التركمان على أسنة رماحهم ، وعادوا بها وكأنهــا رايات محمــولة فوق رؤوسهم ، حتى يراها البرابرة عن بعد ، بعــد مــا شــاهدوا ماحدث ، وبذلك يحل الهلع في قلوبهم ، وتقــل رغبتهــم في متــابعة القتال .

هذا ماكان بالنسبة لأفكار الفــرنجة وأعمــالهم ، ولقــد لاحــظ السلطان مدى عدد الفرنجة الكبير ، وأدرك بعد هذا الاشتباك مــدى ثقتهم بأنفسهم وشجاعتهم ، لذلك اخبر التركمان داخل نيقية وقــال لهم : « اعملوا منذ الآن وصاعدا ماترونه مناسبا » ، وكان يعــرف مسبقا بأنهم كانوا يفضلون تســليم المدينة الى الكســيوس مــن أن يقعوا أسرى في قبضة الفرنجة .

وفي هذه الأثناء كان صنجيل يقوم بالعمل على انجاز المهمة التــي عهدت اليه ، فشرع ببناء برج خشبي مستدير الشــكل مغــطى مــن داخله وخــارجه بجلود الأبقــار ، ومملوء في وســـطه بــالمرات المتعرجة ، وعندما انتهى من تشـــييده قـــربه مـــن بـــرج غونتاز (٣١) ، وملأ برجه المتحرك هذا بــالعساكر الذين كان عليهــم فتح ثلمة في السور ، ووضع فيه ايضا عددا من الاختصاصيين بفتح الأنفاق ، وكان معهم ادوات فولاذية للعمــل على لغــم الســور مــن

الأسفل ، ففي الوقت الذي كان يشتبك فيه الجند الذين في الطبقة العليا من البرج الخشبي مع المدافعين على شرفات السور ، كان الذين في أسفل البرج الخشبي يعملون على اقتلاع حجارة السور ، وكانوا كلما اقتلعوا حجرة وضعوا مكانها عارضة من الخشب ، وجرت العادة ان يستمروا في عملهم هذا حتى اذا شعروا بأنهم خرقوا السور ، وذلك بمشاهدة شعاع من النور من الجانب الآخر ، فهنا كانوا يلقون النار بين الأخشاب المحشوة ويحرقونها ، والذي حدث أنهم بعدما أحرقوا الأخشاب بقي برج غونتاز أكثر تماسكا من ذي قبل ، محافظا بصموده هذا على شرف بانيه وسمعته اكثر من ذي قبل .

وكانت بقية أجزاء السور انذاك محاطة بطوق من كباش الخرق والدبابات ففي مثل لمح البرق ــ كما يقال ــ كان الخندق الخارجي مردوما ، وقد ملىء بالتراب وصار مستويا على الطرفين ، وبذلك تمكنوا من متابعة الحصار على خير مايرام .

وحكم الامبراطور الذي اتيح له تفحص نيقية فحصا دقيقا في مناسبات عدة ، حكم بأنه من غير الممكن الاستيلاء عليها من قبل اللاتين ، مهما كانت اعدادهم كبيرة وقواهم طاغية ، وقام من جانبه ببناء عدد من الآلات الواقية بأشكال عدة ، غير معروفة أو معتادة ، قام هو بتصميمها ، مما أدهش كل انسان ، وبعث بهذه الآلات الواقية الى امراء الفرنجة ، فهو كما سلفت الاشارة كان قد اجتاز المضايق مع قواته المتوفرة ، وكان معسكرا في بيليكانون على مقربة من ميسامبيلوي ، حيث بني في الأيام الخوالي معبد كرس على اسم « جورج » الشهيد الكبير .

وكان لدى الكسيوس الرغبة في الذهاب برفقة الحملة ضد التركمان الكفار ، لكنه اقلع عن المشروع بعدما ناقش الموضوع وتمعن به ، ووازن بين الفوائد والمضار : فقد لاحظ ان الجيش الروماني لاحول له ولاطول ، صغير العدد بالمقارنة مع التعداد

الهائل لحشود الفرنجة ، وكان يعرف من طـول التجـربة كيف انه لايمكن الوثوق بالفرنجة ، لأنهـم كانوا جميعـا رجـالا لايعـرفون الاستقرار ، الخيانة طبـع لهـم وتتقـاذفهم هنا وهناك مثـل تيار يوربيوس (٣٢) من غاية الى غاية أخرى ، ولحبهم للمال وجشـعهم كانوا دائما على استعداد لبيع زوجاتهم واطفالهم حتى أخرهم .

ان هذه النوعية من الأسباب هي التي منعتـه مـن المشـاركة في الحملة ، ومع هـذا وعلى الرغم مـن انه وجـد أن حضـوره ليس مناسبا ، فانه قدم كل مايمكن من المساعدات للفرنجة ، كمـا لو انه كان معهم فعلا ، وجعلت متانة أسوار نيقية الامبـراطور يتـأكد أن المدينة لايمـكن قهـرها ، وأن اللاتين لايمـكنهم الاسـتيلاء عليها ، ولدى سماعه بتقارير فيها ان السلطان كان يقـوم بـادخال قوات كبيرة الى المدينة ، مـع امـدادات الأطعمـة عبـر البحيرة (٣٣) ، من غير أية صعوبات ، وأن حـركة الذهـاب والاياب الى المدينة مستمرة ، قرر السيطرة على البحيرة والتحكم بهـا ، فـأمر ببناء قوارب خفيفة قادرة على العـوم فـوق مـائها ، وحملت هـذه القوارب على ناقلات ، ثم القيت في اليم من جانب كيوس ، وشحنت بالجند بكامل اسلحتهم تحت إمرة مانويل بـوتومايتز ، واعطـاهم عددا من الرايات اكبر من المعتاد كي يبدوا من بعد وكأنهم اكثر عددا مما هم عليه حقيقة ، وهذا مافعله ايضـا بـالنسبة لأعداد الأبـواق والطبول .

ثم صرف بعد هذا اهتمامه نحو البر فبعث بـكل مـن تـاسيوس وزخاس (٣٤) مع قوة مقدارها الفان من الرمـاة ، ووجههـم نحـو نيقية ، وكانت الأوامر الصادرة اليهما جمع كل مالديهما من نشاب وحمله على ظهور البغال ليقوموا بـالاستيلاء على حصـن القـديس جورج ، وكان على العسـاكر ان يتـرجلوا مـن على خيولهـم على مسافة مناسبة من أسوار نيقية ، ثم الزحف على أقدامهم نحو برج غولتاز ليتخذوا مواقعهم هناك ، و ينضمـوا بعـد ذلك الى صـفوف اللاتين و العمل تحت أوامرهم في الهجوم على الأسوار .

ونفذ تاسيتوس الأوامر ، واخبر الفرنجة بوصوله مع جيشه ، حيث لبس كل واحد منهم درعه ، وهجموا واصواتهم مرتفعة تردد شعارات القتال ، واطلق رجال تاسيتوس رشقات غزيرة من النشاب نحو الأسوار ، بينما تابع الفرنجة العمل لفتح ثلمة في الأسوار ، واستمروا في قذفها بالحجارة من مناجيقهم .

وأصيب العدو بالهلع لدى رؤيته الأعلام الامبراطورية والأبواق ، التي كانت مع بوتومايتز الذي اختار تلك اللحظة لاخبار التركمان بوعود الامبراطور ، وضاق الحال بالبرابرة الى حد أنهم لم يعودوا يتجرؤون على النظر الخاطف من أعالي نيقية ، وفقدوا جميع الآمال بوصول السلطان ، لذلك قرروا أنه من الأفضل تسليم المدينة ، والشروع بالمفاوضات من أجل ذلك مع بوتومايتز وقام بوتومايتز ، بعد تقديم التحيات المعتادة ، باطلاعهم على صك الأمان الذي حمله اياه الكسيوس حيث لم يمنحوا فيه بوعد الأمان على أرواحهم والعفو عنهم فحسب ، بل بجوائز مجزية واعطيات سخية من المال ، وبمعاملة مشرفة لكل من اخت السلطان وزوجته (٣٥) ، وكانت هذه الوعود والاعطيات ستمنح الى جميع البرابرة في نيقية من غير استثناء.

وبناء على وثوق أهل المدينة بوعود الامبراطور ، سمحوا لبوتومايتز بالدخول اليها ، وما ان فعل ذلك حتى بعث برسالة الى تاسيتوس يقول فيها : « الفريسة هي الآن بأيدينا ، ينبغي الاعداد لتسلق الأسوار ، ويجب اشراك الفرنجة بهذه المهمة ايضا ، لكن لاتدع لهم شيئا سوى القتال حول الشرافات ، طوق المدينة من جميع الجهات حسب الضرورة ، وابدأ عملك مع شروق الشمس » .

وكان هذا في الحقيقة نوعا من التمويه والخداع ، لجعل الفرنجة يعتقدون بأن المدينة قد سقطت الى بوتومايتز من خلال أعمال القتال ، وكانت عملية الخداع المثيرة هذه ، التى خطط لها الكسيوس بكل عناية ، تحتاج الى تغطية وستر ، وكانت رغباته

- ٢٤٦١ -
تقضي بألا يعلم الفرنجة بأمر المباحاثات التي كان يجريها

بوتومايتز ، ومع اشراقة شمس صباح اليوم التالي ، دوى نفير المعركة من الجانبين من خارج المدينة حيث الفرنجة الذين اندفعوا بشدة في عملية الحصار ، ومن داخل المدينة حيث الفرنجة الذين اندفعوا بشدة في عملية الحصار، ومن داخل المدينة حيث بوتومايتز ، وقد ارتقى أعالي السور ، ووضع هناك الصولجان والعلم الامبراطوريين ، وأعلن سقوط المدينة بواسطة البوق والنفير ، ودخلت القوات الرومانية ـ بهذه الوسيلة ـ جميعها الى نيقية ، ومع هذا ، وبناء على المعرفة التامة بقوة الفرنجة الكبيرة ، وبطباعهم القاسية وسرعة اثارتهم وتقلبهم ، فقد قدر بوتومايتز انه قد يتيسر لهم الاستيلاء على الحصن اذا ماحصلوا في داخل المدينة ، يضاف الى هذا ان رجال الحامية التركمانية كانوا قادرين ـ اذا مارغبوا ـ على تقييد رجال قواته بالسلاسل وقتلهم ، ذلك ان اعدادهم ، بالمقارنة مع أعداد الرومان ، كانت اكبر بكثير ، لهذا سارع فاستحوذ على مفاتيح باب المدينة الوحيد ، فقد وجد أنذاك باب واحد مفتوح لدخول الناس وخروجهم ، وكانت بقية الأبواب مغلقة خشية من الفرنجة الذين كانوا وراء الأسوار ، والآن وقد تملك مقاليد هذا الباب الوحيد ، قرر على الفور انقاص تعداد قادة الحامية التركمانية ، في سبيل تجنب وقوع كارثة كبرى ، لذلك استدعاهم اليه ، واشار عليهم بزيارة الامبراطور ، وذلك اذا كانوا يرغبون بتسلم كميات كبيرة من المال منه ، وأن يخلع عليهم ، وأن تسجل اسماؤهم في قائمة الأعطيات السنوية .

واقتنع التركمان بهذا ، وفتحت البوابة في الليل ، واندفعوا منها جماعات جماعات مابين كل جماعة وأخرى بعض الوقت ، ليأخذوا عبر البحيرة المجاورة الى رودمير (البلغاري ـ ابن خالي) والى قوة موناستراس ـ النصف بيزنطي ـ التي كانت متمركزة في حصن القديس جورج ، وقضت أوامر بوتومايتز بأن يتم توجيه

القادة التركمان مباشرة نحو الامبراطور ، فور وصـــولهم و دون أي تأخير خشية أن يجتمع تركمان مجموعة مـــامع تـــركمان مجمـــوعة اخرى ثم سواها ممن جـــاء بعـــدها ، فيتآمـــروا لالحـــاق ضرر بالروم ، ولاشك ان هذا التدبير الحكيم ، يعـــود الى طـــول خبـــرة الرجل ، فما دام القادمون الجدد يرسلون فورا الى الكســـيوس كان الروم في امان ، وليسوا معرضين لأي خطر مهمـــا كان نوعه ، لكن عندما تغاضى رودمير ، وتقاعس موناستراس ، وتغافلا تعرض كل منهما للمخاطر من البرابرة الذين ابقوهم لديهم ، فلدى ازدياد تعداد التركمان خططوا للقيام بأحد عملين: إما مهاجمة الروم وقتلهم ، أو اخذهم اسرى ، وحملهم الى الســـلطان ، وهـــذا مـــا اتفقـــوا عليه بصورة جماعية ، وأن هذه هي الفكرة الأكثر صوابا ، فهـــاجموهم ليلا ، واخذوهم اسرى ، واتجهوا بهم نحو قمة تل يدعى تـــل ازالا (٣٦) على بعد ثلاثمائة ذراع من اســـوار نيقية ، وعندمـــا وجـــدوا انفسهم قد وصلوا الى هناك ، ترجلوا لاراحـــة خيولهـــم ، ولما كان موناستراس نصف بيزنطـــي ، ويفهـــم لغـــة التـــركمان ، وكذلك رودمير ، فقد سبق له أن وقـــع اســـيرا بيد التـــركمان منذ زمـــن طويل ، لذلك لم يكن غريبا على اللغة التركية ، وقد حاولا بـــكل مـــا أوتيا من قوة أن يقنعا أسريهم بـــالمحاججة قـــائلين: لماذا تـــريدون ســـقينا كأس الحمـــام ، دون أن تنالوا مـــن ذلك اية فـــائدة لأنفسكم ، وذلك في الوقت الذي يتمتع فيه الآخرون جميعا مـــن غير تمييز ، بالجوائز العظيمة من الامبراطور ، وسجلت اســـماؤهم في قائمة الأعطيات السنوية ، انتم ستحرمون انفسكم من جميع هـــذه الفوائد والمزايا ، فكروا الآن بالأمر ولا تكونوا حمقى ، خاصة وانه بإمكانكم أن تعيشوا بأمان مـــن غير أن يتـــدخل احـــد بشـــؤون حياتكم ، وأن تعودوا الى أوطانكم مثقلين بالثروات ، كما يمـــكنكم استحواذ أراضي جديدة ، لاتلقوا بأنفسكم بمثل هذه المخاطر المؤكدة فلربما ستواجهون الروم في مكامنهم هناك ـ مشيرين الى الجداول الهابطة من الجبال ، ومنطقة المستنقعات ـ وإذا كنتـــم تـــودون أن تقتلوا أنفسكم ، وتفقدوا حياتكم مقـــابل لا شيء ، فهناك الاف مـــن

الرجال ينتظرونكم ، ليس من الفرنجة والبرابرة فحسب ، بل من حشود الروم .

والآن إذا وددتم سماع نصيحتنا ، أديروا رؤوس خيولكم ، وتعالوا معنا الى الامبراطور ، ونحن نقسم بالله ، والله على ما نقول شهيد ، ستنالون جوائز لا عد لها ولا حصر من بين يديه ، ثم عندما تريدون مغادرته ، يمكنكم ذلك في أي وقت ، دون أن يعيقكم عائق ، فأنتم رجال احرار ، واقنعت هذه الحجج التركمان ، وتم تبادل الايمان والعهود بين الطرفين ، حيث انطلقا نحو الكسيوس ولدى وصولهم الى بيليكانوم ، استقبلوا جميعا بابتسامة مشرقة (مع أنه كان — في الحقيقة غاضبا على رودمير ومونا‌ستراس) ، وأرسلا ساعتئذ للراحة ، وفي اليوم التالي ، تسلم جميع التركمان — الذين رغبوا في العمل في خدمته — أعطيات كثيرة ، وأما الذين رغبوا باالالتحاق بأوطانهم ، فقد تركوا ورغباتهم ، وهم أيضا لم يسافروا بجوائز قليلة ، وانتقد فيما بعد الكسيوس بشكل حاد كل من رودمير وموناستراس لغفلتها ، لكنه عندما لاحظ مقدار خجلهما ، غير موقفه نحوهما ، واظهر عفوه ببعض كلمات الارضاء والمصالحة.

ولنعد الآن الى بوتومايتز ، فقد رقاه الامبراطور وعينه دوقا على نيقية ، وبعدما فعل ذلك ، سأله الفرنجة أن يأذن لهم بالدخول الى المدينة ، ذلك أنهم رغبوا بزيارة الكنائس المقدسة هناك ، والتعبد بها ، وكان بوتومايتز — كما أشرت من قبل — يلم تمام الالمام بأحوال الفرنجة ، ويدرك أوضاعهم ، لذلك رفض السماح لهم بالزيارة جميعا دفعة واحدة ،و اكتفى بفتح الباب والسماح بالزيارة لجماعات يتألف كل منها من عشرة.

وكان الامبراطور ما يزال في أحواز بيليكانيوم ، كما كان يود أن يقوم الأمراء الذين لم يؤدوا قسم الولاء له بعد ، بتأدية ذلك شخصيا ، وكتب تعليماته حول ذلك و بعث بها الى بوتومايتز لينصح

الأمراء بعدم السفر نحو أنطاكية قبل تقديم الولاء للامبراطور ، وأن ذلك سيكون فرصة لتلقي هدايا أعظم ، ولدى السماع باسم المال والهدايا كان بوهيموند أول من أطاع نصائح بوتومايتز ، وتشاور في الحال معهم من أجل الرجوع ، فهو ـ أي بوهيموند ـ كان فيه جشع كبير للمال وشره بلا حدود.

واستقبلهم الامبراطور بحفاوة كبيرة وابهة ، وكان واسع النشاط في شرح ما ينفعهم ، ودعاهم ـ اخيرا ـ اليه ، وخاطبهم بقوله: « تذكروا اليمين الذي اقسمتموه لي ، واذا كنتم فعلا لا ترغبون الحنث به ولا تنوون ، انصحوا كل واحد ممن تعرفونه ، لم يأخذ على نفسه القسم بعد ، أن يعجل بالقيام بذلك ، واستجابوا له ، فأرسلوا بالحال وراء هؤلاء الرجال ، الذين استجابوا جميعا وأدوا يمين الولاء فيما عدا تانكرد ، ابن أخت بوهيموند ـ فقد كان رجلا له روح استقلالية ، يتفاخر بأن في عنقه ولاء رجل واحد ، هوبوهيموند ، وهو يأمل بالاحتفاظ بهذا الولاء حتى يوم موته ، وتعرض تانكرد لضغط الآخرين ، بما فيهم اقرباء الامبراطور ، لكن من غير فائدة ، فقد ركز نظره على السرادق الذي جلس فيه الامبراطور لاكرام الأمراء (وهو سرادق لم ير أحد واحدا باتساعه) وقال: « لو ملأتم هذا السرادق مالا واعطيتموه لي مع جميع المبالغ التي أعطيت الى بقية الأمراء ، عندها فقط يمكن أن أقسم يمين الولاء و هنا قام باليلوغوس و قد ضاق ذرعا بما تعرض له الامبراطور ولم يتحمل عربدته وتبجحاته ، فقام بدفعه بحنق ، وانقض تانكرد عليه مغضبا ، مما حمل الكسيوس على النهوض من على عرشه ، وسبب تدخل بوهيموند ، حيث قام بتهدئة تانكرد مخبرا اياه بأنه كان من الخطأ أن يتصرف هكذا في حضرة الامبراطور من غير مراعاة له ، وخجل تانكرد من فعلته ، وبدا كأنه رجل مخمور افقده السكر وعيه وتوازنه امام باليلوغوس ، وسبب هذا ، مع مناقشات الآخرين اقناعه ، وحمله على أخذ يمين الولاء للامبراطور.

-٢٤٦٥.-
وعندما انصرف الجميع من حضرة الامبراطور ، أمر الكسيوس تاتيشوس (وكان آنذاك قائدا عالي المرتبة) وأوعز الى القوات التي كانت تحت قيادته ، بالالتحاق بالفرنجة ، وكانت مهمة تـاتيشوس مساعدتهم وحمايتهم في كل مناسبة ، وان يتسلم منهـم كل مـدينة يستولوا عليها ، إذا ما يسر الرب لهم ذلك.

واستانف الفرنجة زحفهـم ثـانية ، في اليوم التـالي بـاتجاه انطاكية ، ورأى الكسيوس انه ليس من الضرورة أن يذهـب جميع الفرنجة برفقة الأمراء ، ولهـذا أشـار على بـوتومايتز أن يقـوم باستئجار جميع المتخلفين ، ليستخدمهم في حماية نيقية ، ووصـل تاتيشوس ومعه قواته وجميع الأمراء وبصحبتهم حشودهم التـي لا تحصى الى ليوكاي في مدة يومين ، وهنا أصـبح بـوهيموند ـ بناء على طلبه ـ مسؤولا عن قيادة طلائع القوات ، بينما زحف البقية في رتل واحد ببطء ، وعندما رأى التركمان بوهيموند يزحف بشيء مـن السرعة فوق سهل دوريليوم (٣٧) خيل اليهم أن الفرصة قـد تهيأت لهم لضرب جيش الفرنجة ، وانقضوا عليه فورا غيرعابئين به.

ونسي لاتينوس ، ذلك الأحمق البليد ، الذي تجـرأ على الجلوس على العرش الامبراطوري ، نسي نصائح الامبراطور ، وركب بـكل تهور وحماقة أمـام البقية (كان على طـرف صـفوف قـوات بوهيموند) ، وقد قتل أربعون من أتباعه ، وأصيب هو نفسه بجرح بليغ ، وقد فر من المعركة ، وعاد مسرعا الى وسط الجيش ، وكان عمله هذا شهادة ملموسة على حكمه الكسيوس وصحة آرائه ، لكنه لم يعترف بذلك بكلماته ، وعندمـا رأى بـوهيموند شـدة هجـوم التركمان ، أرسـل يطلب النجـدة ، ووصـلت اليه النجـدات بسرعة ، وغدت الملحمة منذ تلك الساعة قتالا محموما مريرا ، وقـد انتهى ذلك القتال العنيف بنصر الروم والفرنجة.

وجرى بعد هذا متابعة الزحف ، إنمـا روعي الآن أن تـكون كل فرقة على اتصال بالفرقة الأخرى ، وقد التقوا عند هرقلية بالسلطان

« تنيسمان وحسن (٣٨) » وكان يقود بمفـرده ثمـانين الفـا مـن الرجالة كل منهم شاكي السلاح ، ووقع قتال شـديد بين التـركمان والفرنجة ، ليس بسـبب الأعداد الكبيرة التـي تـورطت بـالقتال فحسب ، بل لثبات كلا الطرفين وصبرهما ، وكان التركمان يقاتلون باندفاع شديد ، وفي المقابل كان بوهيموند يقود ميمنة الفرنجة ، ولما لاحظ هذا الوضع ، انفصل عن بقية الجيش ، واندفع منقضـا على قلج ارسلان « مثل أسد كان يجرب قـوته كلهـا » ـ حسـب قـول الشاعر (٣٩) ـ ، وكان لهذا تـأثير سـريع على الأعداء ، فـلاذوا بالفرار ، وتذكر الفرنجة وصايا الامبراطور ، فلم يقوموا بمـطاردة الأعداء بعيدا ، بل احتلوا خندق التركمان واستراحوا هناك لوقـت قصير ، ثم اصطدموا ثـانية بـالتركمان على مقـربة مـن اغوستوبولس ، واشتبكوا معهـم ، وهـزموهم مجـددا بشـكل ساحق ، واختفى إثر هذا البرابرة ، و تفرق الناجـون منهـم مـن القتال في جميع الاتجاهات ،و يلاحظ بالنسبة للمستقبل أنه لم يعـد لديهم المقدرة حتى على النظر الى وجوه اللاتين.

وتسأل عما حدث بعد هذا ، الذي حدث أن اللاتين مع الرومـان وصلوا الى انطاكية عبر ما يدعى « الطريق السريع » وقد تجـاهلوا المنطقة على الجانبين واهملوها ، وقاموا بحفر حفـرة كبيرة ، على مقربة من أسوار المدينة ، وأودعوا فيها أوعيتهم وحاجياتهم ، ثـم بدأ حصار انطاكية ، واستمر هذ الحصار لمدة ثلاثة أشـهر قمـرية (٤٠) ، وضاق التركمان بالأحوال الصعبة التي وجـدوا أنفسـهم فيها . وبعثوا برسالة الى سلطان خراسان يطلبون منه انجادهم بما يلزم من الرجال لمساعدتهم في الدفـاع عن اهـل انطـاكية ، وطـرد المهاجمين اللاتين المتولين لحصارهم ، وحـدث أن كان واحـد مـن الأرمن (٤١) مسؤولا عن واحد من ابـراج المدينة ويتـولى شـؤون الدفاع عن جزء من السـور كان قـد عهـد الى بـوهيموند بمهاجمته ، واعتاد هـذا الرجـل على الانحناء مـن فـوق السور ، وتمكن بـوهيموند عن طـريق لطيف العبـارات والاطـراء والوعود الخلابة والضمانات ، أن يقنعه بتسـليم البلد اليه ، ووعده

الأرمني بقوله : « متـــى وددت ، أعطني مـــن الخــــارج اشـــــارة سرية ، وانا سأتخلى لك حالا عن هذا البرج الصغير ، وما عليك الا التـــــأكد مـــــن اســـــتعدادك ، وكذلك جميع الرجـــــال الذين في خدمتك ، وهيء السلالم واجعلها جاهزة للاستخدام ولا تكن وحدك مستعدا ، بل جميع رجالك وهم في السلاح الكامـــل ، حتـــى عندمـــا يراكم التركمان على سطح البـــرج ، وانتـــم تصرخـــون صرخـــــات حربكم ، فإنهم سيفرون هلعين ».

واحتفظ بوهيموند بخبـــر هـــذه الاعدادات لنفســـــه ،ووصـــــل والأحوال على ماهي عليه رجل يحمل أخبارا فيهـــا بـــأن قـــوات كبيرة من المسلمين ، حان وقـــــت وصـــــولها قـــــادمة مـــــن خراسان ، وانها ستحارب الفرنجة ، واسم قائدها كربوقا (امير الموصل) .

وعلم بـــوهموند بهـــذا ، ولما كان لايرغب بتســـليم انطـــاكية الى تـــاتيشوس (كمـــا كان يفتـــرض عليه أن يعمـــل لو اراد الا يحنث بأيمانه للامبراطور) ويريدهـــا لنفسه ، فقد أبـــدع خـــطة شـــيطانية لابعاد تاتيشوس طواعية من قبل نفسه ، فقد دنا منه وقال :« بودي ان ابوح لك بسر ، لانني أجد نفسي مسؤولا عن سلامتك ، لقد وصل تقرير مزعج جدا الى مسامع الأمراء ، بأن الســـلطان بعـــث بهؤلاء الرجال مـــــن خـــــراسان ضـــــدنا ، بناء على طلب مـــــن الامبراطور ، ويعتقد الأمراء بصـــحة هـــذه الرواية ، وهـــم لهـــذا يتآمرون لقتلك ، والآن لقد قمت بما هو متوجب علي لتحذيرك ، إن الخطر وشيك ، والبقية عليك ، فاختر ماتراه مفيدا لك ، وفكر بأمر حياتك وحياة رجالك » .

وكان تاتيشوس يواجه مصاعب اخرى غير هـــذه ، فقـــد كانت هنالك مجاعة كبيرة (بيع راس الثور بثـــلاث قـــطع ذهبية) وكان يائسا من الاستيلاء على انطاكية ، لذلك غادر المنطقة ، وركب هـــو

ورجاله الرومان السفن الراسـية في مـرفأ السـويدية ، وأبحـر الى قبرص.

و بعد مغادرته ، ظل بوهيموند محتفظا بسر وعد أنطـاكية له ، و كان يخفي بنفسه أمالا كبيرة ، بالاحتفاظ بحكم أنطاكية لنفسه ، لذلك توجه الى الأمراء بقوله :« انكم ترون كم من الوقـت امضينا بين هذه الرزايا ، وحتى الآن لم ننل نجاحا ما ، والمتبقـي هو الأسوأ ، فقد نصبح عما قليل ضحايا للمجاعة ، مالم نعمل شيئا مفيدا يضمن سلامتنا » وعندما سألوه : ماذا تقترح ؟ تابع كلامـه قائلا :« لم يهب الله الانتصارات جميعها عن طـريق السـيف ، ولم يتم الوصول الى مثل هذه النتائج دائما من خلال المعركة ، فالذي لم يتم الحصول عليه من خلال الكفاح ، غالبا ماتم الحصول عليه بيسر من خلال المباحثات ، فغالبا ماأعطت التحركات الدبلوماسية مرابح افضل ، وعندي انه لمن الخطأ اضاعة الوقت من غير هـدف ، علينا الاسراع للعمل على ايجاد طريقة معقولة و شجاعة ننقذ بها أنفسـنا قبل وصول كربوقا ، وانا اقتـرح أن يبـذل كل منا المسـتطاع مـن مجهوده كيما يكسب او يستميل اليه واحدا من البـرابرة القـائمين على الحراسة ، وليجرب ذلك كل واحد منا في قطاعه ، واذا وافقتـم على هذا ، فلتكن جائزة أول رجل ينجح في هذا السبيل ، أن يصبح حاكما للمدينة – اعني حتى وصول الرجل الذي سيعينه الامبراطور ليتسلمها منا ، وبالطبع من الممكن ان كل هذا لن يفيدنا في شيء » .

ذلك ان بوهموند الذي تعشق السلطان ، واحب السلطة ، أحـب ذلك لنفسه فقط ولصـنع الأمجـاد لهـا ، وليس لصـالح اللاتين ومنفعتهم العامة ، ولم تخفـق خـطه ومـؤامراته واعمـال خداعه ، ونشر اخبار قصة ماحدث يوضح ذلك :

فقد وافق الأمراء بـالاجماع على خـطته وانطلقـوا نحـو العمل ، ومع انبلاج نور الصباح مضى بوهيموند في الحال نحـو ذلك البرج (٤٢) ، وقام الأرمني بتنفيذ الاتفاق ففتح الأبواب ، ومكن منه

بوهموند ، فقفز الأخير بشكل سرعة ونشاط يتبعه اصحابه ، وصعدوا الى قمة البرج بما أمكن من سرعة ، ورأى المهاجمون الفرنجة والمحاصرون التركمان كل من جانبه بوهيموند واقفا هناك على شرفة البرج ، وهو يأمر النفار بضرب نفير المعركة .

لقد كان مشهدا خارقا للعادة ، فقد أصاب الهلع التركمان فتوقفوا عن القتال ، وفروا عبر الأبواب ينشدون السلامة خارج المدينة ، محاولين النجاة بحشاشة انفسهم ، وبقي هناك فقط حفنة من الرجال الشجعان في حراسة القلعة والدفاع عنها .

واقتفى الفرنجة خارج المدينة خطا بوهموند فتسلقوا الأسوار بواسطة السلالم ، وتمكنوا بسرعة متناهية من الاستيلاء على المدينة ، وفي الوقت نفسه ، لم يضع تانكرد فرصته فقام على رأس فرقة كبيرة من الفرنجة بمطاردة الفارين من التركمان ، حيث قتل وجرح أعدادا كبيرة منهم ، وهكذا عندما وصل كربوغا على رأس الوفه المؤلفة من العساكر ، وجد الموقع قد سقط لتوه للأعداء ، فقام بحفر خندق أودع فيه معداته ، واقام معسكره ، واستعد لحصار المدينة ، إنما قبل ان يبدأ الحصار ، قام الفرنجة بعدة اغارات ووقعت عدة معارك شديدة انتصر فيها التركمان ، فاضطر الفرنجة إثرها الى البقاء وراء أبواب المدينة معرضين للمخاطر من جهتين : من المدافعين عن القلعة (فالبرابرة ظلوا مسيطرين عليها) ومن التركمان من وراء الأسوار .

ومن جديد توجه بوهيموند ، الذي كان رجلا بارعا

يرغب أولا وقبل كل شيء في تأمين حكم انطاكية لنفسه ، توجه بالخطاب الى الأمراء قائلا: « لايصح أن يقاتل جميع الرجال على جبهتين ، اي يقاتلوا هم أنفسهم ضد الأعداء في الخارج وفي الداخل في الوقت نفسه ، ينبغي علينا أن نقسم قواتنا الى قسمين غير متساويين ، لكن متعادلين مع الأعداء الذين يوجهونا ، ومن ثم

نشرع بالقتال ضدهم ، ستكون وظيفتي القتال ضد المدافعين عن القلعة ، هذا اذا وافقتم على ذلك ، وستكون مهام البقية التكفل بالتصدي للعدو من الخارج ، ومهاجمته بشكل عنيف.

ووافق الجميع على فكرة بوهيموند ، وقام هو على الفور ببناء سور مقابل للقلعة ، وبذلك عزلها تماما عن بقية انطاكية ، وعندما اكتمل بناؤه ، تحول هذا السور إلى خط حربي فعال ، وأنذاك غدا بوهيموند أشبه بالمتحكم بها ، وراقبها بشكل مستمر من غير راحة ، واستمر يضغط بشدة على المدافعين عنها مستخدما كل وسيلة ممكنة ، وقد حارب بكل شجاعة ، واهتم كل واحد من بقية الأمراء اهتماما شديدا بالقطاع الذي عهد به إليه ، فدافعوا عن المدينة من جميع الجهات وتفحصوا الدفاعات وشرافات الأسوار للتأكد من أن البرابرة في الخارج لن يتمكنوا من تسلق الأسوار بوساطة السلالم ، وبالتالي لن يستطيعوا الاستيلاء على المدينة ، كما أنهم بعملهم هذا حالوا بين أي إنسان وبين الصعود إلى الأسوار من الداخل للاتصال بالأعداء ، والاعداد لعمل خياني .

وبينما كانت هذه الأمور جارية في انطاكية ، اهتم الامبراطور شخصيا بتأمين المساعدات للفرنجة ، لكن النهب التام الذي لحق بالمدن الساحلية والمناطق المجاورة لها اعاقه على الرغم من تلهفه الشديد ، فزاخاس كان قد استولى على سميرنا (٤٣) ، وجعلها كما لو كانت من أملاكه الخاصة ، واحتجز تنجري بيرمس (٤٤) مدينة أفسوس (٤٥) القريبة من البحر ، والتي بني فيها فيما مضى كنيسة كرست على اسم الرسول يوحنا عليه السلام ، واستولى الأمراء التركمان واحدا تلو الآخر على المراكز الحصينة ، وعاملوا المسيحيين معاملة العبيد ، ونهبوا كل شيء حتى إنهم استولوا على جزيرتي خيوس ورودس (في الحقيقة على بقية الجزر أيضا) وبنوا هناك عددا من سفن القرصنة ، ونتيجة لهذا رأى الامبراطور ضرورة الاهتمام أولا بالجانب البحري ، والتعجيل بمعالجة مسألة زاخاس ، وعليه قرر أن يمركز قوة مناسبة على اليابسة مع اسطول

قوي ، وعهد إلى هذه القوى بمهمة ضد البرابرة ، ومنعهم من شن الغارات ، وكان ـ في الوقت نفسه ـ سيقوم هو بنفسه بقيادة بقية قواته نحو انطاكية ، حيث سيقاتل التركمان على الطريق كلما تهيأ له ذلك ، وقام باستدعاء جون دوقاس ـ أخي زوجته ـ وعهد إليه بقيادة القوات التي حشرت من مختلف المناطق ، مع مايكفي من السفن ، ليقوم بحصار المدن الساحلية ، وأعطاه زاخاس التي كانت قد وقعت بين الأسرى الذين وجدوا في ذلك الحين في نيقية ، وكانت الأوامر المعطاة إلى جون تقضي بأن يعلن على الملأ ، خبر الاستيلاء على نيقية ، وإذا لم يتم تصديقه ، يقوم بعرض السيدة التركمانية أمام أمراء التركمان والبرابرة الذين كانوا يعيشون في المناطق الساحلية ، وقد رجا من وراء عمله هذا ، أن يصدق الأمراء الذين كانوا مسيطرين على المناطق المذكورة ، عندما يرونها بأن المدينة قد سقطت فعلا ، وسيقومون بالتسليم من غير قتال ، بل من باب اليأس وانقطاع الأمل ، وهكذا توجه جون مزودا بشكل جيد بجميع أنواع المؤن ، هذا وسأبين فيما يلي عدد انتصاراته التي حازها في حروبه ضد زاخاس ، وسأقص أخباره وكيف تمكن من طرده من سميرنا .

وقام جون بوداع الامبراطور ، وغادر العاصمة ، وعبر عند ابيدوس ، وكان كاسباس قد جرى تعيينه قائدا للأسطول ، وعهد إليه بالشؤون البحرية العائدة للحملة ، وقد وعده جون بأنه إذا ماقاتل بشكل جيد ، سيقوم بتعيينه واليا على سميرنا نفسها (عندما يتم استردادها) مع جميع المناطق المجاورة لها ، وبينما ابحر كاسباس على راس قواته البحرية ، بقي جون على اليابسة ، وقام بمماشاته عن قرب ، وقد شهد أهالي سميرنا وصول كاسباس وجون معا ، وقام جون بضرب معسكره على مقربة من الأسوار ، بينما قام كاسباس بإرساء سفنه في الميناء ، وكان الناس في سميرنا يعرفون خبر سقوط نيقية ، ولم تكن لديهم رغبة في القتال ، وقد فضلوا الشروع بالمفاوضات في سبيل الصلح ، ووعدوا بالتخلي عن المدينة ، وبتسليمها إلى جون بدون حرب وسفك دماء ، إذا ما أقسم

لهم بأنه سيدعهم يعــودون إلى مــواطنهم آمنين دون أن يتعــرضوا لأذى ، ووافق دوقاس وأعطى وعده بأن مطالب زاخاس ستنفذ كلها حرفيا ، وهكذا ادلى العدو سلما تسلقه كاسباس وبذلك غدا الحاكم الأعلى على سميرنا . ووقع في تلك الســاعة حــادث ، ســأقوم الآن بروايته

عندما ترك كاسباس جون دوقاس ، جاء إليه واحد مــن أهــالي سميرنا ، وتقدم إليه بشكوى ادعى فيها بأن واحدا مــن المســلمين السوريين قد سرق منه خمسمائة قــطعة ذهبية ، وقــرر كاســباس النظر في القضية ، وأمر أن يمثل الفريقان أمامه للمحاكمة ، وتم جر السوري جرا ، وجلب قسرا ، وبالقوة ، ولهذا خيل إليه أنه مــأخوذ للاعدام ، فقام وهو يائس من الحياة باستلال خنجــره وغرســه في بطن كاسباس ، ثم انعطف فطعن أخا الوالي في خاصرته ، وتبع هذا فوضى كبيرة ، وفر الرجل المســلم ، وهنا دخــل بحــارة الأســطول جميعا ، بما فيهم المجذفين ، المدينة بشكل فوضوي ، فذبحوا كل من وجدوه فيها من غير شفقة ، وإنه لمنظر مؤسف ، ففي غمضة عين ، تم قتل عشرة الاف .

وقد حزن جون دوقاس لمقتل كاسباس ، وقام مرة ثــانية بصرف عنايته كلها ، لبعض الوقت ، لحل مشاكل سميرنا ، فــدخل المدينة ، وتفحص دفاعاتها بشكل دقيق ، وتلقى معلومات دقيقة عن مشــاعر أهاليها وأحاسيسهم ، واقتضت الحال ترشيح رجل شجاع للولاية ، ووقــع اختيار جــون على هيلاس ، الذي كان جنديا شـــجاعا ، ومرشحا مناسبا للوظيفة ،فعينه واليا جديدا .

وخلف جون جميع الأسطول في سميرنا لحمــايتها ، وقــام هــو بالزحف نحو أفسوس ومعــه الجيش ، وكانت أفســوس آنذاك بيد تنجري بيرمس ومرقس ، وقد عرف العــدو خبــر اقتــرابه ، فقــام بإعداد قواته ، وعبأها بــالسلاح الشــاكي ، وصــفها للمعــركة في منبسط خارج المدينة ، ولم يضع جــون لحــظة واحــدة ، بــل ركب

ورجاله ، وحمل عليهم بصفوف منتظمة ، وتبع ذلك قتالا شديدا استمر سحابة النهار ، والتحم الطرفان بنزال لم تعرف نتيجته ، لكن عندما انعطف التركمان ، فرو بكل سرعة ممكنة ، فقتل كثير منهم هناك ، وتم أسر عدد كبير ليس من بين الجنود العاديين ، لكن من بين القادة ، وقد وصل العدد حتى الألفين .

ولدى سماع الأمبراطور بخبر هذا النصر ، أعطى أوامره بتوزيعهم بين الجزر ، ومضى الناجون من التركمان عبر نهر منادر نحو بوليبوتوس(٤٦) ، و اتخذوا موقف المترقب ، مخيلا لهم أنهم بعدوا عن أثار جون دوقاس ، لكن الأمر لم يجر كذلك ، فقد ترك جون « بتزاس » في ولاية المدينة واخذ معه جميع الرجالة ، وانطلق في عملية المطاردة ، وزحفت قواته بنظام جيد ، ولم يكن هناك اية فوضى ، وفي الحقيقة اتبع جون تعليمات الأمبراطور وتحكم بالزحف بسلوك وانضباط لايتمتع به إلا القادة المجربون ، وكما سلف القول شق التركمان طريقهم عبر نهر منادر من خلال البلدان المجاورة حتى وصلوا إلى بوليبوتوس ، ولم يسلك جون الطريق نفسه ، بل سار عبر طريق اقصر حيث استولى على ساردس وفيلادلفيا (٤٧) على حين غرة ، وعهد فيما بعد إلى ميخائيل كومينوس بالدفاع عنهما ، وعندما وصل جون إلى لوديقيا خرج جميع السكان في الحال لاستقباله ، فعاملهم بمثابة الفارين من وجه العدو ، والمهاجرين له وشجعهم ، وسمح لهم بالسكنى في اراضيهم من غير تدخل بشؤونهم حتى إنه لم يعين واليا عليهم ، ومضى من هناك ، وشق طريقه من خلال خوما ، واستولى على لامب حيث عين بوستاثيوس كامينوس قائدا عسكريا ، وعندما وصل أخيرا إلى بوليبوتوس وجد هناك جماعة كبيرة من التركمان ، فقام بمهاجمتها فور تنزيلها لأحمالها ، وحدث قتال سريع ، اعطى نصرا حاسما ، حيث قتل فريق كبير من التركمان ، وتم الاستيلاء على كميات من الغنائم تتناسب مع اعدادهم .

ولم يكن جون قد عاد بعد ، حيث كان مايزال يكافح ضد

التركمان ، وذلك عندما اصبح الامبراطور جـاهزا للزحـف لتقـديم العون إلى الفرنجة في منطقـة انطـاكية ، وبعـدما ازاح كثيرا مـن البرابرة من طريقه ، وصل الامبـراطور إلى فيلوملبون (٤٨) مـع جميع عساكره ، وقد جرى نهب عدد كبير مـن المدن التـي كانت في السابق بيد التركمان ، وهناك التحـق بـه غليوم دي غرانتسـنيل ، وايتين كونت فرنسا وبيبردي البس (٤٩) قادمين من انطاكية ، فقد تدلوا من أسوارها بواسطة حبل ، وجاؤوا إلى طرسوس ، وقد علم منهم بأن الفـرنجة اصـبحوا في حـالة ميئوس منهـا ، واكدوا له بالأيمان بأن الانهيار كان كاملا ، ولهذا تلهف الامبراطور اكثر مـن ذي قبل للاسراع نحوهم بغية تقديم العون لهـم ، كل ذلك على الرغم من المعارضة العامة لمثل هذه المغامرة .

وانتشرت آنذاك أقاويل واسعة تحدثت عن هجوم مرتقب لحشود لاتحصى من البرابرة ، ذلك أن سـلطان خـراسان قـام ، بناء على ماسمعه من أخبار توجه الامبراطور الكسيوس نحو الفـرنجة بغية إمدادهم والتفريج عنهم ، قام بإرسـال ابنه اسـماعيل وبصـحبته قوات ضخمة ، وكانت الأوامر المعـطاه إلى اسـماعيل تقضي بـأن يعترض طريق الامبراطور قبل وصوله إلى انطاكية ، ودفعت الاخبار التي حملها الفرنجة من انطاكية ، مع أخبار قرب وصول اسـماعيل دفعت الأمبراطور إلى إعادة النظر بالخطط المرسـومة مـن اجـل إنقاذ الفرنجة .

لقد كان الامبراطور كله رغبة وشوق إلى سحق هجوم التركمان ، وطبعا وضع نهاية لقـائدهم كربـوقا ، ونظـر إلى المسـتقبل متوقعا : أن إنقاذ المدينة التي استولى عليها الفرنجة حـديثا ، لكن أمورها لم تستقر بعد ، وهي محاصرة مـن المسـلمين ، هـو امـر ممكن ، لكن الفرنجة قد فقدوا كل امـل في إنقـاذ انفسـهم ، وكانوا يخططون للتخلي عن دفاعاتهم وتسـليمها إلى اعدائهـم ، مـركزين اهتمامهم على الاحتفاظ بحياتهم عن طريق الهرب ' .

في الحقيقة ، إن الفرنجة جنس متميز ، ولهم من الصفات : روح

فردية مستقلة متهورة ، ترفض رفضا قاطعا الانصياع إلى أنظمة فنون الحرب ، فعندما توشك الحرب على الاشتعال ويوشك القتال على الوقوع ، تراهم مندفعين بحماس لايقاوم (وهذا أمر واضح ليس بين جميع المراتب فقط بل حتى بين صفوف القادة ايضا) ، تراهم يندفعون نحو قلب صفوف الأعداء بشكل شديد الهول ، بحيث تزول امامهم كل مقاومة ، لكن إذا حدث وأقام لهم أعداؤهم كمائن فيها عساكر بارعين ، يستطيعون القتال بشكل نظامي ، فإن شجاعتهم ستتلاشى كلها ، وبشكل عام نجد أن الفرنجة ليس لهم من يوازيهم في قتال الفرسان ، لكن على الرغم من هذا ، فإنه بسبب وزن اسلحتهم ، وما اتسموا به من تهور وعدم انتظام ، نجد أنه من السهل انزال ضربة بهم .

ولم يكن لدى الامبراطور ما يكفي من القوات للتصدي لأعدادهم الكبيرة ، أو لتغيير طباعهم ، أو دفعهم لتبني سياسة حكيمة عن طريق النصيحة والمنطق ، لهذا كله رأى الامبراطور انه من غير المفيد متابعة سيره ، فهو قد يفقد القسطنطينية وانطاكية معا ، بسبب شدة رغبته في الحفاظ عليهما ، وكان يخشى حشود التركمان الكبيرة إذا ما نزلت عليه الآن ، فإن الناس الذين يعيشون في فيلوميلون سيكونون طعمة لسيوف البرابرة .

وقرر تحت معطيات هذه الظروف ، أن يعلن للجميع خبر زحف المسلمين ، وتم الاعلان في الحال بأن على كل رجل وامرأة مغادرة المكان قبل وصولهم ، وبذلك ينقذون حياتهم وانفسهم وما امكن حمله من مقتنياتهم ، وقد اختار جميع السكان نساء ورجالا ، اللحاق بالامبراطور دونما تأخير (٥٠) ...

فهذه إذن الاجراءات التي اتخذها الكسيوس تجاه الأسرى ، ثم قام بفرز قطعة من الجيش ، قسمها إلى مجموعات صغيرة ، أرسل كل منها في اتجاه مختلف من الاتجاهات للقتال ضد المسلمين حيثما وجدوهم يقومون بأعمال السلب والنهب ، وكان عليهم إيقاف التركمان ومنعهم بالقوة ، واعد الكسيوس بنفسه العدة للعودة إلى

القسطنطينية ومعه جميع أسرى البرابرة والمسيحيين الذين انضموا إليه ، ووصلت أخبار نية الامبراطور المغادرة وقصده العاصمة ، إلى مسامع الأمير إسماعيل ، وسمع ايضا اخبار المذبحة الكبرى التي وقعت إثر ذلك مع اخبار التدمير الكامل للعديد من المدن أثناء الزحف كما علم بأن الكسيوس على وشك العودة ومعه كميات كبيرة من الغنائم والأسرى ، وبهذا تحرج وضع اسماعيل حيث لم يترك له شيئا يفعله ، فقد فقد صيده الثمين ، لهذا غير منحى مسيرته ، وقرر محاصرة بيبرت ، التي جرى احتلالها منذ وقت وجيز من قبل القائد الشهير ثيودور غابراس ، وتوقفت قوات التركمان جميعها عند النهر الذي يجري قريبا من ذلك الموقع ، ولم يعرف غابراس هذه القوات ، وكان قد قرر ان يكبسها ليلا ، ويهاجمها على حين غرة ، إن خاتمة اعمال غابراس مع اصله ، وصفاته ، هي موضوعات ستم الحديث عنها في مكان مناسب من هذا التاريخ ، فالذي علينا القيام به الآن هو استئناف قص روايتنا.

وكان الحصار قد اشتد على الفلنجة ، وفتكت بهم المجاعة ، وهنا انعطفوا نحو بطرس الناسك ، الذي كان قد هزم في السابق قرب هيلينبوس (كما سبق وأوضحنا) وسألوه تقديم المشورة وبذل النصيحة ، فأجابهم بقوله : « لقد وعدتم بأن تبقوا نفوسكم نقية حتى ساعة وصولكم إلى القدس ، لكنكم حنثتم بوعودكم وأظن أنه لهذا السبب توقف الرب عن مساعدتنا كما فعل من قبل ، عليكم بالعودة ثانية إلى الرب ، وتضرعوا إليه بالبكاء وطلب غفران الذنوب ، وانتم ترتدون الأطمار وتذرون على رؤوسكم الرماد ، وبرهنوا على توبتكم بذرف الدموع ، وبإمضاء الليالي بالتضرع ، وطلب المغفرة ، وعندها سأنضم أنا بدوري إليكم ، واستمطر لكم رضى السماء ، وأتوجه بالدعاء من أجلكم » .

وأصغوا جميعا إلى نصيحة راهبهم الكبير ، وبعد مرور عدة أيام جاء هاتف إلى بطرس فحركه إلى حد أنه استدعى كبار الأمراء ، وأمرهم بأن يحفروا على يمين المذبح (٥١) ، فهناك

سيجدون ــ كما أخبرهم ــ المسامير المقدسة (٥٢) ، ونفذوا ماطلبه منهم ، لكنهم لم يجدوا شيئا ، لذلك عادوا اليه حانقين يائسين ، فقام اثر ذلك يصلي بحرارة اشد من ذي قبل ، ثم امرهم بالتفتيش ثانية بشكل دقيق ، والتمحيص بكل عناية ، ومرة ثانية نفذوا اوامره بحذافيرها ، ووجدوا في هذه المرة ماكانوا يبحثون عنه ، وسارعوا الى اعطائه الى بطرس (٥٣) وهم في غاية السرور والغبطة والجيشان العاطفي الديني ، وعهد بعد هذا بالمسامير المقدسة ، الى صنجيل ، ليحملها اثناء المعركة ، لانه كان اكثر نقاوة من البقية .

وخرج الفرنجة في التالي مغيرين على التركمان من احد الابواب السرية للمدينة ، وكانت هذه هي المناسبة التي سأل فيها كونت اوف فلاندرز (٥٤) بقية الامراء ان يمنحوه مطلبا واحدا وذلك بالسماح له بأن يركب امام الجميع ، ويحمل على العدو ومعه ثلاثة رفاق ، وقد منح مطلبه هذا ، وعندما اصطف الجيشان المتعاديان أمام بعضهما بعضا ، استعدادا للمعركة ، ترجل وركع على الارض ، وصلى للرب ثلاث مرات ، وتوجه اليه بالدعاء طالبا منه العون ، وعندما صرخ الجميع بصوت واحد « الرب معنا » » حمل بما امكنه من السرعة ، وتوجه نحو كربرقا الذي كان واقفا على رأس تل هناك ، وتمكن اثناء حملته من صرع كل من اعترض سبيله ، والقى هذا الرعب في قلوب التركمان ، فشرعوا بالفرار ، حتى قبل ان يبدأ القتال و انه من الواضح ان قوة سماوية كانت تساعد المسيحيين ، زد على هذا انه اثناء الفوضى ، التي نجمت عن فرار البرابرة ، جرف تيار النهر معظمهم فغرقوا ، وتراكمت جثث الموتى الى درجة انها كونت جسرا للذين جاؤوا بعدهم ، وبعد ما قام الفرنجة بمطاردة التركمان الى مسافة مناسبة ، عادوا نحو خندقهم حيث وجدوا جميع امتعتهم وغنائمهم التي جلبوها معهم ، وصحيح ان الفرنجة ملكوا الرغبة في الاستيلاء على ذلك ونقله فورا ، لكن نظرا لضخامة حجم الغنائم ، فهم ملكوا ــ بكل صعوبة ــ القدرة على نقلها الى دا ل انطاكية خلال ثلاثين يوما ، ومكثوا هناك بعضا من الوقت للاستجمام والراحة من

عناء الحرب ، و البحث في الوقت نفسه في أمر أنطاكية و مستقبلها فقد وجدت حاجة لتعيين حاكم جديد لها ، و قد وقع اختيارهم على بوهيموند الذي كان طلب هذا المنصب قبل سقوط المدينة ، وتم منحه سلطات كاملة ، وانطلق بعد ذلك الاخرون شاقين طريقهم نحو القدس ، وجرى الاستيلاء على عدد من المواقع الساحلية الحصينة الواقعة على الطريق ، لكن الاماكن ذات الحصانة الشديدة ، والتي تحتاج الى وقت اطول لحصارها ، جرى تجاهلها الان ، من قبلهم ذلك انهم كانوا مسرعين ، ولديهم رغبة شديدة بالوصول الى القدس ولدى وصولهم اليها حاصروها ، وبعد عدة هجمات ، وحصار استمر شهرا قمريا سقطت المدينة (٥٥) وجرى هناك ذبح كثير من المسلمين والعبرانيين الذين كانوا فيها ، وعندما انتهى امر الاستيلاء عليها ، وقضي على جميع اعمال المعارضة ، جرى تتويج غودفري ملكا عليها ، ومنح صلاحيات كاملة .

وتم اخبار أمير المؤمنين المتربع على عرش بابليون (القاهرة) بغزو الفرنجة ، كما سمع بان القدس قد جرى الاستيلاء عليها من قبلهم ، وان انطاكية ذاتها قد احتلت مع عدد كبير اخر من مدن المنطقة ، وبناءعليه حشد جيشا من الارمن والعرب والمسلمين والتركمان ، وارسلت هذه القوة لحرب الفرنجة ، وقام غودفري باستنفار بني قومه ، وتوجه على رأسهم نحو يافا منتظرا الهجوم ، ثم تحول فيما بعد الى الرملة ، وهي المدينة التي استشهد فيها جورج العظيم ، وقاتل الفرنجة هناك ضد جيش امير المؤمنين ، ونالوا نصرا سريعا ، لكن في اليوم التالي ، لحقت طلائع الجيش المصري بمؤخرة الفرنجة ، فأنزلت بها ضربة قاسية ، واجبرت افرادها على الفرار بانفسهم نحو الرملة ، ولم يكن الكونت بلدوين بين الحضور ، فهو قد نجا ، ليس جبنا وفرارا ، بل كان قد ذهب للبحث عن وسائل اكثر جدوى لتأمين سلامته وسلامة الجيش ضد المصريين ، وقام المصريون بحصار الرملة ، ومالبث ان استولوا عليها ، وقد قتل كثير من الفرنجة انذاك ، لكن الذين اسروا وارسلوا الى مصر كانوا اكثر عددا ، وتوجهت القوات المعادية جميعها من الرملة وكرت منحرفة

لحصار يافا ، وهذه طريقة حربية من طرائق البرابرة الغادية المتبعة
وقام بلدوين بزيارة جميع المدن التي استولى عليها الفرنجة ، وجمع عددا ليس بالكبير من الفرسان والرجالة ، المهم في الامر انه اصبح لديه قوة يمكن الاعتماد عليها ، وقام بالزحف ضد المصريين وهزمهم بشكل حاد .

و سببت اخبار الكارثة التي نزلت باللاتين في الرملة هزة حزن عميقة للامبراطور ، ولم يستطع تحمل اخبار الامراء الذين وقعوا بالاسر (٥٦) ، فبالنسبة له بدا هؤلاء الرجال ، وهم في ريعان الشباب ، في ذروة نشاطهم وقوتهم وكل منهم من اصل نبيل ، يعادلون ابطال السلف الاوائل ، لذلك راى انه ينبغي عدم بقائهم مدة اخرى اطول في الاسر في بلاد غريبة ، ولهذا قام باستدعاء برداس ، واعطاه كمية كبيرة من المال لفاداتهم ، وقبل ان يبعث به ليسافر الى القاهرة ، زوده برسالة موجهة الى امير المؤمنين تتعلق بموضوع الكونتات الأسرى ، و قرأ أمير المؤمنين الرسالة ، وقام باطلاق سراح الاسرى بلا مقابل ، ومنحهم حرياتهم بكل سرور ، فيما عدا غودفري الذي كان اخوه بلدوين قد اشترى حريته ، (وعاد برداس بهم) وجرى استقبال للكونتات لائق بمكانتهم ، وتم الترحيب بهم من قبل الامبراطور في القسطنطينية ، وقد منحهم كمية كبيرة من المال ، وبعدما نالوا قسطا من الراحة واستجموا بعث بهم الى ديارهم ، وهم في غاية السرور ، للمعاملة التي لقوها منه ، اما بالنسبة لغودفري فقد اعيد ملكا على القدس ، وقام بارسال بلدوين الى الرها ، واصدر الامبراطور في هذه الآونة تعليماته الى صنجيل بالتنازل عن « اللاذقية » وتسليمها الى ادرونيكوس وتسليم مناطق مرقية وبانياس الى عمال يوماثيوس ، الذي كان انذاك حاكما لقبرص ، وكان على صنجيل ان يتابع زحفه بعد ذلك ، ويقاتل جهد طاقته بغية الاستيلاء على مناطق اخرى حصينة ، ونفذت هذه الاوامر حرفيا ، وقام بعد تسليم الاماكن المذكورة انفا بالتوجه الى انطرطوس ، فاستولى عليها دون سفك للدماء .

ودفعت هذه الاخبار اتابك دمشق للزحف ضده ، ولم يكن بامكان صنجيل التصدي لقوات دمشق التي كانت قوية وكبيرة العدد ، فقام بابداع خطة تدل على نكائه ، لكن ليس على شجاعته ، فقد وثق باهالي انطرطوس ، واخبرهم انه سيختبيء في زاوية من زوايا احد الابراج الكبيرة ، وقال لهم : « عليكم عندما يصل اتابك الا تخبروه الصدق ، بل قولوا انني خفت وفررت بعيدا » ، ولدى وصول اتابك سألهم عن صنجيل ، فأقنعوه انه قد فر حقيقة ، وكان اتابك متعبا بعد زحفه الطويل ، فقام بنصب خيمة قرب الاسوار ، واظهر له اهل البلدة كل علائم الصداقة ، وقام التركمان الذين لم يرتابوا بالامر ، بترك خيولهم وتسريحها لترعى في السهل ، وفي منتصف النهار ، عندما كانت الشمس تبعث بأشعتها من قبة السماء ، قام صنجيل ، وهو بكامل سلاحه ، ومعه رجاله ، وكان عددهم حوالي الاربعمائة ، قام بالاندفاع فجأة من خلال احدى البوابات ، وانقض على المعسكر ، وحاول بعض الرجال الشجعان التصدي له والقتال غير هيابين ولاأبهين بسلامتهم ، بينما حاول البقية الفرار بحياتهم ، لكن اتساع مساحة السهل ، وانعدام وجود اية اجمة او مرتفع او شعاب جبلية للاختباء بها ، جعلت الجميع يقعون بين ايدي اللاتين ، فكانوا جميعا طعمة للسيف ، فيما عدا حفنة منهم وقعوا بالاسر ، وقام صنجيل الذي بز خصومه وفاقهم بمسلكه هذا ، قام بالمضي باتجاه طرابلس ، ومان وصل هناك حتى تسلق احد التلال ، واستولى على نروته ، التي قامت بمواجهة المدينة ، والتي كانت جزءا من جبل لبنان ، ويمكن استخدامها بمثابة حصن ، ويمكن منها قطع الماء الذي يجري من جبل لبنان الى داخل طرابلس ، من فوق سفوح التل وقام صنجيل باخبار الامبراطور بكل ماعمله ، واعلمه بضرورة بناء حصن كبير هناك ، قبل ان تأتي قوة كبيرة من خراسان يمكنها ايقاد نار الحرب ، واستجاب الكسيوس ، واوعز الى حاكم قبرص بأن يتولى مهام البناء في اي نقطة حصينة يقع اختيار الفرنجة عليها (٥٧) ، وبينما كانت الامور تسير حسبما وصفنا ، تابع صنجيل مرابطته خارج طرابلس ، باذلا كل جهد ممكن للاستيلاء عليها ..

ودعونا الان نعود الى بوهيموند ، فهو عندما علم بنبأ وصول زينتزبلوكس الى اللاذقية ، اظهر ما ابطنه طويلا ، من صنوف الكراهية التي حملها ضد الامبراطور ، فأرسل ابن اخته تانكرد مع قوة كافية من العساكر للقيام بحصار المدينة ، ووصلت هذه الاخبار في الحال الى مسامع صنجيل ايضا ، فخف دون ان يضيع دقيقة واحدة من وقته ، وجاء الى اللاذقية ، ودخل في نقاش حاد مع تانكرد وحاججه طويلا ليجعله يقلع عن مهمته ، وبعد عدة مقابلات لم يقنع تانكرد ، وكانت حال صنجيل مثل الذي يغني للطرشان ، لذلك عاد الى طرابلس ، وقام تانكرد من غير تقاعس ، بتشديد الحصار ، وبادر زينتزبلوكس ، الذي ساء وضعه الان ، والذي ضغط عليه بشدة واصرار من قبل اعدائه ، بطلب النجدة والعون من قبرص ، وكانت الاستجابة بطيئة جدا ، مما جعله في وضع اليأس لابسبب الحصار فحسب ، ولكن ـ اكثر من ذلك ـ بسبب المجاعة ، لهذا قرر تسليم اللاذقية .

وبينما كانت هذه الحوادث تجري ، بات من المقرر ضرورة اختيار خليفة لغودفري ، يحل محله في الملك (ذلك انه كان قد مات) (٥٨) وإثر موته ، بعث اللاتين في القدس وراء صنجيل لجلبه من طرابلس راغبين في وضعه على العرش ، لكنه رفض ان يقوم بالرحلة الى القدس في ذلك الوقت ، وقد سافر فيما بعد الى العاصمة ، لكن عندما ادرك اهالي القدس استمرار رفضه يتصلب ، بعثوا وراء بلدوين (٥٩) واختاروه ملكا (٦٠).

وقصد صنجيل القسطنطينية حيث استقبل بالترحاب من قبل الامبراطور لكن عندما عرف الكسيوس خبر اعتلاء بلدوين للعرش ، احتفظ به في القسطنطينية ، ووصل في هذه الأثناء الجيش النورماندي (٦١) تحت امرة كونت بيندريت واخيه ، وقد وجه الامبراطور النصح مرارا اليهما بضرورة اتباع الطريق الذي سلكه سلفهم (اي عبر المنطقة الساحلية) لكنهما لم يصغيا اليه ، ذلك

انهما لم يرغبا بالانضمام الى الفرنجة(٦٢)، بل قد ارادا السفر عبر طريق اخر يقود الى الشرق ، ماضيين مباشرة نحو خراسان ، التي قررا احتلالها ، ولقد عرف الامبراطور بأن خطتهما كانت خطة مأسوية تماما ، وحيث انه لم تكن لديه الرغبة في ان يرى جيشا بهذا الحجم يعاني من الابادة (فقد كان هناك خمسون الفا من الفرسان ومائة الف من الرجالة) ولما لم يكن من الممكن اقناعهما ، فقد حاول ايجاد مايمكن اقناعهما ، فقد حاول ايجاد مايمكن وصفه طريقا جديدا ، واستدعى صنجيل وزيتاس ليذهبا معهما ، وكان عليهما تقديم النصح المناسب ، ويحولا قدر امكانهما بينهما وبين المغامرات الجنونية ، وعلى هذا عبر المضائق الى كيبوتوس ، واسرع الجميع خطاهم نحو بند ارمينية فاستولوا على انقرة على حين غرة (٦٣) ، ثم عبروا نحو هاليس ، ووصلوا الى بلدة صغيرة كانت بيد البيزنطيين ، وقد اطمأن اهلها للنورمان ووثقوا بهم على اساس انهم مسيحيون ، فخرج رجال الدين في مسوحهم وهم يحملون الاناجيل واقتربوا منهم لكن الذي حدث ان الغزاة لم يكتفوا بقتل الرهبان بطريقة وحشية وغير انسانية ، بل اقدموا على ذبح بقية المسيحيين وازالوهم من الوجود ، ثم تابعوا زحفهم باتجاه اماسيا ، وقام التركمان الذين كانوا بارعين بفنون القتال ، ومحتلين لجميع القرى على طريقهم ، قاموا باحراق جميع المؤن والاطعمة قبل وصولهم ، ثم قاموا بالهجوم عليهم مسرعين ، وفي يوم الاثنين تمكن التركمان من قهرهم ، ففي ذلك اليوم عسكروا في احد الاماكن في منطقة اماسيا ومعهم اثقالهم ، وقد خزنوها في داخل المعسكر ، لكن تم في يوم الثلاثاء استئناف القتال وطوق التركمان العساكر النورماندية ، لهذا حرموهم من فرصة التزود بالمؤن ، كما انهم لم يتمكنوا من اخذ خيولهم وحيوانات الظهر لورود ، ورأى الفرنجة بأم اعينهم ان الفناء بانتظارهم ، وقاموا في اليوم التالي (الاربعاء) بالخروج بكامل اسلحتهم ، غير عابئين بسلامة انفسهم ، وانخرطوا في لجة معركة قاسية مع البرابرة ، وصاروا الان في قبضة التركمان ، لهذا لم يستخدموا – في هذه الساعة – الرماح والنشاب ضدهم ، بل

امتشقوا سيوفهم ، والتحموا بهم عن قـرب ، وهـرب النورمـان في الحال ، وارتدوا نحو معسكرهم ، وانتظروا من يقدم اليهم النصح ، وتذكروا النصائح الخالصة التي قدمها لهم الامبـراطور ، وفتشـوا عنها ، فلم يجدوها معهم ، ولم يبق امامهم الا سؤال كل من صنجيل وزيتاس عن رأيهما ، وبحثوا في نفس الوقت واستفسروا فيمـا اذا كان في تلك الجوار أي منطقة هي تحت حـكم الامبـراطور ، علهـم يجدون مأوى لهم ، وتخلوا في النهاية عن مقتنياتهـم وخيمهـم مـع جميع المشاة ، وامتطوا خيولهم وشقوا طريقهم (٦٤) مارين بـأقصى سرعة ممكنة باتجاه المنطقة الساحلية لبند ارمينيا وبوريا (٦٥) وقـام التركمان بهجوم جماعي على المعسكر ، واستولوا على كل شيء فيه ، وشرعوا بعد ذلك بمطاردة الرجالة ، واصطدموا بهـم فـأبادوهم عن بكرة ابيهم ، اللهم الا حفنة من الرجال حملوهم اسرى الى خراسان ليجري عرضهم هناك .

هذا مايتعلق بنجاحات التركمان في معركتهم ضد النورمان ، اما ما يختص بصنجيل وزيتاس ، فانهما اخـذا طـريقهما عائدين الى القسطنطينية مـع عدد قليل مـن الناجين مـن بين الفـرسان ، واستقبلهم الامبراطور هناك ، وبعدما قدم لهم بعض الهدايا السخية من المال وسمح لهم بـالراحة ، سـألهم الى اين يودون الذهـاب ، فاختاروا القدس ، فاستجاب لمطلبهم تمام الاستجابة ، فـاعد لهـم سفينة وبعث بهم بعدما ارفقهم باعطيات كثيرة .

وبقي صنجيل في القسطنطينية ، والتحـق مـن هناك بجيشـه في طرابلس ، حيث بحث بجد واندفاع عن الوسائل التـي تمـكنه مـن الاستيلاء على المدينة ، ونزل به فيما بعد مرض قاتل ، فقـام وهـو يلفظ انفـاسه الاخيرة بـاستدعاء حفيده وليم (٦٦) ، فمنحـه جميع ميراثه مع جميع المواقع الحصينة التي استولى عليها .

وعينه قائدا عاما لقواته ، وعندمـا وصـلت انبـاء وفـاته الى الكسيوس كتب الى حاكم قبرص يامره بارسال نيكيتاس خالنتازس مع مبلغ كبير من المال ليعطيه الى وليم ، وان يعمل في سبيل كسـبه

الى جانبه ، واقناعه بان يقسم قسما صحيحا بالولاء للامبراطور ، وهو ولاء حافظ عليه خاله صنجيل المتوفى ، حافظ عليه باخلاص حتى آخر حياته .

ووصلت الاخبار الى الامبراطور باحتلال تانكرد لمدينة اللاذقية ، فارسل رسالة الى بوهيموند قال فيها : « لاشك انك عارف بالمواثيق والعهود التي صنعتها للامبراطور البيزنطي ، ليس من قبلك وحدك ، وانما من قبل بقية الامراء ، وانت الان اول من يحنث بوعده ، لقد استوليت على انطاكية ، وقمت بالاستحواذ بطرائق خفية على عدد اخر من الاماكن الحصينة بما في ذلك اللاذقية نفسها ، انني اطالبك انت بالذات بالجلاء عن مدينة انطاكية والاماكن الاخرى ، فبذلك تكون قد قمت بصنع ما هو صحيح ، ولا تحاولن اثارة العدوان والحرب مجددا ضد نفسك .

وقرأ بوهيموند هذه الرسالة على انفراد ، لانه لم يكن من الممكن الاستمرار بالدفاع عن نفسه بخداعه المعتاد ، فاعماله حملت شهادة واضحة على الحقيقة ، ولهذا أقر ـ نظريا ـ بان الرسالة محقة ، لكنه وجه اللوم الى الامبراطور في دفعه على الاقدام على اقتراف اعماله الشريرة ، وكتب اليه يقول : « انا لست مسؤولا عن هذه الاشياء ، لكنك انت المسؤول ، فانت الذي وعدت بان تلحق بنا على راس قوة كبيرة ، لكنك لم تكن راغبا في دعم وعودك بالاعمال ، اما بالنسبة لنا : اننا عانينا بعد وصولنا الى انطاكية ـ لمدة ثلاثة اشهر ـ صراعا رهيبا ، مع مجاعة لايمكن نسيانها ، وكانت شديدة الى حد اجبرت فيه معظمنا على اكل اللحوم المحرمة بالشريعة ، ومع هذا قاومنا وصمدنا احسن ما يمكن ، وبينما كنا نفعل ذلك ، فقد قام تاتشوس ، خادمكم المخلص ياصاحب الجلالة ، الذي عينتموه لتقديم العون لنا ، قام بالتخلي عنا في محنتنا ومضى بعيدا ، وخلافا لكل ما كان متوقعا تمكنا من الاستيلاء على المدينة ، والحقنا الهزيمة الماحقة بالقوات التي قدمت من خراسان لمساعدة رجالات

انطاكية ، والان اخبرني كيف يمكن لنا التخلي هكذا بكل سهولة عما نلناه بعرقنا وتعبنا »؟ .

ولدى عودة سفراء الامبراطور اليه ، وقراءته لجواب بوهيموند ، لاحظ ان بوهيموند الحالي هو نفس بوهيموند القديم ، الفاسد ولا امل بصلاحه ابدا ، ووضح على هذا ان حدود الامبراطورية الرومانية ينبغي ان تصان بشكل حازم ، كما ان مطامح بوهيموند غير الملجومة ينبغي ضبطها ، ولهذه الاسباب جرى ارسال بوتومايتز على راس عساكر دسره الى كيليكية ، وشكل هؤلاء الجند الذين صحبوه نخبة عناصر الجيش ، وكانوا من خيرة المقاتلين ، وكان كل منهم حامي الحمى ، وكان برفقته برداس وميخائيل كبير الخدم « سقاة الشراب في القصر الامبراطوري » وكان كلاهما من الفتيان ، وقد ظهر شعر لحيتهما للتو ، فعندما كان هذان الرجلان طفلين صغيرين وضعهما الامبراطور تحت رعايته ، وثقفهما ثقافة عسكرية جيدة ، وحيث انه اعتمد على اخلاصهما اكثر من سواهما ، بعث بهما للخدمة تحت امرة بوتومايتز مع الف اخرين من خيرة الجند من كل من البيزنطيين والفرنجة ، وكان عليهما مرافقة بوتومايتز واطاعته في كل شيء ، لكن الامبراطور اعتمد عليهما ـ في الوقت نفسه ـ باخباره برسائل سرية حول الاشياء العادية التي تقع من وقت الى وقت ، فقد كان همه وشغله الشاغل ضمان جميع جوانب كيليكية حيث سيكون انذاك من السهل الاعداد للعمليات ضد انطاكية ، وانطلق ـ على هذا الاساس ـ بوتومايتز ومعه جميع قواته ، ووصل الى انطاكية ، حيث اكتشف هناك بان برداس وميخائيل كانا لايطيعان اوامره ، وحتى يحول دون حدوث عصحيان بين قواته ـ العمل الذي كان من الممكن ان يعطل حماسه وشدة اندفاعه ، ويجبره على اخلاء كليكية دون انجاز اي شيء ـ قام على الفور باخبار الكسيوس بأعمالهما ، ورجا اعفائه من صحبتهما ، وبادر الامبراطور ، الذي كان عليما بمدى الضرر الذي يمكن ان يسببه مثل هذا الصنف من الرجال ، فأمر بتحويلهما مع جميع

المتهمين الي اداء مهام اخرى ، واخبرهما كتابة بأمره بالالتحاق من غير تأخير بقسطنطين (٦٧) بقسطنطين يوفر بيذوس في قبرص ،واطاعة كل ما يصدره اليهما من أوامر.

وقرأ الشابان التعليمات الصادرة إليهما ، وتلقياها بكل سرور ، وأبحرا بما أمكن من سرعة إلى قبرص ، وأمضيا هناك فترة وجيزة مع قسطنطين قبل أن أخذا يتصرفان برعونتهما المعهودة أيضا ، ومن الطبيعي أنه نظر إليهما بارتياب ، لأنهما كتبا أيضا الرسائل إلى الامبراطور ، وشحناها بالتهم ضده ، وتذكرا رعاية الامبراطور لهما ، وعواطفه نحوهما ، لذلك أشارا دائما إلى القسطنطينية ، وخشي الكسيوس من رسائلهما ، فقد وجد معهما في قبرص عددا من النبلاء المشكوك باخلاصهم ، والذين أبقاهم منفيين هناك ، وبما أنه صار من الممكن أن يصاب هؤلاء الرجال بعدوى مشاعرهم الفاسدة ، فقد أمر حالا كانتا كوزينوس أن يصطحب الشابين معه ، فجاء إلى كيرينا واستدعاهما ، وأخذهما بعيدا .

هذا ما كان من قصة برداس وميخائيل كبير الخدم « سقاة الشراب في القصر الامبراطوري ، أما بالنسبة لبوتومايتز فقد وصل إلى كيليكية مع موناستراس وبقية القادة الذين تركوا معه ، وعندما وجد أن الأرمن كانوا على وفاق واتفاق مع تانكرد ، مر بهم ، واستولى على مرعش مع المدن المجاورة والأماكن الصغيرة ، وترك قوة قادرة على حراسة جميع المنطقة تحت أمرة القائدنصف البربري موناستراس ، وعاد بوتومايتز ـ نفسه ـ إلى العاصمة (٦٨) .

و عندما انطلق الفرنجة نحو القدس ، و هم على نية الاستيلاء على مدن سورية ، قدموا وعودا سخية الى اسقف بيزا (٦٩) ، فيما لو ساعدهم على تحقيق أهدافهم ، وقد قنع بأقوالهم وأثار اثنين من زملائه كانا يعيشان على البحر لتبني المنهج نفسه ، وقام ـ من غير تأخير ـ بتجهيز بعض السفن ذوات الصفين من المجانيف ، وذوات الثلاثة صفوف والسفن الكبيرة والسريعة حتى بلغ التعداد إلى تسعمائة ، وأقلع نحو سورية ، وفي الطريق أرسلت قطعة من هذا

الأسطول تحوي عددا مناسبا من السفن لنهب مدن : كورفو ، كيوكاس ، كيفالونيا ، وزاسينياتوس ، وبناء على هذا أمر الامبراطور جميع مقاطعات الامبراطورية البيزنطية القيام ببناء السفن كما جرى اعداد بعضها ، وتجهيزها في القسطنطينية نفسها ، واستعمل الامبراطور من وقت إلى آخر سفنا من ذوات الصف الواحد من المجانيف ، وكان يقوم بنفسه بتقديم النصائح إلى صناع السفن حول طريقة بناء المراكب ، فقد كان يعرف أن أهل بيزا هم سادة الحروب البحرية ، وكان يخشى جانبهم ، ويتخوف الدخول في معركة بحرية معهم ، وتبعا لذلك أمر أن يثبت على مقدمة كل سفينة رأس أسد أو رأس واحد من الحيوانات البرية الآخرى وصنعت هذه الرؤوس من البرونز أو من الحديد المطلي بالذهب ، وكانت أفواهها مفتوحة ، وجعلت قشرة الذهب التي طلوا بها منظرهم مخيفا ، وكان من المفترض قذف النار الأغريقيةمن خلال أنابيب تنتهي في أفواه تماثيل رؤوس الحيوانات هذه بطريقة ، بدوا فيها وكأنهم يقذفون اللهب من أجوافهم .

وعندما أصبح كل شيء جاهزا ، استدعى ألكسيوس تاتيشوس ، الذي كان قد قدم لتوه من أنطاكية وعهد إليه بأمر هذا الأسطول ، ومنحه لقب امير امراء الماء ، لكنه عهد في الوقت نفسه الى لاندولف (٧٠) بالمسؤولية عن عمليات جميع الأسطول ، وتم ترفيعه الى مرتبة الدوق الأعظم ، لأنه كان أكبر الخبراء بفن حرب البحر ، وغادر الاسطول العاصمة في النصف الثاني من نيسان(١٠٩٩)م ووصل الى جزيرة ساموس ، ورست السفن قرب الشاطىء ، ونزلوا منها ، ثم سحبت جميع السفن الى الشاطىء الرملي وطليت هناك بالقار بشكل جيد ودقيق ، وجعلت جاهزة للعمل البحري ، وعندما سمع « البيزنطيون » بمسيرة البيازنة أقلعوا وأخذوا بمطاردتهم حتى جزيرة كيوس ، ووصل البيازنة إلى هذه الجزيرة في الصباح ، في حين وصلها البيزنطيون في المساء ، حيث لم يجدوا هناك أحدا من البيازنة ، لأنهم أبحروا نحو بعض البيازنة وقد تخلفوا (بينما الصيد الكبير كان قد نجا

منهم) وسألوهم عن الجهــة التــي قصــدها أســـطول البيازنة ، فقالوا : « اتجه نحو رودس وأقلع البيزنطيون بــالحال ثــانية ، وما برحوا أن رأوهم مــا بين بــاتر ورودس ، ورصــدوا أوضـــاع البيازنة وراقبوهـم ، فوجدوهم قد أعدوا أنفسهم للمعــركة بســيوف حادة وقلوب مستعدة للبراز ، واقترب الأسطول البيزنطــي منهــم ، وقام أمير بيلوبونيزي يدعى بيرش تاس ، وكان مختصا بــالكمائن البحرية ، قام لدى رؤيته للعدو ، بــالتجديف نحــوه بــأقصى سرعة ممكنة ، وشق طريقه إلى وسط الأسطول البيزي كالصاعقة ، ثم كر راجعا نحو البيزنطيين ، الذين ـ لسوء الحظ ، لم يدخلوا المعــركة بشكل نظامي ، لقد قاموا بانقضاض حاد ، لكن بقتــال فــوضوي ، وكان لاندولف ذاته هو أول من التحم بــالعدو ، لكن نيرانه أخــطأت الهدف ، وكان جل ما صنعه هو أنه بدد وقوده ، وقام الكونت المدعو باسم ايلي مون بهجوم جريء على قارب كبير من جهة المؤخرة ، فأصاب المرساة ، إنما وجد من المتعذر تمــزيقها ، وكاد نفســه أن يقع في قبضة العدو ، لولا أنه ـ بالساعة المناسبة ـ هيأ الوقــود ، وأعد أنابيبه ، ووجه ضربة مباشرة بالنار الأغريقية نحــوها ، ثــم ناور بسفينته ببراعة في مختلف الاتجاهات ، وتمــكن بــالحال مــن احراق ثلاث سفن بيزية كبيرة جدا ، وثارت في تلك الساعة عاصــفة هوجاء من الريح ، انقضــت على الســفن بــكل عنف وضربتهــا ، فانحرفت السفن جميعا ومــالت ، وأصــبحت مهــددة بــالغرق ، وصدمتها الأمواج . . فــدمرت ســاحات القتـــال ، وتمــــزقت الأشرعة (٧١) ، وخاف البرابرة ، وحل بهــم الهلع بســبب النيران التي وجهت اليهم وصبت عليهم(ذلك انهم لم يكونوا معتــادين على مثل هذه المعدات ، وارتفــع لهيب النيران ، ووجهــت في اي اتجــاه اراده البيزنطيون ، وغالبا ما اطلقت نحو اسفل الســفن وجــوانبها لخرقها او لتدمير اطرافها) كما فقــدوا عقــولهم بســبب وقــوعهم بالفوضى الناجمة عن البحر الهائج ، ولهذا قرروا الفرار.

هذا ما كان بالنسبة اليهم ، أما بالنسبة للأسطول البيزنطــي ، فإنه وقف على شاطىء جزيرةشبه اسمها عبارة « سيتلوس » وعندمــا

جاء الصباح ، أبحر نحـو رودس ، وألقـى البيزنطيون مـراسيهم هناك ، وقادوا أسراهم ، بمـا فيهـم حفيد لبـوهموند ، وحـاولوا اخافتهم عن طريق التهديد بالقتل أو البيع بمثابة رقيق ، ولكن عندما رأوا أن القتـل لا يخيفهـم ، وأن الرق ليس له تـأثير عليهـم ، لم يضيعوا وقتهم وقتلوهم صبرا جميعا .

أما الناجون من الحملة البيزية فقد انعطفوا نحو الجـزر الواقعـة على طريقهم حتى قبرص يريدون نهبها ، وحدث أن كان يومـاثيوس فيلوكاس في قبرص ساعة وصولهم إليها ، فقام بمحـاربتهم ، وهنا حل الهلع بقلوب بحارتهم ، فأقلعوا مبحـرين مـن غير أي اعتبـار لوجود رفاقهم الذين نزلوا الى الشاطىء للنهب وتخلوا عن معـظمهم وتركوهم على ظهر الجزيرة وساروا مسرعين في حالة مـن الخـوف الشديد نحو اللاذقية على نية الالتحاق ببوهموند ، وتمكنوا بـالفعل من الوصول الى اللاذقية ثم ذهبوا اليه معلنين عن رغبتهم بصداقته: وحيث كان بوهموند هو ذاتـه ، فقـد سر بـوصولهم ، واحسـن استقبالهم ، وهذا بالنسبة لهؤلاء ، اما ما حدث للذين هجـروا على اليابسة ، فانهم عادوا لجمع ما نهبوه ورأوا اسطولهم قد اقلع بعيدا القوا بأنفسهم بالبحر وماتوا غرقا جميعا.

ووصل بعد هـذا امير الماء البيزنطـي وبصـحبته لاندولف ، وبعـد وصولهما عقدا اجتماعا تباحثا فيه حول ابرام اتفـاق للسـلم مـع بوهيموند ، وعندما اقر الجميع بان مثل هـذا الامـر مـرغوب فيه ، جرى اختيار بوتومايتز ليكون مبعوثهم الى بوهموند وصـار اليه ، فاحتفظ به لمدة خمسة عشر يوما ، وكانت اللاذقية تعاني آنذاك من المجاعة ، وكان بوهموند هو نفسه بوهموند القديم مرة ثانية من غير تغيير ابدا رجلا لم يتعلم ما يعنيه الحفاظ على السلم ، وقد بعث الى بوتومايتز : « انك لم تقدم لاجل الصداقة ، وليس وجودك هنا للبحث عن السلام ، ولكن لتحرق سفني ، اذهـب بعيدا ، واعتبـر نفسـك سعيد الحظ ، لانني سمحت لك بالذهاب سـليما مـن الاذى » وعلى هذا مضى بوتومايتز منصرفا ليجد نفسه فيما بعد في ميناء قبـرص ،

وغدت نوايا بوهموند الشريرة الان اكثر وضوحا ، بعد كل ما ابداه ووضح الان ان ابرام معاهدة بينه وبين الامبراطور امر بعيد المنال ، لذلك رفع البيزنطيون مراسيهم ، واقلعوا جميعا يريدون العاصمة « فوق طريق من الماء » (٧٢) وبعدما بعدوا عن سايك (٧٣) ثار بهم اعصار شديد ضرب الامواج بغضب شديد مما سبب جنوح جميع السفن فيما عدا السفينة التي كانت تحت امرة تاتشوس ، فانها كادت ان تتحطم وكانت هذه هي نتائج الحرب البحرية ضد البيازنة .

وفي الوقت نفسه ، فان بوهموند الذي كان في جبلته ماكرا مخادعا ، خشي من نوايا الامبراطور ، لانه كان من الممكن له ان يسارع ويسبق الامور فيستولي على مدينة كوريكوس (٧٤) ويمركز هناك اسطولا بيزنطيا ، وبذلك يحمي قبرص ، ويمنع وصول حلفاء من المؤمل قدومهم من لومبارديا عبر سواحل الاناضول ، وبالفعل قرر الامبراطور — في ظل هذه الظروف — اعادة بناء كوريكوس ، واحتلال مرساها ، وقد كانت هذه البلدة في الماضي مدينة قوية جدا ، لكنها تحولت فيما بعد الى ركام ، والآن وقد رأى الامبراطور ابعاد استراتيجية بوهموند وتطلعاته اتخذ احتياطاته ، فأمر بترفيع الخصي يوستاثيوس من وظيفة الدوادار الى مرتبة كبيرقباطنة الاسطول ، وكلفه بمهمة الاستيلاء على كوريكوس ، وبعثة للقيام بها من غير تأخير ، وكان عليه ان يسارع الى اعادة بناء ذلك الموقع مع حصن سلوقية الواقع على مسافة ست مراحل منه ، وقضت الاوامر الصادرة اليه بوضع حاميه قوية في كل واحد من الموقعين ، وتعيين القائد سترابو في منصب الولاية وسترابو هذا كان صغير الحجم ، الا انه كان في فن الحرب رجلا عظيم الاهمية ، زد على هذا كان من المتوجب مرابطة اسطول قوته كافية في الميناء ، ويتم الاعلان الى البحارة ليكونوا دائمي اليقظة منتظرين وصول النجدات الى بوهموند من لومبارديا ، وان يقدموا العون المحتاج الى قبرص .

وابحرت الحملة فاعاقت خطط بوهموند ، واعادت كوريكوس الى

حالتها السالفة واعيد بناء سلوقية في الحال ، ومتنت دفاعاتها بخندق أحاط بالمدينة ، وكان لدى ستر ابو مايكفي من الرجال للتصدي لأية طوارىء في كل من سلوقية وكوريكوس مع عدد كاف من السفن راسية في الميناء ، وعاد بعد هذا يوستاثيوس إلى العاصمة ليطرى اطراء كبيرا من قبل الامبراطور وينال أكبر الجوائز منه ٠

هذا ما كان بالنسبة للاعمال التي تمت في كوريكوس وعلم (٧٥) الامبراطور باخبار حملة جنوية على نية الابحار لمساعدة الفرنجة ، وقد رأى بان الجنّويين مثلهم مثل الاخرين سيسببون مشاكل كبيرة للامبراطورية البيزنطية ، وتبعا لهذا تم ارسال كانتاكوزينوس على رأس جيش معتبر ، وابحر في الوقت نفسه لاندولف مع اسطول بحري جرى اعداده على جناح من السرعة وكانت مهمة لاندولف الابحار بما امكن من سرعة نحو الشواطىء الجنوبية (٧٦) فقد توجب محاربة الجنوية لدى عبورهم كيليكة .

ومضى الرجلان كل واحد منهما لتنفيذ المهمة المعهودة اليه لكن عاصفة هوجاء سببت تدمير عدد كبير من السفن ، وقد سحبت السفن الى الشاطىء وجرى تقييدها بكل عناية ، وعلم كانتاكوزينوس في هذه الاثناء بان الاسطول الجنوي قريب في الجوار ، فاقترح ان يأخذ لاندولف ثماني عشرة سفينة (لانه كما صدف كانت هذه السفن الوحيدة الصالحة للابحار في ذلك الوقت ، والباقي على اليابسة) ويبحر نحو رأس ماليوس حيث يستطيع ان يلقي مراسيه هناك (حسب نصيحة الامبراطور) وعندما يمر العدو بقربه ، اذا شعر بان لديه القدرة على دخول الصراع ، هاجم بالحال ، واذا رأى انه لايستطيع ، تدبر امر سلامة نفسه وسلامة سفنه وجذف على مقربة من الشاطىء حتى كورون ومضى لما أمر به ، وعندما رأى حجم الاسطول الجنوي الكبير قرر عدم القتال وعوضا عن ذلك أبحر بسرعة نحو كورون ، وقام كونتاكوزينو بأخذ جميع القوى البحرية البيزنطية (لانه كان من الضروري ان يفعل ذلك) وحمل ما يمكنه حمله من العساكر معه وشرع بمطاردة الاعداء

باقصى سرعة ممكنة ، وقد اخفــق بــاللحاق بهــم ، لكنه وصــل الى اللاذقية ، وكانت لديه الرغبة في الدخــول في امتحــان للقــوة مـــع بوهيموند ، حيث قام باحتلال الميناء ، وهاجم ـ بلا توقف ـ اسوار المدينة ليلا ونهارا ، لكنه لم يحقق اي تقدم يذكر ، فمئات الهجمــات تمت على سور المدينة ومئات منهن ردن واحبطت محاولاته لكســب الفرنجة الى جانبه ، وهكذا اخفقت معركته ضدهم ، لهذا عمــد الى تشييد سور مستدير من الصــخور الجــافة بين الرمــــال وســـور اللاذقية ، واستغرق هذا العمل ثلاثة ايام بلياليهــا ، وعندمــا كملت عمارته ، استخدمه بمثابة غطاء واق ، بينما جرى بناء سور آخر من الداخل بشكل محكم جاء بمثابة قاعدة للعمليات القتالية ضد دفاعات المدينة ، زيادة على هذا شيد برجان على طرفي مدخل المرسى ، ومــد سلسلة معدنية بينهما ، وبهذا حال دون وصول المساعدات من جهــة البحر ، واستولى في الوقت نفسه على عدد من الحصون على طــول الساحل مثل : عرقة ، والمرقب ، وجبلة ، ومواقع اخرى حتى حدود طرابلس ، منها ما كان يدفع في السابق الجزية للمسلمين ، لكن اعيد الان ضمه الى اراضي الامبراطورية البيزنطية وتوحيده معهــا وذلك بعد بذل الكثير من الجهد والعــرق ، وادرك الكســيوس انه ينبغــي حصار اللاذقية من جهة البر ايضا ، فلقد كان صاحب تجربة طــويلة بحيل بوهموند وطرائق قتاله (ذلك أنه كان عبقريا في سرعة التعرف على أخلاق الرجال والحكم عليهم) ويعرف جيدا الطبيعــة الخيانية لهذا الامير واعمال تمرده ، لهذا بعث موناستراس على رأس فــرقة قوية ليحاصر اللاذقية من جهة البر ، بينمــا قــام كانتــاكوزينوس بحصارها من جهة البحر ، لكن قبل وصول موناستراس كان زميله قد تمكن من احتلال كل من الميناء والمدينة ، وبقيت القلعــة (يشــار اليها في ايامنا هذه بــاسم القلة) في ايدي خمســمائة مــن مشــاة الفرنجة ومائة من فرسانهم .

وسمع بوهموند بكل هذا كما وصله خبر مــن الكونت المســؤول عن الدفاع عن القلعة ، بانعدام المؤن لديه ، فقام بجمع قواته مع قــوات تانكرد وصنجيل ، وحمل جميع انواع الاطعمــة والمؤن على ظهــور

البغال ، وانطلق يريد اللاذقية ، وعندما وصلها لم يحتج الى طويل وقت حتى أوصل المؤن إلى القلعة ، وقابل بوهموند كونتاكوزينوس ، وسأله :ما هي الغاية المرجوة من وراء تشييد هذا البناء ؟ فأجابه : لاشك انك على بينة بانك انت والامراء من اتباعك قد اقسمتم على الدخول في خدمة الامبراطور ، ووافقتم عن طريق القسم على تسليمه اية واحدة من المدن استوليتم عليها ، ولقد حنثت بقسمك والقيت جانبا بمعاهدات السلم ، فبعد ان استوليت على هذه المدينة وسلمتنا اياها ، تراجعت وبدلت رأيك واحتفظت بها ، لهذا عندما قدمت الى هنا لتسلم المدن التي استوليت عليها ، جاءت زيارتي بدون ثمرات ، وهنا سأله فأجابه :هل جئت الى هنا على أمل أخذها منا بالمال أم بالقوة؟فأجابه:لقد تسلم حلفاؤنا المال لشجاعتهم في الحرب ، فامتلأ بوهيموند غضبا ، و قال له:تيقن مما سأقوله : من غير المال لن تستطيع الاستيلاء على مركز للحراسة ، قال هذا وامر جنده بالاستعداد وحرضهم على الهجوم على ابواب المدينة لكن عندما اقترب الفرنجة من الاسوار ردوا على اعقابهم من قبل رجال كانتاكوزينوس الذين كانوا يحرسون الشرافات بحيث اطلقوا عليهم رشقات كثيفة من النشاب ، تشبه زخات الثلج ، واعاد بوهموند جمع قواته ، ودخل واياهم الى القلعة ، وحيث انه كان يرتاب باخلاص الكونت الذي كان يدافع عن اللاذقية ، ولا يثق برجاله ، فانه قام بتسريحه وتسريحهم ، وعين قائدا جديدا ، ثم قام في الوقت نفسه بتدمير الكروم القريبة من الاسوار حتى يتمكن فرسان الفرنجة من التحرك بحرية ، وبعدما قام بهذه الاجراءات غادر اللاذقية وعاد الى انطاكية .

اما بالنسبة لكانتاكوزينوس ، فانه تابع اعمال الحصار بكل الوسائل المتوفرة لديه ،وجرب مئات الطرق ، فقام بالانقاض المفاجىء ، وعمل على التضييق على الفرنجة في القلعة ، وفي الوقت نفسه كان موناستراس مشغولا أيضا ، حيث زحف عبر اليابسة على رأس فرسانه فاحتل لونغينياس (٧٧) وطرسوس واذنة والمصيصة ، لا بل جميع كيليكية .

واصاب بوهموند الهلع خوفا من تهـديدا ت الامبـراطور ، لانه لم يملك وسائل الدفاع (حيث لم يكن لديه جيش في البر ولا اسـطول في البحر وقد احاقت به الاخطار من الجانبين) فلجأ الى ابداع خطة لم تكن مشرفة ابدا ، لكنها كانت بارعة الى حد مدهش ، فقد قـام اولا بايداع مدينة انطاكية في يدي ابن اخته تانكرد بن المركيز اودو ، ثـم نشر اشاعة وروج لها في كل مكان ، وقد دار تحول نفسه ، بانه قـد ما ت ، وهكذا اقنع العالم اجمع بموته ، وبمبـارحته لهـذ ه الدار ، وهو ما يزال على قيد الحياة ، وانتشر ت هذ ه الاشاعة كانتشار النار في الهشيم ، وعمت جميع الارجاء .

وعندما تصور بأن القصة انتشرت بما فيه الكفاية اعد تابوتا من الخشب وسفينة ذات صفين من المجـذفين ، ووضـع التـابوت على ظهرها ، بينما ظل هو في داخله جسدا ميتا ، لكنه يتنفس الهـواء ، وابحر ت السفينة من السويدية ـ ميناء انطاكية ـ نحو روما ، ونقل على ظهرها بمثابة جسد ميت ، وظهر للجميع (من النعش وسـلوك مرافقيه) ان بداخله جسدا ميتا ففي كل محطة قام البرابرة بتمزيق شعورهم ، واظهروا مناحتهم عليه ، بينما تمدد بوهموند على طـوله داخل نعشه ، وكان هذا هو مظهر المو ت الوحيد البادي منه ، ففـي بقية المجالات كان حيا .

هذا ما كان يقوم به في كل مكان ساحلي ، لكن عندما كان المركب في عرض البحر ، تقاسم اتباعه طعامهم معه ، وقاموا على خدمته واولوه عنايتهم ، حتى محطة جديدة حيث تتجدد التظاهرة والمنا حـة ثانية مع المو ت المزيف ، وحتى لايبدو الجسد في حالة شاذة مـن عدم التفسخ وظهور النتن قاموا بخنق ـ او قطع عنق ـ احـد الطيور ، ووضعوه معه في التابو ت ، فمع حلول اليوم الرابع او الخـامس على الاكثر كان نتن الجيفة والروائح الكريهة واضح لكل انسان يستطيع الشم (٧٨) ، و ظن هؤلاء الذين خـدعوا بـالمشهد الخـارجي ، ان الرائحة المجوجة صادرة عن جسد بوهموند ، لكن بوهموند نفسـه

استمد مزيدا من الغبطة اكثر من اي انسـان ممـن سـاءهم مـا اصابه ـ كما تصوروا ـ من سوء الحظ .

وبالنسبة لي انني لتعتريني الدهشة ويتولاني العجب ، كيف تحمل بوهيموند مثل هذا الحصار والتضييق على تنفسه ، وكيف ظل بين الاحياء ، مع انه حمل الى جانبه رفيقه الميت ، لكن هـذا علمني كيف يمكن ان تكتشف جميع البرابرة ، فهم ما ان يقررون صنع امر من الامور ، لايوجد شيء مهما بلغت درجة تعويقه لايمـكنهم تحمله ، فهم عندما يصرون على قضية من القضايا يقدمون على تنفيذها مهما كان نوع المعاناة .

لم يكن هذا المخلوق بوهيموند ميتـا بعـد ـ كان ميتـا فقـط بالتظاهر ـ ومع هذا لم يتردد في العيش مع جسد ميت ، ان وحشية بوهيموند لاسابق لها في عصرنا ولانظير ، وكان باعثها فقط اسقاط الامبراطورية البيزنطية ، فما من بربري او اغريقي اخترع من قبـل مثل هذه الخطة ضد اعدائه ولاحتى بالخيال ، ولايمكن لاي انسان في ايامنا ان يرى ذلك ممكنا ثانية ، وعندما وصل الى كورفو شعر كأنه لجأ الى قمة جبل مانع ، او ان الجزيرة هي ملجأ له حصـين ، وانه تحرر الان من كل خطر ، فقـام مـن مـوته المزعوم ، وغادر النعش حيث كان جسده ممدداً ، فتمتع بنور الشمس تماما ، وتنشق الهواء النظيف ، وتمشى حول مدينة كورفو ، وعندما رآه اهل المدينة يرتدي ثيابا بربرية غريبة ، سألوه عن نسبه وعن وضعه واسمه ، ومن اين جاء والى اين هو ذاهب ؟وعاملهم بوهيموند بتـرفع ، وطلب مقـابلة والي المدينة ، وكان رجلا اسمه الكسيوس ، جاء بـالاصل مـن بند ارمينية ، وعندما التقى وجها لوجه مع بوهموند بدا الاخير متعجرفا في مسلكه ومظهره ، وتحدث برعونة بلهجة بربرية صرفة ، وامره ان يرسل الرسـالة التـالية الى الامبـراطور حيث قـال : « اليك ، انا بوهيموند ، الابن الشهير لروبرت ، ابعث بهذه الرسالة : لقد علمـك الماضي وعلم امبراطوريتك كم هـي مخيفـة شـجاعتي وعداوتـي ، فعندما يرجع السعد الي ، فان الرب على ما اقول شـهيد : انني لن

اتوقف عن الانتقام لكل الشرور التي لحقت بـي في الماضي ، فمنذ ان اسـتوليت على انطـاكية ، اثناء زحفـــي في الاراضي البيزنطية ، استعبدت سورية كلها برمحي ، لكن جميع مـا لحقني مـن شرور ، ونزل بي من نوازل كان بفعلك وفعل جيشك ، امـالي كلهـا تبـدد ت واحدة تلو الاخرى ، لقـد خضـت غمـار الاف الانتـكاسات والاف الحرو ب القاسية ، لكن الوضع اختلف الان ، اريدك ان تعـرف انه مع اني كنت ميتا قد عد ت الى الحياة ثانية ، ونجوت من قبضتك على شكل رجل ميت ، ونجوت من كل عين وكل يد وكل خـطة ، وانا الان حي ، انني اتحرك وأتنفس الهواء ، ومن جزيرة كورفو ابعـث اليك ياصاحب الجلالة اخبار عدوانية ومكروهة ، لن يسرك قراءتها ، لقد سلمت مدينة انطاكية الى ابن اختي تاذكرد ، وتركته هناك عدوا كفئا للرد على قادة عساكرك امـا أنا نفسي فسـأذهب الى بـلادي فـأنا بـــــــــــــــــــــــــالنسبة لك

ولاصدقائك بين الأموا ت أما بالنسبة لي ولأصدقائي فـواضح انني رجل حي أتآمر لوضع نهـاية شريرة لك ، وحتـى أثير الفـوضى في العالم البيزنطي الذي أنت حاكمه ، فأنا الذي كنت حيا غدوت ميتا ، والآن الذي مت ، أنا حـي ، واذا مـا وصـلت الى ايطـاليا والقيت ناظري على اللومبارديين ، وجميع اللاتين والجرمان وفـرنجيتنا ، وهم جميعا رجال حرب اشاوس ، عندئذ سأقوم بالعديد من المذابـح في مدنك ، وسـأجعل الدم يسـيل في بلدانك حتـى أركز رمحـي في القسطنطينية ذاتها».

مثل هذا ، هو الغلو الذي تفاخر به البرابر ة .

يوميات صاحب اعمال الفرنجة

التبشير بالحملة الصليبية الاولى

« اعمال البابا التبشيرية ـ الحملة الجماهيرية ـ الصليبيون في القسطنطينية ـ جيش بوهيموند وقوات النورمان الايطاليين ـ الوصول الى نهر الوردار » .

١ ـ جاء الى الوجود هذا اليوم ، ما كان المسيح يقوله دوما لاتباعه ، ومصداقا لما جاء في الكتاب المقدس : « إن اراد احد ان ياتي ورائي ، فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني » (١) ، مما احدث هياجا عظيما شمل بلاد غالية (فرنسا) ولم يتوان ، كل ذي قلب طاهر وروح سليمة ، صادق النية في إيمانه بالرب ، عن حمل الصليب والمبادرة لأخذ الطريق نحو القبر المقدس .

وسرعان ما اكتسب اوربان الحبر الرسولي لكرسي روما الى جانبه اهالي البلدان القائمة فيما وراء الجبل (٢) ، من جميع المطارنة والاساقفة والشمامسة والرهبان ، وقام يخطب في القوم ويعظهم بمواعظ ثمينة موضحا انه لايجوز لكل رجل يسعى في خلاص روحه ان يتوانى عن سلوك طريق الرب بكل خشوع ، وان احتاج الى المال فالعناية الربانية ستسعفه ، واضاف الحبر الرسولي في بيانه قائلا : « ايها الاخوان ، عليكم ان تتحملوا الكثير من المشقة والفقر والعذاب ، من اجل اسم المسيح ، وتعانوا العري والاضطهاد والمذلة والمرض والجوع والعطش ، وما شاكل هذا من صنوف الشرور ، كما قال الرب لحوارييه : « سأريكم كم ينبغي ان تتألموا من اجل اسمي » (٣) وقوله : « اني انا اعطيكم فما وحكمة لايقدر جميع معانديكم ان يقاوموها او يناقضوها (٤) » او كما قال ايضا : « انكم ستأخذون ميراثا عظيما (٥) » .

ولم تلبث هذه الدعوة ان انتشرت رويدا رويدا في جميع بلاد غالية واعمالها ، وما ان سمع الفرنجة عظته هذه حتى بادروا بكل سرعة الى وضع علامة الصليب كل منهم على كتفه الايمن ، مرددين جميعا رغبتهم في السير على خطى المسيح وفي اقتفاء اثاره ، وكلهم امل ان تمكنهم تلك الخطى من استعادة السلطة من البرابرة (المسلمين).

وسرعان ما غادرت حشود الفرنجة بيوتهم وديارهم وانقسموا الى ثلاثة فرق ، حيث دخل فريق منهم فيه بطرس الناسك والكونت بلدوين دي مونس ، وسار هؤلاء الفرسان الشجعان وغيرهم كثير – ممن لااعرفه – على الطريق الذي سلكه من قبل شارلمان – ملك غالية الكبير – الى القسطنطينية (٦) .

٢ – وكان بطرس الناسك اول المتوجهين نحو القسطنطينية ، وقد وصل اليها « يوم ٣٠ تموز لسنة ١٠٩٦ م » وبرفقته الجزء الاعظم من جماعة الالمان ، وقد انضم اليه هناك اللمبارديون ، وكثير ممن سواهم وقام الامبراطور بتزويدهم بما امكن من المؤن ، وقال لهم : « لاتعبروا البسفور قبل ان تلحق بكم بقية العساكر المسيحية ، لانكم لستم من القوة والتعداد مما يمكنكم من محاربة التركمان» .

وسلك المسيحيون اثناء اقامتهم سلوكا شائنا ، حيث هدموا القصور ، واشعلوا فيها النيران ، واقتلعوا الرصاص من اسقفة الكنائس وباعوه للاغريق ، مما اغضب الامبراطور شديد الغضب ، فامر وهو في حاله هذا ، بابعادهم وعبورهم البوسفور .

ولم يتوقف الفرنجة – بعد كل ما اقترفوه – عن ارتكاب كافة صنوف الجرائم مثل اضرام النيران في البيوت والكنائس وتخريبهم اياها ، ووصلوا اخيرا الى نيقوميديا ، حيث تميز اللمبارديون والالمان عن الفرنجة وابتعدوا عنهم ، وفعل الالمان كذلك ، وولجوا الى بلاد اسية الصغرى ، وزحفوا لمدة اربعة ايام يريدون نيقية ،

وعبروا بجانب قلعة خاوية اسمها اكزرغوردوس ، فاستولوا عليها ، وقد عثروا في داخلها على كميات كبيرة من المؤن كالقمح والخمور واللحوم وشتى اصناف الاطعمة .

ولما عرف التركمان بخبر استيلاء المسيحيين على هذه القلعة هبوا لاستردادها ، وكان امامها بئر ، وعند اقدامها نبع ماء جار ، فنصب رينالد الى جانبه شركا للتركمان ، ووصل التركمان يوم القديس ميخائيل (٧) حيث وجدوا رينالد واصحابه ، فانقضوا عليهم وابادوا قتلا واسرا عددا كبيرا منهم ، ولاذ الباقون بالفرار الى داخل القلعة واعتصموا بها ، وشرع التركمان في حصارهم فيها ، ومنعوا عنها الماء ، فاشتد العطش برجالنا شدة دفعتهم الى فصد عروق جيادهم وحميرهم وشرب دمائها ، والقى الاخرون الخرق معلقة بالشصوص في الكنف ، وعصروها في افواههم ، وكان احدهم يبول في يد رفيقه ، ثم يشرب الاثنان ، وحفر البعض منهم حفرا في الارض الرطبة واضطجعوا فيها ، وهالوا التراب على صدورهم ، وهكذا وصلت شدة عطشهم الى هذا الحد ، وقد عمل الاساقفة والكهنة على شد عزائم رجالنا ، واخذوا يحضونهم على الصبر .

واستمرت هذه المحنة ثمانية ايام متوالية ، ثم عقد مقدم الالمان مع التركمان اتفاقا وعدهم فيه تسليم اصحابه ، ثم تظاهر بالخروج الى القتال ، وهرب اليهم ، وحذا حذوه الكثيرون فلحقوا به ، وواجه حتفه كل من رفض التنكر للرب ، اما الذين استمروا على قيد الحياة فقد وقعوا في الاسر وتقاسمهم الاعداء كاقتسام السائمة ، واتخذ التركمان من بعضهم هدفا سددوا نحوه سهامهم ، ثم عادوا يتهادون بعضهم ، ويبيعون بعضهم الاخر بيع الدواب ، وساق فريق من الاعداء الغنيمة الى مساكنهم ، واخذ فريق حصته الى خراسان (٨) وانطاكية وحلب ، وذهب كل بها الى حيث كان يقيم .

لقد كان هذا هو نيل الشهادة الكريمة التي حظي بها الرجال الاوائل على طريق تمجيد اسم الرب يسوع .

ولما علم التركمان بعد هذا بوجود بطرس الناسك ، وجوتيه سانز افوار (٩) ومن برفقتهما في هرسك فيما وراء نيقية زحفوا ضـــدهم ، وكلهم حماس وامل في القضاء عليهم ، كما قضوا على رفـــاقهم مـــن قبل ، والتقوا اثناء زحفهم بجوتيه ومعه جماعته ، فانقضوا عليهـم وابادوهم (١٠) ، اما بطرس الناسك فقد عاد الى القسـطنطينية (١١) ، بعدما عجز عن تنظيم اتبـاعه مـن العسـاكر الذين تـولاهم الياس فاضحوا عازفين عنه ، منصرفين عن خطه ، وقـد انعـطف عليهـم التركمان فابادوا منهم عددا كبيرا ، ذلك انهم صادفوا بعضا منهـم مستغرقا في نومه ، وبعضـهم الاخـر اعزلا مجـردا مـــن كل شئ فابادوهم جميعا ، وكان هناك كاهن يقـوم بمـراسيم الوعظ فقتلوه فنال الشهادة وهو على المذبح ، وقد هرب الذين كتب لهم النجاة الى

هرسك ، كما القى بعضهم انفسهم في البحـر والتجـا سـواهم الى الاحراج في الجبال وتخفوا فيهـا ، وانطلق التـركمان في اثـارهم ، وجمعوا الحطب لاحراقهم هم والمدينة معا ، لكن المسـيحيين الذين استولوا على المدينة القوا النار على الحـطب ، واشـتعلت الذيران واتجه اللهب نحو التركمان فاحرق بعضا منهم ، وحفظ الرب رجالنا فلم تمتد اليهم تلك النيران ، لكن على الرغم من ذلك تمكن التـركمان اخيرا من اسرهم احياء وتقاسموهم فيما بينهم كما سـبق لهـم ان فعلوا مع سلفهم ، وشنقوهم في كل ناحية ، وسـاقوا بعضـهم الى خراسان ، ومضوا ببعضهم الاخر الى ايران .

لقد جرت كل الاحداث في شهر تشرين اول ، ولم يكتم الامبراطور (الكسيوس) فرحته الكبرى ، حين وصله خبر تمـزيق التـركمان لصفوف رجالنا ، واصدر تعليماته بعبورهم البوسفور بعدما جردهم من كل الاسلحة التي كانوا يحملونها .

٣ ــ ودخل الفريق الثاني اراضي الصرب والكروات مـع كل مـن ريموند الصنجيلي واسقف بوي (١٢) ، وسار الفـريق الثـالث عبـر الطريق القديم الذي كان يقـود الى رومـا ، وكان في صـفوف هـذا

الفريق بوهموند (ابن روبرت جسكارد) ورتشارد السالرني (١٣) ، وروبــرت كونت فـلاندرز ، وروبــــرت النورمــــاندي (١٤) وهيوج الكبير (١٥) ، وايفـرادي بـوا سيه ، واكاردي مـونتمريل وايزور موزون ، وغيرهم كثير ، وقد مضى بعض منهم الى ميناء برنديزي ، وبعضهم الآخر الى ميناء باري ، وغيرهم الى اوترانتو.

وابحر هيوج الكبير ووليم بن المركيز (اخو تانكرد) من بــاري ، والقيا مراسيهما في احواز دورازو ، التي ما كاد عاملها يعلم بخبــر ارسائهما حتى حاك في نفسه خطة دنيئة ضدهما ، حيث القى القبض عليهما وقام بتــرحيلهما الى القســطنطينية (١٦) ، ليمثــلا امــــام الامبراطور ، وليقسما له يمين الولاء .

ووصل اخيرا الكونت غودفري الى القسطنطينية ، وقد كان مقدما على جميع الامراء ، ويقود جيشا كبيرا ، ووصل اليها قبــل مــوعد ميلاد الرب بيومين ، واقام معسكرا في خارج المدينة ، حتى سمح له الامبراطور المتجبر في الاقامة في احدى الضواحي ، واعتــاد الكونت على الاقــامة حيث حــدد له ، وكان يبعــث بــــرجاله كل يوم — في هدوء — لجلب الاعلاف وكل ما تحتاجه الخيول ، وخيل لرجــاله انه بامكانهم الذهاب آمنين متى ارادوا وانى شاءوا ، لكن الامبــراطور الكسيوس الغدار امر مــن كان لديه مــــن العســــاكر والمرتــــزقة بمهــــاجمتهم والايقــــاع بهــــم انى صـــــادفوهم (١٧) ، ولما علم بلدوين — اخو غودفري — بهذا كمن لعساكر الامبــراطور ، وانزل بهم ضربة قاسية ، وهم في طريقهم للقضاء على رجاله ، واســتبسل في قتله لهم ، ومنحه الرب التأييد ، فانتصر عليهم واسر منهم ستين رجلا ، غير من قتلهم ، وجاء بهؤلاء الى اخيه غودفري .

واستطار الامبراطور غضبا حينما وصل اليه نبأ هذه الاحداث ، ولما رآه غودفري ساخطا متجهما نحوه ، ترك تلك الضــاحية ومعــه اتباعه ، وعسكر خارج المدينة ، ومع حلول الظلام اصدر الامبراطور الشقي اوامره الى قواته بالقيام بهجوم على غودفري والمســيحيين

الذين معه ، لكن غودفري تصدى لهم على راس عساكر المسيح ،، وانتصر عليهم ، وقتل منهم سبعة رجال وطارد الباقين حتى بوابة المدينة ، ثم عاد الى معسكره ولزمه مدة خمسة ايام استجم بها ، ثم عقد صلحا مع الامبراطور ، الذي حثه على عبور ذراع القديس جورج (البوسفور) وسمح له بالتزود بالعتاد حسب المستطاع ، كما اعطاه بعض المال لينفقه صدقة على الفقراء .

٤ ــ اما بوهموند المنصور ، فقد كان منشغلا انذاك بحصار جسر سكافارد في امالفي ، ولدى معرفته بوصول جماعة مسيحية كبيرة تفوق العد والحصر ، وعازمة على المضي نحو القبر المقدس ، وانها تعهدت بشن الحرب ضد الكفرة ، اهتم بوهموند بالامر ، وأستفسر عن اسلحة هذه الجماعة وعن شعارها المسيحي الذي تحمله في الطريق ، وعن هتافها في المعركة ، فقيل له : انهم يستخدمون اسلحة مناسبة للحرب ، ويحملون شارة صليب المسيح على احد الكتفين ، او على الظهر ، وانهم يرددون بصوت واحدا شعارا نصه :« انها ارادة الرب ــ انها ارادة الرب ــ انها ارادة الرب » ، وامتلا بوهموند ــ في الحال ــ بالروح القدس ، وامر بتقطيع رداءه الثمين الذي كان يرتديه الى قطع صغيرة يصنع منها صلبانا (١٨) .

وانطلق الجزء الاكبر من الفرسان الذين كانوا يحاصرون المدينة ، نحو بوهموند وانضموا اليه ، حتى ان الامير « روجار » كاد ان يبقى وحيدا ، لهذا اقلع عن متابعة الحصار ، وعاد الى صقلية مغتما وشاكيا لضياع جيشه .

وعندما رجع الامير بوهموند الى ممتلكاته (١٩) ، استعد غاية الامكان لاخذ الطريق نحو القبر المقدس ، وبعد لأي ركب البحر يصحبه جيشه وكل من تانكرد بن المركيز ، والامير رتشارد ، واخوه رينول ، وروبرت انز ، وهرمان دي كاني ، وروبرت سورديفال ، وروبرت بن توستاني ، وهنفري بن رودولف ، ورتشارد بن الكونت

رينوف ، وكونت رسبولو ، واخوته : بويل دي شارتر ، واوبريه دي ديانو ، وهنفري دي مونت سكيابوزا ، وركب الجميع البحر ، وعبروه على حساب بوهموند ، والقوا مراسيهم في بلغاريا حيث وجدوا كميات وافرة من الحبوب والخمور وجميع انواع المؤن .

وساروا حتى نزلوا في وادي ادرنة ، واقاموا ينتظرون وصول بقية الجيش ، واخذ بوهموند في تلك الاثناء في التشاور مع جيشه واثارة همم رجاله وحضهم على السلوك الحسن والتواضع والكف عن النهب وايذاء سكان البلاد المسيحيين وامرهم الا ياخذوا من الاشياء مايزيد على حاجتهم المعاشية .

وحل موعد الرحيل ، فانطلقنا (٢٠) نسير من منطقة الى منطقة ومن مدينة الى مدينة ، ومن قلعة الى قلعة ، حتى وصلنا الى كاستوريا حيث احتفلنا احتفالا بهيجا بميلاد السيد المسيح ، ومكثنا بها عدة ايام نبحث عما نتزود به من مؤن ، لكن سكان المدينة رفضوا تزويدنا بما طلبناه لشدة خوفهم منا ، فهم لم يعتبرونا بمثابة حجاج ، بل نظروا الينا على اننا جماعة طامعة في تخريب اراضيهم والفتك بهم ، ولقد استولينا على الخيول والثيران والحمير ، لابل على كل ماصدفناه او عثرنا عليه في طريقنا ، ولما غادرنا كاستوريا دخلنا الى اقليم بيلاغوني حيث صدفنا بلدة من بلدان الهراطقة فهاجمناها من جميع اطرافها وسرعان مااستولينا عليها ، فاضرمنا النيران واحرقناها بمن فيها من السكان ودمرناها تدميرا.

ثم وصلنا الى نهر الوردار ، وتابع من هناك الأمير بوهموند سيره مع فئة من عساكره ، وذلك لتميز الكونت روستولو عنه ، واقامته هناك مع اخوته ، لكن الجيش الامبراطوري جاء فهاجم هذا الكونت كما حارب اخوته وجميع من كانوا برفقتهم ، وعندما سمع تانكرد بهذا ارتد على اعقابه ، وعبر النهر سباحة و انضم الى اخوته ، و لحق به الفان من العساكر ، و حذو حذوه في عبورهم النهر ، حيث وجدوا العساكر الامبراطورية والمرتزقة يحاربون ضد رجالنا ،

فباغتوهم ، واستبسلوا في هجومهم عليهم حتى هزموهم ، ثم اسروا عددا منهم واقتادوهم مشدودي الوثاق الى حضرة الامير بوهموند فسألهم قائلا : ماالذي دفعكم ايها التعساء على قتل جندي الذين هم جند المسيح ، مع انني لم اناجز امبراطوريتكم العداء قط ؟ (٢١) فأجابوه : الحق نقول ، لقد جرى استئجارنا لحساب الامبراطور ، وكان علينا ان ننفذ كل ماامرنا به ، فسمح بوهيموند لهم بالانصراف دون ان يقتص من واحد منهم وقد جرت هذه الواقعة في اليوم الرابع من اسبوع صوم الاربعين . (٢٢) •
مبارك هو الرب دائما • امين .

الكتاب الثاني

من واقعة نهر الوردار الى الاستيلاء على نيقية

مسيرة النورمان الايطاليين ـ ذهاب بوهموند الى القسطنطينية. الامراء الصليبيون في القسطنطينية ـ قسم الولاء ـ زحفهم نحو نيقية. حصار نيقية والاستيلاء عليها.

٥ ـ وبعث الامبراطور في الوقت نفسه واحدا من رجاله المقربين الى مبعوثينا ، وكان هذا ممن يحتل مكانة سامية لديه ، ممن يدعونهم مواليه ، بعثه ليتولى ارشادنا الى السبل الامنة في جميع بلاده وحتى نصل الى القسطنطينية وكان يأمر ـ اثناء جوازنا ببلدانه ـ السكان بحمل الاقوات كما فعل الذين تحدثنا عنهم قبل ، وكان هؤلاء السكان قد استولى عليهم الخوف ، وكانوا يخشون من عساكر الامير بوهموند الاشاوس ، حتى انهم لم يأذنوا لواحد منا باجتياز اسوار مدنهم ، وحدث ذات مرة ، ان اراد واحدا من رجالنا مهاجمة احد الامكنة الحصينة والاستيلاء عليه ، راغبا في حيازة ماكان فيه من ذخائر كثيرة ، ورفض بوهموند الحكيم طلبه واذكر عليه محاولة مغادرة مكانه الا بموافقته وذلك تمسكا بوعده الذي قطعه للامبراطور ، وقد غضب غضبا شديدا من تانكرد ، واشتد غضبه ايضا على بقية الآخرين (٢٣) ، وقد جرت هذه الواقعة ليلا ، وفي صباح اليوم التالي خر . سكان المدينة يطوفون بارجائها ، وهم يحملون الصلبان في ايديهم ، ومثلوا امام بوهموند الذي رحب بهم ، وهش لهم ، ثم صرفهم بعدما طمأنهم على انفسهم وعلى بلدهم.

ووصلنا بعد ذلك الى بلدة تدعى سيرا (٢٤) حيث اقمنا معسكرنا ولقد وجدنا بها كمية وافرة من المؤن المناسبة لهذا الموسم ، وعقد بوهموند هناك اتفاقية مع اثنين من كبار عمال الامبراطورية ، وقد دفعته رغبته في الحفاظ على سلامة الارض ومحبته لهما على اصداره الاوامر الى رجالنا للقيام باعادة جميع السائمة التي

انتهبوها ، وانتهى بنا المسير بعدئذ الى مدينة روسا (٢٥) ، فخرج اهلها من الاغريق جميعا فرحبوا بنا ، ونصبنا بها خيامنا في يوم الاربعاء ـ المقدس ـ السابق لعشاء الرب السري الاخير (٣٦) ، وترك بوهموند جميع قواته هناك ، واصطحب معه شرذمة صغيرة من الفرسان ، وعهد الى تانكرد بقيادة جند المسيح ، وعندما وجد تانكرد الحجاج يقدمون على شراء الاطعمة ، تعهد بالابتعاد عن الطريق العام ، وقيادة الشعب الى مكان يستطيع ان يجد فيه المؤن بوفرة ، وعلى هذا توغل في واد فيه كل شيء ضروري للعيش ، وقد احتفلنا فيه احتفالا بهيجا بعيد القيامة .

٦ ـ وعندما عرف الامبراطور بان بوهموند العظيم المبجل في طريقه اليه ، امر باستقباله بكل حفاوة ، وانزله في منزل فاخر واقع خارج المدينة (٢٧) ، ولما نفض عنه غبار السفر واستجم قليلا ، بعث الامبراطور اليه يسأله القدوم عليه للتفاوض معه على انفراد ، ولقد اشترك في الاجتماع كل من غودفري واخيه (بلدوين)وكان كونت صنجيل قد اقترب انذاك من المدينة ، وقلق الامبراطور من ذلك وغضب غضبا شديدا ، واخذ يحيك مؤامرة تمكنه من تسخير عساكر المسيح لصالحه ، سواء أكان عن طريق المكيدة أم الخداع ، لكن العناية الربانية صرفت عنهم كل مكيدة ولم تمكنه لاهو ولارجاله من ايقاع ادنى أذى بهم ، وفي هذا الوقت الذي كان فيه بوهيموند وغودفري مجتمعين بالامبراطور ، اجتمع في مكان آخر جميع مقدمي البطارقة (النبلاء) الذين كانوا في القسطنطينية ، وخافوا أن يفقدوا مدينتهم ، فقاموا بتدبير بعض الخطط الخرقاء ، حيث خيل اليهم ان زعماء جيشنا والأمراء سيقدمون على أداء قسم الولاء للامبراطور ، لكن رجالاتنا رفضوا مطلب الامبراطور وعروضه وقالوا : ان هذه أمور مزرية بنا ، ولايجوز لنا أن نقسم يمين الولاء فلربما غرر بنا زعماؤنا ، وآنذاك من الذي يمكنه حسم هذه المسألة فقد يقولون عند ذاك : ان الضرورة الملحة قد حملتنا على الخضوع والانصياع لمشيئة الامبراطور .

ووعد الامبراطور الأمير بوهموند الشجاع ، والذي كان يخشاه حيث انه فر من أمامه أكثر من مرة ، وعده أن يقطعه أرضا وراء انطاكية ، تمتد مسيرة خمسة عشر يوما طولا وثمانية أيام عرضا ، مقابل تقديم بوهموند يمين الولاء له ، من غير تردد ، ووعده الامبراطور أنه لن يتخلى عن عهوده اليه ، مادام متمسكا بولائه (٢٨) ، وغريب حقا كيف تصرف هؤلاء الفرسان الشجعان الأشاوس هذا التصر ؟ لا شك ان الحاجة الملحة ارغمتهم على القبول بتقديم قسم الولاء.

وتعهد الامبراطور من جهته لرجالنا بالوفاء بعهوده ، وانه سيضمن سلامتهم ، لابل قد أقسم أنه سيرا فقنا شخصيا ومعه جيشه واسطوله ، وأنه سيؤمن جميع المؤن التي سنحتاجها برا وبحرا ، من غير تباطؤ ، وسيسعى الى تعويض جميع خسائرنا ، وتدارك كل ماسنحتاج اليه ، حتى لايشعر أحد من الحجاج ، وهم في طريقهم نحو القبر بشيء من الخوف أو الملل ،

وكان الكونت صنجيل مقيما في هذا الوقت في احدى المقاطعات ، وبقي جيشه معسكرا في الخلف ، وبعث اليه الامبراطور يطلب منه أن يقسم يمين الولاء له كما فعل غيره من الأمراء ، ورفض صنجيل وشرع يخطط ساعتئذ للانتقام من الجيش الامبراطوري لكن الأمير غودفري وروبرت كونت فلاندر مع بقية البارونات عذلوه وأخبروه أنه ليس من العدل أن يشهر سيفه في وجه الامبراطور ولمحاربة المسيحيين ، وزاد بوهموند العاقل على ذلك أنه اذا أقدم (كونت تولوز) على ارتكاب أي عدوان ضد الامبراطور ، وخالف ماتعهد به بقية الأمراء ، فانه ــ اي بوهموند ــ سيقف بنفسه ضده والى جانب الامبراطور ولدى سماع صنجيل هذا مضى للتشاور مع رجاله ، ثم عاد فأقسم يمين الولاء والتبعية للامبراطور ، وتعهد بالحفاظ على حياة الامبراطور واحترام ارادته ، وتشريف مكانته ، وعدم تعريضه للاساءة أو المهانة من قبله أو من قبل واحد من رجاله ، ومع هذا يلاحظ أنه عندما وجهت الدعوة اليه لحضور الحفل العام الذي أقامه

الامبراطور احتفاء بما تعهد به الأمــراء ، رفض الدعوة وأصر على رفضه وأعلن أنه لن يستجيب حتى لو قاده رفضـــه الى مــوته وتلف نفسه ، وفي الوقت الذي كان هذا كله يحــدث في العــاصمة اقتــرب جيش بوهموند منها .

٧ ــ وحتى يتجنب كل من تانكرد ورتشارد السالرني أداء قســم الولاء للامبراطور تسللا هاربين وعبرا البوسفور خفية ، واصطحبا معهما الجزء الأكبر من عساكر بوهموند ، ولم يلبــث جيش الكونت صنجيل أن وصل الى القسطنطينية ، حيث أقام هو ورجــاله بعض الوقت ، وبقي بوهموند في صحبة الامبراطور للتشــاور معــه حــول الوسائل المجدية التي ينبغي اتخاذها لتسهيل عبور القوات الموجودة وراء نيقية ، بينما مضى الأمير غودفــري الى نيقــوميديا وبــرفقته تانكرد وبقية الأمراء ، ولبث الجميع هناك ثلاثة أيام .

ولما وجد الأمير (غودفري) أنه ليس هناك طريق يمكن المسير عليه وقيادة هذه الأعداد نحو نيقية ، فالطريق الذي سبق أن عبره الصليبيون الأوائل لايتحمل حشودا كثيفية مثل هذه الحشود ، أقول لما وجد غودفري الحال على هذه الصورة ، قدم أمــامه سرية فيهــا ثلاثة آلاف رجل وسلحها بالفؤوس والسيوف ، وأمــرهـا أن تتقــدم أمام الجيوش وأن تقوم بتمهيد الطريق وتوسيعه ليتمكن حجاجنا من عبوره الى نيقية ، وبالفعل تمكن هؤلاء الرجــال مــن شــق طــريق مناسب عبر شعاب احد الجبال العالية ، وقاموا أثناء عملهم بصنع كمية من الصلبان من الخشب والحديد ، ونصبوها على شكل صوى لتكون وسيلة ارشاد لحجاجنا ، وهكذا وصــلنا الى أحــواز مــدينة نيقية حاضرة بلاد آسية كلها ، وكان يوم وصولنا هو السادس مــن أيار، و هنا أقمنا معسكرنا .

ومضينا قبل وصول الأمير بوهموند نلتمس الخبز ، فلم نجــد الا القليل منه ، حتى أن الرغيف الواحد كان يبــاع بعشرين أو ثــلاثين ديناري ، ولما وصل بوهموند الحكيم جلب معه عن طريق البحر مؤنا

كثيرة ، وتوالى بعد هذا وصـــول الامـــدادات عبـــر اليابســـة والماء ، فعمت الفرحة العظمى بين صفوف عساكر المسيح .

٨ ــ وشرعنا يوم صعود الرب (٢٩) في مهاجمة المدينة مـن جميع أطرافها ، وقمنا بصنع عدد من الأبــراج الخشــبية زودنا بعضــها بأكباش أردنا أن نهدم بهــا أبــراج الأســوار ، وبعــد مضي يومين استطعنا أن نقترب من أسوار المدينة بكل شجاعة واندفاع ، فهدمنا أسوارها ودككنا أبراجها ، وقــام التــركمان المدافعــون عن المدينة بإرسال رسالة استغاثة ، وعندما وصــلت النجـدات بعثــوا اليهــا يقولون : أقبلوا غير هيابين ، واقتربوا غير وجلين ، وادخلوا مــن الباب الجنوبي لأنكم لن تجدوا في هذه الناحية من يعترض ســبيلكم أو يقف في طريقكم .

وفي اليوم نفسه ــ اي يوم السبت التالي ليوم صعود الرب تمكن الكونت صنجيل وأسقف بــوي مــن احتـــلال تلك الجهـــة الجنوبية ، وخرج هـــذا الكونت ، الذي جـــاء مـــن بـــلاد غير بلادنا ، خرج ترعاه العناية الربــانية ، وهــو يزهــو بـــأسلحته الدنيوية ، فـــانقض بجيشــه على التــركمان الذين كانوا يزحفــون نحونا ، وحيث أنه كان مســلحا بشـــارة الصـــليب مـــن جميع الجوانب ، فقد استبسل في هجـومه عليهـــم وقـــاتلهم بشـــدة متناهية ، فألحق بهم الهزيمة وانتصر عليهم ، فلاذوا بالفرار بعدما خلفوا وراءهم أعدادا كبيرة من القتلى ، وكانت جماعة أخرى مــن التركمان قد أقبلت تريد نجدة من سبقها ، أقبلت ونفــوس رجــالها تفيض سرورا وأملا بـــالنصر المحقــق ، وأحضروا معهــم الحبـــال ليربطوا بها رجالنا ، ويأخــذوهم معهــم مصـــفدين بـــالأغلال الى خراسان ، وكانوا في حالة من النشوة والطرب ، وأخذوا ينحــدرون فئة تلو أخرى من قمة مــرتفع ، وكانوا كلمــا وصــلوا الى الســهل ليستقروا هناك ضربت أعناقهــم بــأيدي رجــالنا ، الذين أخـــذوا يضعون رؤوس هؤلاء القتلى في العرادات ويقذفون بهــا الى داخــل المدينة بغية نشر الرعب بين صفوف سكانها التركمان .

وتبادل بعد هذا كونت صنجيل وأسقف بوي الرأي و اتفقا حول الوسائل التي تمكنهما من هدم أحد الابراج ، وكان قائما أمام معسكريهما ، وقد عمدا الى ارسال عدد من الرجال لحفر نفق تحته بغية تعليقه ، ومضى هؤلاء بحماية جماعة من حاملي الأقواس والنشاب ، وجرت عملية الحفر بنجاح ، وتم وضع كمية من الأخشاب تحت أساسات البرج ، ثم أضرمت فيها النيران ، ومع حلول الظلام إنهار البرج ، غير أن القتال توقف بسبب الظلام ، فانتهز التركمان الفرصة وخرجوا في الليل الدامس فرمموا ماتشعث من الأسوار حتى عادت أقوى مما كانت عليه ، وفي الصباح رأى رجالنا ذلك وأدركوا أنه بات من المحال انزال الأذى بالعدو من تلك الجهة .

وتلاحق وصول العساكر ، فوصل روبرت (كونت هيوز) النورمندي ، والكونت ايتين (٣٠)، وغيرهما كثير ، ثم وصل روجر دي بانفيل ، وقام بوهموند بمهمة حصار المدينة من الجهة الأمامية ، ووقف الى جانبه تانكرد ، ثم التحق به الأمير غودفري وكونت فلاندر يعاونه روبرت دوق نورمندي ثم الكونت صنجلي ومعه أسقف بوي ، واشتد الحصار الذي ضرب على نيقية من جهة البر شدة كبيرة ، ولم يعد بامكان أحد ما الخروج من المدينة أو الدخول اليها ، ووقف الجميع في هذه الساعة وقفة رجل واحد ، لكن من الذي يمكنه احصاء تعداد جيش المسيح ؟!

ويخيل لي أنه لم يتأت لأحد ، ولن يتأتى لانسان أن يشاهد مثل هذا العدد الهائل من الفرسان ، وهم في غاية التأهب والاستعداد (٣١) .

لكن كانت هناك بحيرة كبيرة واقعة في الجهة المقابلة لنيقية ، فيها قوارب للتركمان ، الذين ملكوا حرية الخروج من مدينتهم لجلب الأعلاف والأخشاب وغير ذلك من أنواع العتاد ، وتشاور قادتنا حول هذا الأمر ، وقر قرارهم على ارسال مبعوثين عنهم الى

القسطنطينية يطلبون من الامبـراطور انقـاذ عدد مـن السـفن الى شفتوت حيث وجد فيها ميناء ، كما طلبـوا منهـم أن يوعز بجمـع ماأمكن جمعه من الثيران ، وسوقها عبر الجبـال والأحـراش الى احواز البحيرة ، وسرعان ماتم تنفيذ ذلك ، وبعـث الامبـراطور في الوقت نفسه مرتزقته ، وجلبت القوارب ، ولم ير القوم انزالهـا الى الماء في وضح النهار ، لكن عندمـا حـل الظـلام انزلوهـا الى البحيرة ، واعتلاها المرتزقة وهم في كل اسـلحتهم ، ومـع بـزوغ الفجر شوهدت القوارب الصغيرة وهـي تجـدف وسـط البحيرة في احسن نظام ، ميممة شطر المدينة ، ومـاكاد التـركمان يرون هـذا المشهد ، حتـى تملكتهـم الدهشـة واحتـاروا في امرهم ، وتساءلوا : أتـراها لقـومهم أم أنهـا لعسـاكر الامبراطور ؟ وسرعان مـاعرفوا أنهـا نجـدة مـن الامبراطور ، فاستولى عليهم الرعب ، وهلعوا ، واجهشوا في البكاء والنحيب بينما كان الفرنجة يطيرون فرحا ، ويمجدون الرب .

ولما ايقن التركمان في النهاية ، انهم لن يستطيعوا تلقي اية نجدة من جيوشهم ، ارسلوا سفارة الى الامبراطور ، تخبره باستعدادهم لتسليم البلد له ، اذا سمح لهم بالخروج مـع نسـائهم و أطفـالهم و جميع ما يملكون ، و سر الامبراطور و ابتهج ، و دفعته سوء طـويته الى القبول و الايعاز باخراجهم آمنين ، و ارسالهم سالمين مطمئنين الى القسطنطينية للمثول امام جلالته ، و عاملهـم بـاللطف و اللين ليكونوا على استعداد للتعاون مع و نصب كمائن للفرنجة ، و اقـامة العقبات في طريقهم (٣٢) .

واستمر حصار نيقية سبعة اسابيع وثلاثة ايام ، واسـتشهد فيه العديد من رجالنا ، وعرجت ارواحهم الطـاهرة الى الرب مغتبـطة جذلى ، ومات كثير من الفقراء جوعا في سـبيل تمجيد اسـم الرب ، وصعدت نفـوسهم منتصرة الى السـماء مجللة بـاثواب الشـهادة البيضاء ، وهي تهتف جميعا بصوت واحد:« حتى متى ايها السـيد

- ٢٥١٢ -
القدوس الحق لاتقضي وتنتقم لدمائنا مـن السـاكنين على الأرض ،
انت يامن تستحق مدائحنا جيلا بعد جيل ، لك المجد ، آمين» (٣٣) .

زحف الصليبيين نحو آسية الصغرى

معركة دوريليوم(٣٤)(اول شهر تموز ١٠٩٧)

٩ ـ وسار التركمان ، بعد سقوط نيقية ، الى القسطنطينية للقاء الامبراطور ، الذي ازداد سرورا بكل ما حدث ، فأقدم على توزيع الكثير من الهبات على فقرائنا.

ووصلنا في اليوم التالي لمغادرتنا نيقية الى جسر (٣٥) ، خيمنا للاستراحة على مقربة منه لمدة يومين ، واستيقظ رجالنا مع بزوغ فجر اليوم الثالث ، وكان سكون الليل ما زال مخيما ، ولما لم يستطيعوا ركوب الطريق نفسه معا ، انقسموا إلى فريقين ، سار كل منهما على طريق ، وكانت المسافة بينهما حوالي اليومين ، وسافر مع الفريق الأول كل من بوهموند ، وروبرت دوق نورمنديا وتانكرد العاقل وسواهم كثير .

وانقض التركمان في اليوم الثالث انقضاضا عنيفا على بوهموند وصحبه ، وشرع الأعداء يصرون على اسنانهم ، ويصرخون صرخات عالية مدوية ، وهم يرددون بألسنتهم عبارة شيطانية لا اعرفها (٣٦) ، ولما رأى بوهموند العاقل هذا العدد الهائل من التركمان مندفعين بكل شدة وهم يزمجرون بصوت مرتفع كمن به مس من الشيطان ، امر بعض الفرسان بالترجل من على مطاياهم ، والإسراع في نصب خيمته ، وقبل أن يتم نصبها أعاد قوله : على جميع الفرسان ، عليكم أيها المبجلون يا فرسان المسيح الشجعان ، التميز عن الرجالة في الذهاب قدما نحو اليمين ، وليبادر الرجالة إلى إقامة المعسكر وليكن رائدهم العقل ، فنحن نواجه يوما عصيبا والعدو محدق بنا من كل الأطراف .

وما أن انجز هذا كله حتى أحاط بنا التركمان من كل جانب ، وأخذوا في محاربتنا برمينا بالحراب ورشقنا بالنشاب من مسافة

بعيدة وبشكل مدهش ، فأجمعنا على الخروج بغية صدهم على الرغم من عجزنا عن مقاومتهم وعدم قدرتنا على احتمال وطأة هجوم هـذا الحشد الكبير من الأعداء ، وقدم النسوة لنا في ذلك اليوم مساعدات كبرى مشكورة ، إذ قمن بحمل الماء إلى رجالنا ليطفئوا بها ظمأهم ، ولم يتوقفن عن تحميسهن وحثهن على مثـابرة القتـال والمدافعـة ، وسارع بوهموند الحكيم إلى إعلام الآخـرين ، وأعني بهـم الأمير غودفري ، والكونت صنجيل وهيوج الكبير ، وأسـقف بـوي وبقية فرسان المسيح ، وطلب منهم المبادرة دون توقف للسير نحو المعـركة مخاطبا إياهم بقوله : « من أراد منكم أن يسـهم اليوم بنصـيب في الحرب فليقدم شاهرا سـيفه غير متـردد » ، واسـتجابوا لندائه ، وكان غودفري المعروف بشدة اقدامه وشجاعته ، وهيوج الكبير أول الواصلين على راس قواتهما ، ولم يلبث أن وصل أسقف بوي ومعه عساكره ثم تلاه كونت صنجيل في جيش كثيف التعداد .

واستبدت الدهشة برجالنا وراحوا يتساءلون: عجبا من اين يمكن لمثل هذا العدد الهائل من التركمان والعرب والمشارقة وسواهم أن جاء ، ذلك أن هذا الجنس الآثم ، والمحروم من رحمة الرب قد غطى بحشوده الكثيفة وجه الأرض في الجبال والتلال والسهول والوديان ، في داخل المدينة وخارجها ، وجرت بين صفوفنا مشاورات عاطفية ، قلنا فيها بعد حمد الرب وتبادل الراي : « اعملوا كل ما في وسعكم ، وابذلوا كل جهد ، واعتمدوا كل وسيلة للاتحاد في سـبيل نصرة دين المسيح ، والدفاع عن الصليب المقدس ، ذلك أنكم إذا أرضـيتم الرب هذا اليوم انقلبتم أغنياء موفوري الثراء » .

ولم يلبث شمل رجالنا أن التـأم ، وعبـئت الصـفوف ، وكان على المجنبة اليسرى كل من بـوهموند الحـكيم ، وروبـرت النورمندي ، وتانكرد الفطن ، وروبرت دي انزا ، وورتشارد السالرني ، وزحـف اسقف بوي من وراء مرتفع لتطويق التركمان الكفرة ، وكان معهـم على المجنبة اليسرى ريموند كونت صنجيل ، وهـو الفـارس الذائع الصيت ، وكان الأمير غودفري على المجنبة اليمنى ، ومعه الفـارس

المقدام كونت فلاندر ، وهيوج العظيم ، وأخرون كثير ممن لا أعرف اسماءهم .

ولدى اقتراب فرساننا بادر التركمان والعرب والمشارقة والغلمان وجميع شعوب البرابرة ، إلى الفرار لا يلوون على شيء من منافذ الجبال ومسالك السهول ، وكان عدد التركمان والفرس والرعاع والمشارقة والغلمان وسواهم من الوثنيين يبلغ ستين الفا وثلاثمائة الف مقاتل ، هذا عدا عن العرب الذين لا يعرف عددهم غير الله ، وهربوا نحو خيامهم بكل سرعة ، بيد أنهم لم يتمكنوا من المكوث بها طويلا ، واضطروا إلى متابعة الفرار ونحن نلاحقهم ونجري في اثارهم نقتل فيهم سحابة يوم كامل ، وقد استولينا على غنائم عظيمة من الذهب والفضة والخيول والجمال والحمير والسائمة والأبقار ، وأشياء لا تحصى غير هذه مما لاأعرفها ، وما كان لواحد من رجالنا أن ينجو في هذا اليوم لولا وجود الرب معنا على ساح المعركة ، ولولا أنه تداركنا بإرسال الجيش الآخر بالسرعة القصوى ، وقد استمر القتال دونما توقف من الساعة الثالثة حتى التاسعة ، ولم يرض الرب المتعالي الرحيم أن يهلك فرسانه ، أو أن يقعوا في قبضة الأعداء ، فلعث لنا بهذه النجدة (٣٧) على جناح السرعة ، وقد قتل في هذا اليوم اثنان من فرساننا النبلاء وهما: غودفري دي مونت سكابوزر ووليم ابن المركيز اخو تانكرد ، كما لقي غيرهم من الفرسان والرجالة الذين لااعرفهم مصرعهم ايضا.

من هو الرجل البصير العاقل الذي يجرؤ على وصف براعة التركمان ومواهبهم الحربية ومقدار شجاعتهم ؟ كان قد خيل إليهم أنهم سيدخلون الرعب إلى قلوب امة الفرنجة عن طريق تهديدهم إياهم بنشابهم كما سبق وفعلوا بالعرب والمشارقة والأرمن والسوريين والأغريق ، لكن إذا قضى الرب الا يتغلبوا على رجالاتنا فإنهم لن يجدوا إلى ذلك سبيلا ، ولقد كان حقا ما قيل من انه لا يجوز لأحد أن يدعي الفروسية إذا لم يكن من بين الفرنجة او التركمان ، وسأقول أنا بدوري الحقيقة ، ولن يستطيع احد

مناقضتي : لو أن التركمان امنوا إيمانا مطلقا بالمسيح واتبعوا دين المسيحية المقدسة ، وتأتى لهـم أن يعتـرفوا بإله واحـد في ثـلاثة اقانيم ، هي : ابن الله المولود من العذراء ، الذي عانى ثم قام مـن بين الأموات ، وصعد إلى السماء أمـام أعين حـوارييه ، وأرسـل التعزية الكاملة بالروح القدس ، وقيض إليهم أن يؤمنوا ايضا إيمانا صافيا حقيقيا بأن له الحكم في السماء والأرض ، لما وجدنا انسـانا يمكن أن يعادلهم في القوة والشجاعة والبراعة في القتال (٣٨) .

لقد شاءت إرادة الرب أن يواجهـوا الهـزيمة على أيدي رجـالنا ، وكانت هذه المعركة يوم أول تموز .

الكتاب الرابع

الزحف الصليبي نحو انطاكية

عبور الصليبيين أسية الصغرى ـ ذهـاب كل مـن بلدوين وتانكرد الى طرسوس

جواز أرمينية الصغرى واقليم كبـدوكية ـ وصـولهم الى أبواب انطاكية

١ـ بعد ايقاع الهزيمة الساحقة بالتركمان أعداء الرب والمسيحية المقدسة ، وفرارهم لمدة أربعة أيام واربع ليال متوالية سويا ، وصل الخبر بأن زعيمهم سليمان بن سليمان الكبير قد انهزم نحـو نيقية ، حيث صادفه عشرة آلاف عربي فقالوا له : « أيها التعس ، يا أشقى الناس طرا ، مـا الذي حملك على الفـرار » ؟ فـأجابهم سـليمان بقوله : عندما انهزم الفرنجة من قبل ، كنت احسب انني سأخـذهم أسرى مقرونين بالأصفاد ولما اردت ربـطهم جمـاعة تلو أخـرى ، ابصرت من ورائهم حشود كثيفة لا تعد ولا تحصى ، ولو اتيح لكم أو لغيركم الحضور لشهدتم حشودهم تغـطي وجـه الأرض والجبـال والسهول والتلال والوديان ، فنحن لم نكد أن نراهم حتى استولى علينا الفزع ، واستبد بنا الهلع ، ولم نعد ندري ما نفعل ، فقد سرنا حتى كدنا أن نقع في أيديهم ، والآن إذا كنتـم تثقـون بمـا أقـول ، ارحلوا من هنا لتوكم ، إذ لو عرفوا خبـر قـدومكم ، لما نجـا أحـد منكم ، فلما سمعوا مقالته هذه ولوا الأدبار ، وتفرقوا أيدي سـبأ ، وانسابوا في جنبات آسيا الصغرى .

أما نحن فلم نتوقف من جانبنا عن ملاحقة أولئك التركمان الطغاة ، الذين كانوا يلوذون بالفرار من أمامنا يوميا ، وكانوا كلما مروا ببلد أو موقع حصين كذبوا على أهله وخدعوهم قائلين : « لقـد هـزمنا المسيحيين جميعا وكان نصرنا عليهم مؤزرا ، إلى حد انه لن يجـرؤ بعد اليوم أحد منهم على الوقـوف أمـامنا ، لهـذا دعونا ندخـل

عليكم » ، لكنهم كانوا ما يكادون يدخلون البلد حتى يعملوا يد السلب والنهب في جميع البيوت والكنائس وفي كل ما اعترض سبيلهم ، وكانوا يستولون على الخيول والحمير والبغال وجميع الذهب والفضة وعلى كل ما وصلت إليه أيديهم ، ثم كانوا ينطلقون ومعهم أبناء النصارى ، لكن بعد أعمالهم الحرق والتهديم في كل ما عجزوا عن حمله والانتفاع منه ، كانوا يفعلون هذا كله وهم يفرون من أمامنا ويخشون لقاءنا ، ولقد طاردناهم عبر الصحارى والفيافي الخالية من الماء والحياة ، فأحاق بنا الخطر ، وكدنا ألا نخرج أحياء ، وعانينا من الجوع وشدة الظمأ ، ولم نجد ما نسد به الرمق غير الشوك الذي كنا نقتلعه ونسحقه بأكفنا ، فهذا هو الطعام الذي عشنا عليه ونحن في أشد حالات السغب ، وقد نفقت معظم خيولنا ، واضطر كثير من فرساننا إلى الترجل ، ولقد ألجأنا النقص في المطايا إلى استخدام الثيران بدلا من خيول القتال ، واستعملنا ونحن في وسط العوز الماعز والخراف وحتى الكلاب لحمل أمتعتنا .

ووصلنا بعد ذلك إلى منطقة شديدة الخصب ، تفيض بالمأكولات والأطايب ، وتزخر بشتى أنواع الحياة ، واقتربنا من مدينة قونية ، حيث نصحنا أهلها أن نحمل معنا كميات زائدة من المياه ، لأننا سنفتقده طوال يوم كامل من مسيرتنا ، ووصلنا بعد ذلك إلى نهر أقمنا إلى جواره مدة يومين ، واستمر أعداؤنا في التقدم أمامنا حتى أفضى بهم المسير إلى مدينة هرقلية ، حيث وجد هناك فريق كبير من التركمان يعد العدة للتصدي لجند المسيح ويبحث عن أجدى الوسائل التي تؤذيه ، وما كاد جند الرب يرون هؤلاء التركمان حتى انقضوا كالأسود عليهم ، وحملوا عليهم حملات شديدة ، فأسرع أعداؤنا إلى تولية الأدبار ومضوا فارين كسهم شديد انطلق من قوسه ، وسرعان ما اقتحم رجالنا المدينة ، حيث لبثنا فيها مدة أربعة أيام .

وهناك تميز تانكرد بن المركيز عن الآخرين وانفصل عنهم ، وحذا حذوه الكونت بلدوين أخو الأمير غودفري ، ودخلا معا وادي بوثرنلوت ، ولم يلبث تانكرد أن مضى وحده وانطلق على رأس

فرسانه حتى وصل إلى طرسوس ، فخرج التركمان في جماعة واحدة ، واصطفوا لقتال المسيحيين ودفعهم ، إنما عندما دنا رجالنا منهم لحربهم ، لاذوا بالهرب ، وانصرفوا نحو المدينة مسرعين ، فثنى تانكرد فارس المسيح عنانه ، وضرب مخيمه أمام باب المدينة .
ووصل بعد قليل ، من جانب آخر الكونت بلدوين مع جيشه وسأل تانكرد أن يقاسمه المدينة ، فأجابه : إنني أرفض كل شراكة معك ، ولما حل الظلام فر جميع التركمان مذعورين ، وعندئذ تسربل سكان المدينة وخرجوا يهتفون : « أقبلوا أيها الفرنجة المنتصرون ، أقبلوا فإن التركمان ارتعشوا خوفا وفروا جميعا في آن واحد » .

ومع اشراقة الصباح جاء أعيان المدينة إلى معسكر الفرنجة وسلموا المدينة عن طواعيه وخاطبوا المتنازعين حول تملكها بقولهم : اقصروا أيها السادة ، فنحن نرغب إليكم ونرجوكم تولية هذا [تانكرد] علينا ، فهو الذي استبسل بالأمس في قتال التركمان ، لكن الكونت بلدوين المحبوب اعترض وحاجج تانكردبقوله : « لندخل المدينة معا ، ولنتول نهبها ، وليتول أمرها بعد ذلك من يصب منا النصيب الأوفى ، وليحتلها من يستطيع حربها » فعاود تانكرد الشجاع الرد بقوله :«ما أمقت هذا المسلك إلى نفسي، وما أبعدني عنه ، إنني لا أريد أن أسلب المسيحيين ، ولقد اختارني أعيان هذه المدينة أميرا عليهم وهم لا يريدون سواي أميرا » لكن هذا الأمير الشجاع لم يجد في نفسه الرغبة في متابعة الخصام مع الكونت بلدوين الذي كان يقود جيشا كبيرا ، وتخلى عن المدينة طواعية أو مرغما ، وانسحب بكل شجاعة ، وسرعان ما استسلمت له مدينتان هما : أذنة والمصيصة ، كما دان له العديد من الحصون .

١١ - ومع هذا كله ، فقد تابع الجيش العظيم تقدمه ، وفيه ريموند الصنجيلي ، وبوهموند البارع ، والأمير غودفري ، وسواهم كثير ، ودخلوا بلاد الأرمن وبهم ظمأ شديد إلى دماء التركمان ، وعطش إلى الارتواء منها ، وقادهم زحفهم إلى حصن شديد المناعة ، وقفوا

امامه عاجزين ، وكان يقيم فيه رجل اسمه سيمون من اهل البلد (٣٩) ، فسألهم ان يعهدوا اليه بأمور الدفاع عن تلك البقعة من الأرض ضد محاولات اعدائه من التركمان ، فمنحه الفرنجة اياها فأقام بها مع ابناء جنسه.

ثم غادرنا تلك المنطقة ، ووصلنا ونحن في انعم بال إلى قيصرية من اعمال كبدوكية ، ثم توجهنا إلى مدينة فخمة رائعة الجمال ، كثيرة الثروات (٤٠) ، كان التركمان قد اقاموا على حصارها ثلاثة اسابيع قبل قدومنا ، غير انهم عجزوا عن اخذها ، في حين انه ماكدنا نصل حتى القت بأيديها الينا عن طواعية وبكل سرور ، وتقدم واحد من الفرسان واسمه بطرس دي البيوس (٤١) ، وسأل جميع المقدمين اقطاعه اياها ليدافع عنها بكل ما أوتيه من طاقة في سبيل الرب والقبر المقدس ، والسادة النبلاء والامبراطور ، فأجمعوا على اجابة مطلبه ، ورضوا باقطاعه اياها.

وعلم بوهموند في الليلة التالية أن التركمان الذين كانوا يحاصرون هذه المدينة ، قد انتشروا في جوانب المنطقة ، فسارع على رأس فرسانه وحدهم دون غيرهم لمطاردتهم حيث كانوا ، لكن لم يتهيأ له اللقاء بهم .

ووصلنا بعد هذا إلى مدينة اسمها كوكسون ، وكانت المؤن التي نحن بأمس الحاجة إليها ، متوفرة فيها بكميات وافية ، وسرعان ما استسلم لنا مسيحيوها وادخلونا إليها ، فمكثنا فيها ثلاثة ايام في أرغد عيش ، فاستجم رجالنا واستردوا عافيتهم تماما .

ونما إلى مسمع الكونت ريموند [الصنجيلي] بأن التركمان المتولين لشؤون الدفاع عن انطاكية قد غادروها ، فاطبق تدبيره هو ومشاوروه على المسارعة في إرسال بعض فرسانه للاستيلاء عليها قبل فوات الوقت ، واقدم على اختيار كل من الفيكونت بطرس القشتالي ووليم دي مونبليه ، وبطرس دي روبيه ، وبطرس ريموند دوتيول ، وعهد إليهم بتنفيذ هذه المهمة ،و انفذ برفقتهم خمسمائة

فارس ، فساروا جميعا في واد يقع في احواز انطاكية ، حتى بلغوا من حصون البوبليكان ، وهناك علموا بأن المدينة لا زالت بأيدي التركمان ، وأن هؤلاء على استعداد للدفاع عنها بكل اصرار ، وتميز بطرس دي روبيه بمن معه ، حتى كان مساء اليوم التالي ، تجاوز انطاكية ودخل منطقة منخفض الروج ، فصادف به فريقا من التركمان والمسلمين فناجزهم القتال ، واوقع بفئة كبيرة منهم ، ثم تعقب الباقين بعنف ، وما كاد الأرمن النازلون في هذه المنطقة يرون عظم الهزيمة التي الحقها بطرس بالعدو حتى أذعنوا له ، ودانت له الروج ، كما استسلم له العديد من الحصون الأخرى .

اما نحن الذين بقينا في كوكسون فقد غادرناها ، وتوغلنا في داخل جبل مرعب ، تلامس ذراه قبة السماء ، هذا إلى ضيق مسالكه ضيقا شديدا ،وسرنا في الطريق المجاور له ، ولم يتمكن واحد منا مزاحمة اخر في التقدم ، وكانت الخيول تسقط في الأودية ، وكان كل فرس حموله يجر فرسا اخر مقطورا وراءه .

وظهرت اثار الحزن واليأس على وجوه الفرسان جميعا ، واخذوا يلطمون وجوههم ويضربون كفا بكف حزنا ورعبا ، وراحوا يتسائلون : ماذا يمكنهم أن يصنعوا بأنفسهم واسلحتهم ، فمضوا يبيعون خيولهم وترستهم وخوذهم لقاء مبلغ تراوح بين ثلاث وخمس ديناري ، او بأثمان زهيدة جدا ، والذين عجزوا عن بيعها قاموا بطرحها عن كواهلهم بلا مقابل ، وتابعوا طريقهم .

ولما خرجنا من هذا الجبل الملعون ، وصلنا إلى البلدة المعروفة باسم مرعش ، فخف اهلوها إلى استقبالنا وهم في غاية الفرح والترحيب ، وحملوا إلينا المؤن والأعلاف بشكل كبير ، فغدونا بأرغد عيش ، واقمنا بها ننتظر وصول الأمير بوهموند .

ووصل فرساننا اخيرا إلى الوادي الذي تقوم فيه أنطاكية المدينة الملكية ، عاصمة بلاد الشام قاطبة ، التي منحها الرب عيسى المسيح

-٢٥٢٢-١

إلى بطرس سيد الحواريين ، ليعيدها إلى عبـادة الدين المقـدس ، وهو الذي ذهب ، وحكم مع الله الأب في عالم روح القدس . له المجد السرمدي . آمين .

الكتاب الخامس

الشروع بحصار انطاكية

(٢٠ تشرين أول إلى كانون أول)

بدء الحصار ـ الاستيلاء على حصن حارم ـ المجاعة في المعسكر الصليبي

١٢ ـ لدى اقترابنا من جسر الحديد ، صادف رجال طلائعنا ـ الذين اعتادوا على التقدم أمامنا ـ في طريقهم فئة كبيرة من التركمان متوجهين بسرعة نحو أنطاكية لنجدتها ، فما كان منهم إلا أن انقضوا عليهم ، وكلهم قلب واحد ويد ضاربة واحدة ، فهزموا أولئك التركمان ، وكتبت لهم الغلبة عليهم ، بعدما قذفوا الرعب في قلوب أولئك البرابرة ، الذين فروا مخلفين وراءهم عددا كبيرا من القتلى (٤٢) ، ولما كان لواء النصر معقودا على مفرق رجالنا ، فقد أصابوا بفضل رعاية الرب لهم ـ غنائم كبيرة من الخيول والجمال والبغال والحمير المحملين بالأطعمة والأشربة .

ووصل رجالنا أخيرا إلى شاطىء النهر (٤٣) ، وعسكروا على مقربة منه ، وبادر على الفور بوهيموند الحكيم على رأس أربعة الاف فارس ، وعسكر أمام واحد من أبواب المدينة ، حتى يحول بين الدخول إليها أو الخروج منها سرا تحت جنح الظلام ، ووصل بقية الجيش إلى أنطاكية في اليوم التالي ، وهو ظهر اليوم الرابع من يوم الراحة الذي هو الثاني عشر قبل أول تشرين الثاني (٤٤) وتمكنا من حصار ثلاثة أبواب من أبواب المدينة حصارا حقيقيا ، ولم يتيسر لنا ضرب الحصار من الناحية المتبقية ، إذ كان يحيط بها جبل عالي القمة لم يترك لنا سوى عقبة بالغة الضيق .

واستولى الجزع على أعدائنا من التركمان الذين كانوا داخل المدينة إلى حد أنهم بقوا خمسة عشر يوما تستبد بهم الدهشة ،

لايستطيعون تحريك ساكن ، ولم يجرؤ واحد منهم على محاربة واحد من جماعتنا ، هذا وماكدنا نقيم معسكراتنا حول انطاكية حتى لاحظنا أن هذه الناحية وافرة الخيرات فيها أعناب ناضجة بكميات كبيرة ، ومخازن مملوءة بالقمح ، واشجار مثقلة بالفواكه ، كما عثرنا على مختلف أنواع الأطعمة الصالحة للأكل .

وداب الأرمن والسريان الذين كانوا داخل انطاكية على مغادرتها كل يوم متظاهرين بالهرب ، وعليه وجدوا بين صفوفنا كل يوم ، بينما بقيت عيالاتهم داخل المدينة ، وجرت عادتهم على تقصي اخبار احوالنا ومواقفنا ، ثم كانوا يحملون هذه الأخبار إلى المحاصرين الذين اغلقت عليهم منافذ المدينة ومسالكها ، ولما عرف التركمان تمام المعرفة بجميع مايتعلق بنا ، ووقفوا على مجمل اخبارنا شرعوا يخرجون من المدينة شرذمة بعد شرذمة ، ومضوا يحدقون بحجاجنا ، واخذوا يتربصون بنا من كل ناحية ، وبتنا نجدهم يقيمون الكمائن لنا في جميع الجهات ، فكنا أونة نراهم في طريقنا إلى البحر ، وأونة أخرى في طريقنا إلى الجبل .

وعلى مقربة من هذه المنطقة قام حصن اسمه حصن حارم ، وقد كمن فيه عدد كبير من اكثر التركمان شجاعة ، وهم من الذين أقضوا مضاجع رجالنا ، ولما عرف قادتنا هذا ، اشتد جزعهم ، وأرسلوا عددا كبيرا من الفرسان ليقوموا بأعمال الاستطلاع بغية كشف مواقع التركمان ، حتى إذا تهيأ لهم ذلك ، كبسوهم على رأس قواتهم ، وبالفعل تقهقر رجالنا أمامهم ، واستدرجوهم حتى البقع التي كمن فيها بوهيموند وجنده ، ولقي إثنان من رجالنا حتفهما اثناء هذا الاستدراج ، وما إن عرف بوهموند خبر اقترابهم حتى بادر فانقض على رأس رجاله ، فكان حقا بطل المسيح الشجاع ، وشدد البرابرة هجومهم على رجالنا الذين كانوا أدنى منهم عددا ، واحتدم القتال بين الطرفين ، وهلك العديد من أعدائنا ، ووقع غيرهم في الاسر ثم سيقوا إلى حيث ضربت أعناقهم أمام أبواب المدينة ، مبالغة في زيادة الام الذين بها في الداخل ونكالا بهم .

وغادر الآخرون المدينة ، وتسلقوا شرفات السور ، واخذوا يرموننا بنشابهم الذي تساقط تساقط المطر على معسكر بوهموند ، و اصيبت لنا امراة برمية قوس أودت بها .

١٣ ـ واجتمع زعماؤنا ، وعقدوا مجلسا للتشاور فيما بينهم ، فقالوا : لنقم ببناء قلعة على قمة جبل مرقب كيما نأمن على أنفسنا مخاطر التركمان ، وتطمئن قلوبنا فلا نعود نخشاهم ، وما أن انجز بناء القلعة حتى اخذ زعماؤنا في التناوب بالدفاع عنها واحدا تلو الآخر .

وحدث قبل حلول عيد الميلاد ان شح القمح ، وتناقصت الأقوات ، وغدونا لانكاد نجرؤ على مغادرة معسكرنا ، ولم نعد نجد في مناطق المسيحيين شيئا يمكن أن نسد به جوعنا ، زد على هذا انه لم يتجرأ واحد منا على الدخول إلى اراضي المسلمين ما لم يكن في الجمع الكبير والحشد العظيم ، وعند ذلك عقد زعماؤنا اجتماعا تشاوروا فيه حول إيجاد السبل المجدية لضبط حشد كبير مثل شعبهم ، فاتفقوا بعد المداولات على أن ينهض فريق من رجالنا بالحال ، ليعمل مافي وسعه ، ويبذل غاية الجهد لجمع الأقوات ، ولضمان حماية الجيش من بيات أوغارة من الخلف ، واتفقوا على أن يظل الباقون داخل المعسكر بغية حمايته ، وقال بوهموند مخاطبا المجتمعون : « أيها السادة ، ايها الفرسان العقلاء دعوني أمضي مع كونت فلاندرز إذا شئتم ورأيتم ذلك مفيدا» .

وبعدما احتفلوا احتفالا بهيا بعيد الميلاد ، خرجوا يوم الاثنين ـ تالي يوم الراحة ـ في أكثر من عشرين الف فارس وراجل ، ودخلوا سالمين لم يصبهم أذى ، إلى مناطق المسلمين التي كانت تعج بالتركمان والعرب والمشارقة الذين قدموا من القدس ومن دمشق وحلب وغيرها من المدن لنجدة حامية انطاكية ، ولما جاءتهم اخبار زحف الجيش المسيحي على بلادهم ، تأهبوا لحرب المسيحيين ، وما كاد الظلام ينقشع أمام بزوغ الفجر حتى كانوا قد

أشرفوا على الناحية التي تجمعت فيها قــواتنا ، وانشــطر هؤلاء البرابرة إلى شطرين ، شطر تلقانا من الأمام وشطر حاول الالتفاف حولنا قصد تطويق قواتنا مــن جميع الجهــات ، لكن كونت فلاندرز الشجاع ، والمسلح بإيمــانه وبشــارة الصــليب ، الذي كان يحمله إخلاصه له على مصــاحبته وحمله اينمــا كان ، كر عليهــم في ذات الوقت الذي هاجمهم به بوهموند ، وهكذا حمل رجــالنا حملة رجــل واحد على العدو ، الذي سرعان مــا ولى هــاربا لايولي على شيء ، تاركا وراءه عددا كبيرا مــن القتلى ، وقــد اســتولى رجــالنا على خيولهم وسواها من الغنائم ، اما أولئك الذين نجوا من القتل ، فقد استمروا في فرارهم ، وحق عليهم « الهلاك الأبدي » أما نحن فقــد رجعنا ظافرين مسرورين نسبح ونمجد للرب الذي هو في الوقت نفسه ثالوث واحد ، والذي له الملك الآن وإلى الأبد .

امين

الكتاب السادس

حصار انطاكية

(كانون أول ١٠٩٧ ـ شباط ١٠٩٨)

هجوم التركمان على الصليبيين وحملة التموين ـ فرار بطرس الناسك ووليم النجار

رحيل تاتيشوس ـ انتصار بوهموند على التركمان قرب بحيرة أنطاكية

١٤ ـ وحين تـرامى الخبـر إلى التـركمان ـ أعداء الرب والمسيحية المقدسة ـ الذين كانوا داخل انطـاكية للدفـاع عنهـا ، بتغيب الأمير بوهموند وكونت فلاندرزعن الحصار ، خرجوا منهـا ، وهاجمونا واشتبكوا معنا في قتال شديد ، وكانوا يؤثـرون مهـاجمة المناطق الضعيفة ، ولما كانوا على بينة من غياب هـذين الفـارسين البارعين ، وبعدهما عنا ، فقد عقدوا العزم على مهاجمتنا والقضاء علينا في يوم الثلاثاء (٤٥) .

وسار هؤلاء البرابرة المرعبون في ظـلام الليل ، وانقضـوا علينا بشدة متناهية فقتلوا عددا كبيرا من فرساننا ورجالتنا الذين أهملوا أمور الدفاع عن أنفسهم ، وخسر أسـقف بـوي ـ في يوم البـؤس هذا ـ وكيله الذي كان يقود إحدى الكتائب بنفسه ويحمل رايتـه ، ولو لم يكن النهر يفصـل بيننا وبينهـم لتـكررت غاراتهـم علينا ولأصابوا منا إصابات جسيمة .

وكان بوهموند العاقل أنذاك يقوم بمغادرة منطقة المشـارقةومعه جيشه ، ميمما وجهه شطر جبل تانكرد على أمل أن يصـادف هناك مايمكن نهبه ويستحق بذل الجهد في سبيل الاسـتيلاء عليه ، ذلك أن المنطقة كانت قد نهبت جميعها ، ولهذا وجد بعض عساكره القليل من الأشياء ، وعاد بعضهم الآخـر صـفر اليدين ، فـوبخهم بـوهموند الحكيم بقوله : « أيتها الجمـاعة التعيسـة الشـقية ، يا أحـط

المسيحيين قاطبة ، ما الذي حملكم على الاسراع بـالخروج ، فلقـد كان عليكم الصبر والتريث حتى يلتئم شـملنا ثـانية ، وإلا تـكونوا هكذا كالقطيع بـلا راع ، فلو صـادف أن لاقـاكم أعداؤنا هـائمين مشردين لانقضوا عليكم وفتكوا بكم اي فتك ، لأنهم يترصدونكم ليلا نهارا ، على أمل رؤيتكم بلا قائد يدبر أموركم فيهاجمونكم فرادى أو مجتمعين ، ويعملون على أخذكم أسرى » ، وما إن فرغ من كلامـه هذا حتى انكفأ هو ورجاله إلى معسكرهم وقد يئسوا من الحصـول على الغنائم .

وعندما رأى الارمن والسريان رجالنا وقد عادوا بلا شيء يستحق الذكر معهم ، خالين الوفاض ، قرروا التجول في الجبال وفي أطراف الناحية المذكورة والبحث بشـكل دقيق عن القمـح والأطعمـة كيمـا يشترونها ويبعثوا بها إلى المعسكر الذي انتشرت المجاعة الشـديدة فيه ، وغلت الأسعار ، وكانت حمولة الحمـار بثمـاني بـوبرات أي مايساوي مائة وعشرين ديناري ، وقد لقي العديد من رجالنا حتفهم خاصة من الذين عجزوا عن دفع هذه الأثمان الباهظة .

١٥ ــ ودفعت هذه الشدة الكائنة ، والضيق البالغ القسـوة إلى تسلل كل من وليم النجار وبطرس الناسك وفرارهما سرا ، وقد مضى تانكرد في آثارهما ، وأعادهما وهما في غاية الخـزي ، فقـطعا على نفسيهما العهد بالالتزام بالطاعة ، وأقسما له الأيمان المغلظة بأنهما سوف يعودان طواعية إلى المعسكر ، وأنهما سيعتذران للأمراء .

وبات وليم ليلته كلها مقيدا مربوطا بالأرض في خيمة بـوهموند ، وهو في حالة كان فيها أذل من الذل ، ومثل في صـباح اليوم التـالي أمام بوهموند ، وقد احمر وجهه خجلا ، فخاطبه بـوهموند مـوبخا بقوله : « أيهـا التعس ، ياخـزي فـرنسا ، ويا عار أهـل غاليا وأكثرهم آثاما ، ويا أتعس من على وجه الأرض ، لماذا فـررت على هذه الصورة المشينة ؟ ترى هـل كنت تنوي خيانة هؤلاء الفـرسان والغدر بهم بتسليم جيش المسيح إلى الكفرة ، كما صنعت بسـواهم

من قبل في اسبانيا ؟ ولزم وليم الصمت المطبق ، ولم ينبس ببنت شفه ، واجتمع الغاليون كلهم تقريبا وتضرعوا إلى الأمير بوهموند الا يقسوا عليه اكثر والا يزيد في آلامه ، فأجاب سؤالهم ، وقال : « إن محبتي لكم تحملني على الاستجابة لمطلبكم عن طيب خاطر ، اللهم إذا اقسم قسما نابعا من قلبه وروحه ألا يحيد عن طريق القدس سواء في الفرج أم الشدة ، وإذا ما رضى تانكرد ورجاله بالعفو عنه » ، ولما سمع تانكرد هذه المقالة أبدى رضاه ، وكان سرعان ماخلى بوهموند سبيله ، لكن ماحدث فيما بعد أن استولى الخزي على وليم النجار ، فما لبث أن اختفى بعد هربه .

واشتدت الفاقة وعظم البؤس اللذان ادخرهما الرب لنا جزاء خطايانا ، حتى لم يعد في الجيش كله من الفرسان أصحاب الجياد السليمة غير الف فارس .

١٦ ـ وتناهت الأخبار إلى عدونا تاتيشوس بأن جيوشا من التركمان زاحفة نحونا ، فاستبد به الخوف الشديد ، وخيل إليه أنه قد فتك بنا من قبل عدونا ، او اننا سقطنا جميعا أسرى في يديه ،فراح يدعي مختلف الدعاوى وينتحل مختلف الأعذار الواهية ، فقال : « انظروا أيها السادة ، ايها الرجال العقلاء مانحن فيه من الضنك ، لقد عدمنا النجدة ، وضاقت بنا السبل ، فدعوني أعود إلى القسطنطينية ، وكونوا على ثقة بأنني سأعود إليكم ببحر قد غطته السفن المحملة بالقمح والشعير والنبيذ واللحوم والطحين والجبن لابل كل ماتحتاجونه ، وسأبعث إليكم بجياد الخيل للشراء ، وستصلكم المؤن عبر الأراضي التي تدين بالطاعة للامبراطور ، واقسم لكم على صدق هذا كله ، وإن أهل بيتي وسرادقي باقون في المعسكر ، لهذا كونوا على ثقة من رجوعي إليكم على جناح السرعة

ولما انهى هذا العدو خطابه مضى مخلفا كل مايملكه في المعسكر ، مضى وهو حانث بيمينه وسيظل حانثا به ، وكنا انذاك في أشد

ساعات الحاجة ، حيث ضيق التركمان علينا الخناق من جميع الجهات ضيقا لم نجرؤ حياله على مغادرة خيمنا ، فكابدنا من مجاعة هددتنا بالفناء ، ولقد عدمنا كل عون وكل نجدة ، وفر صغار القوم والفقراء إلى قبرص وإلى الأراضي الرومانية ، كما هرب بعضهم إلى الجبال ، وكانت خشيتنا من التركمان المفسدين قد جردتنا من الجرأة على الذهاب إلى البحر ، وبذلك سدت أمامنا جميع منافذ النجاة .

١٧ ـ ولما تنامت الأخبار إلى بوهموند بأن حشدا كثيفا من التركمان ، يفوق العد والحصر زاحف نحونا ، اقتضاه ما جبل عليه من حكمة وغيرة على مصالح الآخرين أن خاطب الأمراء بقوله:«أيها السادة ، أيها الفرسان العقلاء ، ترى ما نحن صانعون ؟إننا لسنا من الكثرة بما يمكننا من المحاربة على جبهتين ، لكن هل تعرفون ما نحن فاعلون؟أرى أن ننقسم إلى قسمين ، حيث يمكث الرجالة في المعسكر لحماية الخيام و لاشك أنهم سيتمكنون بفاعلية من الدفاع عن أنفسهم ضد شحنة المدينة ، أما الفرسان فيظلون معنا بغية التصدي لأعدائنا الذين أقاموا معسكرهم على مقربة منا عند حصن حارم و جسر الحديد ».

ومع حلول الظلام خرج بوهموند الفطن من معسكره ومعه بقية الفرسان العقلاء ، وأمضى الليل فيما بين النهر والبحيرة ، ومع تباشير الفجر أرسل طلائعه لتبحث له عن مواضع التركمان وعدد كتائبهم ، وانطلق رجال الطلائع لتوهم ، وأخذوا يفتشون عن التركمان ويستطلعون أخبار تحركاتهم ، وما كان إلا أن شاهدوا الكثير من التركمان قادمين من جهة النهر ، وهم منقسمون إلى فرقتين ، وكانت الفرقة الكبيرة في الخلف ، وسرعان ما عادت الطلائع وهي تنادي :« انظروا هاهم أولاء ، لقد جاءوا على اهبة الاستعداد ، فهم على وشك الاقتراب منكم».

والتفت بوهموند الحكيم نحو الفرسان وخاطبهم بقوله :« ايها

السادة ايها الفرسان الذين لايقهرون عبؤوا صفوكم للقتال » ، فردوا عليه بقولهم « انك رجل عاقل ، وانك فطن كما انك عظيم مبجل ، انت ايها المقاتل الشجاع ، ياليث المعامع ، ويا بطل المعارك ، ايها المتحكم بضمائر الحروب ، افعل ما تراه مناسبا ، فقد اوكلنا امورنا اليك ، لتعمل كل ما تراه نافعا لنا ولك » .

وامر بوهموند آنذاك كل مقدم ان يعبىء فريقه تعبئة تامة ، فنفذوا تعليماته ، والتزموا بأوامره ، وكونواست فرق ، تقرر ان تقوم خمس منها بمهاجمة الاعداء ، وتراجع بوهموند بفرقته على مهل نحو الخلف ، واستبشر رجالنا ، فاشتبكوا مع الاعداء ، وتراجع ، والتحمت كل فئة بفئة وتعالت الصيحات الى عنان السماء ، وتحاربوا جميعا ، وحجب نور الشمس وابلا من النشاب هطل من كل مكان .

ولما وصل عسكر الفريق الاكبر من جيشهم الذي كان مقيما بالخلف ، هجموا بكل شدة وعنف على رجالنا ، فأخذوا يتقهقرون رويدا رويدا ، ولما رأى بوهموند العاقل هذا المشهد تألم ودعا اليه حامل رايته روبرت بن جيرارد ، وقال له : « امض بما اوتيت من سرعة فانت اشجع الرجال واندفع بكل حماس في نجدة دين الرب والقبر المقدس ، واعلم ان هذه الحرب ليست حربا مادية بل حربا روحية وكن اشجع شجعان المسيح ، صحبتك السلامة ورعاك الرب حيثما كنت » وما ان لف نفسه بشارة الصليب حتى اندفع كالليث الذي حبس عن الطعام ثلاثة ايام او اربعة ، وخرج من غيله يزمجر فيه ظمأ شديد لسفك دماء القطعان ، وانقض لساعته والقى بنفسه وسط ميدان الوغى معملا سيفه وسط قطيع من النعاج . راحت تفر من امامه هنا وهناك ، ثم صار في وسط صفوف التركمان ، واشتد في حملاته ومطارداته حتى ان شعاع رايته كان يرى بريقه من فوق رؤوسهم .

وسرعان ما اوقف المقاتلون الاخرون تقهقرهم ، حينما رأوا راية

بوهموند تخفق عالية امام رايات الاخرين ، وكر جميع رجـالنا كرة رجل واحد ، وحملوا على التركمان الذين فشـلوا واسـتبدت بهـم الدهشة ، فلاذوا باذيال الفـرار ، فـأخذ رجـالنا في مـطاردتهم ، وراحوا يعملون القتل فيهم حتى بلغوا جسر العاصي ، وسرعان مـا انقلب التركمان الى معسكرهم فحملوا كل ما امـكنهم حمله ، ثـم القوا النيران فيما بقي من اشياء ، وولوا هـاربين ، ولما علم الارمن والسريان خبر فرار التركمان في هذه الموقعة خرجوا من قـرا هم ، وتربصوا في المكامن التي نصبوها لهم في الممـرات والمسـالك وقتلوا العديد منهم واسروا .

وهـكذا قضـت مشـيئة الرب ان تـدور الدائرة على اعدائنا في ذلك اليوم ، ونجح رجالنا في استرداد الخيول وغير ذلك من الاعتدة التي افادوا منها فوائد كبيرة ، وحملوا مائة رأس مـن رؤوس القتلى الى امام باب المدينة حيث نصبت خيام رسل صاحب مصر الوافدين على مقدمينا (٤٦) .

اما المحاربون من الرجالة الذين مكثوا في المعسكر فقد شغلوا طـوال يومهم بقتال شحنة انطاكية امام ثلاثة ابواب مـن ابـواب المدينة ، وجرت هذه الموقعة يوم الثلاثاء (٤٧) السابق لبدء الصـوم الكبير ، وكل ذلك برعاية ربنا يسـوع المسـيح الذي مضى ليحـكم مـع الاب والروح القدس ، الرب له الحكم السرمدي . آمين

الكتاب السابع

حصار انطاكية

الحملة على السويدية ـ اقامة حصن المحمرة

١٨ ـ ورجع رجالنا بفضل رعاية الرب منصورين مستبشرين بنصرهم الذي حباهم به في ذلك اليوم ، أما أعداؤنا المغلوبون على أمرهم فقد هزموا هزيمة ساحقة ، ومضوا في فرارهم وهاموا على وجوههم شاردين هنا وهناك ، فمضى بعضهم الى خراسان وانطلق بعضهم الآخر الى بقية الأراضي المسلمة ، ولما رأى قادتنا أن شحنة المدينة ازدادت هجماتها علينا مع الاقتراب منا ، سهروا ليلهم ونهارهم بحثا عن الناحية التي يمكن لتلك الشحنة مباغتتنا منها ، وبناء على ذلك عقدوا مجلسا للتشاور في المسألة وقالوا : « يجب علينا قبل أن نقدم على حرب تودي برجالنا أن نشيد حصنا على المحمرة الواقعة أمام باب المدينة حيث يوجد الجسر ، ومن هنا ربما تمكنا بدورنا من تضييق الحصار على عدونا »

ووافق الجميع على هذا الرأي ، واستصوبوا المشروع استصوابا عاما ، وكان كونت صنجيل أول من تكلم فقال: « أمدوني بالعون اللازم لاعادة بناء هذا الحصن ، وسأحصنه وأتولى حمايته » ، وانبرى في الحال بوهموند قائلا: و أنا سأذهب معك اذا رضي الآخرون ،الى باب سمعان لجمع الرجال القادرين على القيام بمثل هذا العمل (٤٨) ، اما الذين سيبقون هنا فسوف يعملون على تحصين بقية الجهات للدفع عن انفسهم » وهكذا كان ما اتفقوا عليه.

عند ذلك رحل الكونت (صنجيل) وبوهموند الى السويدية ، أما نحن فقد انضم بعضنا الى بعض وصرنا جماعة واحدة ، وشرعنا في بناء الحصن ، وإذا بالتركمان قد أعدوا أنفسهم ، وخرجوا للهجوم علينا ، وبالفعل انقضوا انقضاضا

شديدا دفع رجالنا الى الهرب وأدى الى هلاك العديد منهم مما سبب لنا رعبا شديدا.

ولما لاحظ التركمان في اليوم التالي (٤٩) تغيب قادتنا ، وعرفوا انهم قد خرجوا في الأمس قاصدين الميناء ، جمعوا شملهم ومضوا لاعتراض الذين كانوا قادمين من ناحية الميناء ، ولما رأوا الكونت بوهموند على رأس العساكر زمجروا وهللوا واندفعوا بكل شدة ، وأحدقوا برجالنا من كل جانب يمطرونهم برشقات النشاب ، فأوقعوا فيهم القتل والجرح ، ثم انقضوا عليهم بهجوم شديد ، فاضطروهم الى الفرار الى الجبل الشاهق والى كل جهة حسبوا أنها تعصمهم منهم ، ولم تقيض الحياة الا الى أولئك الذين تمكنوا من الاختفاء بالهرب السريع ، أما الذين عجزوا عن الفرار فقد لاقوا حتفهم ، واستشهد في هذا اليوم أكثر من ألف من فرساننا ورجالتنا ، وفي يقيننا أنهم عرجوا الى السماء حيث ارتدوا ثياب الشهادة البيضاء.

ولم يزحف بوهموند عبر نفس طريق البقية ، بل سرعان ما انقلب عائدا برفقة فرقة من الفرسان ، ووصل الى حيث كنا مجتمعين ، ولما كان الغضب قد اشتد بنا لمصرع رجالنا ، فقد أعدنا ضم صفوفنا وانضممنا اليهم ، وهتفنا معا باسم المسيح ، وكنا كلنا ثقة بالنصر وببلوغ القبر المقدس ، وقر قرارنا على مناجزة العدو القتال ، وأن نكون جميعا يدا واحدة في الهجوم عليه ، وأبدى أعداء الرب ورجالنا ما أذهل وأرعب ، فقد كان التركمان موقنين من النصر علينا ، وأنهم سيقضون علينا كما سبق على عساكر الكونت (صنجيل) وبوهموند ، لكن الرب المتعالي لم يمكنهم من ذلك ، فقد انقض عليهم فرسان الرب الحق ، المسلحون بشارة الصليب ، انقضاضا شديدا ، أسلموهم به الى الفرار عبر الجسر الضيق ، واستمروا في فرارهم حتى مداخل المدينة ، لكن الذين لم يتمكنوا من الفرار وعبور الجسر ، والنجاة بنفوسهم ، لضيق المنفذ ، وشدة الازدحام ، فقد لاقوا في هذا المكان الموت

السرمدي ، وذهبوا الى نار جهنم الابدية المعدة لابليس وملائكته (٥٠)ولما تم النصر على التركمان ، شددنا عليهم الحصار ، ودفعناهم نحو النهر ، ورميناهم بــه ، فـاصطبغت مياهــه المتــدفقة بدمائهم ، وكان الواحد منهم إذا حاول تسـلق أعمـدة الجسر ، أو أراد السباحة حتى اليابسة ، تولى أمره نشاب رجـالنا الذين كانوا يغطون شاطىء النهر ، وامتلأ المكان بصراخهم وعويلهم وصـيحات رجالنا ، حتى شقت الأصوات عنان السماء ، وسـقط وابـل مـن النبال والنشاب حجب نور الشمس من أن يلمحـه أحـد ، ووقفـت نساء المدينة المسيحيات على شرفات الأسوار يرقبن هزيمة التركمان وهن يخفين سرورهن.

واستجاب الارمـن والسريان ــ طـوعا أم كرهـا ــ لأوامـر التركمان وأخذوا ينضحوننا بالنشاب ، وهلك في هذه الواقعـة أثنا عشر أميرا من أمراء التركمان ، كما قتل كثيرون سواهم مـن خيرة المحاربين وأشجع المقاتلين ، الذين كانوا يعدون بين خيرة المدافعين عن المدينة ، حتى بلغ عددهم ألف وخمسمائة رجل ، أما الذين كتبت لهم النجاة والبقاء فلم يعودوا يملكون الجرأة على الصراخ والتهليل سواء في الليل أم النهار ، كما جرت عادتهم ، ولم يحل بيننا وبينهم غير حلول الليل ، فالظلام هو الذي أوقـف الفـريقين عن المحـاربة واستعمال السيوف والرماح والنشاب ، وبهذا استطعنا بقدرة الرب والقبر المقدس ، أن نهزم الأعداء ، الذين فقدوا ما ملكوه من مقدرة على الصراخ والكفاح.

وأصبنا في هذا اليوم كميات كبيرة من الغنائم فيهـا الكثير مـن الحاجيات الضرورية لاسيما الخيول •

ومع صباح اليوم التالي (٥١) خرج من المدينة جماعة جـديدة مـن التركمان تولت جمع ما وجدته على طرف النهر من جثث قتلاهـم ثـم اخذت هذه الجثث وقامت بدفنها في (المحمرة) الواقعـة خلف الجسر امام باب المدينة ، ودفنوا مـع هــذه الجثـث جببـا (٥٢) وبيزنتيات

وقطعا من الذهب وقسيا وسهاما وغير ذلك من الحاجيات التي لاأعرف لها اسما ،ولما تنامى الى رجالنا ان التركمان قد دفنوا موتاهم حملوا عدتهم وأقبلوا مسرعين نحو تلك المقبرة الشيطانية فدمروا جميع الاضرحة ونبشوها وطرحوا ما كان فيها من جثث بعيدا ثم جمعوها والقوها في خندق حفروه لها ، كما قطعوا رؤوس القتلى وحملوها الى المعسكر (٥٣) ليعرف القوم عدد القتلى هذا عدا عن كمية من الرؤوس حملوها على اربعة من الخيول العائدة الى رسل صاحب مصر ، وبعثوا بها ناحية البحر ، ولما رأى التركمان هذا المشهد ، استولى عليهم الجزع وصاروا يبكون قتلاهم.

وفي اليوم الثالث (٥٤) ، انضممنا جميعا والتأم شملنا ، ونحن في غاية السرور ، وبغية العمل على بناء الحصن المشار اليه آنفا بالأحجار التي انتزعناها من مقابر التركمان ، وما كاد ينجز بناؤه حتى أخذنا في التضييق على اعدائنا من كل جانب ، وزال زهو الأعداء اما نحن فقد بتنا نذهب مطمئنين تماما انى أردنا ، سواء الى الجبل او المرسى ، نسبح بحمد الرب ، الذي له المجد والعلو السرمدي ، آمين.

الكتاب الثامن

نهاية حصار انطاكية والاستيلاء عليها

(من ٨ آذار الى ٣ حزيران ١٠٩٨ م)

تانكرد يحتل حصنا على فم نهر المدينة ويسد جميع المنافذ على المحاصرين.

المفاوضات بين بوهموند وفيروز الأرمني. الاستيلاء على أنطاكية.

١٩ ــ سددنا جميع المنافذ أمام التركمان وأغلقناها دونهم الا من جهة النهر ، التي كان بها حصن واحد مع دير منفرد ، ولو كان هذا الحصن تحت حكم رجالنا لما جرؤ واحد منهم على الخروج من واحد من أبواب المدينة ، ولاغلقت جميعا في وجوههم ، لذلك التأم شمل رجالنا للتشاور فيما بينهم ، وانعقد رأيهم على قولهم: « لنختر واحدا منا بغية الاستيلاء عن طريق القوة على هذا الحصن ، وليحل بين أعدائنا وبين الوصول الى السهل ، أو الدنو من الجبل ، وكذلك لاغلاق جميع منافذ المدينة ومخارجها ، وكان تانكرد أول من استجاب وقدم نفسه قائلا: « لو أنني أعرف الفائدة التي سأجنيها من الاستيلاء على الحصن ، فانني سأحتله مع رجالي وحدهم ، وسأمنع العدو منعا باتا عن طرق السبيل الذي كثيرا ما جرت عادتهم على مداهمتنا منه ».

وبادر تانكرد على الفور ، وانطلق (٥٥) مع فرسانه وجنوده الأشاوس ، وسرعان ما أخذ جميع الممرات على التركمان وسدها بشكل محكم ، الى حد أنهم ــ وقد استبد بهم الفزع ــ لم يتجرؤوا على فتح واحد من الأبواب لجمع الأعلاف والحطب ، أو أي نوع من الحاجيات الأخرى الضروية لهم ، ومكث تانكرد هناك مع عساكره ، وشرع في محاصرة المدينة من جميع الجهات.

واقبـــل في ذلك اليوم الى المدينة فـــريق كبير مـــن الأرمـــن والسريان ، وهم في غاية الاطمـــئنان ، وكانوا يحملون معهـــم المؤن والأقوات للتركمان وأهـل المدينة ، فنهض تـانكرد للتصـدي لهـم وأخذهم ، وبالفعل استولى على جميع ما كان معهم مـن الأقـوات من: قمح ونبيذ وشعير وزيت وما شابه ذلك ، وكان تانكرد قد أظهـر غاية القوة ، وجاء بالأمور المدهشات ، حيث تمـكن قبـل سـقوط أنطاكية من سد جميع المنافذ أمام التركمان واستولى عليها .

وإنه لمن المحال بـالنسبة لي قص جميع مـا قمنا قبـل احتـلالنا للمدينة كما لا يمكن لأي كان ممـن وجـد في تلك النواحـي. مـن الاكليروس أو العلمانيين أن يكتـب أو يروي بـالتمام كيف جـرت الأمور ، ومع ذلك فسأروي الشيء القليل منها.

٢٠ ـ وكان هناك قائد تركماني الأصل اسمه « فيروز » (٥٦) قد تأثلت الصـداقة بينه وبين بـوهـموند ، وكان بـوهموند يلوح له في الرسائل المتبادلة بينهما بمودته ويمنيه بها ، ووعده بمكانة سـامية إن هو اعتنق المسيحية ، وراح يمنيه بـالشرف العـظيم ، والثـراء الكبير ، فوثق فيروز بتلك الوعود ، وركن الى تلك الأقوال ، وأخبره بقوله : « إنني أتولى حراسة ثلاثة أبـراج ، وانني اعده بـالتنازل عنها ، وبتسليمها عن طيب خاطر يوم يشاء ، وسأكون دائمـا على استعداد للترحيب به فيها ».

وعندما تيقن بـوهموند مـن امكانية دخـوله المدينة ، انشرح صدره ، واطمأن قلبه ثم توجه نحـو بقية الأمـراء وهـو ثـابت الجنان ، واثق ، وخـاطبهم وكله بشر بقـوله : « أيهـا الفـرسان العقلاء عليكم أن تتفحصوا حـالة الشـقاء والمرارة التـي نحياهـا صغارا وكبارا ، فنحن لا ندري من أين ستأتينا النجـدات ، وعليه فلعله يرضيكم ويشرفكم أن يتطوع أحدنا فيرشح نفسـه ويتقـدمنا جميعا ، فإن مكنته احدى الوسائل أو براعته مـن الاسـتيلاء على المدينة ، أو مهاجمتها بمفرده أو بمعونة الآخرين أجمعنا الراي على

أن نملكه اياها » ولم يقبل الأمراء بعرضه واعترضوا عليه بقـولهم: « إننا لا نرضى أبدا أن ينفرد واحد منا وحده دون سواه بتملك هـذه المدينة ، بل سوف نتقاسمها جميعاً فيما بيننا بـالتساوي ، وحيث أننا جميعا قد اسهمنا في هـذا العمـل واشـتركنا فيه ، ينبغـي أن نقتسم شرف الاستيلاء عليها» .

وعند سماع بوهموند هذا الرد ، ابتسم ابتسامة خفيفة ، فيمـا بينه وبين نفسه ، وتركهم لكن حتى حين ، ولم يلبث غير قليل حتى جاءتنا الأخبار تحمل الينا نبأ اقتـراب أعدائنا التـركمان والعـوام وغير الأرثوذكس وسواهم مـن الشـعوب ، ولسرعان مـا اجتمـع مقدمونا للتداول في الأمر ، وقالوا : « إذا قدر لبوهموند الاسـتيلاء على المدينة وحده ، أو بمعونة الآخرين علينا أن نسلمها له عن طيب خاطر ، مشترطين عليه الوفـاء بعهـودنا مـع الإمبـراطور ، في المساعدة على رد المدينة اليه اذا قـدم لنجـدتنا بنفسـه ، والتـزم بالاتفاق الذي ابرمه معنا وأقسم على التمسك به ، وإن لم يفعل ذلك تركناها في عهدة بوهموند ».

و عند ذلك بادر بـوهموند الى مـلاحقة صـديقه (فيروز) يوميا ، وسـعى الى اغرائه بجميع ضروب الوعود والربـح الكبير ، وخاطبه بقوله: « لقد دنت الساعة المناسبة التي يمكنك فيها انجاز ما اتفقنا عليه في سبيل صلاح أمورنا ، وذلك بـأن تقـدم لي ياصديقي فيروز المساعدة التي وعدتني بها » وتجاوب فيروز وأبدى سروره ، واستعداده لتقديم المساعدة حسب الطريقة التـي يراهـا مناسبة.

ولما كانت الليلة التالية(٥٧) بعـث فيروز ابنه سرا الى بـوهموند ليبقى عنده بمثابة رهينة ، وذلك تـأكيدا منه على انه سـوف يدخله البلد ، ويمكنه منها ، وأنفذ معه الرسالة التالية: « ينبغـي عليك أن تقوم غدا باستدعاء جميع جيوش الفرنجة ، وتتظاهر بـالذهاب الى المنطقة التي يقطنها المسلمون بغية تخريبها ، ثـم تلوي عنانك على

عجل عبر الجبــل القــائم على اليمين ، وســأقوم أنا في ذلك الحين بملاحظة هذه القوات ، وسأنتظر وصولها لأستقبلها في الأبراج التي هي في حوزتي وتحت اشرافي ».

وقام بوهموند على الفور باستدعاء واحد من رجالته واسمه ميل كورون ، وناوله تعليماته التــي قضــت بــاستدعاء جيش الفــرنجة العظيم للتأهب للزحــف على أراضي المســلمين ، ونفــذت تعليمــاته هذه ، وعهد بوهموند في الوقت نفسه الى الأمير غودفــري ، وكونت فلاندرز وكذلك ، كونت صنجيل وأسقف بوي بــالاشراف على تنفيذ الخطة ، وقــال « ســتسلم لنا انطــاكية هــــذه الليلة بعناية الرب ورعايته » .

وجرى تنفيذ كل شيء حسب الصورة التالية: تجمّــع الفــرسان في السهل ، وأقام على الجبل جمــاعة الرجــالة ودأبــوا على الزحــف والحركة طوال الليل بعضهم في إثر بعض حتى اقتراب الفجر ، ثــم اقتربوا من الأبراج التي ظل شحنتها ســهران بهــا ، وسرعان مــا ترجل بوهموند ، وأصدر أوامره الى الذين كانوا معه ، وقال لهــم: « تقدموا ، وامضوا قدما مطمئنين متحدين ، وتسلقوا السلالم الى أنطاكية ، التي ستقع الآن في أيدينا بمشيئة الرب »

وسار هؤلاء حتى وصلوا الى السلم المثبــت على اســوار المدينة تثبيتا شديداً ، فصعد عليه زهاء ستين رجلا من رجالنا ، وتفــرقوا على الابراج التــي كانت تحــت اشراف فيروز ، ودب الرعب في قلب فيروز ، وخشي على نفسه وعلى رجالنا من الوقوع في ايدي التركمان وذلك حين شاهد المتسلقين على السلم لايعدون شرذمــة ضــئيلة العدد ، وصاح بهم : « مااقل عددكم ايها الفرنجة ، اين بــوهموند الشجاع ، اين هذا الفارس الذي لايقهر .

ونزل في هذه الســاعة جندي لومبــاردي (٥٨) ، واندفــع نحــو بوهموند مخاطبا اياه بقوله : ترى ماهو معنى توقفك هنا ايها الرجل

الحكيم ، انسيت ماجئت من اجله ، اما ترانا قد استولينا على ثلاثة ابراج !؟ ، واثارت هذه العبارات بوهموند ، فسارع بـالانضمام الى الاخرين ، واندفع الجميع نحو السلم بحماس شديد ، ومـاكاد الذين فوق يلمحون هذا المشهد حتى تعالى هتـافهم وهـم في سرور ونشوة مرددين « انها ارادة الرب » ورددنا نحن الهتـاف نفسـه ، وعندئذ بدأ الارتقاء المدهش ، حيث تسـلقوا الاسـوار ، حتـى اذا بلغوا الشرفات انطلقوا مسرعين نحو الابراج وهـم يقتلون كل مـن يصادفوه او يعترض سبيلهم ، حتـى انه كان مـن بين القتلى اخـو فيروز نفسه .

لكن السلم الذي ارتقينا عليه تحطم ، ممـا احـزن قلوبنا واوقعنا في كرب شديد ، وعلى الرغم من تحطمه ، فقد كان يوجد الى اليسـار منا باب مغلق ، لايدري احد عنه شيئا ، وكان الظلام مايزال مخيماء واخذنا نتحسس الطريق نحو هذا الباب ، وافضى بنا البحث عنه الى العثور عليه ، فتسابقنا اليه ، وحطمناه ودخلنا منه الى المدينة .

ودوت في هذه الساعة صيحة مجلجلة في ارجاء المدينة جميعـا ، ولم يضع بوهموند الوقت ، بل بادر الى الامر برفع رايتـه المجيدة على رابية مواجهة للقلعة .

وعندما اشرقت شمس الصباح ، ترامت الاخبار المخيفة التي هـزت المدينة الى (الفرنجة) الذين كانوا لايزالون مقيمين في معسكراتهم ، فخرجوا مسرعين ، فشـهدوا راية بـوهموند تخفـق على احـد المرتفعات ، وسرعان ماقبلوا مسرعين فهجموا المدينة ودخلوها من ابوابها ، وقتلوا كل من صـادفوه في طـريقهم مـن التـركمان والمسلمين ، ولم ينج من الموت الا الذين تهيأ لهم الفـرار الى قلعـة المدينة ، وخرجت جماعة اخرى من التركمان من الابـواب ، ورأت سلامتها في الفرار .

اما اميرهم يغي سغان (٥٩) فقد نجا هو الاخر ضمن كثيرين ممـن

فر معه ، واخذهم فرارهم الى بقعة عسكر بها تـانكرد ، ولم تـكن بعيدة عن المدينة ،و نظرا لتعب خيولهم فقـد انعـطفوا نحـو احـد الدساكر ، واعتصموا ببيت كان هناك ، وبعد هنيهة عرف السـكان من الارمن والسريان خبرهم ، فهجموا عليهم ، وقبضوا على يغـي سغان ، فقتلوه وقطعوا رأسه وحملوه الى بوهموند لينالوا الجـائزة، وبيع جهازه وسلاحه بستين قطعة ذهبية .

وجرت هذه الحوادث في اليوم الثالث من شهر حـزيران اي خـامس يوم بعد يوم الراحة ، وامتـلأت شـعاب المدينة وطـرقاتها بجثـث القتلى ، حتى غدا من المستحيل السير فيها للرائحة النتنة المتصاعدة منها ، ولم يتمكن واحد منا من السـير في الطـرقات الا على جثـث القتلى .

الكتاب التاسع

حصار التركمان انطاكية

(من ٥ حزيران حتى ٢٨ حزيران ١٠٩٨ م)

وصول أم كربوقا الى أنطاكية ـ رسالة الى الخليفة عن الجيش الصليبي ـ موقف أم كربوقا وميلها الى المسيحيين ـ هجوم كربوقا على أنطاكية ـ قصة الرؤيا ـ يمين زعماء الصليبيين ـ رؤيا بطرس ـ حريق أنطاكية والمجاعة فيها ـ هرب كونت شارتر الى الامبراطور ـ الحربة المقدسة ـ سفارة بطرس وهرلوان الى المعسكر الاسلامي ـ انتصار الصليبيين .

كان كربوقا ـ مقدم عساكر ملك فارس ـ (٦٠) موجودا في خرسان حينما وصله من يغي سغان ـ صاحب أنطاكية ـ عدة رسائل الح عليه فيها بالمبادرة الى انجاده ، لأن حصار الفرنجة الأقوياء له في أنطاكية قد أضر به ضررا عظيما ، ولو استجاب له كربوقا على الفور وبعث اليه بالعساكر لنجدته لسلمه يغي سغان انطاكية ، أو لقابله بجائزة كبيرة ، وكان كربوقا قد أعد للأمر عدته ، وماكاد يحصل على اذن الخليفة ـ إمامه الروحي ـ بالتوجه للقتال ضد المسيحيين ، حتى بادر الى جمع جيش كبير من التركمان زحف على رأسه في الطريق الطويل الى انطاكية .

وجاء والي القدس الى نجدته ، كما قدم أمير دمشق هو الآخر على رأس جند كثيف ، وجمع كربوقا حشودا كبيرة جدا من الغز والتركمان والعرب والمسلمين والعامة وغير الأرثوذكس والاكراد والفرس والغلمان وسواهم من الأقوام الأخرى التي لاحصر لها ولاعد ، وكان عدد الغلمان ثلاثمائة ألف رجل شاكي السلاح من القسي والرماح مسربلين بالحديد هم وخيولهم ، كل هذا مع ماعتادوا عليه من الاقتصار على حمل السيوف في الحروب دون

سواها من بقية الأسلحة ، لقد قدم هؤلاء جميعا لفك الحصار عن انطاكية وصد الفرنجة وتمزيق صفوفهم .

ولما اقتربوا من انطاكية صادفهم شمس الدولة بن يغي سغان امير انطاكية فاسرع نحو كربوقا متوسلا اليه باكيا ، مخاطبا اياه بقوله :« ايها الأمير الذي لايغلب ، أتوسل اليك أن تهب لنجدتي لان الفرنجة يحاصرونني – وأنا مازلت في قلعة انطاكية – من جميع الجهات ، وقد وقعت المدينة في أيديهم ، وهم يبتغون اقتلاعنا من أراضي سلاجقة الروم ، ومن الشام ، بل حتى من خراسان ذاتها ، وقد أمضوا ماأرادوا فقتلوا أبي ، ولاهم لهم الآن الا القضاء علي وعليك وعلى جميع ابناء جنسنا ، وانني أتوقع منك العون تبذله لي ، والمساعدة في تخليصي من هذا الضيق » ، فأجابه كربوقا بقوله :« اذا أردت عوني ونجدتي بصدق ، وأن أبذل قصارى جهدي في سبيل دفع هذا الخطر عنك ، فسلمني هذه القلعة ، وانذاك سترى اية خدمة يمكن ان أؤديها اليك ، فأنا سأجعلها في عهدة رجالي ».

فرد عليه شمس الدولة قائلا :« لئن تمكنت من القضاء على الفرنجة جميعا وأسلمتني رؤوسهم فسأتخلى لك عن القلعة وأصبح واحدا من رجالك ، والقلعة من أملاكك » . فأجابه كربوقا :« لالن يكون الأمر كما تقول ، بل إن كل شيء مرهون بتسليمك القلعة »، فأذعن شمس الدولة وتنازل له عن القلعة راضيا أو كارها .

ووصلت طلائعهم الى اسوار انطاكية في اليوم الثالث (٦١) بعد دخولنا المدينة ، وعسكر جيشهم عند جسر العاصي ، وانقضوا على احد الأبراج (٦٢) ، فقتلوا كل من صادفوه فيه ، ولم ينج منهم غير مقدمهم عثرنا عليه مقيدا بالسلاسل لديهم اثر المعركة الكبرى (٦٣) .

وتحرك جيش الكفار في اليوم التالي (٦٤) ، واقترب من اسوار

المدينة ، وأقام معسكره بين النهرين ولبث هناك مدى يومين ، ولما تسلم كربوقا القلعة دعا اليه واحدا من قادته (٦٥) ، وقال له:« اريدك ان تكون وفيا لي مخلصا في ولاية القلعة ، وأنا أعلم منذ زمن طويل وفاءك واخلاصك ، وانني عاهد بأمر الدفاع عنها والمحافظة عليها اليك » فأجابه هذا القائد « بودي لو أعفيتني من هذا الأمر ، ومع هذا فانني أقبل به على شرط واحد ، وهو أن أقوم بتسليم القلعة الى الفرنجة ان هم أوقعوا بك وهزموك » فرد عليه كربوقا بالقبول وقال له :« امض لما أمرت به فأنا أقدر فيك صدقك وعقلك ، وأرتضي بكل ماتراه وترضي به من خير ».

ورجع كربوقا الى جيشه وأراد التركمان أن يقللوا من شأن الفرنجة ، فأتوه بسيف رخيص قد علاه الصدأ ، وبقوس مسود ، وبحربة غير صالحة للاستخدام كانوا قد أخذوها من جماعة من فقراء الحجاج ، وقالوا :« انظر هذه هي الأسلحة التي يحملها الفرنجة في حربهم لنا » فافتر فاهه عن ابتسامة فيها سخرية وقال :« أهذه حقا الأسلحة الجيدة الحادة التي ينشد المسيحيون قهرنا بها في آسية ، والتي يظنون أنهم قادرون بها على طردنا الى ماوراء خراسان وإزالتنا من تلك الديار حتى أنهار الأمازونيين (٦٦) ، هؤلاء المسيحيون الذين اجلوا اخواننا من آسية الصغرى ، ومن أنطاكية ، المدينة الفاخرة وحاضرة بلاد الشام جميعا ».

ثم بادر الى استدعاء كاتبه وقال له :« اكتب الآن جميع المناشير التى ستقرأ في خراسان وقل فيها : الى خليفتنا الجليل ، والى مولانا السلطان المعظم والفارس الشجاع ، والى جميع امراء خراسان العقلاء ، السلام عليكم ، والتوقير والاحترام لكم ، وبعد : فليتهيأ للمقام العالي من السعادة والتوفيق الكريم مايتيح لهم النعمة والشكر في جميع البلدان ، والانصراف نحو النود عنهم ومنعتهم ، وانجاب الذرية الكثيرة العدد لتتمكن من جهاد المسيحيين بكل شجاعة ، ونحن أخذنا الجيوش الثلاثة واستطعنا

بها قهر فريق من الفرنجة ، ولقد عرفنا صفة السلاح الذي يستخدمه الفرنجة في حربنا ، وليعرف الجميع انني اخذت الفرنجة الذين في انطاكية ، واستوليت على القلعة وصارت في يدي ، ولسوف يساق الفرنجة الى الموت او الأسر في خراسان ، فهم الذين يتوعدونا بالطرد على يد جيوشهم وبالجلاء عن بلادنا ، كما فعلوا حين أجلوا ابناء قومنا من آسية الصغرى واالشام ، واني لأقسم لكم بمحمد وبجميع اربابنا (٦٧) لن اقف بباكم وامثل امام جنابكم قبل ان اجاهد بحد سيفي القوي مدينة انطاكية الفاخرة وجميع بلاد الشام وآسية الصغرى وبلغاريا حتى ولاية ابوليا تمجيدا لآلهتنا ، ولكم ولجميع معاشر التركمان».

على هذه الصورة اذا كانت خاتمة الرسالة .

٢٢ـ وكانت والدة كربوقا في حلب ، وقد قدمت لرؤية ولدها ، ولدى مقابلتها له اجهشت في البكاء وقالت سائلة إياه :« أحقا ما سمعته ؟ فسألها : وماذا سمعت : فأجابته ؟ سمعت أنك متوجه لحرب جيوش الفرنجة ، فقال : لقد سمعت حقا ، فتوجهت إليه بقولها : أسألك ياولدي بحق جميع الأرباب ، وبحق سجاياك الكريمة وعفوك ، أن تتراجع عن قتال االفرنجة ، أنت أيها الفارس الذي لايعرف الهزيمة ، ولم يرك أحد قط فارا أمام أحد من الغزاة ، فلقد طبقت شهرتك وشجاعتك الآفاق ، حتى أن أشجع الفرسان ليرتجفون حين سماع اسمك أنى كانوا ومهما كانوا ، ونحن نعرف يابني أنك أخو غمرات ورجل غارات ، عركتك الأيام وعركتها ، ولن يستطيع أي شعب ـ وثنيا كان أم مسيحيا ـ أن يزهو أمامك ويتفاخر بقوته ، بل يهرب الجميع من أمامك لدى السماع باسمك كما تهرب النعاج من زئير الأسد ، لهذا كله أتوسل اليك ياولدي الحبيب أن تسمع قولي وتصغي الي نصائحي ، فلا تحاول مطلقا التفكير في قتال الشعوب المسيحية أو منازلتها ».

وعندما فرغت من مقالتها هذه أجابها مرعوبا :« ماهذا الذي تتفوهين به ياأماه ، أتراك جننت ، أم نزلت بك نازلة؟ ان بصحبتي عددا كبيرا من الامراء الذين ليس لدى المسيحيين من يناظرهم بين الكبار والصغار » فأجابته : « أنني أعرف يابني مصداق ماتقول ، وأن المسيحيين لايمكنهم الوقوف في وجهك في الحرب ، وأعلم أنهم عاجزون عن النهوض الى حربنا ، لكن ربهم يحارب دوما بين صفوفهم ، وهو يدافع عنهم ويحميهم ليلا ونهارا كما يحمي الراعي قطيعه ، ولايقبل أن تمسهم أية أمة بأدنى شر أو سوء ، وأن ربهم سيؤذي كل من يتطلع الى مقاومتهم مصداقالما جاء على لسان النبي داود « نشتت الشعوب الذين يسرون القتال(٦٨) » وقوله« افض رجزك على الامم الذين لايعرفونك وعلى الممالك التي لم تدع باسمك (٦٩) » ، واذك لترى كيف ان ربهم القوي الذي لايقهر قد قضى ـ قبل ان يصطفوا للحرب ـ على جميع أعدائهم بوساطة ملائكته ، اعرف الحقيقة ياولدي الحبيب ، وان هؤلاء النصارى يسمون ابناء المسيح ، وقد جاء على لسان الرسل:« انهم اولاد الموعد (٧٠) » وقول الرسول ايضا:« انهم ورثة الله في ووارثون مع المسيح (٧١) » ، وهم الذين حباهم الرب بالميراث الذي وعدهم اياه ،، لأنه القائل على لسان الرسل :« من المشرق الى المغرب تكون قوتهم في وجههم» (٧٢) فمن الذي يمكنه التصدي لهذه الأقوال ومناهضتها ؟ والحق أقول :أنك اذا أقدمت على حربهم عدت بالخسارة الكبيرة والعار المقيم ، وستفقد العديد من فرسانك المخلصين ، وتترك وراءك نخائرك غنيمة وتفر يلاحقك الرعب الشديد ، أجل انك لن تقتل في هذه المعركة ، بل ستموت في بحر هذه السنة ، فالرب في غضبه يمهل ولايهمل من أساء اليه ، يترك حسابه الى الساعة التي يقررها بذاته ، وعندها سينتقم منك أبشع انتقام ، ولهذا أخشى أن يراك الرب تستحق العذاب الشديد ، وانني أقول لك :. انك ستخسر كل ماتمتلكه الآن يداك .

وكان وقع هذا الكلام على كربوقا شديدا ، فالتفت نحو أمه والأسى ظاهر عليه قائلا :« انني أتوسل اليك ياأمي العزيزة أن

تخبريني وتبيني لي من الذي أخبـرك بـكل هـذا عن الشـعب المسيحي ، من الذي أعلمك أن ربه يحبه الى هذه الدرجة حتـى أنه ليمده بمثل هذا العون أثناء القتال ، ومـن الذي أنبـأك أن الغلبـة ستكون لهؤلاء المسيحيين علينا أمام أنطـاكية ، وأنهـم سـيغنمون ذخائرنا وأنهم سيسيرون خلفنا اثر نصرهم المؤزر علينا ، ثـم مـن الذي أخبرك ان المنية ستخترمني فجأة في عامي هذا »؟

فـأجابته أمـه و الألم يعتصر قلبهـا اعتصـارا :« ياولدي العزيز ، لقد وضح لبعضهم منذ أكثر من مائة عام أنه جاء في كتابنا وفي كتب الوثنيين أن الأمم النصرانية ستقوم بالهجوم علينا وسيكتب لها النصر علينا في كل جهة ، وأنهـا سـتسود على الكفـار ، وأن شعبنا سيخضع لها ، وأنا لاأعرف يقينا فيما اذا كان مقـدرا لهـذه الأمور جميعا أن تقع الآن ، أم أنه لم يحن وقتها بعد ؟ فلقد لحقـت بك ـ والأسى يحز نفسي ـ من حلب ـ المدينة العظيمة التي تمكنت فيها بعد البحث والتدقيق ، ومن خلال سـؤال النجـوم واسـتطلاع البروج الاثني عشر والنبوءات الكثيرة ، ولقد أخبرتني هذه الظواهر جميعا أن الشعب المسيحي سـيتغلب علينا أنى كنا ، وإني لأرتعـد خوفا وأسى خشية أن أفتقدك ».

فأجابها كربوقا :« أخبريني ـ ياأمي الغـا لية ـ بـكل مـالا تتقبله نفسي ولاتـؤمن بـه » ، فـأجابته :« لايابني مـاكان لي أن أستجيب لمطلبك هذا طواعية ، هـذا لو كنت على بينة مـن الأمـور الخافية عليك ».

فقال لها :« إن بوهموند وتانكرد ليسا من أرباب الفرنجة ، ولا يخلصانهما من أعدائهم لانهما ياكلان في المرة الواحدة : ألفي بقـرة وأربعة الاف خنزير (٧٣) »، فأجابته أمه بقـولها : « اعلم ياولدي العزيز أن الموت سيطال بـوهموند وتـانكرد كمـا سـيطول بقية البشر ، لكن ربهما فضلهما على سواهما ومنحهما قدرة يحـاربان بها الجميع ، لأن ربهم القدير ـ تقدس اسمه ـ يقول :(انه صنع

السماء والأرض والبحر وكل ما فيها) [٧٤] وإن عرشه موجود في السماء منذ الأزل وبأسه مرهوب في كل مكان» ، فانبرى ابنها يرد عليها بقوله:« لن امتنع عن قتالهم حتى لو كان الأمر كما تزعمين» ، تيقنت أنه لن يستجيب لنقدها الشديد له تركته وقلبها يعتصر حزنا ، وتوجهت عائدة الى حلب ، حاملة معها ماأمكنها حمله من الذخائر .

٢٣ ـ ووضع كربوقا ـ في اليوم الثالث [٧٥] ـ سلاحه ولبس لامته ، وحمل حتى اقترب من المدينة ، ومعه فئة كبيرة من التركمان ،، وجاء هجومه من جهة القلعة ، وحيث اننا كنا قد خيل الينا ان في امكاننا دفعه ، فقد نظمنا صفوفنا وأعددناها للحرب ، ولكنهم أبلوا بلاء شديدا عجزنا حياله عن مقاومتهم ، وتراجعنا بصعوبة بالغة نحو المدينة التي كان بابها شديد الضيق ، لهذا مات عدد كبير منا خنقا تحت أقدام رفاقهم .

وفي خامس أيام الاسبوع كان بعض منا يحارب خارج المدينة وبعضنا الآخر من داخلها ، وظل الحال هكذا حتى حلول الظلام ، وفي تلك الأثناء استولى الهلع على نفوس وليم دي غراندميل وأخيه أوبري وغي تروسو ، ولامبرت الفقير (كونت كلير مونت) وذلك نتيجة لقتال الأمس الذي استمر حتى المساء ، لهذا تسربلوا الظلام وانسلوا مترجلين في ظلمة الليل ومروا هاربين بجانب السور المقابل لشاطيء البحر ، وعانوا كثيرا ودميت أيديهم وأقدامهم ولم يبق فيهم سوى العظام ، وقد رافقهم في فرارهم هذا كثيرون ممن لاأعرفه .

وعندما وصلوا الى السفن في ميناء السويدية ، قالوا لبحارة هذه السفن :« ماذا تفعلون هنا أيها الأشقياء ؟ لقد هلك رجالنا جميعا ولم يبق منهم أحد ، ولم ننج نحن الا بعد عذاب شديد ، حيث ان جيش التركمان كان يحاصر المدينة من جميع الجهات عندما كنا فيها » ، فلما سمعوا هذه المقالة منهم دهشوا وجزعوا فانطلقوا

- ١٠٥٥م -

نحو مراكبهم مبحرين ، وتسارع التركمان نحوهم وفي آثارهم فقتلوا كل من صدفوه منهم ، واضرموا النيران في المراكب الراسية في مجرى النهر واستولوا على ماخلفوه من أسلاب .

اما بالنسبة الينا نحن الذين بقينا (محاصرين في المدينة) فلم نعد نستطيع احتمال وطأة أسلحتهم لهذا أقمنا بينهم وبيننا سورا تناوبنا على حراسته ليلا ونهارا ، واشتد الحصار علينا وضاق بنا الحال حتى اضطررنا الى أكل خيولنا وحميرنا.

٢٤_ وفي أحد الأيام ، وبينما كان مقدمونا مجتمعين في أعلى المدينة مقابل القلعة يتشاورون والحزن ظاهر عليهم واليأس قد استبد بهم اذا بواحد من الرهبان (واسمه ستيفن فالنتان) يمثل أمامهم ويخاطبهم بقوله :« أيها السادة ، هل لكم أن تصغوا الى ماسأقصه عليكم ، لقد رأيت البارحة حينما كنت نائما في كنيسة القديسة مريم _ والدة الرب يسوع المسيح _ رؤيا هاكم وصفها : لقد ظهر لي مخلص العالم وبرفقته أمه وبطرس الطوباوي سيد الحواريين ، وناداني قائلا : أوتعرفني ، فأجبته بلا ، وعند ذاك رأيت فوق رأسه صليبا كاملا ، فسألني الرب ثانية : « أوعرفتني الآن » ؟ فأجبته : « ماكان لي أن أعرفك لولا أنني رأيت فوق رأسك صليبا يماثل صليب مخلصنا » فقال لي :« إنني هو بعينه »، فانكببت في الحال على قدميه متذللا متوسلا اليه كي ينقذنا مما نحن فيه من المآسي ، فأجابني الرب : « لقد ساعدتكم فيما مضى ، وإنني ماض في مد يد العون لكم ، كما ساعدتكم في الاستيلاء على نيقية ، وكما رعيتكم حتى أوصلتكم الى هنا ، ولقد أحزنني ماكابدتموه من مشقة أثناء حصار انطاكية ، ولكنكم استطعتم بفضل مساعدتي لكم أن تدخلوا المدينة سالمين غانمين ، بيد انكم فسقتم مع نساء فاسدات من المسيحيات والكفار ، فتصاعد النتن حتى بلغ السماء ».

وحينذاك ركعت البتول وبطرس الطوباوي على قدميهما متوسلين

اليه راجين ان يعطف على شعبه فيعينه في محنتــه وينجــه ممــا ألم به ، وتوجه اليه بطرس المبارك بقوله :« أيها الرب ، لقد طال أمــد استيلاء الشعب الوثني على بيتي الذي لحق به من جراء هذا الأمــر مساوىء يعجز اللســان عن نعتهــا ، فلنطــرد الآن الأعداء أيهـــا الرب ، ولتفرح الملائكة في السماء ».

فالتفت الي الرب قــائلا :« امض الى شــعبي وأخبــره وليعــد الي ، فسأعود أنا اليه ، وأمامه أيام خمسة سأبعث بعــدها بعــون عظيم ، ومره فليرتل كل يوم بهذه الترتيلة مع بقية المقاطع :« هو ذا الملوك اجتمعوا» (٧٦) •

والان أيها السادة إذا ساوركم شــك في صــحة مــاقلت ومــارويت فاسمحوا لي أن أصعد الى رأس البرج ، وأن أطرح نفسي من أعلاه الى أسفله ، فأن سلمت فصدقوا بمــا قلت ، وأن اصــابني ســوء فاقتلوني أو اجعلوني طعمة للنار .

وعند ذلك أمر أسقف بوي باحضار الأناجيل والصليب ليقسم هذا الراهب على صحة ماقاله ، واتفق في تلك الساعة مقــدمونا على أن يقسموا بسر القربان المقدس ألا يحاول أحدهم ــ مــادام حيا ــ أن يفر أو يحاول النجاة من الموت أو يسعى لانقــاذ حياتــه ، ويذكر أن بوهموند كان أول من اقسم ثــم تــلاه كونت صــنجيل ، فــروبرت النورماندي ، فالأمير غودفري ، فكونت فلاندر ، أمــا تــانكرد فلم يقتصر في يمينه على أنه لن يتخلى أبدا عن متابعة هذه الحرب ، بــل زاد أنه لن يتخلى مطلقا عن الزحف نحو القبر المقدس حتــى ولو لم يبق معه سوى أربعين فارسا .

ولما تناهت أخبار هذا القسم الى الجيش المسيحي دبت الفــرحة بين صفوف رجاله جميعا .

٢٥ــ وكان هناك حـــاج مـــن جيشـــنا اســـمه بطرس(٧٧) (بارثليمو) تراءى له القــديس اندراوس الرســول قبــل

دخولنا الى المدينة وقال له :« مــــاذا تفعـــل هنا أيهــــا البـــطل الصنديد ؟ فأجابه : وأنت ،ثم من أنت فقـــال له الرســـول : « انني الحـــواري أندراوس ، اســـمع يابني عزيز – حين دخـــــولك الى المدينة – على كنيسة القديس بطرس – القسيان – وستجد بهـــا حربة مخلصنا يسوع المسيح التي طعن بها حين رفـــع على خشـــبة الصليب » ، ثم اختفى الرسول بعد مافاه بهذه العبارة .

وخاف هذا الرجل من الجهر بمـــا أشـــار بـــه الحـــواري عليه ، فأمسك عن اخبار حجاجنا بفحـــوى تلك الرؤيا ، وخيل اليه أن مارآه كان مجرد أضغاث احلام ، لهذا ردد في نفسه : ترى مـــن يستطيع تصديق هذا ؟ وماكاد يفرغ من ذلك حتـــى أخـــذه القـــديس أندراوس وسار به شطر تلك الناحية حيث كانت الحـــربة مـــطمورة تحت الأرض .

وفي الساعة التي كنا موجودين فيها في ذلك الوقـــت الشـــديد الذي وصفته آنفا (٧٨) عاد القديس اندراوس الى بطرس وقال له: لماذا لم تخرج الحربة من باطن الأرض كمـــا أشرت عليك ، أولا تعلم أنه لم يغلب قوم قط حملوا هذه الحربة معهـــم في الحـــرب ؟! ، وهنا أفضى بطرس بالحال الى حجاجنا بالخبر وكشف السر الذي استودعه إياه القديس الحواري ، فلم يصدقه القوم بل أنكروا مـــاقال ، وســـألوه : كيف نؤمن بصحة هذا القول ؟.

وكان الهلع مستوليا على نفوسهم ، وكانوا يتـــوقعون الموت بين ساعة وأخرى ، فذهب بطرس اليهم وأقسم لهـــم أنه صـــادق في كل ماقاله ، وأن القديس أندراوس تراءى له مرتين وقـــال له : انهض وامض الى الشعب وأخبره ألا يخشى شيئا ،بل عليه أن يؤمن إيمـــانا صادقا من كل قلبه بإله الرب واحد حقيقـــي ، وأنه ســـينتصر في كل مكان ، وأن الرب سوف يبعث اليه في الأيام الخمسة المقبلة بـــرسالة تملؤكم فرحا وحبورا واذا أراد الشعب القتال فليخرج بأجمعه متحدا الى الحرب ، فسينتصر على جميع أعدائه نصرا مبينا ،. لن تقوم له بعده قائمة أبدا .

ولما سمع الحجاج بأن القضاء الشامل على أعدائهم سينجز على أيديهم ، استعادوا رباطة جأشهم وأخذ بعضهم يشجع بعضا قائلين : انهضوا وكونوا رجالا شجعانا عقلاء لأن الرب سيبادر في الحال الى عوننا و سيكون في ذلك عزاء لشعبه الذي يرى الآن ماهو فيه من شدة .

٢٦- وراح التركمان الذين كانوا في الأجزاء العليا من القلعة يزحفون نحونا حتى صاروا على مقربة منا ، ونجحوا ذات مرة في محاصرة ثلاثة من فرساننا في برج كان واقعا قبالة قلعتهم ، وفي الحقيقة وجد الكفار منفذا انقضوا منه عليهم بشدة وعنف الى حد انهم لم يستطيعوا الصبر على مجالدتهم ، وخرج من البرج اثنان من الفرسان قد أصيبا بالجراح ، أما الثالث فقد صمد في الدفاع عن نفسه ، ودافع التركمان لمدة يوم كامل ، وقتل منهم اثنان امام السور ، بعدما تكسرت في يديه ثلاث حراب ، وواجه الفارسان حتفهما ثم لحق بهما الثالث وكان اسمه هيج الثائر ، وكان من أصحاب غودفري دي مونت سكابيوزو (٧٩) .

ولما وجد بوهموند المبجل أنه من المحال ايجاد رجال يقومون بمهاجمة القلعة ، لبقاء الجميع في بيوتهم بسبب المجاعة وخوفا من التركمان ، لما وجد هذا الحال اشتد به الغضب وأمر بالقاء النار في المدينة في الناحية التي قام بها قصر يغي سغان ، و لما تراءى منظر النيران للجماعات التي كانت داخل البيوت غادرت مساكنها ، وخلفت كل ماكانت تملكه ناجية بحشاشة نفوسها ، فانطلق فريق باتجاه القلعة ، وفريق آخر الى باب كونت صنجيل ، وفريق ثالث نحو باب غودفري ، أي أن كل فريق توجه هاربا نحو الجماعة التي انتسب اليها .

وثارت في تلك الساعة فجأة ريح شديدة ، لم يستطع أحد أن ينتصب حيالها واقفا ، مما بعث الأسى في نفس بوهموند العاقل ، فقد خشي أن يمتد الحريق الى كنيستي القديس بطرس

والقديسة مريم وسواهما من الكنائس . واستمرت هذه المحنة مـــن الساعة الثالثة حتى منتصف الليل ، واتــت النيران على ألفـــي بيت وكنيسة ، ثم خمدت جذوتها حين أوشك الليل على الانتصاف .

ولم يتوقف التركمان الذين كانوا في داخل المدينة عن حربنا ليلا ونهارا ، ولم يعد يمنعنا منهم سوى دروعنا ، ولما رأى رجالنا أنهم لم يعودوا يحتملون هذه المتاعب لأنه لم يعد بالامكان أكل الخبــز لمن كان معه خبز ، وشرب الماء لمن كان معه ماء ، ولهذا شيدوا بينهــم وبين التركمان سورا من الجير والكلس ، وأقاموا حصنا وضـــعوا فيه مختلف الأعتدة اللازمة لضمان سلامتنا ، وأقام في الوقت نفسه فريق من التركمان في القلعة في حين عسكر الفريق الآخر في واد قريب من القلعة .

ومع حلول الظلام لاحــت في الســـماء نار مقبلة مـــن جهـــة الغرب ، وأخذت في الاقتراب حتى سقطت وإســط معسـكر الجيش التركماني ، فـــاستولت الدهشـــة على رجـــالنا وعلى التـــركمان سواء ، ومع اشراقة الصباح فر الخائفون جزعا ورهبــة مـــن رؤية هذه الظاهرة السماوية حتى اذا بلغــوا بــاب بــوهموند عســكروا عنده .

وداب رجال شحنة القلعـــة على مناوشـــة رجـــالنا القتـــال ليلا ونهارا ، فجعلوهـم مابين جريح وقتيل بفعــل نشـــابهم ، أمـــا بقية التركمان فقد أخـــذوا في تشـــديد الحصـــار على المدينة مـــن جميع النواحي الى حد انه لم يعد يجرؤ احـــد منا على الخروج منهـــا او الدخول اليها الا ليلا او بالخفاء ، وبذلك صرنا نعاني ونكابد من هذا الحصار الضـــيق الشـــديد والعـــذاب على ايدي هؤلاء الأعداء الذين كانوا في الأعداد الدثرة.

وشرع أعداء الرب الدنسون هؤلاء في تشديد الحصار علينا ونحن في داخل انطاكية حتى مات العديد منا جوعا ، وغلت الأسعار حتـــى كان الرغيف يبـــاع ببيزنتية ، ولاحـــاجة بـــي الى ذكر النبيذ

لانعدامه ، وأكل الفرنجة لحوم الخيول والحمير وابتاعوها ، وبيعت الدجاجة بخمس وعشرين « سوسية » والبيضة « بسوستين » والجوزة بدينارى ،و على هذا كان كل شيء يباع بأثمان خيالية ، ولهذا عمت المجاعة واشتدت نكايتها ، حتى أخذ بعضهم يقيم المطابخ التي يقدم فيها للناس أوراق التين والعنب والعظام ، وطهى آخرون في مطابخهم جلود الخيول والجمال والابقار والجواميس اليابسة ، ولقد عانينا كل هذه الآلام والشدائد وسواها مما يستحيل وصفه في اسم المسيح ، ولكي نمهد الطريق حرا الى القبر المقدس .

وهكذا مر بنا ستة وعشرون يوما ونحن فرائس لهذه الشدائد والمصاعب وأمثالها .

٢٧ــ كما وقام كونت شارتر (٨٠) الذي مال عن منهج السداد ــ وكان سبق لقدمينا أن انتخبوه رئيسا أعظم ــ فتظاهر بالمرض وذلك قبل الاستيلاء على أنطاكية ، وارتد بكل خزي والعار يجلله الى بلدة أخرى حصينة اسمها الاسكندرونة ، ورحنا ننتظر قدومه الى نجدتنا كل يوم ، ونحن على مانحن عليه داخل المدينة ، دون مساعدة تخلصنا مما كنا فيه .

فهو ماكاد يعرف بأن جيش التركمان محدق بنا ومحاصر لنا حتى تسلل سرا وصعد رأس جبل (٨١) قريب من انطاكية ، فشاهد الخيم التي لايحصيها عد ، واذ ذاك استبد به الهلع ، فارتد بجنده بكل سرعة ، حتى اذا وصل الى معسكره قوض خيامه ورحل ومعه رجاله موليا الأدبار (٨٢) .

ولما دخل على الامبراطور في بلدة فيلوميلون (٨٣) سأله الاجتماع به على انفراد حيث قال له:« اعلم انه قد تم استيلاء التركمان على ماحول انطاكية ، أما المدينة فلم تسقط في أيديهم بعد ، وتركت رجالنا وهم يعانون من شدة الحصار ، ومن المرجح انهم ماتوا الآن

جميعا على أيدي التركمان ، وعليك ان ترجع بأسرع مايمكنك حتى لاتقع انت وجندك فريسة في أيديهم » .

واستبد الخوف بالامبراطور وجزع جزعا شديدا ، فاستدعى اليه غي اخا بوهيموند (٨٤) وجماعة اخرى وخاطبهم بقوله:« ايها السادة ترى ما نحن فاعلون؟ هاهم التركمان قد ضيقوا الخناق على جميع اخواننا ، وربما يكونون الآن قد فتكوا بهم وابادوهم او اخذوهم اسرى ، كما يذكر لنا هذا الكونت الذي فر« بخزي» وارى بات علينا أن نبادر بالتراجع قبل أن يلحق بنا مالحق إخواننا من الفناء المروع ».

ولما سمع غي – الفارس الشجاع – هذه الأكاذيب اجهش في البكاء هو ومن معه ، وانتحب نحيبا طويلا وصاح وصاحوا : أيها الرب المتعال ، أيها الثالوث الواحد ، لماذا ارتضيت بحدوث هذه الأمور جميعا ، لما ارتضيت لشعبك المؤمن بك أن يقع في أيدي أعدائه ، لماذا سارعت فتخليت عن هؤلاء الذين يسعون الى تمهيد الطريق نحو هيكلك وجعله حرا طليقا آمنا ، يارب لو صح ماسمعناه وتحقق ماقاله هؤلاء الأشقياء ، فاننا سنهجرك نحن والمسيحيون الآخرون ، ولن تعود تخطر ببالنا ، ولن يجرؤ واحد منا بعد ذلك على الدعاء باسمك أبدا .

وسرت هذه الأخبار المشؤومة بين صفوف الجيش اجمعها ، حتى أنه انقضت عدة أيام لم يهتف فيها واحد من الأساقفة أو الشمامسة أو رجال الاكليروس أو العلمانيين باسم المسيح أو أتى على ذكره .

وفي الحقيقة لم يستطع أحد أن يقدم العزاء او المواساة إلى غي الذي مانفك يبكي وينتحب ويضرب على صدره ويلوي اصابعه وهو يقول : واأسفاه ياسيدي بوهموند ياشرف الدنيا وزينة العالم ، يامن كانت الدنيا تخافه وتحبه ، واشقوتاه ، اي قاصمة نزلت بي واي داهية ، أما كنت استحق في مصيبتي بك ان

ارى طلعتك البهية ، لقد كان هذا غاية سؤالي ومطلبي ، من ذا الذي يمكنني من ان افديك بنفسي ، ياسيدي ، ياصديقي الغالي ، لماذا لم أواجه منيتي يوم ولدتني أمـي ، ولماذا كتـب علي ان اعيش حتـى اشهد يومك المشؤوم ، لماذا لم أغرق ، لماذا لم يكب بي فرسي فيندق عنقي ؟ كم كنت أتمنى أن أكون معـك فـأنال الشـهادة الكريمـة واشهدك وانت تواجه منيتك بشرف وشجاعة .

ولما جاء الجميع لتقديم العزاء له ومحـاولة مـواساته ، اسـترد صوابه وافاق ثم قال : ترى ماذا ترون بهذا الفارس العجـوز الذي فقد صوابه ، هل سمعتم قط انه انجـز عمـلا مـن أعمـال الفروسية ؟ لا ، لقد اختفى وهرب متسربلا بالعار ، وتستر خـائفا كما يتستر الشقي الاثيم ، الا فليكن معلومـا لديكم جميعـا أن كل ماتفوه به هذا الشقي هو افك وباطل محض .

وارسل الامبراطور في تلك الأثناء أوامره وتعليمـاته الى رجـاله قائلا لهم : « انهضوا وقودوا جميع رجـال هـذه المنطقـة نحـو بلغاريا ، وقبل ذلك جوسوا خـلال الديار ، فخـربوا جميع البقـاع حتى اذا قدم التركمان لم يجدوا شيئا ».

وارتد رجالنا ـ طوعا وكرها ـ وهم في غاية الحزن واليأس وقد دب الخور في نفوس كثير من حجاجنا وغدوا عاجـزين عن اللحـاق بالجيش ، فتوقفوا عن السير ، وهلك بعضهم اثناء الطريق ، امـا الباقون فعادوا الى القسطنطينية .

-ولدى سماعنا لاقوال (بطرس بـارثلميو) الذي نقـل الينا ماأوحاه المسيح على لسان الرسول ، اندفعنا بكل سرعة ممكنة نحو كنيسة القديس بطرس التي ذكرها ، وعمل ثلاثة عشر رجـلا منا في الحفر من الصباح حتى المساء ، وآنذاك عثر الرجل على الحـربة في الموضع الذي أشار اليه ، فتلقفهـا القـوم بفـرح عظيم وبـرهبة شديدة ، وعمت المدينة بهجة شاملة (٨٥) .

وعقدنا في تلك الساعة مجلسا حربيا للتشاور فيما بيننا عما علينا صنعه ، وعند ذلك انعقد اجماع قادتنا على المبادرة بانفاذ رسول الى التركمان — أعداء المسيح — ليسألهم — بوساطة أحد المترجمين — السؤال التالي :« ماالذي دعاهم الى دخول أرض المسيحيين وهم في حنق شديد ، وماالذي دفعهم لاقامة معسكرهم هناك ، وفتكهم بعبيد المسيح وقتلهم اياهم »، ولما انتهت أعمال المشاورة استدعوا بعض الرجال ومنهم بطرس الناسك وهرلوان وزودوهم بالتعليمات التالية قائلين لهم :« امضوا فابحثوا عن جيش التركمان الملعون ، وقصوا عليه هذا كله في دقة ، واسألوهم لماذا دعاهم غرورهم وبطشهم الى اقتحام ارض المسيحيين التي هي أرضنا نحن ايضا ».

ولدى سماع الرسل لمضمون رسائلهم انطلقوا لساعتهم ، وقدموا مقر قيادة الكفرة وأفضوا الى كربوقا ورجاله برسالتهم التي كان مضمونها :« لقد دهش قادتنا ومقدمونا أشد الدهشة كيف دفعكم التهور والطيش الى دخول ارض المسيحيين ، التي هي أرضهم ايضا ، هل لنا ان نفترض انكم قدمتم هاهنا بغير اعتناق المسيحية ، أم ترى ان الدافع للقدوم هو انزال شتى ضروب المساوىء بالنصارى وبمختلف الطرق ؟ ان قادتنا يطلبون منكم الارتداد عن أرض الرب والمسيحيين ، التي هداها بطرس الطوباوي بمواعظه من قبل ، وقادها الى الايمان بعقيدة المسيح ، وان قادتنا يسمحون لكم باصطحاب كل ما لديكم من الخيول والبغال والحمير والابل والماشية والثيران وكل ما تملكون ، ونقل كله معكم الى حيث شئتم».

وغضب كربوقا — قائد جيش ملك فارس — غضبا شديدا ، وأخذته ومن معه العزة بالاثم فأجابوهم بغلظة :« إنا لانبالي بكم ولابربكم ونصرانيتكم ، ولانرتضيها وإياكم ، وسنسحقكم معها سحقا تاما في آن واحد ، والذي حملنا على القدوم الى هاهنا هو دهشتنا كيف يدعي المقدمون والقادة

الذين ذكرتموهم ملكية أرض نحن أخذناها من الأمم الدالة ، والآن هل تريدون سماع ردنا عليكم ؟ ارجعوا مسرعين الى مقدميكم وأخبروهم أنهم اذا كانوا يريدون ان تتركوا ، وتهجروا ، ربكم الذي تسجدون له ، وتنبذوا شرائعكم التي أنتم مقيمون عليها الآن ، فاننا نعطيهم هذه الأرض ، بل ماهو أكثر منها ، ونهبهم البلدان والحصون ، وآنذاك لن يبقى واحد منكم راجلا ، بل ستكونوا جميعا فرسانا مثلنا ، وستوثق بيننا وبينكم صداقة راسخة ، ومودة مكينة ، وان لم يقبلوا بهذا ويفعلونه فعليهم أن يعرفوا انهم سوف يلاقون حتفهم ، أو سنسوقهم مكبلين بالقيود الى خراسان حيث سيبقون في أسرنا الى مالا نهاية ، وسيكونون عبيدا لنا ولأبنائنا على مدى الأيام والعصور ».

وسرعان ماعاد الينا رجالنا وأخبرونا بكل ماسمعوه من هذه الطغمة الفظة المتوحشة ، ويذكر أن هرلوان الذي كان يعرف اللسانين (اللاتيني والتركي) كان يقوم بالترجمة لبطرس الناسك ، ونزلت في هذه الآونة بجيشنا نازلتان لم ندر كيف نتصرف حيالهما : الأولى المجاعة الرهيبة التي أعدمتنا قوانا ، والثانية الرعب الشديد الذي استبد بنا من التركمان .

٢٩ـ بعد أن أنتهى الجميع من صيامهم الذي دام ثلاثة أيام ، وفرغوا مما تلاه من الاحتفالات التي أقاموها في مختلف الكنائس ، وشرعوا بطقوس الاعتراف بخطاياهم ، وبعدما انجزوا هذا كله تناولوا القربان المقدس الذي هو جسد المسيح ودمه ، ثم وزعوا الصدقات وأقاموا القداسات .

بعد هذا التأمت صفوف ست فرق من المقاتلين الذين كانوا داخل المدينة ، وكان في الفرقة الأولى التي تقدمت سواها : هيوج الكبير ومعه الفرنسيون و دوق فلاندرز ، و كان في الثانية غودفري و رجاله ، و في الثالثة روبرت النورمندي و معه فرسانه ، و قاد أسقف لي بوي الفرقة الرابعة وحمل معه حربة المخلص (٨٦) وكان معه

رجاله ورجال ريموند الصنجيلي الذي تخلف في المدينة امام الحصن خوفا من هجوم التركمان منه وللحيلولة بينهم وبين النزول الى المدينة ، وكان تانكرد — بن المركيز — في الفرقة الخامسة ومعه رجاله ، وفي السادسة بوهموند العاقل ومعه فرسانه .

وماأن تدثرا ساقفتنا وقسسنا وكهنتنا ورهباننا بحللهم المقدسة حتى خرجوا برفقتنا حاملين الصلبان ، ممجدين الرب ومبتهلين اليه أن ينقذنا ويحمينا من كل سوء ، كما اعتلى بعضهم فوق الباب رافعين الصليب المقدس في أيديهم ورسموا فوقنا علامة الصليب وباركونا ، ولما اكتمل جهازنا تدرعنا بالصليب وخرجنا من الباب المقابل للمحمرة .

ولما رأى كربوقا ماكانت عليه فرق المسيحيين من النظام المدهش ، وهي خارجة واحدة اثر أخرى قال :« اتركوهم يخرجوا فلن يكونوا حينذاك خيرا مما لو كانوا في أيدينا » لكنه ماأن رأى جيوش الفرنجة الدثرة تغادر الأبواب حتى استولى عليه الخوف ، وسرعان ماأمر قائده الموكل بالحراسة العامة ان يأمر بالتراجع ، اذ شاهد النار تتأجج في طلائع الجيش ، وبهذا حاقت الهزيمة بالتركمان (٨٧) .

وشرع كربوقا — دونما توقف — في التراجع على مهل نحو الجبل ، ورجالنا في اثره بالخطى نفسها ، ثم انقسم التركمان الى قسمين ، اتجه أحدهما باتجاه البحر ، بينما توقف رجال الفريق الثاني في مواقفهم مؤملين في تطويقنا ، ولما شعر قادتنا بما يحيكه العدو لهم فعلوا مثل فعلته فسيروا فرقة سابعة فيها من رجال الدوق غودفري وكونت نورمندي ، وعهدوا بقيادتها الى رينالد وبعثوا بها لاعتراض التركمان القادمين من ناحية البحر ، واشتبك التركمان برجالنا وقتلوا العديد منهم بنشابهم ، وفي الوقت نفسه جرى تشكيل فرق اخرى انتشرت من النهر حتى الجبل وغطت مساحة ميلين . وشرعت تلك الفرق في الزحف نحونا من الجهتين ، وأحدقت

- ٢٥٦١ -
برجالنا ، وأخذت تنضحهم بنشابها وترميهم بحرابها ، وشوهد في هذه الساعة عن بعد عساكر لايحصيها العد قادمة من جهـة الجبـل ممتطية خيولا بيضاء ورافعة رايات بيضاء ايضا ، ولما رأى رجالنا هذا الجيش لم يعرفوا هويته ولا لمن هو عائد ، لكنهـم مـالبثوا ان عرفوا أنه نجدة المسيح بقيادة القـديسين جـرجس ومـرغوريوس وديمتري ، وينبغي تصديق هذه الرواية ، لأن العـديد مـن رجـالنا رأوا هذه الآية الباهرة .

ولما أدرك التركمان المتمركزون على مقربة من البحر أنه لم تعـد لديهم المقدرة على مدافعة العدو ، أشعلوا النيران في الأعشاب هناك حتى يراها القاعدون في الخيم ، فيلوذوا بـالفرار ، ولما رأوا هـذه الاشارة حملوا معهم كل شيء له قيمـة وانطلقـوا فـارين ، وتقـدم رجالنا على مهل لمحاربة الفريق الأعظم من عساكرهم ، وتـوجهوا نحو معسكرهم ، وسـارع غودفـري وهيوج الكبير وكونت فـلاندر بالانطلاق نحو طرف النهر ، فصادفوا هناك العديد مـن جحـافلهم فتسلحوا بشارة الصليب وانقضوا عليهم وهاجموهم هجمة رجل واحد ، ولما رأى بقية رجـالنا ذلك طـاردوهم هـم بـدورهم ايضا ، وتعالى صراخ التركمان والفرس ، أما نحن فقـد سـبحنا باسم الرب الحي الصادق ، وصدقناهم الحرب باسم يسوع المسيح والمذبح المقدس ، واشتبكنا معهم في القتال ، وانتصرنا عليهم بعون الرب .

واستبد الرعب بالتركمان فمضـوا فـارين ، ولاحقهـم رجـالنا وساروا في آثارهم حتى خيامهم ، وآثر فرساننا فرسان المسـيح أن يتابعوا مطاردتهم ، ورأوا أن ذلك أنفع لهم من الانشغال بالاستيلاء على الغنائم ، واستمروا في تعقبهـم حتـى جسر العـاصي فقـطعه تانكرد ، وخلف الأعداء وراءهم خيمهم وذهبهم وفضـتهم مـع كثير من الأمتعـة والماشـية والثيران والماعز والبغـال والابـل والحمير والقمح والطحين والنبيذ ، وغير ذلك كثير مما كنا بحاجة اليه ، ولما وصل خبـر نصرنا على التـركمان الى مسـامع الأرمـن والسريان

القاطنين في تلك المنطقة طاروا نحو الجبل بغية سد الطريق في وجه التركمان ، وهكذا فتكوا بهم وقتلوا كل من تمكنوا من امساكه .

وعدنا الى المدينة في نشوة عظيمة ، واخذنا نحمد الرب ونمجده على أن وهب جماعته النصر ، واستبد الرعب بشحنة القلعة حين شهد كربوقا وعساكره يفرون من ساحة القتال أمام جيوش الفرنجة ، وسرعان مابادر الى طلب الرايات الفرنجية فأمر كونت صنجيل – الذي كان مرابطا أمام القلعة – برفع رايته دون سواه ، فأخذها منه وسارع الى ركزها على البرج ، لكن لما شاهدها اللومبارديون الذين كانوا هناك قالوا :« هذه ليست راية بوهموند » ، فسألهم (أحمد بن مروان): فراية من اذا ؟ فأجابوه :« انها راية كونت صنجيل ، وعند ذلك تقدم (أحمد ابن مروان) واقتلع الراية ، وردها الى صاحبها وقدم في تلك الساعة بوهموند المبجل ، وناول رايته الى (القائد) التركماني ، الذي تلقفها بسرور ، وعقد اتفاقية مع الأمير بوهموند ، يأذن (بوهموند) بموجبها للكفرة الذين يرغبون في اعتناق المسيحية بالبقاء معه ، ويسمح لمن رغب عنها بالانصراف سالمين آمنين دون أن ينزل بهم ادنى ضرر أو أذى .

ووافق (بوهموند) على جميع مطالب الشحنة ، وسرعان ماأنزل سر جنديته في القلعة ، ولم تمض سوى أيام قلائل حتى جرى تعميد الشحنة المسلم وجميع الذين آثروا الايمان بالمسيح ، أما الذين فضلوا البقاء على دينهم أرسلهم الأمير بوهموند الى بلاد المسلمين .

وجرت هذه الواقعة في اليوم الرابع قبل مستهل تموز ، ليلة عيد الحواريين بطرس وبولص ، في حكم الرب يسوع المسيح ، الذي له الشرف والمجد السرمدي على مر الدهور . آمين .

الكتاب العاشر

من انقاذ انطاكية الى معركة عسقلان

(٢٩ حزيران ١٠٩٨ ــ ١٢ آب ١٠٩٩)

الزحف نحــو القــدس ــ حملة ريمــوند بيليه ــ مــوت ادهمر ــ حملة الصنجيلي على البارة ــ خلاف القادة حول انطاكية ــ استيلاء ريموند وبوهموند على المعرة ــ زحفهما نحو القدس ــ الوصول الى عرقــة ــ اتحــاد الأمــراء عدا بوهموند ــ حصار عرقة ــ رفع الحصار عنها ــ والوصول الى القــدس وضرب الحصــــار حــــولها ــ الاســــتيلاء عليها ــ اختيار غودفري ومعركة عسقلان .

٣ــ هزم أعداؤنا هزيمة ساحقة ، وحمدنا الرب الثالوث الأوحد على نعمه كما يســتحق ، وشرع التــركمان في الفــرار مــن جميع الجهات ، وكان بعضهم أشبه بــالأحياء وبعضــهم قــد أثقلتــه جراحه ، لهذا راحوا يتساقطون موتى في الوديان والغابات والحقول والمسالك .

أما الشعب المسيحي ، وهم الحجاج المظفرون ، فقد رجعوا الى المدينة بعد انتصارهم على الأعداء وهم في غاية النشوة بعد ظفــرهم بالعدو .

وبادر زعماؤنا إثر هــذا وهــم : غودفــري ، وكونت ريمــــوند صنجيل ، وبوهموند ، والأمير روبرت كونت نورمندي ، وروبــرت كونت فلاندرز ، وكثيرون غيرهم ، بادروا الى ارسال هيوج الكبير الى امبراطور القســطنطينية لعله يقــدم لتســلم المدينة ، وينفــذ الاتفاقات التي عقدها معهــم ، ومضى هيوج لكنه لم يعــد بعــد ذلك أبدا .

وبعد أن فرغ قادتنا من ذلك اجتمعوا ثانية ، وعقــدوا مــؤتمرا

وتباحثوا حول ايجاد أفضل الوسائل لاعادة النظام للشعب حتى يمكن قيادته ثانية كيما يتم رحلته الى القبر المقدس الذي احتملوا في سبيله كل هذه المخاطر ، واتفقوا في هذا الاجتماع على أنه لم يعد في مقدورهم الدخول الى ارض الكفار ، لما هي عليه في أيام الصيف من شدة الجفاف وانعدام المياه ، ومن ثم أقروا تأجيل ذلك الدخول الى نهاية شهر تشرين الثاني ، وتفرق الأمراء ، ورحل كل منهم الى ناحيته حتى يحين الوقت المتفق عليه ، وأعلن الأمراء في جميع أرجاء المدينة بأن كل من نفسه في ضيق ويحتاج للدرهم والدينار يستطيع أن يلتحق بأي منهم حسب رغبته ، وحسب اتفاق يبرم بين الطرفين ، وأنهم سيتلقونهم على الرحب والسعة .

وكان هناك فارس من أتباع الكونت اسمه ريموند بيليه ، قام باستئجار مجموعة مناسبة من الفرسان والرجالة ، ثم زحف على راسهم الى داخل الأراضي الاسلامية وهو غير هياب ولاوجل وبعد ان اجتاز مدينتين وصل الى قلعة اسمها « تل منس » ، فبادر اهلها من السريان الى الاستسلام له ، من قبل انفسهم ، فأقام بينهم ثمانية أيام ، الى أن وصلته الرسل حاملة الأخبار بوجود حصن للمسلمين على مقربة منه ، وتقوم على الدفاع عنه شحنة كبيرة ، وأحاطوا به من كل جانب ، وسرعان ما استطاعوا أخذه على هذا الحصن ، وألقوا القبض ، اذ ذاك ، على جميع الفلاحين في تلك المنطقة ، وقتلوا كل من رفض اعتناق المسيحية ، أما أولئك الذين آثروا الايمان بالمسيح ، فقد أخلوا سبيلهم ، وأبقوهم أحياء .

وبعد أن تم ذلك ، رجع رجالاتنا تغمرهم النشوة الى القلعة الأولى (٨٩) ، ثم بارحوها في اليوم الثالث ، وتوجهوا الى معرة النعمان القريبة منهم ، ففيها كان تجمع اعداد كبيرة من التركمان والمسلمين الذين قدموا من حلب ومن جميع البلدان الأخرى ومن الحصون التي كانت في تلك النواحي ، وخرج البرابرة لمهاجمة رجالنا الذين عقدوا العزم على مناجزتهم القتال وارغموهم على

الفرار ، ولكنهم مالبثوا أن عادوا ، وهكذا ظلوا طوال يومهم يعاودون الكر علينا ومحاربتنا مرة بعد أخرى ، واستمر هذا القتال حتى المساء ، وكان الحر شديدا الى حد ان رجالنا لم يعودوا يطيقون احتمال الظمأ ، لانهم لم يجدوا قطرة من الماء يطفؤون بها ظمأهم ، ولهذا رغبوا بالتراجع سالمين في انفسهم الى حصنهم(٩٠).

لكن السريان والرجالة استولى عليهم الرعب ، ودفعتهم خطاياهم الى الفرار ، فلما رآهم التركمان وهم يولون الأدبار ، اندفعوا في آثارهم ، وزودهم النصر بالبأس الشديد ، فأسلم العديد من رجالنا نفوسهم للرب ، الذي دفعهم حبهم له للتجمع هناك .

وكانت هذه الملحمة في اليوم الخامس من شهر تموز ، وعاد الفرنجة الذين نجوا من القتل الى قلعتهم ، حيث بقي ريموند (بيليه) هناك مع رجاله فترة من الزمن .

وعاش بقية الفرنجة في أنطاكية في سرور ونشوة كبيرة ، حتى فاجأهم اشتداد المرض بالمشرف على أمورهم وراعيهم أسقف لي بوي ، وذلك تبعا لمشيئة الرب ، التي هجر بمقتضاها وحدها هذا العالم ، ورقد بهدوء ، ومضى ليرقد عند الرب يوم العيد المسمى بعيد القديس بطرس في القيود ، ونجم عن ذلك حزن عميق ، وغم شديد ، وعم الأسى وانتشر بين صفوف جيش المسيح قاطبة ، ذلك انه كان عضدا للفقراء ، ومشيرا للأغنياء ، فكان يأمر الكهنة بذلك ويكرز فيهم وغالبا ماقال للفرسان في عظاته :« لن يتمكن واحد منكم من انقاذ نفسه ان لم يكرم الفقراء وان لم يواسهم ، وهيهات أن تتهيأ النجاة لكم عن طريق سواهم ، مثلما أنهم لايستطيعون العيش بدونكم ، ومن ثم فان صلواتهم اليومية ودعاءهم الى الرب الذي طالما تذنبون اليه ، فيغفر للخاطئين منكم خطاياهم ، وانني أناشدكم أن تحبوهم حبكم للرب وأن تساعدوهم قدر المستطاع ».

٣١- وسافر بعد ذلك بوقت قصير الكونت المحترم ريموند الصنجلي(٩١) ، توغل في الأراضي الاسلامية حتى بلغ بلدة يدعونها البارة ، فهاجمها رجاله وسرعان مادانت له ، فقتل جميع من وجده بها من المسلمين والمسلمات ولم يفرق بين صغير وكبير ، وبعد استيلائه عليها ، اعادها الى دين المسيح ، وعقد اجتماعا ضم ذوي الرأي من جماعته ، تقرر فيه ان يعهد بالمدينة الى اسقف يرعاها ويرجعها الى دين الرب الحي القيوم ، وأقام المذابح على شرف القديسين ، وسرعان ماوقع اختيارهم على رجل عاقل شريف ، بعثوا به الى انطاكية ليسام (أسقفا) لها ، وهكذا ترجموا الاختيار الى واقع منفذ (٩٢) .

وشملت الفرحة الذين مكثوا في أنطاكية وعمتهم البهجة ، ولما حل الموعد المحدد – أعني عيد جميع القديسين – عاد جميع مقدمونا الى انطاكية ، وأخذوا يعدون العدة لاستئناف الرحلة نحو القبر المقدس مرددين :« لما كانت ساعة الرحيل المحددة قد اقترب حلولها ، فانه لم يعد ثمة وقت أطول للنقاش ».

واستمر بوهموند يعمل جاهدا طوال الوقت ، لحمل القادة على الاعتراف بالوعد الذي قطعوه ، بتمليكه انطاكية ، بيد أن كونت صنجيل لم يعتبر نفسه مرتبطا باي اتفاق مع بوهيموند خشية ان يعني ذلك نكثا

لقسم الولاء للامبراطور ، وكثرت الاجتماعات التى عقدوها في كنيسة القديس بطرس لفض الخلاف وايجاد مخرج ، وقرأ أثناء ذلك بوهموند نص الاتفاق ، وأطلعهم على اتفاقية (الامبراطور) معه ، وفعل كونت صنجيل مثلما فعل حيث أوضح شروط اليمين التي قطعها للامبراطور ، وبين أن ذلك كان بناء على نصيحة من بوهموند.

وغادر حينذاك مكان الاجتماع الأساقفة ومعهم غودفري وكونت فلاندرز وكونت نورمندي وبقية الزعماء ، وتوجهوا جميعا نحو

كرسي القديس بطرس ليقفـوا على نص حـكم يقضـــون بـــه بين الاثنين ، ودفعتهم خشيتهم من عرقلة استئناف الزحـف الى القبـر المقدس ، الى كتمان ما اجمعوا الرأي عليه ، واتفقـوا عليه فيمـا بينهم ، وبعد طول انتظار خاطبهم كونت صـنجيل بصـوت مـرتفع بقوله: « اسمعوا ما أقـوله: حتـــى لا نتخلى عن طـــريق القبـــر المقدس ، إنني راض بـكل مـــا اتفــق عليه الدوق غودفـري وكونت فلاندرز ، و روبرت النورمندي ، و غيرهم من الســادة ، إذا قبـل بوهموند أن يرافقنا ، و انني قابل بكل ما قضوا به ، لا إذا تعارض بالتزامي بعهدي للامبراطور » .

واستصوب بوهموند ما قاله كل الاســتصواب ، وجــاء الاثنان فاقسما بين أيدي الأساقفة أنه لن يحاول واحد منهما عرقلة الزحف الى القبر المقدس ، بأية وسيلة من الوسائل ، وأخذ بوهموند ـ إذ ذاك ـ في التشاور مع رجاله لتأمين المؤن للقلعة القائمة على الجبـل المرتفع وشحنها بالرجال والعتــاد ، وصـــنع كونت صـــنجيل الشيء نفسه ، فبادر هو الآخر الى الاتفاق مع اتباعه من أجل تـزويد قصر الأمير يغي سيفان مع البرج المرتفع القائم عند مدخل الجسر مقـــابل ميناء السويدية بالمؤن والعتاد والرجال ما يكفي لمدة طويلة .

٣٢ ـ مدينة أنطاكية مـدينة جميلة رائعـة ، تحتـوي داخـــل أسوارهـا على أربعة جبال عظيمة شامخة الذرا ، ويقوم على أعلاها حصن حصين منيع قوي البنيان ، وتمتد على السفح المدينة الرائعة المحبوبة ، وقد ازدانت بكل ضروب الفتنة ، لما تحويه مـن الكنائس الكثيرة ، التي قد يصل عددها الى ثلاثمائة كنيسة ، كما يوجد فيها ستون ديرا ، ويرأس بطريركها مائة وخمسين أسقفا.

ويحيط بمدينة أنطاكية سوران ، أكبرهما عظيم الارتفاع ، رائع البنيان ، شيد بشكل غريب ، وفي هذا السور أربعمـــائة وخمســـون برجا ، وأينمـــا نظـــر المرء في جهـــات المدينة ادهشـــته روعة المدينة وجمالها.

ويحيط بها من جهة الشرق جبال أربعة كبيرة ، ويتدفق فيهـا في الناحية الغربية نهر يسمى نهر فرفر (أي العـاصي) حيث يجـري على مقربة من أسوارها.

ولهذه المدينة شهرة واسعة ، فقد تولى أمرها في البداية خمسـة وسبعون ملكا ، أولهم انتيخوس الذي نالت اسمها من أسمه ، وقد أمضى الفرنجة في حصارها ثمانية أشهر ويوما واحد ، ثم حاصرها التركمان وسواهم من الكفار مدة ثـلاثة أسـابيع ، لكن النصر كان بالنهاية للمسيحيين بفضل معونة الرب المقدس ، ثـم اقمنا بـأمان واطمئنان مدة خمسة أشهر وثمانية أيام.

٣٣ ـ اتخذت جميع التدابير الدقيقة (لاسـتئناف الزحـف) في شهر تشرين الثاني ، وكان ريموند الصنجيلي أول من غادر أنطاكية على رأس جيشه ، ووصل أولا الى بلدة اسمها « الروج » ، ثم الى أخرى تدعى « البارة » ولحق قبل شهر تشرين الثاني بـأربعة أيام بمدينة معرة النعمان ، وكان قد احتشد بها جمع كثيف من المسلمين من عرب وتركمان وسواهم من الكفار ، وهـاجمها الكونت في اليوم التالي لوصوله.

وسار بعد فترة وجيزة بـوهموند ومعـه جيشـه ، في آثـار الأمراء ، ولحق بهم في يوم الأحد (٩٣) ، وحمـل الجميع يوم الاثنين حملة شديدة ، وهاجموا المدينة مـن جميع جهـاتها ، واسـتبسلوا وصبروا صبرا شديدا ، حتى تمكنوا من اسناد السلالم ، لكن قـوة الكفار كانت لعظم لهذا لم يستطع رجالنا اصابتهم بأدنى ضرر.

ولما أدرك أنه لا فائدة ترجى من مثل هذا العمل ، وأنهم لا يجنون منه الثمار ، بادر ريموند الصنجيلي الى تشييد بـرج خشـبي عظيم الارتفاع ، يسير على أربعـة دواليب ، وجهـزه بمـا كان يحتـاج اليه ، وكان في الطابق العلوي مجموعة من الفرسان بقيادة « إفرار الصياد » الذي كان أقـدر الناس في قـرع الطبـول ، وكان تحتهـم جماعة من الفرسان المدرعين كان عليهـم دفـع البـرج الى قـرب

الأسوار ليدمر بوساطته أحد الأبراج ، ولما شاهد الكفار هـذه الآلة شرعوا في الحال في نصب آلة أخذت تقذف البرج (الخشبي) بالحجارة الكبيرة حتى كادوا أن يقتلوا جميع فرساننا ، كما أخذوا يقذفونه بالنيران الملتهبة على امل احراقه وتدميره (٩٤) ، لكن الرب المتعال رفض أن يحترق البرج هـذه المرة ، ذلك أنه كان أعلى من جميع أسوار المدينة.

ومضى فرساننا الذين كانوا بالطابق العلوي ، وفيهم وليم مونت بيليه وغير كثير ، مضوا يقذفون المدافعين عن الأسوار بالحجارة الكبيرة ، وشرعوا يوجهون ضرباتهم على ترستهم ، فكان الرجل وفرسه يسقطان في داخل المدينة ، بعد اصابته بضربة قاتلة ، وبينما كانوا يتحاربون كان هناك آخرون استعملوا الرماح الطويلة المعقود عليها الرايات ، و قد تمكنوا بوساطة هذه الرماح مع استخدامهم للكلاليب المعدنية من تصعيد الأعداء ،و استمر القتال على هـذه الصورة حتى حلول المساء.

ووقف وراء البرج مجموعة من رجال الاكليروس في مسوحهم المقدسة ، وهم يتوجهون بالدعاء الى الرب والابتهال اليه أن يرفع المعرة عن شعبه ، و أن يعلي كلمة المسيحيين ويدمر الوثنية ، ووقف في الجانب الآخر فرساننا واشتبكوا في حرب متواصلة مع الأعداء ، وكانوا يعملون على نصب السلالم على أسوار المدينة ، بيد أن مقاومة الكفار كانت من الشدة بمكان بحيث أعاقت تقدم رجالنا ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان جوفبيه دي لاستور أول من تمكن من ارتقاء السور بوساطة سلم ، سرعان ما تحطم تحت ثقل وزن رفاقه الكثيرين الذين اندفعوا وراءه ، ومع هـذا كان قد تمكن من الوصول الى أعلى السور مع عدد من أصحابه ، وفي الوقت نفسه وجد فريق آخر سلما ، سرعان ما أثبتوه على السور ، فصعد عليه عدد من الفرسان والرجالة وتمكنوا من ارتقاء الشرفات ، لكن المسلمين هاجموهم هجوما عنيفا من فوق الأسوار ومن على الارض ، واشرعوا نحوهم أسنة رماحهم ، وأخذوا يطعنونهم عن

قرب ، فاستولى الذعر على العديد من رجالنا ، فرموا بنفوسهم من فوق السور.

وفي تلك الوقت الذي كان فيه أولئك الرجال الأشاوس صامدين في أعلى السور يكابدون أهوال الهجوم ، كان الآخرون في أسفل البرج يحاولون نقب السور ، ولما رأى المسلمون أن رجالنا قد تمكنوا من فتح ثغرة في الأسوار ، استولى عليهم الرعب ، وانطلقوا هاربين الى قلب المدينة ، ووقع هذا كله يوم السبت ١١ كانون الأول ، عند الزوال ، ساعة صلاة الستار ، وأمر عندئذ بوهموند زعماء المسلمين ـ على لسان مترجمه ـ بالالتجاء هم ونساؤهم وأطفالهم وامتعتهم الى قصر واقع جنوب باب الجسر ، وقطع على نفسه عهدا امنهم به على أنفسهم.

ودخل إثر هذا رجالنا الى المدينة ، واستحوذ كل منهم على كل ثمين مما وجدوه من النخائر في البيوت والمخابىء وبعدما أشرقت شمس الصباح شرعوا يقتلون كل من صادفوه أو عثروا عليه من أعدائهم رجلا كان أم امرأة ، وامتلأت جنبات المدينة بجثث المسلمين ، وندر أن يجوب المرء طرق المدينة دون أن يدوس تلك الجثث ، وقبض بوهموند على الذين طلب منهم الالتجاء الى القصر الذي عينه لهم ، وسلبهم كل ما كان بحوزتهم من الذهب والفضة والمجوهرات والحلي ، ثم قتل بعضا منهم وساق بعضهم الآخر الى انطاكية ليباعوا فيها.

ومكث الفرنجة في هذا البلدة مدة شهر وأربعة أيام ، ومات في تلك الأثناء (وليم) أسقف أورنج ، ووجد بين رجالنا جماعة لم تجد بالبلدة ما كانت تحتاجه ، وذلك لطول مدة المكوث ولتعذر الحصول على المؤن ، حيث لم يعد في خارج المدينة ما يمكن الاستيلا عليه ، وعند ذلك أخذ رجال هذه الجماعة يبقرون بطون القتلى بحثا عن النقود ، لما علموه من أن بعضهم ابتلع كمية منها ، وقام غيرهم بقطع قطع من لحومهم حيث قاموا بطهيها واقتاتوا بها.

٣٤ ـ وأخفق بوهموند في الوصول الى اتفاق مع الكونت صنجيل على ما طلبه(٩٥) ، فقام وهو في ثورة من الغضب وقفل عائدا الى انطاكية ، ومع هذا لم يتوقف الكونت ريموند عن ارسال الرسل الى الامير غودفري ، وكونت فلاندرز ، وروبرت كونت نورمندي وبوهموند بطلب منهم القدوم الى الروج للتباحث معه ، وقدم جميع الأمراء وتباحثوا حول ايجاد خطة تحفظ لهم شرف الزحف الى القبر المقدس ، الذي قاموا من أجله بحربهم المقدسة ، وقدموا في سبيله حتى بلغوا هذه المنطقة.

وأخفقوا في حمل بوهموند على الاتفاق مع كونت ريموند ، فقد رفض ذلك الا اذا تنازل له عما كان بيده في انطاكية (٩٦) ، ولم يستجب الكونت لهذا المطلب لتمسكه بالعهد الذي كان قد قطعه على نفسه للامبراطور ، وقفل في النهاية الأمراء وغودفري الى انطاكية بصحبة بوهيموند ، وتوجه الكونت ريموند عائدا الى المعرة حيث كان الحجاج موجودين ، واوعز الى فرسانه بتجهيز القصر الذي كان موجودا في اعلى باب الجسر.

ولما ادرك ريموند أنه ليس بين الأمراء من يود استئناف السير نحو القبر المقدس بسببه ، خرج حافيا من المعرة في يوم ١٣ كانون الثاني ، وقصد كفرطاب ، وبقي فيها ثلاثة أيام ، انضم اليه خلالها كونت نورمندي ، وبعث صاحب شيزر رسله الى الكونت ـ وهو بالمعرة وكفر طاب ـ بطلب الموادعة ، وأن يقبل أن يشاطره الكونت بعض أملاكه ، وانه سيبذل جهده في تأمين راحة الحجاج ، وأقسم له بدينه وتعهد بالوفاء ، وانه لن يتعرض للحجاج بأدنى أذى داخل حدود اراضيه ، كما أنه سيمده ـ عن طيب خاطر ـ بما يلزمه من الخيول والمؤن والعتاد.

وسار بعد ذلك رجالنا ، حتى إذا دنوا من شيزر الواقعة على نهر العاصي ، اقاموا معسكرهم هناك ، فضاق لذلك صاحب شيزر ، وخاف حين رأى الفرنجة وقد ضربوا خيامهم قرب

البلدة ، وأمر بايقاف امدادهم بالمؤن إن لم يبتعدوا من أحواز البلد.

وانفذ في اليوم التالي بصحبتهم دليلين من التركمان ليرشـدانهم على مخاضة يعبرون عندها النهر ، وليمضيا بهم الى حيث يجـدون ما يكفـي مـن الغنائم ، فـوصلوا الى واد تشرف عليه احـدى القلاع ، واستولوا هناك على مـا يزيد عن خمسـة آلاف رأس مـن الغنم وكمية لا بأس بها من القمح وغير ذلك مـن الحـاجيات التـي يمكن أن تفيد جميع العساكر المسيحية ، واستسلمت شحنة القلعـة للكونت واعطته بعض الخيول والذهب ، ثم أقسمت بـه بـدينها الا تتعرض للحجاج بأدنى ضرر.

وا قمنا هناك مـدة خمسـة ايام (٩٧) ، ثـم رحلنا ـ يعمنا السرور ـ على مقربة مـن حصـن للعـرب ـ خـرج الينا صاحبه ، وعقد اتفاقا مع الكونت ، ووصلنا بعـد مغـادرتنا هـذه المنطقة الى بلدة كبيرة زاخرة بالمؤن وواقعة في أحد الأودية واسـمها « رفنية » ، وما كاد خبر وصـول الفـرنجة يتـرامى الى مسـامع سكانها حتى غادروها وتخلوا عمـا بهـا مـن البسـاتين الممتلئة بالخضراوات ، وتركوا بيوتهم المشحونة بمواد الغـذاء ، وهـاموا على وجوههم ، أما نحن فقد غادرنا هذه البلدة بعد ثـلاثة أيام مـن دخولنا لها ، وعبرنا جبلا هائلا شامخا ، فلما جاوزناه دخلنا وادي البقيعة حيث كانت توجد ذخائر كثيرة ، وقد بقينا هناك خمسة عشر يوما (٩٨) .

وكان على مقربة منا قلعة (٩٩) تحصـين بهـا حشـد كبير مـن الكفار ، وهجمنا على هذه القلعة ، وكان نصرنا أمرا مفروغا منه لو لم يخرج المسلمون من بـابها قـطيعا كبيرا مـن الحيوانات ، لذلك انصرف رجالنا الى خيمهم يحملون مختلف أنواع المغانم ، وطوى في الصباح الباكر رجالنا خيمهم ، وبادروا بغية محاصرتها ، واقـامة معسكرهم بها ، ولاذ جميع الكفرة بالفرار ، وخلفوا القلعة وراءهم

ليس بها أحدا ، فأقتحمها رجالنا ، وعثروا فيها على كميات كبيرة من القمح والطحين والنبيذ والزبيب وكل ما كانوا بحاجة اليه.

واحتفلنا فيها بعيد دخول القديسة مريم الى الهيكل ، واستقبلنا رسلا بعث بهم صاحب حمص (١٠٠) الى الكونت ومعهم الخيول والأموال وعقدوا مع الكونت معاهدة جرى الاتفاق فيها على الايمس المسيحيون بأدنى اذى ، وعلى احترمهم والمحافظة عليهم ، كما بعث امير طرابلس (١٠١) رسالة من طرفه الى الكونت[ريموند] يسأله الموادعة والاتفاق والارتباط معه برباط الصداقة اذا شاء ، وانفذ اليه عشرة رؤوس من الخيل واربعة من البغال مع بعض المال ، ورفض الكونت واعلن انه لن يهادن امير طرابلس مالم يعتنق المسيحية.

وبعد مغادرتنا لهذا الوادي الجميل وصلنا الى مكان حصين اسمه « عرقة » وذلك يوم الاثنين منتصف شباط ، ونصبنا فيه خيامنا ، وكان الوادي يعج بحشد هائل من الكفرة ، نشطوا بهمة عالية ، وعملوا على تحصين هذا المكان والاستبسال في الدفاع عنه ، وخرج أربعة عشر رجل من فرساننا للهجوم على طرابلس الواقعة على مقربة منا ، فصادف هؤلاء الأربعة عشر فارسا قفلا للتركمان فيه ستون رجلا أو أكثر من ذلك ، وكانوا يسوقون أمامهم الناس و الحيوانات ، حتى أن عددهم قارب الألف و الخمسمائة أو زاد ، و تسلح رجالنا بشارة الصليب ، وانقضوا عليهم ، فقتلوا منهم ستة رجال واستولوا على ست أفراس.

وتميز عن جيش الكونت ريموند كل من ريموند بيليه ، وريموند فيكونت تورين وانفصلا عنه ، ووصلا إلى مدينة طرطوس التي هب للدفاع عنها جمع غفير من الكفار ، فقاتلاهما قتالا ضاريا ، ولما حل المساء تراجعا إلى إحدى الجهات ، ونصبا خيامهما عندها ، وأوقدا نارا كبيرة ، كما لو كان الجيش معسكرا هناك ، فاستولى الرعب على الكفرة ، واستغلوا حلول الظلام فانسلوا هاربين خفية ، وخلفوا البلدة وراءهم ، وتركوا بها متاعهم الكثير .

وكان للمدينة مرسى جميل على شاطىء البحر ، وأعد رجالنا العـدة لمهاجمته في الصباح ، لكنهم وجدوا المدينة خاوية ، فدخلوها ، وظلوا معسكرين بها حتى ساعة حصارهم لعرقة ، وكان على مقربة منهـا بلدة أخرى اسمها « مرقية » ، عقد صاحبها مهـادنة مـع رجـالنا وأدخلهم إياها حاملين لراياتهم .

٣٥ ـ وقدم الأمير غودفري وبوهيموند وكونت فلاندر ، لكن ما إن اقتربوا من بلدة اللاذقية ، حتـى انفصـل عنهـم بـوهموند عائدا والخشية تملأ قلبه ، إلى أنطـاكية ، وتـابع البـاقون ، زحفهـم ، وحاصروا بلدة اسمها « جبلة » وسمع الكونت ريموند الصـنجيلي أن هناك حشدا كثيفا من الوثنيين زاحف نحونا لمحاربتنا ، وسرعان ما عقد اجتماعا مع أعوانه ، تم الاتفـاق فيه على مـطالبة الأمـراء القائمين بحصار جبلة ، بالمبادرة إلى نجدتهم ، ولما تناهـى الخبـر إلى مسامعهم ، عقدوا هـدنة مـع صـاحبها وأخـذوا منه الخيول والمال ، ثم غادروا البلدة ، وتوجهوا إلى مساعدتنا ، غير أن الكفرة تقـاعسوا عن الاقـدام على حـربنا ، وإذ ذاك ضرب الأمـراء معسكراتهم خلف النهر ، وأسهموا بنصيبهم في حصار ذلك الموقع .

ولم يمض وقت طويل حتى زحف رجالنا على طرابلس ، وصـادفوا خارجها جماعة من التركمان والعرب المسـلمين ، فـانقض عليهـم رجالنا وأجبـرروهم على الهـرب ، وقتلوا فـئة كبيرة مـن أعيان المدينة ، واستمر القتل بالكفرة ، وسالت الدماء حتى صـبغت المياه التي تغذي المدينة والآبار باللون الأحمر القاني ، واسـتولى عليهـم الحزن والخوف ، واشتد الذعر والأسى بـالباقين حتـى إنه لم يملك أحدهم الجرأة على تجاوز أبواب المدينة .

وأغار رجالنا في يوم آخر ، حتى إذا كانوا في أحواز وادي البقيعة ، صادفوا كميات من الثيران والحمير والماشية والجمال ، فـاستولوا عليها ، وكانت عدة ما غنموه من الحيوانات ثلاثة آلاف رأس .

ودام حصارنا لهذا المكان(١٠٢) الآنف الذكر مدة ثلاثة أشهر ما عدا يوما واحدا ، واحتفلنا هناك بعيد قيامة المسيح الرب أربعة أيام ، قبل منتصف شهر نيسان(١٠٣) وكانت سفننا قد اقتربت إذ ذاك منا ، حيث وصلت إلى أحد الموانىء ، ورست فيه طوال مدة هذا الحصار ، وحملت إلينا كميات وافية من القمح والنبيذ واللحم والجبن والشعير والزيت ، وقد توفر لنا هذا طوال أيام الحصار ، وسعد أثناء هذا الحصار عدد من رجالنا كبير بنيل الشهادة ، وكان من بينهم أنسلم دي ريبومونت ، ووليم بيكاردي وغيرهم كثير ممن لا أعرفه :

وتتابع وصول الرسل من [ابن عمار] أمير طرابلس على الأمراء يطلب منهم مبارحة المكان ومهادنته ، ولما علم رجالنا بخبر المحاصيل الجديدة ، ورأوها (لأننا كنا في منتصف آذار نأكل البقول الجديدة وفي منتصف نيسان حصدنا القمح) وعليه عندما علم رجالنا بهذا عقد الأمير غودفري ، وكونت ريموند الصنجيلي ، وروبرت كونت نورمندي ، وكونت فلاندرز مؤتمرا تباحثوا فيه ، وقرروا أنه من الأنسب لهم استئناف الرحلة إلى القدس وحصد المحاصيل الجديدة .

٣٦ ــ عندما بارحنا هذا الموقع ، ووصلنا إلى مدينة طرابلس في يوم الجمعة ١٣ أيار ، وقضينا بجوارها ثلاثة أيام ، أعطانا خلالها [أميرها] أكثر من ثلاثمائة حاج كانوا أسرى لديه ، وقدم لنا خمس عشرة ألف قطعة ذهبية ، وخمس عشرة هدية رفيعة الثمن ، وزودنا بأعتدة كثيرة من الخيول والحمير مع أنواع المؤن التي سدت حاجة جند المسيح جميعا ، واتفق مع مقدمنا على أن يدخل بدين النصرانية ، ويتسلم أرضه منهم إن هم تمكنوا من هزيمة خليفة مصر في الحرب التي استعد لها ضدهم ، وإذا استطاعوا أخذ القدس .

وبعدما جرى الاتفاق على هذا غادرنا طرابلس في يوم الاثنين [السادس عشر] من شهر أيار ، ووصلنا إلى

قلعة « البتـرون » حيث أوصـلنا زحفنا إلى بلدة مجـاورة للبحـر اسمها « جبيل » وعانينا من شدة الظمأ ، وبلغ منا الوهـن أشـده حتى أدركنا نهرا اسمه نهر ابراهيم .

وبعدما زحفنا ليلة صعود الرب ونهارها عبر طـريق وعر ضـيق ، وصلنا إلى جبل كان يخيل لنا أننا سنجد العدوعندهيترصدنا وكامن لنا ، لكن رعاية الرب وعنايتـه بنا افقـدته الجـرأة على الدنو منا ، فتقدمنا فرساننا ومهدوا الطريق أمامنا ، ووصلنا بعد ذلك مدينة تطل على البحر اسمها « بيروت » وتـوجهنا منهـا إلى مـدينة أخـرى اسمها صيدا ، ثم إلى غيرها واسمها صور ، ووصلنا من صور إلى عكا ، وافضى بنا الطريق إلى بلدة حصينة اسـمها يافـا ، ونصـبنا خيمنا قـرب بلدة قيســـارية ، حيث احتفلنا بعيد العنصرة وذلك يوم ٢٩ أيار .

وعدنا منها إلى مدينة الرملة ، التي نزح عنها المسلمون خوفا مـن الفرنجة ، وكان على مقربة منها كنيسـة كبيرة مقـدسة ، ثـوى في ثراها جثمان القديس جورج الطاهر ، ذلك أنه كان قد نال الشـهادة المباركة في هذه البقعـة على أيدي الكفـرة الوثنيين في سـبيل اسـم المسيح ، وعقد مقدمونا اجتماعا قـرروا فيه اختيار اسـقف (١٠٤) لرعاية هذه الكنيسة وادارتها ، ووهبوه الأعشار ، واعطوه الذهـب والفضة والخيول وغيرها من السائمة والانعام حتـى يتمـكن مـن العيش والبقاء هو ورجاله بشكل مشرف ، فأقام راضيا.

٣٧ ــ وعم السرور بين صفوفنا ، وتابعنا زحفنا حتى وصـلنا إلى مدينة القدس ، وذلك في يوم الثلاثاء السادس من] حزيران ، في الساعة الثامنة ، وحاصرناها حصـارا شـديدا مـدهشا ، وضـيق روبرت النورمندي الخناق عليها من جهة الشـمال ، قـرب كنيسـة القديس أصطفان ــ اول الشهداء ــ من الجهة التي قتل بها رجما في سبيل اسم المسيح ، وحاصرها من الجهة الغـربية الأمير غودفـري وتانكرد ، أما الكونت صنجيل فقد عسـكر في الناحية الجنوبية على

جبل صهيون أمام كنيسة القديسة العذراء مريم أم الرب ، في المكان الذي احتفل فيه الرب وحوارييه بالعشاء السري .

ودفعت الرغبة في الاغارة كل من ريموند بيليه وريموند دي تورين ، فانفصلا عن الجيش في اليوم الثالث ، فصادف فارسا المسيح مائتي عربي فقاتلاهم ، وأمدهما الرب بعونه ، فكانت لهما الغلبة عليهم ، وقتلا العديد منهم وغنما ثلاثين فرسا .

وهاجمنا المدينة يوم الاثنين (١٠٥) هجوما عنيفا ، وضغطنا ضغطا شديدا ، وسطونا عليها إلى حد أنه لو كانت السلالم معدة وأسندت إلى الأسوار لسقطت القدس في أيدينا ، ومع هذا فقد دمرنا السور المنخفض ، وأسندنا السلالم إلى السور الرئيسي المرتفع ، وارتقاها فرساننا ، وضربوا عن قرب جماعة المسلمين والمدافعين عن المدينة بالسيوف وطعنوهم بالرماح ، وكانت قتلاهم أكبر عددا من قتلانا .
ومكثنا أثناء الحصار مدة عشرة أيام لانجد فيها الخبز لنشتريه ، واستمرت هذه الضائقة حتى وصلتنا نجدة من سفننا ، ووقعنا فرائس للعطش المحرق ، وكابدنا أشد المصاعب حتى لقد كنا نمشي ستة أميال لارواء خيولنا وبقية الحيوانات ، غير أننا وجدنا الماء عند عين سلوان الواقعة عند سفح جبل صهيون ، لكنه كان يباع بيننا بسعر مرتفع جدا .

وبعدما وصل إلينا الرسل من السفن المذكورة ، اجتمع قادتنا للتشاور ، وقرروا ارسال مجموعة من الفرسان تتولى حماية الرجال والمراكب الراسية في مرسى يافا ، ومع اشراقة الصباح توجه مائة فارس انفصلوا عن جيوش ريموند بيله ، وأكاردي مونتمول ووليم السبراني ، توجهوا ثابتي الجنان نحو الميناء المذكور .

وتميز ثلاثون فارسا عن المائة ، وساروا وحدهم ، فصادفوا في طريقهم سبعمائة رجل من العرب والتركمان والمسلمين من عساكر خليفة مصر ، فشد فرسان المسيح في الحملة عليهم ، لكن تفوق العدو العددي مكنه من تطويق رجالنا تطويقا كاملا ، وقتل أكاردي

- ٢٥٧٨ -
مونتمول وغيره وخاصة من المشاة الفقراء ، وبينمـا كان فـرساننا مطوقين ، يواجهون الموت ، وصل رسـول إلى ريمـوند بيليه وقـال له : « ماذا تفعل أنت وهؤلاء الفرسان ، إن رجالنا بين أيدي العرب والتركمان والمسلمين ، ومن المحتمل أنهـم قتلوا جميعـا عن بـكرة ابيهم ، انهض وبادر إلى انقاذهم » ، ولما انتشر الخبر بين رجالنا ، سارعوا بالرحيل ، وأغذوا السير ، وأدركوهم والقتال على أشده ، ولما رأى الشعب الوثني فرسان المسيح ، انقسم إلى فرقتين ، فهتف رجالنا باسم المسيح وانقضوا على أولئك الكفرة انقضاضا شديدا ، والتحم كل فارس بخصمه ، ولما أدرك الأعداء أن لا قبل لهم بمداومة القتال والتصدي لبطش الفرنجة ، فشلوا وولوا ظهورهم لعـدوهم ، وقبضوا بعضهم أحياء ، ليدلوهم على الطريق ، وغنموا مائة وثلاثة من الخيول .

وعانينا أثناء حصارنا للقدس من شدة العـطش ، حتـى كنا نخيط جلود الثيران والجواميس لنحمل فيها الماء من مسافة سـتة أميال ، فالماء الذي سبق لنا أن حملناه معنا في الأواني قد أسـن وتغير لونه وطعمه ، واقتصر طعامنا على خبز الشـعير ، ممـا أثـار الأسى في نفوسنا وبعث فيها الحزن ، وفي الحقيقة عمل المسلمون من جهتهـم على نشر الأمراض بين رجـالنا عن طـريق افسـادهم لمياه الآبـار والينابيع ، كما أنهم قاموا بجمع كل مـا وجـدوه لديهـم وأخفـوه وأخفوا أنعامهم في الكهوف والمغائر .

٣٨ ـ وتباحث قادتنا حول أفضل الأسلحة التي يمكن أن يهاجموا المدينة بها ، وخاصة الكباش ، حتـى يتمـكنوا مـن دخـولها وأداء فروض الصلوات عند قبر مخلصنا ، فشيدوا برجين مـن الخشـب وصنعوا بعض الآلات المفيدة ، وصنع الأمير غودفري برجا زوده بما يلزم من الأدوات ، وصنع الكونت ريمـوند مثـل صـنيعه ، وكانوا يجلبون الأخشاب من مناطق بعيدة جـدا ، ولما رأى المسـلمون مـا أقامه رجالنا من تلك الأدوات ، زادوا بتحصين المدينة بشكل يبعـث

على الدهشة ، وشددوا الحراسة على الأبراج والدفـاع عنهـا أثناء الليل .

وعندما تعرف رجالنا على أضعف جوانب سور المدينة ـ وهـي في الجهة الشرقية من المدينة ـ شرعوا في ليلة السبت [الثـالث مـن تموز] في نقل المعدات مع برج من الخشـب ، وقـاموا في الصـباح بنصب الكباش ، واستعدوا للحرب ، وأمضوا أيام الأحـد والأثنين والثلاثاء في أعمال تجهيز البرج .

وأخذ الكونت ريموند في الناحية الجنوبية بتجهيز آلاتـه واعدادهـا بها ، هذا وكنا في تلك الساعة بالذات نصارع العطش المميت ، حتى أن الرجل منا كان يعجز عن ايجـاد شربـة مـاء تـروي غليله ولو بدينار .

وحملنا في يومـي الأربعـاء والخميس حملة شـديدة على المدينة ، وصدقناها القتال من جميع الجهات ، وقام الأساقفة والكهنة ، قبل استيلائنا على المدينة ، بإلقاء الخطب والمواعظ ، وأمرونا أن نسير بتطواف طقوسيحول أسوار القدس تمجيدا للرب ، وأن يصحب هذا التطواف أداء للصلوات وبذل للصدقات وقيام بالصيام.

وقمنا في الصباح الباكر ليوم الجمعة بهجوم شـامل ضـد المدينة ، لكن لم نستطع الاستيلاء عليها فاستولى علينا الذهـول والفشـل ، وعندما دنت الساعة التي تحمل فيها ربنا يسوع المسـيح الآلام مـن أجلنا برفعه الصـليب ، أخـذ فـرساننا الذين كانوا على البـرج الخشبي ، يقاتلون بكل عنف ، وكان بينهم الأمير غودفري وأخـوه الكونت استاش .

وقاد الكونت ريموند ـ الذي كان مرابطا في الوسـط ـ جيشـه ، ودفع ببرجه الخشبي حتى اقترب من السور ، وكان هناك خندق بين السور والبرج الخشبي ، وبغية ردمه أعلن أنه سيمنح دينارا لكل من يلقي بثلاثة أحجار فيه ، واسـتغرق ردمـه ثـلاثة أيام وثـلاث ليال

سويا ، ولما جرت تسويته بالأرض سحبوا الكبش ، ودفعوه بـاتجاه السور لينطحه .

وحمي وطيس القتال داخل المدينة بين المدافعين عنها وبين رجالنا ، وأخذوا يرمونها بـالنيران المحـرقة والحجـارة ، ولما عرف الكونت (صنجبيل) بأن الفرنجة أصـبحوا داخـل المدينة خـاطب رجـاله بقوله : « ماذا تنتظرون ، وقـد دخـل الغـاليون بـأجمعهم إلى المدينة » ؟ واستسلم القائد ، الذي كان يتولى حراسة بـرج داود ، للكونت ، وفتح له الباب الذي اعتـاد الحجـاج على تـأدية الجـزية عنده ، ولما دخل حجاجنا المدينة جدوا في قتل المسـلمين وطـاردوهم حتى قبة [المسجد] العمـري حيث تجمعـوا هناك واسـتسلموا لرجالنا الذين أعملوا فيهم أبشع القتل وأفظعه طوال اليوم بأكمله ، حتى فاض المعبد كله بدمائهم ، وبعـدما تـم لرجـالنا النصرة على الكفار ، عثروا في المعبد على جماعة كبيرة من الرجـال والنسـاء ، ففتكوا ببعضهم وأبقوا على بعضهم ممن أحسنوا الظن بهم ، وكان قد التجأ إلى الجانب العلوي من « هيكل سليمان » فريق كثيف من الكفار من الرجال والنساء رافعين أعلام تانكرد وكاسـتون بيرن ، وانطلق الصليبيون في جميع أرجـاء المدينة يسـتولون على الذهـب والفضة والخيول والبغال ، كمـا بـاشروا نهـب البيوت الزاخـرة بالثروات .

وازداد سرور رجالنا حتى أنهم بكوا من شدة فرحتهم ، ثم سجدوا أمام قبر مخلصنا يسوع ، وأدوا واجباتهم الدينية وقضوهـا ازاءه ، وتسلق رجالنا في صباح اليوم التـالي سـطح الهيكل وهـجمـوا على المسلمين رجالا ونساء ، وامتشقوا سيوفهم ، وراحوا يعملون فيهم الذبح ، حتى رمى بعضهم بنفسـه مـن أعلى المعبـد ، واسـتشاط تانكرد غضبا عندما شهد هذا المنظر .

٣٩ – وعقد رجالنا بعد ذلك اجتماعا اتفقوا فيه على قيام كل واحد منهم بتأدية الصلوات وتوزيع الصدقات ، كي يختار الرب واحدا من

بينهم ، تـكون له السـلطة على الآخـرين وعلى المدينة ، وصـدرت الأوامر أيضا برمي جيف كافة مـوتى المسـلمين وطـرحها خـارج المدينة ، لشدة روائح النتن المتصـاعدة منهـا ، ذلك أن المدينة كانت مملوءة بجثثهم ، وقام المسلمون الذين كتب لهم البقـاء بجـر القتلى خارج القدس ، ورميهم أمام الأبواب ، وارتفعـت أكوامهـم حتـى حاذت البيوت ارتفاعا ، ولم يسبق قط أن سمع أو رأى أحد مـذبحة مثل هذه المذبحة التي ألمت بالشعب المسـلم ، وجمعـت أكوام مـن الحطب كأنها الجبـال ، وأحـرقوا عليهـا ، ولا يعلم غير الرب عدد الذين أحرقوا .

واخذ الكونت ريموند (جناح الدولة) ورفاقه حتى عسـقلان ، حيث أبلغهم مأمنهم سالمين .

ووقع الاختيار ، في اليوم الثـامن لاسـتيلائنا على المدينة ، على الأمير غودفري ، وانتخب ليكون حـاميا للمـدينة ، قصـد محـاربة الكفرة والدفاع عن المسيحيين ، وعندما حل يوم عيد القديس بطرس في القيود ، (١٠٦) اختار القوم « آرنول » بطريركا للمـدينة ، وكان رجلا شريفا مدبرا ، وكان قد تم لمسيحي الرب الاستيلاء على هـذه المدينة يوم الجمعة الخامس عشر من تموز .

ووفد في هذه الأثناء موفد على تانكرد والكونت أستاش (أخـي غودفري) دعاهما للنهوض والذهاب معـه لتسـلم مـدينة نابلس ، فتوجها على رأس جماعة كبيرة من الفرسان والرجـالة ، حتـى إذا بلغا المدينة استسلمت ودان سكانها بالطاعة .

وطلب إليهم الأمير (غودفري) ، أثـر ذلك ، أن يسرعوا بـالزحف لصد الهجوم الذي يقوم به (الأفضل) وزير مصر على عسـقلان ، فسارعوا باقتحام الجبل باحثين عن المسلمين بغية الاشتباك معهم ، وبلغوا قيسارية ، ثم ساروا محاذين لشاطىء البحر حتـى وصـلوا إلى الرملة ، فعثروا بها على عدد كبير من العرب قـدموا لتشـعيث المكان ، فاندفعوا في آثارهم ، وأسروا العديد منهم ، وحملوهم على

الافضاء بمعلومات تتعلق بأحوالهم وعددهم والمناطق التي يعتزمون حرب المسيحيين فيها ، ولما وقف تانكرد على هذه المعلومات ، بعث رسولا إلى الأمير غودفري ، وإلى البطريرك (أرنول) وإلى بقية الأمراء (في القدس) يقول لهم : « ليكن معلوما لديكم أن القوم في عسقلان يعدون العدة للهجوم علينا ، فبادروهم بجميع القوات التي يمكنهم حشدها » .

وأمر الأمير غودفري باستنفار جميع العساكر ، وأمر بتجهيزهم بالسرعة الممكنة وإرسالهم نحو عسقلان بغية صد العدو وقتاله ، و خرج هو نفسه مع البطريرك و روبرت كونت فلاندرز من المدينة يوم الثلاثاء (١٠٧)، و صحبهم الأسقف «مارتيرانوا» ، لكن كونت صنجيل وروبرت النورمندي أعلنا أنهما لن يشرعا بالزحف مالم يتأكدا من صحة خبر الهجوم ، وبعثا ببعض فرسانهما ليستطلعوا صحة خبر الهجوم (المصري) وليعودوا على جناح السرعة مع الأخبار ، حيث كانا مستعدين للزحف فورا ، ومضى هؤلاء الفرسان ، واتضح لهم صحة خبر زحف العدو ، وبادروا عائدين حيث أخبروا أنهم شاهدوا ذلك بأنفسهم ، وهنا اختار الأمير غودفري الأسقف مارتيرانو ، وبعث به إلى القدس ليستنفر الفرسان الذين كانوا فيها ، ويجعلهم يمضون للزحف لقتال العدو ، ولما كان يوم الأربعاء سار الأمراء وتوجهوا نحو أرض المعركة ، ورجع الأسقف مارتيرانو إلى البطريرك والأمير غودفري ، ونهض المسلمون لقطع الطريق عليه ،.وقبضوا عليه وساقوه أسيرا وعادوا به .

وبقي بطرس الناسك في القدس للقيام بما تتطلبه الحال من تدابير واستعدادات ، ولتحريض الأغريق واللاتين والكهنة على تمجيد الرب والدعاء وإقامة الصلوات ، وإخراج الصدقات ، حتى يمنح الرب شعبه ما وعده به من النصر ، ولما فرغ الكهنة والرهبان من ارتداء مسوحهم المقدسة ساروا على رأس الموكب نحو هيكل الرب ، وأخذوا في ترتيل القداس والدعاء عسى أن يقي الرب شعبه .

واجتمع أخيرا البطريرك والأساقفة وبقية الأمراء عند ضفة نهـر في أحواز عسقلان ، وتمكنوا وهم هناك من الاستيلاء على عدد كبير من الماشية والثيران والجمال ومختلف أنواع السلب ، من العـرب ، وكانوا يناهزون ثلاثمائة رجـل ، وانقض عليهـم رجـالنا ،وأسروا منهم اثنين ، وطاردوا البقية حتى بلغـوا معسـكر جيشـهم ، وعند حلول المساء نادى البطريرك بين صـفوف رجـال الجيش بـوجوب التأهب في الصباح الباكر للحرب ، وأصدر قرارا بحرمان كل رجـل يفكر في الاستيلاء على شيء من الغنائم قبل انتهاء المعركة ، فإذا تـم لهم النصر عادوا مسرورين للاستيلاء على كل ما هيأه الرب لهم .

ودخلوا في الصباح الباكر واديا خصبا قريبا من شاطىء البحـر وأقاموا فيه معسكراتهم ، ثم عمد الأمير غودفري إلى قواته فـرتبها للقتـال ، وفعـل مثله كل مـن كونت نورمندي ، وكونت صـنجيل ، و كونت فلاندرز ثم تانكرد وكاستون ، ثم بعثوا بجماعة من الرجالة ورماه النشاب أمام الفرسان ، ولما تـم لهـم ذلك شرعوا بـالحرب واستفتحوا القتال باسم الرب يسوع المسيح .

وكان الأمير غودفري في الميسرة ومعه قواته ، وكونت صنجيل في الميمنة وقد انتشرت قواته بمحاذاة الساحل ، ووقف في القلب كل من كونت فلاندرز و كونت نورمندي و تـانكرد و بقية القـادة ، و تقـدم رجالنا حسب هذه التشكيلة.

وكان الوثنيون بدورهم متأهبين للقتال ، وقد علق كل منهم ركوته (وعاء الشرب) إلى عنقه كيما يسهل عليهـم شرب الماء ورشـفه ، حتى وهم مجدون في مطاردتنا ، لكن مشيئة الرب لم تتح لهم الوقـت الكافي لتحقيق مـاكانوا يبتغـون ، ولما أبصر كونت نورمندي راية الأمير محلاة بكرة من الذهب ومرفوعة على اسطوانة مـن فضـة ، أقبل مندفعا غير هياب ، وانقض على حاملها ونفحه بضربـة أودت بحياته ، كما قام تانكرد بهجوم على معسكر العدو الوثني ، الذي ما كادت عساكره تراه حتى ولت الأدبار فرارا ، وكان قدر الجند كثيرا

لايحصيهم عد ولا يعرف كم هم سوى الرب ، واشـتد القتـال ، لكن قدرة ربانية قدمت العون لنا ، وكان ذلك من الضخامة والشـدة إلى درجة جعلت النصر من نصيبنا في أسرع وقت .

وغشى الرب أبصار أعدائه وأدهشـهم ، فعلى الرغم مـن شـدة إبصارهم وتحديق عيونهـم ، كانوا يحـدقون في فـرسان المسـيح ولايرون شيئا ما أمامهم ، ولم يعودوا يملكون الجرأة على التحـديق بالمسيحيين ، لأن القدرة الربانية أدخلت الرعب إلى نفوسهم ، حتى حملهم خوفهم على تسـلق الأشـجار والاختبـاء وراءهـا ، بيد أن رجالنا اصـطادوهم رميا وطعنا وضربـا بـالنشاب والرمـاح والسيوف ، وتخفى بعضهم الآخر بـالاستلقاء على الأرض دونمـا حراك وكأنهم أموات ، لكن رجالنا تـولوا ذبحهـم ذبـح الأغنام في السوق ، كما أن كونت صنجيل قتل جماعة كبيرة منهم على مقـربة من شاطىء البحر ، وكان بعضهم قد رمى بنفسه فيه ، وهام آخرون على وجوههم هنا وهناك .

أما الأمير (الأفضل) فإنه بعـدما وصـل أمـام المدينة حـزينا قانطا ، وقف يبكي ويندب حظه ويقـول : « ياأرواح الأربـاب ، إن العين لم تر مثل الذي جرى ، والأذن لم تسمع بمثـل الذي حـدث ، أيتها الأرواح ، يامن لاتضارعك قـوة ، ولا يمـاثلك جبـروت ، ولا تضاهيك شجاعة ، يامن لم تعرفي الهزيمة قـط أمـام أية أمـة مـن الأمم ، أراك غلبت الآن من قبل هذه الشرذمة المسيحية ، ما أعظـم الحزن ، وأشد الأسى ، ماذا أقول ، وماذا أردد ، أتراني أهزم الآن على أيدي شعب منبوذ جبان ، وجماعة من الصعاليك لايملكون مـن الدنيا سوى المزود والعصاة ، هؤلاء الذين طاردوا المصريين ، الذين طالما وزعوا عليهم الصدقات من قبل ، حين كانوا يجـوبون بـلادنا ملتمسين الصدقات ؟! لقد حشدت هنا مـائتي ألف فـارس ، لكنني شهدتهم يثنون أعنة خيولهم ويوجهونها شطر مصر فرارا ، وهربوا لايلوون على شيء ، ولم يفكروا بالوقوف أمام أمة الفـرنجة ، وإنني لأقسم بمحمد وبقوة جميع أربابنا أنني لن أقود ثانية أية جماعة من

الفرسان ، مادمت قد طردت على يد مثل هذا الشعب الغريب ، لقد أحضرت جميع أنواع الأسلحة ، والمعدات لالقاء الحصار على الفرنجة في القدس ، لكن الفرنجة قدموا وهاجموني وطاردوني طوال يومين ، وا أسفاه ، ماذا أقول أكثر من هذا ، لقد ضاعت هيبتي إلى الأبد في مصر[٢] (١٠٨) ! .

واستولى رجالنا على راية (الأفضل) فاشتراها كونت نورمندي بعشرين قطعة فضية ، ثم وهبها للبطريرك تمجيدا للرب وللقبر المقدس ، وتقدم غيره فاشترى سيف (الأفضل) بستين قطعة ذهبية .

وهكذا تمت هزيمة أعدائنا جميعا كما شاءت إرادة الرب ، وكانت جميع سفن البلدان الوثنية راسية هناك (في عسقلان) ولما رأى من كان بها فرار الأمير وجيشه بادروا إلى ركوب سفنهم والاقلاع بها بأقصى سرعة .

ولما عاد مقاتلونا إلى معسكر العدو ، جمعوا منه غنائم هائلة من الذهب والفضة واستولوا على كميات كبيرة من الأموال ، وعلى أنواع شتى من الحيوانات والأسلحة ، فحملوا معهم كل ما أحبوا امتلاكه ، وأحرقوا ما بقي ، وهكذا عاد رجالنا إلى القدس حاملين معهم كل ما كانوا بحاجة إليه .

ولقد جرت هذه المعركة يوم الجمعة (١٠٩) حسب مشيئة ربنا يسوع المسيح ، الذي له المجد والشرف السرمدي وعلى مر الدهور . آمين .

تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القدس

صنفه ريمون دي جيل ـ راهب نوتردام لى بوي

(خطبة الكتاب)

يلتمس بونز اوف بلازون ، وريمون راهب لي بوي منكم ياصاحب النيافة اسقف فيفية ، ومن جميع اتباع العقيدة المستقيمة المباركة والمشاركة في الامنا ، ونريد اذ نحن نضع هذا الكتاب ان نخبركم ونخبر معكم الشعب كله فيما وراء الالب بأخبار جميع الاعمال الرائعة التي نفذها الرب من خلالنا بكرمة المعتاد على الدوام ، وبسبب ظروف الحرب وما دأب عليه الآبقون من نشر للاكاذيب وبعد عن الحقيقة ، فان المهمة التي تولينا القيام بها ستمكن قراء الايام المقبلة من تجنب معاشرة مثل هؤلاء المرتدين والاستماع الى ارائهم ، لان اعمالهم ستكون مكشوفة ، وجدير بالذكر ان جيش الرب ، مع انه عانى من سوط الرب بسبب خطاياه ، قد انتصر على جميع الوثنيين لان الرب عطوف ودود ولعله سيكون من الصعوبة بمكان ان نكتب عن كل رحلة من الرحلات ، لان بعض الحجاج اجتازو دلماشيا (سلافونيكا) وعبر اخرون بلاد المجرولومبارديا ، او سافروا بحرا ، لهذا ركزنا اهتماما بالكتابة عن كونت صنجيل واسقف لي بوي ، وجيشهما ، دون الاهتمام بالاخرين .

الفصل الاول

السفر خلال دلما شيا وخيانة الاغريق

بعد الرحيل ، دخل الجيش الى بلاد دلماشـيا ، وعانى هناك مـن كثير من المصاعب خلال فصل الشتاء ، والحق اقول بـلاد دلماشـيا ارض جبلية مهجورة من الصعب الوصـول اليهـا ، فهناك لم تقـع اعيننا على حيوانات برية او طيور ، اما سـكانها مـن الهمـج فلم يتاجروا معنا ، ولم يزودونا بالأدلاء ، بل انهـم فـروا مـن قـراهم وحصونهم ، وكأنما نزل بهم اذى شديدا من رجالنا المشردين واهني القوى ، وهكذا ازهقوا ارواح هؤلاء المساكين المنهكين من النسـاء والشيوخ والفقراء والمرضى ، ونبحوهم كما لو انهم مواشي للذبـح ، ولمعرفة السلاف بهذه الارياف واعتيادهم عليها ، كان من الصـعب على فرساننا ثقيلي التسليح مطاردة هؤلاء اللصوص وان كانوا غير مسلحين ، وتعقبهم في مسـالك الجبـال الوعرة وداخـل الغـابات الكثيفة ، وصبرت قواتنا وصابرت قطاع الطرق هؤلاء ، حيث لم يكن بامكان جنودنا القتـال في الجبـال ، كمـا لم يكن بـامكانهم تجنب الاشتباك بهم ومناوشتهم .

ونتوقف عن سرد روايتنا عند هذه النقـطة ، لنروي قصـة قتـال مجيد خاضه الكونت ريموند في احد الايام ، عندما وجد نفسـه مـع فرقته محاطين بـالسلاف ، الذين أسروا سـتة منهـم ، وهنا ادرك ريموند وقد ضغط عليه بشدة ان عليه اقتحام صفوف السلاف حتـى يصل الى رفاقه ، فـأمر بسـمل اعين بعض اسراه ، وبتـر اقـدام بعضهم الاخر ، وجدع انوف وايدي الباقين ثـم اخـلاء سـبيلهم ، وبذلك سلم هو ورفاقه ، وتملك الاعداء رعب شديد بسـبب المشـهد المريع الذي وجدوا عليه رفاقهم المشوهين ، فأقعدهم الحزن ، وبهذه

الطريقة نجا الكونت من خــطر الموت ، ومــن هــذا المكان المخيف ، وكان ذلك بفضل الرب واحسانه .

وفي الحقيقة انه لمن الصعب ان نفي بالوصف ماأظهره ريموند من شجاعة وحكمة في دلماشيا ، فلقد سرنا هناك قــرابة اربعين يومــا ، كنا خلالها نواجه سحب الضــباب فنكاد نلمس ابخــرتها وندفعهــا بأجسادنا الى الامام ، وكان الكونت وسط هذه المخاطر يحمي دوما اتباعه بالقتال في ساحة الجيش ، وبالمكوث والانتــظار حتــى يكون اخر من يصل الى حيث مركزه في الركب ، فقد كان بعضهم يعود الى المعسكر وسط النهار او عند الغروب بــاستثناء ريمــوند الذي كان يعود دوما الى خيمته بعد منتصف الليل او عند صياح الديكه .

وبفضل رحمة الرب واعمال الكونت ونصائح ادهمر عبرنا دلماشيا بدون خسائر تذكر بسبب الجوع او الصراع المكشوف ، ويدلل هــذا العبور الموفق لهذه البلاد الهمجية ويرشدنا لنؤمــن بــأن الرب اراد لجيشه من المحــاربين ان يعبــر دلماشــيا حتــى يتخلص الهمجيون والوثنيون في وقت من الاوقات مــن همجيتهــم ، او ليســاقوا مثــل المذنبين غير المغفور لهم الى عذاب الرب .

ولدى وصولنا الى سكوتاري ، بعد رحلتنا الصعبة عبر دلماشيا ، اكد الكونت مبدأ الاخوة ، ووهب ملك السلاف الكثير مــن الهــدايا حتى يتمكن الحجاج من شراء حــاجياتهم بســلام ، وليبحثــوا عن ضروريات الحياة ، بيد ان هذا كان سرابا ، لاننا ندمنا بمرارة على اعتمادنا على السلام الوهمي ، فقد انتهــز الســلاف فــرصة هــذه المناسبة ، وقاتلوا بكل وحشية ، وذبحوا قــومنا ، واختــطفوا مــن امكنهم اختطافه من العزل ، ولعلكم تصدقون اننا كنا وقتها نصــلي للحصول على ملاذ وليس من اجل الانتقام ، ولكن لماذا نتــابع سرد قصة دلماشيا الكئيبة هذه ؟

ولدى اقامة المعسكر على مقربة مــن دورازو ، كنا على قناعة اننا

بتنا في بلادنا ذلك اننا وثقنا بألكسيوس وصدقناه مع اتباعه واعتقدنا انهم اخواننا المسيحيين وحلفاء لنا ، غير انهم انقضوا علينا بوحشية كالاسود ، وهجموا على رجالنا المسالمين الذين كانوا غارين وغافلين عما يحتاجونه للدفاع عن الذات ، وقام قطاع الطرق هؤلاء ليلا بذبح اهلينا بالحدائق ، وفي الاماكن النائية عن المعسكر وسلبوا منهم ماستطاعوا سلبه ، وعندما كان الاغريق يتصرفون هكذا بدون رادع ، وعد قائدهم حنا كومينوس بالسلام ، غير انهم قتلوا في ظل هذا العهد بونتيوس رينو ، وأصابوا أخيه بطرس بجراح مميتة ، وكان هذان أميران نبيلان ساميان ، ومع انه توفرت لنا الفرصة للثأر فقد استأنفنا رحلتنا واثرنا السكوت على الظلم الذي حاق بنا ، وفي خلال الطريق تلقينا رسائل ارسلها الامبراطور تحدثت عن السلم والاخوة ، او بالحري تحدثت عن بنوتنا للامبراطور ، لكنها كانت كلمات جوفاء ، لانه كان عن يميننا وعن شمالنا وفي امامنا وعند مؤخرتنا الترك والغز والكومان والبشناق والبلغار وسواهم من الشعوب كلهم متربص بنا .

الفصل الثاني

الرحلة عبـــــر الاراضي الاغريقية والعـــــلاقات بين الكسيوس وريموند صنجيل

كان مما زاد في متاعبنا اننا كنا في احد الايام في وادي بيلاغونيا ، عندما اسر البشناق اسقف لى بوي ، فقد كان قد ابتعد عن المعسكر قليلا بحثا عن مكان مريح ليقيم فيه ، فرجلوه من على بغلته وجردوه من ملابسه وضربوه بشدة على رأسه ، غير ان واحدا من البشـــناق أنقذه من براثن رفاقه من قطاع الطرق فقد طمـــع بــذهب ادهمـــر ، وبهذه الوسيلة بقي لنا هذا الاســـقف العـظيم الذي لاغنى للعـدالة الربـــانية عنه ، ولصـــالح الجنس البشري وكل ذلك بـــرحمة الرب فعندما سمعت الجلبة في المعسكر ، اندفع الحجاج فأنقذوا الاســـقف من البشناق الذين لم يسرعوا بالاجهاز عليه .

وعندما وصلنا الى قلعة بوسينات ، وجند الامبــراطور الخـــونة يحيطـــون بنا ، ســـمع الكونت ان البشـــناق قـــد اعدوا لنا كمينا في الممرات الضيقة لجبل قريب ، فأحبط تدبيرهم بان اعد لهم كمينا ثم باغتهم مع فرسانه ، فأنزل بأولئك المرتزقة الخونة ضربة شـــديدة ، فقتل العديد منهم وجعل الباقين يلوذون بـــالفرار ، وفي تلك الاثناء ، وهذه الاحداث قائمة وصلت رسائل تطمين من الكسيوس ، ومع هذا احاط بنا العدو ، وواجهنا خداع الامبراطور من كل جانب .

وبعد ذلك ببرهة قصيرة وصلنا الى روســـا ، وهـــي مـــدينة قـــابلنا سكانها بكل ازدراء و تحقير سافر ، فكان ان فقـــدنا صـــبرنا الذي تحلينا به وعرفناه ، فحملنا السلاح ، وا ستولينا على المدينة بعـــدما ا ستسلمت لنا هدمنا ا ســـوارها الخـــارجية وغنمنا غنائم كثيرة ثـــم غادرنا هـــذه المدينة بعـــدما رفعنا ا علامنا وهتفنا« طـــولوز» شـــعار الكونت الخاص لجمع اتباعه ، وبعد ذلك زحفنا نحـــو رودوســـتو ،

وهناك هاجمتنا قوات المرتزقة التابعة لالكسيوس ، فقد كانت متلهفة للانتقام لهزيمة روسا ، بيد اننا ذبحنا اولئك المرتزقة وفـزنا ببعض الغنائم.

وفي رودوستو رجع الينا مبعثونا الذين كنا قد ارسلناهم الى بلاط الكسيوس ، وحملوا الينا تقـارير مفـرحة عن وعود اغريقية ، كان السبب الرئيس وراءها رشوة الامبراطور لهم ، ولذلك ان الاحـداث التالية لاتحتاج الى تعليق اكثر من ذلك ،وحث مبعوثون اغريق ومن شعبنا ريموند على التخلي عن جيشه والمبادرة مع عدد ضـئيل مـن اتباعه للتوجه بدون سـلاح الى بـلاط الامبـراطور ، وابلغـوه ان بوهيموند ودوق اللورين وكونت فلاندرز وامراء اخرين يتوسلون الى ريموند ليعقد صلحا مـع الكسـيوس بشـأن حملة الحجـاج ، فالكسيوس قد يحمل الصليب ويصبح قائدا لجيش الرب واضافوا : ان الكسيوس كان على استعداد لتسـوية جميع الامـور التـي تفيد الرحلة مع الكونت ، وذلك فيما يختص به وبالاخرين ، واوضحوا ان غياب مشورة رجل عظيم عشية القتال ، سيكون امرا رديئا ، ولهـذا الحوا على ريموند ان يخف الى القسـطنطينية على رأس جـريدة ، حتى اذا اكتملت الترتيبات مع الكسـيوس ، يبـدأ الزحـف بـدون تأخير ، واستجاب ريموند لهذه النصيحة وعمل بها دونما تـأخير ، وغادر المعسكر ، وبعدما رتب امـوره ، وتقـدم الجيش لاداء هـذه المهمة ، وذهب وحده بدون سلاح الى القسطنطينية.

والى هاهنا كان تدوين اخبار هذه الاعمال التي اتسمت بالسرور والنجاح ، مهمة يسعد الكاتب بـالقيام بهـا ، غير ان القصـة غدت مشحونة بالشدة والحزن ، حتى انه ليؤلمني انني قـد شرعت فيمـا تعهدت باكماله ، وبصراحة انني لااعرف كيف سأدون هذه الاحداث على اهميتها: هل سأكتب ان ابشـع خيانة حملتهـا الينا مشـورة الامبراطور ، ام سأحكي عن هروب جيشنا بشـكل مشـين ، وعن عجزه الذي لايمكن لأحد ان يتصوره ، او سأشرع برواية خبر موت

بعض الامراء الكبار ، فأودعكم ذكرى حزن دائم ، ومهما يك من امر من اراد المعرفة فليستفسر من غيرنا .

ومع هذا انني سأروى هاهنا خبر حدث له اهمية قصوى فبينما كان قومنا جميعا يحلمون بمغادرة المخيم والفرار متخلين عن رفاقهم ، وتاركين كل ماحملوه من البلاد النائية ، اعادت اليهم بركة التكفير والصيام المنقذة قوتهم الراسخة الى درجة انهم انفسهم دهشوا لرغبتهم بالفرار ، وبأسهم السالف ، ويكفي هذا فنحن لن نتوقف عند هذه القصة اكثر مما فعلناه .

وفي الاستقبال البالغ الحفاوة الذي اعده ألكسيوس وامراؤه لريموند ، طلب الامبراطور من الكونت ان يحلف له يمين الولاء الذي اقسمه له الامراء الاخرون ، ورد ريموند انه لم يحمل الصليب ليدين بالولاء لسيد اخر ، او ليكون في خدمة اي كائن اخر غير الرب الذي من اجله هجر وطنه وممتلكات ابائه ، ومع ذلك فإنه سيأتمن الامبراطور على نفسه وعلى اتباعه وامتعته اذا ماسافر مع الجيش الى بيت المقدس ، غير ان الكسيوس اعتذر له عن الزحف وعلل ذلك بخوفه من ان يقوم الالمان والمجريون والكومان وغيرهم من الشعوب الهمجية بنهب امبراطوريته ، اذا ماتغيب عنها وشارك بالزحف مع الحجاج .

وفي هذه الاثناء علم الكونت بخبر هزيمة رجاله وموتهم ، فادرك انه قد ضلل ، وقام بوساطة بعض قادتنا باستدعاء الامبراطور الى المحاكمة متهما اياه بخيانة الحجاج ، لكن ألكسيوس رد بأنه هو نفسه يعرف بأن قواتنا نهبت مملكته لكنه لم يعلم ان شعبه قد اقترف كثيرا من الاخطاء ، ولهذا فإنه لايرى ادنى اساس قانوني لتحقيق الكونت ، ولعل ماحدث هو ان جيش ريموند قد لاذ افراده بالفرار لدى رؤية جيش الامبراطور الذي جاء ليمنعهم من تدمير المدن المحصنة والقرى ، ومع هذا فقد وعد بتقديم ترضية للكونت ، واعطاه

بوهيموند رهينة للوفـاء بعهــده وأخيرا تــوصلا الى اتفــاق وارغم الكونت (ظلما) على اطلاق سراح رهينته.

وفي تلك الاثناء وصل جيشنا الى القسطنطينية ، ثم تلاه وصــول الاسقف مع اخيه الذي كان قد خلفه مــريضا في دورازو ، وارســل الكسيوس مرارا وتــكرارا يعــد انه ســيمنح الكونت المكافآت بــكل سخاء اذا ماأقسم له يمين الولاء مثلمــا فعــل بقية الامــراء ، ولكن ريموند كان دائم التفكير في المعاملة الظالمة التي لقيها هو ورجــاله ، وسعى الى محو عار هذه الفضيحة ، ومــع هــذا فقــد تــأسف دوق اللورين وكونت فلاندرز وامراء اخرون لمثل هذه الافكار قــائلين انه من الطيش الكبير ان يحارب المسيحيون المسيحيين بينما الترك على مقربة ، وفي الحقيقة كان بوهيموند قد تعهد لالكسيوس بتقديم الدعم له في حال اتخاذ ريموند اجراء ضده ، او اذا تأخر الكونت اكثــر في اعتذاره عن اداء يمين الولاء .

وعند هذه النقطة ، اقدم الكونت ، بعد ماتشاور مع البروفنسايين على القسم والتعهد انه لن يعرض هو نفسه او بــوساطة اخــرين ، حياة الامبراطور و ممتلكاته للخطر و لدى تذكيره بالولاء ، رد بــأنه لن يقسم يمين الولاء بسبب ما تعرضت له حقوقه من مخاطر ، و هنا يمكن أن نستدرك أن ألكسيوس أعطاه بسبب ذلك القليل من المتــاع الدنيوي ، و مرد ذلك تشدده و عناده

الفصل الثالث

حصار نيقية وعبور الاناضول

وبعد جواز البحر خففنا الخطى نحو نيقية التي كانت محـاصرة من قبل غودفري وبـوهيموند وقـادة اخـرون مـن الذين كانوا في الطليعة ، وتتمتـع نيقيه بحمـاية طبيعية ودفـاعات قـوية ، وكانت تحصيناتها الطبيعية تتكون من بحيرة كبيرة تمتد الى اسوارها ، مع خندق مليء بالماء المتدفق من الجداول القريبة ، وهو يسد المدخل من جهات ثلاث ،واحاط رجال بارعون نيقية باسوار شاهقة ، الى حد ان المدينة لم تـكن تخشى هجـوم الاعداء ولاقـوة اي آلة ، وكانت عرادات الابراج القريبة موضوعة بشكل متناوب ، حتى ان احـدالم يكن ليستطيع التحرك بالقرب منها دون ان يتعـرض الى الخـطر ، واذا ماأراد احد الزحف نحو الامام لم يكن بامكانه الحـاق اي ضرر بها لانه سيكون من السهل جداً ضربه من اعلى البرج .

ومهما يكن من امر ، لقد حاصرها بوهيموند ـ كمـا قلنا ـ مـن الشمال ، بينمـا حـاصرها الدوق والالمان مـن الشرق ، والكونت واسقف لي بوي مـن الجنوب ، وللذكرى ينبغـي ان ندون ان كونت نورماندي لم يكن حـاضرا ، ولهـذا ينبغـي ان نذكر الواقعـة التالية :بينما كان كونت طولوز يرغب في اقامة معسكره هناك زحف الاتراك هابطين من الجبال في تشكيلين ، وانقضـوا على جيشـنا ، ولاشك انهم قد وضعوا خططهم على امل ان تقاتل احـدى فـرقتيهم غودفري والالمان المعسكرين في الشرق ، بينما تدخل فـرقة الاتـراك

الاخرى الى نيقية من الباب الجنوبي لتخرج من بـــاب اخـــر فتنقض على قواتنا الفارة فتبيدها بكل يسر وسهولة ، لكن الرب ذي النقمـــة المعتادة على مخططي السوء ، احبط خططهم ، وبدا الحال وكانه قد دبر للمعركة بحيث تؤدي المحصلة التالية : فقد جعل الرب الكونت ، الذي كان على وشك ضرب معسكره هناك مع رجاله يهاجم الفـــرقة التركية التي كانت على وشك دخـــول نيقية في ذلك الوقـــت ، وابـــاد ريموند في الهجوم الاول العديد منهم وقتل الكثيرين ثـــم ارغم البقية على الفرار وطاردهم الى جبل قريب ، بينما اجبر في الوقت نفسه ـــ الترك الذين كانوا يخططون للقضـــاء على الالمان على الفـــرار وابيد اكثرهم .

ونصبنا بعد هذا النجاح المجانيق وقصفنا الاسوار ، انما بـــدون محصلة ، فقد كانت الاسوار منيعة لاتخترق ، وكان الدفاع الشجاع بالنشاب والالات يبعـــث على الاحبـــاط ، واخيرا حـــدث بعـــد مضي خمسة اسابيع من الحصار غير المجدي ، ان اندفعت بمشـــيئة الرب بعض القوات من حاشية ادهمر واتباع ريموند الى الامام وتمـــكنت بعد مخاطرة كبيرة من الوصول الى اسفل احد الابراج ، وامكن لهذه القوات تحت حماية دبابة ان تـــدك البـــرج دكا وتقـــوض اســـاساته وتسويه بالارض ، لكن حال حلول الظلام دون الاستيلاء على نيقية ، وفي صباح اليوم التالي ثبت ان جهـــودنا كانت بـــلا طـــائل ، ذلك ان المدافعين عن المدينة رمموا الاسوار واصلحوها تحت جنح الظلام ، ومع هذا استولى الخوف على نيقية ، فـــاستسلمت ، وكان الســـبب الاكبر الذي دفع الى اســـتسلامها هـــو ان الســـفن الاغريقية التـــي ســـحبت على الارض كانت تـــطفوا الان على ســـطح مياه البحيرة ، ونتيجة لهذا فان التـــرك الذين انعـــزلوا الان عن اصـــدقائهم انحنوا لألكسيوس ، حيث لم يعد لديهم امل بوصول النجدات اليهم ، بينمـــا كانوا يشهدون الجيش الفرنجي يزداد يوما بعد يوم ، وزاد مـــن ذلك وصول كونت نورماندي .

وتعهد ألكسيوس للامراء ولشعب الفـــرنجة بتســـليمهم كل مـــافي

نيقية من ذهب وفضة وخيول وامتعة ، وزاد على ذلك بأن قال انه سيؤسس فيها ديرا للاتين مع ملجأ للمعوزين من الفرنجة ، كما وعد ان يعطي بسخاء كل فرد وجندي في الجيش يتمنى ان يخدمه مدى الحياة ، ووثق الفرنجة بهذه الكلمات المخلصة ، واغتبطوا لاسترداد نيقية ، ولكن ما أن اصبحت نيقية بحوزة الكسيوس حتى تصرف بجحود مع الجيش ، لذلك فإن الناس سيسبونه ويسمونه بالخيانة مادام حيا .

وفي تلك الاثناء عرفنا انه عندما وصل بطرس الناسك مع حشود المزارعين التي كانت بصحبته الى القسطنطينية ، قبل شهور من وصول قوات الحجاج الرئيسة ، خانه الكسيوس في ان ارغمه مع اتباعه ــ الذين لم يكونوا على دراية بمواقع الحرب ولافنونها ــ على عبور المضايق ، وليس معهم مايدافعون به ضد الترك ، وبذلك عندما ادرك ترك نيقية انهم وقعوا على فريسة سهلة ، قتلوا بكل سرعة ويسر ستين الفا من المزارعين ، ولم يفلت من هؤلاء الا الذين فروا والتجأوا الى احدى القلاع .

وتجرأ المنتصرون وركبهم الغرور بسبب نجاحاتهم ، فأرسلوا الاسلحة التي استولوا عليها والحجاج الذين اسروهم الى ساداتهم والى القادة المسلمين في الاماكن النائية ونشروا في بلادهم كتابات تفيد ان الفرنجة لم يكونوا اهل حرب .

واثر هذه الاحداث غادرنا نيقية واتجهنا نحو الاناضول ، وفي اثناء الزحف تصرف بوهيموند وبعض الامراء الاخرين تصرفا غير لائق او حكيم ، بأن انفصلوا عن الكونت والاسقف والدوق ، وفي اليوم الثالث من زحف بوهيموند منفصلا وفيما هو يفكر ان يعسكر رأى جنوده مائة وخمسين الف رجل يزحفون نحوهم في تشكيل معركة ، وبينما كان يقوم بتنظيم صفوف قواته للقتال كما تقتضي الظروف ، ويستعد للاشتباك فقد العديد من رجاله الذين تأخروا خلفه وضلوا الطريق ، وعندما احتدم القتال استدعى بوهيموند

الكونت والدوق لمساعدته ، حيث كانا على مسافة ميلين منه ، ومالبثت طلبات النجدات ان وصلتهم ، فارتدى الحجاج دروعهم وامتطوا صهوات خيولهم ، وبادروا مسرعين لقتال العدو ، فور وصول رسول بوهيموند بالاخبار اليهم .

واحبطت امال قلج ارسلان القائد المهاجم ، وخاب فأله لدى رؤية الفرسان المندفعين ، فاسرع بالفرار ، ويبدو لنا ان عدالة السماء هي التي جعلت قلج ارسلان الذي اسر الاسرى ، واستولى على الكثير من خيام بوهيموند يتخلى الان عن أمتعته وكان ذلك بفضل الرب ، ومع اننا لم نر ماسنحكيه ، فان بعضهم قد وصف لنا معجزة كبيرة رأوا خلالها فارسين وسيمين في درعين لهما بريق ، رأوهما وهما يركبان امام جنودنا ، ولايبدو أن طعنات رماح الترك تؤثر فيهما ، وقد القيا الرعب في قلوب الاعداء حتى انهم لم يستطيعوا القتال ، ومع اننا علمنا بهذا من اتراك تحولوا عن عقيدتهم وهم الان يعملون في صفوفنا ، يمكننا ان نؤكد ذلك بدليل اننا كنا نرى ليومين اثناء زحفنا فرسانا موتى وخيولا ميتة .

وبعد هزيمة الترك وصدهم ، مررنا بسرعة وسلام من خلال الاناضول ، مع ان الزحف تأخر قليلا بسبب مرض الم بريموند ، وعلى الرغم ان ماسنحكيه الآن قد يدفر اذواق الساخرين المتهكمين ، فانه ينبغي لنا ان نسجله ونرويه علنا ، لأنه وصف لمعجزة من تدبير السماء ، فقد كان دوق ساكسوني يزعم أن مبعوثا من لدن القديس جيلز (صنجيل) قد تلقى مرتين امرا بان يطلب الى الكونت : « اهدأ وقرعينا ، فلن تموت من هذا المرض ، لانني ضمنت لك راحة من عند الرب ، وساكون دائما على مقربة منك » ومع ان الكونت كان سريع التصديق ، فقد اضعفه المرض ، حتى انه عندما نقل من على سريره ووضع على الارض لم يكد يتردد في صدره نفس من انفاس الحياة ، ولهذا تلا اسقف اورانج الصلوات كما لو كان ريموند ميتا ، غير ان السماء التي جعلت منه قائدا للجيش بعثته حالا من الموت واعادته سليما معافى .

الفصل الرابع

سد المنافذ والطرق وبداية حصار انطاكية

وبينما كنا بعد هذا نقترب من انطاكية ، اقترح العديد من الامراء ان نؤجل القاء الحصار عليهـا ، خـاصة وان الشـتاء بـات على الابواب ، وتوزيع الجيش في الاماكن الحصينة بعدما ارهقه حر الصيف ، كما وقـالوا : ينبغـي على الجيش انتـظار القـوات الامبراطورية والتعزيزات التي اتت اخبار عنها تفيد انها في الطريق من فرنسا ، وقد نصحونا بالدخول الى بعض المواقـع والبقـاء طيلة الشتاء حتى يأتي الربيع ، وقدم ريموند مع بعض الامراء الاخـرين رايا مضادا لقولهم : لقد وصلنا بـارشاد الرب وعطفـه ومحبتـه ، وفزنا بمدينة نيقية ، وبعونه ورحمتـه ننتصر ونعيش في امـن مـن الترك ، وفي سلام وانسجام في جيشنا ، لهذا ينبغي ان نعهـد اليه بـامورنا ، ولاينبغـي ان نخشى الملوك اوقـادة الملوك ، والانرهـب الاماكن والأيام ، بما ان الرب قد نجانا من مخاطر كثيرة » وانتصر هذا الراي ، ووصلنا الى انطاكية ، وعسكرنا على مقربة منهـا الى درجة ان المدافعين عن المدينة قذفوا علينا النار من اعالي ابـراجهم فاصابوا رجالنا في خيامهم كما اصابوا خيولنا .

ونغتنم هذه المناسبة لنتولى وصف انطاكية مع تضاريسها ، حتى يمكن لقرائنا الذين لم يروهـا ان يتابعوا المعارك والهجمـات ، ففـي احضان جبال لبنان يقع سهل عرضه مسيرة يوم وطوله مسـيرة يوم ونصف اليوم ، ويحد السهل مسـتنقع ، والى الشرق يجـري نهـر ينساب حول جزء من هذا السهل ثـم يعود الى حافة الجبال الواقعة في هذا الاقليم باتجاه الجنوب بحيث لايمكن العبور من الجبـال الى النهر ، ومن هناك ينعطف ليصل الى البحر المتوسط القـريب منه ،

وعلى هذا تقع انطاكية في هذه المضايق التي يكونها النهر الذي يشق طريقه في الجبال المذكورة ، بحيث ان تدفق النهر غربا عبر السور الادنى يجعل الارض بينه وبين المدينة تاخذ شكل السهم ، وفي حقيقة الامر ان المدينة التي تقع الى الشرق قليلا ، ترتفع في هذا الاتجاه وتحتضن في داخلها قمم ثلاثة تلال ، وتفصل الجبل الواقع في الشمال عن الجبلين الآخرين هضبة ضخمة بحيث لايمكن الا بصعوبة بالغة الانتقال من احدهما الى الاخر .

ويزهو التل الشمالي بوجود قلعة عليه ، والاوسط بوجود اخرى تسمى بالاغريقية القسيان(كولاكس) ، اما التل الثالث فليس به الا ابراج ، فضلا عن ذلك فان المدينة تمتد ميلين طولا وتحميها الابراج والاسوار والدفاعات وهي قوية الى درجة انها لاتخشى هجوم الآلات عليها ولا الانسان حتى وإن اجتمع على حصارها جميع بني البشر.

وباختصار قنع الجيش الفرنجي الذي كان يتالف من مائة الف من الرجال المسلحين ، والذي كان معسكرا على طول خط شمالي انطاكية الذي وصفناه ، قنع بالبقاء حيث هو دون ان يشن هجوما على المدينة ، وذلك على الرغم من ان المدينة لم يكن بها الا الفان من الفرسان الممتازين واربعة الاف او خمسة من الفرسان العاديين ، وقرابة عشرة الاف او اكثر من الرجالة ، وكانت انطاكية في مأمن من السقوط مادامت ابوابها مغلقة والحراسة عليها قائمة ، لان واديا وسباخ كانت تحمي الاسوار العالية ، وعند وصولنا اتخذنا مواقع لنا بشكل عشوائي ، ولم نعين حراسا ، وتصرفنا بغباء كبير ، ولاشك ان الاعداء لو عرفوا ذلك لكان بامكانهم اجتياح اي قطاع ارادوه من مخيمنا .

وسقطت في تلك الاثناء عدة قلاع في الاحواز بايدينا مع بعض المدن القريبة وذلك بسبب الرعب منا مع الرغبة بالتخلص من نير الترك ، وترك بعض فرساننا انطاكية وتجاهلوا المصلحة العامة ،

وجروا وراء مصالحهم الخاصة وانانياتهم في كسب بعض المنافع المادية ، وحتى الذين بقوا في المخيم كانوا يستمتعون بحياة كلها ترف الى درجة انهم كانوا لايأكلون الا احسن قطع اللحم كالفخذ والاكتاف ، ويحتقرون لحم الصدر ، ولايفكرون بالمرة في القمح والنبيذ ، ولم يكن هناك في تلك الايام الطيبة من يذكرنا باعدائنا المختبئين داخل انطاكية سوى رجال الحرس والمراقبة على طول الاسوار ، غير ان الاتراك سرعان ما اكتشفوا ان المسيحيين كانوا يعيثون في القرى والحقول المجاورة علانية ويخرجون اليها بدون سلاح ، وعلى الرغم من ان معلوماتي قليلة عن تحركات الاتراك ، فان اعداءنا سرعان ما قدموا من حلب الواقعة على مسيرة يومين او خرجوا من انطاكية وقتلوا جنودنا المكلفين بجمع المؤن والذين كانوا متناثرين بدون دفاع ، وقد عكرت هذه الاعمال الانتقامية حياتنا الرغدة ، كما ان توفر الفرص الجديدة للقتل والنهب شجعت المسلمين على شن اغاراتهم بشكل متتابع .

وحرضت هذه الوقائع الحجاج ودفعتهم لان يطلبوا من ريموند القيام بهجوم انتقامي مضاد ، ومع ان بوهيموند لم يستطع ان يجمع سوى مائة وخمسين فارسا ، فانه انطلق اخيرا برفقة كونت فلاندرز ، وكونت نورماندي ، ويدفعه الحياء من ان يوسم بالتهرب من الاقدام ، وفي الحقيقة كان السبب الاساسي لخروجه امر الرب ، ولقد امكنهم تحديد مواقع الاعداء فهاجموهم وساقوهم الى حتفهم في نهر العاصي ، ثم عاد المسيحيون الى المعسكر فرحين بالغنائم ، وفي الوقت نفسه رست بعض السفن الجنوية في ميناء السويدية القريب والواقع على بعد نحو عشرة اميال ، وفي تلك الاثناء كان الاعداء يتسللون تدريجيا من انطاكية فيقتلون السادة والمزارعين منا الذين كانوا يرعون خيولهم ومواشيهم ، ويعودون عبر النهر بما نهبوه الى داخل المدينة .

ونتوقف الان عن متابعة سرد روايتنا بغية وصف الاطار الذي وقعت فيه الاحداث حتى نوضحها ونبين كيفية وقوعها ، فقد كانت

خيامنا مضروبة على طرف النهر مباشرة ، وكان يقطع هـذا النهـر جسر عائم مصنوع من الزوارق التي كانت مـوجودة هناك ، ووجـد ايضا لانطاكية جسر اخر وقع عند الركن الغربي الاسفل ، ووجد تل في مواجهتنا قام عليه مسجدان وكنيسة صغيرة بها قبور .

ونعود الان لنستانف روايتنا حيث نلحظ ان قواتنا التي كثيرا ما كان العدو يتفوق عليها عدديا ، كانت تتجرأ وتشتبك مـع المقـاومة الطامعة ، غير ان التـرك كانوا يفـرون ويتشـتتون ويكرون كثيرا فيعاودون القتال ، ومرد ذلك الى انهـم اولاً كانوا يحملون اسـلحة خفيفة هي القسي ، ثم كانوا يتميزون بخفـة الحـركة على الخيول ، وكانوا من جهة اخرى يمكنهم الاسراع بالعودة عبر جسرهـم الذي ذكرناه ، كما انهم كانوا يحبون ان يمـطرونا بنشـابهم مـن اعلى جبلهـم ، واذكركم ان جسرهـم كان يبعـد ميلا عن جسرنا ، وعلى المنبسط المتدبين الجسرين كانت تدور يوميا بعض الاشـتباكات ، وبسبب ان ريموند وادهمر كانا معسـكران بـالقرب مـن ضـفاف النهر ، فانهما كانا يتحملان ثقل الغارات ، وكلفت هـذه الغـارات التي اعتمدت على الكر والفر هذين القائدين جميع خيولهمـا ، ولأن الترك لم يكونوا يتقنون استخدام الرماح والسيوف ، كانوا يقاتلون عن بعد ، ولهذا كانوا يشكلون خطورة في المطاردة او اثناء الفرار .

وفي الشهر الثالث من الحصار ، عندما تغيب كونت نور مـاندي ، ومرض غودفري ، وارتفعت الاسعار ارتفـاعا هـائلا ، تـم اختيار بـوهيموند وكونت فـلاندرز لقيادة حملة للبحـث عن المؤن قـرب البهسنا ، وتولى وقتها ريموند وادهمر حماية المخيم ، ولدى معـرفة المحاصرين باخبار هذه التطورات اسـتأنفوا غاراتهـم المعتـادة ، وتحرك ريموند بدوره لمواجهتهم بطرائقه المعتادة ، ووضع رجالته في تشكيل المعركة ثم اندفع يطارد الترك بصحبة عدد مـن الفـرسان ، وفي الاشتباك الذي تلا ذلك ، اسر اثنين من المهاجمين وقتلهمـا على جانب التل ، وطرد الآخرين عبر جسرهم الى انطاكية ، وكان المشهد اعظم مما يستطيع الرجالة تحمل رؤيتـه ، فـاضطربت صـفوفهم ،

والقوا راياتهم ، واندفعوا يجرون نحو الجسر في فوضى شاملة ، وفي امنهم الزائف راحوا يلقون الصخور والمقذوفات الاخرى على المدافعين عن الجسر ، وتجمع الترك من جديد وشنوا هجوما مضادا عن طريق الجسر وعبر مخاضة قريبة .

وفي تلك الساعة اندفع فرساننا نحو الجسر لمطاردة حصان شارد ، جعلوه يجري بدون فارس ، وتوهم الرجالة حين رأوا ذلك ان الفرسان يفرون فاسرعوا بالهروب امام الهجوم التركي ، وفي اثناء الاشتباك نبح الاتراك الهاربين بلا شفقة ، وتوقف فرسان الفرنجة عن القتال ، ووجدوا انفسهم وسط الحشود الهاربة التي اخذت تتلاقفهم وتخطف منهم اسلحتهم ، وتشد خيولهم من ذيولها وتجذبهم ارضا من على صهوات خيولهم ، وتبعهم فرسان آخرون اثناء الاندفاع يحدوهم الشعور بالرحمة والحرص على سلامة قومهم ، لكن الترك شددوا في مطاردة الاحياء بلا هوادة ، وسلبوا الموتى مقتنياتهم ، ولم يكف رجالنا عار القاء اسلحتهم والفرار دون الشعور بالخجل ، بل انهم قفزوا في النهر ليرتطموا بالصخور او ليصابوا بالسهام او ليغرقوا ، ولم يعبر النهر ويصل الى بر الامان الا السباحون والاقوياء.

وفي القتال الذي دار بين جسر الاتراك وجسرنا قتل الترك نحواً من خمسة عشر فارسا من فرساننا وحوالي العشرين من رجالتنا ، ولقي حامل راية اسقف لي بوي واحد النبلاء واسمه برنارد اوف بيزييه مصرعهما هناك ، واستولى الترك على راية ادهمر ، واننا نامل الاتكون روايتنا عن عدم خجل جيشنا ، سببا في لوم عباد الرب لنا وغضبهم علينا ، لان الرب جعل الحجاج الزناة الناهبين يتوبون اليه اولا ، ولانه من جانب اخر جعل جيشنا يطيب نفسا في بلاد المسلمين .

وانتشر الكلام من معسكرنا عن حالة الرفاه التي كانت تعيشها قوات ريموند وعن انتصاره الكبير ، ووصل بوهيموند وارتفعت نتيجة لذلك الروح المعنوية بين رجاله ، وفي اثناء احدى الغارات على

واحدة من القرى سمع بوهيموند صوت بعض فلاحية وهـم يفـرون ويطلبون النجدة ، فارسل قوة تستطلع الامر ، فوجدت جمعـا مـن الاتراك والعرب يطـاردونهم مـطاردة محمـومة ، وكان بين القـوة الناجدة كونت فلاندرز وبعض البروفانسيين ، وهو اسم يطلق عادة على كل من هو برغندي واوفراني ، وغاسكوني وغوتـي - والفـت الانتباه الى ان كل ما سوى ذلك من قوات جيشنا يطلق عليهم اسـم الفرنجة ، ولكن العدو لايميز ، ويستخدم كلمة فرنجة للاشـارة الى الجميع ، والان ينبغي ان اعود الى حكايتنا : اندفع كونت فـلاندرز بتهور شديد وهو على ظهر حصانه ، اندفع ليواجه الاتـراك هـكذا حتى لايناله عار الانسحاب فيما لوأراد الابلاغ عن اقتراب الاعداء ، وبما ان الاتراك لم يألفوا القتال بالسيف ، فقد لاذوا بالفرار ، ومع هذا لم يضع كونت فلاندرز سيفه حتى قتل مائة مـن أعدائه . و لدى عودة كونت فلاندرز منتصرا الى بوهيموند اكتشف وجود اثني عشر الفا من الاتراك يقتربون من ساقة قـواته ، وراى الى يسـاره عددا كبيرا من الرجالة يقفـون على تـل غير بعيد ، وبعـد مشـاورات ومداولات مع بقية جيشه عاد ومعـه بعض التعـزيزات وبـادر الى الهجوم ، بينما تبعه بوهيموند مع الحجاج الاخرين عن بعد ، فحمى بذلك خطوط ساقته ، وكان اسلوب الاتراك المعتاد في القتال - حتى عندما يفوقهم عدوهم عددا - محاولة الاحاطة باعدائهم ، وهذا مـا صنعوه في تلك المواجهة ، ولكن ثاقب نظـر بـوهيموند جعله يتـوقع حيلتهم .

وفر الترك والعرب الذين هـاجموا كونت فـلاندرز ، وتخلوا عن القتال عندما ادركوا ان المعركة سيكون القتال فيهـا وجهـا لوجـه بالسيوف ، وليس عن بعد بالتراشق بالنشاب ثم ان كونت فـلاندرز طارد العدو وتعقب ملوله مسـافة ميلين ، وكان الاحياء يرون القتلى مطروحين على طول الطريق وكانما هم حزم القمح داخل الحقل ايام الحصاد ، واثناء ذلك القتال وجه بوهيموند ضرباته الى القوات التي كمنت له فقضى على الكمين وعليها غير انه لم يسـتطع منع الشراذم

سالفة الذكر من رجالة العدو من التسلل من خــلال امــاكن لايمــكن عبورها على ظهور الخيل.

ولولا التواضع لعددت هذه المعركة اعظم من الحرب المكابية ،لان مكابيوس قضى بثلاثة الاف على ثمانية واربعين الفا من اعدائه ، في حين دحر فرسانا الاربعمائة ستين الفا من الوثنيين ، ومــع هــذا نحن لانقلل من مكانة شــجاعة مــكابيوس ، ولانفخـــر ببســـالة فرساننا ، ومهما يكن من امر اننا نقول ان الرب الذي كان عظيمـــا مع مكابيوس كان اكثر عظمة مع قواتنا .

وفي الحقيقـــة جـــاء ردنا على فـــرار المهـــاجمين فيه تناقص بالشجاعة ، الى حد ان الحجاج اخفقوا في تتبع الفارين ، وبـــالتالي عاد جيشنا المنتصر الى المخيم بدون مؤن ، وكان من شان المجــاعة التي اعقبت ذلك ان ارتفعت الاسعار حتى ان اثنين من الصولدي لم تكد تكون لهما قوة شرائية تعادل نصيب الرجل الواحد من الخبــز في اليوم ، كما ارتفعت اسعار الحاجيات الاخرى بالدرجة نفسها ، فما كان من الفقراء والاغنياء الذين ارادوا انقاذ مقتنياتهم الا ان تركوا الحصار ، واما من بقي لقوة روحية فيه ، فقــد تــوجب عليه تحمــل رؤية خيوله وهي تموت من الجوع ، وكان التبن قليلا جدا ، ولم تكن سبعة او ثمانية صــولديات تــكفي لشراء كمية مــن الحبــوب كافية لاطعام حصان واحد لليلة واحدة .

ومما زاد في كربنا ، ان بوهيموند ، الذي شهر بمـــا اداه لنا مــن خدمات في ديار المسلمين ، هدد بالرحيل ، قائلا ان الشرف هو الذي جعله يتخذ هذا القرار ، لانه راى رجاله وخيوله تموت من الجــوع ، زد على هذا ، لقد اوضح انه رجــل امــكاناته محـــدودة وثـــروته الشخصية لاتكفي لحصار طــويل ، وعلمنا فيمـــا بعــد انه اعلن تلك التصريحات لانه كان يطمع في تملك انطاكية واتخاذها لنفسه .

ووقعـــت في تلك الاثناء هـــزة ارضـــية في اليوم الاول مـــن كانون

الثاني (١٠٩٧ م) كما راينا شارات اعجازية في السماء ، ففي الهزيع الاول من الليل ، كانت السماء حمراء في الشمال بحيث بدا كما لو ان الشمس اشرقت في يوم جديد ، ومع ان ذلك كان توبيخا من الرب لجيشنا ، حتى نتحول الى النور الذي لاح في الظلام ، فان

عقول بعضنا كانت غلفا وكانوا عنيدين الى درجة انهم لم يكفوا عن حياة الصخب والنهب ، ثم ان ادهمر حث الناس ليصوموا ثلاثة ايام ، وان يصلوا ويتصدقوا ، ويقيموا موكبا ، كما وامر الكهنة باقامة القداسات ، ورجال الدين بترديد المزامير وهكذا اظهر الرب العظيم عطفه ومحبته فأخر عقاب ابنائه حتى لايزداد تفاخر الوثنيين .

واتحول الان الى الحديث عن شخص كدت ان انساه ، لانه ألقي به في طي النسيان ، وهو تاتيكوس ، الذي صحب جيشنا عوضا عن الكسيوس ، فقد كان له انف مشوه ، كما كان يفتقر الى اية صفات تعوضه عن ذلك ، كان تاتيكوس يحذر الامراء كل يوم وينصحهم بهدوء ليتراجعوا الى القلاع القريبة ، وليطردوا المحاصرين بهجمات متنوعة وكمائن متعددة ، لكن عندما علم الكونت بهذا كله ، وكان وقتها مريضا من يوم هروبه الاضطراري بالقرب من الجسر ، جمع امراءه وا سقف لي بوي ، وفي نهاية الاجتماع وزع ريموند خمسمائة مارك على الجماعة ، شريطة انه اذا فقد اي واحد من الفرسان حصانه يعوض بواحد اخر يشتري من الخمسمائة مارك ومن مبالغ اخرى منحت للاخوانيات .

وكانت اتفاقية الاخوانية هذه مفيدة جدا في ذلك الوقت ، ذلك ان فقراء الناس في الجيش ممن كانوا يرغبون بالانتقال الى الجانب الاخر من النهر للبحث عن المؤن كانوا يخافون من هجوم الاتراك ، وكان القليل منهم فقط هم الذين يرغبون في قتالهم ، ذلك ان خيول البروفانسيين ، التي لم تتجاوز المائة فرس ، كانت هزيلة ضعيفة ،

وابادر القول ان الموقف ذاته كان سائدا في معسكر بوهيموند والقادة الاخرين .

وبعد التدبير الاخواني ، هاجم فرساننا العدو بكل جراة ، لان الذين كان معهم خيول لاقيمة لها ومنهكة القوى ، كانوا يدركون تمام الادراك انه يمكنهم استبدال خيولهم المفقودة بخيول افضل ، اه ، يمكنني بالفعل ان استدرك امرا اخر فاضيف ان الامراء عرضوا ـ باستثناء الكونت ـ انطاكية على بوهيموند في حال الاستيلاء عليها ، وبناء على هذا الاتفاق اقسم بوهيموند وبقية الامراء على ان لايرفعوا الحصار عن انطاكية لمدة سبع سنوات الا اذا سقطت قبل ذلك .

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الامور في المخيم ، انتشرت اقاويل حكت ان جيش الامبراطور كان يقترب ، وهو جيش قيل انه كان يتالف من عدة اجناس . من السلاف والبشناق والكومان والترك كوبلية ، وقد اطلق هذا الاسم على التركوبلية لانهم اما كانوا من قد تربوا مع الاتراك ، او كانوا ابناء امهات مسيحيات واباء اتراك ، وكانوا يخشون الارتباط بنا لسوء معاملتهم لنا طوال الرحلة . والواقع ان تاتيكوس ، ذلك المشوه ، الذي كان يتلهف لايجاد عذر يهرب بموجبه ، لم يكتف بتلفيق هذه الاكذوبة فحسب ، بل اضاف الى اثامه الحنث باليمين ، وخيانة اصدقائه ، فاسرع هاربا بعد ما تنازل لبوهيموند عن مدينتين او ثلاث هي : طرسوس ، والمصيصة ، واذنة ، وهكذا غادر تاتيكوس المعسكر بحجة الانضمام الى جيش الكسيوس ، وتخلى عن اتباعه ، ومضى ترافقه لعنة الرب ، وجلب بهذا العمل الدنيء العار الابدي على نفسه وعلى رجاله .

الفصل الخامس

المرحلة التالية من حصار انطاكية وتشديد الحصار

وصلت الآن اخبار تفيد أن قائد جيش الخليفة يتقـدم على رأس جيش كبير من خراسان ، وهو قادم لنجدة انطاكية ، وبعد انعقـاد مجلس الحرب في خيمة ادهمر صدرت الأوامر للرجالة بـالدفاع عن المعسكر وللفرسان بالخروج للتصدي للقوة الجديدة ، وكان السـبب في صـدور هـذا القـرار أن الجبناء وغير اللائقين بين صـفوف الرجالة ، ربما أظهروا جبنا أكثر مما يبـدون مـن شـجاعة ، واذا ماراوا قوة كبيرة من الأتـراك ، ورحلت الجمـاعة التـي سـتقوم بالحملة تحت جنح الظلام ، واختبـأت في بعض التـلال على بعـد فرسخين من المعسكر ، ولم يستطع المدافعون عن انطاكية أن يعلموا برحيلهم ، وأود الآن أن يصغي الى مايلي الذين حاولوا أن يحطوا من شأن جيشنا في الماضي ، وليسمعوا فعلا عساهم اذا فهموا المثل الذي يضربه الرب على رحمته نيابة عنا ، أن يسارعوا الى ارضـاء الرب بدموع الندم .

لقد زاد الرب حجم وحدات الفرسان الست مـن دون السـبعمائة رجل الى أكثر من الفين ، وبكل تأكيد إنه ليشـق علي الحـديث عن شـجاعة الجيش ، الذي كان فـرسانه يغنون أغاني الحرب ، وينشدون بكل ابتهاج ، حتى بـدا وكأنهـم ينظـرون الى المعركة المقبلة كما لو كانت من الألعاب الرياضـية ، ويجـدر بنا أن نلاحظ هنا أن موضع القتال المقبل كان بالقرب مـن مـكان يتـدفق النهر عنده على بعد ميل واحد من المسـتنقع ، وبـذلك حـالوا دون استخدام الأتراك لحركات الالتفاف المعتادة ، والتـي كانت تعتمـد على نشر قـواتهم ، وفضـلا عن ذلك فإن الرب الذي قـدم لنا المنح

السالفة الذكر ، قد أمدنا بستة أودية متاخمة يمكن لقواتنا أن تتحرك فيها الى المعركة ، وهكذا كنا خلال ساعة قد زحفنا واحتللنا الميدان ، وماأن سطعت الشمس على أسلحتنا ودروعنا حتى بدأت المعركة واخذ رجالنا يندفعون الى الأمام ، بينما كان الأتراك يكرون ويفرون ويطلقون سهامهم ثم يتراجعون ببطء .

وقد نزلت بقواتنا خسائر فادحة الى أن تمكنت من دفع الصفوف الأولى من الأتراك الى المؤخرة ، وقد أخبرنا الذين تخلوا عن مواقعهم فيما بعد انه كان هناك مالايقل عن ثمانية وعشرين ألف من الفرسان الأتراك في هذا المعترك ، وأخيرا عندما تدخلت صفوف الأعداء صلى الفرنجة الى الرب ، واندفعوا الى الأمام ، وفي الحال فإن الرب الحاضر أبدا « القوي القدير في المعارك » حمى أبناءه واذل الوثنيين ، وبعد ذلك طاردهم الفرنجة لقرابة عشرة أميال من مكان المعركة الى قلعتهم شديدة التحصين ، ولدى رؤية هذا السيل الجارف قام الذين كانوا بالقلعة باحراقها ولاذوا بالفرار ، وأحدثت هذه النتيجة ابتهاجا وغبطة في المعسكر لأننا اعتبرنا أن احراق القلعة نصرا أخر .

وفي الوقت نفسه شب القتال بشكل اعتباطي في كل مكان باتجاه انطاكية ، لأن أعداءنا كانوا يخططون للقيام بالهجوم على محورين ، اولهما من المحاصرين (من داخل المدينة) والثاني من قوات النجدة التي لم تكن متوقعة ، ولم يحب الرب طرفا على الآخر ، فقد حارب مع الرجالة وهو يبتسم للفرسان ، ذلك ان النصر الذي احرزه الرجالة لم يكن اقل قدرا من صد الفرسان للنجدات ، وبعدما كسبنا المعركة وفزنا بالغنائم ، حملنا رؤوس القتلى الى المعسكر ، وعلقناها على أعمدة كمذكر بائس لحالة حلفائهم الاتراك ، ومابنتظر المحاصرين من مصائب ، وحين نتأمل الآن ماحدث نستنتج ان ذلك كان أمر الرب ، لأن الأتراك كانوا قد الحقوا بنا العار من قبل ، حينما غرسوا راس راية مريم المباركة ، التي استولوا عليها بالأرض ، وهكذا قدر الرب أن رؤية

رؤوس الأصدقاء التي لا حياة فيها ، و المحمولة على القصب ستمتع المدافعين عن انطاكية عن تعبيرنا بعد ذلك .

وكان رسل ملك مصر موجودين لدينا في تلك الأثناء ، وعندما شهدوا ماحدث ورأوا المعجزات التي حققها الرب من خلال عبيده ، أثنوا على يسوع بن مريم العذراء ، الذي داس تحت قدمه من خلال الشحاذين التعساء ، أعتى الطغاة ، يضاف الى هذا لقد وعدوا بصداقتهم ومعاملتهم الطيبة ، وتحدثوا عن الأعمال الممتازة الذي يقوم بها ملكهم للمسيحيين المصريين ولحجاجنا ، وبناء عليه قمنا برسلنا معهم وكلفناهم بالدخول في صلح ودي معهم .

وتزامنت هذه الأحداث مع قرار أمرائنا بتحصين منطقة على التل تشرف على معسكر بوهيموند ، بحيث يمكن فيها احباط أي هجمات معادية محتملة على مخيماتنا ، ولدى اكتمال هذا العمل تمتنت دفاعاتنا حتى اصبحنا مدينة مغلقة من كافة النواحي جاءت محصلة للعمل الجاد وتضاريس الطبيعة ، وهكذا باتت هذه القلعة الجديدة الواقعة الى الشرق منا ، مضاف اليها اسوار انطاكية والمستنقع القريب تحرس معسكرنا ، وتحد من هجمات المحاصرين على المناطق القريبة من الأبواب ، بالاضافة الى ذلك ، كان هنالك نهر يتدفق الى الغرب ، كما كان هناك سور قديم يلتوي عند سفح الجبل حتى النهر ، زد على هذا ان خطة تقوية موقع اخر على الجبل الصغير الواقع عند أعلى الجسر التركي قد لاقت قبولا عاما ، غير ان آلات الحصار التي صنعت في المعسكر ثبت انها غير مجدية .

وفي الشهر الخامس ، وبينما كانت سفننا التي تحمل المؤن راسية في الميناء ، بدأ المحاصرون يسدون الطريق الى البحر ويفتكون بقوافل التموين ، وفي أول الأمر كان الأتراك يهددوننا دائما ، وكان السبب الأكبر في ذلك هو عدم رغبة قادتنا بالرد عليهم بأعمال انتقامية ، فجراهم هذا ، ولمواجهة هذه المخاطر ، قررنا أخيرا تحصين المعسكر بالقرب من الجسر ، ونظرا لغياب جزء كبير

من قواتنا في الميناء ، فقد تم اختيار بوهيموند والكونت لتأمين عودة المتغيبين ، وأيضا لنقل الفؤوس والمساحي والأدوات الأخرى اللازمة لبناء القلعة الجديدة ، وعندما علم المحاصرون بمهمة ريموند وبوهيموند ، بدأوا هجماتهم المعتادة ، فاندفعت نحوهم قواتنا إنما بتهور وبدون نظام ، فكان أن تبعثرت وانهزمت بشكل مشين .

وفي اليوم الرابع ، وعندما كان الكونت وبوهيموند عائدين مع حشد كبير من الميناء ، وهم يخيل اليهم انهم في أمان من المخاطر ، كان الأتراك يتجسسون عليهم ، ولكن لماذا نسهب في سرد هذه الحكاية ؟ لقد جرى قتال وهربت قواتنا ، وخسرنا حوالي الثلاثمائة رجل ، ولاأحد يعرف كم خسرنا من الاسلاب والأسلحة ، وفيما هم يقتلوننا كالمواشي في الجبال والوعار ، تحركت النجدة القادمة من المخيم لملاقاة الأتراك الذين توقفوا عن قتل الفارين ، ياالهي ، يارب لماذا هذه المحن ؟ ان قواتنا داخل المخيم وخارجه التي تتمتع بخدمات أعظم قائدين في جيشك : ريموند وبوهيموند انتصر عليها الأعداء وانهزمت ، هل نفر الى المخيم ، أم يفر حراس المخيم الينا ؟« قم أيها الرب وساعدنا تمجيدا لاسمك » ، ولو أن اخبار هزيمة الأمراء وصلت الى المعسكر ، أو لو اننا علمنا بهزيمة كتائب الجيش لهربنا هروبا جماعيا ، وفي اللحظة المناسبة ساعدنا الرب ، وبث الشجاعة في قلوب الذين روعهم من قبل ، فجعلهم يتقدمون الى أول صفوف القتال .

وعندما شاهد يغي سيان ، حاكم انطاكية ، أمتعتنا المسلوبة وانتصاره فضلا عن اندفاع قلة من المسيحيين ، بعث بفرسانه ورجالته من المدينة ، ولما كان واثقا من نجاحهم ، أمر بإغلاق ابواب انطاكية خلفهم ، فكأنه كان يطلب من جنوده ان ينتصروا في القتال أو يهلكوا ، وفي الوقت نفسه تحرك الحجاج ، وفقا للأوامر الصادرة اليهم ، الى الأمام تدريجيا ، غير ان الأتراك كانوا يجرون هنا وهناك ويطلقون النشاب ، ويهاجمون رجالنا بكل جرأة ، ولم

توقف هذه الأعمال التركية رجـالنا ، ومـع أنهـم عانوا مـــن تلك التحركات ، فانهم انتظروا الوقـت المناسـب لشـن هجـــوم كبير
وكانت الدموع المنهمرة والصلوات الصاعدة تجعل المرء يعتقد ان رحمة الرب قريبة .

ولدى حضور سـاعة المواجهـة ركع فـارس بـروفانسي ، عالي المحتد ، هو ايزوارد أوف جانجيز ، يصحبه مـائة وخمسـون مـن المشاة ، ونشد العون مـن الرب ، وشـجع رفـاقه على الاندفـاع قائلا :« اهجموا ياجنود المسـيح » والقـى بنفسـه على الاتـراك
ومع اندفاع قواتنا الى الهجوم تحطمت غطـرسة العـدو ، وكان الباب مغلقا ، والجسر ضيقا ، والنهر واسعا ، ثم ماذا بعد ؟ لقـد سحق الأتراك الخائفون سحقا ، أو قتلوا ، أو حطمتهم الأحجار في النهر ، فلم يكن هناك مهرب ، وكان يمكن لليوم ان يمر بسلام على أنطاكية ، لولا ان يغي سـيان فتـح البـاب على مصراعيه ، ولقـد سمعت بنفسي من العديد ممن شارك في هـذا اليوم ، أنهـم أوقعـوا عشرين شخصا أو أكثر من الأتـراك في النهـر على محـاذاة سـور الجسر ، وبرز هناك غودفري بشكل كبير ، حيث سد الطـريق على الأتراك المتزاحمين للدخول من الباب ، وأرغمهم على الانشطار الى صفين وهم يتسلقون المرتفعات .

وبعد قداس ديني ، سار المنتصرون السعداء الى المخيم ومعهـم أسلاب كبيرة وخيول كثيرة ، اه أيها الأخـوة النصـارى ، يامـن تبعتمونا للوفاء بنذركم ، كم كنا نود لو انكم شـهدتم هـذا الحـدث الجدير بالتنويه ، فلقد أسرع فارس ، وهو خائف من الموت ، بالقاء نفسه في أعماق النهر ، فتلقفه رفاقه الأتراك ، لكن القي به من على ظهر حصانه وهكذا غرق في النهر مع الطغمة التي تعلقت به ، لقـد كان في رؤيتنا للحشود العائدة مكافأة على أهوال ذلك اللقاء ، فراح بعضـهم يجـرون هنا وهناك بين الخيام على خيول عربية وهـــم يعرضون على اصدقائهم كنوزهم الجديدة ، واخذ بعضـهم وهـم في رداء أو رداءين او ثلاث من الحرير ، يثنون على الرب ، الذي انعم

عليهم بالنصر والعطايا ، بينما راح أخرون ، وقد تسربلوا بثلاث سابغات أو أربعة ، يعرضون تلك الأسلاب شواهد على انتصارهم ، وفي الوقت الذي كان بامكانهم اقناعنا بهذه العلامات وغيرها من الأسلاب الأخرى ، بتفوق قدراتهم القتالية ، لم يكن بوسعهم تزويدنا بأي معلومات دقيقة عن عدد القتلى ، لأن ابادة الاتراك تمت ليلا ، وبناء عليه لم تجلب رؤوس قتلى الأعداء الى المعسكر .

ومع ذلك اكتشفت في اليوم التالي جثث بعض أعدائنا في خندق قريب من أحد المرتفعات استخدمه المسلمون كمقبرة ، وجرى ذلك اثناء محاولتنا اقامة تحصينات امام جسرهم ، وأثارت رؤية غنائم الاتراك ، رجالنا الفقراء ، فانتهكوا حرمة المقابر ، فنبشوا القبور واخرجوا جثث الأتراك وهنا تجلى حجم الانتصار ، فلقد كان عدد الموتى قرابة الف وخمسمائة ، وقد اغفلت ذكر الذين دفنوا بالمدينة ، والذين جرفتهم مياه النهر ، والقيت الجثث بعد هذا في نهر العاصي حتى لاتعيق الروائح الصادرة عنها والتي لاتطاق العمل في بناء القلعة .

وكان البحارة الذين انهزموا وأصيبوا أثناء هروب الكونت مع بوهيموند ، مابرحوا يعيشون في رعب ويتوجسون حول النتيجة ، غير انهم مابرحوا يمجدون الرب ، كما لو أن رؤية العدد الكبير من الموتى قد بث فيهم القوة ، فالرب دوما يؤدب أبناءه ويشجعهم ، وهكذا شاء الرب أن صار الاتراك الذين قتلوا حاملي الطعام على طول الساحل وضفاف النهر ، وتركوهم طعمة للوحوش والجوارح ، صاروا هم انفسهم بدورهم طعاما في ذلك المكان للوحوش نفسها وللجوارح ذاتها .

وبعد تكريس الانتصار وماصحبه من احتفالات ، واثر اكتمال العمل في القلعة ، حوصرت انطاكية من الشمال ومن الجنوب ، ثم ثار الجدل حول اختيار امير يتولى حراسة القلعة الجديدة ، ذلك ان

المسائل الخاصة بالجماعة كانت دوما موضع استخفاف ، لتواكل الجميع واعتقادهم أن آخرين سيقومون بذلك العمل ، وفي الوقت الذي طلب فيه بعض الأمراء الراغبين بالمال أصوات نبلائهم للحصول على الوظيفة ، انتزع الكونت – خلافا لهوى حاشيته – زمام الأمور ، وكان دافعه لذلك من جانب تبرئة ساحته من تهمة التراخي والبخل ، ومن جهة أخرى ليبين منهج الحكمة والقوة للخاملين .

وفي خلال الصيف التالي ، كان ريموند قد اقعده المرض الخطير والطويل ، وبلغ العجز به خلال الشتاء حدا دفع الى القول انه لايميل الى القتال او العطاء ، ومع انه أدى خدمات جليلة ، فقد عد شخصا لااهمية له ، لأن الناس كانوا يعتقدون أنه قادر على بذل المزيد من الجهد ، ولقد تحمل عداوة مردها التشكك ، في قوة تمسكه بالمسيحية حتى كاد الحال يقود الى افتراقه عن البرفانسيين ، وفي هذه الأثناء لم يعر الكونت هذه الاهانات أدنى اهتمام ، ثقة منه في ان الانطاكيين المحاصرين ، وقد انهزم معظمهم سيلوذون بالفرار ، بيد انه حدث عكس ماتوقع حيث احاط به الأعداء ذات صباح عند بزوغ الفجر .

وهنا تجلت معجزة كبرى تدل على حماية الرب ، وذلك عندما تمكن ستون من رجالنا من صد هجمة قام بها سبعة الاف من المسلمين ، وأروع من ذلك ان سيلا من الأمطار غمر في اليوم السالف الخندق المحيط بالقلعة وملأه بالماء ، وهكذا لم تكن هنالك عقبة تعيق حركة الأعداء الا ارادة الرب وقوته ، ومع ذلك انني ارى ان ذلك لايعني تجاهل الشجاعة العظيمة لكثير من الفرسان الذين كانوا يتولون حراسة الجسر ، فقد انعزلوا ووجدوا انفسهم عاجزين عن الهرب ، حيث كانت المسافة بينهم وبين قلعتهم مقدار رمية سهم ، فاندفع هؤلاء الفرسان نحو الأمام في مواجهة المسلمين في تشكيل دائري نحو طرف بيت قريب ، وهناك واجهوا بكل شجاعة و

اصرار ، الهجوم المحيط بهم و الذي جاء على شكل سحاب منهمر من النشاب و سيل هائل من الصخور.

وجذبت في الوقت نفسه جلبة القتال قواتنا ، وهكذا انقذت القلعة من الذين هاجموها ، وتوقف الاتراك عن اندفاعهم عندما رأوا اقتراب النجدات ، وتم القضاء على الذين كانوا في المؤخرة ، مع انهم كانوا على مقربة من جسرهم ، وتم اصلاح خندق القلعة وأسوارها مرة أخرى ، بحيث يمكن لحاملي الطعام ان يعودوا بأمان من الميناء ، وهكذا انطفأ الغضب الذي كان قد حاق بالكونت ، وانعكس الى درجة انهم نادوه باسم « ابو جيشنا والمدافع عنه » وذاع في أعقاب هذه الوقائع صيت ريموند لأنه تصدى لهجمات العدو وحيدا ، وبعد سد طريق الجسر وباب الجسر ، صار الاتراك يطلعون من باب آخر يقع في الجنوب بالقرب من النهر ، ومن هناك قادوا خيولهم الى زاوية بين الجبال والنهر كانت مرعى رائعا .

وبعد الاستطلاعات وتحديد الوقت ، دار فريق من رجالنا حول المدينة بعبور جبل وعر ، بينما خاض أخرون في النهر ، وقاد هذا الفريق ألفي حصان بعيدا عن المرعى ، ولم يدخل في هذا العدد البغال واناث البغال التي استردت ، فجدير بالذكر ان الكثير من اناث البغال كانت قد تعرضت للسرقة في وقت سالف من على الطريق من البحر الى انطاكية ، وذلك على يد الاتراك ، وبعد استرداد هذه الحيوانات أعيدت الآن الى أصحابها بعد التعرف عليها .

وحصن بعد ذلك مباشرة تانكرد ديرا كان يقع على الطريق الآخر من النهر ، ونظرا لاهميته في سد طريق المدينة ، اعطى كونت طولوز الى تانكرد مائة مارك فضي ، كما أسهم الأمراء الآخرون كل حسب امكاناته ، وهكذا يسعدني ان اذكر اننا على الرغم من كوننا أقل عددا من عدونا ، فان نعمة الرب جعلتنا اقوى منه كثيرا ، وفي تلك الأونة كان حملة الأخبار الذين يصلون الينا يبلغون عن تحرك

- ٢٦١٥ -

نجدات للعدو ، وفي الواقع لم تنتشر هذه الأقاويل مـن عند الأرمـن والاغريق فقط ، بل ايضا من المقيمين في انطاكية ، والفت نظـركم الى ان الأتراك قد احتلوا انطاكية قبل اربع عشرة سنة، ولعدم وجود خدم فانهم استخدموا الأرمن والاغريق لذلك الغـرض ، وزوجـوهم من نسائهم ، ومع هذا كان هؤلاء يميلون الى الفرار الينا بالخيول والأسلحة بمجرد ان يتاح لهم الهرب ، وهرب كثير من الصـليبيين الجبناء مع التجار الأرمن عندما انتشرت هذه الشائعات ، ولكن من ناحية أخرى عاد الفرسان الأقوياء مـن عدة قـلاع وجلبـوا معهـم اسلحتهم بعدما اصلحوها وعدلوا من شأنها ، وعندما اختفى الجبن والتخاذل بدرجة كافية ، او بالحري عادت الجرأة ، التـي كانت في كل وقت وزمان كفيلة لمواجهة كل الأخـطار مـع الأخـوة ومـن اجلهم ، فان احد (الأرمن) من رجـال الاتـراك المحـاصرين وثـق بأمرائنا الى حد انه كان سيسلمنا انطاكية .

الفصل السادس

الاستيلاء على أنطاكية

أرسل الأمراء بوهيموند و غودفري ومعهم أيضا كونت فلاندرز ، عقب اجتماع مشترك للتحقق من هذه العرض ، وعند وصولهم الى احدى تلال أنطاكية في منتصف الليل ، وصل رسول من (الأرمني) رجل الأتراك الخائن ، وأمرهم بقوله له : « لا تتحركوا حتى يمر أمامكم مصباح ».

وكان من المعتاد أن يمر ثلاثة رجال أو اربعة بحذاء شرافات الأسوار وهم يحملون المصابيح وذلك بهدف ايقاظ الحرس وتنبيههم ، وعندما مرت المصابيح ، وضع رجالنا الرابضون في ظلال الأسوار سلما وبدأوا يتسلقون ، واعتلى السور فرنجي يدعى فولغير ، وهو بلا ريب أخو بود يللوس أوف تشارترز ، اعتلاه بلا خوف وتبعه عن كثب كونت فلاندرز الذي أمر بوهيموند والدوق أن يتبعاه ، وعلى أية حال ، انقطع السلم اثناء تداركهم في الصعود ، إلا أن الذين تمكنوا حقا من الوصول الى أعلى السور نزلوا الى داخل المدينة ، وفتحوا أحد الأبواب بالقوة ، ودخل حملة الصليب بهذه الوسيلة ، وقتلوا كل من صدفوه ، وعند الفجر صاحوا صيحات مرعبة جدا ، حتى أن المدينة اضطربت كلها وبكى الأطفال والنساء.

وراح بعض المسيحيون في قلعة ريموند القريبة ، وقد أيقظتهم الجلبة ، يرددون: لقد وصلت نجدات الى العدو،ورد عليهم أخرون :«إن أصوات الألم ليست كأصوات الفرح » .

ومع بزوغ الفجر رفـــرفت أعلامنا فـــوق التـــل الجنوبـــي لأنطاكية ، وأصاب الهلع أهل انطاكية لرؤيتهـم قـــواتنا على التـــل المشرف على المدينة ، وجعـــل الرب الفـــوضى تـــدب بين صفوفهم ، فاندفع بعضهم من الأبـــواب ، وقفـــز أخـــرون مـــن الأسوار ، ولم يصمد أحد منهم ، ولم يقاتل أيا منهم ، وبعد أشـــهر عديدة من الحصار المضني تـكشف أمـــامنا المشـــهد الســـعيد التالي ، إنه مشهد المدافعين عن انطاكية الذين لم يستطيعوا منذ أمد الفرار من المدينة ، ولا أن يتجنبوا الآن الموت إذا مـــا تجـــرأوا على الفرار.

ووقع لنا هناك حـــادث ممتـــع رائع ، وهـــو أن بعض الأتـــراك كانوا ، يحاولون الفرار دون أن يراهم أحد من خلال الفتحات التي تتخلل التلال في الشمال ، وبينما هم يفعلون ذلك لقيتهم مجموعة من حملة الصليب ، وهنا اضطر الأتـــراك وقـــد حبـــطت خـــططهم الى التراجع.فهمزوا خيولهم بسرعة كبيرة ، الأمر الذي جعلهم يسقطون جميعا من فوق الهضاب الصخرية ، ولقد كان سقوط الأتراك القاتل هذا مشهدا سعدنا برؤيته حقا ، بيد أننا حزنا لضـــياع اكثـــر مـــن ثلاثمائة حصان لاقت حتفها هناك.

ولن نقف عند وصف كميات الأســـلاب ، فلكم أن تتصـــوروا أي شيء يمكن أن يتبادر الى ذهنكم وتحسبوا اكثـــر منه ، وفي الحقيقـــة من غير الممكن لنا تقدير عدد القتلى من الأتراك والمســـلمين ، ومـــن العبث حكاية القصة بالتفصيل ووصف طـــرق الموت المختلفـــة ، وفي الوقت نفسه كان بعض المدافعين يراقبون مـــن مـــوقعهم فـــوق تـــل متوسط مقتل رفاقهم وينتظرون توقف القتال ، وعلى كل حال لقـــد اختاروا أن يدافعوا عن قلعتهم ، غير أن يغي ســـيان ، وقـــع أثناء هروبه من أحد الأبواب ، في يد بعض الفلاحين الأرمن فقطعوا رأسه و قدموه لنا بعد ذلك هدية ، و أعتقد أن يغي سيان الذي كان قد قطع رؤوس العديد من الأرمن ، قد قدر له بارادة الرب التي لا توصف أن يقطع رأسه على أيدي فلاحيهم.

لقد سقطت أنطاكية في اليوم الثالث من شــهر حــزيران ، وكانت هدفا للهجوم منذ حوالي الثاني والعشرين من شهر تشرين الأول من العام المنصرم ، وأحجمت قواتنا عن مهاجمة القلعــة ، بينمــا راح رجالنا يفحصون الغنائم ويدونون لها ســجلا ، وأمعنوا في نســيان الرب مانح جميع هذه النعم ، فأفرطوا بالأكل بنهــم شــديد وبــذخ واهتموا بالراقصات.

وبعد ذلك بثــلاثة أيام ، أي في اليوم الخــامس مــن حـــزيران نفسه ، حاصر المسلمون حملة الصليب ، وهكذا فإن حملة الصليب الذين كانوا قد حاصروا أنطاكية التركية بــرحمة مــن الرب وجــدوا أنفسهم و قد أحاط بهم الأتراك وفقا لمشيئته ، ومما زاد من خــوفنا أن الحصن الكبير ، الذي كان بــكل المعــايير قلعــة حقيقية ، كان بحوزتهم ، وقد وحــد صــفوفنا الرعب وحــاصرنا القلعـــة ، لكن كربوغا ، مقدم الأتراك ، عسكر بعد وصوله بوقت قصير على بعــد قرابة ميلين من أنطاكية ، وذلك اعتقــادا منه أن المعــركة ســتكون خارج المدينة ، ثم تقدم بصــفوف منتــظمة نحــو جسر المدينة ، وفي اليوم الأول دعم رجالنا دفاعات قلعة الكونت ، خشــية أن يســتولي الذين في القلعة ــ من الاتراك ــ على أنطاكية لو خرج المســيحيون الى القتال ، وشعروا من جانب أخر أنهــم إذا مــا تخلوا عن قلعــة الجسر ، سيستولي العدو عليهــا وســيسد طــريق الخـــروج الى القتال ، لأنه كان مسيطرا على مخارج المدينة.

وكان روجر أوف بارنيفيل ، وهو فارس مشهور ومحبــوب ، في احد الأيام يتابع تقهقر الأتــراك ، فــوقع في أيديهـــم وقــطعوا راسه ، فاستولى الحــزن أنذاك والرعب على رجــالنا ممــا دفـــع بالكثيرين منهــم الى اليأس مــن القتــال ، غير أنه نزلت بــأعدائنا نكستان بالمعارك التي جرت بعد ذلك ، وعلى الرغم من ذلك هاجموا في اليوم الثالث القلعة بشدة وعنف الى حد أنه بدا أن قدرة الرب هي التي كانت تحميها وتوقف الأعداء ، لأن الأتراك ، أصيبوا لســبب غير معروف ــ بالهلع الشــديد أثناء عبــورهم الخندق المليء بــالماء

والمحيط بالقلعة ولم يتمكنوا من هدم الأسوار ، وبادروا بالفرار ، وبعدما انسحبوا الى مسافة قصيرة ، رأوا أنه ليس هناك من سبب للفرار غير خوفهم ، ولذلك عاودوا الهجوم ، وشددوا هجماتهم بعنف كما لو كانوا يريدون محو أثر تراجعهم المشين ، غير أن الرب بث الرعب في قلوبهم مرة أخرى ، وبناء عليه عاد رجال كربوغا الى معسكرهم باليوم نفسه.

وأحرق حملة الصليب القلعة ، وانسحبوا الى داخل انطاكية ، وذلك بعدما عاد أعداؤهم في اليوم التالي ومعهم معدات ثقيلة ، وزاد رعب الفرنجة وقلقهم ، في حين ارتفعت ثقة الأعداء بأنفسهم حتى عنان السماء ، لأنه لم يعد لدينا أمل خارج المدينة ، في وقت احتفظ فيه أعداؤنا بالقلعة الرئيسية داخل انطاكية ، ودفعت هذه العوامل الشجعة الأتراك الى التقدم نحونا عن طريق القلعة ، غير أن المسيحيين ثقة منهم بمواقعهم الاستراتيجية ، وأراضيهم المرتفعة زحفوا ضد الأعداء وهزموهم من أول هجوم ، بيد انهم غفلوا عن هجوم مضاد وقع عليهم ، وشغلوا أنفسهم بغنائم المعركة ، فنزلت بهم هزيمة مشينة ، وعند واحد من مداخل انطاكية لاقى أكثر من مائة من المسيحيين حتفهم ومات معهم عدد كبير من الخيول ، ونتيجة لذلك بات الأتراك يحلمون أنهم عند دخولهم الحصن سيقومون بمهاجمة المدينة السفلى.

كان هناك واد صغير يتميز بسهل صغير وعين ماء ، وقد وقع بين جبلنا وقلعتهم ، ولذلك بذل الأتراك كل جهودهم لاكتساحنا وطردنا من طريقهم ، لأن النزول الى انطاكية لم يكن ممكنا إلا عن طريق جبلنا ، واستمر القتال عنيفا وشديدا طوال النهار من الصباح الى المساء بشكل لم يسمع بمثله من قبل ، وفي غمار وابل النشاب والصخور التي انهالت ، وتحت قعقعة السلاح التي لم تتوقف ، وبعد مقتل أعداد كبيرة من المحاربين ذهبت قواتنا في

سبات نوم عميق ، وكانت هذه بدون شـك محنة رهيبـة وغير عادية بالنسبة لنا ، وإذا أردت أن تعرف السبب ، لقد توقف القتال ليلا.

وعند صلاة العتمة ، وقت الثقـة بـرحمة الرب ، فقـد الكثيرون الأمل ، وربطوا أنفسهم بحبال ودلوها مـن أعالي الأسـوار ، وفي المدينة نشر الجنود العائدون من القتال أشاعة فيها إن قتلا جمـاعيا ينتظر المدافعين ، ومما زاد الرعب أنهم لانوا بالفرار هم أيضا على الرغم من حث بعضهم المترددين على الصمود ، ومع ذلك فإن رحمة الرب ـ كما قلنا ـ كانت حـاضرة ، حتـى والمسـيحيين في محنة ويأس ، فكان جـزاء الرب للداعين له مـن أبنائه مـواساة لهـم في المصائب.

الفصل السابع

حصار كربوغا لأنطاكية والعثور على الحربة المقدسة

هنا يبدأ العثور على الحربة المقدسة :

اظهر الرب قدرته واحسانه في أعقاب الاستيلاء على أنطاكية ، بأن اختار فلاحا بروفانسيا ليقوم بتعزيتنا ويسلم الرسالة التالية الى كل من ريموند وأدهمر:

« لقد انذرني القديس أندروز ، مبعوث الرب وسيدنا يسوع المسيح منذ زمن في اربع مناسبات ، وامرني ان ابلغكم ، وأن أعيد اليكم – عند سقوط أنطاكية – الحربة التي اخترقت جنب مخلصنا ، وعندما انطلقت اليوم مع اخرين للقتال خارج اسوار المدينة ، وقعت في يد اثنين من الفرسان ، وكدت أسحق في اثناء انسحابي ، فدفعت الى صخرة فاتر الهمة مغتما ، وعندئذ تجلى لي القديس أندروز ورفيق له ، وحذراني – وأنا مذنب تعس ماازال أترنح من العذاب والمخاوف – من مزيد من الهموم إذا لم أسارع الى تسليمكم الحربة .

وعندما طالبه الكونت والأسقف بتفاصيل عن طبيعة ما تكشف له وعن تعليمات القديس أندروز رد البروفانسي بقوله: «أثناء الحصار الفرنجي لأنطاكية أيام الهزة الأرضية الأولى ، استبدبي الخوف ، ولم أعد أتفوه إلا بقولي : « انقذني يارب » وكنت وحدي مستلقيا على الفراش في كوخي ، دون أصدقاء يبثون الطمأنينة في قلبي ، وكان الظلام مخيما ، وكما قلت استمرت الصدمات لوقت طويل مما زاد في قلقي ، وفي تلك اللحظة ظهر لي رجلان في ملابس

زاهية ، كان لأكبرهما شعر أحمر يتخلله البياض ، ولحية بيضاء كثة عريضة ، وعينان سوداوتان ، ومظهر لطيف ، وكان متوسط القامة ، وكان رفيقه أطول منه » وابهى هيئة من أبناء البشر « وسألني الرجل الأكبر : « ماذا تفعل »؟ وكنت وحيدا ، وقد شعرت بالرعب ، فقلت بصوت مرتعش : « من أنت »؟ فقال :« قم ولا تخف واستمع الي ، إنني أندروز الرسول ، بادر الى تأمين لقاء مع اسقف لي بوي وكونت صنجيل وبطرس ريموند من هوت بول ، وأسألهم:لماذا لا يعظ ادهمر بالكلمة ، ويحث الناس ويباركهم بالصليب الذي يحمله كل يوم ، فهذا سيكون فيه بركة عظيمة لهم بكل تأكيد » ثم أمرني قائلا: « اتبعني وسأكشف لك عن مكان حربة مخلصنا التي يجب أن تعطيها للكونت ، لأن الرب قد جعلها له عند مولده » .

فغادرت فراشي وأنا في رداء نومي فقط ، وتبعته الى داخل انطاكية حيث كنيسة الرسول بطرس المبارك عن طريق الباب الشمالي ، والذي كان المسلمون قد بنوا أمامه مسجدا ، وكان هناك مصباحان يضيئان مدخل الكنيسة كما لوكنا في رابعة النهار ، ثم إن أندروز أمرني بقوله: « ابق هنا » ثم أمرني أن أقف بجوار العمود الذي كان قريبا من الدرجات الجنوبية المؤدية الى الهيكل ، وبينما بقي رفيقه على مسافة خطوات من درجات الهيكل ، مد القديس أندروز يده الى جوف الأرض وسحب الحربة ووضعها بين يدي ثم توجه القديس أندروز بحديثه الي قائلا: « أنظر الى الحربة التي اخترقت جنب المسيح ، الذي كان السبب في خلاص العالم » وفي الوقت الذي جرت فيه دموع الفرح على وجنتي ، أمسكت بالحربة ، و خاطبت القديس أندروز و أنا أجهش بالبكاء :إذا كنت تود ذلك ، فأنني سآخذها من الكنيسة و سأضعها بين يدي الكونت.

واجابني القديس اندروز: انتظر حتى ما بعد الاستيلاء على انطاكية ، ثم عد وبرفقتك اثني عشر رجلا ، وابحث عن الحربة في المكان عينه الذي كشفت لك عنها فيه ، فسأخفيها الآن « ثم دفنها في

الموضع ذاته ، وقادني بعد هذه التجليات من فوق أسوار المدينة إلى كوخي ، ثم اختفى بعد ذلك »

و بكلمة موجزة إنني بعدما تأملت في حالتي الرثــة و عظمتــك لم اجرؤ على القدوم اليك ، و بعد ذلك رحلت إلى قلعة قريبة من الرهــا بحثا عن الطعام و بعد هذا أتاني القــديس أندروز في الهيئة نفســها ومعه رفيقه نفسه ، وكان ذلك في فجر اليوم الأول من الصوم الكبير عند صياح الديكة ، وسألني ، وكان قد غمــر البيت نور عظيم: هــل أنت نائم؟ ونبهتني كلمــاته فــأجبته : « لا ياســيدي ومــــولاي انا مستيقظ » ثم سألني: « هل ابلغت رســالتي الأخيرة »؟ فــأجبته : « سيدي ــ الم اتوسل اليك أن تــرسل شــخصا أكثــر جــدارة مني اليهم ، لأنني خشيت من حالتي الرثة ، فم اجــرؤ على المثــول بين أيديهم »

فسألني مرة أخرى: « الا تعرف السبب الذي من أجله قادك الرب الى هذا المكان ودوافع حبــه العــظيم لك ، واهتمــــامه الخــــاص باختيارك؟ لقد طلبك هنا لكي يسوغ اعتباره لمن يختارهم ، إن حبــه لك كبير جدا الى درجة أن القديسين يرقــدون الآن بســلام ، وهــم مدركون لنعمـــة الرغبـــة الربـــانية ، ويودون لو عادوا لحمــــا ودما ، وقاتلوا الى جــانبك ، لقــد اختــارك الرب مـــن بين جميع الناس ، كما تجمع حبوب القمح من بين الشوفان ، لأنك تقف فوق كل من جاءوا من قبلك ، أو مـــن ســـيأتون بعـــدك ، بجـــدارتك وبركتك ، مثلما يفوق ثمن الذهب ثمن الفضة».

« وبعد رحيلهما وقعت فريسة لمرض هـــدد بصري ، حتـــى انني بدأت أتخلص من مواردي المحدودة ، عندما استنتجت فجأة أن هذه الأمراض داهمتني لعصـــياني أوامـــر الرســـول ، وهـــكذا عادت الطمأنينة الي ، فعدت الى الحصار ، وفكرت مرة أخــرى بحــالتي الرثة ، فلم أقل شيئا لأنني خشيت أني إذا ما ابلغتكم أن تصرخــوا أني رجل يتضور جوعا جئتكم بهذه الأقصوصة من أجل أن احصــل

على الطعام ، وبعد أمد قصير كنت أستريح مع مولاي وليم بـطرس في خيمة في ميناء السويدية عشية أحـد السـعف ، عندمـا تجلى لي أندوروز المبارك في هيئته السالفة نفسـها و معـه رفيقـه السـالف الذكر ، و قال لي :لماذا لم تسـلم رسـالتي الى ريمـوند وادهمـر؟ فأجبته قائلا: يا سيدي الم اتـوسل اليك أن تبعـث بـديلا انبـه مني ، يولونه اعتبارهم ، كما يجب أن تعرف أن الأتراك يقتلون كل شخص يسلك الطريق الى انطاكية.

وهنا رد القديس أندروز: لا تخف ، فلن يؤذيك الأتـراك ، ولكن ابلغ الكونت ألا يغطس في نهـر الأردن عند وصـوله ، بـل عليه أن يجدف عبر النهر أولا في قـارب ، وعندمـا يصـل الى الطـرف الآخر ، يرش على جسده الماء وهـو مـرتد قميصـا وسراويل مـن الكتان ، وبعد ذلك عليه أن يحفظ مـلابسه المجففـة مـع الحـربة المقدسة ، ويمكن لمولاي وليم بـطرس أن يشـهد على صـحة هـذا الحديث مع أنه لم ير القديس اندروز.

فاطمأنت نفسي وعدت الى القوات المحاصرة لأنطـاكية ، لكني لم استطع أن اجمعكم حسبما رغبـت ، وهـكذا ذهبـت إلى مرسى المصيصة ، وبينما أنا هناك أنتظر ـ وقد نفد صبري ـ لأبحـر الى قبرص طلبا للمؤونة ، واجهني القديس أندروز بتهديدات شديدة إذا أنا لم أعد الى انطاكية ، وأملي عليك تعليماته ، وانذاك بـدأت وأنا أفكر بطريق السفر الذي سيستغرق ثـلاثة أيام مـن المصـيصة الى معسكر الحجـاج ، بـدأت أبـكي بشـكل مجنون ، لأنني أدركت استحالة ذلك ، وفي النهـاية ، وبناء على الحـاح مـولاي ورفـاقي ابحرنا وجدفنا طيلة يوم واحد والريح تساعدنا حتى غروب الشمس عندها هبت فجأة عاصفة وأعادتنا خـلال سـاعة أو سـاعتين الى المصيصة ، وبعـد هـذا حيل بيننا وبين المضي الى قبـرص ثـلاث مرات ، ولهـذا عدنا الى ميناء السـويدية وهناك مـرضت مـرضا شديدا ، إنما بعد الاستيلاء على انطاكية قـدمت اليكم ، وهـاأنذا أقدم اليكم الآن شهادتي لتقبلوها .

وعد الأسقف هذه الحكاية مخترعة ، غير أن الكونت صدقها بالحال ، ووضع بطرس بارثلميو في عهدة راهبه ريمون (مؤرخنا).

وفي الليلة الثانية تجلى مولانا يسوع المسيح الى كاهن اسمه ستيفن ، كان يبكي وهو ينتظر الموت لنفسه ولرفاقة ، وقد تملكه رعب شديد عندما أبلغه بعض الفارين من القتال عند القلعة بنزول الأتراك من الجبل و فرار الحجاج وانسحابهم بغير نظام ، و قبل دنو موته ، دخل ستيفن كنيسة مريم المباركة ، وذلك رغبة منه أن يشهد الرب عليه ، وهناك اعترف ونال الغفران لذنوبه ، وشرع يرتل التراتيل مع أصدقائه ، وظل طوال الليل يصلي بينما نام الآخرون ، ويردد: « يا مولاي من سيعيش في بيتك ، من سيجد الراحة على جبلك المقدس؟» وفي هذه الساعة ظهر له رجل وسيم ليس كهيئة البشر ، وتوجه بالسؤال الى ستيفن قائلا: من دخل أنطاكية؟ فرد ستيفن: المسيحيون ، فسأله الرجل: بم يؤمن هؤلاء المسيحيون؟ وأجابه الكاهن: إنهم يؤمنون أن المسيح قد ولد من العذراء مريم ، وتحمل الآلام على الصليب ، ومات ودفن ، ثم قام من القبر في اليوم الثالث ، وصعد الى السماء ، فسأله الرجل: إذا كانوا مسيحيين ، لماذا يخافون من جموع الوثنيين؟ ثم تابع يقول:ألا تعرفني ؟

فأجابه الكاهن ستيفن : أنا لا أعرفك ،غير أنك تبدو لي بالغ الجلالة ،و هنا قال له الرجل:« انتبه إلي وحدق بي جيدا » وعندما راقبه ستيفن وتمعن به عن كثب ، رأى فوق رأسه هالة تظهر تدريجيا على شكل صليب يخطف نوره الأبصار اكثر من نور الشمس ، وهنا أجاب الكاهن الرجل الذي كان يسأله : مولاي ، إننا نسمي الصور التي تشبهك في مظهرها صور يسوع المسيح ، ورد عليه السيد قائلا : لقد نطقت بعين الصواب ، فأنا يسوع المسيح ، أليس مكتوبا انني السيد القوي القادر في المعارك ، هل لي أن أسألك : من هو مقدمك ؟ وأجابه ستيفن : مولاي : ليس لدينا مقدم واحد ، ولكننا نثق بأدهمر اكثر مما نثق بالآخرين .

وأمرني المسيح بقوله : أبلغ الأسقف إن هؤلاء الناس قد أبعدوني عنهم بسبب أعمالهم الشريرة ، ولهذا ينبغي أن يقودهم ـ ابتعدوا عن الخطيئة فسأعود إليكم ـ وفيما بعد عندما سيذهبون إلى القتال ليقولوا : لقد تجمع أعداؤنا وتباهوا بقوتهم ، فدمر يارب قوتهم ، واهزمهم حتى يعرفوك ، ياربنا حارب معنا وحدنا ، وزاد هذه التعليمات : ستكون رحمتي معكم لو اتبعتم اوامري لمدة خمسة ايام .

وفيما هو يتكلم اقتربت امراة ـ هي مريم أم يسوع المسيح ـ وقد أحاطت بوجهها هالة باهرة ، ونظرت نحو السيد وسألته : ماالذي تقوله لهذا الرجل ؟ ورد المسيح على مريم : لقد سألته عن الناس الذين هم في انطاكية ، فقالت السيدة : آه يامولاي ، إنهم مسيحيون حقا ، هم دوما في صلواتي إليك .

وعندما أيقظ الكاهن رفيقه النائم على مقربة منه ليشهد الرؤيا ، اختفى المسيح ومريم من أمامه ، وفي الصباح التالي : صعد ستيفن التل المواجه للبرج التركي ، حيث كان امراؤنا ينتظرون ، باستثناء غودفري ، الذي كان يحرس حصن الجبل الشمالي ، وابلغهم ستيفن في اجتماع عقدوه بفحوى رؤياه الموصوفة ، واقسم بالصليب على صحتها ، ثم أعرب أخيرا عن استعداده لاختراق النار ، أو القاء نفسه من فوق برج إذا اقتضى الأمر ، لاقناع الذين يرتابون بصدقه .

وازاء هذه الوقائع اعتقدت الحشود أن الأمراء كان بودهم الآن الفرار إلى الميناء ، وانه فقط قلة من ذوي الايمان الراسخ ، لم تكن تفكر بالفرار أثناء الليلة المنصرمة ، واقسم الأمراء أنهم لن يفروا ، ولن يتخلوا عن انطاكية إلا بناء على قرار جماعي مشترك ، وهكذا اطمأن الكثيرون ، وحتى ذلك الحين إن إغلاق أبواب انطاكية بناء على أوامر بوهيموند وادهمر ، حالت دون الجلاء الكامل عن المدينة ، وعلى الرغم من جميع الاحتياطات هرب وليم أوف غراند

مسنيل مـع اخيه وعدد كبير مـن رجـال الدين والعـوام ، غير ان الكثيرين ممن هربوا من المدينة معرضين انفسهم لمخاطر شـديدة ، واجهوا مخاطر اعظم هددتهم بـالموت ، وهـو مـاصدر عن رجـال كربوغا .

وانتشرت قصص التجليات والرؤى التي كانت تـظهر لرفـاقنا ، ورأينا نحن إحدى العجائب في السماء ، فقد رأينا نجما كبيرا معلقا وقف فوق انطاكية لبرهة من الوقت ، ثم مالبث أن تفتـت إلى ثـلاثة اجزاء وسقط داخل المعسكر التركي ، وتشجع الحجاج بعض الشيء وترقبوا بلهفة حلول اليوم الخامس الذي أعلن عنه الكاهن ، وفي ذلك اليوم حمل إثنا عشر رجلا ومعهم بطرس بارثلميو الأدوات اللازمة ، وبدأوا يحفرون في كنيسة بطرس المبـارك ، بعـد أن ابعـدوا جميع المسيحيين الآخـرين ، وكان مـن بين الاثني عشر اسـقف اورانج وريمون دي جيل كاتب هذه السطور ، وريمـوند صـنجيل ، وبـونز اوف بالازون وفارالد اوف ثوارز.

وظللنا نحفر حتى المساء ، ويئس بعضنا من إخراج الحربة مـن باطن الأرض ، وفي تلك الأثناء ، وبعدما ذهـب الكونت إلى حـراسة القلعة ، اقنعنا عمالا جددا بأن يحلوا محل الحفارين الذين تعبـوا ، وحفروا بكل جد وشدة ، غير أن بطرس بارثلميو الممتلىء شبابا ، تجرد عندما رأى الاجهاد وقد اخذ من رجـالنا كل مـأخذ ، ووضـع جانبا ثيابه الخارجية ، ونزل إلى الحفرة حافي القـدمين وليس عليه إلا قميص ، ثـم تـوسل إلينا أن نصـلي للرب ليعيد حـربته إلى الحجاج ، ليجلب لشعبه القـوة والنصر ، وأخيرا ،اظهـر الرب لنا برحمته المباركة حربته ، وقبلت انا ريمون مؤلف هذا الكتـاب سـن الحربة عندما برز من الأرض ، ومن غير الممكن لي وصف السـعادة والابتهاج اللذان غمرا انطاكية ، لكن يمكن لي أن أؤكد أن الحربة قد اكتشفت في اليوم الثامن عشر قبل اليوم الأول من تموز .

ووقف في الليلة التالية اندروز المبارك أمام الشاب الذي كشف عن

الحربة وقال له : انتبه قد أعطى الرب الحربة للكونت ، وحقا اقول : إنه قد حفظها له وحده عبر العصور ، كمـا وجعله قـائدا للحجـاج شريطة أن يكرس نفسه للرب ، وعندما طلب بطرس بارثلميو الرحمة للمسيحيين اجابه أندروز المبارك : حقـا إن الرب سـيكون رحيمـا بشعبه .

ومرة أخرى سأل بطرس زائره الليلي عن اسم رفيقه : مـن كان الشخص الذي رأيته يصاحبك بشـكل متـكرر ؟ فـرد عليه اندروز المبارك بقوله : اقترب وقبل قدمه ، فاقترب البروفانسي ، فرأى مابدا له جرح حديث ودم في قدمه ، فتراجع بسبب ذلك المنظـر الدمـوي ، وهنا أمره أندروز المبارك قائلا : انظـر إلى الرب الذي سـمر على الصليب من اجلنا ، وتحمل منذ ذلك الوقت هذا الجرح ، فضـلا عن ذلك إن الرب يأمرك بالاحتفال بتاريخ اكتشاف حربته ، في ثامن أيام العيد من الأسبوع المقبل ، لأن استخراج الحربة وقت صلاة العتمـة يمنع الاحتفال في ذلك اليوم ، وبعد هـذا إنك سـتحتفل كل عام بيوم اكتشاف الحربة ، ثم أبلغ المسيحيين أن يكبحـوا جمـاح انفسـهم حسبما تعلمهم رسالة أخـي بـطرس (كانت تلك الرسـالة تعلم : تواضعوا تحت يد الرب القوية) كمـا أن الكهنة سـيرتلون كل يوم بالترتيلة التالية :

وعندما يصلون إلى قولهم :

عليهم أن يجثوا على ركبهم وينحنون مختتمين الترتيلة .

وفيما بعد عندما استفسرت انا واسقف أورانج من بارثلميو عما إذا كان يعرف خدمة القـداس الكنائسي ، فإنه إحسـاسا منه بـأن الاجابة بالايجاب لن تقابل بالتصديق أجاب : انا لاأعرف ، ومع أنه

- ٢٦٢٩ -

كان يعرف بعض الطقوس كان حينئذ مرتبكا جدا إلى درجـــة انه لم يتذكر القداس الكنائسي أو يذكر بالمرة ماتعلمه منه باستثناء :

ونسي كل ماسوى ذلك ، ولم يتــذكر فيمـــا بعـــد إلا عدة كلمـــات بصعوبة .

الفصل الثامن

هزيمة كربوغا

في تلك الأيام عز الطعام وأصبح نادرا جـدا ، حتى بيع رأس الحصان بدون لسان بإثنين أو ثلاثة صولدي ، وأمعاء الماعز بخمسة صولدي ، والدجاجة بثمانية صولدي أو تسعة ، وما الذي يمكن أن أقوله عن الخبز عندما يأكل المرء ماقيمته خمسة صولدي ويستمر جائعا ، أما الأغنياء الذين يملكون الذهب والفضة والملابس ، فلم يكن غريبا عليهم ، أو حتى مرهقا لهم دفع التكاليف الباهظة ، وهكذا ارتفعت الأسعار وزادت لأن ضمائر الفرسان الشريرة كانت تفتقر إلى الشجاعة المسيحية ، لقد كانوا يجمعون التين الفج ويطهونه ثم يبيعونه ويسلقون جلود الماشية والخيول والنفايات الصالحة للأكل ويبيعونها بأسعار مرتفعة جدا ، حتى أن أي إنسان كان يمكنه أن يأكل أي كمية تكلفه صولدين ، بيد أن أغلب الفرسان ، الذين يرجون رحمة الرب ، رفضوا أن يذبحوا خيولهم ، وتحملوا بدمائهم ،

وفي الوقت الذي كانت فيه هذه البلايا وغيرها مما لايستطاع ذكره لما فيه من بؤس ، تقض مضاجع المسيحيين ، لجأ بعض رجالنا إلى الخيانة ، فأبلغوا الأتراك بحالة البؤس التي تعيش فيها إنطاكية ، فزادوا بذلك من همومنا وضاعفوها ، وشجعت هذه الأخبار الأتراك ودفعتهم إلى القيام بأعمال جريئة جعلتنا عرضة لتهديداتهم ، ووقع أحدها في ظهيرة أحد الأيام ، عندما اعتلى ثلاثون منهم أحد أبراجنا ، وأوجدوا لبعض الوقت حالة شديدة من الذعر ، غير أن قواتنا التي تعرضت للمخاطر ، قاتلت بتأييد من الرب ، فقتل رجالنا بعض الأعداء ، ودفعوا بالآخرين بعيدا عن الشرافات ، ووعد في ذلك

الوقت جميع حملة الصليب باتباع أوامر بوهيموند لمدة خمســة عشر يوما بعد القتال ، بحيث يمكنه أن يتدبر أمر حماية انطاكية ، ويضع خطط القتال ، وكان سبب هذا القرار هو التهديد التركي ، ومــرض الكونت ريموند وأدهمر ، وفــرار ســتيفن أوف بلوا ، وأذكركم : إن ستيفن قد فر على الرغم من اختياره قائدا مسـيحيا قبـل سـقوط انطاكية ـ نتيجة للأقاويل بقرب وقوع المعــركة ، وكمــا حــكينا ، جاءت معونة السماء الى مسيحيينا المرعوبين والمثقلين بالهموم والأحزان ، عن طريق بطرس بــارثلميو ، الذي اكتشـف الحــربة ، وكان يسدي إلينا بالنصح حــول الذي علينا فعله قبــل المعــركة وفي أثنائها ، فلقد أخبرنا أن المبارك أندروز قد قال : إن الجميع قد حاق بهم غضب الرب كثيرا ، فوقع عليهم العذاب ، أما أنت فقــد صــليت إلى الرب واســتمع الرب إليك ، والآن فليهجــر كل منهــم الآثـــام وليتوجه إلى الرب ، وليقدم خمس صـدقات ، بســبب جــروح الرب الخمســـة ، واذا عجـــز عن ذلك فليردد ابـــــــانا Pater Noster خمس مرات ، وبعد اكتمــال تنفيذ هذه الأوامر ، ابدأوا المعركة باسم الرب ، ولتبــدأ نهــارا أو ليلا ، وفقا لخطط القتال التــي وضــعها الامــراء ، لان يد الرب ســتكون معكم ، و مع هذا اذا ما ارتاب واحد في نتيجة المعــركة ،فلتفتحــوا الأبواب و تدعوها تجري إلى الأتــراك حيث ســيحميهم «الله» ، و أكثر من هذا ، ليكن أي متخاذل لا يقدم على القتال مع يهوذا خــائن يسوع المسيح ، الذي تخلى عن الرســل و بــاع المســيح للهيود ، و بالصدق أجعلهم يتقدمون الى المعركة ، بــايمان بــطرس المبــارك ، متمسكين بوعد المسيح له عند قيامه وظهوره في اليوم الثالث ، دعهم يتقدمون الى القتال ، لأن هذه الأرض ليست أرضا وثنية ، بل تدخل في اختصاص القــديس بــطرس ، و ليكن شــعار التجمـــع بينكم « ساعدنا أيها الرب » و لسوف يساعدكم الرب فعــلا ، و ســيقاتل معكم كل رفاق رحلتكم الذين ماتوا بقوة الرب ،تحــت قيادتــه ضــد تسعة أعشار الأعداء ، بينما تقاتلون أنتم العشر البــاقي ، بــادروا الى القتال حتى لا يقود الرب عددا مساويا مــن الاتــراك ضــدكم ،

ويحاصر أنطاكية حتى ياكل بعضكم بعضا ، كونوا على اطمئنان ان الايام التي تنبأ بها المسيح لمريم ولرسله قد جاءت ، انها الايام التي سيطيح بها بمملكة الوثنيين وسيسحقها تحت قدميه ، ويرفع فيها الامارة المسيحية ، انما عليكم الاتنصرفوا الى خيام العدو طلبا للذهب والفضة .

ثم تجلت يد القدرة الربانية ، فالذي امرنا بالاوامر السالفة اعلنها لنا عن طريق القديس اندروز ، مما شجع القلوب وشحنها بالايمان والامال ، الى حد ان كل مسيحي شعر انه قد احرز نصرا ، فعادت الى الجميع حماستهم الى القتال عندما راحوا يشجعون بعضهم بعضا ، واصبحت الجموع ، التي كان الخوف والفقر قد اصاباها بالشلل منذ عدة ايام فقط ، تسأل عن اسباب تأخير المعركة وتتهجم على الامراء ، وبناء عليه حدد الزعماء تاريخ المعركة ، ثم ارسلوا بطرس الناسك الى كربوغا حاكم الموصل ، ومعه اوامر بان يتخلى عن حصار انطاكية ، لانها كانت تدخل في نطاق مسؤولية القديس بطرس والمسيحيين ، غير ان كربوغا المتغطرس اجاب انه سواء اكان على حق ام على باطل ، يرغب في ان يصبح سيدا على المدينة وعلى المسيحيين الفرنجة ، وارغم بطرس الناسك على الركوع امامه.

وفي تلك الاثناء برزت مسألة اختيار بعض القوات لحراسة انطاكية من هجمات القوات التي في القلعة ، في حين تخرج قوات اخرى الى ميدان القتال ، ولهذا تمت اقامة سور حجري وتحصينات فوق تل يواجه العدو ، وقويت هذه التحصينات بالصخور وجعلوا عليها حامية بها ريموند كونت طولوز ، وكان مصابا بمرض خطير ، وترك معه مائتين من الرجال ، وجاء اليوم المحدد للمعركة ، وتناول الجميع القربان الرباني في ذلك الصباح ، وخضعوا لارادة الرب ، وحتى للموت اذا اراد ذلك ، ولشرف الكنيسة الرومانية ولجنس الفرنجة .

وتم تنظيم المعركة على اساس رتلين مزدوجين من البروفانسيين من قوات ريموند وادهمر مع رجالة في المقدمة ، يهاجمون او يتوقفون وفقا لاوامر قادتهم ، ثم يليهم في الساقة الفرسان ، وسارت قوات بوهيموند بهذا الاسلوب القتالي نفسه ، وكذلك قوات تانكرد وكونت نورماندي ، والفرنجة والدوق والبرغنديين ، واندفع المنادون في انطاكية يحثون كل رجل على القتال مع قائده ، وكان نظام الزحف حسبما يلي : هيو العظيم ، كونت فلاندرز ، وكونت نورماندي اولا ، ثم الدوق والاسقف ، واخيراً بوهيموند ، وبهذه الطريقة وقفوا في صفوفهم دون المدينة وامام باب الجسر .

اه كم هي مباركة هذه الامة التي يكون سيدها هو الرب ، والشعب الذي اختاره لميراثه ، ولكم تغير مظهر هذا الجيش ، من حالة الكسل والتراخي الى النشاط والمعركة ، فقبل ايام عدة كان القادة والنبلاء يسيرون في شوارع انطاكية يسألون الرب العون ، وكان العامة يسيرون في المدينة حفاة ، وهم يصرخون ويضربون صدورهم ويلطمونها ، وكان قد بلغ من بؤس المسيحيين وشقائهم ان الاب وابنه والاخ واخاه ، لم يكونوا يتبادلون التحية والنظرات ، وهم يمرون في الشوارع ، ومع التبدل المفاجيء في الروح ، صار المرء يرى المسيحيين يخرجون كخيول نشطة ، ويقعقعون بأسلحتهم ، ويلوحون برماحهم ، ويحتفلون بكل صخب بالكلام والسلوك ، ولكن لماذا نؤخر اكمال حكاية هذه القصة ؟ يكفي القول : ان الرغبة في القتال باتت الان امرا مفروغا منه ، وكانت خطط القادة تنفذ.

وفي الوقت نفسه ، وبينما كان كربوغا يلعب الشطرنج في خيمته تواتر وصول الاخبار اليه بأن الفرنجة كانوا خارجين الى القتال ، فاضطربت نفسه لهذا التحرك غير المتوقع ، فاستدعى مجير الدين وهو لاجيء تركي من انطاكية ، وشجاع مقدم معروف ، وسأله : مالذي يحدث ، الم تخبرني ان المسيحيين الاقل عددا منا لن يقاتلوا ابدا ، لان عدد الفرنجة كان ضئيلا ؟! ورد مجير الدين على سؤاله هذا قائلا : لا ياسيدي اني لم ابلغك بشيء من هذا القبيل ، لكن تعال

معي فلسوف اراقبهم ، ومن ثـم انصـح لك وابين كيف يمـكنك ان تتغلب عليهم بيسر وسهولة .

وعندما تقدم الصف الثالث من حجـاجنا ، اسـتطلع مجير الدين صفوفنا ثم ابلغ كربوغا : ان المسيحيين سيموتون قبل ان يفـروا ، وسأله كربوغا بدوره : الا يمكن دفـع بعض المسـيحيين الى الوراء قليلا ؟ ورد مجير الدين : لو اندفع العالم كله ضدهم ما تزحزحوا قيد انملة .

وعلى الرغم من خوف كربوغا فانه صف جيشه الكبير ووضعه في وضع قتالي ، واذن لحملة الصليب بـالخروج مـن انطـاكية دونمـا مضايقات ، مع انه كان يستطيع سد الطريق بوجههم ، ونقلت قواتنا على الفور خطوطها القتالية نحو الجبال التي كانت على بعـد ميلين كاملين من الجسر ، وذلك خشية منها ان تتعرض لحركة التفاف من الخلف ، ثم تقدمنا في موكب يشبه تمـاما رجـال الدين ، ولاغرو انه كان موكب حقا : سار الكهنة والكثير من الرهبـان وهـم يرتـدون القمصان البيضاء امام صفوف فرساننا ، وهـم يرتلون وينشـدون العون من الرب مع حماية القديسين ، وعلى الرغم من ذلك هـاجمنا الاتراك واطلقوا علينا نشابهم ، واقترح كربوغا الذي لم يعد بامكانه تجاهل الزحف المسيحي اقترح على قادتنا ان يقاتل خمسة او عشرة من الاتراك العدد نفسه من الفرنجة ، مقابل ان يغـادر الجيش الذي انهزم ممثلوه من الفرسان ميدان المعركة بسلام ، واجاب رجـالنا : لقد رفضت ذلك عندما اردناه ، والان بما اننا على اسـتعداد للقتـال فليقاتل كل انسان في سبيل حقوقه .

وكما ذكرنا من قبل ، كنا مصطفين على السهل عندمـا هـاجمت كتيبة من الاتراك ، كانت قد جاءت من خلفنا ، فرقة من الرجـالة ، انعطفت وقابلت الهجوم بكل شجاعة ، وعندما عجزت قوات الاعداء عن القضاء على الرجالة اشعلوا نارا حولهم حتى تحصد النيران من

لايخشى السيف ، ولان الاعشاب كانت جـافة تمـاما فقـد جـــرى انسحاب اجباري .

ووقف مع جيشنا خارج انطاكية الكهنة حفــاة يرتــدون الملابس الكهنوتية ، وقفوا فوق الاسوار يبتهلون الى الرب ان يحمي شــعبه وان ينصر الفرنجة نصرا يأتي دليلا على العهد الذي عمــده بــدمه ، ولدى زحفنا من الجسر الى الجبل قاتلنا قتالا شديدا لاحاطة الاتراك بنا ، وفي تلك الاثناء ، اندفــع الاعداء مهــاجمين الذين كانوا منا في صفوف ادهمر ، وعلى الرغم من تفوقهم العددي فإنهم عجــزوا عن جرح اي واحد من رجالنا لانهم لم يتمــكنوا مــن تســديد نشــابهم نحونا ، ولاشك ان مرد ذلك الى الحمــاية المقــدسة لنا ، فقــد كنت شاهداً على هذه الحوادث ، كما كنت حاملا للحربة المقدسة ، واكثر من ذلك لئن كانت الاشاعة قد ترددت ان هرقل حامل راية الاســقف قد اصيب اثناء القتال ، ليكن معروفا انه اعطى رايتــه الى شــخص اخر ، ووقف بعيدا عن صفوفنا .

ولما اصبح جميع رجالنا خارج انطاكية ، شكل قادتنا ، كما سلف بنا الذكر ، ثمانية صفوف ، لكن مالبث ان ظهرت بين صــفوفنا خمســة اخرى ، فصار عدد الصفوف بذلك ثــلاثة عشر صــفا ، ثــم انني لن افوت الحديث على الحدث التالي ، ولانه جدير بالتنويه لن امــر بــه مرور الكرام : لقد انزل الرب على المسيحيين الزاحفين نحو القتــال مطرا خفيفا ، فابتهجوا لسقوطه ، وكانت قطرات هــذا المطــر تجلب لمن تمسهم قوة وخفة ورشاقة حتى انهم صاروا يحتقرون العــدو ، ولقد هاجموه كما لو كانوا قد دربوا على الطــريقة الملكية وتــربوا ، وكان لهذا الرزاز من المطر تأثيرا على خيولنا لايقل اعجازا ، ودليل ذلك انني اسأل : اي حصان انهار قبل القتال ، على الرغم مــن انه لم يكن قد اكل غير لحاء الشــجر واوراقــه لمدة ثمــانية ايام ؟! ولأن الرب قد اضاف جنودا الى جيشنا فقد تفوقنا عدديا على الاتــراك ، مع اننا كنا قبل ذلك نبدو اقل عددا .

وعند اكتمال تقدمنا وانتظام تشكيلنا القتالي ، هرب العدو دون ان يعطينا الفرصة للقتال ، فكان ان طـاردتهم خيولنا حتـى غروب الشمس ، وجاء صنيع الرب مع الرجال والخيول مـدهشا ، حيث لم يعق الجوع والجشع الرجال ، واذا بالخيول التي لم تأكل منذ فترة ، والتي قادها اصحابها بعيداً عن العلف القليل الى ميدان المعركة ، اذا بها تطارد اسرع الخيول التركية ، وصـنع لنا الرب حـدثا سـعيدا اخر ، وهو ان المدافعين عن القلعة عندمـا شـاهدوا فـرار رجـال كربوغا تولاهم اليأس فاستسلموا ، واستسلم بعضهم بعد ضـمان حياتهم ، بينما لاذ اخرون بالفرار على وجـه السرعة ، وعلى الرغم من شدة هذه المعركة وفظاعتها ، فان قلة من الفرسان الاتـراك قـد هلكت ، هذا من جانب ، ومن جانب اخر لم ينج بحياتـه احـد مـن الرجالة ، وفضلا عن ذلك كانت الغنائم تتضمن كل خيام الاتراك مع الكثير من الذهب والفضة ، وكميات لاتقدر مـن الحبـوب ، واعدادا لاتحصى من الماشـية ، والجمـال ، فـذكرتنا بفـرار السريان في السامرة ، عندما كان صاع الدقيق والشـعير بشـيكل وقـد وقعـت هذه الأحـداث في ليلة عيد القـديسين بـطرس وبـولص(٢٦ رجب ٤٩١ هـ / ٢٨ تموز ١٠٩٨ م). وكان موائما ، لأنه من خلال هذين الشفيعين المقدسين جلب الرب يسوع المسيح هـذا النصر الى كنيسة الحجاج الفرنجة ، حقا كان ربنا الرحيم هو الذي يعيش مـع عبيده ويسكن معهم الى ابد الآبدين.

الفصل التاسع

وفاة أدهمر والابلاغ عن رؤى

استولى في أعقاب الانتصار : بوهيموند ،والكونت والدوق وكونت فلاندرز على القلعة من جديد ، غير أن بوهيموند أضمر شرا دفعه إلى اقتراف الاثم ، فقد استولى على الأبراج الشاهقة ، وطرد بالقوة أتباع غودفري وكونت فلاندرز وكونت صنجيل من القلعة مسوغا عمله بأنه كان قد تعهد (للأرمني) رجل الأتراك الذي سلمهم انطاكية انه هو فقط الذي سيمتلكها ، وتشجع بوهيموند بهذا العمل الذي مر بدون عقاب ، فجاء يطالب بالقلعة وبأبواب انطاكية التي يحميها ريموند وأدهمر وغودفري منذ أيام حصار كربوغا ، واستسلم الجميع باستثناء الكونت ، فعلى الرغم من حالة المرض والضعف التي كان يعاني منها ، لم يرغب ريموند بالتنازل عن باب الجسر ، ولم تثنه عن عزمه الصلوات والوعود والتهديدات .

وقلق قادتنا بسبب الصراع الداخلي الذي قوض أسس العلاقات الودية بحيث أن قلة فقط هي التي كانت تتجنب النزاعات مع الرفاق أو الخدم على السرقة أو العنف ، وفي عدم وجود قاض يمكنه أن يناقش القضايا ، أصبح كل شخص قانونا في حد ذاته ، وفي ظل هذه الظروف لم يكن الكونت المريض ولا الأسقف يوفران حماية كبيرة لأتباعهما ، لكن لم نشغل انفسنا بمثل هذه الترهات الصغيرة، المهم أن الحجاج الذين باتوا الآن يرفلون في الثراء والخمول ، أجلوا الرحلة ــ خلافا لأوامر الرب ــ حتى أول تشرين الثاني ، ونحن نعتقد أن الفرنجة لو تقدموا مامن مدينة بين أنطاكية والقدس كانت ستلقي عليهم حجرا واحدا ، فقد كانت مدن المسلمين تعيش وقتئذ في رعب وضعف شديدين بعد هزيمة كربوغا .

وانتقل في هذه الاثناء الى الرب بسلام الورد أدهمر ، وذلك في الأيام الأولى من شهر آب ،وأدهمر هو أسقف لى بوي المحبوب من الرب والناس أجمعين ، والذي رآه الجميع منزها عن الخطأ ، وحزن عليه المسيحيون جميعا حزنا عظيما عندما مات ، ومع أننا كنا شهود عيان له ، لم نستطع وصف ردود الأفعال عندما شرعنا في تسجيل عظمة الأحداث ، ولقد أثبت حادث تشتت القادة في أعقاب موت أدهمر ، و عودة بوهيموند الى كليكيا ، وسفر غودفري إلى الرها ، كم كان أدهمر مفيدا لجند المسيح ولقادتهم .

وفي الليلة التالية لدفن الأسقف في كنيسة بطرس المبارك في انطاكية ، تجلى الرب يسوع وأندروز المبارك وأدهمر في كنيسة ريموند لبطرس بارثلميو ، وهو الرجل الذي كان قد حدد موقع الحربة في أنطاكية ، ثم قال أدهمر لبطرس : الشكر للرب ولبوهيموند ولكل أخوتي الذين خلصوني من الجحيم ، فبعد اكتشاف الحربة ، أمعنت في اقتراف الآثام وألقي بي لذلك في الجحيم ، وجلدت بقسوة ، وكما يمكنك أن ترى لقد احترق رأسي ووجهي وبقيت روحي في الجحيم منذ الساعة التي غادرت فيها جسدي ، حتى أعيد جسدي التعس إلى التراب ، وإن الثوب الذي تراه الآن علي هو ثوب أعاده الرب إلي وأنا في لهيب جهنم لأنني اثناء ترسيمي أسقفا كنت قد أعطيته إلى أحد الفقراء ، شكرا،فعلى الرغم من أن جهنم كانت تغلي ، وكلاب جهنم تزمجر في وجهي ، إنها لم تصب مني أي شيء تحت الثوب ، ولم ينفعني من كل الأشياء التي حملتها من وطني شيء مثلما أفادتني شمعة وهبها أصدقائي تقدمة لي ، مع الدنانير الثلاثة التي تصدقت بها للحربة ، فقد احيتني هذه الصدقات عندما خرجت من الجحيم ، وقل لمولاي بوهيموند قد قال إنه سيحمل جسدي إلى بيت المقدس ، ومن أجل خاطره إنه لن ينقل جثماني من مقره لأن بعض دم الرب الذي اصبحت به الآن مرتبطا مازال هاهنا .

غير أنه إذا كان يشك في أقوالي فليفتح قبري ، وعندها سيرى

رأسي ووجهي المحترقين ، ولقـد عهـــدت بـــأتباعي واوصـــــيت مولاي الكونت ، فليعاملهم ريموند بعطف حتى يكون الرب به رحيما ويفي بوعوده ، كما ولا ينبغي لأخوتي أن يحزنوا لموتي لأني ساكون اكثر نفعا لهم وانا ميت مما كنته حيا ، وإذا رغبوا في المحـــافظة على قـــوانين الرب ، فســأعيش انا وجميع أخـــوتي الراحلين معـــــي ، ولسوف أظهر وأقدم نصحا افضل مما كنت أقدم وأنا بين الأحياء ، فسأعيروا يا اخوتي اهتمامكم لآلام الجحيم الثقيلة المخيفة ، واعبدوا الرب ، مخلص الانسان من هذه الآلام وسواها ، فالسعيد حقا مـــن ينجو مـــن عقـــوبات الجحيم ، وســـيستطيع المخلص منح عفـــوه لمن حافظوا على وصاياه ، وعليكم الحفاظ على هذه النقاط المتســـاقطة من هذه الشمعة والمتبقية عند الفجر ، بمـــا أنني قـــدمت فلينتخـــب الكونت ورجاله الأخيار أسقفا بديلا لي ذلك انه لايليق أن يبقى كرسي أسقفية تابع لمريم المباركة شاغرا بدون أسقف ، واعطوا واحدا من أرديتي إلى كنيسة القديس أندروز .

ثم قدم أندروز المبارك تحياته واحتراماته واقترب وقال موصيا : « اهتموا بكلمات الرب التي أنطق بها ، وتذكر ياريموند الهدية التي عهد بها الرب إليك ، وليكن كل ماتفعله باسمه حتى يرشدك الرب في كلامك وافعالك ، ويقبل صلواتك ، كانت نيقية اول مدينة منحها الرب إليك ، هو الذي حولها إليك ، لقد منحك الرب مدينته ، وانتزعها من أعدائك ، حتى تتذكر له بعد ذلك في هذا المكان ؟ أم لأن أعمـــال الرب لم تكن معروفة هناك ، وإذا طلب أحد معـــونة الرب كان يعـــاقب ؟! وعلى الرغم مـــن ذلك إن الرب بـــكرمه وإحســـــانه لايريد أن يتخلى عنكم ، وسيمنحكم ماتطلبون ، بل وأكثر مما تجـــرأتم على طلبـــه ، فهو قد سلمكم الحربة التي اخترقت جسده الذي سال منه دم الفداء لنا ، وتذكروا أن الرب لم يمنحكم هذه المدينة لتدنسوها كمافعلتم في الأخرى ، ويمكنكم بكل تأكيد أن تتيقنوا أن الرب لم يمنحكم إياهـــا لمزايا فيكم .

إن الرب يأمر يا ريموند أن تعرف من الذي يطمح أكثر من سواه

في حكم أنطاكية ، وتستفسر عن نور الرب في حكمه ، لذلك إذا وجدت أنت وإخوانك ، وأنتم الآن الحراس الأوصياء على أنطــاكية ، مــن يمكنه القيام بإخلاص على عدالة الرب ، فسلموا له المدينة وأعطــوه إياها ، لكن إذا كان يخطط للاحتفاظ بأنطاكية بالقوة ، مزدريا بذلك العدالة وحكمها ، فاطلب أنت وإخوانك المشورة من الرب ، ولسوف يقدمها لك ، ولن يخذلك الأتقياء والذين يعبدون الرب حقا ، أما غير الأتقياء فيمكنهم أن يعودوا إلى من هو عدو للعدالة ، وسترون كيف سيعذبهم الرب ، ستنزل بهم حقا اللعنة نفسها التــي انزلهــا الرب وأمه بابليس الذي هـوى ، فاذا كنتــم متفقين ، اطلبــوا النصــح في الصـــلاة

وسيقدمه الرب لكم وإذا كنتم متفقين ، فاعقدوا مجمعــا مــن أجــل اختيار بطريرك لنامــوسكم ، وإياكم أن تمنحــوا الغفــران للأسرى الراغبين بالتمسك بوصاياكم ، ولاتبقوا على الذين اتبعــوا القــرآن ويتولون عبادة « الله » الذي يعبده الأتراك ، انظروا إليهم كأتراك ، وابعثوا باثنين أو ثلاثة إلى السجن وســيرشدونكم إلى الآخــرين ، وبعد الانتهاء من هذه المهمة اطلبوا مشورة الرب بشأن رحلة الحج ، وسيمحضكم الرب النصح ، إنما إذا لم تنفذوا هذا الأمر ، لن تصلوا إلى القدس ولو بعد عشر سنوات مــع أنهــا لاتبعــد عنكم إلا عشرة أيام ، وسأقود الكفار إلى بلادهم من جديد ، وسينتصر مائة منهــم عليكم ، أضف إلى هذا عليكم ياعبيد الرب ، أن تستعطفوا الرب كما فعل الرسل ، فكما استجاب لصلواتهم سيستجيب إلى صلواتكم .

أما أنتما ياريموند وبوهيموند فاذهبا إلى كنيسة أندروز المبــارك فسيعطيكما أفضل نصيحة من الرب ، واتبعــا مــا يضــعه الرب في قلوبكما ، وبعد هذه الرؤيا المباركة لأندروز المبارك تــذللا أمــامه ، ليس أنتما فقط ، بل إجعــلا جميع إخــوانكما يفعلون ذلك أيضــا ، واجعلا بكل وسيلة السلام وحــب الرب يســود بينكمــا ياريمـــوند وبوهيموند ، لأنكما إذا اتفقتما ، لن تســتطع قــوة أن تحــطمكما ، وجدير بكما أن تعلنا عن العدالة التي مــن المتــوجب أن تقيمــانها : إجعلا جميع الرجال الموجودين يعلنون على الملأ بوساطة أسقف كل

منهم مبلغ ثرواتهم وقيمتهـا ، وأن يسـاعدوا الفقـراء كل حسـب مقدرته ، وحسب الحاجة إلى هذه المساعدة ، وتصرفوا وفقا لاتفاق عام ، وإذا لم يريدوا مراعاة هذه القـاعدة وغيرهـا مـن القـواعد العائلة ، اكبحوا جماحهم ، وإذا مارغب أي واحد منهم في امتـلاك أية مدينة « منحها الرب من أجل المسيحيين فليسـلك المسـلك الذي يتفق مع الوصايا المذكورة ، وإذا لم يفعل فليعاقبه الكونت مـع أبناء الرب ».

وفي البداية لاقت وصايا وتنبيهات القديس أندروز التصديق ، بيد إنه سرعان ماغدا نصيبها التجاهل ، فقد قال بعض الحجاج : فلترد انطاكية إلى الكسيوس ، غير أن آخرين اعتـرضوا،وأثناء حصـار عرقة فيما بعد ، بينما كان بطرس بارثلميو يرقد على فراش الموت ، استدعى الكونت وأوصاه بقوله : عند وصـولك إلى القـدس وجـه أوامرك إلى الجيش للصلاة إلى الرب حتى يطيل عمـرك ، ولسـوف يضاعف الرب حياتك ، ولدى عودتك ضع الحربة على بعـد خمسـة فراسخ من كنيسة القديس تروفيموس ، ومـر ببناء كنيسـة هناك ، وأوقف ــ بيمين ــ مالا كثيرا عليها .

و اياك أن تسمح باقتراف أي إثـم في هـذا المكان ، و أطلق على هذا المكان اسم جبل البهجة ،و لعل هذه الأشياء تنفذ في بـروفانس لأن بطرس المبارك وعد حـواريه تـروفيموس أن يسـلمه الحـربة المقدسة

واهملت مصالح المعدمين « الطافور » بسبب الصراع والشقاق ، ولم يحدث شيء بخصوص الوصية التي تلقاها القادة مـن القـديس اندروز ، وفي تلك الاثناء حاصر اتراك حلب قلعة تسمى عزاز ، وقلق الاتراك المحاصرون داخلها واشتد عليهم الامر فطلبوا من غودفـري الذي كان في منطقة قريبة منهم ان يسلموه قلعتهم ، لانهم يفضـلون سيدا فرنجيا ، وبناء عليه استدعى الدوق لدى عودتـه الى انطـاكية ريموند الذي كان قد تعافى من مرضه ، واسـتدعى هـو معـه جميع

فرسانه ورجالته الذين كان الكونت قد قادهم الى اراضي المسلمين لنهب الارياف لصالح المعدمين ، كما والح في طلبه من ريموند الاسراع من اجل الرب ، ومن اجل شرف جيش الفرنجة في التوجه الى مساعدة الاتراك المرتدين ، الذين كانوا انذاك يستصرخون الرب ، واوضح ايضا ان الاتراك المحاصرين رسموا علامة الصليب في مواجهة الاف القوات المحاصرة لهم ، وسار الكونت نتيجة لهذه المطالب ومعه غودفري ، وتخلى الاتراك عن حصار عزاز لدى سماعهم بهذه الانباء ، وبناء عليه عند وصول جيشنا اليها ، اخذ الدوق رهائن من القلعة لضمان ولاء عزاز له في المستقبل ، وعاد ريموند الى انطاكية بعد ما تكبد جيشه نفقات كبيرة ، وهنا استدعى فرسانه لكي يقود الناس المعدمين الى اراضي المسلمين بعدما تدنت معنوياتهم بسبب الجوع والتعب .

وفي الوقت نفسه تجلى القديس اندروز لبطرس بارثلميو في خيمة في قلعة الروج التي كان يحتلها اسقف أبت وريمون دي جيل كاهن الكونت ، وكان اسم الاسقف سيمون ، وعندما سمع سيمون الحديث بين القديس اندروز وبطرس ستر راسه ، وكما قال فيما بعد : انه سمع كثيرا مما دار ، ولكنه لم يتذكر الا : سيدى ، انني اقول ....

ومع ذلك ، اضاف اسقف ابت : انني لست على يقين فيما اذا كان مارايته حلما ام لا ، لكنني رايت رجلا متقدما بالسن يرتدي عباءة بيضاء ويمسك بين يديه حربة الرب المقدسة ، وقد سالني : هل تؤمن بان هذه الحربة هي حربة يسوع المسيح ؟ فاجبته بقولي : نعم انني اومن بذلك ياسيدي ، ولدى تكراره السؤال مرة ثانية وثالثة اجبت قائلا : حقا انني مؤمن بان هذه هي الحربة التي اسالت الدم من جنب يسوع المسيح ، وهو الدم الذي افتدى به الجميع .

ثم حركني – ريمون دي جيل – اسقف ابت ، وكنت نائما على

مقربة منه ، وعندما افقت لاحظت الضوء غير العادي ، وشعرت كما لو ان النعمة الالهية قد حلت في روحي ، واستفسرت من اصدقائي الحضور عما اذا كانوا يشعرون كما انهم بين مجموعة تحركها عاطفة هائلة ، فاجابوني جميعا : لا ، حقا ، وبينما كنت اردد ماسبق ، اجاب بطرس متلقي الوحي السماوي : انك رايت فعلا نورا مبهجا ، لان الرب صاحب النعم جميعا ، كان يقف في هذه البقعة لمدة طويلة .

وعندما طلبنا منه ـ بطرس ـ أن يسرد علينا كلمات زواره السماويين ذكر لنا وللكونت مايلي : جاء الى هنا في هذه الليلة الرب مع اندروز المبارك بشكلهما المعتاد ، وبصحبتهما رفيق صغير ، له لحية طويلة ، وكان يرتدي ثوبا من الكتان ، ثم ان اندروز المبارك زجرني بقسوة فقد اسخطه انني تخليت عن رفات جسده الموجود في الكنيسة في انطاكية ، وقد تهددني بعنف واستطرد يقول : بعدما القاني الكفار من فوق الجبال بدون خشية او احترام ، انكسر لي اصبعان ، وبعد موتي حفظهما هذا الرجل ، وبعد ذلك نقلهما الى انطاكية ، غير انك لم تهتم كثيرا بأثاري بعدما عثرت عليها ، فسمحت بسرقة احدهما ، ورميت بالاخر بشكل مشين ، ثم اراني يده التي كان ينقصها اصبعان .

ثم استطرد بطرس يقول : ايها الكونت ، لقد انتقدك القديس اندروز بكل شدة ، لانك لاتخشى من اقتراف الاثام الخطيرة والشريرة ، وذلك على الرغم من انك تلقيت الهدية التي لاتوصف والتي حفظها لك الرب وحدك ، وهذا هو السبب في ان الرب قد اعطاك العلامة التالية التي هي على وجه التحديد : قدمت منذ خمسة ايام في عيد القديس فيديس (٦ ـ تشرين اول) تقدمة كانت عبارة عن شمعة كبيرة تستغرق ثلاثة ايام وثلاث ليال لتحترق ، ولكنها سرعان ماذابت وهوت الى الارض ، وحدث العكس هذه الليلة فقد قدمت شمعة صغيرة لاتكاد تكفي للاحتراق حتى قبيل صياح الديكة تماما ،

وهى الان تشع بضوئها ولم ينب ثلثها حتى الساعة مـع ان ضـوء النهار قد اشرق الان .

وبناء عليه يطلب منك الرب الاشـياء التـالية : عليك قبـل كل شيء التكفير عن ذنوبك ، ولاتفعل شيئا قبل ذلك واذا لم تلتـزم حبـطت مشاريعك واعمالك ستكون مثل شـمعة ذائبة تهـوي الى الارض ، وسيجعل الرب اعمالك كلها تامة وناجحة باسم الرب اذا مالتزمت ، وسيضاعف الرب جهودك الصغيرة كما جعل هذه الشمعة الصـغيرة التي تراها تبقى وقتا مديدا .

وعلى الرغم من ان ريموند أنكر جسامة اثامه ، فانه اعترف وكفـر عنها بعدما واجهه بطرس بارثلميو بـذنوبه ، واسـتمر بـطرس في توجية خطابه الى الكونت قائلا : ايهـا الكونت ان اندروز المبـارك يعترض على مستشاريك ، لانهم قدموا نصيحة سوء لغـرض مـا ، ولذلك انه يأمـرك ان تتجـاهل مشـورتهم الا اذا اقسـموا على الا يعطوك نصحية غير طيبة وهم يعلمون ذلك ٠

اصغ الي جيدا يا ريموند : ان الرب يأمرك الا تضيع الوقـت ، لانه سيسأعدك فقط بعد الاستيلاء على القدس ، ولاتجعل واحـدا مـن الحجاج يقترب اكثر من فرسخين عندما تـدنو مـن القـدس ، واذا نفذت هذه ألتعليمات فان الرب سيسلمك المدينة .

وبعد هذه الاوامر شـكرني القـديس اندروز كثيرا لانني حققـت تكريس الكنيسة التي شيدت باسمه في انطاكية ، ولم يتكلم حول هذه الامور فقط بل تناول بالحديث امورا اخرى لاتعنينا الان وبعـد ذلك صعد هو ورفيقاه الى عليين٠

الفصل العاشر

الاستيلاء على البارة ومعرة النعمان

تقدم بعد هذا بأمد قصير ريموند وبصحبته الحجاج الفقراء (الطافور) وحفنة من الفرسان ، وتغلغلوا في أرض الشام ، حيث تم لهم الاستيلاء على البارة بكل شجاعة ، وكانت البارة أول مدينة اسلامية على طريقهوهنا قتل الآلاف واستعبد آلافا غيرهم ارسلهم ليباعوا كرقيق في أنطاكية ، وأطلق سراح الجبناء الذين استسلموا قبل سقوط البارة ، وعمل ريموند إثر هذا برأي أمرائه وكهنته فاختار بطريقة تستحق الثناء كاهنا ليكون أسقفا للبارة ، فبعد اجتماع عام تسلق واحد من كهنة الكونت الأسوار ، ثم سأل هذا الكاهن عما إذا كان هناك رجل دين يمكن أن يتلقى ولاء المؤمنين ، ويساعد الكونت واخوته بالتصدي للوثنيين بقدر ما يستطيع.

ووسط الصمت الذي أعقب ذلك ، استدعينا بطرس ، وهو بالأصل من أهل نربونة ، وأوضحنا له على الملأ عبء الأسقفية ، وشجعناه على تولي المنصب إذا كان عازما على الاحتفاظ بالبارة إلى أن يموت ، وعندما وعد أنه سيقوم بذلك ، وافق الناس عليه بالاجماع ، وحمدوا الرب كثيرا لأنهم كانوا يريدون أسقفا رومانيا في الكنيسة الشرقية ، ومنح ريموند بطرس النربوني نصف البارة والمناطق المحيطة بها.

وكانت البارة على مسيرة يومين من أنطاكية ، ومع اقتراب أول أيام تشرين الثاني ، وهو الموعد المحدد لتجمع الحجاج من جديد لمواصلة زحفهم ، ترك ريموند جيشه في البارة وعاد الى أنطاكية مع أسقفه الجديد بطرس وعدد كبير من الأسرى وغنائم كثيرة ، وفي

انطاكية اجتمع الأمراء جميعا فيما عدا بلدوين أخو غودفري ، الذي سبق له أن اتجه ، بعدما انفصل عن جيش الحجاج الرئيس ، نحو الفرات ، وكان ذلك قبل الاستيلاء على انطاكية ، وهناك استولى على مدينة الرها ذات الشهرة الواسعة والغنى ، وخاض بنجاح عدة معارك ضد الأتراك.

وقبل أن انتقل للحديث عن أحداث أخرى لا بد من أن أروي لكم القصة التالية: عندما كان غودفري في طريقه الى أنطاكية مع أثني عشر فارسا ، قابل مائة وخمسين من الأتراك ، فلم يتردد مطلقا ، ولم يجبن بل أعد أسلحته وشجع فرسانه ، وهاجم العدو بكل شجاعة ، غير أن المسلمين آثروا - مرغمين - الاختيار الأحمق للموت بدلا من النجاة بالفرار ، فترجل بعضهم لكي يطمئن الأتراك الخيالة الى أن رفاقهم الرجالة لن يتخلوا عنهم ويلوذوا بالفرار ، ونشب قتال عنيف هاجم خلاله فرسان غودفري العدو بكل شجاعة ، وكان عدد هؤلاء الفرسان يساوي عدد الرسل الأثني عشر ، كما كانوا يؤمنون بكل يقين أن الدوق هو كاهن الرب ، ووهب الرب الدوق نصرا مبينا ، حتى أنه قتل حوالي الثلاثين من المسلمين ، وأسر مثل هذا العدو وطارد الهاربين ، فقتل عددا كبيرا منهم أو سبب غرقهم في المستنقع والنهر القريبين ، وعاد غودفري الى أنطاكية ظافرا في نصر بهيج ، وقد حمل الأسرى من الأعداء رؤوس رفاقهم القتلى.

وعقد الأمراء اجتماعا في كنيسة بطرس المبارك ، حيث أخذوا يخططون لاستئناف الزحف نحو القدس ، وسأل بعض من كانوا يحتفظون بقلاع أو أملاك مؤجرة في المناطق المحيطة بأنطاكية: ماذا سيتم بشأن انطاكية ، من الذي سيحرسها ، ذلك أن الكسيوس لن يأتي ، وتذكروا أنه هرب عندما سمع أن كربوغا قد حاصرنا ، لأنه لم يكن لديه ثقة بقوته أو بجيشه الكبير ، هل سننتظره أكثر مما انتظرناه؟ من المؤكد أن من أجبر أخواننا ومن جاء الى مساعدة الرب على التراجع لن يقدم لمساعدتنا ، ومن جانب آخر: إننا إذا ما

تخلينا عن أنطاكية واستردها الأتراك ، فإن النتيجة ستكون أشـد ضررا وخطورة من الاحتلال الأخير ، لنعطها لبوهيموند ، فهو رجل عاقل وحكيم يخشى المسلمون جانبه ، وهو رجل سيحميها جيدا.

ولكن الكونت ومعه آخرين اعترضوا على ذلك قائلين: لقد أقسمنا على صليب الرب ، وأكليل الشوك ، وآثار مقـدسة كثيرة ، أننا لن نحتفظ بدون موافقة الامبراطور ، بأي مـدينة أو قلعـة في مناطـق نفوذه.

ولهذا انقسم الأمراء وتنافروا بسبب هذه الاختلافات ، وتكلموا بعنف شديد حتى كادوا يلجأون الى السلاح ، وفي الحقيقة لم يهتـم غودفري وروبرت كونت فـلاندرز كثيرا بمسـألة أنطـاكية ، وكانا يؤيدان سرا تملك بوهيموند لها ، ولكنهمـا خـوفا مـن عار الحنث باليمين لم يتجرأ أي منهما على التـوصية له بهـا ، ونتيجـة لذلك تأجلت الرحلة ، وكل ما يتعلق بها مـن مسـائل ، وكذلك الاهتمـام بالفقراء (الطافور).

وبدأ الناس بعدما راقبوا عن كثـب هـذه الضـجة بين الأمـراء يصرحون أولا بشكل سري ثم جاهروا بعد ذلك قائلين: من الواضـح أن قادتنا غير راغبين في قيادتنا الى القدس ، إما بسبب الجبـن أو بسبب اليمين الذي أقسموه لألكسـيوس ، لماذا لا نقـدم نحـن على اختيار فارس شجاع يمكن أن نعتمد عليه ونأمنه على أنفسنا ونحن في خدمته ، وبذلك سنصل بمشيئة الرب الى القبر المقدس معه وهـو قـائد لنا ، يا الهـي ، لقـد مضى عامـان علينا في أرض المسلمين ، وفقدنا مائتي ألف جندي ، ألا يكفي هذا؟ لنتـرك الذين يطمعون بذهب الامبراطور ، أو ريع أنطاكية ، يحصـلون على مـا يودون ، أما نحن الذين هجرنا أوطاننا في سبيل المسيح ، لنستأنف زحفنا معه قائدا لنا ، وليمت الطامعون بانطاكية في تعـاسة وشـقاء مثلما مات سكانها منذ أمد قصير واذا مااستمر النزاع حول انطاكية فلنهدم الأسوار ، عندها فقط سيعود زمن حسن النوايا بين الأمراء

كما كان عليه الحال قبل الاستيلاء على المدينة ، ولايمكن ذلك الا مع تدميرها ، والا فإن علينا ان نعود ألى بلادنا قبل أن ينهكنا الجـوع ويهدنا التعب.

وأثرت هذ الآراء وغيرها بريموند مـع بـوهيموند ، فعمـلا على تسوية الخلافات بينهما ، وفي تاريخ محـدد صـدرت الأوامـر الى الناس بالاستعداد لاسـتئناف رحلة الحـج ، وعند اكتمـال كافـة التفاصيل المتعلقة بالاستعداد للزحف ، تقدم كونت صنجيل مع كونت فلاندرز ومعهما الناس للدخول الى ارض الشـام في اليوم المحـدد ، وحاصروا اولا معـرة النعمـان الغنية وذات التعـداد الكبير مـن السكان ، وتقع المعرة على ثمانية أميال من البارة ، وبسبب قتـال سالف جرى معنا وتكبدنا فيه خسائر فادحة ، فقد عير أهـل المدينة المتعجرفون قادتنا ، وشتموا رجالنا ، ودنسوا صلباننا أثبتـت على أسوار المدينة ليثيروا غضـبنا ، وفي اليوم التـالي لوصـولنا عظـم غضبنا وأشتد على أهل المعرة ، حتـى أننا أندفعنا نحـو الأسـوار بشكل علني وكنا بلا شك ، سنستولي على معرة النعمـان فقـط لو أننا امتلكنا أربعة سلالم بالاضافة الى السـلمين القصـيرين اللذان كانا بحوزتنا ، ومع هذا صعد رجالنا سلمينا بخوف ، وقرر الأمراء بناء الآلات ، وبث الحسك ، واقامة حواجز ترابية يمكن منهـا أن نصل الى السور ، فنهدمه ونسـويه بـالأرض ، وبينمـا كان هـذا يحدث ، وصل بوهيموند وحاصر قطاعا من معرة النعمـان ، وكمـا ذكرنا من قبل ، لم تكن استعداداتنا كافية ، غير أنه بعـد وصـول الوافد الجديد تشجعنا لأن نفكر بشن هجـوم جـديد بـواسطة ردم الخندق المليء بـالماء والمحيط بـالسور ، غير أن هجـــومنا الجديد ، كان أكثر تعاسة من الأول ولم يكن مجديا.

وإنه لما يحز بنفسي أن أذكر أن المجاعة التي تلت ذلك جعلت أكثر من عشرة آلاف رجل يتبعثـرون كالماشـية في الحقـول ، ينبشـون ويبحثون عن حبـوب القمـح أو الشـعير أو الفـول أوأي خضراوات ، وعلى الرغم مـن اسـتمرار العمـل في اعداد الات

الهجوم ، فإن بعض رجالنا بلغ من تأثرهم بـالبؤس الذي ألم بهـم وبجراة المسلمين ، أن فقدوا الأمل في رحمة الرب وولوا الأدبار.

غير أن الرب المحامي عن عباده ، أشفق الآن على شعبه ، عندما رآه في حمأة اليأس والقنوط ، وهكذا استخدم الرسولين المباركين: بطرس وأندروز ليبلغنا بمشيئته وبسبل تلطيف أمره القاسي ، ففـي منتصف الليل دخلا الكنيسة الخاصة بـالكونت ، وأيقـظا بـطرس بارثلميو ، وهو الرجل الذي كانا قـد أظهـرا له الحـربة ، غير أن بطرس بارثلميو الذي استيقظ فجأة ، اعتقد عندما رأى شـخصين قبيحين في ملابس قذرة يقفان الى جـوار الاناء الثمين الذي يضم الآثار المقدسة ، اعتقد بالطبع أنهما من الصعاليك اللصوص ، وكان القديس أندروز يرتدي قباء كهنوتيا قديما ممزقا عند الأكتاف ، فقد كان على الكتف الأيسر رقعة من القماش ، بينما كان الكتف الأيمن عاريا ، وكان يحتذي حذاءا رخيصا ، وكان بطرس يرتدي قميصـا خشنا من الكتان يصل الى عقبيه ، وسألهما بطرس بارثلميو: مـن أنتما ياسيدي وماذا تريدان؟

وأجابه بطرس المبارك: اننا رسـولا الرب ، أنا بـطرس وهـذا أندروز ، وقد اخترنا هذا الملبس حتى ترى المكاسب العظيمة التـي ينالها من يخدم الرب باخلاص ، لقد قدمنا على هـذه الحـالة ، وفي هذه الهيئة الرثة ، بالضبط كما ترانا أنت ، الى الرب و الآن أنظـر الينا ، وبعد هذ الكلمات أصبح بطرس وأندروز أكثر تـألقا وأبهـى مما يمكن أن تعبر عنه الكلمات ، وخرّ بطرس بـارثلميو الى الأرض كما لو كان ميتا ، وقد اسـتبد بـه الرعب للوميض المفـاجىء مـن النور ، ومن شدة خوفه تصبب منه العرق حتى بلل الحصيرة التـي وقع عليها ، فساعده القديس بطرس على الوقـوف وقـال له: لقـد وقعت بسهولة.

ورد بطرس بارثلميو: نعم يا سيدي ، ثم شرح القـديس بـطرس الأمر بقوله: هكذا سيقع كل الكفار والمعتدين على أمـر الرب ، غير

أن الرب سيرفعهم مثلما رفعتــك بعــد ســقوطك ، إذا ندمــوا على أعمالهم الشريرة واستغاثوا بالرب ، زد على هذا أنه لطالما عرقــك على الحصيرة ، الرب سيرفع مــــن يســــتغيثون بــــه ويمحــــو ذنوبهم ، لكن أخبرني: كيف يتدبر الجيش أموره؟

وأجابه بطرس بارثلميو: بالتأكيد لقد أثارت المجــاعة قلق أفــراد الجيش ، وهم في تعاسة بالغة ، وهنا اندفع بطرس قائلا: إن الذين تركوا الرب وراء ظهورهم لابد من أن يخافوا ، لأنهم نسوا المخاطر التي أنقذهم الرب منها ، ولم يقدموا له الحمد والشكر ، إنك ناديت الرب عندما كنت راكعا ، وناديته عند أنطاكية ، حتى أننا ســمعناك في السماء ، نعم لقــد ســمعك الرب وقــدم لك دليلا على انتصــاره لك ، وهكذا منحــك نصرا رائعــا ومجــدا عظيمــا على الذين كانوا يحــاصرونكم وعلى كربــوغا. لقــد أنيت الرب كثيرا ، الآن أي رب تؤمن به أنت بالذات حتى تأمن على نفسك؟ هــل تســتطيع الجبــال الشاهقة ، أو المغائر الخفية أن تحميك؟ إنك لن تكون في مأمن حتى في أشد المرتفعات منعة ولو كان معــك كل مــا تحتــاج اليه مــــن ضروريات ، لأن مائة الف خصم سيهددون كل واحــد منكم ، إن في صفوفكم القتل والنهب والسرقة ، فضلا عن انعدام العدالة كمــا أن هناك زنا ، مع أنه مما يســعد الرب أن تتــزوجوا ، وفيمــا يختص بالعدالة إن الرب يأمر أن تكون جميع السلع الموجودة لدى الشخص الظالم المستبد بالفقراء ملكية عامة ، وأن تؤدوا عشوركم ، واعلموا أن الرب على اســتعداد لأن يعــطيكم كل مــا تحتــاجون اليه ، إنه سيعطيكم معرة النعمـــان بســـبب رحمتــــه لا بســـــبب أعمالكم ، حاصروها الآن في أي وقــت تــرغبون ، افعلوا ذلك لأنكم ستأخذونها بدون ريب.

وفي الصباح التالي سمع الكونت بخبر هذ التجليات ، وبناء عليه قام ومعه أسقفا البارة وأورانج باستدعاء الناس جميعا الى اجتماع عام ، وتصدق المؤمنون تحــدوهم الآمــال الكبيرة بــالاستيلاء على المدينة ، تصــــدقوا بســـخاء ، وقـــدموا الصـــلوات الى الرب

القدير ، ليحرر شعبه المسكين من أجل اسمه فقط ، وبعد استكمال هذه الاستعدادات الروحية ، صنعت السلالم بسرعة وأقيم برج خشبي ، وأقيمت السواتر ، وبدأ الهجوم عند نهاية اليوم ، وأطلق المحاصرون من داخل معرة النعمان الأحجار من المجانيق والنبال والنيران ، وخلايا النحل ، والجير على رجالنا الذين تمكنوا من تدمير اسوارهم ، وبفضل قدرة الرب ورحمته ، لم يصب أحد ، هذا من جانب ومن جانب آخر هاجم حملة الصليب الأسوار بكل جراة ، واستخدموا الصخوروالسلالم في هجوم استمر من طلوع الشمس حتى غروبها ، حقا لقد كان قتالا مخيفا لم يسترح فيه احد ، ولم يشك أحد في نتائجه الظافرة ، وأخيرا ابتهل الجميع الى الرب أن يكون رحيما بشعبه وأن ينفذ وعود رسله.

وأعطانا الرب الموجود دوما المدينة حسبما وعد رسله ، وكان أول من تسلق الأسوار جوفيبه أوف لاستورز ثم أعقبه مسيحيون آخرون هاجموا الأبراج والدفاعات ، غير أن الليل أوقف القتال وما زالت بعض أبراج المدينة وأجزاء من المدينة نفسها في أيدي المسلمين ، وتوقع الفرسان وقفة مقاومة أخيرة في الصباح المقبل ، فارتعدوا وحرسوا الاسوار الخارجية للقضاء على أي شخص يحاول الهرب ، غير أن بعض حملة الصليب ممن لم يعبأ بحياته ، لأن الجوع جعلهم يحتقرون الحياة استمروا في مقاتلة أهل المعرة تحت جنح الظلام ، وهكذا حصل الفقراء (الطافور) على حصة الأسد من الغنائم والبيوت في معرة النعمان ، ولم يجد الفرسان الذين انتظروا حتى الصباح ليدخلوا سوى بقايا ليس لها قيمة ، وفي هذه الأثناء كان المسلمون يختبئون في مغائر تحت الأرض ، وبالفعل لم يظهر منهم أحد في الشوارع ، واستولى المسيحيون على جميع السلع التي كانت فوق الأرض ، ودفعتهم الآمال للحصول على ثروات المسلمين المخبأة تحت الأرض ، فأطلقوا الدخان والنيران والأبخرة الكبريتية على الأعداء لاخراجهم من مغائرهم ، وخيب نهبهم للمغائر امالهم ، وعندها

عذبوا كل واحد من المسلمين وصلت أيديهم اليه ، حتى الموت ، وجرب بعض رجالنا اقتياد المسلمين في الشوارع على أمل معرفة اماكن الثروات والذخائر الدفينة ، وكان المعريون يقودون أسريهم الى

الآبار ، ثم يلقون أنفسهم فجأة ليلقوا منيتهم ، مؤثرين بذلك الموت على كشف الذقاب عن أماكن الامتعة والذخائر العائدة لهم أو لسواهم ، وهكذا لاقوا بسبب عنادهم الموت جميعا ، وقد رميت جثث المعريين في السباخ والاماكن الواقعة خلف الاسوار ، وعلى العموم ، ولما تقدم من أسباب لم تمنحنا المعرة الكثير من المنهوبات .

ومع ان فرسان بوهيموند لم يكونوا على درجة عالية من النشاط أثناء الحصار ، فقد نالوا عددا اكبر من الأبراج والخيول والأسرى ، وسبب هذا قيام شعور بالاستياء بين البروفنا سيليين والنورمان ، وقضت ارادة الرب آنذاك أن ترينا أمرا معجزا .

وحسبما سلف بي الذكر ، وعلى الرغم من أننا شرحنا للناس قبل الاستحواذ على معرة النعمان الاوامر والتوجيهات الرسولية لكل من بطرس وأندروز ، لكن بوهيموند وأصحابه سخروا منا ، وفي الحقيقة شكل بوهيموند واتباعه النورمان عقبة ولم يكونوا عونا ، ولهذا كان من الطبيعي أن حاشية ريموند كانت غاضبة وغير راضية لان النورمان استحوذوا على الشطر الاعظم من الاسلاب ، وفي الختام اختلف المقدمون ، فقد عزم ريموند على اعطاء المعرة الى اسقف البارة ، غير ان بوهيموند تشبث بعدد من الابراج التي استولى عليها واطلق تحذيرا قال فيه : « إنني لن أتفق مع ريموند حول أي مسالة ما لم يتنازل لي عن ابراج انطاكية المحتفظ بها » وفي لجة هذه الفوضى والشحناء مضى الفرسان وعامة الناس يتساءلون متى سيتفضل السادة البارونات في استئناف الزحف ، لانه على الرغم من أن الزحف العام قد بدأ منذ أمد بعيد ، غير أن كل يوم بدا كما لو انه بداية حملة صليبية جديدة ، ذلك أن الهدف المنشود لم يتحقق بعد ، واوضح بوهيموند انه لن يستانف الرحلة

قبل عيد الفصح ، فقد حل الان عيد ميلاد مولانا المسيح ، وهكذا فقد عدد كبير الامل ، وتحولوا راجعين وذلك بسبب هذه المواقف ولقلة الخيول ولغياب غودفري وهجرته مع عدد كبير من الفرسان الى بلدوين صاحب الرها .

وبعد لأي اجتمع اسقف البارة مع عدد من النبلاء وجمهور من المعدمين ، وطلبوا من الكونت ريموند تقديم العون ، فبعد ما فرغ الاسقف من عظته انحنى أمام الكونت الذي تسلم الحربة المقدسة ، والتمسوا منه - والدموع تنهمر من عيونهم - أن يجعل نفسه قائدا الجيش ومقدما له ، وذلك لما تضفيه عليه حيازته للحربة المقدسة من مزايا ، ولكونه محط فضائل الرب ونعمائه ، فانه لن يخاف من الاستمرار في قيادة الرحلة بامان مع حشود الفرنجة ، واذا ماتوانى تلكأ الكونت ريموند في تحمل اعباء ذلك يتوجب عليه تسليم الحربة لجمهور الحجاج ، فعندها سيستانف هؤلاء زحفهم نحو الاراضي المقدسة تحت قيادة الرب ، ولاطفهم الكونت ريموند ، ولم يحدد موعدا لاستئناف الرحيل ، خشية منه الا يتبعه البارونات المسافرين ، لانهم كانوا ينظرون اليه بعين الحسد والغيرة .

ولنعمل على انهاء هذه الحكاية المحزنة ، فقد كانت الغلبة لدموع المعدمين ، واضطر ريموند الى تحديد يوم الخامس عشر موعدا لاستئناف الرحيل ، واثار هذا غضب بوهيموند ، فاعلن في جميع ارجاء المدينة ان تاريخ الرحيل سيكون اليوم الخامس او السادس ، ثم مالبث ان عاد الى انطاكية مباشرة ، وهنا انبرى ريموند مع اسقف البارة نحو الاهتمام بتجهيز الحملة ، واختارا الاشخاص وحددا عددهم ، وطلب الكونت ريموند ، في الوقت نفسه من غودفري والذين كانوا معه خارج معرة النعمان ، التجمع في مكان محدد واحد ومن ثم القيام باجراء الاستعدادات اللازمة لاستئناف الزحف .

ثم اجتمع البارونات وعقدوا مؤتمرا في قلعة الروج الواقعة في

منتصف الطريق بين انطاكية ومعرة النعمان ، بيد ان مـؤتمرهـم لم يسفر عن اتفاق ، لان المقدمين وعدد كبير ممن سواهـم لاسيما مـن اتباعهم عرضوا العديد من المعاذير التي تعوق استئناف الزحـف ، ونتيجة لذلك دفع الكونت ريمـوند الى كل مـن غودفـري وروبـرت النورماندي مبلغ عشرة الاف صولدي لكل واحد منهما ، ومبلغ ستة الاف لروبرت كونت فـلاندرز ، وخمسـة الاف لتـانكرد ، ومبـالغ مناسبة لاخرين فاشترى موافقتهم .

وفي تلك الآوانة راجت انباء بين المعدمين افادت ان ريمـوند قـد خطط لمركزة شحنة عسكرية في معرة النعمان تضم عددا من فرسان الجيش ورجالته ، وهنا سخط المعدمون ودارت الاحاديث فيما بينهم وقالوا : اذن هذا سر الامور ، خـلافات ومشـاحنات في انطـاكية ، ومثل ذلك في معرة النعمان ، فهـل ياتـرى سـتتفجر النزاعات بين البارونات ، ومن ثم تتـدمر جيوش الرب في كل مـكان يمنحنا الرب اياه ؟ لنضع اذا احدا للصراع هنا ، وحتى يعم السـلام بين القـادة وتنعدم الشحناء ، ولتهدأ خـواطر ريمـوند ويزول قلقـه ، وكيمـا لايضيع الجيش ويتبدد ، هيا بنا لنقوض اسوار المعرة ونهدمها .

وهكذا هـب الجميع حتـى المرضى والضـعفاء ، واقبلوا بعـدما نهضوا من فراشهم واندفعوا نحـو الاسـوار وهـم متـكئين على عصيهم ، وشرعوا في تقويضها ، وكنت ترى الرجل الاعجف النحيف منهم يدفع نحو الامام ونحو الخلف الحجارة الضخمة ، ويلقـي الى خارج الاسوار بحجارة لايكاد ثلاثة ثيران أو أربعة يزحـزحونها في الاحوال العادية ، وتجول اسقف البارة ورجالات ريموند في المدينة ، وهم يحذرونهم ويطلبون منهم التوقف عن اعمـال التخـريب ، لكن الفقراء كانوا يهرولون مبتعدين عن الاسوار ويتخفون عند اقتـراب الاسقف والجند ، انمـا سرعان مـاكانوا يعـودون ويسـتأنفون اعمالهم ، عندما يبتعد هؤلاء عنهم ، اما الذين كانوا يخشون العمل جهارة وكانت تشغلهم مشاغل اخرى ، فـكانوا يعملون اثناء الليل ،

وهكذا كان الجميع يعلمـون ولم يحـل المرض او الضـعف بين اي انسان وبين المساهمة في تدمير الاسوار .

ومالبث ان اصبح شح الطعام حادا الى درجة ان المسـيحيين كانوا يأكلون بكل متعة وتلذذ جثث المسلمين الجائفة التي كانوا قد رمـوها في السباخ قبل اسبوعين أو ثلاثة ، وأثار هذا المشهد الاشـمئزاز في نفوس العديد من الحجاج والغرباء ، ومع تزايد الشح بالمؤن ولتردي الاوضاع فقد الكثيرون الامل في وصـول تعـزيزات فـرنجية فقفلوا عائدين ، وكانت ردات فعـل المسـلمين والاتـراك وتعليقـاتهم على ماشاهدوه قولهم : ان هذا العرق العنيد الذي لايعرف الرحمة ، ولم يزحزحه الجوع او السيف او شـتى المخـاطر لمدة عام عن اسـوار انطاكية ، ويتلذذ بأكل اللحم البشري ، لايمكن ان يقاوم او يقهـر ، من الذي يستطيع ان يفعل ذلك ؟!

وروج المسلمون الكثير من القصص عن هذه الافعال وسواها من الاعمال الخالية من الانسانية ، مما اقترفه الصـليبيون ، ولم ندرك وقتها وقع ذلك وأثره وان الرب قد جعل منا سببا من اسباب الرعب

وبعد ماعاد ريموند الى معرة النعمـان اسـتبدبه انذاك الغضـب وسخط اشد السـخط على اتبـاعه ، ومـع هـــذا أثنى على الرب وشكره ، ثم أمر بتقويض أسس الأسـوار ، وذلك بعـدما اقتنع ان تهديدات أسقف البارة والبارونات الاخرين وقوتهم لن تثني المعدمين عن عزيمتهم ، وفي الوقـت نفسـه كان نقص المؤن وشـح الاطعمـة يتفاقم يوما تلو الاخر ، وصدرت الينا الآوامر بتـوزيع الصـدقات ، والصلاة من اجـل اسـتئناف الزحـف ، ذلك ان اليوم المحـدد كان يقتـرب ، وفي هـذه الأثناء ازداد قلق كونت طـولوز بسـبب تغيب البارونات الكبار ، ولتفاقم اثر المجاعة في اضعاف الرجـال ، ولقـد أصدر أوامـره الى المسـيحيين بـالبحث عن الاطعمـة في الاراضي الاسلامية ، ووعد ريموند انه سيسير مع فرسانه في الطليعـة ، غير

ان بعض اتباعه الغاضبين تشكوا اليه قائلين : ان كل مالدينا لايتجاوز ثلاثمائة فارس وحفنة من الرجالة ، فكيف يمكننا تقسيم القوات بحيث يمضي بعضنا الى داخل الاراضي الاسلامية ، ويبقى بعض اخر بين انقاض معرة النعمان بلا قدرة على الدفاع ، ثم اسهبوا في الحديث حول اضطراب الكونت ريموند وعدم استقراره التام .

ومع ذلك سار الكونت في النهاية نيابة عن الفقراء نحو اراضي المسلمين ، وتمكن من الاستيلاء على بعض الحصون واسر بعض الاسرى ، كما قام بالكثير من اعمال السلب والنهب ، ولدى عودته مبتهجا بظفره بعدما قتل عددا كبيرا من المسلمين ، تمكن المسلمون من قتل ستة او سبعة من رجالنا ، ومن المثير للدهشة البالغة ان تلك الجثث كان مرسوما عليها صلبان على الكتف الأيمن ، ولقد شعر المشاهدون ومعهم الكونت ريموند براحة عظمى لدى رؤيتهم لهذا المنظر ، وقدموا الشكر والصلوات الى الرب القادر على كل شيء ، لتذكره الفقراء من عبيده ، ولتوليه اقناع المتشككين الذين مكثوا في القرب من معرة النعمان مع الامتعة عندما حملوا معهم واحدا من الجرحى الذي كان قد اصيب اصابات مميتة ، لكنه ظل يتنفس ، ولقد رأينا معجزة باهرة في هذا الجريح البائس ، فقد كان جسمه قد مزق ، حتى انه لم تعد توجد فيه بقعة تخفي روحه ، ومع هذا عاش هذا الرجل سبعة ايام او ثمانية لم يذق خلالها الطعام ، وجاء هذا شاهدا في تلك الاونة على ان يسوع الماضي الحكم والارادة بكل تأكيد ، كان هو الرب الذي خلق الصليب الذي حمله على كتفه .

الفصل الحادي عشر

استئناف الرحلة والشروع بحصار عرقة

شجع حسن الطالع مع شارات الصليب الطيبة الباحثين عن الطعام ، فخلفوا غنائمهم عند كفر طاب على مسافة أربعة فراسخ من معرة النعمان ، وعاد ريموند وبرفقته الاصدقاء والاتباع الى معرة النعمان ، وفي اليوم المعين رحل الكونت وكهنته واسقف البارة ، وسار الجميع حفاة الأقدام يطلبون رحمة الرب وحماية الصديقين ، بينما راح اللهب الذي أشعله المسيحيون يعلو أنقاض المعرة ، وسار تانكرد في المؤخرة مع أربعين من الفرسان وأعداد كبيرة من الرجالة ، ولدى سماع حكام المناطق المجاورة أنباء استئناف الحملة ، أرسل سادة العرب الى ريموند يلتمسون المهادنة ويعرضون العروض الكثيرة والوعود الجمة بالاستسلام في المستقبل ، يضاف الى هذا السلع االتي يمكن ابتياعها أو الحصول عليها بالمجان .

وتابعنا الزحف بأمان معتمدين على وعودهم ، وكانوا قد سلمونارهائنهم كضمان ، ومع هذا نعتقد ان الأدلاء الذين بعث بهم الينا حاكم شيزر اساءوا ارشادنا في اليوم الأول ، وكنا وقتها بحاجة الى كل شيء باستثناء الماء الذي توفر عند موقع المعسكر ، غير ان هؤلاء الأدلاء أنفسهم قادونا في اليوم التالي الى واد حشرت فيه ماشية الحاكم والمناطق المجاورة جميعا ، ولعل ذلك كان بسبب ماأشعرناهم به من خوف ، ومع ذلك لوأمر الأقليم بأكمله بإيقاف زحفنا لما استطاع ذلك لأننا امتلكنا ايضا مانحتاج اليه من معلومات ، ففي ذلك اليوم قام ريموند أوف ايل ورفيق له بأسر مبعوث الحاكم ومعه رسائل تحرض جميع السكان على

الجفلة ، ولدى سماع الحاكم خبر اعتقال مبعوثه ، قال : يارجالي تقدموا الى الفرنجة ، عوضا عن الفرار بسرعة من امامهم حسبما امرت من قبل ، لأنه طالما ان الرب قد اختار هذا الجنس فلن اقف معترضا في طريق رغباته ، ثم حمد هذا الحاكم الرب الذي يرزق الذين يخشونه ويلبي حاجاتهم .

وكان مشهد هذا القطيع الكبير ـ غير المتوقع ـ من الماشية ، ثم الاستيلاء عليه سببا دفع فرساننا وميسوري الحال منا الى الذهاب الى شيزر وحمص بأموالهم لشراء الخيول العربية قائلين : مادام الرب قد تكفل أمر اطعامنا فلنتكفل نحن بدورنا شأن الفقراء والجيش ، وهكذا حصلنا على نحو الف من افضل الجياد للحرب ، ويوما تلو الآخر استرد الفقراء عافيتهم ، وغدا الفرسان اشد قوة ، وبدا الحال وكأن الجيش يزداد عددا ، وبتنا كلما تقدمنا بزحفنا كلما زادت نعم الرب علينا ، وعلى الرغم من توفر المؤن ، فقد جرب بعض الأمراء اقناع ريموند بالتوقف عن الزحف بعض الوقت بهدف الاستيلاء على جبلة المدينة الساحلية ، بيد أن تانكرد يعاونه بعض الرجال الشجعان الطيبين حالوا دون ذلك معترضين بقولهم : لقد زارنا الرب وزار الفقراء ، فلماذا يتوجب علينا التحول عن متابعة الرحلة ؟ ألم تكفنا المصاعب السالفة التي اعترضتنا اثناء معركة انطاكية مع البرد والجوع والذي عانيناه من البؤس والشقاء الانساني ، هل علينا وحدنا محاربة العالم كله ، ولماذا ؟ فكروا قليلا وتمعنوا فمن بين مائة الف فارس لم يكد يبقى سوى اقل من الف ، ومن بين مائتي الف من الرجالة المسلحين ، لم يتبق للقتال غير اقل من خمسة آلاف ، هل سنظل نتلكأ حتى تتم تصفيتنا جميعا ؟ هل سيقدم المسيحيون من الغرب اذا سمعوا عن احتلال انطاكية وجبلة وسواهما من المدن الاسلامية ؟ كلا بالطبع علينا الزحف نحو القدس المدينة التي جئنا نسعى نحوها ، ومن المؤكد ان الرب سيمنحنا اياها ، ووقتها فقط سيجلوا سكان المدن الأخرى ، الواقعة على طريقنا مثل جبلة

و طرابلس و صور و عكا ، عنها خوفا من موجة الحجاج الجديدة المقبلة من العالم المسيحي.

وفي الوقت نفسه استمر العرب والأتراك في مهاجمة الساقة يقتلون الضعفاء من الفقراء ويستولون على أمتعتهم ، وبعد واقعتين من هذا القبيل نصب الكونت كمينا وقف فيه اثناء مرور الحجاج ، وهنا عندما اندفع المسلمون الذين لم يرتدعوا ـ وممن كان يحدوه الأمل بالأسلاب ـ خلف جيشنا حسب عادتهم من قبل ، مروا الآن أمام كمين الكونت ، فانقض ريموند وفرسانه عليهم ، فأوقعوا الفوضى بين صفوفهم وقتلوهم ثم عادوا سعداء نحو بقية الجيش ومعهم خيولهم ، وسار ريموند وعدد كبير من الفرسان بعد هذه الواقعة خلف الساقة لحراستها ، وبهذه الواسطة توقف العدو عن محاولاته في اصطياد الفقراء ، ومع هذا الاجراء الاحتياطي سار فرسان مسلحون آخرون مع كونت نورماندي ، وتانكرد وأسقف البارة أمام المقدمة حتى لايستطيع العدو النيل منا من الأمام أو الخلف .

ومما هو جدير بالذكر ان اسقف البارة كان قد خلف في البارة حامية قوامها سبعة فرسان وثلاثين من الرجالة تحت امرة وليم بن بطرس أوف كونيليا كوم ، غير انه بناء على نصيحة الكونت انضم الى الجيش لأن الكونت استهدف زيادة عدد الفرسان الذين كانوا سيزحفون من المعرة الى القدس ، وفي وقت قصير تمكن وليم ـ وهو رجل مؤمن عظيم الاخلاص ـ بمعونة الرب ان ينجح رغبات الأسقف فوق تصوراته ، فبدلا من ثلاثين من الرجالة اصبح لديه سبعون مع ستين او اكثر من الفرسان .

وأثناء اجتماع لنا وافقنا على تجنب مدينة دمشق والزحف نحو ساحل البحر ، لأنه كان بإمكاننا الاتجار مع قبرص والجزر الأخرى اذا ماانضمت الينا سفننا من انطاكية ، وبعد ان ركبنا هذا الطريق وجدنا ان سكان البلاد قد جفلوا من مدنهم وهجروا تحصيناتهم

ومزارعهم ذات المخـازن المليئة ، ثـم وصـلنا الى واد خصـب جدا (وادي النضارة) بعـدما قمنا بـالدوران حـول جبـال عالية ، وواجهنا هنا بعض الفلاحين متفاخرين بأعدادهم وبقلعتهم المنيعة (حصن الأكراد) ولهذا لم يظهروا نحونا ادنى نوايا طيبة و لم يعطونا اية اشارة الى أنهم سيتخلون عن قلعتهم - بـل على العكس من ذلك انقضوا علينا من أعلى جبلهم وقتلوا بعض الأتبـاع المسلحين والرجالة الذين كانوا يبحثون عن الكلأ هنا وهناك وسط الحقول ، وحملوا الأسـلاب الى قلعتهـم ، وزحـف رجـالنا الذين أغضبهم ماجرى نحو سفح الجبل الذي قامت عليه القلعـة ، غير ان السكان لم ينزلوا لملاقاتنا ، وعقدنا مجلسا للحرب ، تشكل بعـده فرساننا ورجالتنا في صفوف تسلقت الجبل من ثلاثة جوانب وهزموا الفلاحين ، و كان تعدادهم ثلاثين الفا مـن المسـلمين الذين كانوا يشغلون القلعة ، ومكن الموقع هؤلاء من التراجع وأعطاهم الفرصة للاعتصام بـالقلعة او في اعلى المنحـدرات وهـكذا اعاقـونا لبعض الوقت .

انما عندما صرخنا بصيحة حربنا :« ساعدنا يارب ، سـاعدنا يارب » مات حوالي المائة من المسـلمين لأنه دب في قلوبهـم الرعب وخافوا خوفا شديدا ، أو لأنهم خنقوا في الازدحـام لدى الاندفـاع للدخول الى القلعة ، وطبعا جرى خـارج الأسـوار ـ كمـا هـي العادة ـ نهب كبير للمواشي والخيول والاغنام ، وحدث هـذا حيث كنا نحارب ، وهنا حدث انه بينما كان الكونت وفرسانه يجـدون في القتال ، طمع المعدمون منا بـالغنائم ، وبـدأ الفقـراء الواحـد تلو الآخر ، ثم الرجالة الفقراء وأخيرا الفرسان الفقراء ، بالتخلي عن ميدان القتال ومن ثم العودة الى خيامهم التي كانت على بعد نحو من عشرة أميال .

وفي الوقت نفسه ، أمر ريموند فرسانه ورجـالته بـالتحصن في مواقعهم ، غير ان المسلمين وقد رأوا صفوف الفرنجة بـدأت تخلوا من المقاتلين ، شرعوا بالنزول من الجبـل مـع الذين كانوا داخـل

القلعة ، واخذوا في رص صفوفهم وتقويتها ، ولم يتنبه ريمـوند الى ماحصل ، وكاد ان يفقد الاتصال بفرسانه عبر ممـر مقفـر شـديد الانحدار ، فهناك سارت الخيول في رتل افرادي ، وفي مواجهة هـذا الخطر تظاهر ريموند بالتقدم مع رجاله وكأنه على نية الهجـوم على المنحدرين من أعلى الجبل مما جعل المسلمين يتـرددون ، وفي هـذه الساعة انعطف الفرنجة وتحولوا نحو منطقة خيل اليهم انها أمنة في الوادي ، وعندهالاحـظت كتيبتـا الأعداء هـذه المناورة ، وكانت احداها على الجبل والأخرى في القلعة ، ولدى مشـاهدتهم قـواتنا تهبط منحدرة من الجبل ضموا قواتهم واندفعوا يهـاجمون رجـال الكونت ، وتحت وطأة الهجـوم سـقط بعض رجـالنا مـن على خيولهم ، بينما اندفع أخرون عبر اماكن شديدة الانحدار فسـقطوا وهكذا افلتوا من الموت بـأعجوبة ، غير ان بعضـهم مـات ميتـة بطولية .

ومن المؤكد ان ريموند لم يتعرض قط لمثل هذا الخطر الذي كاد ان يفقده حياته ، ولهذا حنق في نفسه حنقا شديدا ، وغضب على قواته اشد الغضب حتـى انه لدى عودتـه الى الجيش وجـه التهمـة الى فرسانه علنا داخـل المجلس بـالتخلي عن القتـال بـدون اذن منه وبتعريض حياته للخطر ، وهنا اقسم الجميع وتعاهدوا على متابعة الحصـار الى ان يجعلوا القلعـة ببـركة الرب دكا دكا . لكن الرب مرشد المسيحيين وحاميهم من كل الكوارث لم يحجهم الى هذا ، فقد القـى الرعب في قلوب المدافعين الى حـد انهـم في تعجلهـم بالفرار ، تخلوا عن موتاهم فلم يدفنوهم ، وفي الصباح لم نجـد في انتظارنا سوى غنائم الحرب ، وقلعة يسكنها الأشباح :

وتـأثر رسـل امير حمص وحـاكم طـرابلس ، الذين كانوا في معسكرنا اثناء هذه الوقائع ، بمنظر شجاعتنا وبقوتنا ، فتـوسلوا الى ريموند ان يأذن لهـم بـالانصراف مـع وعد بـالعودة سريعا ، وبالفعل رحلوا مع مبعوثنا وبعد امد قصـير عادوا محملين بالهدايا الفخمة ومعهم خيول كثيرة ، وكان سبب هـذا كله الخـوف

الذي استبد بالمنطقة بأسرها بعد أخذنا للقلعة التي لم يكن بـامكان احد نيلها من قبل ، زد على هذا ، بعث سكان المنطقة بـرسالة الى ريموند ، والتمسوا منه ارسال راياته واختامة حتى يتسلم مـدنهم وقلاعهم ، واذكر ان العادة جرت في جيشنا وقضت باحترام راية اي فرنجي وعدم مهاجمة الموقع المرفـوعة عليه ، وهـكذا رفـع حـاكم طرابلس رايات الكونت على قلاعه .

ونتيجة لهذا التحول وضح ان شهرة كونت طولوز لاتفوقها شهرة ومكانـة لاتعلوها مكانة قائد فرنجي أخر ، وتـوجه بعض فـرساننا كمبعوثين الى طرابلس ، وهناك بهرهم الثراء الملكي الذي شـهدوه وراعتهـم الممتلكات الغنية و المـدينة المزدحمـة بـالسكان ، ولذلك اقنعوا ريموند بأن حاكم طرابلس سوف يمنحه خلال اربعـة ايام او خمسة كميات من الذهب والفضة كبيرة تقر عينه بهـا اذا مـاحاصر عرقة ، وعرقة موقع حصـين جـدا ، لايمـكن لقـوة بشرية التغلب عليه ، ومع هذا حاصرنا عرقة بناء على رغبـاتهم ، وهـكذا جعلنا رجالا شجعانا منا يعانون متـاعب لم يعـرفها أحـد ، ويؤسـفني القول : اننا تحملنا خسائر هائلة كان منها العـديد مـن الفـرسان المميزين ، وقد مات واحد من هؤلاء الفـرسان واسـمه بـونز أوف بالازون نتيجة اصـابته بحجـرة اطلقـت عليه مـن عرادة ، وكانت توسلاته هي التي جعلتني أواصل هذا العمـل الذي تجشـمت عناء كتابته من أجل جميع أصحاب العقيدة المسـتقيمة ، لاسـيما الذين يعيشون وراء جبال الألب ، ومـن اجلك أنت ، ياصـاحب النيافـة أسقف فيفييه .

وسأحرص عظيم الحرص بالهام من الرب الصانع الحقيقي لهذه الأحداث ، على اكمال روايتي بالحب نفسـه الذي بـدأت بـه داعيا وراجيا أن يثق كل من سيسمع بهذه الأشياء بحقيقتهـا ، وليثقلني الرب بأهوال الجحيم ، وليمحـوا اسـمي مـن سـجل الأحياء اذا اضفت ـ بدافع الحماس لأي شـخص أو الكراهية ـ اي شيء الى هذا الكتاب غير ماصدقته او رايته ، وعلى الرغم من جهلي لأشياء

كثيرة انني اعرف ان من واجبي ـ منذ ان تقدمت الى الكهنوت على صليب الرب ـ ان اطيع الرب ، وان احكي الحق ، والا الفق الأكاذيب ، وبودي الاستمرار بالود نفسه والمحبة ذاتها في سرد اخبار تاريخي ، حسبما حث بولس على ذلك عندما قال : « ان المحبة لاتسقط ابدا وليساعدني الرب » (الرسالة الأولى الى أهل كورنثوس : ٨/١٣)

وفي أثناء الحصار المطول كانت سفننا القادمة من انطاكية واللاذقية مع السفن الاغريقية وسفن البنادقة ترسو و بها الحبوب والنبيذ والشعير ولحم الخنزير وسلع أخرى يمكن بيعها ، ومع هذا سرعان ماابحر البحارة عائدون الى موانيء اللاذقية وطرطوس لأن عرقة وقعت على مسافة ميل من البحر ، ولم تجد السفن مكانا ترسو فيه ، وكان المسلمون قد جفلوا من طرطوس قبل حصار عرقة وطرطوس مدينة جيدة التحصين لها أسوار داخلية وخارجية ، كما كان بها كميات كبيرة من المؤن ، وقد هجرها سكانها بسبب الرعب الذي بثه الرب في قلوب المسلمين والعرب في هذه المنطقة ، وهو رعب جعلهم يوقنون اننا كنا نمتلك قوى كبيرة ، وننوي تدمير بلادهم بلا شفقة .

ومع ذلك امطرنا الرب بمختلف انواع المصائب وذلك انه لم يشأ مساعدتنا في حصار قمنا به في سبيل مصالح ظالمة وليس في سبيله ومن المثير للدهشة ان المسيحيين بعدما كانوا متشوقين للمعارك ويستعدون لها باتوا الآن لايميلون الى القتال ولايتمتعون بالحيوية ، ومع هذا سار جند المسيح الملهمين اما جرحى او مرهقين بعد ماحاولوا عمل كل شيء ، لكن وجدوا ان لاطائل من وراء جهودهم .

و في أثناء حصار عرقة مات انسلم اوف ريبمونت ميتة مجيدة فقد افاق صباح ذات يوم فاستدعى كاهنة اليه واعترف بزلاته واثامه وطلب الرحمة من الرب ، وتحدث انه على وشك الموت ، ووقف الذين

سمعوه مندهشين لان ماقاله صدمهم ولان انسلم بداسليما معـــاق ، وهنا هتف بهم قائلا : لاتندهشـوا واصــغوا الي : رايت في الليلة المنصرمة اللورد انجلراند من سان بول ، وكان قد مات في المعــرة ، وسألته وانا في كامل وعيي : ماالذي يجـري هنا ، انت مـت واراك الان هنا حيا ؟ فرد علي لورد انجلراند : ان الذين يقتلون في خــدمة المسيح لايموتون ابدا ، فسالته مجددا عن مصـدر بهــائه المنقــطع النظير فاجابني قائلا : ليس في هــذا مــا يدهش لانني اعيش في دار رائعة ، وفي الحال أراني بيتا في عليين رائعا ومريحا لم أر ما يضاهيه ، و بينما وقفت مذهولا أمام المشــهد قــال لورد انجلراند هناك بيتا اجمل منه كثيرا معد لك غدا ، وبعد ذلك صعد .

وبعدما انتشرت هذه الحكاية انتشارا واسعا ، تقــدم انســلم في اليوم نفسه الى قتال بعض المسلمين الذين تسللوا الى خارج قلعتهم على امل الاستيلاء على شيء او اصابة شخص ما ، وفي القتال الذي اعقب ذلك قاتل انسلم بــكل شــجاعة ، غير انه اصــيب في راســـه بصخرة من حجارة المنجنيق فتــرك هــذا العــالم ليعيش في بيتـــه السماوي الذي اعده له الرب .

وقدم بعد ذلك الى عرقه رسول من عند ملك بابليون (مصر) مع رسلنا الذين سرحهم بعدما حبسهم عنده لمدة سنة ، وكان هــذا الملك مترددا بين اختيارنا او اختيار الاتراك ، وقد عرضـــنا على رســوله الشروط التالية : ان هو ساعدنا في القدس او اعاد هذه المدينة الينا مع ما يتبعها فاننا سنعيد اليه مدنه السالفة التي كان الاتــراك قــد انتزعوها منه وذلك في حالة استيلائنا عليهــا ، وبــالاضافة الى ذلك سنقتسم معه جميع المدن التركية الاخــرى التــي لاتقــع في نطــاق ممتلكاته ولكن ياتي الاستيلاء عليها بمساعدة منه .

وترددت اقاويل بان الاتراك قد وعدوه انه اذا ما تحالف ـ ملك مصر ـ معهم ضدنا فانهم سيقدسون عليا قريب محمد(صــلى الله

عليه وسلم) الذي كان يقدسه ، وسيتعاملون بنقوده ويدفعون له الجزية وسيوافقون ايضا على تنازلات اخرى لم نتعرف اليها .

ومن رسائل عثرنا عليها في خيام ملك مصر بعد معركة عسقلان كان قد بعث بها اليه الكسيوس لابد انه قد عرف ان جيشنا كان صغيرا وان الامبراطور كان يتآمر على تدميرنا ، ولهذا السبب وغيره احتبس رسلنا عنده في مصر لمدة سنة ، اما الان فعندما وصلته تقارير عن دخولنا الى اراضيه وما رافق ذلك من تدمير لقراه وحقوله واشياء اخرى ابلغنا انه يمكن لمائتين او ثلاثمائة منا ان يمضوا كل مرة الى القدس انما بدون سلاح ، ثم يعودوا بعد عبادة الرب ، لكن ثقة منا برحمة الرب رفضنا عرضه وابلغنا انه ما لم يعد الينا القدس بدون تحفظات فسنزحف على مصر .

واذكركم ان الامير الذي كان يحتل القدس انذاك تمكن من ذلك بعد ما وصلته اخبار الكارثة التركية في انطاكية ، فقد حاصر القدس ، وهو يعرف ان الاتراك الذين كانوا وقتها عرضة للهزائم والابادة لن يقاوموه ، وتسلم القدس بعدما اعطى الى المدا فعين عنها هدايا ثمينة ، وقدم قرابين من البخور والشموع عند القبر فوق جبل الجلجلة .

ولنعد الان الى اخبار حصار عرقة ، وفي وسط انشغال جيشنا هناك ، اتتنا كما قلنا اخبار تفيد ان بابا الاتراك (الخليفة العباسي) تتبعه قبائل كثيرة ، لانه كان من سلالة محمد (صلى الله عليه وسلم)كان في طريقه الى قتالنا ، فوضع الجيش في حالة تاهب للقتال ، وتم ارسال اسقف البارة الى غود فري وكونت فلاندرز ، وكانا في جبلة ، وهي حصن يطل على البحر قائم في منتصف الطريق بين عرقة وانطاكية ، وعلى مسيرة يومين تقريبا من كل منهما ، بيد اننا عرفنا انذاك ان الامر مجرد اقاويل زائفة اشاعها المسلمون وروجوا لها ليرهبونا فينالوا بعض الراحة اثناء الحصار ، وبعد تجمع الجيوش ، راح رجال حاشية الكونت يتباهون بخيولهم

العربية وبثرواتهم التي منحهم الرب اياها في اراضي المسلمين ، لانهم واجهوا الموت في سبيله ، ومع هذا كان هناك اعداد كبيرة ممن زعموا انهم مازالوا في فقر مدقع .

وبسبب وجود الاعداد الكبيرة من الفقراء والضعفاء توفر تحريض للفقراء على تقديم عشر غنيمة الحرب ، وكان التقسيم الذي سمح به حسبما يلي : ربع للكهنة الذين يقيمون القداسات ، وربع للاسقف ، والنصف المتبقي الى بطرس الناسك الذي كان الحارس المرخص له بحماية الفقراء ورجال الدين وعامة الناس واعطى بطرس بدوره بعضا من هذا المبلغ الى رجال الدين والعامة ، ونتيجة لهذا ضاعف الرب عدد الخيول والجمال ولوازم الجيش الاخرى ، حتى اخذ العجب والدهشة من الصليبيين كل ماخذ ، غير ان هذا الرخاء المفاجىء كان سببا في النزاع بين القادة وفي رعونتهم وعجرفتهم ايضا ، الى درجة ان اشد المسيحيين اخلاصا للرب ، تاقوا الى الفقر ، والى ان تهددنا مخاطر القتال الرهيب .

وعرض علينا حاكم طرابلس خمسة عشر الف قطعة من الذهب من نقود المسلمين ، فضلا عن الخيول والبغال والثياب الكثيرة ، بل والمزيد من هذه الهدايا في السنوات المقبلة ، وحتى نقدر قيمة هذا العرض ينبغي ان نعرف ان قطعة ذهبية واحدة كانت تساوي ما بين ثمانية الى تسعة صولديات ، وكانت العملات المتداولة بيننا تشمل البيكتا فاني (بواتو) والكارتنيس (شارتر) والمانسيس (مانز) واللوكنيسيس (اوكويس) والفالانزاني (فالنس) والميلجو رينسيس (ملجويل) والبوجيزي (بوي) وكان الاسمان الاخيران يستخدمان بدلا من الاسماء الاخرى ، يضاف الى ذلك ارسل حاكم جبلة الذي خشي من حصار اخر - الى قادتنا جزية قدرها خمسة الاف قطعة ذهبية مع خيول وبغال وكميات كبيرة من النبيذ .

وتوفرت لدينا المؤن لان الهـدايا كانت تـرسل الينا مـن القـلاع والمدن الاخرى غير الجبلية ، زد على هذا قام بعض المسلمين بدافع الخوف او الحماس لطريقتنا في الحياة بـالتنصر (كذا ؟) ونتيجـة لهذا الثراء الجديد ، بعث كل واحد من امرائنا بـالرسل والرسـائل الى المدن الاسلامية يبلغها أنه هو السيد بين الفرنجة ، و على هـذه الصورة كان سوء سلوك امرائنا في ذلك الوقت وكان تانكرد من اكبر مثيري الشغب والفتنة ، ولعلكم تذكرون ان تـانكرد كان قـد تلقـى خمسة آلاف صولدي وحصانين عربيين اصـيلين وفـاخرين ، مـن ريموند ، مقابل خـدماته اثناء الرحلة الى القـدس غير انه كان الآن يريد الانضمام الى قوات غودفـري ، وهـكذا دب النزاع بينه وبين ريموند ، واخيرا تخلى تانكرد بكل خسة عن الكونت.

الفصل الثاني عشر

رؤى ومحنة الحربةالمقدسة

اعلنت في هذه الأونة رؤى كثيرة بعث الرب بها الينا ، وسأحكي انا مصنف هذا الكتاب خبر الرؤيا التالية على عهدة الشخص الذي راها حيث قال : «في اليوم الخامس من نيسان لعام ١٠٩٩ لتجسيد مولانا ، وبينما كنت انا بطرس بارثلميو استريح في بيعة الكونت اثناء حصار عرقة ، تفكرت في الكاهن الذي تجلى له الرب بالصليب في ايام حصار كربوغا ، ولما تساءلت لماذا لم يتجل لي على الصليب ، وفيما انا في هذا الحال رأيت فجأة الرب والرسولين : بطرس وأندروز مع شخص غريب ضخم الجثة ، قاتم البشرة واسع العينين أصلع تقريبا ، يدخلون البيعة ، وما لبث أن سألني الرب : ماذا تفعل ؟فأجبت : أنا واقف هنا ، فاستأنف الرب كلامه قائلا : لقد قهرتك الآثام الى حد كبير ، مثل الآخرين ولكن ما هي افكارك الآن ؟فأجبته : يارب ، يا أيها الأب ، كنت اتفكر في الكاهن وبظهورك على الصليب له ، فقال الرب : انني أعرف ذلك ، وتابع يقول : آمن أنني أنا الرب الذي مضيت في سبيله تحمل الصليب ، وانني تحملت الآلام على الصليب في القدس ، من أجل خطاياكم ، واذا آمنت بذلك فلسوف ترى .

ثم رأيت صليبا مصنوعا من قطعتين من الخشب الأسود المستدير المصقول ، مركبا بشكل سيء ، باستثناء الوصلات المسننة التي تدعمه عند المنتصف ، وأمرني الرب قائلا : حدق بالصليب الذي تفتش عنه ، وعلى الصليب كان هناك الرب ممددا ومصلوبا ، تماما مثلما هو في الآلام ، وكان بطرس يسنده من يمينه وأندروز يمسك بكتفيه من على شماله ، والغريب يسنده بيديه من خلفه .

وتابع الرب في اصدار توجيهاته قائلا : أبلغ شعبي بهذه الرؤيا
هل ترى جراحي الخمسة ؟ مثل هذه الجراح،ليقف الحجاج في خمسة صفوف ، وعلى الذين يقفون في الصف الأول الا يخشوا الرماح ولا السيوف ولا من أي نوع من المحن ، ان الذين مضوا الى القدس دون خشية من السيوف والرماح والفؤوس والعصي يشبهونني ، انهم بحملهم للصليب يموتون من أجلي كما مت من اجلهم ، ونحن معا نسكن روحيا الواحد منا الآخر ، وعند موتهم سيجلسون على يمين الرب في المكان الذي جلست فيه بعد قيامي وصعودي ، اما الذين يقفون في الصف الثاني فهم مساعدون للذين في الصف الأول ، وهم قوة المؤخرة وهم ضمان ووقاية في حالة الفرار

ويمكنني القول ان هذا الصف يشبه الرسل الذين تبعوني وشاركوني الطعام أما الذين في الصف فيذكرونني - انيعملون بالامداد فيمدون الذين يقاتلون بمختلف الأشياء مثل الحجارة والرماح - بالذين راحوا يضربون صدورهم ويصرخون في مواجهة الظلم عندما كنت معلقا على الصليب أعاني من الآلام ، أما الذين في الصف الرابع ، الذين أغلقوا على انفسهم بيوتهم وانصرفوا للاهتمام بشؤونهم فقط لدى نشوب الحرب ، لاعتقادهم أن النصر لا يكمن في قوتي انا بل في الحكمة البشرية ، هؤلاء يشبهون الذين صلبوني قائلين : انه يستحق الموت ، خذوه الى الصليب لأنه يزعم انه ملك وانه ابن الله ، وعندما سمع الذين يقفون بالصف الخامس جلبة المعركة نظروا اليها من بعد ، وفتشوا عن أسبابها ، فأظهروا الجبن بدلا من الشجاعة ، ولم يقوموا بأدنى مخاطرة في سبيلي ، أو في سبيل اخوانهم ، وفي الحقيقة انهم تحت قناع الحذر يدعون الذين يرغبون في خوض المعركة أو على الأقل في تقديم السلاح ، أن يجلسوا فقط على الخيول ، انهم والحق أقول أشبه بالخونة : يهوذا والقاضي بونطيوس بيلاط .

وكان الرب معلقا على الصليب عاريا الا من خرقة مدلاة من خاصرته الى ركبتيه وهي ذات ظل أسود وأحمر تحفه شرائط بيضاء وحمراء وخضراء ، واختفى بعد ذلك الصليب وبقي الرب بملابسه

السالفة ، فقلت له مـولاي الرب ، انني اذا مـا ابلغتهـم بـذلك فلن يصدقوني ، ورد الرب قائلا : هل تريد معرفة المتشككين ، فـأردفت قائلا نعم انني بالفعل أريد ذلك ، وهنا أمرني المسيح قـائلا : اطلب من الكونت أن يجمع القادة والعامة معا ، ودعهم يصطفون كمـا لو كانوا في قتال أو حصار ، واطلب في الوقـت المناسـب مـن افضـل المنادين أن يطلق صيحة الحرب : «عاونا يارب» ثلاث مرات ، واطلب منهم أن يسعوا لاكمال التعبئة للقتال ، وعندها سترى كمـا قلت لك الصفوف وستتعرف على المؤمنين والمتشككين .

ثم سألته : ما الذي علينا أن نفعله بالمتشككين ؟ فأجاب الرب : لا تظهروا لهم أدنى رحمة ، اقتلوهم انهم من الذين خـانوني ، انهـم اخوة يهوذا الأسخر يوطي ، ووزعوا ممتلكاتهم الدنيوية على الصف الأول وفقا لاحتياجاتهم ، وستجدون بهذا الصنيع الطـريق القـديم الذي كنتم حتى الآن تدورون حوله ، ومثلما تحققت نبوءات التجليات الأولى ستتحقق هذه،وبهذه المناسبة هل تعـرف الجنس الذي أنظـر اليه نظرة خاصة ؟ واجبتـه قـائلا : الجنس اليهـودي،فقـال الرب : انني أحمـل لهـم عظيم الكراهية بصـفتهم مـن الكفار ، واصنفهم مع احط الأجناس ، لهـذا تـأكدوا انكم لستم كفارا ، والا ستكونوا مع اليهود ولسوف أختار شعبا أخر وأحقـق لهم وعودي التي وعدتكم بها .

ثم أمرني الرب أن اتلو على مسامع الحجاج قوله : «لماذا تخشـون من اقرار العدالة ، دعوني اسألكم ما الذي يفوق العدالة ؟ لذلك أريد منكم أن تقوموا بما يلي : عينوا قضاة بين الأسر والأقـارب ، واذا اقترف انسان جرما في حق أخر ، فليسأله القاضي : أيهـا الأخ هـل تحب أن تعامل مثل هـذه المعـاملة ؟ واذا ركب رأسـه واسـتمر في عدوانه فليحكم القاضي عليه وفقا لما يقضيه القانون ، وبناء على ذلك ليشعر القـاضي بحـريته في أن يسـتولي على جميع ممتلكات المدعى عليه، فيعطي نصفها للمدعي ، ونصفها الآخر للسلطات ، واذا مـا قال القاضي كلاما يحتمـل وجهين وذلك لأي سـبب مـن

..بباب ، امض اليه واخبره انه اذا لم يصلح ذلك الأمر ، فلن
.. عنه حتى يوم القيامة ، الا اذا حللته أنت ، هل تعرف كم هو
..مان عبء ثقيل ؟ لقد امرت آدم الا يلمس شجرة المعرفة — أي الخير والشر — فخالف امري ، وهكذا مكث هو وذريته في قيود التعاسة ، حتى قدمت على شكل انسان فان ، ففديتهم بصلبي

واقول لكم ان بعضكم ينبغي ان يأخذ من العشور لأنهم أعطوا حسبما امروا ، وسأكافئهم وأعطيهم وأجعلهم من المتفوقين .

وبعد كلام الرب طلبت منه أن يتعطف بقلبه فيعيد الي معرفة الصلوات التي اخذت مني حديثا في انطاكية ، وسألني الرب .. . الا تكفي معرفتك حتى تحكيها ؟ ومع هذا ارى انك تريد معرفة المزيد ، واصبحت فجأة اثق بحكمتي ولم اطلب المزيد ، فأجبت يكفيني ما أعرف ، ثم استأنف الرب كلامه قائلا · ما الذي اخبرتك به ؟ اجبني ، ووجدتني الآن لا احير جوابا

وعندما الح علي حتى أردد كلماته اعترفت يا رب انا لا أعرف شيئا ، ورد علي الرب امض واحك ما تعرفه وسيكون ذلك كافيا .

وعندما القيت على مسامع الاخوان هذه الأشياء ، قال بعضهم انهم لن يصدقوا أبدا أن الرب أجرى حوارا مع انسان كهذا ، متغاضيا عن الأمراء والأساقفة ، و متجليا بنفسه لفلاح امي جلف ، لا بل اكثر من هذا لقد تمادوا بعيدا حتى أخذوا يرمونه بالشكوك حول الحربة المقدسة ، و بناء عليه جمعنا الذين ظهرت الحربة من قبل امامهم ، ثم استدعينا أرنولف كاهن كونت نورماندي الخاص و زعيم المتشككين بصحة الرؤيا ، مع انه كان يتمتع باحترام كبير بسبب علمه ، ثم سألناه عن شكوكه

فأجاب انه يتشكك لأن الأسقف ادهمر كان نفسه قد تشكك حول حقيقة الحربة واصالتها ، وهنا انبرى له الكاهن بطرس ديزيدريوس بقوله : رأيت ادهمر بعد موته هو والمبارك نيقولاس ، وقال لي بعد كلام : انني أقيم في الضيافة العلوية للقديس نيقولاس ، وكنت قد

اخذت الى الجحيم ، فأحرق شعر النصف الأيمن من راسي مع نصف لحيتي ، وذلك لأنني قد ترددت بالايمان بـالحربة ، في حين كان علي ان اقبلها انا بالذات مـن دون الناس ، والآن على الرغم مـن انني لست عرضة للعقاب ، انني لا أستطيع ان ارى الرب بوضوح حتـى يحصل النمو الكامل لشعري ولحيتي من جديد .

وتقدم كاهن اسمه ايبرار وقال : كنت قد ذهبت الى طرابلس قبـل الاستيلاء على أنطاكية بـوقت قصـير وهناك كنت أعيش حيا ارزق عندما سمعت بحصار كربوغا للحجاج ، وعندما سمعت بهذه الأخبار عرفت أن دخول أنطاكية والخروج منها بات امرا مسـتحيلا ، كمـا انني سمعت الكثير عن المصائب الحقيقية والوهمية التـي روجتهـا اقاويل المسلمين ، لهذا التجـأت الى كنيسـة خـوفا مـن الردى وارتميت أمام تمثال مريم العذراء ، وطلبت لعدة أيام بـالصلوات والدموع رحمة الرب متوسلا بشفاعتها ، وكنت صائما وواظبت على التوسل بقولي : أيتها السيدة الفـاضلة ان هؤلاء حجـاج هجـروا أطفالهم وزوجاتهم وتخلوا عن ممتلكاتهم الدنيوية باسم المسيح ومن اجلك ، وها هم الآن وقد ارتحلوا مـن أمـاكن نائية في سـبيل ابنك فـاشفقي عليهـم يا مـولاتي ، وفـكري في راي ابنك ورأيك وفي اراضيهم اذا اسلمتيهم الى الأتراك .

ورحت أتمتم بهذه الكلمات وأتأوه المرة تلو الأخرى ، عندمـا جـاء مسيحي سوري وقال لي : توقف عن البكاء وابتهج ،ثم تابع يقول : منذ أمد قصير وقفت أمام أبواب كنيسة مريم المباركة أم المسـيح واذا انا بكاهن بملابس بيضـاء يتجلى لي ، وعندمـا سـألته عن اسمه وعن وطنه أجاب انني مرقس ، المبشر الانجيلي ، جئت للتو من الاسكندرية ، وقد عرجت على هذا المكان بسبب كنيسـة مـريم المباركة .

ثم سـألته عن وجهتـه فـأجابني : ان المسـيح مقيم الآن في انطاكية ، وقد امر حوارييه بالانضمام اليه حتى يقدما يد المعونة في

الحرب التي لا بد أن يخوضها الفرنجة ضد الأتراك ، ثم ما لبث أن

وعندما بقيت على حزني وشكي ودموعي طمأنني السوري نفسه بقوله : لا بد أن تفهم أنه مدون في انجيل بطرس المبارك أن الحشد المسيحي المقدر له الاستيلاء على القدس ، سيحاصر أولا في انطاكية ، ولن يخرج من الحصار الا بعد أن يجد الحربة المقدسة ، ثم أيد ايبرار كلامه قائلا: اذا كان أحد متشكك في هذا اشعلوا نارا للامتحان ، ولسوف أعبرها باسم الرب دليلا على ذلك .
وتقدم كاهن آخر هوستفن من فالنس ، وهو رجل محترم وطيب فأضاف الى هذه الشهادة قوله : لقد تحدث المسيح إلي في محنة من أشد المحن وبحضور أمه مريم العذراء المباركة ووعد أنه في اليوم الخامس من هذا الحديث سيكون رحيما وينهي الام المسيحيين ، اذا عدوا اليه بكل قلوبهم ، واعتقد أن الرب كان صادقا في كلمته ، لأن الحرب المقدسة اكتشفت في اليوم الخامس ، والآن اذا كنتم لا تصدقونني فانني أقول انني بعد هذه الرؤيا مباشرة عرضت على أدهمر مباشرة كبرهان على صحة ذلك أن أخوض محنة النار أمام الجمهور أو أن أقفز اذا شاء من أعلى برج من الأبراج ، وأن أعرض عليكم الآن الشيء نفسه .

وزاد أسقف أبت قائمة شهودنا المتنامية ، فتقدم وشهد أن الرب فقط يعرف ما اذا كنت قد رأيت ذلك في المنام أم لا ، لأنني لا أعرف بكل تأكيد ، ومهما يكن من أمر لقد وقف أمامي رجل بثياب بيضاء وهو ممسك بيده بحربة الرب ، أقول هذه الحربة ، و سألني هل تعتقد أن هذه حربة الرب ؟ وأجبته : بالتأكيد يا مولاي ، غير أنه لما بدا علي عدم الاقتناع طلب مني بخشونة اجابتين اخريين فكررت : انني أؤمن أن هذه هي حربة الرب ، يسوع المسيح واختفى بالحال .

ثم أضفت أنا – مؤلف هذا الكتاب – أمام الأخوة والأسقف الى

هذه الشهادة : لقد كنت في كنيسة القديس بطرس عندما اخرجت الحربة من تحت الأرض ، وهناك عدد كبير آخر من الشهود على ذلك في الجيش ، ثم تابعت أقول · هناك كاهن هو برتراند اوف لي بوي وكان عضو في أسرة أدهمر أثناء حياته ، وقد أصيب بمرض عضال في انطاكية ، وفي تلك الأثناء ظهر لبرتراند ادهمر ، وهرقل حامل رايته الذي أصيب بوجهه بسهم وقتل ، بعدما هاجم الأتراك بشجاعة في أشرس معركة دارت في انطاكية .

وهنا سأل أدهمر : ماذا تفعل يا برتراند ؟ فأجاب هرقل : ياسيدي انه مريض ، فأجاب الأسقف : انه مريض لأنه متشكك ، وهنا تمتم برتراند · انني يا سيدي لا أؤمن بحربة الرب مثلما أؤمن بآلام الرب ، فحذره أدهمر بقوله · ان هذا لا يكفي ، ينبغي أن تؤمن بأكثر من ذلك ، ومع أن الذي تلا ذلك خارج عن موضوعنا ، إنني سأدونه لأهميته ولدفعه الذين يستحقون .

عندما اضطر برتراند المريض المدنف إلى الجلوس امام ادهمر ومولاه هرقل رأى عندما جلس هناك جرح السهم المحزز الذي أنهى هموم أدهمر الدنيوية ،و هنا سأله برتراند لقد ظننا يا سيدي أن جرحك التأم ، ولكن ما هذا ؟ فرد عليه هرقل هذا سؤال جيد ، إنني عندما جئت إلى الرب يسوع المسيح توسلت إليه أن يترك جرحي مفتوحا دون التئام ، ولم يكتف أدهمر وهرقل بابلاغ برتراند هذا فقط بل أضافا أشياء أخرى لاتتعلق بهذه الرواية

وسلم أرنولف وآمن بالحربة ، واعترف بعدما سمع بهذه الرؤيا وغيرها ، لا بل زاد على هذا بأن وعد أسقف البارة ،انه سيكفر عن تشككه تكفيرا علنيا ، غير انه عندما جاء في احد الأيام إلى اجتماع أعلن انه يؤمن كل الايمان بالحربة ، ومع هذا قال كلاما فيه بعض التورية وذلك عندما قال : إنه سيكفر فقط بعدما يتشاور مع سيده الكونت .

وأثار موقف أرنولف سخط بطرس بارثلميو ، وكان على حق لأنه

كان رجل صدق وصراحة لهذا اندفع قائلا : إنني لا أتمنى فقط بل اتوسل إليك أن تشعل نارا ، وسأخوض محنة النار وفي يدي الحربة المقدسة ، فإذا كانت هي حربة الرب حقا فإنني سأخرج منها دون أن اكوى بالنار ، لكنها إذا كانت حربة زائفة فستهلكني النار ، وأنا حين أعرض تولي فعل ذلك لأني أرى انه ما من أحد يصدق الرؤى أو الشهود .

وارضى هذا الجمهور ، وحددنا موعد محنة النار في يوم آلام الرب على الصليب من اجل خلاصنا ، وأمرنا بطرس بارثلميو بالصوم ، وبعد اربعة ايام ومع بزوغ فجر الجمعة الحزينة (٨ نيسان ١٠٩٩) شرع باعداد كومة الأخشاب ، واكتملت بعد منتصف النهار ، واحتشد نحو من ستين الفا من النبلاء والعوام مع رجال الكنيسة وهم حفاة الأقدام يرتدون الثياب الكهنوتية ، ورصت أغصان الزيتون الجافة في كومتين ارتفاعهما اربعة اقدام ، يفصل بينهما نحو قدم واحد ، ويبلغ طولهما ثلاثة عشر قدما .

وبعد اشعال النار ، وارتفاع لهيبها في الهواء أعلنت أنا ريمون دي جيل بحضور الحشد بأكمله : إذا كان الرب القادر على كل شيء قد تحدث إلى هذا الرجل شخصيا ، وإذا كان القديس أندروز قد كشف له الحربة المقدسة في صلاة العتمة ، فليمش وسط النار دون أن يمسسه أذى ، ولكن إذا كانت هذه أكذوبة فلتلتهم النار بطرس بارثلميو والحربة ، وركعت الحشود قائلة : آمين ، وارتفعت الحرارة اللافحة ثلاثين ذراعا في الهواء ، ولم يستطع أحد الاقتراب منها .

ثم ركع بطرس بارثلميو على ركبتيه وهو يرتدي ثوبا كهنوتيا بسيطا بدون اكمام ، ركع أمام أسقف البارة ، واشهد الرب على أنه قد رأى المسيح شخصيا على الصليب ، وتلقى منه التعليمات المذكورة آنفا ، وتلقى ايضا تعليمات وأوامر من القديس بطرس

والقديس أندروز ، وأن الأوامر التي بلغها باسم القديس بــطرس . او القديس أندروز أو المسيح لم تكن من تأليفه ، وأضاف قــائلا إنه إذا كان قد كذب فلن يخرج حيا من الكومة المشتعلة ، ودعا أن يغفــر الرب له على تطاوله على الرب وعلى جيرانه ، وأيضا على الأســقف والمشاهدين لهذه المحنة ، وسلمه بعد ذلك الأسقف الحــربة ، وركع بطرس ورسم شارة الصليب ، ومشى داخل الكومــة المشــتعلة بــكل شجاعة ، ودون أن يخيفه شيء ، لقد سار في وسطها بتمهل ، وخرج اخيرا ببركة الرب من وسط اللهب .

ويزعم حتى يومنا هذا بعض الشهود أنهم راوا الآية التالية : طار طائر فوق رأس بطرس قبل أن يخرج من وسط النيران ، ودار ونزل في النيران ، وشهد بذلك كل من ايبرار الذي ذكرناه من قبل ، والذي اقام في القدس من أجل الرب ، ووليم بونوفيليوس ، وهــو فــارس محترم ممتاز من أرليس ، وذكر وليم مالوس بوير ، وهــو فــارس محترم من بيزييه أن رجلا يرتدي الزي الكهنوتي مع ثوب القــداس فوق رأسه ، دخل اللهب قبل أن يدخل بــطرس ، وذكر وليم انه بــدأ يصرخ عندما لم يستطع أن يرى الرجل يخرج من النار لأنه اخــطأ ، وظنه بطرس بارثلميو ، واعتقد أن بطرس قد التهمته النيران .

وفي وسط الزحــام الشــديد كانت هناك اشــياء كثيرة لم تشــاهد جميعها ، إنما كانت هناك تجليات وأحداث كثيرة نحن نعرفها بــكل تأكيد ، إنما لن نحكيها خوفا من اصابة القارىء بالملل ، فضــلا عن ذلك إن توفر ثلاثة مــن الشــهود الواعين يعــد كافيا للبــت في جميع الأحكام ، ومع هذا لن نهمل رواية مــا يلي : بعــدما عبــر بــطرس النار ، راح الجمهور الذي أصــيب بــالخوف يتخــطف الأغصــان المحترقة والفحم المتوهج حتى أنه لم يبق بعد وقت قصير إلا الأرض التي اسودت من النيران ، و صنع الرب فيما بعد مــن خــلال هــذه الآثار التي آمن بها الناس ، الكثير من الأعمال الجليلة .

لقد سار بطرس وسط النيران ولم يحترق ثوبه الكهنوتي ولا الحربة

المقدسة التي كانت ملفوفة بأغلى أنواع الأقمشة ، ولدى خروجه لوح للحشود ورفع الحربة وهتف قائلا : يا رب ساعدنا ، وهنا أمسكت به الحشود ، أقول أمسكت به الحشود وجذبته نحو الأرض ، وأخذ كل فرد ـ تقريبا ـ من الرعاع يدفع ويتدافع ظانا أن بطرس على مقربة منه ويأمل في أن يلمسه أو يختطف قطعة من ثيابه ، وجرحه الرعاع ثلاثة جروح أو أربعة في ساقيه أثناء التزاحم ، كما كسروا عموده الفقري ، واعتقد أن بطرس كان سيلقي حتفه هناك لولا أن ريموند بيليه ، وهو فارس مشهور وشجاع ، قام بمساعدة رفاق له كثيرون بمهاجمة الرعاع المتدافعين ، وجازف بحياته حتى انتزعه منهم ، غير أنه لا يمكننا كتابة المزيد بسبب حزننا وأسانا .

وبعد التئام جراح بطرس بقي حيث حمله ريموند بيليه ، وسألنا عن السبب الذي جعله يقف في النار ، فأجاب : لقد قابلني الرب في وسط اللهب ، وأمسك بيدي ، وقال لي : إنه بسبب شكوكك حول اكتشاف الحربة المقدسة أيام تجليات القديس أندروز ، إنك لن تعبر دون جروح ، إنما لن ترى الجحيم ، واختفى الرب بعد هذه الكلمات ، واستأنف بطرس كلامه قائلا : هل تودون رؤية حروقي ، وكانت جراحه شديدة ، لكن الحروق التي على ساقيه فكانت تافهة .

ثم جمعنا المتشككين ليفحصوا وجهه ورأسه وشعره وأجزاء أخرى من جسده حتى يتأكدوا من صدق رؤياه ـ بطرس ـ التي تحمل من أجلها محنة النار ، وبعد رؤية وجهه وجسده مجد العديد الرب بهذه الكلمات : إن الرب الذي خلص هذا الرجل من هذه النيران الحامية ، النيران التي بلغ من حرارتها أننا اعتقدنا أن سهما لا يمكنه أن يمر منها دون أن يحترق تماما ، يمكنه بكل تأكيد أن يكون حاميا لنا وسط سيوف المسلمين.

وبعد ذلك دعا بطرس ريمون دي جيل كاهن الكونت وسأله: لماذا أردتني أن أخوض محنة النار لأثبت رؤياي للحربة المقدسة وأوامر الرب ؟ لاشك أنني أعرف أفكارك المشوشة ، وعندما أنكر ريمون

هذه الظنون ، أفحمه بطرس بقــوله · إنك لا تســتطيع انكار الدليل التالي ، لأنه دامغ ، فقد عرفت الحقيقة ذات ليلة من مــريم العــذراء وادهمر ، لقد تملكتني الدهشة عندما عرفت أنك على الرغم مــن أنه لم يكن لديك أدنى شك في كلمات الرب وكلمات رســله ، لقــد تمنيت موتي وانا أحاول اقامة الدليل على صحة هذه الرؤى نفسها .

وبعدما كشف بطرس أكاذيب ريمون وذنبه أمام الرب ، بكى ريمون دي جيل بحــرقة وألم ، لكن بــطرس واســاه بقــوله : لا أريدك أن تحزن ، لأن مريم العذراء المباركة واندروز المبــارك ســيحصلان لك على الغفران ،أمام الرب ، إذا أنت صليت ودعوة لهما بحرارة .

الفصل الثالث عشر

رفع الحصار عن عرقة واستئناف الرحلة إلى القدس

مزقت النزاعات في هذه الآونة صفوف الجيش ، لكن الرب ، ربنا ومرشدنا رتق هذه النزاعات حتى لاتضيع نعمه ، وعندما عرف حاكم طرابلس ، وهي مدينة قريبة من مخيمنا ، بأمر النزاعات ، استخف بنا حين طلب مبعوثونا الجزية منه ، وقال : من هم الفرنجة حتى اخشاهم وماقيمة فرسانهم وماهي مدى قوتهم ، فكروا بالأمر ، لقد حاصر جيش الفرنجة عرقة ثلاثة أشهر ، ومع أنني لاأبعد عنهم أكثر من أربعة فراسخ ، لم يقع منهم هجوم واحد علي ، ولم أشهد رجلا مسلحا منهم ، أيها الفرنجة ازحفوا إلى طرابلس ودعونا نراكم ونختبر فرسانكم ، لماذا علي دفع الجزية إلى وجوه لم أرها وإلى قوة لم أعرفها .

وأثار هذا الجواب الشكوى العامة وتساءل الجميع : انظروا ماذا جنينا من النزاعات والمشاحنات ، لقد احتجب الرب عنا من جديد ، وبتنا موضع ازدراء ، ووحدت هذه المشاعر الأمراء فأمروا أسقف البارة مع قسم من الجيش القيام بحراسة المخيم ، في حين يقوم الفرسان والرجالة يتقدمهم الأمراء ، بالزحف وهم على تعبئة ضد تحصينات طرابلس ومهاجمتها ، وعندما زحف جيشنا بتشكيلته القتالية المحددة خرج في الوقت نفسه أهل طرابلس وهم على ثقة بحشودهم الصاخبة ، خرجوا على تعبئة للتصدي لنا ، وكان هناك سور قوي ومرتفع جدا ومجرى مائي يمضي إلى طرابلس ، وقد شكل طريقا ضيقا بين المدينة والبحر الذي يحيط بطرابلس من جهات ثلاث .

وحصن المسلمون هذا السور حول المجرى المائي ، حتى صار بإمكانهم التراجع إلى الوراء في حال الاخفاق أو أن يمضوا إلى الأمام كما لو كانوا يمرون من حصن إلى حصن ، وعندما رأى الحجاج منظر أهالي طرابلس ، وهم واثقون بموقعهم القتالي وبأسلحتهم ، ابتهلوا جميعا فرسانا ورجالة إلى الرب ، ولوحوا برماحهم واحتشدوا جميعا وجاء زحفهم نحو صفوف العدو أشبه بموكب ، بحيث لو أنك شهدت ذلك الزحف لخيل إليك أنهم كانوا يتقدمون بمثابة أصدقاء لاأعداء ، وألقى الرب الرعب في صفوف قوات طرابلس ، وهربت هذه القوات من أول ضربة وامتلأت الأرض بدم المسلمين وسدت جثثهم مجرى الماء ، وكان مشهدا بهيجا رؤية المياه المتدفقة بالمجرى وهي تقذف بجثث السادة والعوام إلى طرابلس وقد فقدت رؤوسها ، ولقد فقدنا رجلا أو رجلين بينما يقال قتل سبعمائة من الأتراك .

وبعد هذا النصر عاد قادتنا إلى عرقة وصرحوا : لقد رآنا حاكم طرابلس اليوم ، ورأينا نحن بدورنا الطرق إلى طرابلس ، ودرسنا سبل الهجوم ، وإذا وافقتم الآن دعونا نجعل صاحب طرابلس يتعرف غدا إلى معدن رجالنا حقا ، وهكذا لم يتجرأ شخص واحد على الخروج من طرابلس عند عودتنا إليها في اليوم التالي ، و إثر ذلك عرض صاحب طرابلس على أمرائنا أن يدفع لهم خمسة عشر ألف قطعة ذهبية ، مع كميات من المؤن والملابس والخيول والبغال ووعد بتأمين سوق عامة مفتوحة ، وأن يعيد إلينا جميع الأسرى المسيحيين إذا ما تخلينا عن حصار عرقة .

ووصل آنذاك رسل من الامبراطور الكسيوس إلى المخيم يحملون احتجاجا على استيلاء بوهيموند على انطاكية خلافا للعهود التي قطعت للأمبراطور ، وسأوقف روايتي هنا لأذكر أن بوهيموند بات الآن يحتل أنطاكية لوحده لأنه تولى طرد أتباع ريموند بكل عنف من الأبراج التي كانوا يتولون حراستها ، وفعل ذلك عندما علم أن الكونت قد غادر معرة النعمان إلى داخل سورية ، هذا وذكر المبعوث

البيزنطي أن ألكسيوس سيقدم لنا مبالغ كبيرة من الذهب والفضة ، وأن على الفرنجة انتظاره حتى يوم عيد القديس يوحنا (أواخر حزيران) حتى يتمكن من السير معهم إلى القدس ، ومما هو جدير بالذكر أن عيد الفصح كان يقترب في ذلك الوقت .

وارتأى كثيرون كان منهم كونت صنجيل تأجيل الزحف ، وقالوا : لنؤجل زحفنا حتى يصل ألكسيوس ، فنحصل على منحه ، ثم إن وجوده سيوفر التجارة برا وبحرا ، ويمكننا أن نتوحد تحت قيادته ، وآنذاك ستلقى المدن جميعا أسلحتها وسيتملكها ألكسيوس أو يخربها حسبما يشاء ، وهناك أيضا احتمال كبير أن الحجاج ، الذين أجهدتهم الخلافات الطويلة والمستمرة سيؤثرون ، إذا وصلوا إلى القدس ، العودة إلى ديارهم فور رؤية أسوارها ، لذلك فكروا بكل عناية في عدد المخاطر الكامنة في مواجهة الذين يتوقون إلى الوفاء بنذرهم ، ولنشدد الحصار على عرقة حتى تستسلم حاميتها في خلال شهر ، أو يتم أخذها بالقوة ، ولنتذكر أننا إذا ما قررنا عدم جدوى الحصار ، وانتشرت بعيدا أخبار تخلينا عن متابعته ، سنصبح ونحن الجيش الذي عرف بتنفيذه لمشروعاته بنجاح ، موضع سخرية واستهزاء .

وحاجج آخرون ضد هذه الآراء وقالوا : لقد ألحق الأمبراطور الضرر بنا دوما ، وتآمر علينا ولما أدرك أنه ضعيف ، وأننا أقوياء بفضل الرب ، سعى إلى إبعادنا عن القبر المقدس ، خشية أن يؤدي الحديث عن نجاحنا إلى أن يحذو آخرون حذونا ، وليحذر الذين أساء الامبراطور إليهم بالقول أو بالفعل من أن يثقوا به ، فمثل هذه الثقة لاطائل تحتها ، وماعلينا الآن إلا أن نستأنف زحفنا نحو القدس ، ولنضع ثقتنا بقائدنا المسيح الذي نجانا من المخاطر التي أشعرتنا باليأس ، وحمانا من أعمال ألكسيوس وخداعه ، وسنحقق عندها أحلامنا بكل سهولة بوعد الرب ، ولدى سماعه بأخبار استيلائنا على القدس ، وتوفر التجارة المفتوحة ، سيرد على ذلك بأعمال مجدية وهدايا بدلا من الكلمات البراقة .

ووافقت الأكثرية من بين الحجاج على الرأي الأخير هـذا ، غير أن رغباتهم تعارضت مع رغبات مجلس الأمراء وتوفرت لهـذا بعض المصاعب ، وثارت المصاعب وتفجرت بسبب حاشية الكونت ريمـوند حيث كانت ضخمة ثم لأنه كان قد واجه الموت بكل شـجاعة دون أن يكون معه القادة الآخرون ، ولهذا أيضا حقق الكثير مـن المكاسـب الخاصة به .

وبشأن هذه المحنة أعلنا للناس ضرورة الصوم والصـدقات على أمل أن يتعطف الرب القادر على كل شيء ، والذي أخذ بأيدينا عبـر بلاد كثيرة ، فيبلغنا الآن مشيئته ، وهكذا أقنعت صـلوات المؤمنين الرب ، فقد تجلى الأسقف أدهمر إلى سـتيفن أوف فـالنس ، الذي ذكرناه من قبل لدى الحديث عن رؤياه للرب على الصليب ، وضربـه أدهمر بقضيب عندمـا كان عائدا يمشي في طـريقه إلى البيت ، وكان هذا ذات ليلة من الليالي وقد ناداه : يا ستيفن ، فرد عليه سـتيفن : مولاي ، وعندما انعطف تعرف على أدهمر ، فسـأله أدهمـر : لماذا تجاهلت عدة مرات أوامري المتعلقة بصليب الرب ، مـع أوامـر أمنا مريم العذراء ، إنني أتحـدث عن الصـليب الذي كان في الصـفوف الأمامية لقواتي ، ليحمل هذا الصليب في الجيش ، والآن أخبرني أي أثر ديني هو أفضل من الصليب ، ألم يرشـدكم هـذا الصـليب إلى الحربة المقدسة وينفعكم بما فيه الكفاية ، إن سيدتنا مريم العـذراء تقول لكم الآن : إنه بدون هذا الصليب لن تكون لديكم رحمة .

وهنا صاح ستيفن : آه يا أعظـم الأسـياد ، أين هي مـريم المباركة ؟ وكشف أدهمر بالحال عن مريم رائعة الشـكل والملبس ، وهي واقفة على نحو تسـعة أذرع أو عشرة مـع أجـاثا المبـاركة ، وعذراء ممسكة بشمعتين ، وهنا تكلم ستيفن مع أدهمر ، الذي كان يقف إلى جوار مـريم وقـال : ياسـيدي إن الاشـاعات في الجيش كثيرة ، ومن بينها أن شعرك ولحيتك قد احتـرقا في الجحيم ، وغير ذلك من القصص التي من الصعب تصديقها ، يضاف إلى هـذا إنني

أتضرع إليك وأتوسل أن تعطيني واحدة من الشموع لأحملهـا دليلا على أوامرك وأعطيها إلى الكونت .

فأجابه أدهمر : حدق بوجهي ، ألا تـراه محتـرقا ، ثـم خـطا الأسقف نحو مريم العذراء وبعدما عرف قـرارها عاد إلى سـتيفن وقال له : لايمكن تلبية رغبتك ، لكن الخاتم الذي في إصبعك لافـائدة لك منه ، فلا تلبسه ، واذهب إلى ريمـوند وقـدمه إليه وأخبـره أن العذراء المقدسة كثيرا ، تبعث إليك بهـذا الخـاتم ، وفي سـاعة كل إخفاق تذكر في ذهنك السيدة مانحة هـذا الخـاتم ، وتـوسل إليهـا وسيساعدك الرب .

واستفسر ستيفن مجددا عن الأوامر المتعلقـة بـأخيه ، وأجـابه أدهمر : دعه يقنع الأسـقف المنتخـب ليقيم ثـلاثة قـداسات للرب ولأرواح آلنا ، وتأمر أمنا مريم ألا تظهر الحربة المقدسة بعد ذلك إلا ويحملها كاهن يرتدي الملابس المقدسة ، وأن يتقدمها الصـليب على النحو التالي : وأمسك أدهمر الصليب معلقا على رمح ، وتبعه رجل يرتدي الثياب الكهنوتية والحربة المقدسة بيده ، وكان الأسقف يردد ساعتئذ : « أيتها العذراء مريم أبيدي الهراطقة بذاتك و أزيليهم»

واشتركت مئات الألوف من الأصوات لابل مالا حصر له في جوقة المرتلين السماوية ، ثم اختفت جماعة القديسين .

وفي الصباح التالي كان أول ماسأل عنه ستيفن هو عما إذا كانت الحربة ماتزال لدينا ، وعندما رآها انفجـر بـاكيا ، وشرع يحـكي الرؤيا السالفة و ما رآه وسمعه ، وتأثر الكونت بذلك ، فأرسل وليم هيو أوف مونتيل أخو أسقف لي بوي إلى اللاذقية حيث كان قد ترك صليب أدهمر وقلنسوته .

وفي تلك الآونة استدعى بطرس بارثلميو ـ الذي كان قـد أقعـده المرض الناجم عن الكلمات والجروح التي لحقت بـه ـ إليه الكونت مع القادة الآخرين وقال لهـم : لقـد دنا الموت مني ، وأنا على يقين

تام أنني سأحاسب في حضرة الرب على كل أعمالي ، أو كلمــاتي أو أفكاري الشريرة ، وأشهد الرب بحضوركم أنني لم أختــرع أي شيء بخصوص جميع الأشياء التي ابلغتكم عنها على أنها مــن عند الرب والرسل ، ولاأرتاب مطلقا أنكم سترون تحقق كلماتي إذا مــاخدمتم الرب بصدق ، وإثر هذا مات بطرس في الساعة التي حـددها الرب ، مات بسلام ودفن في البقعة التي عبر فيها النار وهو يحمــل الحــربة المقدسة .

وفي تلك الأثناء ســأل ريمــوند وكذلك فعــل أمــراء الجيش الآخرون ــ أهالي المنطقة عن أفضل الطــرق إلى القــدس وأقلهــا وعورة ، ولهذا قــدم إلينا بعض الســوريين ، وســأستغل قــدومهم لأحكي أنه مابرح قرابة الستين ألفا من المســيحيين يمتلكون جبــال لبنان والأحواز المحيطــة بــه لســنوات مــديدة ويطلق على هؤلاء المسيحيين اسم الصوريين لمجاورتهم لمدينة صور ، لكن بعدما زادت قوة المسلمين والأتراك ، وكان ذلك بإرادة الرب ، أرغموا العديد من الصوريين الواقعين منذ أربعمائة سنة أو أكثــر تحــت نيرهــم على التخلي عن بلادهم وعقيدتهم المسيحية .

بيد أنه إذا كان بعضهم قد تحدى المسلمين بفضــل الرب وعونه ، فقد أرغموا على تسليم أطفالهم حتى يتم ختانهم وتعليمهم القرآن ، وتجاوز الأمر هذا الحد حيث كان الآباء يتعــرضون للقتــل وتلقــى الأمهات معاملة مشينة بانتزاع أطفالهن من أحضانهن ، ولقد دفعت النوازع الشريرة الملتهبة هذا الجنس مــن البشر إلى هــدم كنائس الرب والقديسين ، وتحطيم الأيقونات ، وثقب أعين الصــور التــي لايمكن تحطيمها ، واستخدام التماثيل هدفا لنبالهم ، وقلبوا الهياكل وحولوا الكنائس الكبيرة إلى مساجد ، وكان إذا مارغب مسيحي ما في اقتناء صورة للرب أو لقديس في بيته ، فقد ترتب دفــع ثمــن لذلك شهرا بعد شهر وعاما بعدعام ، وإلا كان سيرى هذه الصــورة وقــد ألقيت بالوحل وحطمت ، وما أسارويه الآن غير مفرح بــالبته ، فقــد

وضعوا شبابهم بالمواخير ، وألزموا فتياتهم بتقديم الخمور من أجل المزيد من الفسق .

وكانت الأمهات يخشين البكاء من ذلك أو غيره من الآلام علنا ، لكن لماذا أبدد هذا الوقت كله على الصوريين ، فمن المؤكد أن هذا الجنس قد تآمر على قدس الأقداس وعلى تراثه ، ولولا أن الرب قد لجم بأمره ومبادرته الحيوانات المتوحشة عن شرور مماثلة ، مثلما فعل مرة مع جنودنا ، لقدر للفرنجة أن يلاقوا مصائب الصوريين ، ويكفي هذا لتغطية الموضوع .

وفي اجتماع مع ريموند صنجيل سئل الصوريون الذين أشرت إليهم من قبل عن الطريق ، فأجابوا : إن طريق دمشق ممهد وفيه مايكفي من المؤن ، لكن لاماء به لمدة يومين ، والطريق من خلال جبال لبنان مأمون وتتوفر به الضروريات ، لكنه وعر جدا بالنسبة للجمال ولدواب الحمولة ، ومع ذلك هناك طريق آخر محاذ للبحر ، غير أن به بعض المنافذ الضيقة جدا ، إلى حد أن خمسين أو مائة من المسلمين يمكنهم صد هذا الحشد البشري كله ، ومع هذا إنه مدون في إنجيلنا لبطرس المبارك إنه إذا كنتم أنتم الذين قدر لهم الاستيلاء على القدس ، فإنكم ستسيرون بحذاء ساحل البحر ، على الرغم من أن مخاطره تجعله يبدو مستحيلا ، وهذا الانجيل الذي كتب بيننا لايتضمن اختياركم للطرق فقط ، بل الكثير من أعمالكم المتقدمة ومسار الأحداث المقبلة .

وفي أثناء تبادل الآراء هذه عاد وليم هيو أوف مونتيل بالصليب السالف الذكر ، وأثارت رؤية الصليب مشاعر حاشية الكونت بخصوص الرحلة حتى أنه خلافا لرأي ريموند وأمراء آخرين أحرق هؤلاء ملاجئهم وكانوا أول من غادر عرقة

وانفجر ريموند باكيا ، وأخذ يزدري نفسه والآخرين ، لكن الرب أغفل مشاعره مراعاة لارادة جمهور الحجاج ، هذا وراح من جانب

آخر غودفري – الذي كان تواقا الى استئناف الزحف بحرض الناس ، وهكذا وصلنا – بعدما تخلينا عن هذا الحصار الكريه والمقوت لعرقة – الى طرابلس حيث حاول ريموند – على الرغم من مواجهته للمعارضة الجماعية للقادة – أن يغريهم بمختلف السبل بالتوسلات والمكافآت بحصار طرابلس .

وهنا تجلى القديس أندروز الى بطرس ديزيد يريوس – وهو رجل كنا قد ذكرناه من قبل – وأمره بقوله : إذهب وأبلغ الكونت وقل له : توقف عن ازعاج نفسك وازعاج الآخرين لأنك لا يمكن لك توقع أي مساعدة من الرب حتى يتم الاستيلاء على القدس أولا ، ولا تنزعج لعدم اكتمال حصار عرقة ، ولا تحمل هما اذا لم تسقط هي ومدن أخرى على الطريق ، وفي الحقيقة هناك معركة وشيكة سيتم اثرها الاستيلاء على هذه المدينة ومدن أخرى ، لهذا أقلع عن اربـاك نفسك مع أتباعك ، وجد باسم الرب وأعط بسخاء من عطاياه لك ، وكن أيضا رفيقا وصديقا مخلصا لرجالك وسيعطيك الرب القدس والاسكندرية والقاهرة اذا فعلت ذلك ، ولكنك اذا لم تفعل هذا فانك لن تحصل على الجوائز التي وعد الرب بها ، ولن يكون لك ثروة حتى تكون في عوز لا مفر منه .

وخضع الكونت لهذه الكلمات التي تفوه بها الكاهن لكنه كان خضوعا باللسان فقط ، ذلك أنه تجاهلها بأعماله وأنكرها بتقتيره بالكنوز الهائلة التي استحوذ عليها من صاحب طرابلس ، زد على هذا فقد أثار غضب أتباعه بالشتم والتعنيف ، وقد حكى بطرس ديزيد يريوس ذلك مع مسائل أخرى كثيرة ، نأتي على ذكر بعضها في هذا الكتاب .

فقد قدم الي بطرس ديزيد يريوس أناريمون دي جيل ، قبل ذلك بوقت طويل ، عندما كنا نفكر بمغادرة أنطاكية ، وأخبرني أنه رأى رؤيا اتى فيها شخص وأمره بقوله : اذهب الى كنيسة ليونتيوس المبارك حيث ستجد آثار أربعة قديسين ، فخذها واحملها الى

القدس ، ومضى الشخص معه وأراه الآثار ومكانها ، وأخبره بأسماء القديسين ، ومع ذلك تشكك بطرس بالرؤيا بعد أن استيقظ وصلى وتوسل الى الرب أن يؤكد له مرة ثانية أن ذلك كان وحيا منه ، وهكذا ظهر القديس نفسه مرة أخرى ، وتهدده لاهماله أوامر الرب ، وقال : إنه اذا لم يتم نقل البقايا قبل اليوم الخامس من الأسبوع ، فستلحق به مضار كبيرة هو وسيده ايزوارد كونت أوف داي ، وهو رجل مخلص للرب بنوره وحكمته وبيركته التي نفعتنا .

وقد رددت هذه القصة على مسامع أسقف أورانج وريموند صنجيل وآخرين بعدما حكاها لي بطرس ، وتوجهنا بعد ذلك مباشرة الى كنيسة ليونتيوس ونحن نحمل الشموع ، التي قدمناها مع النذر للرب وللقديسين في الكنيسة نفسها ، وسألنا الرب الذي جعل هذه الآثار مقدسة ، أن يحددها لنا لتكون رفيقا لنا وعونا ، وسيكون هؤلاء القديسون مرتبطين بنا بدلا من ازدراء زمالة الحجاج ، ومن نفاهم الرب ، وسيكون ارتباطهم هذا بدافع من الحب المسيحي ، وهكذا يربطوننا بالرب ، وأتينا في الصباح التالي بصحبة بطرس ديزيد يريوس الى مكان آثار القديسين ، وحسبما روي من قبل تماما وجدنا بقايا القديس كيبريان والقديس أوميخيوس ، والقديس ليونتيوس والقديس يوحنا الذهبي الفم ، كما وجدنا هناك أيضا خزانة بها آثار لم يتعرف عليها الكاهن ، وعندما سألنا السكان المحليين اختلفوا في تعريفها ، فقال بعضهم إنها للقديس مركوريوس ، بينما ذكر آخرون أسماء قديسين آخرين ، وبغض النظر عن غموض أمرها ، لقد أراد ديزيد يريوس جمعها ووضعها مع الآثار الأخرى .

فقلت أناريمون دي جيل بكل قوة وأمام الجميع : إنه اذا رغب هذا القديس في الذهاب معنا الى القدس فليعلن اسمه وليبين رغبته وإلا فسيبقى في هذا الصندوق ، ليس علينا أن نزيد من أعبائنا بحمل هذه العظام المجهولة ، ونتيجة لموقفي هذا تركنا العظام التي لم يتعرف عليها أحد في ذلك الوقت .

وفي الليلة التالية لجمع الكاهن للبقايا الأخرى ولفها بالأقمشة وتغطيتها ، وقف أمامه شاب وسيم في حوالي الخامسة عشرة من عمره ، أثناء صلاة العتمة وسأله : لماذا لم تحمل رفاتي مع الآخرين هذا اليوم ؟ وهنا سأله الكاهن : ومن أنت ؟ فرد عليه الشاب متسائلا : ألا تعرف اسم حامل راية هذا الجيش ؟ واعترف بطرس بجهله قائلا : لا يا سيدي ، وعندما كرر بطرس الاجابة نفسها عنفه الشاب بقوله : أخبرني بالحقيقة ، وهنا أجابه بطرس : يقال يا سيدي إن القديس جرجس هو حامل راية هذا الجيش ، وهنا قال الشاب : صحيح الذي تقوله ، إنني أنا القديس جرجس وأنا آمرك أن تجمع رفاتي وتضعها مع آثار الآخرين

ومع هذا لم ينفذ الكاهن الأمر ، ومرت الأيام فعاد القديس جرجس اليه وطلب منه بغلظة : لا تدع الصباح يمر دون أن تجمع رفاتي وخذ أيضا زجاجة من دم مريم العذراء والشهيدة تقلا ، وستجدها بالقرب ، ورتل القداس ، ووجد بطرس ديزيد يريوس هذه المرة هذه الأشياء جميعا ونفذ أوامر القديس جرجس .

وقبل أن أتابع رواية قصتنا مفيد أن أذكر خبر الرجال الذين تجرأوا وأبحروا على سطح البحر المتوسط الشاسع الغريب ، وعبروا المحيط حبا بالقيام برحلة الحج تحت راية الصليب ، فعندما سمع هؤلاء الانكليز بأخبار الحملات تحت راية الصليب التي تشن باسم انتقام الرب من الذين دنسوا الأرض التي ولد فيها المسيح ورسله أبحروا في البحر الانكليزي ، وداروا حول سواحل اسبانيا ، وبعد جهود جبارة وصلوا الى ساحل أنطاكية واللاذقية قبل وصول جيشنا ، وقد أمن الانكليز لنا مع الجنوية سبل التجارة مع قبرص و الجزر الأخرى ، فأثبتوا بذلك فائدتهم و معونتهم ، و كانت هذه السفن تبحر يوميا وتمخر عباب البحر ذهابا وايابا فتبث الرعب في قلوب المسلمين وتجعل ابحار السفن الاغريقية أمرا ميسورا ، فضلا عن هذا عندما رآنا الانكليز ننطلق نحو القدس ، ورأوا خشب السرو المصنعة منه سفنهم يتآكل ويتعفن لطول عهده حتى لم يبق من

الثلاثين سفينة غير تسع سفن ، عندمـا رأوا هـذا هجـر بعضـهم السفن ونزلوا الى الشـاطىء ، في حين أحـرق آخـرون قـواربهم وبادروا بالانضمام الى الزحف ضد القدس .

وتمهل امراؤنا أمام طرابلس حتى غرس الرب في قلوبهم الرغبـة في مواصلة الرحلة بحيث زالت كل معارضة ، وتحـركنا على خـلاف عاداتنا وأوامر الأمراء ليلا ، وسرنا طوال الليل فوصلنا الى بيروت في اليوم التالي ، وبعد أن اسـتولت طليعتنا فجـأة على « مـرتقى صور » وصلنا الى عكا دون أن يعترض سبيلنا معترض وأنجـز ذلك خلال أيام قليلة ، وخاف حاكم عكا من الحصار ، وانتـظر بفـارغ الصبر رحيلنا واقسم لريموند على أنه سوف يسلم نفسه وعكا لحملة الصليب اذا ما اسـتولينا على القـدس ، أو بقينا في فلسـطين لمدة عشرين يوما دون أن نضطر الى الاشـتباك مـع ملك مصر ، أو اذا هـزمنا هـذا الملك ، ووعد حـاكم عكا أنه لسـيقدم في تلك الأثناء صداقته ، ورحلنا بعد ذلك من عكا ، وكان ذلك في مساء أحـد الأيام وعسكرنا على مقربة من المستنقعات المجاورة .

قصة الطـائر الذي حمـل رسـائل بقتـل حملة الصليب :

وحسبما جرت العـادة في تلك الأثناء ، راح بعضـنا يجـري هنا وهناك بحثـا عن بعض الضروريات وبعضـنا كان يبحـث عن خيام أصدقائه ، وفيما نحن كذلك ألقى صقر طار فـوق المعسـكر بـطائر مصاب بجرح قاتل في المعسـكر الذي كان يعيش سـاعتئذ في لغـط وضوضاء ، وعندما التقط أسقف ابت الطائر وجده يحمـل رسـالة تقول : « التحيات من صاحب عكا الى أمير قيسارية ، لقد اجتـاح بلادي جيل من الكلاب ، من جنس أحمق فوضوي عنيد ، فـاذا كنت حريصا على سلامتك فيمكنك أنت والمسلمين الآخرين الحـاق الأذى بهم ، وطالما يمكنك فعل ما تريد بيسر ، انقل هذه الرسالة الى المدن

والحصون الأخرى » ، وفي الصباح عندمـا انتـظم الجيش وكان في حالة استرخاء نشرت محتويات الرسالة ، وبـذلك تجلى لنا عطـف الرب ، وهو عطـف منع الطيور الطـائرة مـن الحـاق الأضرار بنا وكشف لنا أسرار عدونا .

فحمدنا الرب القادر ومجدناه على كل شيء ، ثم رحلنا بـلا وجـل بكل خفة و نشاط ، و كنا نسير في أرتـال امتـدت مـن الأمـام الى الخلف ، و عندما سمع سكان الرملة المسلمون انباء عبـورنا لنهـر قريب ، تخلوا عن قلاعهم و أسلحتهم مع كثير من الحبوب في الحقول و محاصيل محصودة ، و هكذا عندما وصلنا في اليوم التالي كنا على يقين أن الرب كان يحارب مـن أجلنا ، و نذرنا هنا النذور للقـديس جرجس قائدنا المعترف به ، و قرر قادتنا و الجمهور اختيار أسقف (لمدينتي اللد و الرملة) كما وشعرنا أن القـديس جـرجس سـيكون شفيعنا عند الرب ، وسيكون قـائدنا المخلص مـن خـلال مـوطن اقامته .

وبما أن الرملة تبعد قرابة خمسـة عشر ميلا عن القـدس ، فقـد عقدنا مـؤتمرا هناك ، وفيه قـال بعضـهم : أجلوا الزحـف الآن ، وتحولوا نحو مصر ، فاذا اسـتطعنا بفضـل الرب الاسـتيلاء على مملكة مصر فاننا لن نربح القدس فحسب بل القاهرة والاسـكندرية أيضا مع ممالك أخرى كثيرة ، ومن جانب آخـر اذا مـا زحفنا على القدس ثم تخلينا عن الحصار لشح المياه فاننا لن ننجح أبدا .

وقال بعضهم الآخر : على الرغم من أن قواتنا تكاد لا تبلغ ألفـا وخمسمائة من الفرسان مع عدد ضئيل من الرجالة المسـلمين ، فإن هناك من يفضـل القيام بحملة الى أرض غريبـة ونائية تعـزلنا عن مساعدة بني جلدتنا ، وبناء عليه إن الفرص هنا قليلة في الاحتفـاظ بأي مدينة يتم الاستيلاء عليها ، أو اسـتحواذ طـريق للفـرار عند الحاجة ، وبما أنه ليس في هذا أي فـائدة علينا التمسـك بـطريقنا وليتول الرب شؤون الحصار والعطش والجوع والأمور الأخرى .

الفصل الرابع عشر

حصار مدينة القدس والاستيلاء عليها

ووضعنا اثقالنا على ظهور جمالنا وثيراننا ودواب الحمولة الاخــرى ثم اندفعنا نؤم القدس ، بعد ما حصلنا على الأذن من الأسقف الذي تركنا معه حامية ، وفي اندفاعنا الجنوني بسبب الطمع بــالاستيلاء على القلاع والبيوت ذات الحــدائق ، لم نتــذكر ولم نعبــأ بــوصايا بارثلميو واوامره بالاذقترب من القدس ، عندمــا نكون منهــا على مسافة فرسخين ، الا ونحن حفاة الاقدام ، وكان من التقاليد المتبعة عدم الاستيلاء من قبل اي منا على اية قلعة او مدينة ترفع واحدا من اعلامنا ، او بعد ما يكون واحد منا وضع يده عليها ، وهــكذا دفــع الطموح العديد منا الى الخروج ليلا من فــراشهم في منتصــف الليل دون ان يصحبهم رفاقهم للاستيلاء على القلاع الجبلية والمنازل التي تحيط بها الحدائق في سهل الاردن ، ومع هذا فان قلة حــافظت على امر الرب والتزمت به فسارت حفاة الاقــدام ، وكان هؤلاء يعبــرون عن الأسى والأسف بتنهدات عميقة الى الرب ، بسبب الخــروج على ارادته ، ولم يتذكروا صديقا ولا رفيقا واحدا ممــن ســار في طــريق الباطل : ولدى الاقتراب من القدس بزحفنا العام الارعن ضرب اهل المدينة طلائعنا ، واصابوا خيولنا بجراح شديدة ، كما اصابوا عددا كبيرا من رجالنا وقتلوا ثلاثة او اربعة من بين صفوفنا .

واذا ما تحولنا نحو الحديث عن الحصار يلاحظ ان غودفري وكونت فلاندرز وكونت نورماندي عسكروا الى الشمال ، وضربوا الحصــار حول القدس من كنيسة القديس ستيفن التــي تقــع في الوســط الى البرج الذي يقع في الزاوية مجاورا لبرج داود . وعسكر ريموند مــع جيشه في الغرب ، وحاصر المدينة شروعا من خط الدوق حتى ســفح

جبل صهيون ، ومع ذلك قام واد عميق بين معسكره والاسوار ، حال دون سهولة الاقتراب مـن المدينة ، وكان سـببا في ان يرغب بتغيير معسكره وموقعه ، وفيما يقوم ريمـوند بحصـار القـدس ، تـوقف لزيارة كنيسة جبل صهيون ، حيث سمع عن معجـزات الرب هناك ، وقد تأثر كثيرا ، الى حد انه خاطب الأمراء والحضور بقـوله : مـا الذي سيحدث لنا لو اننا تخلينا عن هذه المنح المقـدسة ، واسـتولى عليها المسلمون ، لربمـا كانوا دنسـوها او حـطموها لكراهيتهـم للصليبيين ؟ ومن يدري اوليس من الممكن ان تكون هـذه المنح مـن الرب اختبـارا لمعـرفة مـدى حبنا له ؟ انني اعرف ان الاخفـاق في حراسة كنيسة جبل صهيون بحماس سيجعل الرب يقوم بحـرماننا من مثل هذه البقاع في القدس .

وبناء على ذلك وخلافا لرغبات الامراء ، امـر كونت طـولوز بنقـل معسكره الى جبل صهيون ، وسببت هذه الحـركة اسـتياء رجـاله الذين لم يكونوا يرغبون في تغيير مكان المعسـكر ، والاسـتمرار في المراقبة ليلا ، وهكذا بقي الاكثرية في المعسكر الاصلي وقلة هم الذين ذهبوا الى جبل صهيون ، وظل الكونت يحمـي مـوقعه يوميا بـدفع مبالغ طائلة من المال الى فرسانه ورجالته .

وسأستطرد الآن لأتولى ذكر بعض المواقـع المقـدسة : هناك قبـر داود وقبر سليمان ، وقبر الشهيد الاكبر ستيفن ، وهناك ماتت مريم المباركة ، وهنا اكل المسيح وظهر بعد قيامه لحـوارييه ولتـوماس ، وفي هذا المكان بالذات اوقظ الرسل بمجيء الروح القدس .

وبعد الشروع بحصار القدس اخبر ناسك في احـد الايام عددا مـن الأمراء على جبـل الزيتـون : ان الرب سـيعطيكم القـدس ، اذا هاجمتموها غدا حتى الساعة التاسعة ، واجابه المسـيحيون ، ليس لدينا اية آلة من الات الحصار ، فقال الناسك : ان الرب قـادر على كل شيء الى حد انه اذا اراد فانكم ستستطيعون تسلق السور بسـلم واحد ، لأنه مع الذين يعملون من اجل الحـق ، وبناء عليه هـاجموا

القدس في صباح اليوم التالي وظلوا حتى الساعة الثالثة يقـاتلونها باسلحة الحصار التي استطاعوا تأمينها اثناء الليل ، فدمروا السور الخارجي واجبروا المسلمين على التراجع نحـو السـور الداخلي ، وتسلق عدد ضئيل من المسيحيين الدفـاعات الداخلية ، وفي اللحـظة التي بات فيها سقوط المدينة وشيكا ، توقف الهجوم بسبب الوهـن والخوف .

وبعد هذا التخازل راح المسيحيون يبحثون عن الطعـام في المناطـق المجاورة واهملوا الاعداد لهجوم جديد ، وآثر كل واحد منهم اشباع فمه وبطنه ، والانكى من هذا كله انهم لم يصلوا للرب ليخلصهم مـن الشرور الكبيرة والكثيرة التي باتت تهـدد حياتهـم بـالذات ، فقـد صدرت مخاطر جديدة عن المسـلمين الذين سـدوا افـواه الابـار ، ودمروا صهاريج المياه ، ومنعـوا تـدفق العيون ، وكل هـذا يذكرنا بالرب الذي «يحول الانهار الى برية وعيون الماء الى ارض جافة لمن يعيشون فيها » وهكذا اصبح الماء شحيحا جدا لما بينت من اسـباب

وتتدفق مياه بركة سلوان - وهـي نبـع كبير عند سـفح جبـل صهيون - مرة كل ثلاثة ايام غير انها كانت حسـب قـول السـكان المحليين ، تتدفق يوم السبت فقط ، وتصبح مستنقعا في بقية الايام ، ومن المؤكد انه ليس لدينا تفسير لهذه الظاهرة ، باستثناء انها ارادة الرب ، وتنكر الروايات انها عندما كانت تتـدفق في اليوم الثـالث ، كان التدافع المجنون لشرب الماء يجعـل الكثيرين يلقـون بـانفسهم بالبركة ، ويتسبب هذا في غمار التزاحم الشديد بهلاك كثير من دواب الحمل والماشية ، فقد كان الاقو ياء يتدافعون باستماتة ويخـوضون في البركة الغاصة بالحيوانات الميتة والبشر المتصارعين حتى المصب الصخري الذي يتدفق منه الماء ، في حين كان الضعفاء يضـطرون الى الاكتفاء بالماء الملوث .

وكان الضعفاء يزحفون على الارض بجوار النبع بافواه فاغرة ، وقد أخرسهم جفاف السنتهم ، يزحفون وقد امتدت ايديهم التمـاسا

للماء من الذين هم اكثر حظا ، وفي الحقول كانت تقف الخيول والبغال والمواشي والاغنام مع حيوانات أخرى كثيرة لم تعد تقوى على ان تخطو خطوة واحدة ، وكانت هذه الحيوانات تذوي وتموت عطشا وتتفسخ في أماكنها وتملأ الجو بروائح الجيف النتنة ، واضطر المسيحيون ، والحال كما وصفت ، الى حمل الماء بجهد ومشقة من عين تبعد فرسخين او ثلاثة ، والذهاب لسقاية مواشيهم هناك ، لكن عندما عرف المسلمون ان رجالنا يروحون جيئة وذهابا في طرق وعرة وهم بدون سلاح كمنوا لعدد كبير منهم ، فقتلوا العديد واسروا الكثير ، واستولوا على مواشيهم ، وكان مبلغ خمسة او ستة نوميسما (صولدي) لايكفي لشراء مياه نقية تكفي شخصا واحدا لمدة يوم واحد .

اما الخمرة فلم يرد ذكرها الا فيما ندر ، ومما زاد من شدة العطش ، الحر اللافح والتراب الخانق ، والرياح الشديدة ، لكن لماذا ابدد الوقت في ذكر هذه الامور الفانية ؟ المهم انه لم يكن سوى قلة منا يفكرون في الرب أو في ضروريات الحصار ، ولم يصل حملة الصليب طلبا لرحمة الرب ، وهكذا كنا نتجاهل الرب في شدائدنا ، وهو بدوره لم يهتم بالجاحدين .

وتواترت الأنباء في ذلك الحين برسوست من سفننا في يافا ، وجاءت معها ايضا مطالبة البحارة بارسال حامية تتولى حماية ابراج يافا وسفنهم في الميناء ، وكانت يافا تبعد مسيرة يوم عن القدس ، وهي ميناء هذه المدينة ، ولم يكن قد بقي من يافا غير القليل فالموقع قد دمر باستثناء برج واحد بقي سليما في قلعة دمرت تدميرا شديدا ، وفرح الحجاج وبعثوا الكونت جيلديمار كاربينيل ومعه عشرين فارسا وحوالي الخمسين من الرجالة ، ثم اردفوه بريموند بيليه مع خمسين من الفرسان ، وأخيرا بوليم سابران ورجاله ، وعندما وصل جيلديمار الى سهل على مقربة من الرملة كان هناك اربعمائة من قوات العرب الأقوياء مع مائتين من الأتراك يسدون الطريق .

واعاد جيلديمار فرسانه ورماته ، الذين كانوا في الصفوف الأمامية ، الى الخلف بسبب قلة عدد رجاله ، ثم مالبث أن زحف ضد الأعداء وهو واثق بعون الرب له ، واندفع الأعداء الى الأمام وهم على ثقة أنهم سيتمكنون من ابادة المسيحيين ، واطلقوا النشاب ، واحاطوا بهم ، وقتلوا أربعة فرسان وذلك بالاضافة الى اشارد أوف مونتميريل وكان فارسا شابا نبيلا يتمتع بشهرة كبيرة ، فضلا عن هذا فتكوا تماما بكل رماتنا وجرحوا اخرين من قوات جيلديمار ، ومع هذا لم يخل الأمر من تكبيدهم بعض الخسائر الفادحة .

وعلى الرغم من هذه الخسائر لم يضعف الهجوم الاسلامي ، وايضا لم يدب الوهن الى صفوف فرساننا ، ذلك أنهم كانوا فعلا عساكر المسيح ، ولذلك حملتهم الجراح ، لابل الموت نفسه ، على شن الهجوم بقوة أكبر ، وكانوا يفعلون ذلك كلما اشتد الضغط عليهم ، وأخيرا وبعد ان أرهقهم التعب وليس الخوف ، لاحظ قادة الفرقة الصغيرة سحابة كبيرة من الغبار في الأفق ، وجاء ذلك عندما كانت الفرقة على وشك التراجع ، وصدر هذا الغبار عن ريموند بيليه ورجاله الذين غمزوا جيادهم واندفعوا فأثاروا بهجومهم الجنوني كثيرا من الغبار مما أوهم العدو باقتراب فرقة كبيرة .

وهكذا أبيد الأعداء بفضل الرب وأرغموا على الفرار بعدما قتل قرابة المائتين منهم ، وتم الاستيلاء على غنائم كثيرة ، ومرد كثرة الغنائم الى عادة متبعة بين المسلمين هي أنهم اذا لاذوا بالفرار ، وطاردهم عدوهم مطاردة شديدة يرمون بأسلحتهم ثم بألبستهم واخيرا يرمي كل منهم بمزاده ، وهكذا قتل هذا العدد الصغير من فرساننا الأعداء المنهزمين وظلوا يفعلون ذلك حتى نال منهم التعب كل منال ، وبعدما اخذوا اسلاب الذين لاذوا بالفرار .

وبعد هذا القتال جمعت الغنائم وجرى تقسيمها ، ثم توجه

فرساننا نحو يافا حيث استقبلهم البحارة بفرح كبير بالخبز والنبيذ والسمك ، ولم يكترثوا بالمخاطر فأهملوا سفنهم ولم يعينوا مراقبين للحراسة من جهة البحر في منصة المراقبــة لكل ســفينة ، وسرعان ماوجد البحارة المنتشون وغير المبالين انفسهم محاطين مــن جهــة البحر بالأعداء ، وكان السبب الرئيسي هو اهمــالهم تعيين خفــراء يتولون الحراسة والمراقبة ، وعند الفجر وجــدوا أنه ليس أمــامهم فرصة لقتال القوة المتفوقة عليهــم ، لذلك تخلوا عن ســفنهم ، ولم يحملوا معهم سوى الغنائم ، وبذلك عادت قواتنا الى القدس وهــي بشكل مامنتصرة ومهــــزومة في آن واحــــد ، ونجــــت احــــدى السفائن ، لأنها كانت متغيبة تقوم بأعمال النهــب ، وعندمــا عادت الى يافا محملة بالمغانم رأت الأسطول المسيحي أسيرا قد أحاطت به قوة أكبــر منه ، فغيرت على الفــور اتجــاهها وعادت بـــالتجديف والقلوع الى اللاذقية ، ونقلت الى رفاقنا والأصدقاء صورة الحــالة الحقيقية لأوضاع القدس .

ولقد عرفنا اننا نستحق مــاأصابنا ، لأننا لم نؤمــن بــرسائل الرب ، ولهذا فقد حملة الصليب الأمــل بــرحمة الرب ، وبناء عليه ساروا الى سهل الأردن ، وهناك جمعوا السعف وتعمــدوا في نهــر الأردن ، وبما أنهم شاهدوا القدس ، فقد خــططوا الآن للتخلي عن حصارها والتوجه الى يافا ، ومن ثم العودة بأي شــكل ممــكن الى بلادهم ، غير ان الرب لم يهتم بأمر سفن من لم يؤمنوا به .

وتمت الدعوة الى عقد اجتماع عام لينظر بالخلافات العــامة بين القادة ، ولاسيما بعدما اقدم تانكرد على الاســتيلاء على بيت لحــم حيث رفع رايته على كنيسة بيت لحــم ، كمــا لو كان يرفعهــا على ممتلكات علمانية ، وطرح في الاجتماع ايضا قضية اختيار واحد من الأمراء يكون حاميا للقدس اذا مامنحنا الرب اياها ، وقيل وقتها ان النصر سيكون جهدا مشتركا ، ولكن اذا ضاعت القــدس فــان ذلك سيكون اهمالا مشتركا لأن احدا لم يتول حمايتها .

واعترض الأساقفة ورجال الدين قائلين : من الخطأ اختيار ملك وتعيينه في المكان الذي تـألم فيه الرب وتـوج بتـاج مـن شوك ، افترضوا ان الشخص المختار قال في قلبـه : انني جـالس على عرش داود ممتلك لممتلكاته ، وافترضوا انه أصبح داودا وهـو منحط العقيدة والأخلاق ، لاشك أن الرب سيطيح به ويحل غضبـه بالناس والمكان ، زد على هذا ان الرسـول قـد أعلن انه « عندمـا سيكون قدس الأقداس قد جاء فسيتوقف المسح » لأنه اتضح للناس جميعا انه قد جاء و « علينا اختيار وكيل يتـولى حـراسة القـدس ويقوم بقسمة الأموال والدخول بين حماة المدينة » ولهـذا السـبب ولأسباب اخرى لم يتم الانتخاب الا بعد ثمـانية أيام مـن سـقوط القدس ، ولم يتولد عن هذا النزاع خير ، ولم تتضاعف الا متـاعب الناس وأحزانهم يوما تلو الآخر .

واخيرا ابلغنا الرب الرحيم الطيب حتـى نحتـرمه وحتى يمنع المسلمين من السخرية بقوانينه اذا سألوا : أين هـو ربهـم ، لقـد ابلغنا بوساطة رسالة من ادهمـر اسـقف لي بـوي ، وعرفنا كيف نسأله وكيف نكسب رحمته ، غير اننا أذعنا أوامـر الرب علنا دون ان نربط بينها وبين اسـمه وذلك خـوفا مـن أن يعصـيها الناس ، فيكون عقابهم أشد بسبب ذنوبهم ، وقد بعـث الرب الينا برسل عديدين ، لكن لكونهم من أخـواننا بقيت بـراهينهم بـدون اعتبار .

وأعطى ادهمر في ذلك الوقـت أوامـره الى بـطرس ديزيديريوس بقوله : على الأمراء والعامة وحملة الصليب الذين قدموا من بـلاد بعيدة ، والذين هـم الآن هنا لعبـادة الرب رب كل الحشـود ، أن يحرروا أنفسهم من عالم الدناسة ، وليدر كل واحـد منهـم ظهـره للخطيئة ، وقل لهم : اخلعوا بعد هذا احذيتكم وسيروا حفاة بأقدام عارية حول القدس ، ولاتنسوا أن تصوموا ، فـاذا امتثلتـم لهذه الأوامر ستسقط المدينة في خـاتمة الأيام التسـعة بعـد هجـوم

عنيف ، وحـــذرهم انهــم ان لم يفعلوا ذلك فـــان الرب ســـيزيدهم بمصائب اكثر من الماضي .

وبعدما أبلغ بطرس ديزيديريوس سيده الكونت ايزوارد مع أخـــي أدهمر ووليم هيو وبعض الكهنة بذلك ، دعا هؤلاء الســادة المبجلين الى اجتماع عام وخاطبهم بما يلي :

أيها السادة أيها الرجال إنكم تعرفون أسباب الرحلة مع اسباب تعبنا الشديد ، وتعلمون أيضا اننا تأخرنا كثيرا واهملنا بلا مبـــالاة اقامة مايلزم من معدات لحصار القدس ، واكثـــر مـــن هـــذا اننا لم نكتف بعدم اكتراثنا في أن يكون الرب ودودا معنا ، بل اثرنا غضـــبه بكل شكل يمكن ان يتخيله عقل الانسان وفي كل أمر من الأمور ، ثم اننا نبعده عنا وننبذه ونجعله غريبا بسبب دنس أعمالنا ، والآن اذا كنتم تـــرضون فلندع الماضي جـــانبا ، ولتعـــم بين الأخـــوة روح المغفرة ، وبعد ذلك لنتخل عن كبريائنا أمـــام الرب ، فنســـير حـــول المدينة المقدسة حفاة الأقدام ، ومن ثم نبتهل لتنزل علينا رحمة الرب بوساطة شفاعة القديسين .

لنصل قـــائلين ان الرب القـــادر الذي تخلى عن عرش ملكوتـــه في السماء فأصبح بشرا من أجلنا ، وصـــار منا نحـــن عبيده ، الرب الذي دخل القدس متواضعا يركب على أتان وسار في موكب تحيط به الحشود و تلوح له وتقدم أيات التكريم ، لكي يعـــاني بعـــد ذلك مـــن الآلام على الصليب تضحية منه في سبيلنا ، لنصـــل لهـــذا الرب علّه يفتح لنا أبواب القدس ويسلمها لنا تمجيدا لاسمه وتكريما ، وهـــو يصدر أحكامه على أعدائه الذين استولوا عليها بدون حق ، ودنسوا مكان آلامه ودفنه ، والذين يبذلون الآن كل جهد ممكن لحرماننا مـــن المكاسب العظيمة الموجودة في حرم نزوله الرباني وخلاصنا .

ولاقت هذه الأوامر قبولا عاما ، وصدرت التعليمات بأن يتـــولى رجال الدين قيادة موكب يتبعه الفرسان والرجـــال الأقـــوياء ، وأن

يكون ذلك في اليوم السادس من الاسبوع على أن يحملوا الصلبان واثار القديسين ، وينفخوا بالابواق ، ويلوحوا بالأسلحة ، وليسيروا حفاة الاقدام ، وبكل سعادة نفذنا أوامر الرب والأمراء ، وعندما سرنا الى جبل الزيتون وعظنا الناس في موضع صعود المسيح بعد القيامة ، وحرضناهم في هذه المرة قائلين : لقد سرنا وراء الرب الى مكان الصعود ، وبما أننا لن نستطيع فعل المزيد ، فلنقم الآن بالصفح عن الذين اساءوا الينا حتى يكون الرب القدير بنا رحيما .

لاارى من حاجة لقول المزيد عن هذا الموضوع ، فلقد غمرت الجيش روح من التسامح كبيرة ، وقدمنا التبرعات السخية ، وتضرعنا في تلك الأثناء الى الرب سائلين اياه الرحمة ، والححنا بالسؤال أن لايتخلى عن شعبه في اللحظة الأخيرة ، بعدما جلبهم بهذه الطريقة المجيدة والمعجزة من المسافات النائية فأوصلهم الى مسعاهم من أجل القبر المقدس ، وكان الرب هذه المرة الى جانبنا فانقلب سوء حظنا الى طالع طيب وبات كل شيء على مايرام .

ومع أنني ازحت جانبا الحديث عن أحداث كثيرة ليس بإمكاني إغفال ذكر الحادثة التالية : أثناء الزحف الصاخب حول مدينة القدس راح المسلمون والأتراك يسيرون على طول أعلى أسوارهم وهم يسخرون منا ويدنسون بالضربات والأعمال البذيئة صلبانا وضعت على أذرعة من خشب بطول الأسوار ، غير أننا اندفعنا — من جهتنا — الى الأمام قدما ولم نأبه بهم واثقين باقتراب رحمة الرب بسبب هذه الاساءات ، وثابرنا على العمل ليلا ونهارا للاعداد للهجوم النهائي .

وقام غودفري ومعه كل من كونت نورماندي وكونت فلاندرز بتعيين غاستون بيارن للاشراف على العمال الذين كانوا يبنون

الحواجز والسواتر ومعدات الحصار ، وجاء تعيين هذا النبيل بالنظر لكفاءته وأمانته ، وقد ثبت أن ذلك كان اختيارا حكيما ، لأن

غاستون وضع نظاما لتقسيم العمل ، وسارع بتنفيذ المهمة في حين اهتم الأمراء بجلب المواد الخشبية ، كما وكلف الكونت ريموند وليم ريكو بعمليات مماثلة في جبل صهيون ، وكلف اسقف البارة بوظيفة الاشراف على المسلمين وسواهم من العمال الذين كانوا يجلبون الأخشاب ، فقد أرغم رجال ريموند مسلمي القلاع التي جرى الاستيلاء عليها على العمل كعبيد ، فكنت ترى خمسين أوستين رجلا منهم يحملون على اكتافهم دعامة بناء لايقوى على جرها أربعة أزواج من الثيران ، والآن لن أزيد من ارهاقكم بالمزيد من التفاصيل .

لقد عملنا جميعا بكل جد ونشاط وتعاون ، ولم يعق عملنا التراخي أو عدم الرغبة ، وكان فقط الصناع ـ الذين كانت تجمع لهم الأموال مع رجال ريموند الذين كانوا يحصلون على اجورهم من خزانته ـ هم وحدهم ممن عمل مقابل المال ، ومن المؤكد أن يد الرب كانت معنا ، فسرعان ماأكتملت الاستعدادات ، وبعد عقد اجتماع عام قرر القادة ان يكون اليوم الخامس هو ساعة الصفر ، وقالوا للناس عليكم في هذه الأثناء ان توقفوا انفسكم على الدعاء والصلوات الليلية ، وقدموا دواب العمل التي لديكم والخدم الذين يعملون لديكم الى الصناع والنجارين الذين يعملون في جر الأخشاب والأعمدة مع القوائم والفروع الضرورية لاقامة سواتر الحصار ، ايها الفرسان انه سيكون نصيب كل اثنين منكم في أعمال البناء اقامة ساتر دائري واحد أو سلم واحد ، اعملوا جميعا في سبيل الرب بكل جد ، فقد شارفت مهمتنا على الانتهاء ، ونشط الجميع في العمل بسعادة ، وحددت مواقع الهجوم الخاصة بكل واحد من الأمراء كما وعينت مواضع آلات الحصار .

وشاهد المسلمون من الداخل أسلحة الحصار المكتملة ، فقاموا

بتدعيم النقاط الضعيفة ، بحيث بدا من المستحيل القيام بشن هجوم ناجح ، ولاحظ غودفري ومعه كونت فلاندرز وكونت نورماندي عمليات التدعيم التي يقوم بها المسلمون ، وردا على ذلك قاموا في الليلة التي تقدمت على اليوم المحدد للهجوم بنقل مواقع أسلحة الحصار من سواتر و حواجز و ابراج الى موقع بين كنيسة ستيفن المبارك ووادي يهوشافاط ، صدقوني ان فك هذه الآلات ونقلها الى مسافة تزيد على الميل ، ومن ثم اقامتها من جديد لم يكن بالأمر الهين ، وصعق المسلمون في صباح اليوم التالي عندما رأوا مواقع الاتنا وخيامنا ، وأبادر الى القول : اننا ايضا دهشنا نحن المؤمنين الذين رأوا يد الرب في كل ذلك .

ولكي ابين لكم سبب حقيقة التحرك الى الشمال ينبغي ان أوضح أن عاملين اثنين كانا وراء تغيير مواقع آلات الحصار ، ففي الشمال هيأ استواء سطح الأرض اقتراب أفضل لمعدات الحصار من الأسوار ، كما أن بعد المكان الشمالي جعله ضعيفا وهذا ماجعل المسلمين يتركونه بدون تحصين ، ولم يكن مجهود كونت طولوز أدنى من ذلك او اقل عند جبل صهيون جنوبا ، وقد تلقى مساعدة من وليم امبرياكو وبحارته الجنوية الذين فقدوا سفنهم ــ كما ذكرت من قبل ــ في يافا ، لكنهم كانوا قد انقذوا الحبال والمطارق والمسامير والفؤوس والمعاول والبلط ، وهذه جميعا ادوات لاغنى عنها ، وسأتخلى الآن عن تعداد هذه التفاصيل وأعود لمواصلة قصة الهجوم على القدس :

و بزغ فجر يوم القتال وبدأ الهجوم ، فطبقا لأحسن التقديرات التي قمنا بها مع تقديرات الآخرين كان هناك قرابة الستين الفا من المقاتلين في القدس فضلا عما لايمكن تعداده من النساء والأطفال ولم يكن لدينا من جانبنا أكثر من اثني عشر ألف رجلا من الأقوياء القادرين مع كثير من المقعدين والفقراء ، ومالايزيد ــ كما أعتقد ــ عن ألف ومائتين أو ألف وثلاثمائة من الفرسان ، ونحن اذ نورد هذه الأرقام و المقارنات هدفنا أن نبين لكم أن جميع الأمور

عظيمة كانت أم صغيرة اذا مـا أخـذناها على عاتقنا بـاسم الرب فسوف تنجح ، و هذا ما ستثبته الصفحات التالية من كتابي :

وبدأنا أولا بدفع أبراجنا باتجاه أسوارهم ، ثم انفتحت أبـواب جحيم المعركة بأجمعها فانهمرت الأحجار من العرادات ، وطـارت المقذوفات بالهواء وتساقطت الأسهم كوابل مـن المطـر ، لكن عبيد الرب المتمسكين بايمانهم بـكل عزم تحملوا هـذا الهجـوم بـكل صبر ، وثابروا دون ان يعبـأوا بـالموت او الانتقـام الفـوري للمسلمين ، ولم يحسم القتال عند هذه النقـطة ، وعندمـا اقتـربت المعدات من الأسوار أمطرها المسلمون وأمطروا المسـيحيين معهـا بالحجارة والسهام والخشب والقش المشتعل ، والمطـارق المغـطاة بالقار المشتعل والشمع والكبريت والكتان وقـطع الأقمشـة ، لقـد قذفوا هذا كله على الآلات ، وأحب ان أضيف موضحا ان المطـارق كان قد اثبت عليها مسامير بحيث أمكنها الالتصاق بأي جزء تصيبه ثم تشتعل ، وأشعلت هذه المقـذوفات المصـنوعة مـن الخشـب والقش ـ التى القاها المدافعون ـ النيران التي حالت دون تقـدم الذين لم تعق تقدمهم السـيوف ولا الأسـوار الشـاهقة أو الخنادق العميقة .

وكانت الأعمال التي انجزناها طوال ذلك اليوم رائعـة ومـدهشة الى حد اننا نشك في أن يكون التـاريخ قـد عرف مـاهو أعظـم منها ، ومن جديد ، توجهنا بـالدعاء ـ ونحـن على ثقـة بـرحمة الرب ـ الى قائدنا ومرشدنا الذي هـو على كل شيء قـدير ، ومـع حلول الظلام استولى الخوف على الطرفين ، ومع تحـطيم السـور الخـارجي ، وردم الخندق ، بـات الوصـول بسرعة الى السـور الداخلي أمرا سهلا ، وأصبح المسلمون يخشون من سقوط القـدس في تلك الليلة أو في اليوم التـالي ، وبـالمقابل كان حملة الصـليب يخشون بدورهم من أن يدعم المسلمون مواقفهم ، بـابداع طـرائق لحرق الآلات القريبة ، وسيطر الرعب والتعب والتيقـظ والأرق على الطرفين المتصارعين ، فقـد عم في معسـكرنا شـعور الأمـل

الواثق ، وسيطر على معسكرهم الفزع المؤلم ، فقد كان المسيحيون يحاصرون المدينة طوعا واختيارا من أجل الرب ، وكان المسلمون يقاومون على مضض من أجل شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) .

واستمر النشاط غير المعتاد بين صفوف الطرفين أثناء الليل ، وعند بزوغ الفجر بادر رجالنا بكل اندفاع وسرعة الى دفع الات الحصار وجرها الى مواقعها ليبغتوا المسلمين الذين حاصرونا بألاتهم التي كانت تتفوق على الاتنا بنسبة تسعة أو عشرة الى واحد ، ولن اقف طويلا عند هذا التفصيل الصغير ، لأننا كنا في اليوم التاسع ، وهو اليوم الذي تنبأ الكاهن بأنه سيكون يوم سقوط القدس بكل تحديد ، وعلى الرغم من تفكك معدات حصارنا بفعل الأحجار المتساقطة كوابل من المطر والروح المعنوية المتخاذلة لقواتنا ، التي كان التعب قد أخذ منها كل مأخذ ، فان رحمة الرب المسيطرة والتي لاتقهر كانت حاضرة دائما في جهدنا ، ومع ذلك لايمكنني ان امر بالحادثة الطريفة التالية مرور الكرام ، فعندما حاولت امرأتان وضع سحر على احدى الصخور ، انطلقت احدى الأحجار من الآلة نفسها تزمجر في السماء لتقضي بعدها على حياة الساحرتين ، وايضا على حياة ثلاث فتيات كن بالقرب منهما ، وهكذا دمر السحر .

وعند انتصاف النهار كنا في حالة ارتباك وارهاق ويأس نجمت عن المقاومة العنيدة لكثير ممن تبقى من المدافعين ، ولوجود الأسوار العالية التي لايكاد يمكن اختراقها ، وللمهارة الدفاعية الهائلة للمسلمين ، وفي الوقت الذي بدأنا فيه بالترنح وأخذ المسلمون يتشجعون ، وصلت الينا رحمة الرب الحاضرة دائما شفاء لنا ، فبدلت تعاستنا سعادة ، ففي اللحظة التي كان فيها مجلس قادتنا يناقش حكمة سحب معداتنا حيث احترق الكثير منها وتحطم بعضها بشكل سيء ، في تلك اللحظة أشار فارس لاأعرف اسمه بترسه من فوق جبل الزيتون الى الكونت والى الآخرين بأن يتقدموا

وكان لهذا تأثير فعال على قواتنا المرهقة ، و استأنف بعض حملة الصليب الذين دبت فيهم الحياة من جديد ، هجومهم على الأسوار ، في حين بدأ آخرون بتسلق السلالم والحبال ، وفي الوقت نفسه اطلق شاب سهما مشتعلة بلبادة قطنية على تحصينات المسلمين التي كانت تتولى الدفاع في مواجهة برج غودفري والكونتين ، وسرعان ماابعدت النيران المدافين عن التحصينات وسرعان ماتمكن غودفري من سحب الجسر الذي كان يدافع عن البرج ، وبينما كان البرج يتأرجح من منتصف البرج سد الهوة بين البرج وبين السور ، وهكذا تدفق حملة الصليب بدون خوف لابل بكل شجاعة واقدام الى داخل المدينة المتداعية .

وسفك تانكرد وغودفري في المقدمة كميات لاتصدق من الدماء وأنزل رفاقهما الذين ساروا خلفهما آلاما هائلة بالمسلمين ، وينبغي ان أقص عليكم نبأ حادث مدهش ومثير ، فقد توقفت المقاومة في واحدة من مناطق المدينة بشكل عملي ، ولكن المسلمون في المنطقة المجاورة لجبل صهيون قاتلوا ريموند بكل شراسة كما لو انهم لم ينهزموا ، وبعد سقوط القدس وأبراجها بات بامكان المرء رؤية أفاعيل مثيرة ، فقد قطعت رؤوس بعض المسلمين بلا رحمة ، في حين اخترقت الأسهم الموجهة من الأبراج آخرين ، وفي الوقت نفسه عذب آخرون بشدة لوقت طويل وأحرقوا حتى الموت في النار المتأججة وتكدست في الطرقات والبيوت الجثث والرؤوس والأيدي والأقدام، وبالفعل كان الفرسان والرجالة يروحون ويجيئون ذهابا وايابا فوق الجثث .

دعوني أخبركم أن هذه الوقائع كانت حتى الآن ذات تفاصيل قليلة وتافهة ، وانني لأجد قصة أخرى هامة عندما نأتي الى معبد سليمان المكان المعتاد للتراتيل والصلوات والعبادات ، هل سأحكي الذي جرى هناك ؟ لو انني اخبرتكم لما صدقتم ذلك وقبلتوه مني ، ولعله يكفي أن أحكي لكم انه في معبد سليمان ، وفي الأروقة خاض حملة الصليب بخيولهم في الدم الذي وصل الى ركبهم و سروج خيولهم

وفي يقيني إن في هذا عدالة ربانية تتمثل في أن يتلقى معبد سليمان دم المسلمين الذين شتموا الرب هناك لسنين طويلة ، وسلموه الى ريموند مقابل عهد بالأمان ، ومع سقوط المدينة كان تعويضنا رؤية الحجاج عند القبر المقدس ، وتصفيق الأيدي والابتهاج وانشاد نشيد واحد جديد للرب ، فقد قدمت أرواحهم للرب المنتصر الظافر صلوات الشكر والمديح التي لم يستطيعوا شرحها بالكلمات .

لقد كان يوما جديرا بالتقدير ، وسعادة ما فوقها سعادة ،وسرورا سرمديا ، ومحصلة لكدنا وتحقيقا لحبنا اوجد كلمات وأناشيد جديدة للجميع ، وبدل هذا اليوم ـ الذي أؤكد انه سيخلد على مدى العصور و الدهور ، احزاننا وصراعاتنا الى سعادة وابتهاج ، ثم ان هذا اليوم قد أزال جميع أشكال الوثنية ، وثبت المسيحية و أعاد الينا ايماننا ، ان هذا هو « اليوم الذي صنعه الرب سنبتهج فيه ونسعد » ، وهذا صحيح لأن الرب أشرق علينا في ذلك اليوم و باركنا .

ورأى العديد اللورد ادهمر ، أسقف لى بوي في القدس ، في هذا اليوم ، واكد الكثيرون انه كان يمهد الطريق فوق الأسوار ويحث الفرسان على اللحاق به ، وجدير بالتذكير أيضا انه في مثل هذا اليوم اخرج الرسل من القدس وتفرقوا في جميع أنحاء العالم ، وفي هذا اليوم خلص أبناء الرسل المدينة من أجل الرب و الآباء ، وسيخلد هذا اليوم وهو الخامس عشر من تموز لذكرى مدح الرب وتمجيد اسمه ، الذي استجاب لصلوات كنيسته و أعاد القدس بالايمان والبركات الى أبنائه ، و أعاد ايضا أراضيها التي وعد بها الآباء ، ورتلنا في ذلك الحين صلاة القيامة ، حيث أنه قام هوبقدرته في ذلك اليوم من بين الأموات ، و خلصنا برحمته.

الفصل الخامس عشر

الوقائع التي أعقبت سقوط القدس و معركة عسقلان

سأتحول الآن للاهتمام بأمور أخرى حيث أن في الوصف المتقدم كفاية ، فبعد مرور ستة أيام أو سبعة انصرف الأمراء ـ طبقا لعادتهم ـ نحو انتخاب ملك يدير المملكة ، ويجمع ضرائب المنطقة ، ويحمي الريف من المزيد من الدمار ويعمل كمستشار للناس ، و في أثناء المداولات تجمع بعض من رجال الدين وعبروا للأمراء عن آرائهم وقالوا : اننا نشيد بتحرككم ، ولكن بما أن المسائل الروحية تتقدم على المسائل الدنيوية ، فإن السلوك القويم الصحيح يتطلب أن تنتخبوا أولا قائدا روحيا ، ثم تعمدون بعد ذلك إلى انتخاب حاكم علماني ، وإنكم اذا لم تفعلوا ذلك فلن نعترف باختياركم ، ولم ينجم عن هذا غير اغضاب الأمراء والاسراع بالانتخاب .

و لا بد من أن أوضح أن الضعف انتاب صفوف رجال الدين في ذلك الوقت ، أولا بسبب موت اللورد أدهمر أسقف لي بوي ، الذي كان يكبح جماح الجيش ويهدئه بأعمال تثير الاعجاب ومواعظ مؤثرة مثلما فعل موسى ، ثم بعد ذلك موت وليم أوف أورانج ، وهو رجل مبجل وأسقف كرس نفسه لحمايتنا ، وكان قد مات في معرة النعمان ، و هكذا لم يقف بعد موت هذين الرجلين الطيبين في وجه الأمراء سوى أسقف البارة مع عدد صغير من الكهنة ، أما أسقف مارتوانا ، الذي كان يسلك سلوكا منحرفا عندما نال بطريق الغش والخداع كنيسة بيت لحم ، فقد وقع في أسر المسلمين بعد ثلاثة أيام أو أربعة ، ولم يظهر بعد ذلك أبدا .

استخف الأمراء بنصيحتنا واحتجاجنا وشجعوا ريموند صنجيل

على قبول الملكية ، لكنه اعترف انه يرتجف لدى سماعه اسـم ملك في القدس ، ومع ذلك أعلن أنه لن يعتـرض سـبيل أي شـخص آخـر يقبلها ، وهكذا وقـع اختيارهـم على غود فـري ، وأعطـوه لقب « حامي القبر المقدس» ، وما لبث غود فري أن طلب من ريموند تسليمه برج داود ، واعترض الكونت بقوله : إنه كان يخطط للبقاء في المنطقة حتى عيد الفصح ، وطلب أن يعامل هو و رجاله حتـى ذلك الحين المعاملة اللائقة ، ورد الدوق أنه سيكون آخر مـن سـيتخلى عن البرج ، وهكذا تـطور الخـلاف بينهمـا ، وكان كل مـن كونت فلاندرز و كونت نورماندي يؤيدان غودفـري وذلك فضـلا عن جميع رجال ريموند ، الذين اعتقدوا أن الكونت سـيعود إلى لانجـويدوك بمجرد فقدانه لبرج داود ، ولم تكن هذه هي المعارضة الوحيدة التـي صادفها من أتبـاعه البـروفانسيين ، لأنهـم كانوا ـ في وقـت متقدم ـ قد نشروا أكاذيب قصدوا أن يحـولوا بهـا دون انتخـابه ملكا .

وعندما تخلى الرفاق و الأصدقاء عن ريموند تم تسـليم البـرج إلى أسقف البارة و عهد به إليه إلى أن يتم الفصل في هذه القضية ، لكن ما لبث ريموند أن وجد الأسقف يقـوم بـدوره بتسـليم البـرج إلى غودفري دون أن ينتظر قرارا حوله ، وعندما أتهم الأسقف بـأنه لم يكن أمينا ، أجاب أنه فعل ذلك مرغما ، وأنه عومل معـاملة فـظة ، ولقد علمت أن أسلحة كثيرة قد حملت إلى منطقة الأسقف ، أي بيت البطريرك الذي كان يقع على مقربة مـن كنيسـة القبـر المقـدس ، وتحدث الأسقف عن استخدام القوة الجسدية ضده ووجـه اللوم إلى رجال ريموند سرا .

وبعد خسارة البرج استشاط الكونت غضبا ، واستاء مـن أتبـاعه وقال : إنه قد اعتدي على كرامته ، وأنه لهـذا سـيغادر البـلاد ، وهكذا توجهنا من القدس إلى أريحا ، وجمعنا هناك السعف وأتينا إلى نهر الأردن ، و عملا بتوجيهات بارثلميو صنعنا طوفا من الفروع الصغيرة ، وضعنا ريموند عليه ، وجدفنا عبر النهر ، ثم طلبنا مـن

الحشد المجتمع هناك أن يصلي مــن أجـل حياة الكونت والأمــراء الآخرين ، و اغتسلنا في النهــر المقــدس ، وكان الكونت ريمــوند لا يرتدي سوى قميصا وسروالا جديدا ، لكن لماذا أصــدر رجــل الرب بطرس بارثلميو مثل هذا الأمر ؟ لم يتكون لدي أدنى فــكرة حــوله حتى الوقت الحالي .

وعند رجوعنا إلى القدس بعد أداء هذه المهمــة ، اختــار بعضــهم أرنولف كاهن كونت نورماندي بطريركا ، وذلك خلافا لرغبة رجــال الدين الطيبين ، الذين اعتــرضوا لأنه لم يكن بعــد بمــرتبة معــاون شماس ، وكان من أصل رهباني ، والأهــم مــن ذلك كله أنه أتهــم بمعاشرة النســاء في أثناء الرحلة حتــى أنه كان مــوضوعا لقصص فاحشة ، ولا حاجة بي إلى القول إن أرنولف الطموح قــد تجــاهل قرارات الكنيسة ، وقد حط بمولده المشين وانعدام ضميره من شأن رجال الدين الطيبين ، ولقــد رفــع نفســه إلى الكرسي البــطريركي بمصاحبة التراتيل و الأناشيد والتصــفيق الكبير مــن الناس ، ولم يخش أرنولف أن يحل به العقاب الرباني الذي حل بأسقف ماتورانا الذي حرص على انتخاب أرنولف ووجهه ، فقــد ظــل يأخــذ دخــل الكنائس من رجال الدين الذين كانت لهم بيع عند قبر الرب ، أو من الذين تلقوا الرسوم مقابل العناية به .

وما أن استقر أرنولف بالسلطة حتى راح يسعى بمساعدة السكان المحليين للتعرف إلى مكان الصليب الذي كان يعبده الحجــاج قبــل استيلاء الأتراك على القدس ، ولم يوضح هؤلاء الســكان مــوقعه ، ومضوا في اللجاج إلى حد أنهم أقسموا أنهم لا يعرفون شــيئا عنه ، غير أنهم في النهاية أرغموا على أن يقولوا : إن الوحي يقــول أنكم شعب الله المختار ، و أنكم تخلصتم من المحن و أعطيت لكم القــدس مع مدن ،اخرى كثيرة ، و لم يكن ذلك بفضل قوتكم الكبيرة بل ارادة من رب غاضب أعمى أهل الكفر ، وقد منحكم الرب قــائدكم أبــواب المدن التي لا يمكن اختراقها ، و كسب لكم معارك رهيبة ، و ما دام الرب إلى جانبكم ، فلماذا نصر على أن نخفــي آثــاره عنكم ؟ ثــم

قادوا حملة الصليب إلى قاعة في الكنيسة ، وهناك نقبوا عن الصليب و سلموه لهم ، وهكذا سعدنا ومجدنا الرب القدير ، و شكرناه حيث أنه لم يعد إلينا مدينة آلامه فقط بل منحنا رموز صلبه و انتصـــاره ، حتى نتمسك به أكثر ، ونحتضــن الايمـــان ونكون أكثــر يقينا لأننا رأينا الآن آثار خلاصنا .

وكما ذكرنا قبل ذلك كان في هذه الأثناء غودفري يحتفــظ بـــالقدس بموافقة الجميع باستثناء ريموند الذي أثـــار حنقـــه الحـــزن والظلم بسبب ضياع برج داود ، والذي بلا شك هو مفتـــاح مملكة يهـــوذا ، وبناء عليه وضع الخطط ليعود بجزء كبير من البروفانسيين ، ومهما يكن من أمر جاءت الأخبار أن ملك مصر قد وصل إلى عسقلان مـــع قوة كبيرة من المسلمين ، بهدف مهاجمة القدس ، وقتل الفرنجة ممن هم في سن العشرين و ما فوقها ، و أسر البـــاقين مـــع الفـــرنجيات برجال من بلاده ، وتحدثت الأقاويل أنه ســـيزوج شـــباب الفـــرنجة بنساء من جنسه ، والنساء الفرنجيات برجال مـــن بـــلاده ، وبـــذلك يربي جيلا من المحاربين من الأصل الفرنجي .

وجعلته خططه العملاقة يتبجح أنه سيعامل انطـــاكية و بـــوهيموند المعاملة نفسها ، وفضلا عن هذا كله إنه سيتوج نفســـه في دمشـــق و المدن الأخرى ، زد على هذا رأى بعد دراسة لحجم جيوشـــه القـــوية من الرجالة والفرسان ،أن الأتـــراك لم يكونوا شـــيئا ، و الفـــرنجة الذين هزموا الأتراك أيضا ليسوا شيئاو لم يكتف بهذا بل جدف بحق الرب بقوله : إنه سيدمر مسقط رأس الرب و المزود الذي رقد فيه ، و مكان الآلام و الجلجلة ، و بالذات البقعة التي تفجر فيهـــا دم الرب المصلوب ، والقبر الذي دفن فيه الرب وجميع البقاع المقدسة الأخرى في مدينة القدس والمناطق المحيطة بها ، وازداد تبجحـــا فقـــال : أنه سيخرج الآثار المقدسة من تحت الأرض و يحطمها و يسحقها و ينثر ترابها فوق البحر ، حتى لا يبحث الفرنجة بعد ذلك خارج بلادهم عن بقايا الرب التي تكون قد ضاعت وابتلعها البحر .

و إثر سماع هذه الأقاويل و الأخبار الأخرى حول الحشود الضخمة التي جمعها هذا الطاغية عند عسقلان ، و هي مدينة تبعد عنا مسيرة يوم و نصف اليوم ، اجتمع امراؤنا مع رجال الدين ، ثم سار حملة الصليب المحتشدون حفاة الأقدام أمام القبر المقدس ، وطلبوا الرحمة و الدموع تملأ عيونهم ، طلبوها من الرب ، وسألوه أن يخلص شعبه الذي نصره في الماضي ، كما توسلوا إليه ألا يسمح بأي تدنيس لمكان صلبه الذي تم تطهيره توا من أجل اسمه ، ثم اتينا إلى معبد الرب حفاة الأقدام نلتمس عونه بالأغاني والتراتيل و الذخائر المقدسة ، و هناك انبعثت صلواتنا من اعماق كياننا و تدفقت أمام الرب و تضرعنا إليه أن يتذكر تدفق بركته في المكان نفسه " إذا كان شعبك قد أخطأ في حقك ، و كان التغيير بمثابة تكفير ، و اتوك مصلين في هذا المكان فاستمع اليهم من السماء يا رب و خلصهم من أيدي اعدائهم " (انظر سفر الملوك ٨)

و بعد مباركة الاسقف وضع القادة خطط المعركة ، ووسائل حماية القدس ، ثم رحل غودفري و فرسانه للتحقق من صدق الأقاويل المتعلقة بالملك ، و بعدما وصلوا إلى سهول الرملة بعثوا بأسقف مارتورانا ليطلع الكونتات في القدس على حقيقة الحال ، و عندما تأكد القادة من وقوع المعركة اصدروا نداءا إلى جميع الرجال الأقوياء ، و صلوا للرب ، و انطلقوا خارجين من القدس يحملون كامل اسلحتهم وتتقدمهم الحربة المقدسة ، و في اليوم نفسه وصلوا إلى السهول ، و تحركت في اليوم التالي جيوشنا و زحفت إلى الأمام في تشكيلات يحيط بها الحراس من كل جانب .

ومع الغروب اقتربنا من نهر يقع على الطريق من القدس إلى عسقلان ، و شاهدنا عربا يرعون قطعانا من الماشية من الأغنام والجمال الكثيرة ، فأرسلنا مائتا فارس للاستطلاع ، لأن العدد الكبير من العرب و المواشي جعلنا نعتقد ان قتالا سينشب ، و كما قلنا من قبل سرنا في تلك الأثناء في تسعة صفوف ، ثلاثة في الساقة ، و ثلاثة في المقدمة و ثلاثة في القلب ، كي نواجه اي هجوم علينا بثلاثة

صفوف ، حيث يكون القلب على استعداد دائم لمساندة المؤخرة و المقدمة ، و هرب الرعاة العرب لدى مشاهدتهم لفرساننا ، و لو أن الرب اعانهم كما اعاننا كانوا سيدافعون عن مواشيهم ، ذلك أن عددهم وصل في الواقع إلى ثلاثة الاف ، بينما كان جيشنا يضم الفا و مائتين من الفرسان ، و لم يكن لدينا اكثر من تسعة آلاف من الرجالة ، و بعد فرارهم حصلنا على كميات هائلة من الغنائم ، و اسرنا و قتلنا عددا ضئيلا من العرب ، و لما كان النهار على وشك الانتهاء ، ضربنا الخيام ، و أرغمنا الأسرى على الكشف عن خططهم ، و عن مدى استعدادهم ، و عن أعدادهم و قواتهم ، و اعترف الأسرى ان العرب يريدون حصار القدس ، و من ثم أن يطردوا و يأسروا او يقتلوا الفرنج جميعا ، و أضافوا أن أميرهم الذي ضرب مخيمة على مسافة خمسة فراسخ منا ، سيزحف نحونا في اليوم التالي ، و لم يتجرأ الرعاة على تقدير حجم جيشهم تقديرا قاطعا ، لأنه كان يتزايد يوما بعد يوم ، أما عن دورهم ، فقد اوضحوا أنهم كانوا مجرد رعاة شرعوا في بيع مواشيهم إلى الجيش المصري

و استعدادا للصدام المقبل أحل حملة الصليب كل واحد منهم الآخر من ذنوبه التي اقترفها بحقه أو لم يقترفها ، وباتوا في هياج كبير إلى درجة أنهم لم يأبهوا بالتقارير المتعلقة باستعدادات العدو ، و في غمرة الثقة اعتقدوا أن العرب سيكونون اكثر جبنا من الغزلان و اكثر وداعة من الحملان ، و تولدت هذه الثقة من إيماننا أن الرب كان إلى جانبنا في الدروب الأخرى ، و أنه بسبب كفر الوثنيين ، سوف يبدأ وحده بمعاقبتهم حتى و إن كانت قضيتنا واهية ، و هكذا آثرنا أن نعد الرب مدافعا عنا و أننا معاونوه ، و صدرت الأوامر آنذاك إلى الجيش لأن يكون الجميع على اتم استعداد للمعركة وقت الفجر ، و أن ينضم كل فرد إلى قوات قائده ، و الا يلمس أي منا الغنائم حتى ينتهي القتال و إلا صدر بحقه قرار بالحرمان ، و قضينا ليلة بائسة بدون خيام و مع قليل من الخبز ، و بدون نبيذ ، و

بكمية ضئيلة مـن الطحين و الملح ، إنمـا كانت امـداداتنا مـن اللحم ـ على الأقل ـ في وفرة الرمال ، و هـكذا أكلنا اللحـم ، و استخدمنا لحم الضأن بدلا من الخبز .

و عند حلول الفجر قرعت الطبـول و صـدحت الأبواق مسـتدعية الجيش و موقظة له ، و هكذا تحركنا عند اشراق شمس النهـار ، و الحرس مرتبون على الجوانب كلها حسبما أوضحنا مـن قبـل ، و تحركنا قدما نحو معسـكر المسـلمين ، و كان المسـلمون غارون في معسكرهم اعتقادا منهم أن الفرنجة سيبقون قـرب أسـوارهم عند سماعهم بقدومهم ، و بعدما وصلتهم أخبـار فـرار الرعاة و قتلهـم دعاهم ذلك الى الظن في قرارة انفسهم أن الفرنجة قدموا مـن أجـل الأسلاب ، و بعد حصولهم عليها سيعودون الآن ادراجهم.

وفي الحقيقة كانت تصلهم تقارير يومية عن حـالات الفـرار مـن القدس وعن ضآلة حجم جيشنا ، وعن الوهن الذي اصـاب رجـالنا وجيادنا ، وكانوا متأكدين ـ وقد وضعوا ثقتهم في حجـم قـواتهم وقدراتهم ـ انه بامكانهم اغراقنا ومعسكرنا ببصاقهم ، وسـمعنا أن منجموهم قد نصحوهم بعدم التحرك او القتال قبل اليوم السابع من الاسـبوع ، وحـذروهم أن التحـرك قبـل ذلك الموعد لن يكون مفيدا .

وحسبما أوضحنا من قبل تحركنا في تسعة صـفوف ، وضـاعف الرب حجم جيشه الى حد بدونا فيه أننا نبلغ حجم القوات العربية ، وحدثت هذه المعجزة حين شكلت المواشي التي حـررناها قـطعانا ، وسارت خلفنا دون أن يوجهها أحد ، حيث كانت تقف حين نتـوقف عن السير ، وتجري حين نسرع الخطا ، وتسير إلى الامام إذا فعلنا ذلك ، ولم يعد في مقدورنا احصاء البضائع ولاتقدير كميات الاسلحة والخيام التي استولينا عليها ، وعندما شاهد العرب ذبح العديد مـن رفاقهم ، ونهب الفرنجة لمعسكرهم بكل شغف وأمان ، تـوقفوا عن القتال وقرروا : أنه طالما من المحتم علينا الفـرار ففيم الانتـظار ؟

- ٢٧١٣ -

واذا كان المسيحيون الذين اجهدهم الزحف وهدهم التعب والجوع والعطش ، قد سحقوا قواتنا بهجوم واحد وهم على هذه الحالة ، فما الذي سيفعلوه بنا اذا مانالوا قسطا من الراحة واستردوا بأسهم ؟ لقد حققوا النصر علينا وهم نصف احياء ومستضعفين واوقعوا في قلوبنا الرعب ٠

ونتيجة لهذا ، عاد العرب وقد أسقط في ايديهم - ماعدا بعض الاستثناءات إلى عسقلان التي تبعد عن معسكرنا مقدار ميل واحد وقرر ريموند أن يبعث بوهيموند ، وهو رجل تركي، الى الأمير يحمل مشروع سلام ، وليذكره أنه حين رفض تسليمنا القدس اضطر الى قتالنا وكان على بوهموند أن يقرر في الوقت نفسه الموقف ، وأن يرى ماإذا كان الأمير يخطط للفرار أم للقتال ، وليتبين كيف كان رد فعله ازاء الهزيمة ، وكان بوهموند ، مع أنه تركي الأصل ، يتكلم بعدة لغات ، وماهرا واريبا ، ومخلصا لنا أيضا ، وقد سمي بوهيموند بسبب أن بوهموند الكبير كان قد تلقاه عند جرن المعمودية حين ارتد عن الاسلام وجاء إلينا برفقة سلاحه وزوجته ٠

وهاهنا ينتهي بسعادة كتاب ريمون دي جيل

تاريخ الحملة إلى القدس

تأليف فولتشر أوف تشارترز

مقدمة فولتشر

إنه لمبهج للأحياء ونافع للأموات ، القراءة في الصحف المرقـومة أخبار أعمال شجعان الرجـال ، خـاصة الذين يقـاتلون في سـبيل الرب ، أو أن تتناقلها ألسنة المؤمنين بكل خشوع ، لأنها محفوظة في حافظتهم ، كيف استجاب هؤلاء لأوامر الأنجيل ، وتخلو عن متـاع الدنيا وهجروا آبائهم وأزواجهم وأموالهم وإن عظمت ، يدفعهم ذلك الى اتبـاع الرب وتـكريس أنفسـهم له (متـى : ١٢ ــ ٢٩ ، ١٦ ــ ٢٤ . مـرقس : ١٠ ٢ ، ٨ / ٣٤ .لوقـا : ١٨ ــ ٢٩ ، ٩ ٢٣) . وأمـا الأمـوات الذين مـاتو في سـبيل الرب ، فإن جليل الفائدة تعود عليهم لدى تـذكر الأحياء مـن المؤمنين سـير سـلفهم وأعمالهم الصـالحة الورعة ، فـذلك يدفعهـم إلى الدعاء لموتـاهم والترحم على أرواحهم ، ووهب الصدقات المصحوبة بـالصلوات في سبيلهم ومحبة بهم سواء أعرفوهم أم لم يعرفوهم .

لذلك قمت بدافع طلب شديد الالحاح من بعض الأصدقاء ، فدونت بكل عناية وترتيب أخبار أعمال الفرنجة الرائعة ، حين اسـتجابوا لأوامر الرب العلوية ، وانطلقوا مسلحين للقيام بالحج إلى القدس ، لعبادة المخلص ، ولقد حكيت بـأسلوب بسـيط متسـم بـالصدق ، مارأيت أنه جدير بالذكر ، ودونت بقدر مـاتمكنت مـاشاهدته بنفسي أثناء تلك الرحلة .

ومع أنني لا أمتلك الجراة على مقارنة أعمال الفـرنجة السـالفة الذكر بالأعمال العظيمة والانجازات الهـامة للاسرائيليين والمكابيين وكثير من شعوب الله المختـارة ، التـي منحهـا معجـزات كثيرة وخارقة ، أنا لاأظن أن أعمال الفـرنجة تقـل شـأنا عنهـا ، لأن المعجزات العجائبية الربانية تحققت مـرارا بين صـفوفهم ، وهـذا

ماساعى جاهدا لبعث ذكراه بالتدوين ، وكيف يتميز الاسرائيليون أو المكابيون عن الفرنجة ، فالحق أقول إننا شـهدنا هؤلاء الفـرنجة في الأرض عينها والبلاد ذاتها ، وهـم في الغـالب على مقـربة منا ، أو سمعنا عنهم في أماكن نائية عنا ، وهم يقاسون من الضرب والصلب وتمزيق الأعضاء والموت بـالنشاب أو بتقـطيع الأوصـال أو بـأية واسطة أخرى توصلهم إلى الشـهادة ، وذلك كله في سـبيل المسـيح وحبا به ، لم توقفهم التهديدات ولم تقعدهم الاغراءات ، بـل لو كان سيف الجزار على مقربهم منا لما تحاشاه معظمنا لنيل الشهادة حبا في المسيح .

هناك الاف مؤلفة ممن لاقى حتفه ونال الشهادة المباركة في هـذه الرحلة ، من الذي عندما سيسمع بأفعال الرب هذه ـ مهما اشتدت قساوة قلبه ـ لن تجيش أعمق مشاعر الورع في نفسـه ، ولايشرع بحمد الرب وتمجيده ؟ ليس هناك من لن يأخذه العجب عندمـا يرى كيف تمكنا ـ ونحن قلة ـ في قلب بلاد أعدائنا لا أن نقاوم فقط بـل أن نعيش أيضا ؟ من الذي سمع قـط بمثـل هـذا ، فلقـد كان إلى جوارنا مصر والحبشة من جانب ، وبلاد العرب وسورية والجـزيرة والعراق وفارس من جانب آخر ، إن هاهنا بحـر عظيم فصـلنا عن بلاد المسيحيين ، لقد وضعنا الرب بإرادته بين أيدي الجـزارين غير أن ذراعه الجبارة قد حمتنا ودفعت عنا « طوبى للأمـة التـي الرب الهها » (مزامير : ٣٣ / ١٢) سوف أحكي فيما يلي تاريخ بـداية هذا الفعيل ، وسأروي كيف كرست جميع شعوب الغـرب أنفسـها وسواعدها بلا حدود في سبيل انجاح هذه الحملة .
تنتهي هنا مقدمة فولتشر

الكتاب الأول

يبدأ هنا هذا الكتاب الأول من أعمال الفرنجة حجاج القدس

المجمع الذي عقد في كليرمونت

في السنة خمس وتسعين بعد الألف من تجسيد مولانا يسوع المسيح ، عندما كان هنري - المدعو بالامبراطور - يحكم في المانيا ، والملك فيليب في فرنسا ، تعاظمت الشرور في مختلف أنحاء أوروبا نتيجة لضعف الايمان ، وكان أوربان الثاني قد حكم في هذه الآونة في روما ، وكان رجلا رائعا في الذات والسمات ، مناضلا بجلد وحكمة في سبيل إعلاء مكانة الكنيسة المقدسة .

وكان قد رأى الناس جميعا من كهنة وعلمانيين قد داسوا الديانة المسيحية بأقدامهم ، وأهملوا السلام أيما إهمال ، وتنازع أمراء البلاد أحدهم مع الآخر في حروب لم تعرف التوقف ، وشهد الناس يسلبون متاع الدنيا بعضهم من بعض ، ورأى كثيرا من السجناء يحتجزون بدون حق ، ويلقى بهم بكل وحشية في غياهب السجون ، حتى تدفع فديتهم العالية جدا ، أو يعانون من عذاب مثلث الشرور : الجوع والعطش والبرد إلى أن يلقوا حتفهم سرا ، ثم أبصر الأماكن المقدسة وقد دنست حرماتها والبيع والكنائس قد التهمتها النيران ، ولم يسلم أحد من البشر من الأذى ، وباتت الشؤون البشرية والربانية موضع سخرية واستخفاف .

وبعيد سماع أوربان أن الأتراك قد اجتاحوا المناطق الداخلية من الأراضي البيزنطية ، وأن المسيحيين قد وقعوا تحت نير شعب متوحش فتاك ، حركته مشاعر التقوى والورع ، فاجتاز - مدفوعا بمحبة الرب - الجبال ، وهبط إلى أراضي فرنسا ، ودعا إلى عقد مجمع مقدس في أوفيران في مدينة كليرمونت ، وتكون هذا

المجمع - الذي كان قد بعث الدعاة للتحضير له في جميع النواحي - من ثلاثمائة وعشرة أعضاء من الأساقفة والشمامسة .
والتأم الجمع في اليوم المحدد حول البابا أوربان ، فألقى فيهم خطابا بليغا مؤثرا تناول فيه الهدف الذي دعا من أجله ، وأخبر المجتمعين بصوت مفعم بالحزن والأسى عن معاناة الكنيسة ، وألقى موعظة مؤثرة حول العواصف الهوجاء التي تجتاح العالم الذي انحطت فيه الديانة إلى الدرك الذي وصفناه من قبل .

وبكل خشوع حث الجميع على العمل في سبيل استرجاع قوة إيمانهم ، وان يبعثوا في أنفسهم العزم على التخلي عن إغواءات الشيطان وأن يجهدوا في سبيل استرداد الكنيسة المقدسة لمركزها ومجدها التليد ، بعدما حط من شأنها الأشرار .

خطبة أوربان في المجمع

أيها الأخوة الأحبة ، ياعبيد الرب في هذه البلاد ، لقد قدمت إليكم أنا أوربان المتوج بمشيئة الرب بتاج التثليث ، الحبر الأعظم للعالم أجمع ، قدمت في هذه الظروف الصعبة والحرجة بمثابة نذير من العناية الربانية و « إنني لآمل أن يكون وكلاء سرائر الرب صالحين مؤمنين لايشوبهم رياء » (كورنثيوس : ٤ / ١ـ ٢)

لئن كان أحدكم مخادعا أو منجرفا بعيدا عن التعقل والاعتدال والعدل محاربا لكلمة الرب على الأرض فسأسعى - بعون من الرب - إلى تقويم اعوجاجه ، فالرب قد أقامكم وكلاء على بيته حتى إذا ماحان الوقت زودتموه بما تيسر من القوت ، وستنزل عليكم البركة المؤكدة إذا ماوجدكم رب الوكالة مؤمنين (متى : ٢٤ - ٤٥ - ٤٦)

إنكم تسمون رعاه ، فلا تتصرفوا كالأجراء ، كونوا رعاة

حقيقيين ، واحملوا عصيكم بأيديكم ولاتغفلوا ، واحرسوا القطيع الذي عهد به إليكم من جميع الجوانب (يوحنا : ١٠ / ١٢ ـ ١٣) أما إذا خطف الذئب خروفا نتيجة لاهمالكم وتقصيركم ، فإنكم لم تخسروا ما أعده الرب لكم فقط بل سيلقى بكم في جحيم الذين حقت عليهم اللعنات ، بعدما تقرعكم عصا الجلاد . وكما جاء في الكتاب المقدس « انتم ملح الأرض » (متى : ٥ / ١٣) ولكن إذا اخفقتم فكيف يتم التمليح ؟ اه كم من الرجال ينبغي أن يملحوا ؟ (متى : ٥ / ١٣ . مرقس : ٩ . لوقا : ١٤ / ٣٤) من المتوجب عليكم أن تملحوا بملح حكمتكم المزيلة للفساد ، الجهلة الذين يتنافسون على ملذات هذا العالم ، وإلا فإنهم سيتحولون إلى حجارة نتيجة لطغيانهم ، وسيجدهم الرب عندما يخاطبهم مفتقرين إلى ملح الحكمة .

لانه إن وجد فيكم دودا ـ اي اثام ـ بسبب قعودكم عن القيام بواجباتكم ، فسيأمر بالحال بطرحكم مرنولين في قعر الجحيم (مرقس : ٩ / ٤٨) وحيث انكم لن تستطيعوا تعويض هذه الخسارة له ، إنه سيحكم عليكم باللعنة وسيبعدكم بالحال من حضرته ويحرمكم من رعايته . غير ان الذي يملح يجب أن يكون حكيما بعيد النظر متواضعا ، عالما محبا للسلام ، يفتش عن الحقيقة ، تقيا طاهرا ومنصفا عادلا ، إذ كيف يجعل الجاهل غيره عالما ، او المتفاخر غيره متواضعا ، والمدنس غيره نقيا ؟ إذا كان المرء يمقت السلام فكيف يمكنه إحقاق السلام ؟ وإذا ماتلوثت يد إنسان فكيف يمكنه تطهير ماتلوث بدنس أخر ؟ ولقد ورد في الكتاب « إن كان اعمى يقود اعمى يسقطان معا في هوة » (لوقا : ٦ / ٣٩)

وبناء عليه اصلحوا ذواتكم أولا حتى لاتستحقوا الملامة ، وإذا ما اصلحتم من هم تحت رعايتكم ، وإذا وددتم حقا أن تكونوا احباء الرب ، فاعملوا متطوعين مايرضيه .

اتمنى عليكم بشكل خاص رعاية شؤون الكنيسة والمحـافظة على نواميسها حتى لاتضرب هرطقات المتاجره بالدين جـذورها بينكم ، وكونوا على يقين أن البـاعة والشـارين سـيلحقهم سـوط الرب (متى : ٢١/١٢ مـرقس : ١١/١٥ . لوقـا : ١٩/٤٥ ، يوحنا : ٢/١٥) ولسوف يجرون بكل تعاسة عبر بـوابات ضـيقة إلى الهـلاك الكلي (لوقـا : ١٣/٢٤ . متـى : ٧/١٣) عليكم صيانة حرية الكنيسة بجميع مراتبها وحمايتها من القوى الدنيوية ، وسددوا العشور من خيرات الأرض جميعا إلى الرب بكل أمانة دون أن تباع أو تحتجز .

ولتنزل اللعنة على كل من يختطف أسقفا ، ولتحق اللعنة على كل من يختطف كاهنا أو راهبا أو راهبة ، أو أحدا من خدامهم أو مـن الحجاج أو التجار ، أو يمسهم بالأذى ، وليلحق الطـرد والحـرمان من الكنيسة كل اللصوص وحارقي البيوت والذين يمـدون إليهـم يد العون .

ولقد قال غريغوري : « علينا أن نقوم بكل خصوصيه مدى شـدة العقوبة التي سنعاقب فيها من يسرق الآخرين ، وإذا مـاحقت عليه اللعنة في الجحيم فلأنه كان سخيا بما لم تملك يداه » وهذا ما حصل للرجـل الغني الذي ورد ذكره في الكتـاب المقـدس (لوقـا : ١٦ / ١٩ ـ ٣٠) فهو لم يعذب بسبب سرقته لأموال الآخرين فقط بل لأنه أساء أيضا استعمال الثروة بعدما حصل عليها .

لابد أنكم يا أخوتي الأحباء قـد شـهدتم عالمكم وقـد انتشر فيه الشر وعاث به فسـادا منذ أمـد بعيد ، ولاسـيما في بعض نواحـي مقاطعتكم فهذا الذي قيل لكم وقيل لنا ، ولعل من أسباب تقصـيركم في إحقاق الحق وإزالة الظلم أنه لايكاد أحد منكم يملك الجـرأة على السفر في الطرقات مؤملا السلامة خوفا من السـلب على يد قـطاع الطرق في النهار ، أو اللصـوص في الليل ، فهـو يعـرض للسـلب والمخاطر سواء أكان داخل العمران أو خارجه .

لهذا كله يتوجب عليكم تجديد الهدنة المعروفة باسم « هدنة الرب» التي اقرها الآباء المقدسون منذ زمن بعيد ، وإنني ارغب إليكم بكل إخلاص ان تراعوا الأخذ بها في كل أبرشية من الأبرشيات ، لابل اقول إذا ماخرق انسان ـ لكبر في نفسه أو لطمع ـ شروط هذه الهدنة عامدا متعمدا فليحق عليه الحرمان بقوة السلطة المخولة لي من الرب ، وبإرادة هذا المجمع .

ماحرض به البابا بشأن الحج إلى القدس :

وبعدما جرى الوفاق على هذه الأمور جميعا ، نهض جميع الحضور من اكليروس وعلمانيين وقدموا بلا تكلف الشكر للرب على ماتفوه به البابا أوربان ، وعاهدوه مخلصين بالتقيد بكل مايرسمه ، بيد ان البابا ، بادر إلى الاستطراد قائلا : إن محنة لاتقل عن الذي ذكرت بل تزيد ، ذلك انها بالحري اشد المحن واقساها على الاطلاق ، هي التي نزلت بالمسيحية في طرف اخر من العالم .

وتابع يقول : بما انكم ياابناء الرب قد وعدتموه بحفظ السلام فيما بينكم ، وان تكونوا أعظم اخلاصا مما مضى في الحفاظ على حقوق الكنيسة ، يتوجب عليكم ، وقد قوم الرب اعوجاجكم ، القيام بواجب ملح لكم وللرب ، يمكنكم خلال ادائه اظهار مدى صدق طويتكم عليكم وبكل سرعة ان تأخذوا المساعدات الى إخوانكم في المشرق ، التي طالما وعدتموهم بها ، انهم بحاجة ملحة لها : ان العرب والتركمان قد حاربوهم ، وتوغلوا في الأراضي الرومانية (البيزنطية) عميقا حتى البوسفور ، وهم يتوغلون الآن أعمق من ذي قبل في اراضي هؤلاء المسيحيين ، لقد أبادوهم سبع مرات في المعركة ، فقتلوا منهم من قتلوا ، واخذوا عددا كبيرا من الأسرى ودمروا الكنائس ، واجتاحوا اراضي المملكة ، واذا لم تتصدوا لهم الآن ، فانهم سيمدون سلطانهم اعمق وسينشرونه فوق العبيد المخلصين للرب .

لهذا السبب اتوجه اليكم بـالرجاء والتحـريض ، وانه ليس أنا الذي اتـوجه اليكم ويحـرضكم ، بـل الرب على لسـاني أنا نائب المسيح ، اتوجه الى الفقير منكم والغني ، واسألكم أن تتبـسارعوا نحو طرد أبناء الشر هؤلاء من المناطـق المقـطونة مـن قبـل اخواننا ، وأن تقدموا المساعدة في وقتها الى عبـاد المسـيح ، انني اخـاطب جميع هؤلاء الحضـور ، وأعلن الشيء نفسـه الى جميع الغياب ، ولكن اعلموا أن المسـيح هـو الذي يخـاطبكم ويصـدر الأوامر : ان جميع الذين يذهبون الى هناك ويفقدون حياتهم في البر أو البحر اثناء الرحلة أو خلال المعركة ضد الكفـار سـيتم غفـران ذنوبهم بالحال ، وانني أمنح هذا من خلال السلطة المضفاة علي من قبل الرب .

يا للخزي ويا للعار اذا ماانتصر علينا هذا الجنس المتسم بمثـل هذه الدناءة والحقارة ، اذا ما انتصر هـذا الجنس الذي تسـتعبده الشياطين والعفاريت على شعب انعـم الرب القـدير عليه وتبـاهى باسم المسيح ، اه كم من المعائب ستوسمون بها ـ حتى مـن الرب نفسه ـ اذا لم تقوموا بتقديم العون الى الذين يعدون مثلكم في الدين المسيحي .

وتابع البابا يقول : أنه يتـوجب على الذين اعتـادوا ـ حتـى الآن ـ على الاقتتال مقتـرفين للاثـم ، منغمسـين في صراع ضـد المؤمنين ، أن يتوجهوا للكفاح ضد الكفـار ، وأن يحققـوا النصر عليهم في حرب كان من المتوجب مبـاشرتها منذ أمـد طـويل ، على الذين طـال انشـغالهم بـاللصوصية أن يتحـولوا ليكونوا جندا للمسيح ، وليقم الذين حاربوا في الماضي ضد الهم واخوانهم بالحرب الآن ضد البرابرة ، دع الذين كانوا يكتـرون لقـاء دريهمـات مـن الفضة (متى : ٣٠٢٧) يحصلون الآن على ثواب سرمـدي ، ودع الذين كانوا ينهكون انفسهم ويدمرون أجسادهم وأرواحهم يكافحون الآن لنيل ثواب وأجر فيه تعويض مضاعف ، وبعد مـاذا يمـكن أن اقول اكثر من هذا ؟ سـيقف الفقـراء والتعسـاء أولا على طـرف

وسيقف الأغنياء حقـا على طـرف أخـر ، هناك وقـف أعداء الرب ، وهنا وقف اعوانه .

لاتدعوا حائلا يحول دون الذين يريدون الذهاب ، دعوهم يعدون امورهم ويجمعون أموالهم ، وعندما ينقشع الشتاء ويحل فصـل الربيع ، عليهم أن ينطلقـوا بقلوب عامـرة بـالايمان ، وليأخـذوا الطريق تحت أشراف الرب وقيادته .

اسقف لى بوي والوقائع التي تلت

بعدما تفوه البابا بهـذه الكلمـات ، ثـارت حمية الحضـور جميعا ، ووعد العديد منهم بأن يذهبوا على الفور ، وأن يحثوا مـن لم يشهد الاجتماع أن يفعل الشيء نفسه ، وكان ذلك اعتقادا منهـم أن لاشيء يفوق هذه المسألة أهمية ، وكان بين الحضور اسـقف لى بوي واسمه أدهمر ، وهو الذي غدا فيما بعد القـائد الروحـي الذي قاد بحكمته وحسن تدبيره الجيش برمته والهمه بكل حزم كيف يؤدي مهمته .

وبعدما أقر المجمع هذه الأمور التي وصـفنا ، وتمـت الموافقـة عليها بـالاجماع ، منحـت تبـريكات الغفـران ، وارفض الاجتماع ، ومالن عاد الجميع الى مساكنهم حتى أخبـروا الذين لم يعلموا بكل ماجرى ، وإثر انتشار قرارات المجمع في جميع أطـراف المقاطعات ، وافـق الجميع وأعطـوا مـواثيقهم بـالحفاظ على السلام ، والتقيد بشروط « هدنة الرب ».

وفي الحقيقة ماأن سمع كثير من الناس من مختلف المراتـب بمـا حدث وبغفران الذنوب حتى بادروا الى اعطاء مـواثيقهم والاقسـام على أن ينطلقوا بأرواح طـاهرة سـواء أمـروا بـالذهاب أم لم يؤمروا .

أواه كم اسعد نفوسنا واثلج صدورنا رؤية الصلبان المصنعة مــن الحرير أو من السندس المذهب ، أو قماش فاخر أخر ، وقد خاطها الحجاج من الفرسان والعامة على اكتاف أرديتهم ، فلقد فعلوا هذا كله طاعة لأوامر البابا أوربان ساعة أدائهم القسم بالذهاب ، ولقــد كان جديرا أن يتولى شعار الرب ورمز انتصاره حماية جنده وتثبيت هوية الذين كانوا يعدون العدة في سبيل الدفاع عن مجده ، وبما أنهم حلوا نفوسهم بشعار دينهم هذا ، فانهم نالوا في النهاية من الرمــز ذاته الحقيقة بحد ذاتها ، لقد حملوا الشارة الخارجية حتــى يدركوا في النهاية الحقيقة الداخلية .

ومن الجلي أن النوايا الطيبــة تقــود الى انجــاز الأعمـــال الطيبة ، وأن العمل الطيب يؤدي الى خلاص الروح ، وبناء عليه ان افضل مايقوم به المرء هــو أن يدخـــر نخيرة له مـــن الأعمـــال الحسنة ، حتى يتأمن له من خلالها غذاء للروح ، فليتوكل امرىء أن يعمل صالحا حتى يحقق عملا أصلح ، وفي النهاية سيحصل ـ اذا كان جديرا ـ على افضل مايكون ، وهذا مـــالا تنقص قيمتــه الى الأبد .

شعر

وبهذه الوساطة شرع أوربان الرجل العاقل المبجل

بعد التأمل ، بعمل أشرقت منه الدنيا .

لقد أعاد احلال السلام ، ووطد من جديد حقوق الكنيســة كســالف عهدها ، كما وبذل جهودا مضنية لطـــرد الكفـــار مـــن بـــلاد المسيحيين ، وبما أنه ناضل بــلا هــوادة في ســبيل تمجيد كل شيء مصدره الرب ، فقد دان له الجميع بالطاعة وقبلوا سلطته الأبوية .

النزاع بين البابا أوربان وجيلبرت :

اقام الشيطان ، الذي يسعى دوما وبلا انقطاع لتدمير الانسان ، ويطوف في الأرض كالسبع المفترس الباحث عن فريسة يلتهمها (بطرس : ١ـ٨٥) اقام ليشيع الفوضى بين الناس ، منافسا للبابا أوربان اسمه جيلبرت ، وقد بدأ هذا الرجل ، مدفوعا بالرعونة ، ومدعوما بصفاقة امبراطور بافاريا سالف الذكر ، باغتصاب الكرسي البابوي ، وبينما تمسك غريغوري المعروف باسم هيلديبراند ، وهو البابا الذي تقدم على أوربان بمنصبه البابوي في الكنيسة ، منعه جيلبرت نفسه من الاقتراب من كنيسة القديس بطرس .

وبعد ما تمادى جيلبرت في تعنته ، ارتأى اتقياء الناس عدم الاعتراف به ، وبعد وفاة هيلدبراند جرى انتخاب أوربان بصورة شرعية ، وتم ترسيمه من قبل الكرادلة ، وقد مال القسط الأكبر من الناس وأكثرهم ورعا الى طاعته .

وافلح جيلبرت ، بدعم من الامبراطور السالف الذكر وحماس جل أهل روما ، في ابعاد أوربان عن كنيسة القديس بطرس لمدة طويلة ، وطاف أوربان خلال الفترة التي ابعد فيها عن كنيسته في انحاء البلاد ساعيا الى تقريب القلوب من الرب وتصحيح اعوجاج ذوي الغواية .

وبحكم احتلاله للمركز الرئيس في الكنيسة ، ازدادت غطرسة جيلبرت ، بيد انه أبدى تهاونا تجاه أهل الخطيئة ، ومارس ومعه جماعته ظلما وظائف منصب البابوية ، ولم يعبأ بأعمال اوربان وسعى الى ابطال فعاليتها .

غير أن أوربان قد تمكن في السنة نفسها التي مر بها الفرنجة في

روما في طريقهم الى القدس ، من الاستيلاء على السلطة الكنسية بفضل عون تلقاه من سيدة فاضلة اسمها ماتيلدا ، كانت في تلك الآونة واسعة النفوذ في منطقة روما التي انحدرت منها ، وكانت جيلبرت وقتذاك في المانيا ، وهكذا صار لروما بابوان،الأمر الذي أدى الى حيرة الناس بشأن من يطيعون منهما ، والى من يعودون ومن يمنح الغفران الى مرضاهم ، وفضل بعضهم هذا واثر آخرون ذاك .

وكان جليا لذوي العقول من الرجال أن أوربان كان هو الأفضل ، وفي الحقيقة أن الأفضل هو الذي يضبط نفسه ويتحكم بعواطفه ويضبطها كما لو كانت عدوة له .

وكان جيلبرت بحكم كونه أسقفا لمدينة رافينا ثريا جدا ، وكان يختال في مظاهر البذخ والترف ، ومن المثير للدهشة أن هذه الثروات لم تشف غليله ، وبناء عليه هل يعقل أن يعد نموذجا للحياة المثلى الذي يعشق المظاهر ويتطاول بكل قحة على اغتصاب عرش سلطة الرب ، وان هذا المنصب لايجوز حيازته بالقوة بل ينبغي تقبله بكل تواضع وخشوع .

وليس من المدهش ان أصيب العالم بأسره بالقلق والحيرة ، فعندما تضطرب أمور كنيسة روما ، التي هي مصدر التقويم لجميع المسيحيين ، سيصيب المرض المعدي الساري في أوصالها الرئيسية جميع الأعضاء التابعين لها ، وسيزداد ضعفهم بسبب معاناتهم من أجلها .

أجل الحق يقال ان هذه الكنيسة هي أمنا ، التي تربينا في أحضانها ونشأنا على مثلها واعتدنا ، واشتد عودنا بمشورتها ، أجل هذه هي الكنيسة نفسها قد ضربت بكل قحة من قبل جيلبرت الأرعن المتكبر ، ومعروف أنه عندما يصاب الرأس تتداعى بقية الأعضاء في الحال .

- ٢٧٢٦ -

شعر :

عندما يصاب الراس
يصيب الأذى بقية الأعضاء .

وعندما مرض الراس على هذه الصورة ، ازداد الضعف في الأطراف نتيجة الآلام التي انتشرت في جميع ارجاء اوربا ، حيث داس الناس ، سواء أكانوا اقوياء أم ضعفاء ، وسيان اكانوا داخل الكنيسة أم خارجها ، بأقدامهم على الفضيلة والسلام والدين ، وبات من المتوجب وضع حد لهذه الشرور جميعا ، وتدبرت الخطة التي احكمها البابا أوربان أن يتحول الصراع والقتال – الذي دار حتى الآن بين المسيحيين – فيوجه ضد الكفار .

والآن سأوجه قلمي نحو تدوين التاريخ بغية اخبار الذين لم يعلموا بما حدث لرحلة القاصدين الى القدس ، وماجرى لهم من وقائع وسأبين كيف توجت خططهم واعمالهم بالنجاح بعون الرب ، فلقد جمعت أنا فولتشر أوف تشارترز ، الذي سافرت مع الحجاج ، بكل دقة وعناية فائقة ، ذلك كله في ذاكرتي ، من اجل الأجيال المقبلة ، ودونته تماما كما شهدته بنفسي .

اوقات انطلاق المسيحيين واسماء قادة الحجاج

شرع في شهر اذار من عام ١٠٩٦ بعيد عقد المجمع الذي دعا اليه البابا اوربان الثاني في تشرين الثاني حسبما ذكرنا في اوفيرن كليرمونت ، بعض الذين بادروا الى تجهيز انفسهم واكملوا اعداداتهم ، شرعوا في الرحلة المباركة ، وسار اثرهم آخرون في نيسان او ايار ، وفي حزيران او تموز أو حتى في آب وايلول وتشرين

أول كل حسب مقـدرته على تـوفير الموارد الكافية لسـداد نفقـات التكاليف .

ومن نعم الرب أن الحبوب والنبيذ وجدت في ذلك العـام بـكميات وافرة جدا في جميع البلدان ، وبذلك توفر الخبز خـلال الرحلة للذين حملوا صلبانهم واختاروا اتباع طريق الرب .

ولما كان من المفيد الاتيان على ذكر أسماء الحجاج في تلك الرحلة فانني اذكر : هيوج الكبير أخو فيليب ملك فرنسا ، فهـو كان أول الأبطال الذين عبروا البحـر ، فقـد نزل هيوج مـع رجـاله في ديرازو ، وهي مدينة بلغارية ، غير أنه اندفع بكل طيش على رأس قوة صغيرة ، فـاعتقله سـكان المنطقـة وحملوه الى امبـراطور القسطنطينية حيث بقي فترة من الزمن محروما من حريته .

وبعده بوهيموند أبوليا بن روبـرت غويسـكارد ، مـن شـعب النورمان ، الذي سار بجيشه على الطريق نفسه .

وبعده غودفري ، دوق اللورين ، الذي سافر عبـر هنغـاريا على رأس قوة أكبر .

وبعده ريموند كونت بروفانسال ومعه القـوط والكاسـكون ثـم أدهمر أسقف لي بوي ، وزحف هؤلاء عبر دلماشيا .

وكان أول من عبر هنغاريا المدعو بطرس الناسك ، وبعدما جمـع حوله حشدا كبيرا مـن الرجـالة ، وعددا ضـئيلا مـن الفرسان ، وأصـبح بعـد ذلك وولتـر المعـدم ، وكان جنديا قديرا ، قائدا لهذه المجموعة ، وقد لاقى وولتر هذا منيتـه مـع عدد كبير من أعوانه بين نيقوميديا ونيقية على أيدي التركمان .

وبدأ في شهر تشرين الأول روبرت كونت نورماندي ، ابـن وليم

الفاتح ، ملك انكلترا ، رحلته بعدما حشد جيشا كبيرا من النورمان والانكليز والبريطانيين ، وقد مضى معه ستيفن كونت بلوا الذي كان زوج اخته ، وروبرت كونت الأراضي المنخفضة ، ومعه حشد من النبلاء .

وهكذا تقاطرت هذه الحشود العملاقة من جميع البلدان الغربية ، وتعاظم حجم الجيش يوما اثر يوم ، وتضخم أثناء زحفه من شرانم صغيرة قليلة العدد الى مجموعة من الجيوش ، وحوى أعدادا لاتحصى من بلاد متعددة تنطق بلغات شتى ، انما لم تجتمع في جيش واحد الا مقابل مدينة نيقية .

ثم ما الذي أزيد فأقوله ؟ لقد زحفت الجزر في البحار والممالك في الأرض حتى أيقن الانسان أن نبوءة داود قد تحققت بقوله : « كل الأمم الذين صنعتهم يأتون ويسجدون أمامك يارب » (مزامير : ٨٥ ٩) وحسبما قال الذين أتوا بعد ذلك بحق :« لنسجد عند موطىء قدميه » (مزامير : ٦/١٣) ولقد قرأنا كثيرا عن هذه الرحلة في كلام الأنبياء ، ولن نكرر ذلك هنا ثانية حتى لانسبب الملل .

كم أصابهم من أسى ، وكم أجهشوا في البكاء وندبوا وانتحبوا ، عندما فارقوا رفاقهم وأزواجهم الأعزة عليهم وأولادهم وممتلكاتهم مهما كثرت ، وآباءهم وأمهاتهم واخوانهم وذويهم وآلهم الآخرين .

ومهما تدفقت دموع مودعيهم أمامهم ، فان احدا منهم لم يتقاعس عن الذهاب ، لأنهم تركوا ، في سبيل محبة الرب ، مايملكون ، وكلهم ثقة وقناعة سينالون مائة ضعف مما وعد الرب لمحبيه .

(متى : ١٩ ٢٩ .مرقس : ١٠ ٢٩ ــ ٣٠ .لوقا : ٢٩/١ ــ ٣٠) .

ولقد أخبر الزوج زوجته عن موعد عودته ، مؤكدا لهـا ، أنه اذا ماكتب الرب له السلامة فسيعود اليها ، ثم طلب من الرب أن يعتني بها ، وقبلها مطولا ، ووعدها من خلال دموعه أنه سيعود ولكنهـا لخوفها من أنه لن تقع عيناها عليه ثانية ، اغمـي عليهـا ، وهـي تترحم على من تحـب ، وتندب فقـدانه كمـا لو أنه فـارق الحياة فعلا ، ثم انه غادر ، كمـن ليس في قلبـه شـفقة ــ مـع أنه كان شفوقا ــ وكمن لم يتحرك لدموع زوجته ولحـزن محبيه ــ مـع أن قلبه قد امتلأ حزنا ــ لقد غادر بكل عزم وحزم . ثم ماذا نسـتطيع أن نقول أكثر مما قلناه ؟ بقدر من الرب كان هذا ، وهـو عجيب في أعيننا (متى : ٤٢/٢) .

رحلة كونت النورمان والذي جرى في روما خلال وجودهم هناك :

ثم عبرنا نحن الفرنجة الغربيين غاليا ، وسافرنا عبر ايطاليا الى مدينة لوكا الشهيرة ، وعلى مقـربة منهـا التقينا بـالبابا أوربـان الثاني ، وقد تحادث معه روبرت كونت نورماندي وستيفن كونت بلوا وكذلك فعل آخرون منا من الذين رغبوا في محادثته ، وبعد أن منحنا بركاته سرنا الى روما بحبور وغبطة .

وعندما دخلنا البازيليكا في كنيسة القديس بطرس ، وجـدنا رجـال جيلبرت ، ذلك البابا الأحمق يقفون أمام المذبـح ، وقـد تخـاطفوا باجرام ــ وسيوفهم مشرعة ــ الهبات المقدمة على المذبح ، وسعى بعضهم وركض في ردهات الكنيسة وأخذوا يرموننا بالحجارة ونحن راكعون في الصلاة ، ذلك أنهم لم يروا أحـدا مخلصـا لأوربـان إلا وأزمعوا على قتله في الحال.

وكان رجال البابا أوربان يحـرسونه في واحـد مـن أبـراج البازيليكا ، بكل عزيمة واصرار على مقاومة أعدائه ، وقد أصـابنا

الأسى عندما رأينا الآثام التي تقتـرف هناك ، ومـع هـذا تمنينا في قرارة نفوسنا ألا يقع حادث إلا انتقاما للرب ، وخـلال هـذا رجـع العديد من الذين حضروا معنا الى بيوتهم وقـد أضـعفهم الخـوف والجبن.

أما نحن فقد واصلنا سفرنا عبر أواسط كمبـانيا ووصـلنا الى باري ، وهي مدينة وافرة الثراء على شاطىء البحر ، وصلينا هناك في كنيسة القديس نيقولا للرب بكل حرارة ، ثم تـوجهنا الى المرسى على أمل الجواز في الحال ، غير أن البحارة اعترضوا لاقتراب فصل الشتاء مما قد يعرضنا للمخاطر ، فاضطر روبرت كونت نورمـاندي الى الانـسحاب الى كالبريا حيث أمضى الشتاء ، أما روبـرت كونت الأراضي المنخفضة فقد عبر في الحال.

ووجد في تلك الآونة عدد كبير مـن العـامة انفسـهم بـلا معين ، وخافوا من الحاجة في المستقبل ، فباعوا سلاحهم وخلعـوا ثياب الحج ، ورجعـوا بخسـة ونذالة الى ديارهـم ، لذلك لحقهـم ازدراء الرب ، وحل بهم الخزي والعار .

غرق الحجاج وظهور المعجزة الربانية:

ومع عودة ربيع عام ١٠٩٧ ، عاد في آذار كونت نورماندي وكونت ستيفن بلوا مع أتباعها نحو شاطىء البحـر ، ذلك أن سـتيفن كان أيضا ينتظر الوقت الموائم للابحار ، وعندما تم تجهيز الاسـطول في مطلع نيسان الذي وافق يوم الصعود (٥ ـ نيسان) ركبوا البحـر في ميناء برنديزي.

«يا لعمق غنى الرب وحكمته وعلمه ، ما أبعد احكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء» (رومية: ١١/ ٣٣) إذ أننا شهدنا واحدة من السفن الكثيرة القريبة من الشاطىء وقد انشطرت مـن وسـطها

الى نصفين دون سبب واضح وابتلعها اليم ، فهلك بذلك أربعمائة شخص من الجنسين ، وصعدت أرواحهم الى عليين مصحوبة بصلوات الغفران الى الرب.

وبعدما جمع المحيطون بهم ما استطاعوا من جثث الغرقى ، وجدوا أن الصلبان قد حفرت فعليا في جلد بعضهم فيما بين الكتفين ، ولكم هو رائع أن شعار الفداء هذا الذي وضعوه فوق ملابسهم وهم أحياء ، سيظل بارادة الرب رمزا لايمان هؤلاء الذين ضحوا بنفوسهم في سبيله ، زد على هذا كم كان موائما أن أظهرت هذ المعجزة لكل من شاهدها أن الأموات قد حصلوا برحمة من الرب ـ على الأمن والسلام في الحياة السرمدية ، وهكذا تحققت نبوءة الكتاب المقدس بدون أدنى لبس و " العادلون وإن ماتوا قبل أوانهم سيكونون بأمان ".

وكان قد نجا عدد ضئيل من الركاب بعدما صارعوا الموت ، وابتلعت الأمواج خيولهم وبغالهم وتم فقدان الكثير من الأموال ، وقد روعنا مشهد هذه الكارثة الى درجة أن بعض ضعاف النفوس ممن لم يكونوا قد صعدوا الى السفن بعد ، انتكسوا على أعقابهم ، وتخلوا عن الحج قائلين إنهم لن يثقوا بهذا البحر الغادر ويؤمنوه على أرواحهم أبدا.

أما نحن فقد اقلعنا في البحر ـ وكلنا ثقة واعتماد على الرب القدير ـ تدفع بأشرعتنا ريح طيبة ، وتزعق من حولنا ابواق عديدة ، ومع حلول اليوم الرابع وصلنا الى البر قرب مدينة ديرازو ، أي على بعد عشرة أميال كما يخيل الي ، ودخل اسطولنا في مرسيين ، ونزلنا الى اليابسة والغبطة تملأ نفوسنا ، وعبرنا من أمام المدينة المذكورة ثم سرنا عبر اراضي البلغار وسط جبال شاهقة وجروف مهجورة حتى وصلنا الى نهر يتدفق بسرعة يدعوه سكان المنطقة باسم نهر الشيطان ، وكانت تسمية محقة إذ شاهدنا العديد من العامة يغرقون في هذا النهر بعدما أملوا في أن يخوضوه خطوة

خطوة ، غير أن التيار جرفهم بقوة هائلة ، ولم يستطع أحد من الشهود انقاذ أيا منهم ، ولقد ذرفنا عليهم دموع الشفقة الوافرة ، ولولا أن الفرسان قدموا العون للرجالة فأجازوهم على ظهور خيولهم المدربة لهلك العدد الأكبر منهم ، ثم عسكر نا على مقربة من الشاطىء ، وامضينا ليلتنا هناك تحيط بنا جبال شاهقة خالية من السكان.

مع اشراقة الصباح صدحت الأبواق ، فشرعنا نتسلق جبل باجولاتس (باجورا) وبعدما تسلقناه مررنا بمدن: لوكريسا وموناستير ولوفيانت (اديسا) وستيللالا ، ثم وصلنا الى نهر داريوس (فاردار) ومع أن هذا النهر يقطع عادة بالقوارب غير أننا خضناه بعون الرب وجزناه بدون قوارب ، وعسكرنا في اليوم التالي امام مدينة سالونيك ، وهي مدينة تزخر بالسلع من كل جنس.

وبعدما توقفنا لمدة اربعة أيام عبرنا بلاد مقدونية عبر وادي فيلبة ثم عبرنا نكريسوبولس و كريستوبولسن ،بريتوريا ،و تيسنوبوالس ،و ماكرا ،و ترايانوبولس ، و نيبابولس ، و بانا دوكس ،و رودوستو ،و هرقلية ، و سلامبريا ، و ناتورا وصولا الى القطنطينية ، التي عسكرنا أمامها و استرحنا لمدة أربعة عشر يوما .

ولم نحاول الدخول الى االمدينة ، لعدم موافقة الامبراطور (لأنه كان يخشى أن نتآمر عليه ونسبب له االأضرار) لذلك توجب علينا شراء حاجياتنا اليومية من خارج الأسوار ، وقد أحضر الأهلون هذه السلع بأمر من الامبراطور ، ولم يسمح لنا بدخول المدينة إلا بمعدل خمسة أشخاص أو ستة في كل ساعة ، وهكذا في الوقت الذي كان بعضنا يغادر المدينة كان أخرون يدخلونها للصلاة في كنائسها.

من القسطنطينية الى نيقـية:

كم هي جميلة مدينة القسطنطينية لا بل كم هي رائعة ، كم فيهـا من كنيسة ودار بنيت من قبل أمهر الصناع ، إن ما يراه الانسان في شوارعها العريضة لا بل في أزقتها الضـيقة ، مـن أعاجيب شيء لا يحصى ، ومن المضني أن يحصى الانسان الثروات التـي فيهـا مـن الذهـب والفضــة ، والثياب بجميع اصـنافها والآثـار المقدسة ، فالتجار يجلبون اليها من أسـفارهم العـديدة ، كل مـا يحتاج إليه بني البشر ، وبتقـديري أن مـالا يقـل عن عشرين ألف خصي يعيشون فيها على الدوام.

وبعدما استجمينا بما فيه الكفـاية ، عقـد قـادتنا ــ بعـد التداول ــ اتفاقية مع الامبراطور ، وأعطوا أيمانهم عليهـا ، وكان غودفري وبوهيموند اللذان تقدمانا الى هنا ، قد وافقا عليهـا ، غير أن الكونت ريموند رفض المصادقة عليهـا ، مـع أن كونت الأراضي المنخفضة صادق مثلما فعل الآخرون.

وكان من المحتم علينا إقامة علاقات ودية مع الامبـراطور ، ذلك أنه بدون مسـاعدته ومشـورته لم نكن قـادرين على القيام بهـذه الرحلة ، مثلنا في ذلك مثل الذين سـيقدمون بعـدنا عبـر هـذا الطريق ، وقد منح الامبـراطور الى الأمـراء هبـات كثيرة ، وخلع عليهم أردية الحرير حتى أرضاهم وأعطاهم الخيول والأموال التـي احتاجوا اليها لأداء هذه الرحلة.

وعبرنا بعد ذلك بحر البوسفور ، وخففنا الخـطى نحـو مـدينة نيقية ، حيث كان كل مـن الأمير بـوهيموند ، والدوق غودفري ، والكونت ريموند ، وكونت الأراضي المنخفضة قـد شرعوا بحصارها منذ شهر أيار ، وكانت انذاك تحت حكم الأتراك ، وهـم شعب شجاع ، جاء مـن الشرق ، مـاهر في اسـتخدام القـوس

والنشاب ، وكان هذا الشعب قد عبر الفرات قبل خمسين سنة من بلاد فارس ، واستولى على الأراضي البيزنطية حتى نيقوميديا.

وا أسفاه كم من راس مقطوعة رايناها وكم هي كثيرة عظام الهالكين التي وجدناها مطروحة في البراري قرب البحر حول نيقوميديا ، فقد كان الاتراك في ذلك العام (١٠٩٦) قد ابادوا قومنا الذين لم يعرفوا القوس ولم يختبروا كيفية استخدامه ، وقد هز هذا المشهد مشاعرنا ، فذرفنا الدموع الغزيرة.

حصار نيقية وسقوطها:

عندما سمع الذين كانوا يتولون حصار نيقية نبأ وصول قائدنا كونت نورماندي ، وستيفن بلوا ، قدموا مسرورين لمقابلتنا ، ورافقونا الى موقع في جنوبي المدينة حيث اقمنا معسكرنا.

وكان التركمان قد حشدوا فيما مضى قواتهم ، وزحفوا على امل بصد المهاجمين واستدراجهم بعيدا عن المدينة ، او أن يدافعوا عنها بجندهم بفاعلية اعظم ، غير أن رجالنا ردوهم على اعقابهم وهزموهم بكل ضراوة ، وقتلوا اكثر من مائتين منهم ، وعندما راى هؤلاء أن الفرنجة أشداء متمرسون في فنون القتال تراجعوا مهرولين الى داخل الأناضول يتحينون الفرصة للانقضاض ثانية.

لقد كنا آخر من وصل للمشاركة في الحصار في الاسبوع الأول من تموز (٣ ـ تموز ١٠٩٧) وكونت في ذلك الوقت الجيوش العديدة التي احتشدت هناك جيشا واحدا ، قدر تعداده العارفون بأنه حوى ستمائة الف رجل قادر على القتال ، كان من بينهم مائة الف دارع يحملون أيضا الترسة ويضعون على رؤوسهم الخوذ ، وذلك بالاضافة الى الذين كانوا غير مسلحين اي رجال الدين والنساء والأطفال.

ثم ماذا بعد هذا؟لو أن جميع الذين غادروا ديارهم للمشاركة في هذه الحملة المقدسة احتشدوا في ذلك المكان لجاوز تعدادهم ستة ملايين محارب ، وهذا ما لاشك فيه ، غير أن بعضهم رجع من روما ، وبعضهم الآخر من ابوليا ، ثم من هنغاريا ودلماشيا ، لأنهم لم يتحملوا المشاق ، وقتل في أماكن عديدة أعداد كبيرة قدرت بالآلاف ، كما مات عدد كبير من المرضى الذين قدموا معنا ، هكذا امتلأت الطرقات والحقول بقبور الحجاج الذين دفنوا علنا.

ويتوجب علينا ان نبين انه طيلة حصارنا لمدينة نيقية كانت المؤن والأغذية تصل الينا بوساطة السفن وبرضى من الامبراطور ، ثم أمر قادتنا بصنع الآلات الحربية من أكباش وابراج خشبية ومجانيق ، واطلقت السهام من الأقواس ، والحجارة من المجانيق ، وتحارب رجالنا ورجال العدو كرا وفرا بكل ما أوتوا من قوة ، ولقد هاجمنا المدينة بمعداتنا الحربية مرارا وتكرارا لكن مناعة الأسوار وحصانتها أحبطت جهودنا ، وسقط خلال ذلك عدد كبير من الأتراك ومن رجالنا بعد اصابتهم بالسهام او بالحجارة.

الحق اقول إن الحزن كان سيملأ قلبك ، والدموع ستنهمر من عينيك لو انك شاهدت الأتراك وهم يقتلون اي واحد منا لدى اقترابه من الأسوار ، إذ انهم كانوا يرمون الخطافات الحديدية ، وينتشلون الجثة كي ينهبوها ، ولم يجرؤ أحد من رجالنا — أو استطاع — انقاذ الجثة من أيديهم ، وكان الأتراك يرمون بتلك الجثث خارج الأسوار بعد سلبها وتعريتها .

وسحبنا عبر اليابسة عدة قوارب صغيرة بوساطة الثيران والحبال ، وكنا قد جلبنا هذه القوارب من بحيرة سفيتوت وأوصلناها حتى بحيرة نيقية حيث ألقيناها فيها واستخدمناها لحراسة مداخل المدينة بغية منع وصول المؤن والمعونات اليها.

وبعدما مضى على حصارنا للمدينة خمسة اسابيع ، القينا خلالها

الرعب في قلوب الأتراك بهجماتنا ، عقد هؤلاء مؤتمرا أرسلوا على إثره الوسطاء الى الامبراطور وسلموا اليه المدينة سرا ، بعدما كنا قد ضيقنا عليها الحصار بقوانا وببراعتنا.

ثم أدخل الأتراك الى المدينة مجموعة من التوركبلي ، بعث بهم الامبراطور الى هناك ، وتسلم هؤلاء المدينة بكل ما كان فيها من ثروات باسم الامبراطور تماما حسبما امرهم ، وبعد مصادرة ما كان فيها من أموال أمر الامبراطور باعطاء الهدايا والهبات لقادتنا ، وكانت الهدايا من الذهب والفضة والثياب ، كما وامر بتوزيع قطع النحاس التي يسمونها « ترترون » على الرجالة.

وفي اليوم الذي سقطت فيه نيقية او أستسلمت بهذه الطريقة كان قد انقضى عشرون يوما من شهر حزيران.

المعركة المدمرة بين المسيحيين والأتراك:

بعدما حصل أمراؤنا على الأذن بالرحيل من الأمبراطور ، شرعنا في اليوم الثالث قبل مطلع شهرتموز متجهين الى داخل بلاد الأناضول ، وبعدما سرنا لمدة يومين وصلتنا أخبار تفيد أن الأتراك قد نصبوا لنا كمينا في سهل خيل اليهم أننا لا بد مجتازوه ، لهذا توقعوا أن يحاربونا هناك.

وعندما علمنا بهذا لم نجبن ولم تتخل عنا شجاعتنا ، ولما اكتشفت طلائعنا في تلك الأمسية كثيرا من الأتراك على بعد منا اعلمونا بذلك على الفور ، فشددنا الحراسة طوال الليل لحماية المعسكر من جميع الجهات ، وفي الصباح التالي الذي وافق أول تموز ، حملنا اسلحتنا وعلى صوت الأبواق عبأنا الجيش ووضعناه

في ترتيب المعركة ، وسـار الأمـراء والقـادة على راس الكتـائب والسرايا ، وبأعلام خفاقة بدانا الزحف بكل انتظام.

وفي الساعة الثانية من النهـار اقتـربت طـلائعهم مـن مقدمتنا ، وحين عرفنا ذلك ، عسـكرنا على مقـربة مـن مسـتنقع هناك ، وانزلنا حمولة دوابنا ومن ثم هيأنا انفسنا للقتال.

وإثر ذلك واقعنا الأتـراك ، اولئك الفـرس الكفـرة ، الذين كان أميرهم قلج أرسلان بن سليمان يملك نيقية واراضي الأناضول تحت سلطانه ، وكان الاتراك قد استجابوا لأوامر سليمان فقدموا لنجدته من مسيرة ثلاثين يوما ، وكان بصحبته العديد مـن الأمـراء مثـل كرادجيم (قـراجة؟) وامير ياتـوش (اقـوش ـ اتسـز؟) وسواهما ، وبلغ تعدادهم ثلاثمائة وستين الف مقاتل ، كلهـم مـن حملة القوس والنشاب ، فقد كان من عادتهم التسلح هكذا ، وكانوا جميعا يمتطون الخيول ، أما نحن فـكان بيننا رجـاله وكان ايضـا لدينا حملة قوس ونشاب.

وكان الدوق غودفري والكونت ريموند وهيوج العظيم قد تغيبـوا عنا أنذاك لمدة يومين ، فقد انفصلوا عنا لسبب أجهله ، مع مجموعة كبيرة من الرجال عند مفترق احـد الطـرقات ، ولهـذا تحملنا اثناء القتال خسائر لا تعوض ، فهلك عدد كبير مـن رجـالنا يوازي عدد الاتراك الذين نجوا من الموت والأسر فيما بعد ، ولأن جماعتنا الذين انفصلوا عنا تأخروا في استلام رسائلنا ، فقـد تـأخروا في القـدوم لنجدتنا.

وكان الاتـراك في تلك الأثناء يزمجـرون ويصرخـون كالذئاب المفترسة ، ويرموننا بكل ضراوة بوابل كثير من السهام فوجا إثـر اخر ، ولهذا اصبنا بصدمة ، وبمـا اننا نواجـه الموت ، وحيث أن عددا كبيرا من رجـالنا اصـيبوا بـالجراح ، فقـد ركنا الى

الفرار ، وليس هذا بمدهش ، ذلك أن أساليب القتال هذه لم تكن معروفة لدينا.

وفي الجانب الآخر من المستنقع شقت قوة كبيرة من الأعداء طريقها بكل ضراوة حتى اقتربت من معسكرنا ، ودخل الأتراك الى خيامنا وتخاطفوا امتعتنا وقتلوا بعض رجالناوحدث هذا عندما اخذت مقدمة جيش هيوج العظيم والكونت ريموند والدوق غودفري تصل إلى أرض الكارثة إلى حيث المؤخرة ، ولهذا عندما تراجع رجالنا إلى الخيام خيل إلى العدو والذين كانوا ينهبون هناك اننا كررنا لمهاجمتهم لذلك لاذوا بالفرار ، لكن اه لو علموا الحقيقة فما خيل إليهم أنه شجاعة وإقدام لم يتعد الخوف والرعب الشديدين !

ثم ماذا اقول بعد هذا ؟ كنا قد تجمعنا مع بعضنا كما تتجمع الأغنام ، ترتعد فرائصنا ويهدنا الرعب ، ويحيط بنا العدو من جميع الجوانب إلى حد أننا لم نقدر على التحرك بأي اتجاه ، ووضح لنا انذاك أن مانزل بنا كان نتيجة اثامنا ، إذ افسد الترف بعضنا ، في حين افسد الجشع مع رذائل أخرى البقية ، وصدرت أصوات شديدة وانبعثت إلى السماء لامن رجالنا واطفالنا ونسائنا فحسب بل من عند الكفار المهاجمين لنا ، وانذاك فقدنا كل امل لنا بالبقاء ، واعترفنا ساعتئذ باثامنا امام مجلس العدالة ، واستمطرنا بكل تواضع رحمة الرب ، وكان في أوساطنا أسقف لى بوي مرشدنا ، ومعه أربعة اساقفة اخرين وكثير من الكهنة ، تدثروا جميعا بالأردية البيضاء وتوسلوا بكل خشوع إلى الرب أن يهزم عدونا ، وأن يمدنا بعونه ، ورتلوا باكين ، وبكوا مرتلين ، وهرول كثير من الناس نحو رجال الدين موقنين أن نهايتهم قد دنت وقصدهم الاعتراف بخطاياهم .

وقاوم قادتنا : الكونت روبرت النورماندي ، وستيفن كونت بلوا ، وروبرت كونت الأراضي المنخفضة وبوهيموند الأتراك بكل

ما أوتوه من قوة و حاولوا مرارا مهاجمتهم غير أنهم صدوا وردهم الأتراك بكل قسوة .

هرب الأتراك وانتصار المسيحيين :

وفي الحقيقة لايمنح الرب النصر لمجد النبلاء ، ولالبراعة المقاتلين ، لكنه يمنحه لمحبته للذين صفت نفوسهم ، وينزله على الذين تحصنوا بالقوة الربانية وقت حاجتهم إليه ، ولذلك يبدو أنه استجاب لدعواتنا ، فبدأ يعيد إلينا قوتنا رويدا رويدا ، ويضعف قوة الأتراك ، فما أن رأينا رفاقنا في المؤخرة قادمين لنجدتنا حتى مجدنا الرب ، واستعدنا شجاعتنا وأعدنا تنظيم صفوفنا وفيالقنا واستبسلنا في التصدي للعدو ومقاومته .

واحسرتاه كم قتل الأتراك في ذلك اليوم من رجالنا الذين تأخروا وراءنا على الطرقات ، وحلت الكوارث بين صفوفنا من الساعة الأولى للنهار حتى الساعة السادسة ، غير اننا استرددنا شجاعتنا شيئا فشيئا إثر وصول رفاقنا ودعمهم لنا ، وما أن حلت النعمة الربانية علينا وظهرت المعجزة العلوية بين صفوفنا حتى لوى الأتراك أعنتهم فجأة وولوا الادبار .

و طاردناهم و نحن نصرخ بكل شراسة فوق الجبال و عبر الوديان ، و لم نتوقف حتى بعدما وصل بعض رجالناإلى خيامهم ، بعض رجالنا كثيرا من جمال وخيول الأتراك بحمولاتهم واستحوذوا حتى على خيامهم التي هجروها لرعبهم ، ولاحق أخرون فلول العدو حتى حلول الظلام ، وبما أن خيولنا جاعت وتعبت فقد أتيح لنا الاحتفاظ ببعض خيولهم .

ومن أيات الرب الكبرى ومعجزاته انه خلال اليومين التاليين او

الثلاثة لم يتوقف الترك عن الفـرار ، مـع أن أحـدا - بـاستثناء الرب - لم يطاردهم أنذاك ، ثم استأنفنا سفرنا بكل حيطـة ، وقـد أصابنا عطش شديد بعض الأيام عصـف بنا إلى حـد أن عددا مـن الرجال والنساء هلكوا عطشا ، وتابع الأتراك فرارهم بلا انتـظام ، وبحثوا لأنفسهم عن ملاجىء يختبئون فيها في الأناضول .

ضيق حال المسيحيين :

بعدما وصلنا إلى أنطاكية الصغرى في مقاطعة بيسيديا ، توجهنا إلى قونية ، وكنا في تلك الأماكن دوما بحاجة إلى الخبز والطعـام ، فقد وجدنا بلاد الأناضول مع أن أراضـيها ممتـازة تـدر الخيرات وتعطي المنتجات من كل نوع ، وجدناها مقفرة لأن الأتراك دمـروها وعاثوا فيها وهجرها أهلها .

ومع هذا كثيرا ما كنت ترى الناس في بحبو حة من العيش لوفرة المحاصيل التي جنيناها من المزارع المنتشرة في أنحاء البلاد ، وقد تم ذلك بمعونة الرب الذي أشبع بخمسة أرغفة وسمكتين خمسـة آلاف نسـمة (متـى : ١٧/ ٢١ . مـرقس : ٦/ ٣٨ - ٤٤ . لوقـا : ٩/ ١٦ . يوحنا : ٦ / ٩ - ١٠) وبذلك قنعنا جميعا ، وأقررنا بكل غبطة أن جميع هذه المنح كانت بركة وهبة من الرب .

ولربما كنت ستضحك أو حتى تبـكي رثـاء لو أنك شـهدت عددا كبيرا من هؤلاء الناس ، ممن لم تتأمن لهم دواب التحميل التي هلك كثير منها ، وقد حملوا حاجياتهم من ثياب وأطعمـة وغير ذلك ممـا يحتاجه الحجاج على كبش أو جدي أو خنزير أو كلب ، وقد قصـمت هذه الأثقال ظهور هذه البهائم الهزيلة وحطمتها ، وفي بعض الأحيان اضطر الفرسان المسلحون إلى ركوب ظهور الثيران .

ترى من الذي سمع خليطا مـن اللغـات في جيش واحـد كهـــذا

الجيش ؟ لأنه اجتمع فيه الفرنجة والفلمنكيون ، والفريسيون ، والفاليون ، واللوبرغيون واللوثارنجيون والبافاريون والألمان والانكليز والسكوتلنديون والأوتانيون والطليان والداشيون والأبوليون والاسبان ، والبريتانيون والاغريق والأرمن ، ولو أراد بريتاني أو الماني أن يخاطبني لما أمكنني إجابته أو فهم سؤاله ، ومع هذا إنه على الرغم من اختلاف السنتنا ، كنا أخوة في محبة الرب ، وكنا على وفاق ووئام في الراي ، وكان إذا مافقد واحد منا بعض حاجياته حفظها له من وجدها لعدة أيام وهو يسأل عن فاقدها حتى يجده فيعيد إليه حاجته ، وفي الحقيقة كان هذا لائقاً بالذين اشتركوا في هذه الرحلة المقدسة .

أعمال الكونت بلدوين أخو غودفري وبطولاته والاستيلاء على مدينة إديسا المعروفة باسم الرها :

لدى وصولنا إلى مدينة هرقلية رأينا مذنبا في السماء ظهر بلون ناصع البياض على شكل سيف يشير نحو المشرق ، ولم نعرف ماذا ينبىء هذا من حوادث المستقبل فلقد أودعنا الحاضر والمستقبل بيد الرب .

وبعد هذا وصلنا إلى مدينة مزدهرة اسمها مرعش ، استجمينا فيها بهدوء لمدة ثلاثة أيام ، وبعدما ابتعدنا عن مرعش مسيرة يوم ، وأصبحنا على مسيرة ثلاثة أيام من انطاكية سورية ، انسحبت أنا فولتشر من الجيش وتوجهت يسارا مع الكونت بلدوين أخو الدوق غوفري، وكان بلدوين فارسا عظيم المقدرة ، وكان قد ترك الجيش مع أتباعه وتوجه إلى طرطوس كليكيا واحتلها بإقدام وشجاعة فائقة ، وانتزعها من تانكرد الذي كان قد أدخل رجاله إليها بموافقة الأتراك ، وبعدما ترك بلدوين حراسه هناك عاد إلى الجيش الرئيس .

وهكذا جمع بلدوين ـ بعدما وضع ثقته بالرب وبقوته الشخصية ـ عددا صغيرا من الفرسان وانطلق في رحلته باتجاه الفرات ، واستولى هناك على عدة مدن عنوة او بالحيلة كان اهمها مدينة تل باشر ، فقد سلمها له بسلام الأرمن الذين كانوا يقطنون فيها ، ثم دانت له مدن أخرى بالطاعة .

وإثر انتشار هذه الأخبار في أرجاء البلاد ارسل امير مدينة الرها وفدا إلى بلدوين ، والرها مدينة ذائعة الشهرة تقع في منطقة من اخصب المناطق ، وهي في الناحية السورية من بلاد الجزيرة ، وتبعد نحو عشرين ميلا عن نهر الفرات ، وقرابة المائة قبل مدينة انطاكية .

وطلب الأمير من بلدوين القدوم إليه كي يصبحا صديقين مثل اب وابنه مادامه أحياء ، وإذا ماحدث ومات أمير الرها يحق لبلدوين تملك المقاطعة برمتها مباشرة ميراثا مستمرا له وكأنه الابن الشرعي للأمير ، ولما لم يكن لهذا الأمير ولد ولابنت ، ولم يكن باستطاعته حماية ولايته من الأتراك ، فإنه اثر ـ كاغريقي ـ أن يدافع بلدوين عنه وعن ولايته ، ذلك أنه سمع أن بلدوين وفرسانه كانوا من أشد المحاربين وأعظمهم بسالة . وما أن سمع بلدوين بهذا العرض وتأكد من صحته من الرسل القادمين إليه من الرها الذين اقسموا امامه على صحة مانقلوه إليه ، حتى انطلق على راس جيشه الصغير المكون من ثمانين فارسا ، وعبر نهر الفرات ، وبعد هذا العبور أسرعنا في سفرنا ولم نتوقف طوال الليل وكان الخوف يملأ صدورنا ، لمرورنا بين مختلف البلدان الشرقية المنتشرة هنا وهناك ، وعندما سمع الأتراك القاطنون في مدينة سميساط الحصينة بقدومنا ، نصبوا لنا الكمائن على الطرقات التي خيل إليهم اننا سنركبها ، غير أن ارمنيا هناك حمانا في قلعته في الليلة التالية ونبهنا لكي نحذر من كمائن الأعداء ، ولهذا السبب اختبأنا هناك ليلتين ، وفي اليوم الثالث هجم الأتراك الذين ضايقهم تأخرنا ، فتخلوا عن كما ئنهم ورفعوا راياتهم ووقفوا أمام القلعة التي اعتصمنا فيها ، واستولوا على المواشي التي كانت ترعى في الحقول

وخرجنا لقتالهم ، لكن لقلة أعدادنا لم نستطع منازلتهم ، ولقد رمونا بالسهام ، غير انهم لم يصيبوا احدا منا بجراح ، وخلفوا على أرض المعركة واحدا من رجالهم وقد صرعه رمح ، وقد امسك الرجل الذي قتله بحصانه ، ثم انصرف الأتراك وبقينا نحن في مكاننا .

واستأنفنا في اليوم التالي رحلتنا ، ولو كنت معنا لأدهشك رؤية الأرمن كيف كانوا يخرجون بخضوع للترحيب بنا عند مرورنا أمام مدنهم وقد حملوا الصلبان والأعلام ، وقاموا بتقبيل اقدامنا وثيابنا محبة بالرب ، لأنهم سمعوا اننا سنحميهم من الأتراك الذين رزحوا تحت نير ظلمهم من قبل .

ووصلنا اخيرا إلى الرها حيث استقبلنا الأمير المذكور ومعه زوجته وجميع أهالي المدينة بكل ترحاب وحفاوة ونفذوا وعودهم كلها لبلدوين على الفور .

وبعد إقامتنا هناك مدة خمسة عشر يوما ، تآمر أهل المدينة بخبث لقتل أميرهم ، وذلك لأنهم كانوا يبغضونه ، واستهدفوا رفع بلدوين الى القصر ليحكم بدلا منه البلاد ، و قدم هذا الاقتراح لبلدوين و تم تنفيذه ، و في الحقيقة أصاب الحزن بلدوين و كذلك رجاله لأنهم لم يقدروا ان يحصلوا له على الرحمة . وما أن قبل بلدوين من أهالي المدينة مركز الامارة الذي شغر الآن بمقتل الأمير بهذه الطريقة الفظيعة حتى شن حربا على الأتراك الذين كانوا في بلاده ، وقد هزمهم مرات عديدة أو قتلهم ، وفي الوقت نفسه لاقى العديد من رجالنا حتفهم ايضا على أيدي الأتراك .

ولقد كنت أنا فولتشر أوف تشارترز كاهن بلدوين هذا ، وأرغب الآن في العودة إلى سرد بقية الحكاية التي نأيت عنها ، وأعني حكاية جيش الرب .

- ٢٧٤٤ -

وصول الفرنجة إلى أنطاكية ومآسي الحصار :

وصل الفرنجة إلى انطاكية سورية في شهر تشرين الأول ، وهي مدينة كان قد بناها سلوقوس بن أنطيخوس واتخذها عاصمة له ، وكان اسمها فيماسلف ربلاطا ، وهي تقع على الضفة الأخرى من النهر المسمى العاصي ، وصدرت الأوامر بالعسكرة أمام المدينة بينها وبين أول حجارة العالم ، وهناك دارت معارك كثيرة فيما بعد ، ألحقت خسائر فادحة بالطرفين ، فعندما تدفق الأتراك من المدينة قتلوا عددا كبيرا من رجالنا ، إنما بعدما دارت عليهم الدوائر ودحرناهم أصيبوا بالفواجع .

وانطاكية مدينة كبيرة جدا ، وهي شديدة الحصانة منيعة الموقع ، لايمكن لعدو الاستيلاء عليها من الخارج إذا ماتوفرت فيها الأغذية والامدادات ، وإذا عقد سكانها العزم على الدفاع عنها ، وفيها كنيسة ذائعة الشهرة كرست تمجيدا لذكرى بطرس الرسول الذي صار اسقفا فيها بعدما تسلم من السيد المسيح صدارة الكنيسة ومفاتيح مملكة السموات ، وهناك كنيسة أخرى مستديرة الشكل ، مكرسة على مجد مريم المباركة ، وهي معمرة بطريقة تتناسب مع مقامها ، وكانت هذه الكنائس جميعها تحت سلطان الأتراك منذ أمد طويل ، لكن الرب ، العالم بكل شيء صانها لنا خالصة لم تشبها شائبة حتى نتشرف بعبادته داخلها في يوم من الأيام .

ويبعد العاصي عن أنطاكية قرابة ثلاثة عشر ميلا ، وبما أن نهر العاصي يصب في تلك البقعة ، فإن المراكب المحملة بالسلع المجلوبة من مختلف الأصقاع يؤتى بها إلى أنطاكية نفسها بوساطة قناة مخصصة ، وهكذا تتزود المدينة بالسلع من البر ومن البحر فتمتلىء بالخيرات من كل صنف .

وتعاهد أمراؤنا واقسموا بعضهم لبعض بعدما راوا مناعة المدينة وصعوبة اقتحامها ، .عدم الزحزحة حتى يتاح لهم الاستيلاء عليها بالقوة أو بالخديعة .

ولقد وجدوا في النهر المذكور عدة قوارب فاستولوا عليها، واتخذوا منها جسرا عائما عبروا فوقه لتنفيذ خططهم ، ولم يكونوا قبل ذلك قادرين على اجتياز النهر .

ولما راى الأتراك هذه الحشود الهائلة من المسيحيين تحيط بهم اصابهم الهلع ، وايقنوا انهم لن يفلتوا منهم ، وبعد أن تشاوروا فيما بينهم أرسل يغي سغان صاحب انطاكية ابنة شمس الدولة الى السلطان – اي امبراطور الفرس – ينشد منه تقديم العون والاسعاف بأسرع مايمكن ، ذلك انه لم يكن لديه أمل الابعون محمد (صلى الله عليه وسلم) حاميهم ، وبادر شمس الدولة لأداء المهمة الموكلة اليه .

ودافع الذين مكثوا في المدينة عنها ، وفيما هم ينتظرون وصول النجدات التي طلبوها أخذوا يحيكون المؤامرات الخطيرة ضد الفرنجة ، ومع هذا احبط هؤلاء حيلهم بقدر ماأوتوا من قوة ، وفي احد الأيام قتل الفرنجة سبعمائة من الأتراك ، وهكذا فان الذين نصبوا شراكا للفرنجة وقعوا فيه ، وهنا كانت قوة الرب واضحة جلية ، ورجع جميع رجالنا سالمين باستثناء رجل واحد أصيب بجراح .

ولقد قتل الأتراك في فورة غضبهم اعدادا كبيرة من المسيحيين من اغريق وسريان وارمن ، والقوا بما لايحصى عده من الرؤوس من فوق الأسوار ، وقد رموها بالمجانيق على مرأى من الفرنجة ، الأمر الذي سبب لنفوس رجالنا كثيرا من الأسى ، فقد كان هؤلاء الأتراك يمقتون هؤلاء المسيحيين لأنهم خافوا من أن يساعدوا الفرنجة بطريقة ماعلى صد هجوم تركي .

وبعدما حاصر الفرنجة المدينة لفترة طويلة من الزمن ، وبعدما عدموا الخبز مع أنهم تجولوا في الأراضي المجاورة بحثا عن الطعام فلم يجدوا ماينهبوه أو يشتروه ، بعد هذا كله شرع الكثيرون منهم يخططون سرا للتخلي عن الحصار والفرار اما عن طريق البر أو البحر .

نعم لم يكن لديهم مايعتاشون به ، وقد اضطروا الى البحث عما يقتاتونه في أماكن قصية ، وفعلوا ذلك والخوف يلازمهم ، لأنهم ابتعدوا اربعين أو خمسين ميلا عن موقع الحصار ، وهناك في المناطق الجبلية قتل الأتراك كثيرا منهم في كمائن نصبوها لهم .

وشعرنا ان مانزل من مصائب بالمسيحيين الفرنجة كان بسبب اثامهم ، وانهم لهذا السبب أخفقوا في الاستيلاء على المدينة بعد انقضاء كل هذه المدة ، ذلك أن الجشع والترف والعجرفة والسطو قد افسدت نفوسهم ، وتداول الفرنجة فيما بينهم حول ذلك ، وبعد مشاورات قرروا طرد النساء من المعسكر سواء أكن متزوجات أم لا ، اعتقادا منهم ان دنسهم في عبث الحياة الصاخبة قد أثار غضب الرب ، وفتش هؤلاء النسوة عن ملجأ لأنفسهن في القرى المجاورة .

واصاب الشقاء والبؤس الغني مثلما لحق بالفقير ، بسبب الجوع والمذابح اليومية ولو لم يحفظ الرب – وهو الراعي الصالح – قطيعه متجمعا لهرب الجميع من هناك بلا استثناء ، وبدون جدال ، وذلك على الرغم من العهود التي قطعوها على انفسهم من أجل الاستيلاء على المدينة ، وكان هذا محصلة للشح الشديد بالأغذية ، ولهذا انطلق العديد نحو القرى المجاورة بحثا عن الطعام ، ولم يعودوا بعد ذلك إلى المعسكر وتخلوا عن الحصار نهائيا .

ورأينا في تلك الآونة في السماء شعاعا أحمر ، كما شعرنا برجفة

كبيرة في الأرض ، مما دب الهلع في قلوبنا ، وقد رأى الكثيرون علامات معينة على شكل صليب ، بيضاء اللون ، تسير في طريق مستقيم نحو الشرق .

فاقة المسيحيين واملاقهم وفرار كونت بلوا

بعدما خلت الأراضي حول انطاكية في عام ١٠٩٨ من الجموع الفقيرة من شعبنا ، ازداد البؤس والشعور بالأسى في نفوس الصغار والكبار وذلك بسبب الجوع الشديد ، واكل الناس مختلف انواع النباتات التي بقيت قائمة في الحقول مع جميع انواع الأعشاب غير المستحبة وحتى الأشواك التي لم يستطيعوا اجادة طهيها لانعدام الأحطاب لاشعال النيران ، لذا أدمت السنة اكليها ، واضطر الناس ايضا إلى اكل الخيول والحمير والجمال والكلاب وحتى القوارض ، لا بل اكثر من هذا أكل الفقراء منا جلود الحيوانات وبذور الحبوب التي وجدوها في روث المواشي .

وفضلا عن الجوع تحمل الناس البرد والحر و وابل الأمطار في سبيل محبة الرب ، وقد تمزقت خيامهم وبليت وتعفنت بسبب استمرار هطول الأمطار ، ولهذا لم يجد العديد من الناس لأنفسهم غطاء إلا السماء .

وكما يمتحن الذهب ثلاث مرات في النار ، ويمحص سبع مرات (مزامير ١٢/٧) ،ايضا اعتقد أن الرب امتحن الخلص ، فطهرهم بعد عذاب شديد من ذنوبهم ، ومع أن خنجر الحشيشية لم يخفق في عمله المميت ، تحمل كثير من الناس عذاب الاحتضار الطويل ، وتقبلوا بسرور أسمى درجات الشهادة ، ولعلهم استلهموا السلوان من مثل أيوب المبارك الذي طهر روحه ونقاها بعذاب جسده وهو دوما يذكر الرب (ايوب : ٢/١) فهم عندما كانوا يحاربون الكفار كانوا يجاهدون في سبيل الرب واسمه .

الرب الذي خلق كل شيء هو الذي يأمر من خلق ويرعى ويدعم كل ما يأمر به ، يحكم الرب بأمره فيصلح ما يشاء ويدمر ما يشاء ، ويخيل لي أن الكفار سيجري تدميرهم حتى يدفعوا ثمن العذاب الذي أراده الرب للمسيحيين ، فهم الذين طالما داسوا بأقدامهم الملوثة كل ما يخص الرب مع أن ذلك حصل بمشيئته وفق ما يستحقه الناس ، الحق أنه سمح بذبح المسيحيين حتى يعظم خلاصهم ، وسمح أيضا بذبح الأتراك لاحقاق اللعنة على أرواحهم ، أما الأتراك الذين كتب لهم الخلاص فإنه أرضى الرب تعميدهم من قبل كهنتنا ، « لأن الذين كتب لهم ناداهم وعظمهم»(رومية : ٨ / ٣٠) .

ثم ماذا بعد ؟ لقد تخلى بعض رجالنا ـ كما سمعتم ـ عن حصار عظيم الشدة ، بعضهم فعل ذلك بسبب الفاقة وبعضهم نتيجة الجبن ، وآخرون انسحبوا خشية الموت ، وكان الفقراء قد انسحبوا اولا ثم تبعهم الأثرياء .

ثم كان ان تخلى ستيفن كونت بلوا عن متابعة الحصار ، وأبحر عائدا في دياره فرنسا ، ولقد ألم بنا الأسى جميعا لذلك ، لأنه كان رجلا أصيلا ونبيلا شجاعا شديد البأس ، وفي اليوم التالي لسفره سقطت مدينة انطاكية للفرنجة ، ولو أنه صبر وبقي لسر سرورا عظيما مع الآخرين ، ذلك أن فعلته جلبت إليه العار والازدراء ، ومقرر أن البداية الحسنة لا تجدي المرء إذا لم تكن الخاتمة حسنة ، أما ما يتعلق بشؤون الرب فسألتزم بالاختصار لئلا أنحرف عن الطريق القويم ، ففي هذا المجال علي الالتزام بالحذر حتى لا أضل فأبتعد عن الحقيقة .

لقد بدأ حصار انطاكية كما نوهنا من قبل في شهر تشرين الأول ، واستمر طوال الشتاء والربيع حتى شهر تموز ، وتبادل الأتراك والفرنجة خلال ذلك الهجمات والهجمات المضادة فانتصروا وهزموا ، أما نحن فقد انتصرنا أكثر منهم ، وحدث في احدى

المناسبات أن وقع العديد من الأتراك - أثناء فـرارهم - في نهـر العاصي وغرقوا بشقاء ، وعلى شاطىء هذا النهر تـواقع الشـعبان مرات ومرات .

وكان رجالنا قد شيدوا أمام المدينة عدة قلاع ، اسـتخدموها للقيام بهجمات متعددة استطاع رجالنا أثناءهـا أن يصـدوا بـكل بسـالة الأتراك ، وبذلك تمكنوا في كثير من الأحيان أن يدفعوا مواشيهم عن الوصـول إلى المراعي ، ولم نحضر شـيئا مـن الأرض في المناطـق المجاورة ومع هذا كثيرا ما عملوا لالحـاق الضرر بنا في مناسـبات مختلفة .

سقوط مدينة أنطاكية

ومهما يك من أمر ، عندما رضي الرب علينا ، باستجابته - بـدون ريب - لدعوات شعبه في أن يضع حدا لشـقائهم ، فبعـدما ابتهلوا إليه بلا توقف وصلوا يوميا استجاب فوهبهم بمحبته استلام المدينة سرا من خلال (ارمني) من رجال الأتراك ، وهكذا رجعت المدينة إلى حكم المسيحيين ، واليك إذا تفـاصيل أخبـار الخيانة فـأصغي إليها وإن لم تكن حقا خيانة .

لقد تجلى الرب (لأرمني) من رجال الأتراك ، كانت قد كتبـت له بركة الرب ، وقال له : «قم أيها النائم ، فأنا أمـرك بـاعادة المدينة إلى المسيحيين » ودهش الرجل غير أنه احتفظ بـالرؤيا سرا ، ثـم تجلى له الرب ثانية وقال له : «أعد هذه المدينة إلى المسيحيين ، فأنا يسوع المسيح الذي أمرك بذلك «وارتبك الرجل واحتار فيمـا يفعـل وذهب إلى مولاه صاحب أنطاكية وأعلمه بأمر الرؤيا فرد هـذا عليه قائلا : «أوتريد أيها الغبي أن تطيع شبحا من الأشـباح ؟ «فـرجع الرجل والتزم بالصمت .

ومجددا تجلى له الرب وقال له : « لم لم تنفذ ماأمرتك بـه ؟لاتتـردد لأنني أنا الذي أمرك بهذا ، أنا رب الجميع » ، ولما اختفى الشك من نفسه بدأ هذا الرجل يخطط سرا مع رجالنا ويرسم مؤامرة تمـكنهم من الاستيلاء على المدينة .

وبعدما تم الاتفاق سـلم الرجـل ابنه إلى الأمير بـوهيموند ليكون رهينة لديه ، لأن بوهيموند كان أول من سمع بهذه الخطة وأول مـن اقتنع بها ، وفي الليلة المتفق عليها مكن الرجل عشرين من رجالنا من تسلق السور بواسطة حبال دلاها لهم ، وبـادر هؤلاء على الفـور ، وبدون اي تقاعس إلى فتح الباب وفي تلك الأثناء تبعهم أربعون رجلا آخرون من جنودنا بواسطة تسلق الأسوار أيضا بـالحبال ، وقتلوا ستين من الأتراك الذين صدفوهم يحرسون الأبراج ، وإثر ذلك صاح الفرنجة جميعا صيحة رجل واحد : « إنهـا ارادة الرب » ، وكانت تلك الصيحة الشعار الذي كنا نطلقه حين نوشك على انجاز أي عمل مجيد .

وإثر سماع الأتراك لهذه الصـيحة دب رعب هـائل في نفـوسهم ، وبادر الفرنجة إلى الهجوم على المدينة بدون تقاعس حيث أن ظلمـة الليل اخذت مع الفجر بالتلاشي ، وعندما رأى الأتراك راية بوهيموند ترفرف في الأعالي ، والفوضى تنتشر في كل مكان وتعـم ، وسـمعوا ابواق بوهيموند تصـدح مـن اعالي الأسـوار ، ورأوا الفـرنجة يقتحمون الشوارع بسيوف مشرعة ويقتلون الناس بوحشية ، عندما شهدوا هذا كله أصـابهم الرعب ، فـأمعنوا بـالفرار لا يلوون على شيء ، وتمكن بعض الهاربين من الأتراك من الوصـول إلى القلعـة القائمة على سفح الجبل .

وشرع العامة من رجالنا بالاستيلاء على كل ما وقعت عليه أيديهـم في الطرقات والبيوت ، اما الفرسان الذين تخصصوا بفنون القتال ، فقد تابعوا مطاردة الأتراك وذبحهم ، اما يغي سغان أمير انطـاكية

فقد هرب منها ، وصدفه بعض الفلاحين الأرمن ، فقطعوا راسه واحضروه بالحال إلى الفرنجة .

العثور على الحربة المقدسة

عثر رجل بعد سقوط انطاكية على حربة في حفرة من الأرض في كنيسة القديس بطرس ، وادعى هذا الرجل بعد اكتشافه للحربة انها الحربة ذاتها التي اطلقها لونجيذس - كما ورد في الانجيل - فطعنت الجنب الأيمن من يسوع المسيح - « ولكن واحدا من العسكر طعن جنبيه بحربة وللوقت خرج دم وماء » - (يوحنا : ١٩ / ٣٤) ، وادعى الرجل أن الرسول أندروز هو الذي أوحى له بذلك ، وبعد اكتشاف الحربة ، روى الرجل القصة لأسقف لي بوي ، وللكونت ريموند ، ولم يصدق الأسقف هذه الحكاية ، لكن الكونت أمل أن تكون صحيحة .

وإثر سماع الناس بهذا الخبر ابتهجوا كثيرا ومجدوا الرب وحمدوه ، وظلت الحربة لمدة مائة يوم موضع اجلال وتقديس ، وحملها الكونت ريموند بكل فخار وتولى حمايتها ، ثم ساورت الشكوك عدد كبير من الكهنة والعلمانيين ، وارتابوا في أن تكون هذه حقا حربة الرب المقدسة ، وانها مجرد حربة اخرى عثر عليها ذلك الرجل الدجال المخادع .

وفي الشهر الثامن بعد الاستيلاء على مدينة أنطاكية ، وبعد ثلاثة أيام من الصيام والصلوات التي أسهم فيها الجميع أشعلوا كومة كبيرة من الحطب في وسط حقل أمام مدينة عرقة ، وقام الأساقفة بتقديم الصلوات الخاصة بأعمال المحنة فوق النار ، ومر الرجل الذي عثر على الحربة - بناء على طلبه - مسرعا يركض خلال الجمر الملتهب وذلك بغية اثبات أمانته ، وبعدما مر الرجل من خلال النار ، أيقنوا أنه كان مذنبا لأن جلده احترق ، وعلما أنه اصيب اصابة

قاتلة ، وبالفعل ظهرت نتيجة ذلك فيما بعد ، فقد تـوفي الرجـل بعـد اثني عشر يوما مكتويا بعذاب الضمير .

ولما كان كل انسان قد قدس هذه الحربة محبة واجلالا للرب ، فقـد اصيب كل هؤلاء الذين امنوا بها بحـزن عميق وتخلوا عن ايمـانهم بها ، ومع ذلك فإن الكونت ريموند قد احتفظ بهـا بعـد ذلك لفتـرة طويلة .

محاصرة الأتراك للمسيحيين داخل أنطاكية :

وصل في اليوم التالي لاحتلالنا أنطاكية حسبما وصفنا ، حشد كبير جدا لا يعد ولا يحصى من الأتراك ، وضربوا حصارا حـول المدينة ، ذلك أنه ما إن علم السلطان ملك بلاد الفـرس ، بحصـار الفـرنجة لأنطاكية حتى حشد على الفور جيشا عرمرما من الرجال ، وارسله ضد الفرنجة ، وكان اسم قائد هذا الجيش كربوغا ، وأعيقت مسيرة هذا الجيش مقدار ثلاثة أسابيع أمام مدينة الرهـاالتي كان يملكهـا أنذاك بلدوين ، وبعدما أخفق في الاستيلاء عليها ، سارع بزحفه نحو أنطاكية لانجاد الأمير يغي سغان .

وعندما رأى الفرنجة هذه المستجدات وهنت عزائمهـم ، وزاد على هذا أن عقوبتهم أيضا قد تضـاعفت بسـبب خـطاياهم الأخـرى وأثامهم ، ذلك أن العديد منهـم مـا إن دخلوا المدينة حتـى عاشروا النساء منتهكين بذلك ناموس الشريعة .

وتمكن نحو من ستين ألفا من الأتراك من دخول المدينة عن طـريق القلعة من جانب الجرف الشاهق ، وضايقوا رجالنا بحملات عنيفـة متكررة عليهم ، بيد أنهم لم يمكثوا هناك طويلا فقـد دب الرعب بين صفوفهم فغادروا المدينة ليحاصروها مـن الخـارج ، وهـكذا بقـي

الفرنجة محاصرين خلف الأسوار في وضع قلق وحـرج شـديد مـن الصعب تصوره .

الرؤى التي ظهرت داخل المدينة

ولم ينس الرب في تلك الأثناء عباده ، فتجلى لكثير مـن الناس ، وقد تواتر ذكر هذه الحقيقة وانه طمأنهم ووعدهـم بـالسرور بنصر كبير ، ثم تجلى الرب لرجل دين كان قد فر لخوفه من الموت ، وقـال له : إلى أين ماض يا أخانا ؟ فأجابه : إنني هـارب ، خشـية أن ينالني سوء الطالع فأهلك .

شعر :

وهكذا هرب الكثيرون حتى لا يذوقوا طعم الموت الزؤام .
فأجاب الرب رجل الدين بقوله : « لا تهـرب بـل ارجـع ، وقـل للآخرين إنني ساكون معهم في المعركة فقـد طمـأنت نفسي صلوات أمي ، ولسوف أكون رحيما مع الفرنجة ، وهـم قـد أوشـكوا على الهلاك بسبب آثامهم ، ليكن يقينهم وأملهم ثابتا ، فلسوف أكتب لهم النصر على الأتراك ، دعهم يتوبون أولا ، ولسوف ينجـون لأنني أنا الذي أكلمك ، أنا الرب » ، وعاد رجل الدين على أدراجه في الحال ، وذكر للفرنجة ما سمعه .

وسعى في هذه الأثناء عدد كبير من الفرنجة إلى الهبـوط ليلا مـن الأسوار بواسطة الحبال ليهربوا ، فقـد كانوا خـائفين مـن الموت جوعا أو بحد السيف ، وقد ظهر أمام واحد من النازلين أخوه وكان قد مات منذ أمد وقال له : إلى أين أنت هارب يا أخي ؟ امـكث ولا تخف ، فالرب سيكون معكم في حربكم ، وإن رفاقكم في هذه الرحلة ،

الذين تقدموكم إلى الموت ، سيقاتلون معكم ضد الأتراك ، واستبدت الدهشة بالرجل لدى سماعه كلام من مـات ، وتـوقف عن الفـرار واخبر البقية بما حدث .

وساء وضع الفرنجة ولم يعودوا يطيقون تحمل العذاب أكثـر ممـا فعلوا ، حيث لم يبق لديهم ما يأكلونه مما أوهنهم وأنهك خيولهـم ، وعندما طاب للرب انهاء شقاء عبـاده ، أوحـى لهـم فـاتفقوا على الصيام ثلاثة ايام مع تقديم الصـدقات والصـلوات علهـم بهـذه الكفارات والادعية ينالون عطف الرب •

الفرنجة يقومون بالهجوم على الأتراك

وبعد بعض المداولات ، أخبر الفرنجة الأتـراك عن طـريق بـطرس الناسك انهم إن لم يغادروا البلدان التي كان يمتلكها المسـيحيون في الماضي بسلام ، فإنهم ـ أي الفرنجة ـ سيشنون عليهم هجـوما في اليوم التالي ، واذا ما رأى الأتراك اللجوء إلى المبارزة بأن تقوم بين خمسة أو عشرة أو عشرين أو حتى مائة فارس يختـارون مـن بين الطرفين ، حتى لا تراق دماء كثيرة اذا ما نشـب القتـال بين جميع المحاربين ، وفي تلك الحال سـيتسلم الطـرف المنتصر رجـاله على الطرف الآخر ، المدينة بسلام ويحكمها بدون نزاع بعد ذلك .

كان هذا ما طلبه الفرنجة ، لكن الأتراك رفضوا الاستجابة لهـم ، لأنه كانت عندهم ثقة كبيرة بأعدادهم الهائلة وقـوتهم ، واعتقـدوا أنهم سيتغلبون علينا وسيكون بامكانهم ابادتنا ، فقـد كان عددهـم يقدر بثلاثمائة الف من فرسان ومشاة ، وكانوا يعلمون أن فرساننا قد أصابهم الوهن فغدوا ضعفاء مثلهم مثل المشاة .

ثم عاد رسولنا بطرس ، وأعطى جوابهم ، وعندما سـمع الفـرنجة

هذا استعدوا وقرروا تحضير أنفسهم لخوض المعركة بـدون تـردد واضعين كل أمالهم في الرب ، وكان عدد قادة الترك كبير ، كل واحد منهم يدعى أمير ، وكان منهم : كربـوغا ، والملك رضـوان والأمير سليمان مع عدد كبير أخر يفوق الحصر .

الاعداد للمعركة :

وكان أمراء الفـرنجة هـم : هيوج العـظيم ، وروبـــرت كونت نورماندي ، وروبرت كونت الأراضي المنخفضة ، والدوق غودفـري ، والكونت ريموند ، والأمير بوهيموند ، ونبلاء أخـرون أقـل منهـم شأنا ، ورحمة الرب لروح أدهمر أسقف لى بـوي ، الذي كان هـو نفسه حواريا ، دائم العطف على الناس ، يخفف من الامهم ، ويمتن قوة إيمانهم بالرب .

أه ما أروع التقوى التي تقود الى اليقـظة ، ففـي الليلة السـالفة أصدر أدهمر نفسه أمرا سـمع بصـوت المنادي : على كل فـارس اطعام فرسه بنصـيب اكبـرمن العلف ، مهمـا كان عزيزا ، كي لا يسقط الفرس في اليوم المقبل أثناء القتال منهكا من الجـوع ، نعـم صدر هذا الأمر وتم تنفيذه ومع بوارق فجر اليوم الرابع قبل نهـاية شهر تموز خرجوا جميعا من المدينة جاهزين للمعركة ، وتمت تعبئة الرجالة والفرسان في كتائب وسرايا تتقدمها الرايات ، وكان معهـم الكهنة يرتدون اكسية بيضاء يبكون أمام جميع الناس مـن اجلهـم ويرتلون الأناشيد للرب ، ويصدرون الأدعية مـن اعمـاق نفـوسهم المؤمنة .

ورأهم عند ذلك رجـل تـركي يدعى مجير الدين ، وكان فـارسا مقداما ، فتولته دهشة عظيمة لمرأهـم يتقـدمون وراياتهـم خفـاقة

مرفوعة ، وأيقن حين رأى رايات قادتنا التي كان يعرفها وهي تتقدم واحدة تلو الأخرى بنظام أن المعركة وشيكة الحدوث ، وكان يعـرف انطاكية وقد نال خبرة بالفرنجة ، لذلك أسرع نحو كربوغا يخبره بما رأى ، وقال له : مابالك تلعب الشطرنج ، انظـر إن الفـرنجة قادمون ، فسأله كربوغا : أهـم قـادمون للقتـال ؟ فـأجابه مجير الدين : لست متيقنا من ذلك حتى الآن ، ولكن امهلني قليلا ، وعندما رأى مجير الدين رايات قادتنا مرفوعة في الجانب الآخر تتقدم بشكل حربي وتزحف خلفها الأرتال بصفوف متراصة بنظـام عسـكري ، سارع بالعودة وقال لكربوغا : أعتقد أن المعركة واقعة ، ولكن تريث قليلا ، فأنا لا أميز بين الرايات التـي أراهـا ، وبعـد التـدقيق والتمحيص شاهد راية أسقف لى بوي تتقدم في الفيلق الثالث .

شعر :

وبلا ابطاء قال لكربوغا :

خذ حذرك لقد حضر الفرنجة ، فاهرب الآن أو حـارب بشـجاعة لأنني أرى علم البابا يتقدم .

انتفض الآن حتـى لايهـزمك هؤلاء الذين اعتقـدت انك تبيدهـم وتزيلهم عن وجه الأرض .

فقال كربوغا : سأبعث رسولا للفرنجة يخبرهم انني سـأمنحهم اليوم كل ماطلبوه مني بالأمس ، فقال مجير الدين : لقد فات الأوان على هذا الكلام ، ومع هذا بعث كربوغا بطلبه ، غير انه لم يحظ بما ابتغى ، أما مجير الدين فسرعان ماانسحب من حضرة سـيده ولكز فرسه ، وفكر بالانسحاب ، غير انه حرض رفاقه على أن يحـاربوا ببسالة وأن يطلقوا سهامهم .

المعركة ـ انتصار المسيحيين وفرار الأتراك :

كان هيوج العظيم وروبرت كونت نورماندي ، وروبرت كونت الأراضي المنخفضة يقودون الصف الأول في الهجوم ، وتبعهم غودفري في الصف الثاني ومعه الألمان واللوثارنجيون ، وأتى بعدهم ادهمر أسقف لي بوي مع رجال الكونت ريموند والتاسكونيين ، والبروفسانسيين ، فقد تخلف الكونت نفسه في المدينة لحمايتها ، ثم حشد بوهيموند الجموع المتبقية بكل مهارة في الساقة .

وعندما رأى الأتراك صفوفهم وقد اخترقها هجوم جيش الفرنجة برمته ، أخذوا يتدافعون إلى الأمام فرادى ليطلقوا النشاب حسب عادتهم ، غير أن الرعب المميت النازل من السماء ألقي في قلوبهم ، فأمعنوا جميعا بالفرار كما لو أن العالم كله قد سقط عليهم ، وهنا طارد الفرنجة الهاربين وتعقبوهم بأسرع مااستطاعوا .

ولكن لما كانت خيول الفرنجة قليلة العدد وهزيلة انهكها الجوع ، فإنهم لم يتمكنوا من أسر سوى عدد صغير من الكفار ، بيد أن خيام الأتراك ظلت منصوبة على حالها في معسكرهم ، وقد وجد فيها الفرنجة ذخائر وحاجيات من مختلف الأنواع كالذهب والفضة والأردية والثياب المتنوعة والأوعية واشياء أخرى كثيرة خلفها الأتراك أو ألقوها فزعا أثناء فرارهم المضطرب ، وكان هناك على سبيل المثال : خيول وبغال وحمير وعمائم فاخرة وقسي وسهام و جعب .

ومر كربوغا فارا برشاقة كالغزال ، وهو الذي طالما ذبح الفرنجة وقتلهم بالكلام والوعيد والتهديد ، ولكن لماذا فر ذلك الذي ملك جيشا عظيما ، وكان معه كل هؤلاء الفرسان المدججون ؟ لأنه تجرأ على تحدي الرب ، الرب الذي شاهد من بعد رعونة كربوغا وتبجحه فدمر قوته تدميرا وسحقها سحقا .

وهرب من الأتـراك الذين امتلكوا خيولا سريعـة وقـوية ، أمـا ماسواهم فقد تركوا للفرنجة ، وقد أسر كثير من هؤلاء ولاسيما من الرجالة الشرقيين ، ومن جانب آخر أصـيب عدد قليل مـن رجـالنا بجراح ، أما النساء اللواتي وجدن في خيام العـدو فإن الفـرنجة لم يمسوهن بأذى ، واكتفوا بأن بقروا بطونهن بالحراب .

وبصوت مفعم بـالبهجة أنشـد الجميع لعـظمة الرب ،فبرحمته الأبوية ، أنقذنا من أشد الأعداء قسوة نحن الذين وضعنا ثقتنا بـه عندما كنا في أشد محنة ، وفي أمس الحاجة ، فببطشه بعثر الأتـراك وهزمهم بعد أن كادوا يهزمون المسيحيين ، وعاد رجالنا إلى المدينة مسرورين وقد أغنتهم الغنائم التي سلبوها من الأعداء .

شعر :

عندما سقطت مدينة أنطاكية القديمة .
كان التاريخ يقل سنتين عن الألف والمائة

بعد تجسيد مولانا الذي ولدته العذراء في شارة الجوزاء
عندما أشرقت الشمس ضعف التسعة

وفي أوائل آب توفي أدهمـر ، لتحـل روحـه في سـلام سرمدي ـ آمين . ثم عاد هيوج العظيم إلى القسـطنطينية ، (١) ومنها ذهب إلى فرنسا .

وأرسلت هذه العصبة الكريمة من القادة الرسالة التالية إلى بابا روما بخصوص ماحدث : إلى فائق التبجيل مولانا البابا أوربان .

من بوهيموند ، وريمـوند صـنجيل ، وغودفـري دوق اللورين ، وروبرت كونت نورماندي ، وروبرت كونت فلاندرز ، ويوستاس دى بوليون .

تحية وبعد :

عبودية مخلصة وخضوعا صادقا للمسيح حسبما يتوجب على الأبناء لأبيهم الروحي . إننا نرغب ونتمنى أن نحيطكم علما أننا برحمة وافرة من الرب ، وبمعونته الجلية ، استولينا على مدينة أنطاكية ، وقد انهزم الأتراك الذين لطخوا بالكراهية سيدنا يسوع وقتلوا ، وإننا كحجاج ليسوع المسيح إلى القدس قد انتقمنا لجراح الرب القدير ، وإننا بعدما حاصرنا الأتراك ، وقعنا تحت حصار أتراك أخرين قدموا من خراسان والقدس ودمشق ، وأمكنة كثيرة أخرى ، وقد تم خلاصنا برحمة يسوع المسيح .

وكان بعد الاستيلاء على نيقية أن تغلبنا ـ كما سمعت ـ على حشود هائلة من الأتراك نازلناها في تموز عند دور يليوم ، وهزمنا سليمان الجبار وانتزعنا منه كل أراضيه وأملاكه ، وبعد امتلاكنا لكل رومانيا(الأناضول) وإخضاعها لنا تقدمنا إلى حصار أنطاكية ، ولقد تحملنا أثناء الحصار الكثير من المصاعب خاصة بسبب هجمات الأتراك المجاورين والكفار التي كانوا يشنونها علينا مرارا وتكرارا بأعداد غفيرة ، حتى صدق القول : إننا كنا محاصرين من قبل الذين كنا نحاصرهم في أنطاكية .

وبعد الانتصار في جميع المعارك ، وبعدما حاز الدين المسيحي المجد بهذه الانجازات ، توصلت أنا بوهيموند إلى اتفاق مع (أرمني) من رجال الأتراك سلم إلي المدينة ، وقبل مطلع فجر الثالث من حزيران وضعت السلالم على سور المدينة التي كانت تقاوم المسيح ، وذبحنا يغي سغان طاغية المدينة مع عدد كبير من جنده ، واحتفظنا بزوجاتهم وأولادهم وأسرهم وذهبهم وفضتهم وكل مقتنياتهم وأملاكهم .

غير أننا لم نستطع احتلال قلعة المدينة التي كان الأتراك قد حصنوها ، وعندما أتممنا استعداداتنا لاقتحامها في اليوم التالي

شاهدنا أعدادا لاتحصى من الأتراك تتحرك في جميع أرجاء المنطقة ، وكنا لأيام خلت نتوقع حضورهم ونحن مانزال خارج المدينة ، وفي اليوم الثالث لامتلاكنا المدينة ضربوا الحصار حولنا ، ودخل اكثر من مائة الف منهم من القلعة السالفة الذكر أملين أن يندفعوا من ابوابها إلى قسم من المدينة تحتها ، كان بعضه معنا وبعضه الآخر معهم .

غير أننا تمكنا من موقع لنا على مرتفع اخر مقابل للقلعة ، من حماية الممر بين الجيشين ، وهو المؤدي إلى المدينة حتى أن الأتراك بأعدادهم الهائلة لم يستطيعوا اقتحام الممر ، وحاربنا داخل الأسوار وخارجها ليلا ونهارا ، واخيرا ارغمنا العدو على التقهقر إلى معسكره عبر بوابة القلعة المفضية إلى المدينة .

وبعدما تبين لهم أنهم لن يستطيعوا الحاق الأضرار بنا من ذلك الجانب ، أحاطوا بنا من جميع النواحي ، إلى حد أن أحدا لم يعد بإمكانه الخروج أو الدخول إلى المدينة ، وقد ثبط ذلك من عزائمنا وبث الكآبة في نفوسنا ، حتى أن العديد منا ، وقد أهلكنا الجوع مع المحن الأخرى ، ذبحوا خيولهم وحميرهم التي كانت تموت من الجوع والتهموها .

وفي تلك الأثناء ، وبإطلالة رفق ورحمة من الرب القدير ، وبعون منه ، عثرنا على الحربة المقدسة التي طعن بها لونجنيوس جنب مخلصنا ، وقد تجلى القديس أندروز ثلاث مرات لواحد من عبيد الرب وأراه المكان الذي رقدت فيه الحربة المقدسة ، في كنيسة المبارك بطرس ، أمير الرسل ، وقد استمددنا الطمأنينة والقوة من هذا الاكتشاف ومن غيره من الايحاءات ، فبعد أن استولت علينا الكآبة واستبد بنا الوجل ، أصبح الواحد منا يحث زميله بكل شجاعة وتحفز على القتال .

وبعدما تحملنا الحصار لمدة ثلاثة أسابيع وأربعة أيام ، اعترفنا

- ٢٧٦١ -
بذنوبنا وأوكلنا نفوسنا للرب ثم انطلقنا من أبواب المدينة في ليلة عيد القديسين بطرس وبولص (٢٨ حزيران ١٠٩٨) في تشكيل قتالي ، وكان عددنا قليلا جدا إلى حد أن العدو لم يظن ابدا أننا سنحاربه بل سنهرب .

وعندما تمت جميع هـذه الاستعدادات ، واصطف رجـالتنا وفرساننا في تشكيلة المعركة بكل نظام ، تقدمنا بكل بسالة نحـو قلب قوة الأعداء وأجبرناهم على الفرار من مواقعهم المتقدمة ، غير انهم كعادتهم تشتتوا في جميع الاتجاهات ، وارادواتـطويقنا بـاحتلالهم التلال والمنافذ حسب طاقتهم ، وأملوا بذبحنا بهذه الطـريقة ، ولكن وكنا قد خبرنا حيلهم والاعيبهم هذه في معارك سـالفة ، اسـتطعنا ونحن الأقل عددا أن نحبط خططهم ، وذلك بفضل الرب ورحمتـه ، وارغمناهم على التجمع ، وبيد الرب اليمنى تقـاتل معنا ، اجبـرنا الاتراك بعد تجمعهم على الفرار ومن ثم التخلي عن معسكراتهم وكل ماكانت تحويه .

وطاردنا الأتراك ، بعدما هـزمناهم ، طـوال اليوم وقتلنا الافـا مؤلفة منهم ، ثم عدنا إلى المدينة سعداء مسرورين ، وإثر هذا سـلم ابن مروان القلعة السالفة الذكر إلى بوهيموند ومعهـا الف رجـل ، وقد تنازل عن هؤلاء الرجال إلى بوهيموند راضيا ، فاعتنقوا الديانة المسيحية ، وهكذا خلص مولانا يسوع المسيح انطاكية وسـلمها إلى ديانة روما .

وبما أن الأحزان غالبا ما ترافق الأفراح ، فقد تـوفي اسـقف لى بوي ، الذي كنتم قد بعثتم به إلينا وكيلا ، وحدثت وفاته في أول آب ، وجاء ذلك بعد المعركة التي شغل فيها دورا مبرزا وبعـدما خضـعت المدينة لنا .

ولهذا نسألك الآن ونحن أولادك الذين فجعوا بفقدان ابيهـم الذي اوكلت بنا إليه ، ولما كنت وانت والدنا الروحي ، قد افتتحت بنفسك

هذا الحج ، وجعلتنا بعظاتك نترك بلادنا وكل مافيها ، وبما انك قد حرضتنا على السير على طريق المسيح بحمل الصليب و حثثتنا دوما على تمجيد اسم المسيح حسبما كنت تبشر ، فإننا نتوسل إليك أن تقدم إلينا ، وأن تحرض كل من يستطيع أن يقدم معكم إلينا ، فهنا منشأ المسيحيين (أعمال الرسل : ١١/ ٢٦) وبعدما جلس بطرس المقدس على العرش في الكنيسة التي نرى اليوم ، أصبح الذين كانوا يدعون في الماضي (أعمال الرسل : - ١١/ ٢ - ٧) جليلين يدعون الآن النصارى ، فهل في هذه الدنيا ما هو انسب من أن تقدم أنت ، وأنت الأب لهذه الكنيسة و الراس ، إلى هذه المدينة الرئيسة ، حاضرة الاسم المسيحي ، و تختم هذه الحرب التي هي مشروعك بنفسك .

لقد أخضعنا الأتراك و الكفار ، و أما الهراطقة من الأغريق و الأرمن و السريان و أليعاقبة ، فلم نتمكن من اخضاعهم ، لهذا نعاود السؤال في أن تقدم أنت يا أبانا العزيز كأب و راس الى موطن أسلافك ، و أن تجلس أنت ، و أنت خليفة القديس بطرس ، على عرشه ، و أن تستخدمنا كأبنائك المطيعين في أداء المهام التي تراها ،و أن تمحق بسلطانك و تدمر بقوتنا جميع الهرطقات بكافة أنواعها ، و هكذا تكمل معنا حجة يسوع المسيح التي أخذناها على عاتقنا بعد أن ناديت بها ، و تفتح لنا أبواب القدس ،و القدس الأخرى ، و تحرر كنيسة قيامة الرب ، و تمجد اسم المسيحيين فوق جميع الأسماء ، لأنك إن حضرت معنا و أتممنا الحجج الذي افتتحت فإن العالم بأسره سيدين لك بالطاعة .

لعل الرب الأزلي الوجود ، الذي سيحكم في الديمومة يلهمك أن تفعل ذلك : أمين

الحملة على مدن اخرى - حصار عرقــة - رحلة الفــرنجة إلى القدس ووصولهم إليها :

بعدما هد تعــب الأيام الطــوال رجــالنا و خيولنا ، اســتجموا و استراحوا اربعة اشهر في احواز انطاكية حتى استردوا عافيتهم ، و بعد شيء من المداولات زحف جزء من الجيش إلى داخل بلاد ســورية و ذلك بقصد تأجيل الزحف على القدس ، و قاد هذا الجزء بوهيموند و الكونت ريموند ، و بقي بقية الأمراء على مقربة من انطاكية.

وا ستولى هذان القائدان مع رجالهما على مدينتي البارة ومعــرة النعمان بعدما اظهروا شجاعة هائلة في القتال ، وقد اســتولوا على المدينة الأولى بسرعة فائقة ، و ابادوا سكانها عن بــكرة ابيهــم ، و استولوا على كل ما وجدوه فيها ، ثم اندفعوا نحو المدينة الثانية ، و حاصروها لمدة عشرين يوما عانى اثناءهــا رجــالنا مــن الجــوع الشديد ، و يقشعر بدني و انا اذكر أن عددا كبيرا من رجالنا ، و قد هدهم الجوع و عذبهم إلى حد الجنون ، قطعوا لحم العجز من جثث المسلمين المطروحة و طبخوه واكلوه ، لا بل التهموا اللحم بــوحشية قبل ان يتم طهيه ، وهكذا فإن الضرر اصاب الذين قاموا بــأعمال الحصار اكثر من المحاصرين .

و في تلك الأثناء اتم الفرنجة صــنع الآلات الحــربية على حســب الاستطاعة ، و دفعوها إلى محاذاة الأسوار ، وببركة مــن الرب و معونة عبروا فوق هذه الآلات في هجــوم بــالغ الجــراة ، و في اليوم التالي ابادوا قتلا جميع المسلمين من اعلاهم الى ادناهم و استولوا على ممتلكاتهم اجمع.

وبعدما دمرت المعرة على هــذه الصــورة رجــع بــنــوهيموند إلى انطاكية ، حيث طرد منها رجال الكونت ريموند الذين كان قد خلفهم فيها لحماية قطاعه منها ، وامتلك إثر هذا بوهيموند انطاكية ومجمل

المنطقة المحيطة بها ، بحجة أن المدينة تم الاستيلاء عليها بفضل مفاوضاته وحيلته ، ونتيجة لذلك ضم الكونت ريموند إليه الكونت تانكرد واستأنفا الرحلة نحو القدس ، وإثر هذا انضم روبرت كونت نورماندي إلى هذه القوات ، وذلك في اليوم الذي أعقب رحيلهم من معرة النعمان

وفي عام ١٠٩٩ لتجسيد مولانا المسيح زحفت هذه القوات متقدمة نحو مدينة عرقة المنيعة والواقعة على سفح جبل لبنان ، وقد قرأنا أن مؤسسها كان أراكيوس بن كنعان وحفيد نوح ، وبما أن الاستيلاء عليها كان صعبا جدا ، فقد ألقينا عليها الحصار لمدة خمسة أسابيع دون أن ننجز شيئا ملحوظا .

وسار الدوق غودفري وروبرت كونت الأراضي المنخفضة خلف جيشنا ولم يكونا بعيدا جدا عنه ، فقد حاصرا مدينة جبلة الحصينة ، وآنذاك تسلما رسالة من الجيش بطلب العون في حصار عرقة ، فتخليا عن جبلة فورا ، وخفا لنجدة الجيش ، غير أنه بعدما حوصرت عرقة لم تقع معركة كبيرة كما كان متوقعا .

واخذ الفرنجة بعد هذا في التداول فيما بينهم ، فارتأوا أن ضررا كبيرا لايرتق سيحيق بهم جميعا إن هم أطالوا فترة مكوثهم حيث هم واخفقوا في الاستيلاء على عرقة ، واخيرا استقر رأيهم على رفع الحصار عن عرقة ومتابعة الزحف ، ومع أن طريقهم كانت خالية من حركة المرور التجارية الا أنه كان مايزال هناك متسع من الوقت لوصولهم إلى القدس ايام الحصاد ، ولو انهم شرعوا الآن بالزحف ولم يتماهلوا سيكون بامكانهم ان يقتاتوا على الحصاد في كل مكان ، وعلى الاغذية التي يزودهم الرب بها ، فبقيادته يمكنهم الوصول إلى غايتهم المنشودة ، وتبني هذا الراي واتخذ قرارا بذلك

وبعدما قوضوا المعسكر شرعوا بالرحيل ، فمروا أولا بمدينة

طرابلس ، ثم واصلوا زحفهم حتى جبيل ، فكانوا أمـام قلعتهـا في شهر نيسان ، وبدأوا يقتاتون على الحصاد ، وقد تـابعوا زحفهـم فمروا على مقربة من مدينة بيروت ، حتى وصلوا إلى مدينة اسـمها بلغتنا صيدا ، وهي في أرض الفينيقيين ، كان قد بناها صيدون بـن كنعان الذي جاء من سلالته الصيداويون ، ومن صيدا هبط رجـالنا إلى الصرفند ثم إلى صور ، وهي مدينة رائعـة حقـا ، ومنهـا إلى أوبليا التي قرأنا عنها وعن هاتين المدينتين قال المبشر « في نواحـي صور وصيدا » (متى ١٥ / ١٢) ويدعو سكان المنطقـة هـذه احداها باسم ساجيتا والثانية صور وفي العبرانية سور .

ثم وصـلوا إلى قلعـة تـدعى الزيف (الزيب ١٤ كم شـمالي عكا) تبعد ستة أميال عن بطولومي (عكا) ثم مـروا مـن أمـام بطولومي التي تعرف باسم عكا (عكو) من قبل ويخطىء بعضـهم فيسميها عكرون ، ولكن هذه مـدينة فلسـطينية على مقـربة مـن عسقلان بين يبنا وأشدود ، وفي حقيقة الأمر يحـد عكا مـن الجنوب جبل الكرمل ، وبعد تجاوزهم مر رجالنا ببلدة اسمها حيفـا وقعـت إلى يمينهم ، ثم اقتربوا من دورا ، وبعدها من قيسـارية فلسـطين التي كانت تدعى من قبل باسم « برج ستراتون » ففيها مات هيرود اغريبا ـ حفيد هيرود الذي ولد المسيح في أيامه ـ ميتة بائسة حيث أكلته الديدان (أعمال الرسل : ١٢ ـ ٢) .

وزحف الفرنجة بعد هذا والبحر ومـدينة أرسـوف إلى يمينهـم ، ودخلوا إلى مدينة الرملة وكان سكانها من المسلمين قد هجروها قبل ذلك بيوم ، وعثر فيها الفرنجة على كميات من القمـح حملوهـا على ظهور دوابهم ونقلوها إلى القدس .

وبعد توقف لمدة أربعة أيام اختاروا خلالها أسقفا لكنيسة القـديس جرجس ، وعينوا حامية للدفاع عن البلدة استأنف الفرنجة زحفهم نحو القدس ، ووصلوا في ذلك اليوم إلى عمواس قرب مودين مـدينة المكابيين

وفي اليوم التالي امتطى مائة من افضل الفرسان خيولهم ، ومـروا قبيل الفجر على مقربة من القدس ، ثـم سـاروا مسرعين إلى بيت لحم ، وكان بينهم تانكرد وبلدوين ، وعندما اكتشف النصارى مـن ابناء المنطقة من الأغريق والسريان أن الفرنجة قد وصـلوا شـعروا بالسعادة والسرور مع أنهم في بادىء الأمر لم يعرفوا من كان هؤلاء فقد خيل إليهم أولا أنهم ترك أو عرب ، لكن عندما راوهم عن قرب ، وتيقنوا أنهم فرنجة طاروا فـرحا ، وحملوا على الفـور صـلبانهم وخرجوا للترحيب بهم وهم يبكون وينشدون بخشوع ، بكوا خشـية لأن عددا بهذه القلة من الناس يمكن بسهولة القضاء عليه على أيدي الجموع الغفيرة من الكفـار الذين كانوا قـد عرفـوا بـوجودهم في المنطقة ، وأنشدوا لأنهم رحبـوا بقـدوم الذين لطـالما تـطلعوا إلى حضورهم لأنهم شـعروا انهـم سـيعيدون إلى الديانة المسـيحية الاعتبار التي هي جديرة به بعدما طال انتهاك الكفار لها .

وبعدما ابتهلوا بخشوع للرب في كنيسة مريم المبـاركة وزاروا مهـد تجسيد المسيح ، وأعطوا قبلة السلام للسريان،سارعوا عائدين نحو القدس ، المدينة المقدسة ، .

انظر لقد ظهرت بقية الجيش وهي تقترب مـن المدينة ، وكانوا قـد مروا بالجيب (جبعون) وهي على يسارهم ، وهي تبعد خمسـين استادا (١٠ كم) عن القدس ، وفي الجيب أعطى يشـوع أوامـره للشمس والقمر (يشوع : ١٢/١٠ ـ ١٣) وعندمـا رفـع رجـال الطليعة اعلامهم وراياتهم هـاجمهم سـكان المدينة بـالحال بيد أن هؤلاء الذين أسرعوا بالخروج من المدينة ردوا على أعقـابهم إليهـا بسرعة اكبر .

شعر :

كان حزيران مشعا بحرارة الشمس السابعة عندما القى الفـرنجة الحصار على القدس .

موقع القدس :

تقوم القدس في منطقة جبلية جرداء خالية مـن الأشـجار والينابيع والجداول باستثناء عين سلوان ، التي تبعد مقـدار غلوة عن المدينة والتي يتوفر فيها الماء حينا ويشح حينا أخر بسـبب قلة المجـاري ، وتنبع هذه العين في الوادي على سفح جبل صهيون مـن تيار جـدول قدرون .

ويطفو هذا الجـدول بـالعادة ويفيض في الشـتاء مـن قلب وادي يهوشافاط .

وتحتوي الأحواض والصـهاريج الكثيرة داخـل المدينة على كميات كافية من المياه ، ذلك انها تمتلأ عادة بأمطار الشـتاء ، كمـا وكان هناك أحواض أخرى خارج المدينة لسقاية الناس والحيوانات

ومن المسلم به أن القدس مدينة منبسطة انبساطا متوائما ، وهـي ليست بالصغيرة أو الكبيرة ، عرضها من السور إلى السور مقـدار اربع غلوات سهم ، ويقع في غربيها برج داود الذي تحفه الأسوار من الجانبين ، وفي الجنوب منها يقع جبل صهيون وذلك على بعد أقل من غلوة سهم ، ويقع في شرقيها جبـل الزيتـون وذلك على قـرابة الف خطوة خارج المدينة ، ولقد بني برج داود هذا من حجـر صـلد ، وفي نصفه العلوي قوالب ضخمة مربعة مختومة بـالرصاص المصـهور ، ويمكن لخمسة عشر أو عشرين من الرجال الدفاع عن هذا البرج ضد هجمات أي عدو إذا ما توفر لهم ما يكفي من غذاء .

ويقع في وسط المدينة نفسها هيكل الرب ، وهو مسـتدير الشـكل ، وقد أقيم حيث شيد سليمان في قديم الزمان هيكله الرائع ، ومـع أنه لا تصح مقارنة الهيكل الحالي بالقديم ، غير أن منظره بهي رائع يدل على مقدرة مذهلة بالاعمار .

وكنيسة القيامة ايضا مستديرة الشكل ، تـركت ذروتهـا مفتـوحة لتسمح للضوء بالدخول من كوة دائمة أجاد في بنائهـا بناء مـاهر ، وليس لدي المقدرة ، كما لا اجرؤ ، ولا اعرف كيف أعدد ما فيها من نخائر فضلا عما حوته في الماضي ، اقول هذا حتى لا اخدع أو اضلل الذين يقراون أو يسمعون عن هذه المسألة .

وبعدما دخلنا الهيكل ، ولمدة خمسة عشر عامـا إثـر ذاك ، قـامت هناك صخرة في وسطه ، قيل إن تابوت العهد ومعه السكينة وصحف موسى قد حفظت في داخلها ، وان يوشع ملك يهوذا قد امر بـوضعها هناك قائلا « لن تتمكن من نقلها مـن هـذا المكان » ، ذلك أنه تنبـأ بحادثة السبي المستقبلية ،

غير أن هذا يتعارض مع ما نقراه من وصف في كتاب المكابيين الثاني انه قد اخفاها في بلاد عربه بنفسه قائلا : إنها لن تـكتشف حتـى يجتمع خلق كثير ، وكان ارميا معاصرا ليوشع غير أن الملك يوشـع مات قبل ارميا .

وروي أن ملاك الرب وقـف أمـام الصـخرة المذكورة (صـموئيل الثـاني : ٢٤ / ٨ ـ ٢٥) وأهلك الناس بسـبب ذنب داود في احصـائهم ممـا اغضـب الرب (صـموئيل الثاني : ١٢٤ / ٢ ، ١٥ ـ ١٧) ولما كانت هـذه الصـخرة قـد شوهت الهيكل فقد تمت تغطيتها بتبليطها بالرخام ، وقد وضـع الآن فوقها مذبح ، وعليه أوقف الكهنة جـوقة المرتلين ، وكان المسـلمون يكنون فائق الاحترام لمعبد الله هذا ، وقد فضلوا أداء صـلواتهم فيه على اي مكان اخر ، مع أن صلاتهم ذهبت سدى لأنها قـدمت لوثـن نصب اسمه محمد (صلى الله عليه وسلم) ولم يسمحوا للنصارى بدخول الهيكل .

وهناك معبـد اخـر (المسـجد الأقصى) رائع البنيان ، وفخـم الشـكل ، يدعى هيكل سـليمان مـع انه ليس الهيكل الذي شـيده

سليمان ، ولم نستطع بسبب ضيق ذات اليد ، أن نحافظ عليه في الحالة ذاتها التي وجدناه عليها ، ولذلك تلف جزء كبير منه .

وكان هناك مجار في شوارع المدينة يغسل فيها ماء المطر كل الأوساخ ويجرفها ، وكان الامبراطور اليوس هادريان قد زين هذه المدينة وزادها روعة وبهاء ، وجمل شوارعها وميادينها بالأرصفة ، وقد سميت القدس نسبة إليه « ايليا » ، ولهذا السبب ولأسباب أخرى كثيرة عظم شأن القدس واشتهر صيتها .

حصار مدينة القدس :

بعدما رأى الفرنجة القدس ، أدركوا صعوبة احتلالها ، لذلك أمر قادتنا بصنع أبراج خشبية عالية ، وقد أملوا أن يدخلوا إلى القدس - بعون الرب - بنقل هذه الأبراج إلى محاذاة الأسوار ونصبها هناك والتسلق عليها إلى أعالي السور بهمة ونشاط وتم بناء الأبراج ، وأصدر الأمراء الأوامر بالهجوم في اليوم السابع لتاريخ وصولهم ، وبعدما صدحت الأبواق في الصباح هاجم رجالنا المدينة من جميع الجوانب بعزيمة جبارة ، وبعدما ثابروا على الهجوم حتى الساعة السادسة من النهار ، ولم يتمكنوا من دخول المدينة . 'سطة الأبراج لقلتها توقفوا عن متابعة القتال وعادوا على مضض

وبعد التداول حول الامر أمر القادة المهندسين ببناء الات أخرى للقتال ، أملين أن تحقق لهم - بعون الرب - مبتغاهم اذا ما تم الصاقها بالأسوار ، وقد تم تنفيذ ذلك .

ولم يعان رجالنا من نقص الخبز واللحوم ، وانما شقوا وعانوا هم ودوابهم من جفاف المنطقة وخلوها من الجداول وشح المياه فيها ،

لذلك نقلوا المياه بكل مشقة من المناطق المجاورة على مسافة أربعة اميال أو خمسة حسبما تيسرت الأمور .

وبعدما تم اعداد الآلات من مجانيق واكباش وابراج ، بدأ رجالنا بالاستعداد للهجوم على المدينة مرة ثانية ، وكان من جملة ما أبدعوه لخدمة أغراضهم ، برجا من أخشاب قصيرة حيث لم تتوفر لهم اخشاب طويلة في تلك الأحواز ، ونقلوا اجزاء البرج إثر اصدار الأوامر ليلا ، ثم ركبوه في مواجهة المدينة في الصباح التالي ، ووضعوا معه الأكباش والمجانيق التي أعدوها ، وبعدما حضروه وغطوه من الخارج بجلود الحيوانات لحمايته من النيران ، دفعوه رويدا رويدا إلى محاذاة الأسوار ، وباشارة صدحت بها الأبواق ، تسلق عدد صغير من خيرة المقاتلين واشدهم شكيمة البرج ، غير أن المسلمين كانوا قد اقاموا وسائل للدفاع ضدهم ، واطلقوا من المجانيق بقذائف ملتهبة مغموسة بالزيت والشحوم ، ووقعت هذه القذائف على البرج وعلى من فيه ، ولهذا هلك العديد من الطرفين في القتال .

وشن ريموند ورجاله من موقعهم على جبل صهيون هجوما عنيفا مستخدمين الاتهم الحربية ، ومن الطرف الآخر شن رجال الدوق غودفري وروبرت كونت نورماني ، وروبت كونت الأراضي المنخفضة أعنف هجوم على السور وأقساه ، لكن انقضى اليوم دون المزيد من المحصلات .

وتابعوا في اليوم التالي القتال على زعيق الأبواق المهمة ذاتها بعزيمة اقوى وهمة اشد ، ولذلك فتحوا ثغرة في السور في مكان واحد بعد دكة بالاكباش ، وكان المسلمون قد نصبوا عمودين من الخشب أمام فتحة وجدت في أعلى السور ، وقد ربطوهما بالحبال لتكون بمثابة ستارة تحميهم من الحجارة التي كان يقذفها المهاجمون ، ولم يخيل إليهم ابدا أن ما اقاموه لخدمة أغراضهم سينقلب ضررا فيما بعد وذلك باذن من القدرة الربانية ، حيث انه عندما دفع الفرنجة

البرج المذكور إلى ملاصقة السور ، استخدموا سيوفهم القصيرة لقطع الحبال التي علق بها العمودان ، وجعلوا من هذين العمودين جسرا مدوه ببراعة من البرج إلى أعلى السور .

وفي تلك الأثناء ، كان رجالنا يقذفون بالمقذوفات المشتعلة على السور ، فتعلقت النيران في أحد ،أبراج السور الحجرية والتهمت كميات من الحطب والأخشاب كانت حول البرج ، وتصاعد الدخان واشتدت الحرائق فلم يستطع أحد من الحراس الذين كانوا هناك البقاء أمام النيران طويلا .

وسرعان ما دخل الفرنجة المدينة بكل روعة في ظهر ذلك اليوم الجليل الذي فدى فيه يسوع المسيح العالم بأسره وخلصه على الصليب ، وخلال زعيق الأبواق والضجيج والجلبة الشديدة ، شددوا هجومهم واندفعوا ببسالة وهم يصرخون « ساعدنا يا رب » ، وبادروا إلى رفع راية لهم على ذروة الأسوار ، فدب الرعب القاتل في قلوب الكفار ، واستبدلوا شجاعتهم السالفة بالخوف والفرار في أزقة المدينة وطرقاتها الضيقة ، وكانوا كلما أمعنوا بالفرار كلما اشتدت أعمال مطاردتهم ومحقهم .

وللوهلة الأولى لم يعرف الكونت ريموند ورجاله ، الذين كانوا يضيقون الحصار ويشددون الهجوم من ناحية أخرى من المدينة ، كنه ما يجري ، غير أنهم عندما شهدوا المسلمين وهم يقفزون من أسوار المدينة ، وعندما أدركوا ذلك اندفعوا وهم في ذروة الابتهاج فدخلوا إلى المدينة بأسرع ما أمكنهم ، وانضموا إلى رفاقهم يطاردون الأعداء الأشرار ويذبحونهم بدون توقف . وفر بعض العرب والسودان إلى برج داود ، وانحشر أخرون في هيكل سليمان ومعبد الرب ، وفي فناء هذا البنيان شن رجالنا هجوما عنيفا على المسلمين ، الذين لم يكن لهم من سيوفنا مفر .

أما المسلمون الذين صعدوا إلى سقف وقبة هيكل

سليمان (المسجد الأقصى) فقد أطلق عليهم النشاب ، فخروا صرعى وتساقطوا على رؤوسهم ، وقد قطعت رؤوس ما يقرب من عشرة آلاف شخص في هذا الهيكل ، ولو كنت هناك لتلطخت قدماك حتى الكواحل بدماء القتلى ، ثم ماذا أقول ؟ أقول : لم يبق منهم أحد ، ولم يرحموا طفلا ولا امرأة .

الأسلاب التي حصل عليها النصارى

كم كانت دهشتك عظيمة لو أنك شاهدت رجالنا من الرجالة وحملة الدرق ، يبقرون بطون من ذبحوا من المسلمين ــ بعدما اكتشفوا ألاعيبهم ــ ليستخرجوا من بطونهم الدنانير الذهبية التي كانوا ابتلعوها وهم ما يزالون على قيد الحياة ، وللغاية نفسها ، جمع رجالنا بعد بضعة أيام كومة عظيمة من الجثث وأحرقوها حتى صارت رمادا حتى يسهل عليهم الحصول على الذهب .

ثم اندفع تانكرد نحو هيكل الرب فجرده من كثير من الذهب والفضة والأحجار الكريمة التي كانت فيه ، غير أنه أعادها أو وضع ما يساويها في ذلك المكان المقدس ، ثم إن العبادات لم تعد تعقد هناك منذ ذلك الحين ، وكان المسلمون قد مارسوا فيه عباداتهم الوثنية بشعائر خداعة ، وكانوا أيضا لا يسمحون للنصارى بالدخول إليه .

شعر :

وبسيوف مشهورة سعى رجالنا في المدينة

لا يبقون على أحد حتى الذين يستجدون الرحمة

وتساقط الجميع مثلما يتساقط التفاح المتعفن

من الأغصان المهزوزة أو جوز البلوط من الشجر المتمايل

- ٢٧٧٣ -

مكوث النصارى في القدس :

وبعد هذه المذبحة الهائلة ، دخلوا إلى بيوت الأهلين فتملكوا كل ما وجدوه فيها ، وتفاهموا على ترتيب خاص أن أول من يدخل إلى واحد من البيوت سواء أكان بيت موثر أو بيت فقير فلن يعترض عليه أحد من الفرنجة ، ويحق له سكنى ذلك البيت وتملكه حتى وإن كان قصرا ، والاستحواذ على كل ما فيه والتصرف به كما لو كان بيته حقا ، وهكذا اتخذوا قرارات التملك ، وبهذه الواسطة غدا العديد من الفقراء أثرياء .

ثم توجه رجال الدين والعامة نحو كنيسة القيامة كذلك قصدوا هيكل الرب المجيد ، وساروا في موكب وانشدوا ترتيلة جديدة بصوت مفعم بالبهجة ، وقدموا الصدقات والابتهالات الخاشعة تملأ صدورهم ، ثم زاروا الأماكن المقدسة والغبطة تهزهم كما لو أنهم كانوا يودون لو فعلوا هذا منذ زمن بعيد .

ياله من يوم لطالما تحرقنا شوقا إليه : يا وقتا هو أحرى الأوقات بالذكرى ، ويا انجازا فوق كل انجاز ، لقد تمنينا هذا اليوم ، فقد كانت تعتمل الرغبة الجامحة في نفوس جميع المؤمنين بالديانة الكاثوليكية ، بأن يعاد هذا المكان إلى جلاله السرمدي ، لأنه المكان الذي اختاره خالق المخلوقات جميعا ، الرب الذي تجسد انسانا رحمة من رحماته للانسان ، و أضفى بتسجيده و موته و صعوده عليه منحة الخلاص ، أن يعاد هذا المكان على أيدي الذين آمنوا به ووثقوا ، فلقد تمنوا تطهير هذا المكان من الوباء بعدما دنسه سكانه بخرافات الوثنيين.

حقا إنه زمان جدير بالذكرى ، وذلك لأنه بالفعل تستعاد في هذا المكان ذكرى كل ما أنجز أو علم على الأرض ربنا الاله يسوع المسيح وهو كرجل بين الرجال ، وتتجدد في مخيلة المؤمنين الصادقين

جميعا ، وسيخلد هذا الانجاز الذي اختـار الرب إتمـامه على أيدي شعبه وأولاده واسرته الأحباء ، الذين انتقاهم لأداء هـذه المهمـة ، وستجري ذكراه على السنة جميع الامم إلى ابد الأبدين .

تنصيب ملك في المدينة واختيار بـطريرك واكتشـاف صـليب الصلبوت:

في السنة الف ومائة ينقصها واحد.
من المولد العذري للرب المجيد
بعدما أشرقت شمس تموز خمس عشرة مرة
استولى الفرنجة بعزيمتهم على مدينة القدس
وسرعان ما اتخذوا غودفري أميرا على بلدان آبائهم

واجمع رجال جيش الرب في المدينة المقدسة على انتخاب غودفري اميرا للدولة ليحميهم ويحكمهم وقد انتخبوه لأخلاقه النبيلة ومهارته الحربية وجلده ثم علاوة على ذلك لطلعته البهية ووسامته.

ثـم أودعوا القـوانين في كنيسـة القيامـة وفي هيكل الرب لخدمته ، وقـرروا في ذلك الوقـت أن لا يعينوا بـطريركا وحتـى يستمزجوا رأي البـابا في رومـا عمن يرغب في تعيينه في مركز البطريركية.

والتمس في تلك الاثناء بعض الأتراك والعرب وحوالي خمسـمائة من السودان الذين كانوا قد اعتصموا في بـرج داود ، مـن الكونت ريموند الذي استقر على مقربة من البـرج ، أن يأذن لهم بـالنجاة بأرواحهم إذا ما تخلوا عن اموالهم وتـركوها هناك ، فـأذن لهـم فانسحبوا الى عسقلان.

وبرضى من الرب تم في تلك الأونة العثور على قطعة صـغيرة مـن

صليب الصلبوت وكان قد اخفاها من زمن قديم بعض الرجال الصالحين في مكان سري ، واكتشفها الآن بارادة الرب رجل سرياني كان قد اخفا ها وحفظها بمعرفة من والده ، وحمل الجميع هذه القطعة ، وكانت على شكل صليب غطي جزء منه بالذهب والفضة ، الى كنيسة القيامة و منها الى الهيكل ، مرددين أناشيد النصر ، ومقدمين الحمد للرب الذي حفظ هذا الاثر الثمين عبر العصور لنا وله.

وصول الكفار وفرارهم:

بعدما سمع ملك باب اليون (القاهرة) وأمير قواته الأفضل بدخول الفرنجة الى البلاد للسيطرة على أراضي المملكة المصرية ، أصدر أوامره بحشد جموع العرب والعرب والسودان ، وبادر بالزحف للتصدي لهم وقتالهم ، وإثر وصول الأخبار الى الأفضل ، بوساطة الرسل ، التي تحدثت عن سقوط القدس بتلك الوحشية غضب كثيرا ، وسارع بالسير لقتال الفرنجة و حصارهم داخل القدس.

لما بلغت هذه الأخبار الى الفرنجة اعتمدوا خطة على درجة عالية من الجرأة ، بأن زحفوا بقواتهم نحو عسقلان لحرب هؤلاء الطغاة ، وحملوا معه خشبة صليب الصلبوت ، وفيما كان الفرنجة في أحد الأيام يستطلعون المنطقة حول عسقلان قبيل القتال ، عثروا على مغانم لا عد لها ولا حصر من الثيران والماشية والماعز ، وبعدما جمع رجالنا هذه الحيوانات قرب خيمنا أخر النهار ، أصدر قادتنا أمرا ملزما في أن لا يقود أحد رجالنا الغنائم معه في اليوم المقبل ، حتى لا تعيق حركة الجيش وتحد من حريته في القتال.

وفي اليوم التالي عرف الفرنجة من رجال استطلاعهم أن الكفار

قد أخذوا بالزحف فقاموا ، بضبط جوانبهم ونظموا صفوفهم وارتالهم على الوجه الأفضل للمعركة ، ثم زحفوا نحو العدو بكل شجاعة واعلامهم مرفوعة ، ولو كنت حاضرا لشهدت الحيوانات التى سلف ذكرها وهي تسير على يمين ويسار الحشد كما لو أنها كانت تطيع الأوامر ، مع أنه لم يكن يقودها أحد ، وعندما رأى الكفار كثافة حشدنا عن بعد ظنوه جيش الفرنجة الهائل ، ومع هذا تقدم الكفار واقتربوا من حشدنا بجموع لا تعد ولا تحصى ، وكانوا أشبه بوعل مندفع ليطعن بقرونه ، وبعثوا بكتيبتين من العرب لحصار ساقتنا ، مما دفع الدوق غودفري الى العودة الى الوراء برفقة كوكبه من الفرسان الدارعين ، فأنقذ الساقة ، وإثر هذا تقدم القادة الآخرون وكان بعضهم با لصف الأول وبعضهم الآخر بالصف الثاني.

وعندما دنا الجمعان من بعضهما بحيث لم يبق بينهما سوى قرابة رمية حجر او أقل ، شرع رجالنا برمي النشاب على الأعداء الذين امتدت صفوفهم ، ثم ما لبثوا أن استبدلوا النشاب بالحراب ، وذلك عندما اندفع فرساننا ـ كما لو كانوا على اتفاق مسبق ـ وشنوا هجوما مدمرا ، وانقلبت أثناء القتال خيول الأعداء البطيئة على فرسانهم وطرحتهم أرضا ، وفي ساعة أو أقل فارقت أجساد كثيرة الحياة وتغيرت ألوانها وعلاها الشحوب.

وأمعن الأعداء بالفرار ، وفي تلك الأثناء تسلق بعضهم أعالي بعض الأشجار ، غير أنهم تلقوا وابلا من النشاب فسقطوا الى لقاء حتفهم بتعاسة ، وهلك المسلمون أثناء القتال العنيف في كل مكان ، أما الذين تمكنوا من النجاة ففروا عبر معسكرهم الى عسقلان ، المدينة التي تبعد قرابة سبعمائة وعشرين استادا عن القدس.

وولى الأفضل الأدبار وقرر الفرار بعد لقائه الأول مع الفرنجة ، علما أنه كان في ذلك الحين يشعر نحوهم

بالازدراء ، وهكذا تخلي عن خيمته مرغما ، وكانت مكدسة بالأموال وانواع النفائس ، وقصدها الفرنجة تملأهم نشوة الظفر ، ثم اجتمعوا وقدموا الشكر للرب وحمدوه ، ثم ولجوا الى خيام الأعداء فوجدوا ما أذهلهم من الثروات الملكية من الذهب والفضة والملابس والمجوهرات والأحجار الكريمة بمختلف أنواعها ، فيها اثني عشر صنفا هي : اليشب ـ والياقوت الأزرق ـ والعقيق والزمرد ، والجزع العقيقي والبقراني ، والزبرجد والياقوت الزعفراني ، والياقوت الحجري ، كما انهم وجدوا أوعية كثيرة ، وأشياء أخرى مثل القلانس المرصعة بالذهب ، والخواتم الرائعة والسيوف المحلاة ، والقمح ومختلف الحبوب.

وأمضى رجالنا الليلة هناك واحتاطوا حيطة شديدة بالحراسة وتيقظوا اعتقادا منهم أن المسلمين سيجددون القتال في اليوم التالي ، لكن الذي حدث هو أن هؤلاء تملكهم الرعب ففروا في الليلة ذاتها ولم يبق منهم أحدا ، وبعدما تحقق رجال استطلاعنا من هذا الأمر في اليوم التالي ، تعالت الأصوات فرحا بالشكر والمديح ، وهللوا للرب وأثنوا عليه لأنه جعل الآلاف المؤلفة من الأعداء يتبعثرون على يد جيش صغير من جند المسيح ، « ومبارك هو الرب الذي لم يسلمنا فريسة لأسنانهم» (المزامير: ١٢٤ / ٦)« وطوبى للأمة التي الرب الهها»(المزامير: ٣٣ / ١٢).

الم يتبجح هؤلاء المصريون ويتعهدوا بألسنتهم قائلين: « لنذهب الى القدس فنحتلها والفرنجة في داخلها ، وبعد أن نذبحهم جميعا ، لنهدم كنيسة القيامة التي يجلونها وبذلك نزيل أثرها ونمحو ذكرها الى ابد الأبدين » ، وهكذا لم تذهب رحمة الرب سدى ، بل حمل الفرنجة الابل والخيول بثروات المسلمين ، وعندما تعذر عليهم حمل الخيام والرماح والقسي والسهام الى المدينة أضرموها بالنيران ورجعوا مبتهجين الى القدس.

عودة بعض الأمراء الى ديارهم:

بعدما تم تحقيق هذه الانجازات ، رغب بعض الناس في العـودة الى ديارهم ، وذلك بعد ما اسـتحموا وتعمـدوا بمياه نهـر الأردن وجمعوا سعف النخل قرب أريحا ، في مـكان عرف بـاسم حـدائق ابراهيم ، وبعد هذا رحل روبرت كونت نورماندي وروبـرت كونت الأراضي المنخفضة بالسفينة الى القسطنطينية ، ومنها الى فـرنسا ومن ثم الى ممتلكاتهما، أما ريمـوند فعـاد الى اللاذقية في سـورية وترك زوجتـه فيها ، ثم أكمل سفره الى القسطنطينية وهو على نية العودة ، وحكم غودفري في القدس بمـوافقة الجميع ، وهـي المدينة التي تعهد بحمايتها والحفاظ عليها ، وبقي معه تانكرد وآخرون.

حج بوهيموند وبلدوين

في تلك الآونة كان بوهيموند ــ وهــو رجــل عاقــل مــدبر مقدام ــ يحكم في أنطاكية ، وفي الوقت نفسـه حـكم بلدوين أخـو غودفري في الرها والبلاد االمجاورة في الضـفة الأخـرى مـن نهـر الفرات ، ولدى سماعهما بأخبار الاستيلاء على القـدس على أيدي رفاقهما الذين تقدموهما ، علاهما السرور والبهجة ، وحمدا الرب وشكراه وصـليا له ، وبمـا أن الذين تـابعوا الرحلة الى القـدس أصابوا النجاح وعمت عليهم الفـوائد ، فقـد تـوجب على هـذين القائدين ورفاقهما مضاهاة الآخـرين على الأقـل بشـجاعتهم وان تخلفوا عنهم سنة.

وقضت الضرورات تدبر حماية المدن والأراضي التي انتزعت مـن الترك بكل صعوبة ، وتوجب أن تكون هـذه الحمـاية عالية العناية والحرص ، ذلك أنه كان بمقدور الأتراك ، بعدما اندحروا الى بـلاد الفرس ، استعادة الأراضي بهجوم مباغت ، إذا مـا تـركت بـدون

حماية ، ولو وقع هذااللحق الفرنجة ضررا عظيما أثناء ركوبهم الطريق الى القدس ومنها ، ولعل العناية الربانية هي التي قضت أن يتخلف بوهيموند وبلدوين ، ذلك أنها ارتأت أنهما سيكونان أكثر نفعا فيما سيحدث من مشاركتهما فيما حدث.

والمرات التي افرغ فيها بلدوين الجهد في قتاله ضد الأتراك في الجزيرة كثيرة ، وكثيرة أيضا رؤوس الترك التى قطعها ، فمن المحال تقدير عددها ، وغالبا ما حارب بلدوين بقلة من رجاله جموعا حاشدة من الأعداء ، ولكن حالفه النصر بعون من الرب.

وعندما بعث بوهيموند الى بلدوين يقترح عليه أن يقوما مع رجالهما بمتابعة الرحلة الى القدس لأنهما لم يكملاها ، أخذ بلدوين بعض الوقت في تدبير أموره و التحضير للسفر ، و فيما بلدوين على نية السفر سمع أن الأتراك اجتاحوا شطرا من بلاده ، فأجل سفره وأخذ طريقه فورا مع حفنة من رجاله ، وزحف ضد الأتراك مع أنه لم يكن قد جمع جيشه كله للرحلة الى القدس ، وفي أحد الأيام شاهد الأتراك راية بلدوين تقترب منهم ، وكانوا يظنون أنه قد بدأ رحلته الى القدس ، لذلك جلسوا مطمئنين في خيامهم ، وفوجئوا الآن فدب الرعب في قلوبهم ولاذوا فورا بالفرار ، وبعدما طاردهم بلدوين مسافة قصيرة رجع رجاله القلائل وتابع تنفيذ المشروع الذي عزم على القيام به.

وبدأ بلدوين رحلته بالمرور عن يمين انطاكية حتى وصل الى اللاذقية ، حيث اشترى مالزمه من مؤونة للرحلة ، وأعاد تعبئة أحمال دوابه ، ثم شرع بالرحيل في تشرين الثاني ، وبعدما مررنا بجبلة التقينا ببوهيموند في بانياس حيث كان قد ضرب خيامه.

وكان معه أسقف من بيزا يدعى ديمبرت ، وكان هذا الأسقف قد ركب البحر الى مرسى اللاذقية مع بعض التوسكانيين والطليان ، وقد انتظروا هناك ليسيروا معنا ، وكان هناك أسقف

من أبوليا وأسقف ثالث برفقة اللورد بلدوين ، وقد قدرنا تعداد هذا الحشد من الناس الذين ربطتهم أواصر المودة بخمسة وعشرين الفا من الرجال والنساء فرسانا ورجالا".

وبعدما دخلنا الى بلاد المسلمين ، لم نستطع الحصول من السكان المعادين على الخبز أو أي غذاء آخر نقتات به ، وعانى الكثيرون من شدة الجوع ، وازدادت معاناة الخيول والبهائم من قلة الأعلاف ، وهكذا ساروا دون أن يتمكنوا من الحصول على الغذاء.

وعثرنا في الحقول المزروعة التي اجتزناها على نبات طازج تدعوه العامة باسم « قصب العسل » وهو شديد الشبه بقصب البوص ، واسمه مركب من العسل والقصب وعنه صدرت عبارة « عسل الخشب » كما أظن ، لأن هذا العسل يستخرج بمهارة من هذا القصب ، وقد مضغنا هذا القصب طوال الوقت بسبب مذاق العسل فيه ، لكن ذلك لم يخفف من جوعنا كثيرا .

وفي الحقيقة تحملنا ـ محبة بالرب ـ هذا العذاب وكثيرا من المشقات مثل الجوع والبرد والأمطار الشديدة ، وأكل كثير من الرجال لشدة الجوع ، الخيل والحمير والجمال ، وقاسينا كثيرا وبشكل متواصل من البرد القارس والأمطار العاصفة ، حتى أن ثيابنا المبتلة كانت ما تكاد تجف في حرارة الشمس حتى ينغص عيشنا وابل جديد من المطر لأربعة أيام أو خمسة.

ولقد رأيت كثيرا من الناس ممن فقدوا خيامهم يموتون من شدة البرد بسبب الأمطار ، كما شهدت أنا فولتشر أوف تشارترز بنفسي في أحد الأيام كثيرا من الناس من الجنسين يلاقون حتفهم بسبب الصقيع وكذلك الكثير من الدواب ، ويطول الوصف ويمل السامع لوذكرنا جميع الآلام والمآسي التي عانى منها شعب الرب.

ولاقى عدد كبير من الفرنجة حتفهم على أيدي المسلمين الذين كمنوا لهم على الممرات الضيقة في الطريق ، وتم اختطاف بعضهم الآخر أثناء بحثهم عن الطعام ، ولقد كنت ترى فرسانا من أصل رفيع وقد غدوا رجالة لفقدانهم خيولهم ، كما كنت ترى الماعز والخراف التي انتزعت من المسلمين ، وقد هدها حمل الأمتعة وتشققت ظهورها وتحطمت من حمل الأثقال ، لأنه لم يبق من البهائم لحمل الأمتعة غيرها.

وحصلنا على الخبز مرتين لا ثالث لهما ، بعدما دفعنا ثمنا باهظا ، وكانت المرة الأولى في طرابلس والثانية في قيسارية ، ويتضح من هذا كله أن الانسان لا يصل الى الانجاز العظيم إلا بالبذل العظيم ، وكان وصولنا الى القدس حقا امرا جد عظيم.

وانتهت بهذه الزيارة الى القدس مهمتنا التي طال مداها ، وعندما ابصرت عيوننا قدس الأقداس ، التي طال شوقنا اليها ، امتلأت نفوسنا بشعور بالغبطة العارمة ، ومرات كثيرة هي التي تذكرنا فيها نبوءة داود إذ قال: « لنسجد عند موطىء قدميه » (مزامير: ١٣٢ / ٧) ، حقا شهدنا هذه النبوءة تتحقق فينا مع أنها كانت تتعلق بغيرنا ، وصعدنا حيث صعدت الأسباط ، أسباط الرب شهادة(مزامير ١٢٢ ٤)الى هذا المكان المقدس.

وبدأت الشمس يوم وصولنا الى القدس تنقلب بعد اكمال هبوطها الشتوي ، وشرعت بالصعود ، وبعد ما قضينا زيارتنا الى كنيسة القيامة والى هيكل الرب المجيد والى الأماكن المقدسة الأخرى ، ذهبنا في اليوم الرابع الى بيت لحم من اجل الاحتفال بميلاد الرب المسيح ، وأردنا أن نسعف أنفسنا بالصلوات تلك الليلة في المهد حيث وضعت الأم مريم المجيدة ابنها يسوع ، ثم رجعنا الى

القدس في الساعة الثالثة من ذلك اليوم ، بعدما فرغنا من الابتهالات المناسبة في الليلة المتقدمة.

ولقد سدت أنوفنا الروائح الكريهة المنتشرة حول أسوار المدينة من الداخل ومن الخارج ، والتي انبعثت من جثث المسلمين المتفسخة ، وهم الذين أبادهم رفاقنا عند احتلالهم للمدينة وكانت ما تزال مطروحة حيث تم الفتك بها.

وبعدما استجمينا نحن ودوابنا ، ونلنا قسطا من الراحة التي كنا في أشد الحاجة اليها ، وبعدما وقع اختيار الدوق والمقدمين الآخرين على ديمبرت السالف الذكر ليغدو بطريركا في كنيسة القيامة ، تزودنا بالمؤن ووضعنا أثقالنا على دوابنا وهبطنا نريد وادي نهر الأردن ، ولقد آثر بعض الجنود ، خاصة الذين تأخروا بالوصول الى القدس ، البقاء في المدينة ، و اختار الآخرون الذين كانوا قد وصلوا من قبل الذهاب معنا ، واستمر الدوق غودفري يحكم منطقة القدس بيد فولاذية كما فعل من قبل.

شعر :

وحدث في اليوم الثالث لما قبل منتصف أب ، وكان يوما مشؤوما ، أن مات أوربان المبجل ، بابا روما.

عودة كل من بوهيموند وبلدوين الى بلديهما:

في العام الف ومائة لتجسيد مولانا المسيح ، وفي اليوم الأول من ذلك العام ، حملنا جميعا سعف النخيل ، بعدما قطعناها في أريحا ، حسبما جرت العادة ، وبدأنا رحلة العودة في اليوم التالي ٠

قد احب امراؤنا العبــــور بمـــــدينة طبـــرية ، الواقعـــــة على بحرها ، وطول هذا البحر الذي يتكون من مياه عذبة ــ ثمانية عشر ميلا و عرضه خمسة اميال ، ومن طبرية ارتحلنا الى قيسارية فيليب التي تدعى باللسان السوري بانياس ، وهي تقع على ســفح جبــل لبنان ، حيث ينبع جدولان يشكلان نهر الأردن ، ويجري هذا النهر عبر بحر طبرية الى البحر الميت.

ويذكر يوسفيوس أن عرض بحر طبرية اربعين ســتادا وطــولها مائة ، وكانت تعرف باسم جنسماريت ويمر النهر من خــلالها ، ثــم يصـــب في البحـــر الذي يدعى البحـــر الميت ، لأنه (تـــــكوين ١٩ / ٢٤ - ٢٩)لا يحتوي على اي شيء حي ، و يعرف ايضــا باسم بحيرة اسفلت ، و يعتقد انه ليس لها قـــاع ، لأن مـــدنا مثــل سدوم وعمورة قد انغمرت في جوفها

وكنت قد قـــرات في كتـــاب القــــديس جيروم عن النبـــــي عاموس ، وقمــت بعناية فــائقة بتخمينات بشــأن الينابيع التــــي ذكرها ، واستخلصت أن دان كانت ضمن حدود بلاد يهوذا حيث تقع بانياس الآن ، ولأن قبيلة دان شيدت مدينة هناك ، دعوهـــا بـــاسم دان تيمنا بأسماء ابائهم ، ولهذا السبب أعتقد أن احد هذه الينابيع كان اسمه دان وكان اسم الآخر الواقع على مقربة منه « جوز ».

ثم وصلنا الي مدينة حصينة اسمها بعالات (تدمر) ، وكان قــد شيدها سليمان ، وعمر حولها اسوارا عالية جــدا ، وأطلق عليهـــا اسم تدمر ، وتقـــع هـــذه المدينة على مســــيرة يومين مـــــن أعالي سورية ، وستة أيام من باب اليون الكبرى (القاهرة) ومسيرة يوم من الفرات ، وقد سماها الاغريق بالميرا ، و تكثر حولها الينابيع والآبار لكن المياه لا توجد في البادية.

وواجهنا هناك نحو أربعمائة من المقاتلين الترك كانوا قد جـــاءوا من دمشق ، وقد ظنوا أننا مجهدون من التعب ومنهــكون ، ولهــذا

خيل اليهم انه بسهولة يمكنهم الحاق المضار بنا ، وفعلا كادوا أن يفعلوا ذلك لولا أن شاء القدر أن يحمي اللورد بلدوين مؤخرتنا في ذلك اليوم بكل عناية وحذر ، ولولا هذا لقتل من رجالنا عدد كبير ، وقد انعدمت فعالية قسيهم بسبب الأمطار ، لأن عادة أهل تلك البلاد أن يستخدموا الغراء في صنع هذه الأسلحة ، وفي تلك الأثناء قاد بوهيموند المقدمة ، وهكذا لم ينل العدو منا ـ بعون الرب ـ أي مغنم.

ثم اقمنا مخيمنا أمام البلدة المذكورة ، وفي اليوم التالي اقتربنا اكثر من البحر ، ومررنا أمام مدينتي طرطوس واللاذقية ، وفي اللاذقية وجدنا ريموند الذي كنا قد خلفناه هناك ، ولندرة الأغذية لم نجد ما نشتريه من المؤن لنفقات به ، و مع هذا تابعنا سفرنا غير اننا سارعنا ولم نتوقف حتى وصلنا الى الرها.

اسر الأمير بوهيموند:

وصل بوهيموند الى انطاكية اولا ، حيث رحب به أصدقاؤه وتلقوه بكل سرور وفرحة ، وقد مكث يحكم لمدة ستة أشهر كما فعل من قبل ، غير أنه عندما وصل في شهر تموز مع حفنة من رجاله الى مشارف مدينة اسمها ملطية ، التي كان قد عقد اتفاقا مع صاحبها الذي اسمه جبريل أن يسلمه اياها ، اقترب منه أمير اسمه الدانشمند ، وكان على رأس قوة كبيرة من الترك ، وسعى الى قطع الطريق عليه ، ولم يكن بوهيموند عارفا بوجوده.

وعلى مقربة من ملطية انقض هؤلاء الأشرار على بوهيموند ، وخرجوا عليه من كمين كانوا قد نصبوه له ، وطرحوه ، ولم يتجرأ رجالنا على القتال لقلة عددهم وفروا وتفرقوا بالحال ، لكن بعدما قتل الأتراك عددا كبيرا منهم واستولوا

على اموالهم ، ولم يكتف الاتراك بهذا بل إنهم قبضوا على بوهيموند وقادوه أسيرا،وعندما علم جماعتنا بأنباء هــذه الكارثــة مـــن الذين فروا ، أصابهم حزن كبير ، وقام بلدوين كونت الرها فحشد كل من وجده من فرنجة الرها وانطاكية ، ثم انطلق بلا تأخر لملاحقة العــدو حيث سمع بوجوده ، وكان بوهيموند قبل وقوعه بــالأسر قــد قص خصلة من شعره ، وبعث بهــا الى بلدوين حســب اتفــاق متقـــدم بينهما و رجاه محبة بالرب ان يقدم الى نجدته على الفــور ، وكان الدانشمند يحاصر مدينة ملطية لكنه عندما سمع بتحرك بلدوين خشي مغبة ذلك ، فأوقف الحصـــار ، وانســـحب خشـــية مـــن مواجهتنا ، وتمكن بذلك من العودة الى بلاده ، وأصابتنا خيبة أمل شديدة لذلك ، فقد طاردنا الأتراك لمدة ثلاثة أيام بدون جدوى ، وكنا نتوق للاشتباك معهــم بــالمعركة ، ثــم عدنا الى ملطية ، فسـلمها جبريل إلينا بعدما وطد أواصر الصداقة مع بلدوين ، و دخــل بلدوين إلى ملطية وخلف بعض رجاله فيها ثم عاد الى مدينة الرها ، واثــر هذا عاد رجال انطاكية الى مدينتهم بعدما فقدوا قائدهم.

موت الملك غودفري:

ولم يستمتع بلدوين برغد العيش طويلا حتى وصل اليه رسول من القدس يحمل اليه خبر موت الملك قبل بداية شــهر أب بخمســة عشر يوما.

شعر:

وفي مطلع السنة بعدما سقطت المدينة
أعطاك الرب أيها الدوق غودفري الحكم كتاج من التقــدير لكن لم يدم طويلا.

- ٢٧٨٦ -

تمتعك به لأن الطبيعة قضت بهلاكك.

وعندما دخلت الشمس الصاعدة في برج الأسد

صعدت أنت الى عليين مسرورا يحملك الملاك ميكائيل.

الكتاب الثاني

اعمال الملك بلدوين الأول

كيف قدم بلدوين ليحكم القدس :

اصاب بلدوين شيئا من الحزن لوفاة أخيه ، ولكنه عندما علم أن اهل القدس جميعا يتوقعون أن يتولى حكم المملكة بصفته الوريث الشرعي لها ، فرح أكثر لميراثه ، وبعدما عقد بعض الاستشارات أعطى البلاد التي له الى ابن عمه ، ثم جمع جيشه الصغير الذي لم يتجاوز تعداده مائتي فارس وسبعمائة راجل ، وركب الطريق وانطلق يوم القدس في الثاني من تشرين الأول .

وقد أدهش الكثيرين بشجاعته واقدامه على عبور كل تلك البلدان المعادية مع عدد ضئيل من الرجال ، كما ضرب الهلع وتملك الخوف قلوب الكثيرين ممن صاحبونا فانسحبوا وتخلوا عن مرافقتنا خلسة ودون علم منا ، وعندما اكتشف الأتراك والعرب أننا عازمون على القيام بهذه الرحلة حشدوا ما استطاعوا من رجالهم ، وزحفوا ضدنا مهاجمين ليوقعوا بنا اكبر خسارة ممكنة ، ومررنا بأنطاكية ثم عبرنا اللاذقية ، ثم جبلة ومرقية وطرطوس وعرقة الى أن وصلنا الى طرابلس .

وبعث أمير طرابلس في تلك الآونة الى خيمة بلدوين بالخبز والنبيذ والعسل المصفى ، وخرفان الضأن المشوية ، وأخبر بلدوين أن دقاق صاحب دمشق وجناح الدولة أمير حلب ، كانا في انتظاره مع جمع من الاتراك والمسلمين والعرب على الطريق الذي اعتقدوا أنه سيمر

بها ، ومع أننا لم نصدقه وقتها تماما ، تبرهن لنا فيما بعد أن زعمه كان صادقا .

الكمين الذي نصبه الأتراك ــ مهارة بلدوين الفائقة بالأمور العسكرية :

يقع على مقربة من بيروت ــ على مسافة خمسة أميال منها ، ممر شديد الضيق قائم على الطريق المماشي لساحل البحر ، ولم يكن بمقدورنا أو بمقدور أي انسان كان المرور به وعبوره ، اذا ماأراد عدو مزود بالمؤن أن يحول دون عبوره ، ولو أراد مائة الف جندي أن يعبروه لما استطاعوا اذا ماتصدى لهم مائة رجل أو حتى ستون مقاتلا عزموا على الوقوف هناك .

وعندما دنت طلائع جندنا من هذا الممر الضيق رأى رجالنا أتراكا انفصلوا عن أخرين وشرعوا يتقدمون نحونا ويتفحصون أوضاعنا ، ولما رأتهم طلائع قوتنا اعتقدوا بوجود اعداد كبيرة خلفهم مختبئة في كمين ، وعندما شهدوا هذا راسلوا اللورد بلدوين بدون تقاعس ووصفوا له الأوضاع ، واستجاب بلدوين لهذه الأخبار بأن أمر رجاله بالاصطفاف للقتال ، وتعبأنا ، ثم زحفنا نحو العدو بتؤده نسير خطوة خطوة ، وأعلامنا مرفوعة ، وعندما تيقنا من اقتراب نشوب القتال جثينا للصلاة بقلوب طاهرة خاشعة ، وطلبنا المدد من السماء ، وقابلت طليعتنا قوات الأعداء فردا فردا ، وقتل عدد منهم بالحال ، ولم نفقد غير اربعة من رجالنا .

وبعدما توقف القتال تشاورنا حول الأمر ، فصدرت الأوامر بنقل معسكرنا الى اقرب موقع من العدو ، ولم نرغب في أن نبدو خائفين ان نحن تخلينا عن الموقع وكأننا في وضع فرار ، لهذا تظاهرنا بشيء ، بينما اتجهت أفكارنا نحو شيء أخر ، وتصنعنا الشجاعة مع

اننا خشينا من الموت ، وصعب علينا التراجع لكن التقدم كان أشد صعوبة ، فقد حاصرنا العدو من كل جانب ، وكان هناك من طرف أول جماعات اتت في القوارب وخرجت من البحر ، ومن الجانب الآخر كان الآخرون ينقضون مهاجمين بدون توقف من الجروف الجبلية والشعاب ، وهكذا مر بنا يوم شديد البؤس حقا ، والصدق أقول : إنني تمنيت من كل قلبي لو كنت في تشارترز أو في أورليانز ، وكذلك تمنى البقية ، وقضينا تلك الليلة دون نوم خارج خيامنا وقد فترت عزيمتنا .

وفي الفجر عندما شرعت الشمس تجلو الظلامة عن وجه الأرض وبعدما تداولنا في أن نتراجع أو نموت ، قررنا جمع خيامنا ، والنكوص على أعقابنا والعودة من حيث أتينا ، وهنا حمل بعض رجالنا الموكلين بالأمتعة ماوجد معنا على ظهور الدواب ليتقدمونا بالمسير ، وفي الوقت نفسه تخلف فرساننا لمقاومة المسلمين المهاجمين .

ومع نور الصباح ، عندما تبين للأتراك ـ حلت بهم اللعنة ـ اننا اخذنا بالتراجع هبطوا على الفور من المرتفعات وشرعوا يطاردوننا ونحن لاندري كيف نفعل ، فقادونا الى داخل الممر الضيق ، كما تقاد قطعان الماشية ، وكما سبق ووصفت جاء بعضهم في القوارب من البحر ، وانقض بعضهم الآخر من خلفنا على الطريق ، كما كان هناك بعضا اخر جاءوا من التلال والجبال حولنا فرسانا ورجالة ، وارادوا أن يفصلوننا عن موقع منبسط عند مخرج الممر ، حيث اشتد ضيقه بين البحر والجرف واستهدفوا ايقافنا وقتلنا ولكن الأمور لم تسر حسبما رغبوا ، فقد صمد رجالنا حيث كان يقول ،أحدهم للآخر : اذا ما تمكنا من ايقاف مطارديننا عند ذلك الموقع المنبسط ، فلعلنا ـ بعون الرب ـ نستطيع الحملة عليهم ، فاذا ماقاتلنا وقتها بضراوة يمكننا الانفصال عنهم والمضي في سبيلنا .

- ٢٧٩٠ -

الاستبسال بالقتال ضد الاتراك :

وكان الاتراك في تلك الأونة يقفزون من القوارب حيث قتلوا الذين سولت لهم انفسهم الاقتراب من البحر ، ثم اندفعوا نحونا في الموقع المنبسط المشار اليه ، واخذوا يرموننا بالنشاب ويقذفوننا بالسباب من كل جانب ، وكانوا يصرخون وينبحون كالكلاب أو كالذئاب ، ويتقدمون نحونا وسيوفهم مشرعة .

« فلا استطاع سليمان الحكيم ولاشمشون الجبار أن ينتصرا » . ولكن عندما أطل رب القوة والرحمة الواسعة من سمائه على الأرض ورأى خضوعنا ، وشهد المحنة الكبرى التي ألمت بنا بسبب محبته وفي سبيل طاعته ، عند ذلك تحركت رحمته السرمدية ، التي ينجد بها قومه دوما بكل حق ، فمنح رجالنا أرفع درجات الشجاعة فانعطفوا نحو أعدائهم ، وهزموهم وارغموهم على الفرار في طريق ذي شعب ثلاث ، ولم يتوقف هؤلاء ابدا ولم يفكروا بالدفاع عن أنفسهم — ولقد فر بعضهم الى الشعاب الجبلية الوعرة وبعضهم الآخر الى ملاجىء يأمنون فيها — في حين طاردنا بعضهم وذبحناهم بحد السيف ، ولقد كنت ترى بعضهم وقد اندفعوا مهرولين باتجاه قواربهم ، ليركبوا مراكبهم وكأننا كنا على وشك ان نتخطفهم بأيدينا ، وهرب آخرون لايلون على شيء وذلك بتسلقهم الشعاب والتلال .

ثم عدنا الى رجالنا الذين كانوا يحرسون دواب الحمولة على الطريق ، ونحن نشعر بنشوة الظفر ، وبالغبطة لنيل هذا النصر المبين ، وقدمنا ساعتئذ عظيم شكرنا للرب ، الذي منحنا تأييده العظيم في تلك المحنة الوافدة المليئة بالمخاطر .

ما أعجب تدابير الرب ، كم هي رائعة وجديرة بالتذكر ، فبعدما

كما منهزمين عدونا منتصرين ، وفي الحقيقة لم نكن نحن من انتصر بنفوسنا ، و كيف لنا أن ننتصر؟أن الذي انتصر هو الرب وحده ، خالق الكل ، شامل المقدرة ، الذي امد مخلوقاته بعونه ورحمته ومعنا ماقاله الرب لبني اسرائيل بوساطة الأنبياء · « اذا سلكتم في فرائضي وحفظتم وصاياي وعملتم بها يطرد خمسة منكم مائة ، ومائة منكم يطردون ربوة ، ويسقط أعداؤكم أمامكم بالسيف ، وألتفت اليكم واثمركم واكثركم ، وافي بميثاقي معكم » (لاويون: ٢٦/٢، ٩/٨) ،وحيث اننا تحملنا الكثير من العذاب في خدمته ليلا ونهارا ، كسرنا باعجوبة الأعداء ،ولاننا تعبدناه في محنتنا بقلوب خاشعة نظر بعين الرضا لتذللنا .

ثم صدرت الأوامر بنصب الخيام ، وعرض أمام اللورد بلدوين سادة الاتراك الذين أسروا وعرضت معهم اسلحة القتلى ، واستولينا على خيول بسروج مذهبة ، وفي صباح اليوم التالي ، تدبرنا أمورنا كما لو كنا نطبق خطة مدبرة ، فسرنا مقدار اربعة أميال على الطريق ، وبعدما وزع الأمراء الغنائم هناك استرحنا تلك الليلة في ظل أشجار الزيتون داخل أجمة قرب قلعة مهجورة .

واصطحب بلدوين في صباح اليوم التالي بعض الفرسان ، وتوجه بشجاعته المألوفة نحو الممر الضيق الذي اتينا على ذكره واستهدف معرفة فيما اذا كان المسلمون الذين اغلقوا طريقنا فيما مضى قد ظلوا هناك ، وعندما لم يجد منهم احدا ، ذلك أنهم لاذوا بالفرار بعدما سمعوا بما حدث من الهزيمة والتمزيق ، جثا شاكرا للرب وحامدا ، ثم امر باشعال نار عظيمة على رأس الجبل ، وكانت تلك شارة لمن تخلف من أهل معسكرنا بغية المبادرة للحاق بمن تقدمهم ، ولما رأينا النار ، شكرنا الرب ، وبادرنا الى اللحاق. ووجدنا الطريق سالكة مفتوحة لنا ، فأكملنا الرحلة حسبما ارتضينا .

واقمنا معسكرنا قرب بيروت لتمضية الليلة ، وعندما عرف صاحب تلك المدينة بأمر وجودنا ، أرسل بقوارب مليئة بالأطعمة الى اللورد بلدوين يوميا ، وكانت هذه البادرة لاتدل على حسن النية ، ولكن كان مصدرها الخوف ، ولم يكن ابدا المحبة ، وفعل الشيء نفسه حكام المدن الأخرى التي مررنا بها مثل صور وصيدا وعكا ، فلقد تظاهروا بالمودة غير أن قلوبهم كانت خلوة منها .

وكان تانكرد يحكم مدينة حيفا التي استولى عليها رجالنا وهم في طريقهم الى القدس ، عند بداية هذا العام ، بيد أننا لم ندخل اليها لأن تانكرد كان معاديا لبلدوين ، ولم يكن تانكرد في حيفا غير أن اتباعه من سكان المدينة باعونا الخبز والنبيذ خارج المدينة ، ذلك أنهم رأوا فينا أصدقاء لهم رغبوا في مقابلتهم .

ومررنا بقيسارية فلسطين وبقلعة أرسوف الحصينة ، التي ظننا لجهلنا أنها اسدود غير أن اسدود كانت واحدة من خمس مدن فلسطينية (صموئيل : ٦/١٧) ، وهي تقع بين يافا وعسقلان ، وقد تدهورت أحوالها الآن واضمحلت فهي اشبه بقرية .

وبعدما مررنا بأرسوف وصلنا أخيرا الى مدينة يافا البحرية ، وهي في منطقة دان ، وفي تلك الأثناء رحب الفرنجة ببلدوين هناك واستقبلوه ملكا لهم ، ولم نتأخر هناك بل خففنا الخطى الى القدس ، وعندما شارفنا الوصول الى المدينة جاء السكان جميعا للترحيب ببلدوين ، وحضر رجال الأكليروس والأغريق والسريان بصلبانهم وشموعهم ، وصاحبوا موكبه الى كنيسة القيامة بكل اكبار وفرحة ، يرددون تراتيل الحمد للرب بأصوات شجية رنانة .

وتخلف عن الحضور والمشاركة البطريرك ديمبرت ، لأنه كان

موضع ريبة من قبل رجـال بلدوين ، الامـر الذي قـاد الى سـوء العلاقات بينهما ، وقـد شـعر غالبية رجـال الاكليروس بمشـاعر البغض لديمبرت ، لذلك أقام في جبل صهيون ، محروما من ممارسة وظائفه وظل هناك حتى كفر عن خطايا الجسد الذي امتلكه .

وبعدما استرحنا عدة أيام وتخلصنا من متاعبنا ونلنا نصيبنا من الاستجمام مدة ستة أيام في القدس وهـذا مـاكنا بـأمس الحـاجة اليه ، وبعدما صرف الملك بعض شؤونه أجرينا الاعدادات للتوجه في حملة جـديدة ، واسـمحوا لي الآن ان اذكر شـيئا عن طبـائع بني البشر ، فعندي إنه يتحتم على كل من لديه اعداء أن يضـيق الخناق عليهم من جميع الجوانب وان يتشدد معهم بلا هوادة أو توقف حتى يقهرهم إما بـاضعافهم بـالقتال أو يجبـرهم بـالقوة على طلب السلام .

حملة بلدوين على منطقة عربة :

ولهذا بادر بلدوين بـالرحيل نحـو عسـقلان ، وكان على راس رجاله عندما اجتاز اسـدود القـائمة على الطـريق بين يافـا وعسـقلان ، وهـي احـدى المدن الفلسـطينية الخمس ، وكانت الجامنية على يميننا على مقربة من يبنا الواقعة على البحر ، وعندما اقتربنا من عسقلان خرج بعض اهلها الى قتالنا فصـددناهم بـكل شدة ورددناهم الى خلف الاسوار ، وعندما وجدنا أن لافائدة لنا من متـابعة التقـدم هنا رجعنا الى معسـكرنا ، ونزلنا في خيمنا التـي نصبت فيه .

ثم استأنفنا زحفنا في اليوم التالي داخل تلك الديار حيث عثـرنا على الاطعمة الكافية لنا ولدوابنا وكانت مناطـق مـزدهرة ، ولقـد دمرنا بلاد الأعداء ، وتابعنا تقدمنا فوجدنا الكثير من القـرى وقـد

هجرها اهلها من المسلمين واصطحبوا معهم دوابهم و مقتنياتهم ، ولجأوا الى الكهوف خوفا منا ، وعندما تعذر علينا اخراجهم منها أشعلنا النيران امام مداخل الكهوف ، وسرعان ماخرجوا منها بسبب الدخان المنبعث من النيران الواحد إثر الآخر .

وكان بينهم لصوص اعتادوا على الكمين بين الرملة والقدس وقتل المسيحيين ، وعندما أخبرنا بعض المسيحيين السريان الذين وجدناهم معهم عن هؤلاء الأشقياء ، قطعنا رؤوسهم فور خروجهم من المغائر ، وحافظنا على حياة هؤلاء السريان وزوجاتهم ، وفي الواقع قتلنا مائة من المسلمين .

وبعدما أكلنا كل ماوجدناه هناك من قمح ومواشي والتهمناه ، ثم بعدما لم نجد مانتنتفع به وأكلنا اكثر اجتمعنا مع بعض السكان المحليين الذين كانوا مسلمين من قبل ، غير أنهم اعتنقوا الآن المسيحية ، واستوضحنا منهم مايعرفونه عن الأراضي الخصبة والصحراء في الأحواز القريبة والبعيدة ، ثم قررنا الذهاب الى بلاد وادي عربة ، فاجتزنا المنطقة الهضبية قرب مدافن الانبياء ابراهيم واسحق ويعقوب ، ثم سارة ورفقة ، حيث رقدت اجداثهم بكل جلال ، ثم وصلنا الى واد يبعد قرابة أربعة عشر ميلا من مدينة القدس ، فهاهنا دمرت بحكم الرب مدينتنا سدوم وعمورة الخبيثتان (تكوين : ١٩/ ٢٤ـ ٢٥) .

البحر الميت :

وهناك بحيرة كبرى ، تعرف باسم البحر الميت لأنها لاتحتوي على أي شيء حي ، وهي تمتد خمسمائة وثمانين استادا طولا ومائة وخمسين عرضا ، وهي شديدة الملوحة حتى انه لايستطيع حيوان

ولاطير من أي نوع أن يشرب منها ، وقد عرفت انا فولتشر هذا من التجربة ، وعندما ترجلت عن ظهر بغلي ، وتناولت غرفة من الماء بيدي لأجربه بالمذاق ، فوجدته اشد مرارة من الصبر الأسود ، وتتلقى هذه البحيرة الماء من نهر الأردن في الشمال ، وليس لها مخرج في الجنوب ، ولاينبع فيها اي نهر ، وهناك على مقربة منها جبل عظيم وشاهق من الملح ، يشبه صخرة طبيعية من الملح ، مع أنه يشبه الجليد في بعض اجزائه ، وفضلا عن ذلك ان الانسان لايستطيع الغوص في ماء هذه البحيرة حتى لو حاول ذلك ، واحسب أن شدة ملوحة هذه البحيرة مردها الى سببين : فهي أولا مستودع ملح الجبل تغسله أمواج الشاطىء بلا انقطاع ، وثانيها لأنها تتلقى مياه الأمطار النازلة من هذا الجبل ، أو لعل قعر البحيرة سحيق الى درجة ان البحر العظيم – وهو مالح – يجري تحت الأرض الى هذه البحيرة بشكل غير منظور .

وسرنا على طول الطرف الجنوبي حول البحيرة ، فوجدنا قرية (سيفور) طيبة الموقع ، غنية بثمار النخيل ، التي يدعونها الرطب ، وقد أكلنا منها طوال النهار ، واستمتعنا بطعمها اللذيذ ، ولم نجد هناك شيئا أخر ، وكان سكان المنطقة من المسلمين قد هربوا لدى سماعهم الأقاويل عن قرب وصولنا ، ولم يبق الا الذين فاقوا الهباب سوادا ، فتركناهم هناك ، وعاملناهم بازدراء كما لو كانوا من عشب البحر .

وقد رايت بعض الأشجار التي تحمل ثمرا (تفاح البحر الميت) وجمعت بعضها بهدف معرفة ماهيتها ، وبعدما انتزعت قشرتها ، رايت مسحوقا اسود بداخلها ، وقد تصاعد منها دخان .

ثم دخلنا الى جبال بلاد عربة ، وامضينا الليلة في كهوف

هناك ، وعندما تسلقنا الجبال في صباح اليوم التالي ، وجدنا على الفور عدة قرى ، غير انها كانت خاوية على عروشها ، ليس فيها مايفيد او ينفع لان اهلها كانوا قد هجروها لدى سماعهم بقدومنا ، واختبأوا مع مقتنياتهم في مغائر في جوف الأرض هناك ، ولهذا لم نحصل هنا على أي فوائد ترجى .

وتابعنا سفرنا بدون تأخر نحو مناطق أخرى وسارت طلائعنا أمامنا على الدوام ، ثم وقفنا على واد غني بثمرات الأرض ، انه الوادي نفسه الذي ضرب فيه النبي موسى ، بايحاء من الرب ، الصخرة مرتين ، ففاض منها ماء الحياة (العدد : ١١/٢٠) ويتدفق هذا النبع بغزارة لاتقل الآن عن ذلك الزمان حتى أن أصحاب الأرحية في تلك البلاد يستعينون بتيار ماء النبع للطحن ، ولقد سقيت دوابي من هذا النبع .

ثم وجدنا على راس الجبل مقام النبي هارون ، حيث كلم موسى وهارون الله (العدد : ٢٠/ ٧ ـ ١٢،٨ / ٢٦/٢٣) وقد اثلج صدورنا وأفرحنا كثيرا مشاهدة مكان على هذه الدرجة من القداسة لم يكن معروف لدينا ، ولم نرغب في التقدم اكثر في مسيرتنا لأن تلك الأراضي كان صحراء جرداء .

وامضينا ثلاثة ايام في ذلك الوادي الغني بكل شيء ، امضيناها في متعة وراحة وغذينا دوابنا بالأطعمة ، وبعدما حملناها بما يلزمنا من مؤن ، صدحت أبواق الملك في الساعة الثانية من اليوم الرابع ايذانا ببداية رحلة العودة .

وسرنا في طريق العودة مثلما اتينا على مقربة من بحيرة اسفلت ، ومررنا بقبور الأنبياء الذين اتينا على ذكرهم ، ثم مررنا ببيت لحم والمكان الذي ترقد فيه راحيل ، ووصلنا الى القدس بسلام في يوم الانقلاب الشتوي ، عندما كان قد تم اعداد صولجان يليق

بتتويج الملك ، وتم التصالح بين ديمبرت واللورد بلدوين وساد الوئام بينهما وبين عدة من رجال الأكليروس في كنيســة القيامــة ، ذلك ان رجالا من أصحاب الحكمة سعوا في ســبيل المصــالحة وبــذلك زالت اسباب الخصام وانتهى .

تتويج الملك بلدوين وصغر حجم مملكته :

في العام ١١٠١ لتجسيد الرب ، وفي يوم الاحتفال بميلاده جــرى تتويج بلدوين ورســمه ملكا ، وذلك مــن قبــل البــطريرك المذكور وبحضور الأســاقفة ورجــال الأكليروس،والناس في كنيســة مــريم المباركة في بيت لحم ، ولم يجر هذا لأخيه الذي تقدمه ، لأن غودفري لم يرغب بذلك ، وكثير من الناس لم يحبذوا ذلك ،لكن بعد التبصر في الأمر والامعان وتقليب الآراء تمت الموافقة على ضرورة ذلك .

لقد قالوا : ماهو وجه الاعتراض ، أولم يعامل مــولانا المســيح بالاساءة والمهانة مثل اي مجرم ثم تــوج بتــاج مـــن الشـــوك في القدس ، وأعطى روحه طوعا للموت في ســبيلنا ، غير ان تــاجه لم يكن في أعين اليهود رمــزا للعـــزة الملكية والشرف بـــل للخـــزي والعار ، بيد أن مافعله هؤلاء القتلة كإهانة له تحول ببركة الرب الى خلاص لنا ومجد . ثم ان الملك لايصبح ملكا بغير ارادة الرب ، واذا ماجرى اختياره بالطرق الصحيحة ، ووفق ارادة الرب فانه يقــدس ويرسم بالبركة والشرعية ، وكل من يحظى بالسلطة الملكية والتــاج الذهبي ، يأخذ على عاتقـــه انئذ الواجـــب المقـــدس بـــاقامة العدل ، ويندرج عليه وعلى الأسقف في رعيته القول التالي : « على من يطلب الحكم أن يرغب في أداء العمل الصالح ، لأنه اذا لم يحــكم بالعدل لن يكون ملكا حقيقيا » .

وملك بلدوين في بــداية عهــده بضــعة بلدان وقليل مـــن الناس

فقط ، وقد دافع خلال ذلك الشتاء عن مملكته ضد الأعداء من كل صوب بكل بسالة ، وبعدما تيقنوا من مهارته الفائقة في القتال ، على الرغم من قلة تعداد رجاله ، لم يقدموا على مهاجمته ، ولو تيسر له عدد اكبر من المقاتلين لواجه الأعداء بكل سرور .

وفي تلك الأثناء كانت الطريق البرية مغلقة في وجه حجاجنا ، ولم يكن قد تيسر فتحها بعد ، وقدم الحجاج في تلك الآونة من فرنسا وانكلترا وايطاليا والبندقية عبر البحر الى يافا ، التي لم نمتلك مرسى غيرها ، وجاء هؤلاء الحجاج بكل وجل ورهبة ، على ظهر سفن وصلت فرادى أو في مجموعات تألفت من ثلاث سفن أو أربعة ، كانت تشق طريقها وسط عدد كثيف من القراصنة المعادين في جميع الموانىء الاسلامية ، وكان الرب يرشدهم ويدلهم على الطريق .

وعندما رأيناهم قد وصلوا من بلداننا في الغرب ، استقبلناهم على الفور بكل ترحاب كما لو انهم من القديسين وسألهم كل واحد منا عن بلاده وأله وأحبائه ، ولكم سررنا لسماع الأخبار الطيبة وحزنا لسماع أخبار المصائب،ثم قدموا الى القدس ، وزاروا قدس الأقداس ، وكان هذا مرادهم .

وبعد ذلك بقي بعضهم في الأراضي المقدسة ، بينما عاد الآخرون الى ديارهم ، ولهذا بقيت الأراضي المقدسة خلوة من السكان ، ولم يوجد فيها مايكفي من الناس للدفاع عنها لو أن المسلمين اقدموا على مهاجمتنا .

ويتساءل المرء لماذا لم يقدموا ، لماذا خشيت جميع هذه الأمم وهذه الممالك من مهاجمة مملكة صغيرة وشعب قليل العدد ، ثم لماذا لم يحشدوا من مصر ومن فارس والجزيرة والعراق وسورية مائة

ضعف ، أي مائة الف مقاتل ليزحفوا علينا بشجاعة مادمنانحن اعداؤهم لماذا لم يدمرونا ويلتهمونا مثل جراد يفوق الحصر هجم على حقل صغير ، وبذلك يمحون ذكرنا من على وجه هذه الأرض التي كانت ملكنا منذ الأزل ؟ ذلك اننا لم نمتلك في ذلك الوقت اكثر من ثلاثمائة فارس ومثلهم من الرجالة للدفاع عن القدس ويافا والرملة ومدينة حيفا الحصينة ، ولم نكن انذاك نجرؤ على جمع فرساننا جميعا إذا مارغبنا بحملة ضد عدونا ، خشية من ان يهجم في تلك الأثناء على بعض قلاعنا المهجورة .

إنها حقا لمعجزة عجائبية واضحة لكل من يبصر فلقد عشنا وسط الاف مؤلفة من الأعداء وقهرناهم وجعلنا بعضهم اتباعا لنا ودمرنا غيرهم نهبا واسرا ، فمن اين جاءت هذه المزية ، ومن اين صدرت هذه القوة ؟ حقا إنها من عند الرب الواسع المقدرة ، الذي التفت نحو قومه الذين جاهدوا من اجل اسمه ، واعان برحمته الذين اتكلوا عليه اثناء محنتهم ، وقد وعد الرب ان يجزي بالمجد السرمدي في الحياة الآتية من يسعدهم بالقليل من متاع الدنيا .

ما اجدر ذلك الوقت بالذكرى ، لقد استبدت بنا الأحزان مرارا ، عندما لم نستطع الحصول على العون من اصدقائنا عبر البحار ، وكنا نخشى أن يعرف العدو بقلة عددنا فينقض علينا دفعة واحدة من جميع الجهات بهجوم مفاجىء ، ذلك انه لم يكن هناك من يمد لنا يد العون غير الرب ، ولم نكن بحاجة إلى شيء إذا ماتوفر لنا الرجال والخيل ، ولم يتمكن الرجال الذين قدموا إلى القدس بحرا أن يصطحبوا خيولهم ، ولم يأت احد عن طريق البر ، ولم يتمكن أهل انطاكية من مد يد العون لنا ، كما لم نستطع انفسنا أن نفعل الشيء نفسه إليهم

- ٢٨٠٠ -

استدعاء تانكرد إلى انطاكية

وفي شهر اذار سلم تانكرد إلى الملك بلدوين حيفا وطبـرية التـي كان قد تملكها ، وتوجه إلى انطاكية ، فقد كان اهـل انطـاكية قـد ارسلوا الرسل إليه يقولون : ، لاتتأخر بل تعال إلينا حالا ، لتتولى الحكم علينا ، ولتتملك مدينة انطاكية والبلاد التابعة لها حتى يعـود بوهيموند مولانا ومولاك من الأسر ، فـأنت مـن آله ، وانت أيضـا بصير بعواقب الأمور خبير بالحروب ، وانت اقوى منا واقـدر على الدفاع عن هذه البلاد ، وإذا ماعاد الأمير بـوهيموند فسـنفعل مـا يلزم ، ، وعندما قدموا هذا المطلب إليه ، استجاب لهم .

حصار قلعة أرسوف والاستيلاء عليها :

امضى اسطول من السفن الايطالية والجنوية فصل الشتاء ذاك في ميناء اللانقية ، ومع اطلالة الربيع واعتدال الطقس وغدوه مـوائما للابحار اقلع رجال هذا الاسطول نحو يافا تدفعهم ريح طيبـة ، وفي ميناء يافا استقبلهم الملك بـكل حفـاوة ،و لاقتـراب عيد الفصـح ولاعتياد كل من استطاع الاحتفال بهذه المناسبة ، ارسـوا سـفنهم وتوجهوا الى القدس بصحبة الملك .

وعندما لم تظهر النار المقدسة في كنيسة القيامـة اثناء الاحتفـال بسبت النور ، اصيب الجميع بحزن كبير ، ثم تقرر انه مادام اهـل جنوى يقيمون في الأراضي المقـدسة حبـا بـالرب ، إذا مـااستولوا بمساعدة الملك وموافقته ـ على أي مدينة شرقية ، فلهم ثلث ما يتـم الحصول عليه من الأعداء مـن المال خـالصا لهـم ، وللملك الثلثين الآخرين ، كما ويحق لأهل جنوى أن يتملكوا إلى الأبـد ، وبشـكل شرعي وموروث حيا في أي مدينة يتم الاستيلاء عليها بهذه الطريقة و بعدما اقسم الجميع على ذلك و اتفقوا عليه ، شرعوا على الفـور في

محاصرة المدينة التي تدعى ارسوف ، بحرا وبرا ، وعندما أدرك السكان من المسلمين عجزهم عن الدفاع عن انفسهم ضد المسيحيين تفاوضوا بحنكة مع الملك واستسلموا له في اليوم الثالث ، ثم غادروا المدينة مصطحبين معهم كامل أموالهم ، وأعطى الملك الأذن بالسفر بأمان للذين غادروا إلى عسقلان مكسوري الخاطر .

ثم قدمنا الشكر للرب بحبور ، لأننا تمكنا من الاستيلاء على هذا الموقع الحصين بدون خسائر بالأرواح ، فقد كانت مصدر خطر عظيم علينا ، وكانت هذه الأماكن المنيعة التي شيدها النبي سليمان مصدر خوف شديد بالنسبة لنا ، حيث أن اللورد غودفري كان قد حاصرها قبل سنة ، ولم يستطع الاستيلاء عليها ، وقد قتل أهلوها عددا كبيرا من قومنا ، وسببوا لنا المزيد من التعاسة والآلام .

واشتبك الفرنجة أثناء الحصار مع المدافعين عن المدينة بالأيدي ، وتمكنوا من الاستيلاء على عدد من الشرافات في أعلى السور ، ومدوا جسرا خشبيا على برج من الخارج إليها ، لكن سوء الطالع شاء أن ينهار البرج والجسر ، ويتحطما بسبب الأعداد الكبيرة من الرجال الذين تسلقوهما ، ونتيجة لهذا أصيب نحو من مائة من الفرنجة بجراح شديدة واحتفظ المسلمون بعدد من الفرنجة أسرى لديهم هناك ، وصلبوهم على مشهد من الجميع ورموهم بالنشاب ، كذلك قتلوا آخرين منهم لكنهم احتفظوا ببعضهم أحياء في أسر تعيس .

وصف الاستيلاء على قيسارية:

بعدما وضع الملك حامية مناسبة في ارسوف حسبما اقتضت الحاجة ، زحف ضد قيسارية فلسطين والقى الحصار عليها ، غير انه عجز عن الاستيلاء عليها فورا لمناعة اسوارها ، فأمر بصنع

بعض المجانيق مع برج مرتفع جدا ، شـيد مـن صـواري السـفن ومجاديفها ، ويخيل إلي أن البـرج كان ارتفـاعه يزيد على عشرين ذراعا فوق السور ، وذلك بعدما فـرغ النجـارون مـن بنائه ، وكان الهدف من ذلك تمكين جنودنا من قذف العدو بالحجارة والسـهام ، طبعا بعد الصاقه بالأسوار ، وآنذاك إذا ما استطاع رجالنا اقصـاء المسلمين عن السور بهذه الوسيلة ، فلسوف يتمكنون مـن الدخـول إلى المدينة والاستيلاء عليها .

وشدد الفرنجة الحصار على قيسارية وداوموا الهجوم عليها لمدة خمسة عشر يوما ، تمكنوا خلالها من تدمير بعض مـواقع الدفـاع العالية من السـور ، وذلك بفضـل مجـانيقهم ، وهنا غلب عليهـم الحماس الديني ، ولم يملكوا الصبر للانتظار أكثر ممـا انتـظروا ، وفي يوم الجمعة استطاعوا اقتحام المدينة بدروعهم ورمـاحهم ، ولم يحتاجوا إلى استخدام البرج الخشبي الذي شيدوه .

وقاتل المسلمون دفاعا عن أنفسهم بكل ما أوتـوا مـن شـجاعة ومقدرة ، وشجعوا بعضهم بعضـا على المقـاتلة والصـبر ، غير أن الفرنجة وربهم يسوع ، بادروا إلى نصب السلالم التي أعدوها لهذا الغرض وتسلقوا إلى أعالي السور ، ثم أعملوا سيوفهم قتـلا في كل من صدفوه في طريقهم ، وعندما شهد المسـلمون شـجاعة رجـالنا وإقدامهم ، وبعدما أيقنوا أن مدينتهم قد سقطت ، هـربوا بـاتجاه الأماكن التي خيل إليهم أن حياتهم سـتطول بهـا أكثـر ولو قليلا ، ولكن عبثا فعلوا فقد أتلفناهم وسقيناهم كأس المنون الجديرة بهم .

ولم نستبق إلا على عدد ضئيل من الذكور ، لكننا احتفظنا بـكثير من النساء ، حيث من الممكن الافادة منهن ، على الأقـل في تحـريك الطواحين ، وجرى بيع الأسرى من النساء بين الفـرنجة الجميلات منهن والقبيحات ، وكذلك فعل بالذكور أيضا .

وحافظ الملك على حياة حـاكم المدينة وحياة اسـقفها الذي دعاه المسلمون باسم القاضي ، وقد قام بـذلك رغبـة منه بـالحصول على الفدية ، وليس بدافع الشفقة أو المحبة ، وأنا عاجز عن وصف كمية الذخائر من مختلف الأنواع والمقتنيات التـي وجـدناها في المدينة ، ولعله يكفي للبيان أن عددا كبيرا مـن رجـالنا صـاروا أغنياء بعـد الفقر .

وشهدت عددا كبيرا من جثث المسـلمين الذين قتلوا هناك ، وقـد جمعن في كومة كبيرة وأضرمت فيها النيران ، وقـد ضـايقتنا كثيرا روائح الجثث المهترئة ، وتم حرق هذه الجثث التعيسة للحصول على الدنانير التي ابتلعها أصحابها أو خبأها بعضهم في أفواههم تحـت لثثهم حتى لايستولي الفرنجة على ماهو حق لهم ، وقد حدث مرة أنه عندما كان واحد من رجالنا يضرب بقبضـته أعناق بعض المسـلمين سقط من افـواههم مـابين العشرة دنانير إلى السـتة عشر دينارا ذهبيا ، وأخفـى بعض النسـوة الدنانير الذهبية دون حياء داخـل احشائهن بطريقة بشعة يمنعني الحياء من ذكرها .

في عام الف ومائة وواحد
استولينا على قيسارية بتسلق السلالم
استولينا على برج ستراتون حسبما عرفت المدينة .

انتخاب أسقف لقيسارية :

بعدما فعلنا نحن وأهل جنوى كل ماراق لنفـوسنا في قيسـارية ، واستولينا على كل ماوجدناه فيها ، رسمنا فيهـا أسـقفا اختـرناه معا ، ثم خلفنا حامية صـغيرة مـن عدة رجـال لحـراسة المدينة ، وبادرنا بالعودة إلى الرملة ، وعلى مقربة من اللد تـوقفنا لمدة أربـع وعشرين ساعة توقعنا خلالها أن يهاجمنا رجـال عسـقلان وبـاب اليون القاهرة الذين كانوا قد احتشدوا لهذه الغاية ، ولم نتجرأ

على قتالهم لقلة عددنا ، وخشينا إن نحن قاتلناهم في عسقلان ان يستدرجونا للدخول بين أسوارها وقلاعها ، حتى إذا ما فعلنا ذلك أبادونا ، ونظرا لأننا كنا على بينة من مكرهم ، تفحصنا اساليب قتالهم حتى وقفنا على خديعتهم ، لكن ما لبثت معنوياتهم ان هبطت خوفا ، ويئسوا من الهجوم علينا ، وفقد أكثرهم صبره لطول الانتظار ، ولنقص المؤن ، فكان أن فروا من المعسكر ، ولما علمنا بذلك ، عدنا إلى يافا شاكرين للرب على نجاتنا من هجومهم .

قتال شديد بين الأتراك والمسيحيين ـ انتصار المسيحيين :

وبعد انتظار طال سبعين يوماً كنا خلالها نرقب حركات العدو ونستمع إلى اخباره ، بلغت الأخبار إلى الملك ان الأعداء بداوا بالتحرك نحونا بنوايا شريرة ، وأنهم أعدوا العدة للهجوم ، وما أن سمع الملك بهذا حتى جمع قواته فورا من القدس وطبرية وقيسارية وحيفا ، ولحاجتنا الماسة إلى الفرسان أمر الملك كل من استطاع من حملة الترسة أن يكونوا فرسانا ، وهكذا بات عدد فرساننا قرابة المائتين وستين فارسا ، ورجالتنا نحو تسعمائة ، علما بأنه توجب علينا منازلة احد عشر الف فارس ، ونحوا من واحد وعشرين الفا من الرجالة ، ولقد كنا على بينة من هذا كله ، ولكن لأننا امنا أن الرب كان معنا ، لم نخف من الزحف ضدهم ، فنحن لم نثق بأسلحتنا ولابأعدادنا بل وضعنا ثقتنا كلها في مولانا وربنا ، وهكذا كانت شجاعتنا هائلة ، غير انها لم تكن اقدام طائش بل إيمان ومحبة ، وقمنا بكل همة وشجاعة بالاستعداد لنموت في سبيل الرب الذي رضي أن يموت من أجلنا .

شعر :

واندفعنا بكل شجاعة مستعدين للقتال او الموت

وحمل الملك خشبة صليب الصلبوت ، ممـا أوقـع الطمـأنينة في نفوسنا ، وتركنا يافـا في أحـد الأيام ، وفي اليوم التـالي حـاربنا الأعداء ، وعندما زحفنا نحوهم كانوا بدورهم قد اقتربوا منا دون أن ندرك ذلك ، ولدى مشاهدتنا لطلائعهم وقد اقتربت من مواقفنا أدركنا أن بقيتهم لاحقة بهم ، وهنا تقـدم الملك وحـوله بعض رجـاله إلى الأمام ، فشاهد عن بعد معسكرهم العملاق يشع في السـهل ، فلكز فرسه وعاد إلينا إلى الخلف ليخبرنا بصورة ماراه .

وعندما عرفنا أن القتال لابد واقع ، بـدانا نهلل فـرحا فقـد كنا نتلهف للمعركة ، وعزمنا أن نهجـم على العـدو إن هـو لم يتقـدم نحونا ، فقد كان من المناسب لنا القتال في المنبسط ، ثـم إن أعداءنا إذا ماهزموا ـ بعون الرب ـ فسيطول فرارهم ، ولسوف تلحق بهم خسائر اشد فداحة مما لو قاتلناهم قرب اسوارهم ، وأمـرنا المللك بإعداد اسلحتنا ، ثم اصطففنا بالشكل الموائم للمعـركة ، وتـوكلنا على الرب ثم سقنا خيولنا نريد العدو ، وكان الملك قد اختار واحـدا من رعاة اديرة الرهبان لحمل خشبة صليب الصلبوت على مشهد من الجميع .

وهنا خاطب الملك جنوده بجـلال وخشـوع قـائلا : هيا ياجنود المسيح ، افرحوا ولاتخشوا شيئا ، تصرفوا بـكل رجـولة ، وكونوا شجعانا بالمعركة ، إنني احثكم على ان تقـاتلوا في سـبيل خـلاص نفوسكم ، وان تمجدوا حيثما كنتم اسم المسيح الذي دنسـه دومـا وحقره هؤلاء القـوم الفـاسدون ، فهـم لايؤمنون بتجسـيده ولابصعوده ، وإذا مـاواجهتم حتفـكم هنا فيقينا سـتكونوا مـن المباركين ، فقد فتحت أبواب مملكة السموات لكم ، وإن أنتم بقيتـم

احياء وانتصرتم فلسوف يتـالق اسـمكم بـالمجد والرفعـة بين المسيحيين جميعا ، وإذا ما رغبتم بالفرار فتذكروا أن فرنسا تبعـد مسافة نائية جدا عن هذا المكان .

وبعدما اصغى الجميع إليه وافقوه على جميع ماقال .

شعر :

واندفعوا إلى القتال إذ لم يطيقوا الصبر والانتظار

وكان كل منهم يفتش عمن يضربه بالسيف أو يطرحه أرضا واغار علينا هؤلاء القوم اهل الخسة من اليمين ومن اليسار ، ومـع ان رجالنا كان تعدادهم قليل ، فقد انقسـموا في المعـركة إلى سـتة صفوف وانقضوا على فيالق الأعداء وحشوده المتـدفقة كمـا ينقض الصـيادون على تجمعـات الطيور ، وهـم يصرخـون « عونك يا رب » ولم يعد بمقدور انسان تمييز احد من رفاقه أو معرفته لكثـرة تعداد العدو ، ولأن رجاله عاجوا فورا بيننا وماجوا من حولنا .

ولما راى الملك أن الأعداء قد صـدوا أول صـفين مـن صـفوفنا وقهروهما ، استدعى على عجل بعض النجدات من المؤخرة ، ثم إنه عندما راى تدفق قوات العـدو وكثـرتها وتفـوقها انطلق على ظهـر حصانه بأقصى سرعة ممكنة ومعه سريته ، وتصدى لهجـوم الكفـار بكل شجاعة ، وزحف قدما يقاتل قوات العـدو المتفـوقة ويدفعهـا ، ورايته البيضاء ترفرف فوق عربته ، وقد اطلقها مرة فاخترقت عربيا كان مقابلا له ، وظلت الراية في بطن العربي ، بعدما طرح ارضا من على ظهر حصـانه ، ولقـد رايت بلدوين بنفسي وهـو يقتلع حـربته ويحملها ليفتك بالآخرين .

وقاتل الطرفان في المواجهة بكل شجاعة ، فبعد مضي ساعة على بدء القتال كنت ترى كثيرا من الخيول وقد فقدت فرسانها من بين الطرفين المتواجهين ، ونظرنا إلى الأرض فإذا هي تدثرت بغطاء كثيف من الدروع والترسة والخناجر والجعب والقسي والنشاب وبالمسلمين والسودان وقد فارقوا الحياة ، أو أصيبوا بجراح مميتة ، وبالفرنجة لكن بأقل عددا .

وكان صليب المخلص المقدس معنا ، جبارا ضد أعداء المسيح ، لم تنجح ضده ببركة الرب كل عنجهية الكفار ، فقد صدع هذا الصليب قلوبهم ، لهذا لم يكتفوا بالتوقف عن الهجوم علينا ، بل بادروا بالهرب وقد لحق بهم الخزي والعار ، وفقط نجا منهم من امتطى فرسا سريعا.

ومن المضني تعداد الترسة والمقذوفات والقسي والسهام التي القى بها الهاربون أثناء فرارهم ، ويستحيل على المرء تعداد جثث القتلى المطروحة هناك حتى لو أراد ذلك ، ويحكى أن خمسة الاف من فرسانهم ورجالتهم لاقوا حتفهم هناك ، حتى ليقال إن قائد الجيش المصري الذي قاد القتال قد قتل مع الآخرين ، وفقدنا نحن ثمانين فارسا وأكثر من ذلك من الرجالة ، وقد تصرف الملك في ذلك اليوم بمنتهى البسالة ، وكان أعظم مصدر بعث الطمأنينة في نفوسنا ، واتضح مصير المعركة بسرعة ، ولاذ الأعداء فورا بالفرار ، وطاردناهم بدون توقف .

كيف هلك المسيحيون هناك:

ايتها الحرب ما ابغضك بالنسبة للأبرياء وكم أنت مرعبة للمشاهدين ، الحرب قبيحة حتى وإن وصفها بعض الشعراء بالجمال ، لقد شهدت القتال ، وكدت أن أصاب بالدوار ، وخشيت

- ٢٨٠٨ -
أن أصاب بضربة ، واندفع الجميع إلى القتال كما لو أنهم لم يخافوا الموت ، وتقع الكوارث المنيعة حيث تنعدم المحبة ، وتعالى الضجيج يصم الآذان من تبادل الضربات والطعنات : سدد رجل ضرباته فخر عدوه ميتا ، ولم يعرف أي انسان شفقة ، ولم يطلب عدوه شيئا منها ، فقد امرؤ يدا ، وفقد عدوه عينا ، ويصاب الفكر البشري بالشلل لدى رؤية هذه التعاسة ، ومع هذا يبعث السرور في نفسي أن أذكر أن جيشنا قد انتصر في المقدمة ، لكنه عانى من الهزيمة في المؤخرة ، فهناك سقط المسيحيون صرعى ، غير أنهم قهروا المسلمين في المقدمة ، وطاردناهم حتى أبواب عكا ، بينما ساق بعضهم إلى يافا حيث قتلوا بعض رجالنا ، وهكذا لم يعرف أحد مصير المعركة في ذلك اليوم .

وبعدما خلا ساح المعركة من المسلمين بالقتل والمطاردة أصدر الملك أوامره بأن نقضي ليلتنا في الخيام التي تخلى عنها الهاربون ، فأطعنا أوامره .

في اليوم السابع من أيلول
قاتلنا في هذه المعركة الجديرة بالذكر
حيث أعانت القدرة الربانية الفرنجة

تقلب المصائر في هذه المعركة :

اجتمعنا في اليوم التالي في فسطاط الملك ، وسمعنا قداس ميلاد السيدة مريم البتول ، الذي وافق ذلك اليوم المبارك ، ثم أثقلنا دوابنا بما غنمناه من أعدائنا ، مثل الخبز والقمح والطحين ، وذلك بالاضافة إلى خيامهم ، وبعد ذلك صدحت الأبواق الملكية معطية اشارة العودة إلى يافا .

وعندما عدنا أدراجنا ، اجتزنا بمدينة اسدود ، خامسة مدن

الفلسطينيين وهي الآن مهجورة وتدعى يبنا (كذا)و هناك شاهدنا قرابة خمسمائة عربي قادمين نحونا في طريق عودتهم من يافا ، وكان هؤلاء قد شقوا طريقهم نحوها في يوم المعركة ولقد استولوا على كل ما وجدوه خارج المدينة ، ذلك انهم امعنوا قتلا برجالتنا في ساقة جيشنا ، وابادوا نهائيا واحدا من صفوف ميمنتنا ، و خيل إليهم أن مقدمتنا قد قضي عليها كالساقة ، وانتزعوا الدروع والرماح والخوذ اللامعة من القتلى وزينوا انفسهم بها بكل غطرسة ، وساقوا بسرعة إلى يافا بغية عرض اسلحتنا على رجال المدينة قائلين : إن الملك ورجاله قد ابيدوا عن بكرة ابيهم في المعركة .

ولدى سماع الذين تخلفوا بيافا للحراسة هذه الأنباء ارتبكوا وعظم خوفهم ، وصدقوا كلام العرب الذي حمل دلالات الصدق ، وخيل للعرب أن أهل المدينة المرعوبين سوف يسلمون المدينة إليهم بالحال ، لكن خططهم أخفقت ، وعندما راوا أنهم لم ينجزوا شيئا شرعوا بالانسحاب نحو عسقلان .

وعندما رانا العرب متوجهين نحو يافا ، خيل إليهم اننا بعضا من جماعتهم الذين رغبوا بعدما أبادونا في القتال ، في تعقب بقية المسيحيين القاطنين في يافا ، وقد تحيرنا كيف أنهم اقبلوا نحونا على هذا الشكل ، دون أن يدركوا اننا فرنجة ، وظل الحال هكذا حتى فاجاهم فرساننا فانقضوا عليهم بهجوم صاعق ، وحبذا لو رايت اعداءنا فجاة يفرون ويتبعثرون في كل اتجاه لايلوي الواحد منهم على الآخر ، ومن لم يملك منهم فرسا سريعا قطعت رأسه في الحال ، غير ان الفرنجة لم يطاردوا العرب لأنهم كانوا منهكين ، هدهم التعب وأصيب العديد منهم بجراح اثناء القتال ، وهكذا هرب هؤلاء ، في حين تابعنا سيرنا نحو يافا مسرورين .

- ٢٨١٠ -

رسالة أهل يافا إلى تانكرد أمير أنطاكية :

لك أن تتصور التهاليل وصلوات الشكر التي انبعثت من الذين كنا قد خلفنا في يافا ، ساعة رؤيتهم لنا ، من فوق الأسوار ، ونحن عائدون وراياتنا خفاقة ، يقينا إن الحديث عن ذلك ليس بالأمر الهين ، فقد كان اثنان من نقلة الأقاويل غير الصحيحة قد وصلا سريعا إلى يافا الواحد تلو الآخر ، وخدعا أهل المدينة باخبارهم أن الملك ورجاله قد ابيدوا عن بكرة أبيهم ، فصدق هؤلاء ذلك ، وبادروا ببعث رسالة موجزة إلى تانكرد الذي كان يحكم في انطاكية أنذاك ، وجاء ذلك بأمر من زوجة بلدوين ، وحمل الرساة بحار كان على وشك الاقلاع في سفينته .

ونصت الرسالة على التحيات والكلمات التالية :

« تانكرد ايها الرجل اللامع ، والجندي الباسل ، إليك هذه الرسالة الموجزة من أهل يافا ، أي من الملكة وسكان المدينة ، يرسلونها إليك على عجل بواسطتي أنا ، كمندوب رسمي لهم ، ارجو أن تقراها بتمعن حتى يمكن أن تصدق ما فيها ومن ثم لتصدق أقوالي : ياالهول الكارثة ، أصيب ملك القدس الذي اشتبك بالقتال ضد المصريين وأهل عسقلان بهزيمة ساحقة ، ولعله قتل مع رجاله برمتهم في لجة المعركة ، وذلك أن الذين نجوا بشق الأنفس من شؤم تلك النكبة ، وفروا إلى يافا قد أخبرونا بذلك وبتفاصيل ما جرى .

وإنني أذ أرسل بمندوب إليك وأنت الرجل الحكيم طالبة العون ، اتوسل إليك أن تدع كل شيء جانبا ، وأن تبادر بدون تمهل لمد يد المساعدة إلى شعب الرب المتذللين في محنتهم العظمى ، فهم الآن كما أرى قد شارفوا على نهاية حياتهم » .

كان هذا نص الرسالة ، وقد لاذ تانكرد بالصمت للوهلة الأولى لدى

سماعه بما جاء بها ، وما لبث أن آمن بصدق ما نقلتـه إليه ، لهـذا اجهش بالبكاء بكل حرقة ، وشاركه بذلك كل من كان معـه لحـزنهم ولشعورهم بالكارثة ، وما لبث ان اعطـى تـانكرد جـوابه لحـامل الرسالة وشرع بالأمر باعداد العدة في كل دياره لتقديم المساعدة ومد يد العون لأهل القدس .

وعندما بات تانكرد على أهبة الانطلاق نحو القـدس ، وصـل إليه رسول آخر ينقل إليه بشكل مفاجيء رسـالة يختلف محتـواها عن الرسالة المتقدمة ، وأوصل إليه الرسالة ، ففي حين تحدثت الرسالة الأولى عن الكارثة ، تحدثت الثانية عن حسن الحظ وعن السعادة ، وذكرت أن الملك قد عاد سالما معافى إلى يافا ، وان المسلمين لحقـت بهم هزيمة مروعة بكل تأكيد ، فسر الذين حـزنوا مـن قبـل سرورا عظيما .

إننا لم نهزم الأعداء بـكثرة عدد رجـالنا ، بـل بثقتنا بـالمقدرة الربانية ، فيا لروعة رحمة الرب ، وهكذا عدنا إلى القـدس بعـدما نجينا من عدونا ، عدنا و نحـن نطلق الشـكر والحمـد للرب ، ثـم استرحنا مدة ثمانية أشهر بدون حرب حتى حلول فصل الصيف .

حشد جيش مصر ضد الفرنجة :

في منتصف شهر ايار من السنة التالية ١١٠٢ م احتشد أهل بـاب اليون (القاهرة) حول عسقلان بهدف ابادتنا نحن المسـيحيين ، فقد انحشد هناك نحو عشرين الف فارس وعشرة الاف راجـل غدا الجمالة الذين تسلحوا بالعصي والحراب ، يضاف إليهم جميعا كثيرا من الدواب والحمير المحملة بالمؤن ، ووصل المصريون في أحد الأيام إلى الرملة ، واقاموا معسكرهم امـامها ، وقـد واقفهـم خمسـون فارسا كان بلدوين قد تـركهم في بـرج محصـن في المدينة بهـدف

حراستها ، وكان يسكن في ربض البرج بعض الفلاحين السريان ، وقد تحرش المسلمون بهؤلاء السريان المسيحيين ، وتعمدوا مضايقتهم بهدف القضاء عليهم ومن ثم تدمير البرج ، ذلك أنهم لم يتمكنوا من التجول بحرية في السهول هناك بسبب الرجال المدافعين داخل البرج ، وحاولوا مرة أسر أسقف المدينة الذي كان مقيما في كنيسة القديس جرجس مع اتباعه ، وقد طوقوا الكنيسة في أحد الأيام بنية سيئة ، غير انهم رجعوا إلى الرملة بعدما تيقنوا من مناعة الموقع .

وعندما رأى الأسقف الدخان واللهب يتصاعدان من حقول القمح خاف أن يعود المسلمون ويحاصروه من جديد ، ولكي يدرأ عنه المخاطر المستقبلية بعث على الفور رسالة إلى الملك في يافا يطلب منه امداده بالعون بدون تأخير ، ذلك أن المصريين كانوا قد عسكروا على مقربة من الرملة ، وبعثوا من هناك بسرية من الجند لتطويق الكنيسة ومهاجمتها .

وما أن سمع الملك بذلك حتى بادر إلى حمل سلاحه وامتطاء فرسه ، ولحق به فرسانه بعدما أعطاهم أوامره وزعقت الأبواق ، وكان في يافا عدد كبير من الفرسان اختاروا عبور البحر والعودة إلى فرنسا ، وكانوا ينتظرون وقتها الريح المواتية للابحار ، ذلك أنه لم يكن لديهم خيول ، فقد كانوا قد فقدوا خيولهم في السنة المنصرمة أثناء عبورهم للأراضي البيزنطية وهم في طريقهم إلى القدس ، يضاف إلى هذا انهم كانوا قد فقدوا كل ما كانوا يملكون ، هذا ويخيل لي أن ذكر هذا الكلام هنا لا يخرج بنا عن اطار الموضوع.

الحج الحزين الثاني للفرنجة ووفاة هيوج العظيم:

كنا قد ذكرنا من قبل أنه عندما زحف جيش الفرنجة العظيم نحو

القدس كان بين الحشد وليم كونت بواتو وستيفن كونت بلوا ، وكان ستيفن قد هجر جيشنا في انطاكية ، لكنه أراد الآن أن يعوض ما فاته ، فرجع وجاء معه ومع وليم هيوج العظيم الذي كان قد عاد إلى غاليا بعد احتلال انطاكية ، كما كان معهم ريموند كونت بروفانس الذي بقي في القسنطينية بعض الوقت بعد عودته من القدس ، كما ورافقهم النبيل ستيفن كونت برغندي وأعداد لا تحصى من الفرسان والرجالة ، وحين ساروا انقسموا إلى مجموعتين .

وقاوم سليمان التركي الفرنجة في اسية الصغرى ، وكانوا قد انتزعوا منه مدينة نيقية من قبل ، وزحف سليمان الآن ، وقد تذكر هزيمته الماضيه ، على رأس حشود عملاقة من الأتراك ، وشتتوا الفرنجة وأربكوهم حتى كادوا أن يبيدوا الجيش الفرنجي برمته .

وكان الفرنجة بتوفيق من العناية الربانية يسيرون في فرق موزعة على عدة طرق ، لهذا لم يتمكن سليمان من محاربتهم جميعا وإبادتهم عن بكرة أبيهم ، لكنهم وقد أدرك جهلهم باستخدام القسي بالحرب ثابر على مهاجمتهم ورميهم بالنشاب ، خاصة بعدما اضناهم التعب وهدهم الجوع والعطش ، ولذلك قتل منهم أكثر من مائة الف فارس وراجل .

زد على هذا لقد ذبح النساء وحمل بعضهن معه ، وهلكت اعداد كبيرة من الفرنجة الذين هاموا فارين من الجبال من الجوع والعطش ، واستولى الاتراك على خيولهم وبغالهم ودوابهم وعلى مختلف انواع الامتعة التي كانت بحوزتهم .

وفقد كونت بواتو امواله وحاشيته وكل ماكان بحوزته ، وبعد جهد طويل وصل الى انطاكية راجلا حزينا منقبض النفس ، واستقبله تانكرد استقبالا حسنا وعطف عليه واشفق في محنته فزوده من

ممتلكاتـه الخـاصة » وهـكذا تـأديبا ادبني الرب ، والى الموت لم يسلمني » (المزامير : ١١٨ / ١٧).

وبدا لنا ان مانزل بـه وبغيره كان بـالفعل نتيجـة لخـطاياهم وغطرستهم ، هذا ولم يتقاعس الذين نجوا عن الذهاب الى القدس ، باستثناء هيوج العظيم الذي وافته المنية بطرسوس في كليكية وفيهـا دفن ، وكانوا عندما وصلوا الى انطاكية تـابع بعضـهم رحلتـه الى القدس برا وبعضهم الاخر بحرا ، وكان الذين حصلوا على خيول قد اثروا السفر برا .

الاستيلاء على مدينة طرطوس :

وعندما وصل الفـرنجة الى طـرطوس ، التـي كانت بحـوزة المسلمين ، لم يترددوا في الهجـوم عليهـا بـرا وبحـرا ، ويكفيني اخباركم انهم استولوا عليها وقتلوا المسلمين وصادروا اموالهم ، ثم تابعوا زحفهم بدون توقف ، وخابت امال الجميع وساء ظنهم بسبب بقاء الكونت ريموند في طـرطوس فقـد رغبـوا في ان يرافقهـم الى القدس ، ولهذا صب الجميع اللعنات عليه لانه رفض الزحف معهـم واثر البقاء في طرطوس محتفظا بها لنفسه .

وتابع هؤلاء زحفهم فمروا بعكار ثم بمدينتي طرابلس وجبيل حتـى وصلوا الى الممر الضيق كثيرا قـرب مـدينة بيروت ، وكان الملك في انتظارهم هناك منذ ثمانية عشر يوما ، امضاها في حراسة هذا الممر حتى لايحتله المسلمون ويحولوا دون عبور الحجاج ، وكان قبـل ذلك قد استقبل وفدا من جيش الحجاج طلب منه المساعدة لدى اقتـرابه من ذلك الممر ، وعندما وجد الحجاج الملك في استقبالهم هناك قدموا له الشكر بكل حـرارة ، وبعـدما تبـادلوا التحيات والعناق شـدوا الرحال الى يافا حيث نزل الذين سافروا بحرا إلى اليابسة .

- ٢٨١٥ -

معركة مشؤومة بين الفـرنجة والمسـلمين ، قتـل فيهـا الفرنجة وانتصر المسلمون :

ومع اقتراب عيد الفصح توجه الحجاج نحو القدس حيث كانوا حيث يتوقون لزيارتهـا ، وبعـد اداء الطقـوس المعتـادة عادوا الى يافا ، ومن هنالك ركب كونت بواتو السفينة وابحر مع قلة من أتباعه ، وقد دفعه الى ذلك ضيق حاله وشدة حاجته ، ورغب ايضـا ستيفن كونت بلوا وعدد كبير غيره في ركوب البحر عائدين ، غير انهم واجهوا ريحا غير مواتية ، فلم يجدوا بدا مـن العـودة راجعين على اعقابهم ، ولهذا السبب كان ستيفن في يافا كما سلف وذكرنا ، وذلك عندما امتطى الملك جواده وقصد العدو الذي عسكر امام الرملة .

وكان هناك ايضـا غودفـري كونت فـاندوم ، وسـتيفن كونت بيرغندي وهيودي لوسنان اخو الكونت ريمـوند ، وقـد اسـتعاروا جميعا خيولا من اصدقائهم ومعارفهم وامتطوها ولحقوا بالملك .

وارتكب الملك عملا متهورا حقا ، وذلك انه اغفل الحـذر فـاندفع دون ان ينتظر رجاله وزحف الى القتال بشكل اعتبـاطي ، مـع انه توجب عليه ان يكون اعقل من ذلك ، لقد سارع الى ملاقاة العدو دون ان يصطحب رجالته ، لابل انه ماكاد ينتظر وصول فـرسانه حتـى القى بنفسه بطيش بين جموع العرب المحتشـدين ، وكان يخيل اليه ان عدد الاعداء لايتجاوز الالف والسبعمائة ، لكن ساء تخمينه ومـع هذا سارع الى ملاقاتهم حتى لايتمكنوا من الفرار .

غير انه عندما شاهد قوات العـدو ، صـاح مندهشـا ، وشـعر بالخوف ، لكنه مالبث أن استرد توازنه فالتفت نحو رجاله وخاطبهم بجلال : ياجنود المسيح ، ايها الرفاق ، لاتتوانوا عن القتال هنا ، بل حاربوا بشجاعة مسلحين بقوة الرب من اجل انفسكم ، فان عشـنا

او متنا فللرب نحن ، (روميه : ١٤/ ٨) ولئن حدثت احدكم نفسه بالفرار فليس امامه امل بالنجاة ، وعليه ان قاتلتم انتصرتم وان فررتم هلكتم .

وانقض الفرنجة على العرب بكل شجاعة وقاموا بهجوم عنيف ، ذلك ان المكان كان المكان المناسب والمناسبة هي المناسبة لاظهار الشجاعة ، ولم يتجاوز عدد فرساننا المائتين ، وقد احاط بهم عشرون الفا ، وازداد ضغط المسلمين على رجالنا حتى ان معظمهم قد هلك في اقل من ساعة ، ولاذ البقية بالفرار بعدما عجزوا عن تحمل متابعة القتال الشديد .

ومع ان شرا مستطيرا نال رجالنا - لكن لم يحدث ذلك الا بعدما ثأروا لانفسهم تماما من اعدائهم ، فقد قتلوا عددا كبيرا منهم وشردوهم من معسكرهم ، ثم حاقت الهزيمة برجالنا ، فتلك ارادة الرب - على ايدي الذين كانوا قد هزموا ، وبتوفيق من الرب تمكن الملك مع حفنة من ابرز رجاله من النجاة ، فقد لاذوا بالفرار ، واسرعوا الى داخل الرملة حيث اعتصموا فيها ذلك انهم لم يتمكنوا من المضي ابعد من ذلك .

فرار الملك بلدوين :

ولم يرغب الملك ان يقع في اسر احد او يبقى هناك ، لذلك اثر ان يلاقي حتفه في مكان اخر على ان يؤخذ بكل مذلة في ذلك المكان ، وبعد مشاورات حاول الفرار مخاطرا بحياته ، واصطحب معه خمسة مرافقين فقط ، لكنهم لم يمكثوا معه طويلا ، فقد اوقفهم العدو ، اما هو فقد بادر بالفرار نحو الجبال على متن فرس خفيفة الحركة رشيقة ، وهكذا انتشله الرب من ايدي اعدائه الذين فاقوه قوة ،

وكان العدو قد قطع طريق ارسوف عليه ، فلم يتمكن من الذهاب اليها مباشرة مع انه رغب بذلك .

ولم يستطع الذين خلفوا بالرملة مغادرة ابوابها ، فقد حاصرهم الكفار من جميع الجوانب ، ثم اسروهم ، فقتلوا بعضهم وابقوا بعضهم الآخر احياء .

وعندما سمع اسقف كنيسة القديس جرجس بحلول هذه الكارثة انسحب خفية الى يافا . واحسرتاه كم خسرنا من نبلاء وفرسان شجعان في تلك الكارثة ! خسرناهم في الاشتباكات الاولية ، ثم اثر ذلك في البرج السالف الذكر ، فقد قتل ستيفن كونت بلوا ، الرجل النبيل الشجاع وكذلك ستيفن كونت برغندي .

وتمكن ثلاثة من الفرسان من النجاة بانفسهم من هناك ، وامتطوا خيولهم جادين الى القدس في الليلة التالية ، وكانوا قد اصيبوا بجراحات وضربات عديدة ، ولما وصلوا الى القدس اخبروا اهليها بالكارثة التي وقعت ، وانهم لم يعرفوا مصير الملك فيما اذا كان قد مات ام مازال على قيد الحياة ، وقد سببت هذه الاخبار الاسى والحزن الشديد للجميع .

كيف وصل الملك الى ارسوف هاربا :

اختبأ الملك في الليلة التالية في وسط الجبال وذلك خوفا من العرب وظهر في اليوم الثالث مع فارس واحد ومرافقه ، وهو يتجول دون ان يعرفه احد ، كما لو كان اي انسان عادي كان يعاني من الجوع والعطش في مجاهل الصحراء ، حتى دخل اخيرا الى مدينة ارسوف

وجاءت نجاة بلدوين بسبب الظرف التالي : كان هناك خمسمائة

من جنود الاعداء يتجولون حول اسوار المدينة بمهمة استطلاعية ، وصدف ان انسحبوا قبيل وصوله بقليل ، ولو رآه احدهم لما كان بمستطاعه النجاة منهم .

واستقبل الرجال ملكهم بفرح عظيم عند دخوله الى ارسوف ، وهناك اكل وشرب،ونام بكل امان فقد تطلب ذلك الجانب البشري من طبيعته .

كيف بادر هيو صاحب طبرية وبطريرك القدس الى نجدة الملك،ثم كيف دار القتال بتدبير الصليب المقدس وعونه وسلطانه :

تبصر : حضر في ذلك اليوم هيو صاحب طبريه الذي كان من اعظم نبلاء الملك الى ارسوف ، فقد كان قد سمع بالشدة التي حاقت بالملك ورغب في ان يجلب بعض العون والمواساة للذين بقوا على قيد الحياة ، وسر الملك برؤياه سرورا عظيما ، وذلك ان هيو كان قد جلب معه ثمانين من الفرسان كان الملك في امس الحاجة اليهم ، واستجابة لرسالة استغاثة وصلته من القدس اندفع الملك نحو يافا للتفريج عن اهلها .

ولم يقدم الملك على نقل رجاله برا خوفا من كمائن العدو وتمويهاته ، ولهذا ركب مركبا سريعا وابحر الى يافا ، ولدى وصوله الى المرسى تلقي بترحاب بالغ ، لانه كما ورد في الانجيل «.لان ابني هذا كان ميتا فعاش وكان ضالا فوجد » (لوقا : ١٥ /٢٤) فقد رأى اهل يافا من انتحبوا لموته من قبل الان سالما وهو قيد الحياة .

وسارع هيو ــ وقد تملكه الخوف ــ في اليوم التالي الى التوجه

الى يافا ، فغادر ارسوف ، وقد تلقاه الملك على الطريق لانه خشي من تعرضه الى هجوم من قبل الاعداء ، وبعدما وصل الملك الى يافـا لم يطل المشاورات والمداولات فقد قضت الضرورات باستدعاء الذين في القدس والخليل للحضور الى يافا ، لانه عزم على محـاربة العـرب الذين عسكروا على مقربة منها وفي خطتهم الاستيلاء عليها .

وفيما هو يبحث عن رسول يبعثه بهذه المهمة ، رأى رجلا سريانيا بسيطا رث الثياب ، فحرضه وشجعه على القيام بهذه المهمـة ، ذلك انه لم يجد من هو قادر على القيام بهذه المهمة او يتجرأ على الاقدام والسفر في تلك الطرق بسبب الكمـائن التـي نصـبها الاعداء ، ولم يتردد ذلك الرجل ، وقبل بأداء المهمة والقيام بالرحلة بعدما استمد الشجاعة من الرب ، وقد سلك مسالك غير مألوفة وشـاقة وسـار في جوف الليل حتى لايكشف العدو امره حتى وصل الى القدس في اليوم الثالث ، وقد هده التعب وانهكت قواه ، وعندما اعلم هـذا الرسـول الناس هناك بالانباء السارة حول سلامة الملك وانه مـازال على قيد الحياة ، قدم الجميع الشكر للرب ، وشرعوا بـالاستعداد ، وبعـدما اطلعوا على محتويات الرسالة التي حملهـا السرياني بـادروا على الفور الى تجهيز العدو الاكبر من الفرسان ممـن وجـد بـالقدس ، واذكر انه توفر وقتها في القـدس تسـعون مـن الفـرسان الذين استطاعوا الحصول على الخيول ، ثم ساروا عل الفـور ، وتجنبـوا اثناء زحفهم كمائن العدو ، وركبوا الطرق الفرعية حتى اشرفوا على ارسوف من طريق جانبيه .

و فيما هم يسيرون على عجل على محاذاة الشـاطىء انقض عليهـم الاعداء على امل عزلهم وتطويقهم والقضاء عليهم ، وهناك اثر بعض الفرسان الغوص بين الامواج والسباحة والتخلي عن خيولهـم حيث لم يكن امامهم خيار اخر ، ودافع فريق من الفرسان ممن ملك خيولا سريعة عن انفسهم حتى وصلوا الى يافـا ولم ينج الجميع الا بعـد مشاق شديدة وابتهج الملك كثيرا لحضورهم واسـترد شـجاعته ولم

يرغب في التأخر اكثر ، فنظم في اليوم التالي فرسانه ورجالته وانطلق الى حرب الاعداء ، ولم يكن موقع هؤلاء الاعداء في الحقيقة بعيدا عن يافا سوى ثلاثة اميال ، ، وكانوا قد شرعوا في اعداد الالات لضرب الحصار على يافا والاستيلاء عليها بدون تقاعس ، وعندما راوا رجالنا يتقدمون نحوهم للقتال تناولوا اسلحتهم على الفور ، وتصدوا لنا بكل شجاعة وطوقونا من جميع الجهات لكثرة اعدادهم بشكل واضح .

وعندما أحكم الطوق على رجالنا بهذه الصورة لم يبق لهم سوى العناية الربانية ولهذا لم يترددوا ووضعوا ثقتهم بمقدرة الرب العلية ، وتقدموا يضربون الاعداء بشدة مذهلة ، حيثما شاهدوا تكتلاته مهما كانت كثيفة او شديدة ، وكان رجالنا كلما اخترقوا بالقتال العنيف صفوف الاعداء اضطروا الى الرجوع والتحول الى موقع اخر ، ذلك ان الاعداء كانوا كلما راوا رجالتنا بدون حماية الفرسان ، كانوا يقتحمون ذلك الموقع ويقتلون الذين كانوا في الساقة ولم يكن رجالتنا جبناء ، فقد اطلقوا وابلا من الحراب على مهاجميهم حتى كنت ترى كثيرا من الحراب وقد التصقت بوجوه الاعداء اودروعهم ، وهكذا حدث بعون الرب ، بعدما صدت العدو حراب رجالتنا ، واصابته بجراح رماح فرساننا وبعد ماخسر المسلمون خيامهم انعطفوا على اعقابهم وولوا الادبار فرارا ، ولكن لم يلاحقهم احد منا لفترة طويلة ذلك ان عدد الملاحقين كان صغيرا .

لقد تخلى الاعداء عن خيامهم في السهل وعن جميع امتعتهم للفرنجة ، واخذوا معهم معظم خيولهم باستثناء ماعقرمنها وماهلك عطشا ونفق اثناء الفرار وحصلنا على عدد وافر من الجمال والحمير ونفقت اعداد كبيرة من الدواب اثناء الفرار اما من لعقرها او لشدة العطش .

لاريب انه كان من العدل والصواب خروج الذين حمتهم خشبة

صليب الرب منتصرين على اعداء ذلك الصليب ، وفي الحقيقـة لوكان الملك قد حمل الصليب المقدس معه في المعركة السالفة الذكر مـن غير الممكن الشك وقتها ان الرب كان قد عطـف على قـومه غير ان هناك بعض الناســـس الذين يثقون بافراط بقوتهم اكثر من اعتمـادهم على الرب ، ويعتمدون اكثر من اللازم على مايرونه صوابا بعقـولهم ولاينصتون الى مشورة العقلاء ، ولهذا يخيل اليهم ان بامكانهم اداء مهامهم على عجل وبدون روية ، وبناء عليه ان ضررا لايمكن رتقه قد يحصل لايصيبهم وحدهم بل يعم كثيرا بين الذين يشاركون في المهمة ذاتها ولذلك اعتاد مثل هؤلاء القوم القاء الملامة على الرب بدلا من ان يتبينوا حماقة انفسهم .

ان الذي يشرع في امر ما بحماقة لايفكر بالعواقب«الفـرس معـد ليوم الحرب اما النصر فمن عند الرب» (امثال : ٢١ / ٣١) واذا لم يصغ الرب دوما الى صلاة الصالحين ، اليس الاحرى الا يستمع لصلاة الاشرار ، بل كيف يمكن للمرء تـوجيه اللوم الى الرب اذا لم تتحقق امنيته على الفور ، ولم ينبغي الاصـغاء لمن لاقيمـة له ، اولا يعلم الرب ما ينبغي عمله في جميع الحالات ؟ ويقول بـوتيوس بهـذا الصدد : «مع انك ترى امـالك تقصر عن الانجـازات غير ان هناك نظاما عادلا للامور ، والنظام الفاسد هو نتيجـة تشـوش في عقلك ، والرجل الاحمق يتوقع تحولا بالحظ بدلا ان يتوقع ما يسـتحقه » ، وغالبا مايرى المرء شرا في امر قد يعود عليه بالنفع فيما بعد ، ومـن جانب اخر ان مايبدو انه سيسبب نجاحا للمرء قد يعود فيمـا بعـد ويسبب له احباطا كبيرا . وبعدما انتهى القتال ، و انتصر الملك كما سلف بنا الذكر ، حمل خيامه وعاد الى يافا ، واثر ذلك ساد السلام في الارض طوال الخريف والشتاء التاليين .

الملك يحاصر مدينة عكا :

بعدما احتفلنا بعيد الفصح في القدس حسب العادة في ربيع ١١٠٣ ، زحف الملك على راس جيشه الصغير وحاصر مدينة عكا التي تعرف ايضا باسم بطلومياس ، غير انه لم يتمكن من الاستيلاء عليها في تلك المناسبة لمناعة اسوارها وحصانة مواقعها المتقدمة لاسيما وان المسلمين في داخلها قد دافعوا عن انفسهم بشجاعة فائقة فانسحب الملك عائدا بعدما دمر حصادهم وبساتينهم وحدائقهم ، وقد رجع الى يافا •

اطلاق سراح الأمير بوهيموند من الأسر :

راجت في تلك الاونة اقاويل رحب بها ، تحدثت عن اطلاق الاتراك لسراح الامير بوهيموند من الاسر ، وذلك ببركة الرب ، وقد بعث الينا برسول نقل عنه كيف فك رهنه من الاسر وكيف استقبل سكان انطاكية اميرهم السالف بكل غبطة ، فقد عاد الان واستلم سلطة تلك البلاد ، وبعد هذا تسلم مدينة اللاذقية التي كان تانكرد قد احتلها وانتزعها من رجال امبراطور القسطنطينية ، وعوض تانكرد عن ذلك بتعويض موائم وطيب خاطرة بلباقة •

الجراح التي كادت ان تودي بحياة الملك :

وفي تلك الاونة ، بينما كان الملك بلدوين يقاتل ضد المسلمين حسبما جرت عادته ، صدف ان شن في احد الايام هجوما على جماعة منهم ، وفيما هو مبتهج ومتوقع لدمار المسلمين المؤكد ، اذا بسوداني يتسلل ويتربص خلف صخرة يريد قتلة ، وقد دفع بشدة نحوه بحربة اصابتة بجراح بالغة في الظهر قرب قلبه ، غير ان الملك

تماثل للشفاء فيما بعد من جـرحه المميت لانه وفـر لنفسـه العناية والعلاج ·

الاستيلاء على مدينة عكا :

بعد انقضاء موسم الشتاء وحلول فصل الربيع احتفلنا بعيد الفصـح في القدس عام ١١٠٤ ، واثر هذا حشـد الملك رجـاله ، وانطلق يريد عكا لمعاودة حصارها ، ووصل انذاك اهل جنوى الى هناك في سبعين سفينة متقاربة (شواني) وبعـد مضي عشرين يومـا على حصـار المسيحيين لهذه المدينة بالاتهم وبعد قيامهم بعدة هجمات عليهـا دب الرعب في قلوب المسلمين وسلموها الى الملك لكن على مضض ، وكنا بامس الحاجة الى هذه المدينة لان فيها مرسى واسع جـدا يمـكن ان ترسو بين ابراجه الامنة اعداد كبيرة من السفن .

طلعت الشمس تسع مرات في برج الجوزاء
عندما سقطت عكا التي تدعى بطلومياس
في سنة الف ومائة واربع
وهذه ليست مدينة اكرون التي يدعوها بعضهم عكا

وعندما استولى الفرنجة على هذه الكدينة على هذه الصـورة ، قتلوا كثيرا من المسلمين لكنهم ابقوا على حياة بعضـهم بعـدما انتـزعوا منهم جميع مايملكون .

- ٢٨٢٤ -

بوهيموند يعبر البحر الى ابوليا :

بعد انقضاء فصل الصيف عبر بوهيموند البحر مع عدة سفن الى ابوليا ، وذلك بعدما كثرت متاعبه واشتد به الضيق ، ورافقه في الرحلة ديمبرت بطريرك القدس السالف الذكر وكان رجلا حكيما سديد الرأي ، وقد رحل بوهيموند بهدف العودة فيما بعد على رأس قوة من الرجال من بلاد ماوراء البحار ، اما ديمبرت فقد سافر بغية اطلاع البابا في روما على شكواه وعلى مانزل به من مظالم ولحقه من اذى من قبل الملك ، لقد ذهب وحصل على ماارداه واخذ طريق العودة ، غير انه لم يصل لانه لاقى حتفه وهو على الطريق مسافرا .

اسر رجال أنطاكية ومصرع بعضهم في الحرب ضد الفرثيين

تشجع في تلك الاونة جيراننا من الفرثيين والميديين والكلدانيين وجميع اهالي بلاد الرافدين على مهاجمتنا نحن المسيحيين والحاق الاذى بنا بكل وسيلة ، وعندما عرفنا بهذه الاخبار اعد قادتنا جميعا العدة للتصدي للاعداء في ساحات الوغى .

اعد العدة كل من الامير بوهيموند وتانكرد ، وبلدوين كونت الرها وجوسلين ، وكذلك فعل ديمبرت بطريرك القدس ، واسقف الرها المدعو بندكت ، وسرعان ماباتوا جاهزين على رأس حشد من الفرسان والعامة ، وزحفوا الى ماوراء نهر الفرات ، الى مدينة تدعى حران قرب نهر الخابور ، والتقوا بسرايا اعدائهم هناك ، واشتبكوا بالقتال قرب الرقة بدون تأخر ، لكن بسبب عظك اثامنا ، مزقت صفوف المسيحيين وبددت قواهم ، وكانت هذه المعركة كارثة

هي اشد مما اصابنا في جميع المعارك السالفة ، فهــذا مــادلت عليه النتائج .

وقع اللورد بلدوين ، كونت الرها ، والذي سيغدو فيمــا بعــد ثــاني ملوك القدس ، هناك بالاسر ، واسر معه جوسلين قريبه ، كما اسر معهما الاسقف السالف الذكر ، وغرق عدد كبير من الرجال وفقــدوا في النهر المذكور ، وضاعت هناك ثروات كثيرة وخيول وبغال .

وتمكن اللورد تانكرد والامير بوهيموند من الفرار ، فقد عبرا طــرقا ومسالك غير مألوفة ، وتجنبا حتى بخيار افضل الطرق والممــرات ، وفازا اخيرا بالسلامة وهما تتملكهما الدهشة والحيرة .

ومات كثير من الرجال بفعل رشقات النشــاب وطعنات الخناجــر ، وهكذا نجد ان اللذين كان بمستطاعهم الاســتيلاء على حــران دون صعوبة لو حاصروها في البدء ، لم يتمكنوا بعــد ذلك مــن الاســتيلاء عليها سواء لدى توجههم اليها او اثناء عودتهم ، وكما ينجم الضرر عن استعمال الخديعة تحت ذريعة الامن في بعض الاحيان كذلك يعود الخوف مع الحيطة بالدفع على الخــدر والجبــان ، فقــد قيل قــديما التقاعس خطر على من استعد للعمل .

يقينا ان عدوين هما الحسد والخصام ، قد ســببا الحــاق المضــار بشعبنا اثناء هذه المهمة ، بل الكارثة ، فقد اعتاد هذان العدوان على انزال الرجال من على ظهر الثروات التــي جمعــوها الى حضــيض الاملاق ، ولقد شهدنا ذلك مرارا ، وخبرناه بالتجربة ، ولن انخــدع او يضللني معسول الكلام ، حتى اســتغرق بــالتفكير في ســفاسف الامور .

لقد عادى الفرنجة في هذه الحملة الخطيرة بعضهم بعضــا الى حــد انهم تمنوا قبــل ان تنزل بهــم النازلة ان يأخــذ كل طــريقة ويحلوا

الاحلاف التي عقدوها ، وحقا ان من يقتـرف الشر ويتـوقع الخير لجاهل ، ذلك ان الرب لايتقبل شيئا قام على الخصـام وبـلامحبة ، وبناء عليه ان من العار والجبن ان اهجر صحبة مـن تـوجبت علي صحبته (الرب) وعبادته حتى اقضي اجلي .

وما لبث الرب ان مد يد العون الى اسقف الرها ، الذي كان مكبلا بالاغلال آنذاك فقد حمله الاتراك كثيرا من الاثقال من ادوات واوعية كما لو كان دابة من دواب حمل المتاع ، وتم اختطافه مـن بين ايدي الاتراك بعون الرب ومشيئته بعملية اتسمت بالحسارة البـالغة وذلك بمساعدة فارس شجاع خاطر بحياته بكل اخلاص حيث لم يعـد ذلك الفارس حياته اثمن من الاسقف .

لقد اضـطرمت اثناء حملة الحـج الحمـاسة في قلوب عدد كبير مـن الرجال ، وكانت حماستهم للرب ، فقـد رغبـوا بـالتضحية بهـذه الحياة ، وسعوا لان يموتوا ميتة الكرام حتى ينعموا بالسكينة مـع المسيح ، واذكر على سبيل المثال قصة رجـل رآه قـومنا وسـمعوه عندما كنا حول انطاكية ، وقد سمع واحدا من الكفـار بجـدف على اسم الرب بازدراء شـديد ، فهـاجت في نفسـه الغيرة واشـتعلت حماسته ليتصدى له بالقول والعمل فحرك فرسه على الفور ، وسأل الواقفين من حوله بتلهف : من اراد منكم ان يتناول عشاءه في الجنة فليأت الآن ويأكل معي ، فانا على وشك الذهاب الى هناك ، ثم لوح برمحه بكل قوة وعزم ، واندفع وسط لجة مـن آلاف الاعداء يقتـل ويهزم كل من واجهه ، حتى هلك بالحال وقتـل وهـو يقتـل غيره ، وواجه منيته بكل سرور يحدوه الايمان والامل وتدعمه المحبة ، فمـن الذي سمع بمثل هذا ؟ لقد مجدته عليين وهو مـا يزال ممـددا على الارض .

انه من اجل مثل هذا تغتبط السموات ومن فيها ولقد كان ذلك بالفعل مصدر سرور وحمد بالنسبة لنا ، لان الملائكة قد ابتهجـت بـاضافة

مثل هذا الرفيق اليها ، فقد كان الرب قريبا ، وسمع منه واجـزل له الجزاء بالعطية التي اعدهـا له ، منزلا ابـديا (يوحنا : ١٤ / ٢) « في بيت ابي منازل كثيرة ، وانني كنت قد قلت لكم : انا امضي لأعد لكم مكانا » .

اطلاق سراح الكونت بلدوين والقتال بينه وبين تانكرد :

بعدما مكث اللورد بلدوين مكبلا بالسلاسل لمدة خمس سنوات ، وبعد تبادل الرهائن المنتقاة تعهد بلدوين بـاقسام الايمـان المشـددة ان يستردهم ،، وقد قتل الرهائن بالخدعة حراسهم فيما بعد ، وتخلص بلدوين من سجنه ، وقد ساعده على ذلك جوسلين بكل اخلاص ، ولما عاد بلدوين بعد هذا الى مدينة الرها ، لم يتمكن من دخـولها ، لان تانكرد واعوانه منعوه من الدخول .

وبعد طول انتظار ، وتمـاشيا مـع مصـلحة كل مـن بلدوين وجوسلين ، واستنادا الى الاتفاقية التي كان بوهيموند قد عقدها في الماضي وتعهد بها بان تعاد بلاد بلدوين له من دون جدال فور اطـلاق سراحه من الاسر ، وكيفمـا كان الحـال ، لقـد تحـالف بلدوين وجوسلين وخاضا الحرب ضد شريكهما الثالث تانكرد .

ولم تفلح جهود تانكرد في تطبيب خواطرهما ومناشـدته السـلام وحشد جوسلين سـبعة آلاف تـركي وتحـدى تـانكرد الذي لم يكن مستعدا للحرب ، وقتل الاتراك خمسمائة من اتباع تانكرد ، ومع ان تانكرد اوشك في البداية على الهزيمة ، لكن الرب الذي يطل بـوجهه على العدالة دوما قضى ان يبقى على ارض المعركة منتصرا بشرف ، ولما رأى رؤساء البلاد مدى الاضرار التي لحقتهم عقـدوا المداولات فيما بينهم ، ثم توصلوا الى عقد اتفاقية بين الاطراف المتنازعة .

- ٢٨٢٨ -

بوهيموند يذهب الى غاليا

كنا قد ذكرنا من قبل ان بوهيموند قد وهنت عزائمه لعدة اسباب ، ولذلك توجه الى بلاد غاليا ، وكان من جملة ما فعله هناك انه تزوج من ابنة الملك فيليب الذي تعرف باسم كونستانس واخذها الى ابوليا ، وقد انجبت له صبيين ، مات اولهما ، وعاش الثاني التي حمل اسما مثل اسم ابيه وصار وريثه .

انتصار تانكرد في حربه ضد الاتراك :

في اليوم الثاني من شهر آذار لعام ١١٠٥ م توفي الفارس المبرز الكونت ريموند في موقعه المنيع امام مدينة طرابلس ، وقد خلفه ابن اخيه وليم جوردان .

ولم يتخل المسلمون والاتراك في تلك الآونة عن عنتهم المعهود ، فقد حشد رضوان ملك حلب في شهر نيسان جيشا لايستهان بتعداده ، جمعه مما حوله من البلاد وشمخ برأسه بإسراف في العنجهية ليخوض الحرب ضد تانكرد امير انطاكية .

والقى تانكرد ثقل آماله في الرب وليس في حشود الرجال ، وهيأ صفوفه ونظمها بشكل جيد للقتال ، وامتطى جواده وتقدم نحو العدو بلا تردد ، ومختصر القول : اندفع تانكرد نحو الاعداء امام ارتاح بكل بسالة ، فدب الرعب في قلوب الاتراك ، وكان ذلك بعون من الرب ، ولا ذوا بالفرار ، لقد هربوا و طاردهم فمات منهم كل من لم يقدر على الفرار ؛ لقد مات منهم ما لا يمكن عده واستولى تانكرد على كثير من خيولهم كما واستولى على راية الملك ، بعد ما فر مهزوما وقد فقد عزته وكرامته ، وبذلك تمجد الرب ، الذي يهب الى عون المؤمنين دوما .

وبعد ما فرغنا من ذكر هذه الامور عن اهل انطاكية نعود الآن لنتفحص احوال اهل القدس .

ملك مصر يبعث بجيوشه ضد الملك بلدوين الذي اعد نفسه ضده :

علي ان اذكر انه في ذلك العام بالذات حشد ملك مصر كثيرا من الرجال وبعث بهم تحت امرة صاحب عسقلان ليشن الحرب على المسيحيين ، لقد نوى ان يطردنا من الارض المقدسة جميعا ، وخيل اليه انه يستطيع ذلك ، ذلك انه عرف اننا كنا قلة في العدد بدون مساعدة الحجاج المعهودة ، ولهذا الغرض احتشد في عسقلان فرسان العرب ورجالة السودان ، وكان معهم اكثر من الف تركي قدموا من دمشق ، وكانوا من رماة النشاب من الطراز الاول .

وبعد ما عرف الملك بهذه الاخبار حشد رجاله جميعا ، ووقف يترقب العدو قرب يافا ، وبحكم الضرورة توجه الى القتال كل الذين عاشوا بالمدن وكانوا قادرين على حمل السلاح ، باستثناء الذين حرسوا الاسوار في الليل ، ثم دب في قلوبنا الخوف ، وتملكنا الرعب ، خشية ان يستولي الاعداء على احدى مدننا الخالية من الرجال ، او ان يقتلوا الملك واصحابه في المعركة ، ووقع هذا في شهر آب ، وبمهارة ودهاء تجنب الجانبان القتال ، فلم يهاجمونا ولم نهاجمهم .

وبعد طول انتظار ، حدث كما ارى بتقدير رباني ، ان تقدم ذلك الجنس الشرير من عسقلان ، وشرع بالاقتراب منا ، ولما اتضح ذلك للملك ترك يافا ، واخذ الطريق الى الرملة ، وبما ان « التقرب من الرب خير لنا ، فقد جعلنا مولانا الرب ملجأ لنا » (المزامير : ٧٣ / ٢٨) فقد بعث الملك ، بالهام رباني ، مبعوثا في البحر الى

البطريرك ورجال الاكليروس وعامة الناس في القدس ، يرجوهم ان يقيموا الصلوات حسب طاقتهم ، وان يسألوا الرب القدير عله يتمنن فيقدم العون من عليائه للمسيحيين في شدتهم وعسرتهم .

وعلى الرغم من الالحاح الشديد ، رفض هذا الرسول قبول اي اجرة ، فقد خشي ان يخفق في اداء هذه المهمة او ان لايبقى على قيد الحياة حتى يقبض المكافأة ، لقد وضع ثقته في الرب الذي سيكافئه بشكل ما على عمله الصالح ، وهكذا بادر مسرعا بالسفر الى القدس ، ووضع روحه وجسده بين يدي خالقه ، وبهداية من الرب وصل الى هناك وحال دخوله الى المدينة اعلن عن فحوى مهمته .

وما ان اعلنت هذه الاخبار حتى امر البطريرك بقرع الناقوس الكبير ، وان يجتمع الناس جميعا امامه حيث خاطبهم بقوله : « أيها الاخوان أيها الاصدقاء ، ياعبيد الرب ، ان المعركة التي سمعتم عنها لابد بحق واقعة ، وكما اعلن المبعوث انها محيقة بنا بكل تأكيد ، وبما اننا لانستطيع مقاومة هذه الحشود الهائلة بدون العناية الربانية ، عليكم ان تطلبوا الغفران من الرب ، وتتوسلوا اليه كي يتمنن برحمته فيعين بلدوين ملكنا وجميع رجاله في قتالهم المرتقب ، ولقد اخبرنا المبعوث ان الملك قد اخر القتال الى الغد ، الذي سيصادف يوم الرب ، اليوم الذي قام فيه المسيح من الموت ، عله – اي الملك – يقاتل مؤملا اكثر بالتوفيق ، وهو يتوسل اليكم ان ترفعوا صلواتكم الى الرب وتقدموا صدقاتكم على امل ان يستمد القوة ليحارب بعزيمة اكبر ، وبناء علية امضوا امسية العيد هذه وفقا لتعاليم الرسل ، كونوا راسخين متمسكين بايمانكم ، واجعلوا كل اعمالكم في سبيل البر والاحسان وفي الغد سيروا حفاة في الاماكن المقدسة من هذه المدينة مذلين نفوسكم وكابحين لاهوائكم ، واطلبوا من الرب بكل خشوع ان ينجينا من براثن اعدائه .

اما انا فسوف اتوجه الآن نحو الملك ، انني سوف اتحرك نحوه

في الحال ، واتمنى على كل من بقي منكم هنا وهو قـادر على حمـل السلاح ان يتحرك معي على الفور ، فالملك بحاجة الى الرجال ودون ان اطيل عليكم الكلام اقول : لقد امتطوا جيادهـم ، وكان قـد بلغ تعدادهم مائة وخمسين رجلا من بين فارس وراجـل ، ومـع حلول الظلام شرعوا في مسيرهم فـكان أن وصـلوا الى الرملة عند بـزوغ الفجر .

وانقطع الذين بقيوا في القدس الى الصلوات بـكل حمـاسة وبـكوا وتصـدقوا وداومـوا على زيارة الكنائس حتـى الظهيرة ، وكانوا يرتلون ويبكون ، ويبـكون ويرتلون مثلمـا فعـل الرهبـان في الموكب ، فلقد صليت أنا شخصيا حافي القدمين مع البقية ، وصـام الرجال المتقدمون بالسن حتى الساعة التـاسعة مـن النهـار ، ولم يرضع الأطفال من أثداء أمهاتهم حتى ارتفـع عويلهـم مـن شـدة الجوع ، وقدمت بالفعل صدقات جزيلة الى الفقـراء ، فمثـل هـذه الأعمال تفرح الرب وترغبه في أن ينقذنا « لعله يرجع ويندم فيبقـى وراءه بركة تقدمه » (يوئيل : ٢/١٤) .

القتال بين الأتراك وأهل القدس – النصر نحرزه بفضل صليب الصلبوت :

ماان وصل البطريرك الى الرملة ، وبزغ نور الفجر ليزيل بـريق النجوم ، ابتهج الجميع لوصوله وحـرضهم ذلك على الاسراع نحـو قساوستهم للاعتراف بخطاياهم تجـاه الرب والناس ، كذلك بـادر الرؤساء بالتوجه نحو البطريرك لسماع كلمات نافعـة منه وليتحللوا من خطاياهم .

وبعد ما تم هـذا كله ارتـدى البـطريرك الثـوب الاكليروسي الفخم ، وحمل بين يديه صليب الصلبوت المجيد الذي يحمـل عادة في

مثل هذه المناسبات ، ولدى الفراغ من تنظيم صفوف كتائب الفرسان والرجالة تقدم الجميع نحو الجيش المعادي .

وكان تعداد فرساننا خمسمائة باستثناء الذين لايعدون فرسانا وأن امتطوا الخيول ، ولم يتعد عدد رجالتنا الألفين ، وفضلا عن هذا قدر عدد الكفار بخمسة عشر ألفا من بين فارس وراجل ، وقد عسكروا تلك الليلة في مكان لايبعد أكثر من أربعة أميال عن الرملة .

وفي الصباح عندما رأوا الملك متقدما نحوهم استعدوا للقتال على عجل ، وبذلك أحبطت خططهم ، فقد كانوا قد خططوا لارسال جزء صغير من جيشهم ضد الرملة لخداع جيشنا ، لأنهم قرروا ارسال الجزء الأكبر ضد يافا لمهاجمتها واحتلالها دون علم منا ، غير أنهم عندما رأوا الملك راكبا نحوهم بهذه الطريقة جمعوا قواهم على الفور انما بعدما أحبطت خططهم .

وبدون تقاعس أو تردد انقض كل فريق على الآخر ، ثم ارتفع دوي القتال وصليل السيوف ، وفي أثناء القتال صرخ كل واحد من رجالنا في وجه الأعداء « المسيح يقهر ، المسيح يملك ، المسيح يحكم » وذلك تنفيذا للأوامر التي صدرت اليهم ، وأحاط بنا الأعداء على أمل أن يشيعوا الفوضى بين صفوفنا ويحطموننا كلية ، وأطلق رماة السهام من الأتراك وابلا من السهام علينا ، وفعلوا ذلك وهم كعادتهم يدورون حولنا ، وبعد أن أتموا مهمتهم كرماة سهام ، امتشقوا سيوفهم من أغمادها وانقضوا علينا واشتبكوا معنا في قتال التحامي قريب ، وعندما رأى الملك ذلك ، ازدادت شجاعته فاختطف رايته البيضاء من يد أحد فرسانه واندفع هناك على رأس قلة من رجاله وأسعف الذين تعرضوا للهجوم ، فشتت بعون الرب بهجومه وقتاله الأتراك على الفور ، ثم عاد ليهاجم الحشد الأعظم من المسلمين والعرب والسودان .

وليس بـــــودي اطـــــالة الكلام عن هجـــــوم الطـــــرفين وانقضـــاضاتهم ، فــأنا أرغب في اختصـــــار الرواية الى الحـــد الكافي ، ذلك أن الرب الكلي القدرة ، الذي لاينسى أبـدا عبيده ، لم يشأ أن يدمر هؤلاء الكفار مسيحييه ، الذين قدموا الى القدس مـن البلاد النائية محبة به ، وتمجيدا لاسمه ، فقد أزمـــع هؤلاء الكفـــار بشكل مفاجىء على الفرار عائدين الى عسقلان ، آه لو وقع أميرهم وقائد جيشهم سناء الملك بالأسر ، كم من الأموال كانت دفعت للملك بلدوين لفكاكة ؟! غير أن جمال الملك ، صاحب عسقلان ، والوافر الثروة ، لم ينج ، فقد قتل وأحدث موته كثيرا من الحزن بين صفوف أولئك القوم ، وقد أسر أمير آخر ، أصله من عكا ، أسر وهـــو على قيد الحياة ، وقد أطلق الملك سراحه بعدما دفع فدية مقدارها عشرين الف قطعة نقدا فضلا عن الخيول وأشياء أخرى .

ثم أبيد السودان في ســاحة الوغى ذلك أنهــم لم يتمــكنوا مـــن الفرار ، وقيل أن أربعة آلاف من فرسان العدو ومشـــاته قـد قتلوا مقابل ستين من رجالنا وخلف الأعداء لنا وراءهم خيامهم مــع كثير من الدواب والجمال والحمير .

ثم حمـــدنا الرب ومجـــدناه ، لأنه أمـــدنا بـــالقوة وجلب لأعدائنا الدمار ، آه ماأروع هذا المقضي بالحكم الرباني ، فقد نظـر الرب في أمر الذين قالوا :« سوف نجيء ونقتل كل هؤلاء المســيحين ونمتلك لأنفسنا مساكن الرب »(مزامير : ١٢/٨) لكن الأمور أيها الكفار لم تحصــل هــكذا (مـــــزامير : ٤/١) « لأن الرب جعلكم مثـــل الجل ، مثل القش أمام الريح »(مزامير : ١٣/٨) « لكي يرجفهم بغيظه »(مزامير : ٥/٢) فقد حلفوا حسب نامــوسهم أن لايفـــروا مطلقا أمام الفــرنجة ، غير أنهـــم وجـــدوا أخيرا الســـلامة في الفرار ، لذلك آثروا أن يحنثوا بأيمانهم على أن يمــوتوا ميتــه غير مجدية .

وفي الختام عاد الملك مبتهجا الى يافا ، حيث وزع على فــرسانه

ورجالته الغنائم التي كسبوها ، وفعل ذلك بموجب حسابات دقيقة .

اسطول أهل مصر :

كان للمصريين أسطول أمام يافا واقفا حتى ذلك الوقت ، فقد كان المصريون ينتظرون هناك منذ أمد على أمل أن يجدوا الفرصة والوسيلة لابادتنا كليا بالبر وفي البحر ، وليدمروا معنا مدننا البحرية ، غير أنه بعدما أمر الملك بلدوين بحارته بالقاء رأس الأمير جمال الملك ، التي قطعت في المعركة ، على سطح احدى سفن العدو ، أصاب هذا العدو هلع شديد وارتجف لدى اكتشافه ، لهذا لم يشأ اطالة البقاء هناك ، وهكذا تراجع الأعداء بعدما علموا بالمصيبة التى حلت بقومهم ، وتم التراجع الى مينائي صيدا وصور ، حيث حملت سفنهم الى هناك ريح جنوبية طيبة .

ولدى عودة هذا الأسطول الى مصر فيما – بعد – حلت علينا بركات الرب ، اذ ان العواصف شتتت سفن الأعداء ، ورمت بها مقلوبة الى مراسينا ، وقد استولينا على خمس وعشرين سفينة مشحونة بالمسلمين ، وأبحرت السفن الأخرى ، لكنها لم تنج الا بشق الأنفس ، ولقد كان الرب معينا لنا ورؤوفا بنا في محنتنا ، وكشف لنا عن قدراته الكلية .

شعر :

وبناء عليه بودي أن أعلن عن تاريخ المعركة .
فقد أشرقت الشمس مرات عشر في برج العذراء

وعندما أطل القمر على الأرض
في سادس يوم من مطلع ايلول

منح الكلي القدرة النصر للفرنجة ، ليبتهجوا
عندما ركن العرب ثم الأتراك والسودان الى الفرار .
فر بعضهم الى الجبال ، بينما سقط الباقون صرعى في ساحة المعمعة .

الزلزال :

قد يطوي النسيان هذه الأعمال ان لم تسجل وتدون ، وذلك أما بسبب الاهمال أو لنقص في مهارة المصنفين ، أو ربما لقلة عدد المصنفين وانشغالهم بمشاكلهم الأخرى ، ولهذا آثرت أنا فولتشر - مع افتقاري الى المهارة وعجزي وعدم مقدرتي - أن اشتهر بالحماقة والطيش على أن أسمح في أن لاتعرف هذه الانجازات ، فكان أن دونتها كما شهدتها بنفسي ، أو علمتها - بعد التقصي الشديد - من المصادر المعتمدة .

وفضلا عن هذا ، إنني استميح عذرا من قارىء هذه السطور في أن يغضي بلطف عن نقصي في المهارة ويصحح إن شاء اسلوبي ، اذا لم يقم بهذا التصحيح كاتب بليغ ، لكن عليه الا يعبث في ترتيب تاريخي هذا ، من أجل اسلوب طنان مزركش ، وأن لايموه بالخداع حقيقة الأحداث .

وشعر بعد هذه الوقائع التي تقدم ذكرها ، كل من كان منا بالقدس في أواخر العام بزلزال هائل أصابنا برعب شديد ، وكان ذلك ليلة عيد ميلاد الرب .

العلامات التي ظهرت في السماء :

في عام ١١٠٦ ، ظهرت في السماء مذنب ، فأصابنا

الخوف لأننا ارتبنا في شأنه ، وقد سار بـاتجاه غروب الشـمس في فصل الشتاء ، واطلق شعاعا ابيض براقا ، وكأنه مد من خيط مـن كتان منهل في الطول ، وبـدأت هـذه العـلامة المثقلة بـالاحتمالات بالاحمرار في شهر شباط يوم اخـلال القمـر ، ولقـد سـلمنا للرب ماتنطوي عليه من اسرار ، حيث لاندعي القدرة على التنبـؤ ، ولمدة خمسين يوما او اكثر ظهـر ذلك المذنب كل مسـاء في جميع ارجـاء الدنيا ، ومن المثير للعجب ان هذا المذنب نفسه بدأ مع ضوئه الأبيض يخبوان منذ يوم ظهوره وذلك كل يوم شيئا فشيئا الى ان انعدم نوره في ايامه الأخيرة واختفى بالكلية هو ذاته.

وفي العشرين من الشهر نفسه سرعان ماشهدنا بعد ظهور القمـر من الساعة الثالثة وحتى الظهيرة شمسين في السـماء واحـدة الى يمين الشمس الحقيقة والاخرى الى يسارها ، بيد أنهمـا لم تشـعا بنور مثل نور الشمس الحقيقة ، بل تـوهجتا بنور خـافت وبشـكل باهت ، وزد على هذا تجلت حول هاتين الشـمسين هـالة بيضـاء امتدت مثل المدينة(القدس السماوية) وتألقت داخل هذه الهالة نصف دائرة شبيهة بقوس قزح ، وكان لها اربعـة الوان مختلفـة ، وقـد عانقت الشمس من الطرف العلوي من منحاها الى حد انها لامسـت الشمسين الأخريين اللتين اتينا على ذكرهما من قبل ، ثم شوهد في الشهر التالي ، في منتصف اليل ، وبل من الشهب من السماء.

- ٢٨٣٧ -

هجوم المسيحيين على أهل دمشق :

شن هيو صاحب طبرية في الصيف التالي هجوما على جند دمشق ، وبعدما هزموه مرتين على أرض المعركة ، قدر له الرب أن ينتصر في الهجوم الثالث ، فقتل منهم مائتين واحتفظ بخيولهم ، وهرب بقية الأعداء ، وكم هو ممتع أن يحكي المرء هذه القصة ، فقد مزق مائة وعشرون رجلا منا صفوف أربعمائة منهم ، واثر ذلك أصيب هيو بسهم أودى بحياته ، وكان في حملة مع الملك بلدوين في المنطقة ذاتها .

عبور البطريرك البحر الى روما والحرب مابين رجال يافا ورجال عسقلان :

عبر في عام ١١٠٧ م البطريرك المدعو أبرمار البحر الى روما ليستفسر من الكرسي الرسولي عما اذا كان سيحتفظ بمركزه كبطريرك أم لا ، اذ أن ديمبرت كما سلف بنا الذكر ، كان قد استرد منصب البطريركية ، لكنه توفي وهو مسافر على طريق العودة .

وفي شهر تشرين الثاني من السنة ذاتها ثارت وحشية رجال عسقلان المعهودة ، فنصبوا الكمائن على سفوح الجبال بين الرملة والقدس ، وكانوا يهدفون الى الانقضاض على مجموعة من قومنا وأسرهم بعدما علموا بأنهم على وشك التوجه من يافا الى القدس .

وعندما عرف رجال يافا بذلك ، امتطوا ظهور خيولهم بدون تأخير ، وانطلقوا الى مواقع الكمين ، حيث قادهم اليه الذي ابلغهم الخبر ، وكان رجالنا يشكون في صدق الأخبار ، لكنهم عندما شاهدوا الحقيقة لم يصدقوه فقط ، بل دب في قلوبهم الرعب ، واشتد خوفهم لدى رؤيتهم للعدو ، فقد كان عدد رجال

عسقلان نحوا من خمسمائة فارس وألف راجل ، بينما لم يتجاوز عدد رجالنا الخمسة والستين .

ولم يتهيأ لهؤلاء الرجال الوقت الكافي لتدبر أمورهم ، ووجدوا أن لانجاة لهم في الفرار ، والموت لابد مدركهم ان هم حاربوا ، ومع هذا آثروا أن يموتوا بشرف اذا اقتضى الحال على ان يلحقهم عار الهزيمة فيما بعد ، وهكذا انقضوا بشكل مباغث على الأعداء ، واخترقوا صفوفهم بشكل مذهل ، وطرحوهم أرضا وذبحوهم ، ولما أدرك المسلمون فداحة الخسائر التي لحقت بهم ، تخلت عنهم شجاعتهم ، وتوقفوا – بمشيئة من الرب – عن القتال .

وعندما تبين لجنودنا هذا الحال ، شددوا ضغطهم على المسلمين ، فأرغموهم على الهرب ، بعدما كان قد خيل اليهم أنهم سيجبرون رجالنا على الفرار ، وقتل رجالنا عددا كبيرا من المسلمين ، واستولوا على كثير من خيولهم ، ولم نخسر غير ثلاثة من رجالنا ، لكن حواشي معسكر العدو سرقوا بعض الدواب المحملة ، غير أن رجالنا انتزعوا ضريبة مضاعفة منهم .

بوهيموند يجمع جيشا ويعيث في أراضي الامبراطور :

بعدما رجع بوهيموند في ذلك العام نفسه ، من بلاد الغال ، حشد أكبر عدد ممكن من الرجال ، وجهز اسطولا في ميناء برنديزي في أبوليا ، وقد اعتلى الرجال متن السفن بعد انتظارهم للريح المواتية للجواز ، وكان ذلك في اليوم السابع قبل منتصف شهر تشرين الأول ، وابحروا الى بلغاريا ، ونزلوا على اليابسة في ميناء أفلونا .

وإثر الاستيلاء على ميناء أفلونا بكل سرعة ، قصدوا مدينة

دورازو وحاصروها في اليوم الثالث قبل منتصف تشرين الأول نفسه
و لما كانت هـذه المدينة مـزودة جيدا بـالمؤن ومشـحونة بالرجال ، فقد صمدت أمام المحاصرين مدة طـويلة ، مـع أنه كان بصحبة الأمير بوهيموند خمسة آلاف فـارس وسـتون ألف راجـل علما بأنه لم يسمح وقتها للنساء بـالجواز معـه حتـى لايربـكن تحركات الجيش ويشكلن عبئا عليه .

وكان امبراطور القسطنطينية المدعو الكسوس ، قد بـات في تلك الآونة يعد عدوا لقـومنا أعاق حجـاجنا وأرعبهـم بـالخديعة حينا وبالعنف السافر أحيانا ، وذلك أثناء ركوبهم الطريق الى القدس برا أو بحرا ، وكان هذا هو المحرض لبوهيموند لغزو بـلاده ومحـاولته الاستيلاء على مدنه وقلاعه .

معـاهدة سـلام بين الامبـراطور وبـوهيموند ـ حلف الأيمان لحفظها :

في سنة ١١٠٨ لتجسيد مولانا المسيح ، وبعد حصار استمر طيلة عام كامل أخفق بـوهيموند في انجـاز أي شيء ملمـوس ، مـع أنه استخدم حيلا حربية كثيرة ضد الامبراطور ، مثلما عمل الامبراطور ضده ، وتوسط الأصدقاء بينهما وأمكن أخيرا الوصول الى معاهدة سلام عقدت بينهما ، وكان ذلك بعدما اقترب الامبـراطور على رأس جيشه من بوهيموند وبعدما التقيا للحوار عدة مرات .

وتعهد الامبراطور ـ بعـدما أقسـم على الآثـار المقـدسة الغالية[١] ـ أن يؤمن منذ ذلك اليوم فصاعدا سلامة الحجـاج ، الذين تردد ذكرهم كثيرا أثناء المباحثات ، وأن يمنع عنهـم الأذى في البـر والبحر في جميع البلدان التي وقعت تحت سلطانه ، وأن لايحتجز أي واحد منهم أو تساء معاملته وأقسم بوهيموند بدوره على أن حافظ

على السلام مع الامبـراطور وأن يمنحه الولاء في جميع الأمور .

ثم رجع بوهيموند بعد هذا الى أبوليا ، وذلك عندمـا سـنحت له الفرصة بذلك وصحب معه عددا ضـئيلا مـن جنده ، في حين سـار القسم الأعظم من الجيش الى القدس ، لكن عبر البحر وذلك تنفيذا لما سلف وتعهدوا به .

وفي هذه السنة توفي فيليب ملك فرنسا .

حصار مدينة طرابلس :

بعد الاستيلاء على مـدينة القـدس بـأحد عشر عامـا أي في العام ١١٠٩ قدم برترام بن الكونت ريموند الى طرابلس ، وكان قد أحضر معه أهل جنوى واسطولهم المكون من حوالي السبعين سفينة من ذوات المناقير ، وهبطوا الى اليابسة هناك ، واستهدف برترام حصار هذه المدينة و الاستيلاء عليهـا وتملكهـا بحـق الوراثـة عن أبيه .

وقد نشب نزاع بين برترام ووليم جوردان فور القاء الحصار على المدينة ، ذلك أن وليم كان يهاجم المدينة طيلة المدة التي انقضـت منذ وفاة ريموند ، الذي كان يسكن في قلعة قرب طرابلس عرفت بـاسم تلة الحجاج ، وحاجج برترام بأن المدينة له بحـق الوراثـة الشرعي عن والده الذي كان البادىء أصلا بمهاجمة طـرابلس ، وقـد شـيد القلعة الحصينة هذه المعـروفة بتلة الحجـاج لغـرض حصـار المدينة ، وقال أوصى لي والدي أثناء حياتـه بمـدينة طـرابلس كي اتملكها بعد وفاته .

ورد عليه جوردان قـائلا : الحـق أن تـكون المدينة لي ، لأنني قمعت سكان البلاد المعادين ، وتصديت لهم منذ وفاة الكونت ريموند

بقواتي الخاصة ، وبذلت جهودي وناضلت في سبيل ضم الأراضي المجاورة للمدينة .

ولما كانت العظمة تضمحل وقت النزاع ، وتنمو التفاهة أثناء انعدام الوئام ، فان وليم تخلى عن متابعة الحصار غضبا وكراهية ، وقام برترام مع رجاله بتشديد الحصار ، فهو لم يرغب في أن يصيب وليم النجاح ، وبالمقابل رغب وليم في أن لايبقى برترام بين الأحياء .

لقد تصارعا من أجل مسائل مشكوك بها ، وارتابا في أمور لاشك فيها ، لقد ناضلا في سبيل متاع الدنيا لافي سبيل القيم الخالدة ، ومن يركض تسرعا قد لايجني شيئا ، لذلك تظل المغانم مشكوك فيها فالأمر « ليس لمن يشأ ولا لمن يسعى بل للرب الذي يرحم » (رسالة بولص الى أهل رومية : ١٦/٩) فقد بدء بالتناحر على ما أملا بالاستيلاء عليه ، وتتصرف الأوقات باذن من الرب « والرب يعرف أن أفكار الانسان باطلة » (مزامير : ١١/٩)

احتلال مدينة طرابلس :

وبعد ذلك بأمد وجيز وصل الملك بلدوين أثناء الحصار ، وقد سأل أهل جنوى تقديم العون له في الاستيلاء على عسقلان وبيروت ، وكذلك على صيدا خلال ذلك العام .

وحدث انه ماان شرع بلدوين في اصلاح ذات البين بين الكونتين السالفي الذكر ، حتى جاء سهم غرب الى وليم جوردان وقتله في حادث لا افهم كنهه ، وحدث ذلك لدى تعرضه لكمين وهو راكب في بعض الليالي ، وتساءل الجميع عمن قام بهذا العمل ، ولكن أحدا

لم يتمكن من اكتشاف الفاعل ، ونتيجة لذلك شعر بعضهم بـالحزن عليه لكن بعضا آخر ابتهج ولم تـظهر عليه آثـار الفجيعـة ، وندب بعضهم وفاة صديق ، وفرح آخرون لموت عدو ، وفي جميع الأحـوال بقي برترام تابعا وفيا للملك بلدوين .

ثم شدد الحصار على طرابلس من جميع الجوانب ، وقد بذل من كان خارجها الجهد العظيم لاحتلالها ، واشتد الضيق على مـن كان في داخلها ، ولما ضاق بالحصار سكان المدينة من المسلمين ، وفقدوا الأمل بالنجاة تم التوصل الى اتفاق أقسم عليه بالأيمان ، وصـدق عليه الملك ، وقضى الاتفاق باعطاء الأمـان للمسـلمين وعدم قتلهـم والسماح لهم بالذهاب حيث أرادوا وبلا ممـانعة ، وبمـوجب هـذا الاتفاق سمح للملك ورجاله بـاحتلال جـزء مـن المدينة والدخـول اليه ، وفي أثناء حـدوث ذلك ، تفجـرت فتنة واندلع الشـغب بين صفوف العامة مـن أهـل جنوى ، وذلك لأمـر غير معـروف السبب ، فتسلق الجنويون الأسوار بالحبال والسلالم ، ودخلوا الى المدينة وقتلوا كل مسلم صدفوه ، بيد أن الحماية قـدمت للذين كانوا بجوار الملك ، وذلك بموجب الاتفاقية التي عقدها .

شعر :

سطعت الشمس في برج السرطان لثلاثين يوما ينقصها ثلاثة .
عندما استولى رجالنا الأشداء بقوة وبأس على مدينة طرابلس .

الاستيلاء على مدينة بيروت :

في الوقت الذي أقعد فيه شهر شباط لعام ١١١٠. البلاد وأقـامها بأمطار الشتاء ، ركب الملك بلدوين الطريق وزحف نحو مدينة بيروت وضرب حولها الحصار ، وقدم الى عونه برترام كونت طرابلس حيث

عسكر عند أول حدود المدينة ، وبعدما حاصروا المدينة من جميع الجوانب لمدة أقدرها بخمسة وسبعين يوما ، وبعدما حاصرت سفننا في داخل المرسى المراكب التي احتشدت هناك لتقديم العون للأعداء ، قرب الفرنجة الأبراج الخشبية ، التي شيدوها ، الى السور ، وقفزوا منها بشجاعة فائقة الى أعالي السور وسيوفهم مشرعة ، ثم انحدروا الى داخل المدينة ، وفي تلك الأثناء دخل عدد كبير من رجالنا من الأبواب ، وهكذا طاردوا العدو المشتت بكل حماسة ، وأخيرا اعتقلوا الذين وجدوهم منعزلين مقطوعين هنا وهناك وانتزعوا منهم أموالهم .

شعر

في سنة الف ومائة وخمس وستين
قهرت شجاعتنا مدينة بيروت الجبارة .
وقد صعدت الشمس ضعف العشرة في برج الثور .
وثلاث وأربع مرات أكثر عندما وقعت هذه الحادثة .

شروع الملك بلدوين والأمير تانكرد بالزحف ضد الأتراك الذين حاصروا الرها :

بعدما انجزت هذه الأمور عاد الملك الى القدس ليقوم بحمد الرب وشكره فهو الذي منحه النصر ، ثم بدأ يتجهز للزحف ضد الأتراك الذين كانوا يحاصرون الرها ، وهي مدينة في بلاد الجزيرة .

وشاهدنا في تلك الأيام مذنبا امتد نحو الجنوب .

وحشد تانكرد أكبر عدد ممكن من الرجال في انطاكية ، ثم انتظر وصول الملك لعدة أيام وأخيرا اجتمعت قواتهما المتعاونة قرب نهر الفرات .

وفور جوازهم للفـرات اصـطدموا بـالأتراك الذين كانوا يبحثـون عنهم ، فقد سبق للأتراك ارسـال العصـابات تـطوف في البـلاد وتتحسس أخبار وصول الملك ، ولم يتجـرأ الأتـراك على مبـاشرة القتال والاشتباك مع قواتنـا لمعرفتهم ببـراعة فـرساننا في القتـال ومقدرتهم على الفتك بـالرماح ، فـركنوا بـكل شـطارة الى التراجع ، فلاهم أقدموا على القتال ولم يبدوا الرغبة في العـودة الى ديارهم.

لقد سعى الأتراك ، لعـدم رغبتهـم بـالقتال ، الى أنهـاك رجالنا ، وذلك طوال عدة أيام بواسطة خـداعهم المضـني ، وبعـد تفحص الأوضاع والبحث عن أفضل ما يمكن القيام به أرسـل الملك الامدادات اللازمة الى مدينة الرها ، وزودها بـالمؤن التـى احتـاج سكانها اليها بعدما كان الأتراك قد دمروا الأحواز ، وسلبوا القرى والفلاحين الذين كانوا يزودون المدينة المذكورة بالأغذية.

ولم يطل الفرنجة المكوث بعد هذا ، بل عادوا نحو النهر السالف الذكر ، وبعدما شرعوا في عبـوره تـدريجيا على طـوافات خشـبية صغيرة وقليلة العـدد انقض عليهـم الأتـراك المخـادعون هناك ، وأسروا عددا كبيرا من الرجالة من قومنا وحملوهم الى بلاد الفـرس ، وكذلك فعلوا بـالأرمن الذين كانوا بـلا حـول ولا طول ، والذين كانوا قد نهبوهم بكل خسة من قبل ، ونظرا لصعوبة معاودة عبور النهـر في ذلك الحين ، تـابع الفـرنجة سـيرهم على طريقهم المرسومة تكلاً قلوبهـم الفجيعـة ، وقـد مضى تـانكرد الى أنطاكية في حين ذهب الملك الى القدس.

الملك بلدوين مع النروجيين يحاصرون مدينة صيدا ويستولون عليها:

وصل في تلك الآونة الى المنطقة قرب يافا جماعة من النروجيين ، بعدما ألهمهم الرب بالقيام بالحج من البحر الغربي الى القدس ، وكان اسطولهم يحتوي على خمس وسبعين سفينة ، ويقودهم شاب عظيم الوسامة يمت بصلة القرابة الى ملك تلك البلاد.

وعندما عاد الملك الى القدس امتلأ قلبه سرورا لمقدم هؤلاء القوم ، فتبادل بود معهم أطراف الحديث ، وحثهم ـ لا بل توسل اليهم ـ أن يبقوا محبة بالرب في الأراضي المقدسة لبعض الوقت حتى يقدموا العون في سبيل نشر اسم المسيحية وتعظيمها ، وإذا ما أحرزوا انجازا بارزا للمسيح ، كان بوسعهم العودة بعد ذلك الى بلادهم ، وقد قدموا عظيم الشكر للرب وأصغوا الى هذا المطلب بعين الرضى ، وأجابوا أنهم لم يحضروا الى القدس الا لمثل هذا الغرض ، وأعلنوا أنهم سيبحرون بكل سرور الى أي مكان أراده الملك ورغب بالتوجه اليه مع رجاله شريطة أن يزودهم بما يلزم لعيشهم ، وتمت الموافقة على هذا الشرط وصدق الطرفان على الاتفاق.

كا ن هناك ميل للزحف ضد عسقلان أولا ، غير أنهم تبنوا أخيرا مشروعا أعظم مجدا ، في أن يزحفوا ضد صيدا ويحاصروها ، وقاد الملك جيشه من عكا ، وتحرك النروجيون من يافا على ظهر سفنهم.

وكان اسطول أمير مصر في تلك الآونة يكمن مختبئا في ميناء صور ، فمن صور شن المسلمون الغارات القرصانية مرارا على

حجاجنا المسيحيين ، وبذلك قدموا الحمـاية والتشـجيع الى المدن البحرية التي كانت ما تزال تابعة لسـلطان ملك مصر ، لكن بعـدما سمع المسلمون بأخبار النروجيين لم يتجاسروا على الخـروج مـن مرفأ صور والدخول في معركة معهم.

ولما وصل الفرنجة الى صيدا حاصرها الملك من البر وحـاصرها اسطول النروج من البحر ، وبعدما اكتمل اعداد آلات الحصار ، دب الرعب في قلوب الأعداء مـن وراء الأسـوار ، الى حـد أن قـوات المرتزقة التي كانت تتولى حمايتها توسلت الى الملك بلدوين أن يأذن لها بالذهاب بأمان ، وإذا رغب فله أن يستبقي في المدينة الفـلاحين للافادة في زراعة الأرض.

كان هذا ما طلبوه ، وذلك ما نالوه ، فغادر الجند مـن المرتـزقة بدون ثرواتهم ، ومكث الفلاحون بأمان في ظل الشروط المبينة أعلاه.

شعر:

أشرقت الشمس تسع عشرة مرة في برج القوس
عندما استولوا على مدينة صيدا في كانون الأول.

الأتـــراك يثيرون المتــــاعب ، وحملة الملك بلدوين وتانكرد ضدهم:

انطلقت في سنة ١١١١ حشود هائلة من الأتراك من بلاد فارس و اجتازوا بلاد الجزيرة وعبروا نهر الفرات ، ثم حاصروا قلعة تـل باشر ، وأقاموا حولها مدة شهر ، وعندمـا عجـزوا عن احتـلالها لمتانة أسوارها ومناعة مـوقعها ، ضـاقت صـدورهم بسـبب

التأخر ، ورفعوا الحصار وانسحبوا الى أحواز حلب ، لأنهم خططوا بدهاء الى اثارة تانكرد واستدراجه ليخرج الى قتالهم ، لأنه لوفعل ذلك كان بامكانهم - لكثرة أعدادهم - أن يوقفوه بعيدا عن انطاكية ويدمروه كليا.

لكن تانكرد تصدى للدهاء بالدهاء حيث لم يدر بمخيلته تعريض سمعته للشبهات باقتراف أفعال هوجاء ، فبعث برسول الى الملك بلدوين يتوسل اليه بكل تواضع أن يسارع لمد يد العون الى القضية المسيحية ، ولما سمع الملك بذلك وعد بتقديم العون المطلوب ، فاستخلف من ينوب عنه في ادارة البلاد ، وزحف نحو الحرب واصطحب برترام كونت طرابلس ، وعندما وصلوا الى البلدة التي تعرف باسم الروج قرب المعرة كان تانكرد هناك ، فقد وصل منذ خمسة أيام و أقام ينتظر وصول الملك ، و قد استقبله بكل سرور و غبطة ، فأنزلوا أثقالهم ، و أقاموا معسكرهم قرب نهر العاصي ، وشارك رجال القدس رجال أنطاكية في معسكرهم ، ولم يمكثوا هناك طويلا ، بل زحفوا نحو مدينة أفامية ، وكانت تحت سلطان تانكرد الذي سبق له أن استولى عليها بطريقة مثيرة للاعجاب لما فيها من اقدام.

ثم زحف الفرنجة ثم الاتراك الذين كانوا قد عسكروا أمام المدينة التي يدعونها « سيارا » وفي الحقيقة لا أعرف كيف ألفظها بلغة سليمة ، ولكن سكان البلاد كانوا يسمونها « شيزر » وهي تبعد نحو من ستة أميال من أفاميا ، وعندما سمع الأتراك أن الفرنجة كانوا يتقدمون نحوهم ، تخفوا خلف تحصينات شيزر وبين بعض الشجيرات التي كانت هناك ، وذلك بهدف احكام الدفاع عن أنفسهم إذا ما أحاط الفرنجة بهم أو انقضوا عليهم وعلى الرغم من ذلك فقد انبعث الأتراك من بين تحصيناتهم الموصوفة عندما رأوا جنودنا يقتربون منهم ، وأروا أنفسهم لرجالنا ، ومع هذا لم يتجرأوا على الحرب ولم يرغبوا أيضا بالفرار.

واصطف جنودنا في فصائل ، وعندمـــا رأوا الأعداء يتـــراكضون هنا وهناك دون تعبئة للقتال ، أحجموا عن مهاجمتهم غير راضــين بالمغامرة ، وهكذا تحت تأثير الخوف ولدهاء الطرفين بقي الأتـــراك حيث هم وعاد رجالنا من حيث أتوا.

وعندما شحت الأغذية وانعدمت العلوفات لم يعد بامكان الفرنجة البقاء مدة أطول فرجع الملك الى القدس ، ومضى تـــانكرد عائدا الى انطاكية.

الملك يحاصر صور دون أن ينجز شيئا :

وبادر الملك بعد ذلك بكل سرعة باعداد العدة والتجهز للزحف ضد صور ، التي تـــدعى بـــالعبرانية « ســـور » وضرب عليهـــــا الحصار ، وبعدما ضيق الخناق عليها بشدة لنيف واربعة أشهر هده ورجاله التعب ونالهم الاعياء ، فانسحب بعد تردد ، فقـــد كان أمـــر ببناء برجين خشبيين يكونان أعلى الســـور ، ودفعهمـــا الى جـــوار الأسوار آملا بذلك في أن يستولي على المدينة ، ولكن المسلمين وقـــد أدركوا أن في ذلك حتفهم هزموا البراعة بالبراعة ، وعارضوا الدهاء بالدهاء وتصدوا للشجاعة بالشجاعة.

وكانوا عندما رأوا أن ارتفـــاع البرجين اعلى مـــن فـــوق الأســــوار بكثير ، ابتكروا العلاج على عجل فشيدوا برجين فـــوق أســـوارهم أثناء الليل ، وقد مكن ارتفاع هذين البرجين الشاهقين المسلمين من الدفاع عن انفسهم بنجاح حيث أشعلوا النيران من الأعلى وقذفوها على برجينا القصيرين ، وبهذه الوســـيلة هـــزم رجـــالنا وغمـــرهم اليأس ، وعندما انقطعت أخر حبال الأمل رجع الملك الى عكا.

يقول المثل المتداول بـــكل صـــدق « كم مـــن غصـــة بين الكأس

والشفة » فقبل تلك الأونة كان قومنا يتوازعون الغنائم التي توقعوا نيلها ، وقبل ذلك الوقت شك بعضهم بسواهم وارتابوا حول حصصهم ، وقبل ذلك الحين قدروا أن احتلال المدينة أمر واقع لا ريب فيه ، وقد قال سليمان: « الفرس معد ليوم الحرب أما النصر فمن عند الرب » (الأمثال: ٢١ / ٣١) ففي تلك الأثناء وضع الناس ثقتهم بقوتهم ولم يتذكروا ما مادانوا به للرب ، وكانوا كثيرا ما يناشدونه بألسنتهم ويبتعدون عن صالح الأعمال ، ويتفاخرون بفضائلهم في انتصاراتهم أكثر من تمجيدهم لمنح الرب ورحمته.

موت الأمير تانكرد:

سدد في عام ١١١٢ تانكرد الذي حكم امارة انطاكية ـ دينة للموت ، وقد رأت الشمس شارة البرج ثلاث عشره مرة مضاعفة عندما خدع تانكرد لمن لايرحم ، وتحقق ماكتب عليه وكان ، وخلفه قريبة روجر ، وقد سلمنا من الحلول كلية في تلك السنة .

العلامات التي ظهرت:

في عام ١١١٣ لتجسيد الرب ، وفي اليوم الثاني والعشرين لبزوغ قمر شهر اذار ، رأينا الشمس منذ الصباح الباكر حتى الساعة الاولى ، وفضلا عن هذه رأيناها تبهت ويخبو نورها في واحد من اجزائها ، ثم مالبث أن هبط ذلك الجزء الذي بدأ بالخبو من أوجها الى قعرها على هيئة مدورة ، وفي اعتقادي لم تفقد الشمس سطوعها و لم يتضاءل نورها الا في واحد من أرباعها الذي ظهر على شكل هلال صغير.

- ٨٥٠ -

شعر:

كان ذلك كسوفا جعل الشمس تخذلنا

المعركة ضد الأتراك التي هزم فيها الملك مع المسيحيين ونجم عنها شر مستطير:

وما لبث الأتراك ان حشدوا قواتهم في ذلك الصيف وعبروا نهر الفرات على نية الزحف نحو القدس وبلادها ليدمرونا حسبما خيل اليهم ، وزحفوا جنوبا مخلفين منطقة انطاكية عن يمينهم ، واجتازوا سورية المجوفة بين صور وقيسارية فيليب التي تعرف باسم بانياس وقصدوا مناطق فينيقية ، واستهدفوا مهاجمة الملك بلدوين ، الذي ما أن سمع بقدومهم حتى زحف على رأس قواته من عكا للتصدي لهم.

وبعدما تزود الأعداء بما راوه نافعا لهم ، وبينما كنا في جهل تام لما يقصدون داروا حول بحيرة طبرية عابرين لمنطقتي « نافتالي » (افيق) وزبيلم (الصنبرة) نحو الجهة الجنوبية من البحيرة المذكورة ، وهناك وجدوا انفسهم بين جدولين يدعيان جور ودان(؟)

وكان هناك جزيرة وقعت بين جسرين (جسر الصنبرة) في ذلك المكان ، وقد كانت حصينة جدا ، بحيث لا يقدر أحد أن يهاجم من يتحصن فيها لضيق مداخل الجسرين ، وعندما أقام الأتراك معسكرهم ، بادروا فورا بارسال الفين من رجالهم عبروا واحدا من هذين الجسرين ليعدوا كمينا لرجالنا ، فقد كانوا على ثقة من أن الفرنجة سيندفعون نحو ذلك الموقع بدون تردد.

- ٢٨٥١ -

وعندمـــا جـــاء الملك ليعســـكر قـــرب الجسر المذكور والمفضي الى طبرية ، رأى نحو خمسمائة من الاتـــراك يندفعـــون مـــن مـــكمنهم ويحملون على رجالنا ، فمـــا كان مـــن بعض هؤلاء الا أن هـــاجموا الأتراك وحملوا عليهم ولم يترددوا وهم يقتلونهم في مطاردة أعدائهم الى موقع الكمين ، وهنا انبعث الفان مـــن رجـــال العـــدو مـــن مكامنهم ، وصدوا رجالنا بهجوم شديد جـــدا ، وشـــتتوهم بعـــدما صرعوا منهم نحو ثلاثة أضعاف ما خسروا هم أنفسهم.

يالهول الفاجعة ، لقد جلبت أثـــامنا خـــزيا عظيمـــا علينا في ذلك اليوم ، فقد هرب الملك بعدما فقد رايته وخيمته الفاخرة وكثيرا مـــن المفروشات والأوعية الفضية ، كما هرب البطريرك أيضا ، فقد كان هناك ، وفقدنا قرابة ثلاثين من خيرة فرساننا وحوالي الف ومائتين من رجالتنا.

« طلعت الشمس في برج السرطان ثلاثة أضعاف الأربعة
عندما شتت هذا الجنس الذي لادين له الفرنجة المتهورين ».

غير أن قوات الملك لم تكن قـــد وصـــلت جميعهـــا بعـــد الى ذلك المكان ، وعلى الأخص لم يكن هناك روجـــر بـــن رتشـــــارد أمير انطاكية ، وكان قد استدعي باسم محبـــة الرب والملك ، فقـــدم مـــن انطاكية على عجل ، وكان بعض رجال انطاكية قد انضموا قبل الآن الى الجيش الملكي ، واصـــيب الجميع بـــالأسى واليأس العـــــظيم وشجبوا بحـــــزن عميق طيش الملك في اندفـــــاعه نحـــــو العـــــدو بحماقة و رعونة دون التأني للمشاورة و العون .

ولما لم يعد في مقدور رجالنا ايقاع أي ضرر بين صفوف الاتـــراك عسكروا غير بعيد عنهم ، وراقب كل فريق الفريق الآخـــر طيلة ذلك اليوم.

وكان قائد الأعداء يحمل اسم مودود ، وكان معــه طغتــكين ملك دمشق وحليفه ، وقاد مودود قوة عملاقة وحشد طغتكين حشــودا لا تحصى من أطراف سورية الواقعة تحت سلطانه.

وكان الاتراك معسكرين في الأراضي المنخفضة بينما وقف الفرنجة فوق المرتفعات ، ولم يتجرأ الاتراك على الخروج من جزيرتهم ، ولم يستطع الفرنجة مهاجمتهم ، فلقد خطط لذلك أحد الطرفين ، وخاف الطرف الآخر ، الحقيقة كان أحد الطرفين ماكرا بينما كان الطــرف الآخر مهدودا من التعب

« وقد اثقلت حرارة الصيف الوطأة على الطرفين
غير انهما لم يستطيعا وضع حد لذلك العذاب »

وتساءل الفرنجة الغــائبون عن ســبب طــول تــأخر الذين كانوا هناك ، وتخلى السراسنة (الكاسيليا ــ الفلاحون) التــابعون لنا عنا وهجــرونا ، وحــاصرونا كأعداء لنا ، حــاصرونا مــن كل جانب ، زد على هذا خرجت زمر من الأتراك مــن جيشــهم لتــدمر بلادنا ولتبعث بالمؤن والغنائم الى جيشهم بوساطة السراســنة ولم يكتف الأتراك بالاستيلاء على مدينة نابلس بل دمــروها بمســاعدة السراسنة الذين كانوا تحت سلطاننا في الجبال.

فضلا عن هذا تقدم أهل عسقلان وهــم عرب وسراســنة ، على الرغم من قلة عددهم ، نحو القدس ، حتى وصلوا في أحد الأيام الى سور المدينة الخارجي ، وأشــعلوا النيران في المحــاصيل المجمعــة هناك ، وأصابوا بنشابهم بعض رجالنا الذين كانوا وراء دفــاعاتهم فوق الأسوار وجرحوهم ، غير أن عددا كبيرا من رجالهم أصــيبوا بجراح مميتة ، هذا ولم يكن جنودنا في المدينة لأنهم كانوا قد خرجوا للتصدي للعدو ، وتراجع أهالي عسقلان في اليوم التــالي ممــا جلب

ارتياحا كبيرا لرجالنا الذي ارتجفت قلوبهم من الحصار على يد هؤلاء القوم.

الرعب الشديد الذي دب في قلوب الجميع:

لقد بات من المحال في تلك الآونة ـ بسبب كمائن العدو ومصائده ـ أن يغامر أي رسول نبعثه الى الملك ، او أن يصل أي رسول منه الى أي مدينة من مدننا ، لذلك لم تعرف البلدان ما الذي كان يفعله الملك ، و لم يتمكنوا بدورهم من اعلام الملك بالذي كانوا يفعلوه.

« في كثير من الحقول نبل الحصاد الناضج
ولم يذهب أحد الى الحقول ليجمعه» (متى ٩/٣٧)

على هذا لم يجرؤ أحد على فعل ذلك ، وكان الحصاد في تلك السنة وفيرا ، لكن ماالفائدة ، فعندما يثور البحر يخشى الرجال أن يصطادوا ، فقد أصاب الشك كل شخص حول كل أمر ، وانتظر الجميع ليروا إلى من سيعطي الرب النصر ، وتوقف مسيحيونا عن متابعة أعمالهم وأشغالهم باستثناء إصلاح الأضرار التي لحقت بالمدن وبأسوارها .

الزلزال وزواج الملك من كونتسية صقلية :

شعرنا في تلك الآونة بالزلزلة مرتين وبالتحديد في اليوم الخامس عشر قبل مطلع شهر آب ، ثم في اليوم الخامس قبل منتصف الشهر نفسه ، وحدثت الهزة في المرة الأولى عند منتصف الليل وجاءت الثانية عند الساعة الثالثة .

وانتظر الأتراك في تلك الأثناء مدة شهرين بكل مكر لحلول الوقت الموائم لتمزيق صفوفنا وتمزيقنا والحاق الهزيمة بنا ، لكن عبثا فعلوا وجاء مكوثهم بلا جدوى ، لأن الحجاج كانوا يصلون في ذلك الموسم حسب عادتهم عبر البحار ، وبذلك تضاعف عدد جيشنا يوما إثر يوم ، علاوة على ذلك لم يتخل عنا رجال أنطاكية ومكثوا معنا ، وانسحب أخيرا الأتراك نحو مدينة دمشق .

وتراجع الملك ورجاله نحو عكا ، وهناك وجد كونتسية صقلية ، وكانت من قبل زوجة للكونت روجر أخو روبرت غويسكارد ، وقد قدر لها الآن أن تصبح زوجة للملك بلدوين .

وبعد هذه الحادثة بوقت قليل اغتيل مودود على يد أحد « السراسنة » وكان هذا قد أخفى مدية تحت ردائه فطعن بها ضحيته في معدته ، وهكذا اقترف جريمة مزدوجة إذ أنه قتل وقتل في الحال على أيدي الحضور ، وإن النصر الذي يؤدي إلى هزيمة المنتصر لسيء الطالع ، فهذا ماحدث ، حسبما جاء في أقوال الفلاسفة : « السعد من زجاج ما أن يتألق حتى ينكسر » .

وكان مودود وافر الثروة ، عظيم السطوة ، ذائع الصيت بين الأتراك ، وكان عظيم الهمة حازما في أعماله ، غير أنه لم يستطع مقاومة إرادة الله ، فقد شاء الله فأذن له أن يكون وباء علينا لبعض الوقت ، غير أنه شاء بعد ذلك أن يموت ميتة شنيعة على يد رجل نكرة .

الزلزلة التي شعر بها في أماكن عديدة :

زحفت في سنة ١١١٤ م أسراب لاتحصى من الجراد من بعض

اجزاء شبه جزيرة العرب ، وطارت إلى ديار القدس ، وقد أصابت في شهري نيسان وأيار محاصيلنا والحقت بها اضرارا بالغة .

وحصلت فيما بعد في عيد القـديس لورنس (١٠ ـ أب) زلزلة ، وجاءت هزة ثانية بعد ذلك في منتصف تشرين الثاني فدمرت شـطرا من مدينة المصيصة ، وهزت زلزلة أخرى عظمى ـ وكانت أشد مـا سمعنا عنه على الأطلاق ـ منطقة انطاكية ودمـرت جـزئيا أو كليا عددا من البلدان بما في ذلك البيوت والأسوار ، وقد هلك بعض عامة الناس وماتوا خنقا تحـت الردم ، وذكر أن تلك الزلزلة قـد دمـرت مدينة مرعش التي اظنها تبعد حوالي الستين ميلا إلى الشمال مـن انطاكية فهناك دمرت البيوت والأسوار برمتها ، أما السـكان الذين عاشوا هناك فقد هلكوا ـ واأسفاه ـ وأبيدوا عن بكرة أبيهم ، كما ودمرت مدينة أخرى تدعى بالس (تريالثر) على مقـربة مـن نهـر الفرات .

حشد الجيش التركي وحصار يافا على يد أهل عسـقلان والقاهرة :

استأنف الأتراك في عام ١١١٥ م عنفهـم وجـراتهم المعهـودة ، وتسللوا عابرين نهـر الفـرات في حـزيران ، ودخلوا إلى سـورية وعسكروا فيما بين انطاكية ودمشق ، وبالتحديد أمام مدينة شيزر ، وكانوا اتخذوا لأنفسهم هنا موقعا مماثلا منذ أربع سنوات خلت كما سلف بنا الذكر .

واكتشف طغتكين ذلك ، وعرف أنه لن يكون أقل مدعاة للاحتقـار والريبة في نظر هؤلاء الأتراك عما هو في نظرنا نحن المسيحيين ، لأنه كان مطلعا غدرا وخيانة على مؤامرة اغتيال مودود التي أشرنا إليها في العام الماضي ، وذكرنا أن مودود هذا كان قـائد الجيش الأعلى ،

ولهذا أحل طغتكين السـلام بينه وبين كل مـن الملك بلدوين والأمير روجر صاحب انطاكية ، وهكذا أضيف جيش ثـالث إلى جيش الملك والأمير ، وأقيم ـ إذا جاز التعبير ـ رباط ثـلاثي ، لم يستطع الأتراك فصم عراه بعد ذلك بسهولة ، فلقد خشي طغتكين انه لو بقـي منفردا أن يتم تدمير مملكته كليا .

وحضر الملك بلدوين إلى المنطقة للمشاركة في المعـركة التـي خيل إليه أنها لابد واقعة ، وجاء بناء على مشورة تلقاها من بعثة من انطاكية ، وعندما سمع الأتراك بقدومه وأنه بات على مقـربة منهـم خيل إليهم أن ذلك ما هو إلا مقدمة لجيوش انطاكية ودمشق ، فهـذا ما كانوا يتوقعونه منذ ثلاثة أشهر ، وانسحب الأتـراك وتـراجعوا خائفين بهدوء ، فقد خافوا على أرواحهم إذا مـاقاتلوا ضـد جيش بهذا الحجم ، مع أنهم فاقوه كثيرا بالعدد ، ودخلوا إلى المغائر التي تبعد كثيرا عنا ، وعندما فعلوا ذلك خيل للملك ولحلفائه أن الأتـراك قد غادروا منطقتنا بالكلية ، ولذلك توجه الملك إلى طرابلس .

و في خلال هذه المجريات ، اندفع نحونا رجال عسقلان لمعرفتهم أن بلاد القدس خالية من جنودها ، وحاصروا يافا برا وبحرا ، فقد كان هناك أسطول مصر المكون من حوالي السبعين قطعة بحرية بعضـها ثلاثية المجاذيف وبعضها الآخر من السفن المعقوفة ، وقسـم منهـا كان يحمل المؤن المعدة لهذه الحملة ، ووصل رجال عسقلان بعضـهم برا وبعضهم الآخر بحـرا ، واقتـربوا مـن أسـوار المدينة وكانوا مجهزين للهجوم عليها ، وعندما بذلوا غاية جهدهم لتسلق الأسـوار بوساطة السلالم التي أحضروهـا معهـم ، صـدهم سـكان المدينة ودفعوهم بشدة مع أنهم كانوا قلة في العدد ، قد أضعفهم المرض .

ولما رأى أهل عسقلان انهم لم ينجزوا شيئا حسـبما خـططوا ، سوى طرح النار في أبواب المدينة خافوا أن يبعث أهل القـدس الذين سمعوا بالأخبار العون إلى أهل يافا لذلك انسحبوا ، ورجـع الذين

قدموا برا إلى عسقلان أما الذين قدموا بحرا فقد عادوا إلى مدينة صور .

وبعد عشرة أيام عاد أهل عسقلان إلى يافا ظنا منهم أنهم إذا كانوا على أتم استعداد فسيتمكنون من تدمير عدوهم بهجوم صاعق لاسيما إذا كان على غير استعداد ، ولكن الرب الكلي القدرة ، حمانا وأنقذنا مثلما فعل في الماضي ، وقتل الفرنجة أثناء الدفاع عن أنفسهم بعض الأعداء ، واستولوا على خيولهم وبدأ أهالي عسقلان حصارهم ليافا بضربها بالمجانيق ثم حاولوا اقتحامها كما جربوا من قبل ، بتسلق السلالم التي جلبوها معهم على ظهر القوارب الصغيرة ، وخلال ست ساعات من القتال أنهكت قواهم فانسحبوا آسفين يحملون معهم موتاهم .

معركة بين الأتراك و رجال أنطاكية حاز فيها الفرنجة نصرا مؤزرا:

وعندما اكتشف الأتراك السالفي الذكر أن جيشنا قد عاد إلى بلاده ، رجعوا إلى مواقعهم التي ذكرناها من قبل ، وعاثوا فسادا في أراضي سورية المجوفة ، فاستولوا على ما أمكنهم من القلاع ، ونهبوا القرى ودمروا الدساكر وأخذوا النساء والرجال أسرى .

وعلم رجال انطاكية بذلك بعد انسحابهم ، فارتدوا كارين على عجل ، وزحفوا ضد الأتراك عبر الطريق التي غادروا منها ، وعندما اقتربوا من الأتراك وجدوا أن معسكرهم كان أقرب مما خيل إليهم فوضعوا إنفسهم في تعبئة المعركة ، وانحدروا على الفور نحو منطقة المعسكر وكانت خيولهم تعدو بهم مسرعة نحو العدو وراياتهم مشرعة ، ونشب القتال قرب بلدة سرمين .

وحين راى الأتراك الفرنجة ، أبدى فيلق رماة السهام منهم مقاومة شديدة في الحال ، غير أن روح الحماسة والشجاعة الفائقة ازدادت تأججا في صدور الفرنجة ، فآثروا هزيمة أعدائهم - بعون الرب - أو أن يموتوا - بإذن الرب - على أن يتحملوا تحرشات الأتراك هذه كل عام ، لقد انقضوا على الأعداء بضراوة مذهلة وشددوا عليهم حيث راوا تجمعاتهم على أكثفها .

وفي البداية قاوم الأتراك لبعض الوقت ، ثم هربوا فجأة من أمام الذين فتكوا بهم وأهلكوهم ، وقد قدر عدد القتلى من الأتراك بثلاثة آلاف كما وقع بالأسر عدد كبير منهم ، أما الذين نجوا من الموت والأسر فقد لاذوا بالفرار ، ففقدوا خيامهم التي احتوت على كثير من الأموال والذخائر ، وقد قدرت الأموال بثلاثمائة ألف قطعة ذهبية ، وخلف الأتراك في معسكرهم الأناس الذين كانوا قد أسروهم من شعبنا من الفرنجة والسريان ، كما خلفوا زوجاتهم وخدمهم من الجواري مع كثير من الجمال والدواب التي أحصي بينها آلاف البغال والخيول .

لاشك أن الرب رائع في جميع معجزاته ، فعندما كان رجال القدس ومعهم رجال انطاكية ودمشق مستعدين لخوض المعركة لم ينجزوا شيئا أبدا ، لأنه متى كان نصر المحاربين يعتمد على عدد الرجال ؟ تذكر المكابيين (المكابيون : ١ / ١١ ٠ يهوذا : ٦ / ٨) وكثير غيرهم من الذين وضعوا ثقتهم بقوة الرب لابقوتهم فانتصروا على الآلاف المؤلفة .

وبالوصف التالي ستعرف الأجيال المقبلة هذه الحوادث :

« ومرت ليال ثلاث قبل أن ينقضي برج العذراء عندما تخلى الحظ العاثر عن الأتراك بقسوة فمن الجلي إذن : إن على الجميع أن يحسبوا أنه قبل نهاية أي مسألة ينبغي ألا يعتبر أي أمر مؤكدا »

ودمرت في تلك السنة مدينة المصيصة بفعل الزلازل ، وقد تضررت أماكن أخرى في منطقة أنطاكية بمثل ذلك .

ووصل في تلك السنة أسقف اورانج مبعوثا إلى القدس من قبل كرسي البابوية ، فعزل البطريرك أرنولف من منصبه ، ولهذا السبب توجه أرنولف إلى روما واسترد بطريركيته فيما بعد .

القلعة التي جرى تشييدها في وادي عربة :

قصد الملك بلدوين في ذلك العام وادي عربة وشيد هناك قلعة منيعة على قمة جبل صغير ، وهي لاتبعد كثيرا عن البحر الميت ، مجرد مسيرة ثلاثة أيام ، وتبعد عن القدس حوالي أربعة أيام ، وقد أبقى فيها حامية لتتسلط على المنطقة حماية لصالح المسيحيين ، وقرر أن يسمى تلك القلعة مونتريال (الشوبك) وذلك تمجيدا لنفسه لأنه بناها في فترة قصيرة ، بعدد قليل من الرجال وكثير من الشجاعة .

حملة الملك إلى وادي عربة وما شاهده هناك :

عندما ذهب الملك مع قرابة المائتي فارس لزيارة قلعته ثانية في وادي عربة وذلك في عام ١١١٦ ، تقدم حتى طرف البحر الأحمر ليرى ما لم يشاهد من قبل على أمل أن يجد شيئا في طريقه قد يرغب في اجتيازه ، ووجد في ذلك الوقت مدينة أيلة على شاطىء ذلك البحر حيث قرانا أن بني اسرائيل قد عسكروا هناك بعدما عبروا البحر ، ولدى سماع العرب المقيمون هناك بأخبار قدوم الملك هربوا وركبوا البحر في قواربهم الصغيرة بعدما أصابهم هلع شديد ، وبعدما تفقد الملك ورجاله الموقع كما طاب لهم ، عادوا إلى القلعة في مونتريال (الشوبك) ومنها توجهوا عائدين إلى القدس .

وعندما حدثونا عن مشاهداتهم ، سررنا لسماع رواياتهم ولرؤية الأصداف البحرية وبعض الأحجار الكريمة التي أحضروها معهم ، وقد استفسرت أنا منهم شخصيا عن ماهية هذا البحر ، ذلك أنني كنت قد تساءلت في تلك الأثناء عما إذا كان مالحا أو عذبا ، وهل كانت مياهه راكدة أم هي مثل مياه البحيرة ، وهل كانت له مداخل ومخارج مثل بحر الجليل (طبرية) وعما إذا كان محدد الأرجاء كالبحر الميت الذي يصب فيه نهر الأردن ، ولايخرج منه شيء ، ذلك أن البحر الميت تحده من الجنوب زغر مدينة لوط (سفر التكوين : ١٣ / ١٠ ، ١٩ / ٢٢ ـ ٢٤)

البحر الاحمر :

اطلق على هذا البحر اسم الاحمر لان الرمل والحجارة في قاعة حمراء ، فهو لهذا يبدو للناظر كأنه احمر ، لكن مياهه رائقة صافية اذا وضعت في وعاء ، مثلها مثل مياه اي بحر اخر ، ويقولون : ينبع هذا البحر من المحيط في الجنوب ، ويمتد كلسان شمالا الى أيلة التي اشرنا اليها، حيث ينتهي على مقربة من جبل طور سيناء الذي يبعد عنه مسيرة يوم واحد للراكب على الحصان .

ويقدرون ان الرحلة من البحر الاحمر ، او بالحري من أيلة الى البحر الكبير ، الذي نبحر فيه من يافا وعسقلان الى دمياط ، تستغرق حوالي اربعة ايام او خمسة على ظهور الخيل ، وتضم هذه المنطقة فيما بين هذين البحرين كل من نوميديا ومصر والسودان التي يحيط بها نهر جيحون ، وهو نهر الجنة الذي هو نهر النيل كما قرأنا (التكوين : ٢ / ١٣).

نهر جيحون :

كنا قد قرأنا كيف يخرج نهر جيحون (النيل) من الجنة مع انهار ثلاثة إخرى ، وهذا يدهشني ، ولااقدر على تفسير : كيف ، وبأي طريقة ، وجد مصدرا اخر يصب فيه ؟ ذلك ان البحر الاحمر من ناحيته الشرقية ، وبحرنا من ناحيته الغربية ، فبينه وبين الشرق يقوم البحر الاحمر ، ومع هذا نقرأ ان الجنة قائمة في الشرق ، ولذلك انني استغرب كثيراً كيف يتابع مجراه في هذه الناحية من البحر الاحمر ، وكيف يقطع البحر ، او فيما اذا كان فعلاً يقطع البحر .

الفرات :

ويقال الامر نفسه عن نهر الفرات ، الذي له مصدر اخر في ارمينية ، فيقطع بلاد الجزيرة على بعد حوالي اربعة وعشرين ميلا من الرها على ما اظن .

دع من اراد ان يتساءل عن هذا السبب ، واترك من يستطيع ان يعرف السبب ، فقد جربت مرارا ان اعرفه بسؤال عدة اشخاص ، غير انني لم اجد ابدا من استطاع ان يفسره لي ، وانني ادع هذا التفسير للذي يرفع الماء الى السحب بقدرته المعجزة ، ويرفع الجداول الى الجبال والتلال ، ويجعل مياه الوديان تنساب بين صدوع الاخاديد الخفية ، الى ان تجد البحر في نهاية المطاف وتبتلع في احشائه .

وعندما قاربت هذه السنة على الانتهاء ، اصيب الملك بمرض ازداد تعاظما حتى خشي من الموت ، لذلك صرف اديلدا زوجته

الجديدة ــ كونتسية صقلية من قبل،التي تقدم ذكرها ، والتي كان قد تزوجها خلافا للناموس ــ ذلك ان التي كان قد تزوجها قانونيا قبلها كانت ماتزال على قيد الحياة في مدينة الرها .

جائحة الجراد الكبيرة :

غادرت الملكة المذكورة ميناء عكا في عام ١١١٧ لتجسيد مولانا المسيح ، وذلك في اليوم الذي انشدوا لها فيه الصلوات المؤلفة من جملة من الابتهالات حسب طقوس الكنيسة ، وقد سافرت بحرا الى صقلية وبرفقتها سبع سفن .

وعجت اراضي القدس في شهرايار بأسراب لاتعد ولاتحصى من الجراد التي التهمت اكثر مما هو معتاد الكرمة ومحاصيل الحقول والاشجار على مختلف انواعها ، وكنت تشهد هذه الاسراب تزحف مثل جيش منتظم من الرجال كما لو انهم عقدوا المشورة ونظموا زحفهم حسب اتفاق ، وبعدما كانوا يقضون رحلة يومهم زاحفين وبعضهم طائرين كانوا يختارون بالاتفاق مرقدا مريحا لأنفسهم ، وهكذا عندما التهموا كل ماهو اخضر وقضموا حتى لحاء الشجر ، غادرت اسرابهم بعضها مجنح وبعضها الاخر زحاف بلا اجنحة .

سحقا لحماقة الرجال الذين يمعنون في ضلالهم المؤذي ، فكثيرا ومرارا مايلامسنا الخالق بتحذيره ويرعبنا بنذره ، ويحركنا بوعيده ، ويرشدنا بعبره ، ويكبحنا بعقابه، غير اننا نمعن في غينا ولانصغي الى نصحه ونخرق تعاليمه بازدراء .

ما وجه الغرابة والحال هكذا اذا ما انتزع السراسنة ــ او اناس اشرار سواهم ــ منا بلادنا ، بينما نمد نحن انفسنا يد اللصوصية الى حقول جيراننا ، فنحن نحتال بالفعل بثلم المحراث ، او بسبلهم

خفية بأعمال جشعة منكرة ، وهكذا نزيد ثرواتنا اثما بوضع ايدينا على ممتلكاتهم .

فما وجه الغرابة ، اذا ماأذن الرب ، وقضمت الفئران محـاصيلنا من جذورها في الارض وهي في حـالة البـرعمة ، او اذا مـاالتهمها الجراد بعد نضجها ، او اذا ماأصابها العطب في المخـازن بسـبب التعفن ، او التهمتها الديدان من كل نوع ، بينما نبيع نحن ضـلالا اعشار الرب ، او نحتفظ بها كلية مدنسين المقدسات .

شارات القمر :

في الشهر التالي الذي صادف شهر حزيران ، بدا القمر لمن كان منا ينظر الى السماء بعـد وقـت صـياح الديك ، ولونه احمـــر كليا في البداية ، غير ان الاحمرار مالبث ان تغير الى سواد ، حتى ان القمر فقد قوته الضوئية مدة ساعتين تقريبا ، ووقع هذا في اليوم الثـالث عشر من الشهر ، ولو وقع في اليوم الرابع عشر لكنا ظنناه خسـوفا بدون شك .

لذلك عددنا ذلك نذيرا ، وخيل الى بعضهم انه بسبب الاحمرار سيسفك الدم في القتال ، و بسبب السواد ظن آخـرون أن المجـاعة قادمة ، غير اننا سلمنا الأمور للعناية الربانية ،فـالرب قـد أخبـر رسله أنه ستكون هناك علامـات في الشمـس و القمـر (لوقـا ٢١ / ٢٥ و تكون علامات في الشمس والقمر و النجوم) .

فالرب اذا شاء يجعل الأرض تهتز ثم تسكن ، و قد تتابع وقـوع ذلك في الشهر نفسـه في ليلة سـاد فيهـا السـكون ، و ذلك في اليوم السادس قبل بداية شهر حزيران.

- ٢٨٦٤ -

القلعة التي بنيت قرب صور :

ثم بنى الملك امام مدينة صور قلعة تبعد عنها مسافة خمسة اميال ، وقد سماها سكاندليون وتفسير هذا الاسم « اسد الحقل » وقد رمم صدوعها ، وترك فيها حامية لتتولى كبح جماح سكان صور .

العلامة المدهشة التي ظهرت على الشمس :

في الليلة الخامسة من شهر كانون الاول مـن السـنة نفسـها بعـد خسوف القمر الذي حصل في الثـالث عشر مـن ذلك الشـهر ، راينا جميعا في بداية الليل ، السماء الشمالية وقد خطها شعاع مـن لون فاقع من النار و الدم، وقد تولتنا الدهشة كثيرا اذ حسبنا أن هذه الظاهرة حبلى بالنذر المريبة ، وشاهدنا في وسط هذا اللاحمـرار ، الذي اخذ يتزايد شيئا فشيئا اشعة بيضاء كبيرة اخذت تتعالى مـن القعر نحو القمة مرة في المقدمة ومرة في المؤخرة ثم في المنتصف وبدت السماء في الجزء المنخفض فاقعة اللون ، مثل لونها عند طلوع الفجر حين توشك على الاضاءة قبيل شروق الشمس ، وشاهدنا امام هذه الظاهرة من الناحية الشرقية بياضا كأنه القمـر وقـد اوشـك على الطلوع هناك،ولهذا تألقت الارض وجميع الجهات في هذا المشـهد ، ولو ان ذلك وقع في الصباح لقلنا جميعا : ان النهـار كان سـاطعا ، لذلك خمنا انه اما سيسفك دم كثير في الحرب اوستقع واقعة لاتقـل عن ذلك ، فهذه نذرهـا ، ولقـد سـلمنا كل شيء بتـواضع الى الرب المتعال الذي لم يغفل عنا في قضاء أموره .

وتنبأ بعض الناس واعلنوا ان ذلك كله كان نذيرا بمـوت اشـخاص سيلاقون حتفهم في السنة المقبلة ، وبالفعل تـوفي هؤلاء الاشـخاص فيما بعد وكان منهم : البـابا بـاسكال في شـهر كانون الثـاني ،

وبلدوين ملك سكان القدس في نيسان وايضا زوجته في صقلية التي كان قد ابعدها ، والكسيوس إمبراطور القسطنطينية وعدد كبير اخر من عظماء الرجال في العالم .

موت الملك بلدوين :

هاجم الملك بلدوين في اواخر شهر اذار من عام ١١١٨ لتسجيد المسيح مدينة الفرما ونهبها ، ثم ذهب ماشيا في احد الايام على شاطىء النهر الذي يدعوه الاغريق باسم النيل ، ويدعوه اليهود باسم جيحون ، ولقد سار مع بعض اصدقائه على مقربة من المدينة ممتعا نفسه ، واستخدم بعض الفرسان رماحهم وحرابهم هناك بمهارة فائقة في اصطياد الاسماك، وحملوها الى المعسكر المقام قرب المدينة واكلوها، ومالبث الملك ان شعر في احشائه بالام جرح قديم تجددت بشكل شديد ، لذلك اصيب بضعف عظيم . وعلى الفور اعلنت الاخبار وعممت على رجاله ، ولما سمع هؤلاء بذلك شعروا مخلصين بتعاطف وجداني معه ، ونزل بهم الاسى واصابهم الحزن الشديد وقرروا لهذا العودة نحو القدس ، وبما ان الملك لم يستطع الركوب فقد اعدوا له محفة صنعوها من عشرة اعمدة ومددوه عليها ، ثم صدرت الاوامر بالعودة الى القدس بصوت بوق المنادي .

وعند وصولهم الى بلدة تسمى العريش مات بلدوين اخيرا بعدما اصاب الهزال جسمه وهده المرض ، فانتزعوا احشاؤه وملحوها وطرحوها في التابوت ثم خفوا الخطا نحو القدس .

وفي اليوم الذي جرت فيه العادة بحمل سعف النخيل ، واجه موكب الجنازة بمشيئة من الرب وهو يحمل حمله الحزين الموكب الديني وهو ينحدر من جبل الزيتون الى وادي يهوشافاط ، وكانت تلك بالفعل صدفة نادرة الوقوع،وما ان شاهد الحضور ذلك حتى

اجهشوا بالبكاء ، واخذوا بالندب بدلا من الانشـاد وكأنمـا بلدوين قريبهم ، وشعروا بهول الفاجعة بـدلامن السرور وبـكى الفـرنجة وحزن عليه السريان وحتى السراسنة الذين شهدوا ذلك فعلوا الشيء نفسه ، وجميع الذين بكوا هنا بخشـوع لم يتمـكنوا مـن تمـالك انفسهم ، وبناء عليه قام رجـال الاكليروس وعامـة الناس بـاداء واجباتهم حسب العرف والعادة في مثل هذه المناسـبات الحـزينة ، فعلوا ذلك وهم في طريقهم الى المدينة ، ثـم دفنوا بلدوين في الجلجلة الى جانب اخيه الدوق غودفري •

مرثية في الملك بلدوين

عندما مات الملك بكاه شعب الفرنجة الورع
ذلك أنه كان درعهم و مصدر قوتهم و معينهم
كان ساعد شعبه الأيمن و كان الرعب لأعدائه و الخصم
و كان القائد الجبار للبلاد مثلما كان اليشع
و قد انتزع من أعدائه غير الأتقياء عكا و قيسارية و بيروت و صيدا
و اخضع بعد ذلك إلى حكمه وادي عربة أو على الأقل ما جاور البحر الأحمر من بلاد.

واستولى على طرابلس وبعزيمة لاتقل عن ذلك احتل ارسوف
وكذلك قام باعمال مجيدة اخرى عديدة
وبقي على العرش ثمانية عشر عاما
ثم مضى إلى مصيره الاخير حسبما قدرله
ورات الشمس برج القوس ست عشرة مرة
عندما مات الملك بلدوين العظيم •

الكتاب الثالث

أعمال بلدوين الثاني

ترسيم الملك بلدوين في عيد الفصح :

إثر وفاة الملك بلدوين ، وحتى لا يظن بهم ضعف لافتقـارهم إلى ملك ، عقد أهل القدس مؤتمرا ، اختاروا فيه ملكا عليهم هو بلدوين كونت الرها ، وهو قريب للملك الراحل ، وتصادف ذلك مـع عبـوره لنهر الفرات وحضوره إلى القدس بهدف التشـاور مـع سـلفه الملك الراحل ، وجرى اختيار بلدوين بالاجماع ثم تـم تـرسيمه يوم عيد الفصح .

حشد جيش مصر :

مع حلول الصيف من السنة نفسها حشد المصريون جموعا كثيرة في جيش قدر تعداده بخمسة عشر ألف فارس وعشرين ألف راجل ، وكان الهدف تدمير مسيحيي القدس في الحرب ، ولدى وصول هـذه الحشود إلى عسقلان ، قصدهم طغتكين صاحب دمشق مـع رجـاله ليقدم لهم العون وذلك بعد عبوره لنهر الأردن ، فضلا عن هذا ابحـر أسطول معتبر لا يستهان بـطاقاته نحـو عسـقلان ، غير أن هـذا الأسطول الذي تألف من سفن حربية وسفن مؤونة ما لبث أن ابحـر نحو صور ، ومع هذا فإن الجيش الذي جاء بـرا بقـي في عسـقلان توقعا للحرب .

وبالمقابل سارع الملك بلدوين بالاستعداد للقتال ضد جيش العدو ، وكان قد استدعى إليه رجال أنطاكية وطرابلس لمشاركته ، وزحـف

الملك نحو العدو ، ولدى مروره على مقربة من أسدود ، مدينة الفلسطينيين القديمة ، أمر بانزال الأثقال من على ظهور الدواب ، وضرب معسكره ليس بعيدا عن المصريين حتى يتمكن الجيشان من مراقبة بعضهما بعضا كل يوم .

وبما أن كل فريق منهما خاف كثيرا من محاربة الطرف المعادي ، ولأنهم آثروا الحياة على الممات ، فقد وفق الجانبان إلى تأجيل القتال قرابة ثلاثة أشهر لمثل هذه المسوغات ، ثم أقلع المسلمون عن القتال بعدما فقدوا صبرهم من طول الانتظار ، وعاد رجال أنطاكية إلى ديارهم غير أنهم خلفوا كتيبة مؤلفة من ثلاثمائة مقاتل مع بلدوين لتعزز قوات الملك وقت الحاجة ، وذلك في حالة معاودة المصريين التفكير باستئناف القتال .

الأتراك يحاربون أهل أنطاكية ويذبحونهم :

في عام ١١١٩ لتجسيد الرب مات البابا غالسيوس ، خليفة باسكال ، وكان ذلك في اليوم الرابع قبل مطلع شهر شباط ، ووري جسده في كلوني ، وجري اختيار كالكستوس خلفا له ، وكان قبل ذلك أسقفا لمدينة فيين .

ليس بودنا الاثقال على قارىء هذا التاريخ باحصاء جميع الحوادث المشؤومة التي حدثت في تلك السنة خاصة في منطقة أنطاكية ، عندما خرج روجر ، أمير تلك المدينة مع قادته ورجاله ليحارب الأتراك ، فقتل في أحواز بلدة أرتاح ، وقتل معه سبعة آلاف من رجال أنطاكية ، ولم يقتل من الأتراك سوى عشرين رجلا .

ينبغي الا يدهش أحد كيف أذن الرب بهزيمة روجر ورجاله . ذلك أنهم أغرقوا أنفسهم في الملذات ، وتمتعوا بالثروات من كل

صنف ـ ولم يظهروا في آثامهم أي اعتبار لاحترام الرب والانسان .

فهو نفسه اقترف الفحشاء بدون حياء مع كثيرات ، مع أنه كان مايزال يعيش مع زوجته ، ثم إنه كان قد حرم ابن بوهيموند ، وهو سيده ومولاه ، من ميراثه ، وكان ابن بوهيموند هذا يعيش آنذاك مع أمه في أبوليا ، لقد أثم روجر مع قادته ورجاله ، فقد عاشوا في بذخ ورفاه عظيم ، واقترفوا كثيرا من الآثام ، فانطبق عليهم ما قال داود : « جحظت عيونهم من الشحم ، جاوزوا تصورات القلب » (المزامير : ٧/٧٣) وقلما ساد الاعتدال في خضم المتع الوافرة .

الملك بلدوين يسرع إلى مد العون إلى أهل أنطاكية وهو يحمل صليب الصلبوت :

نال أهل القدس بفضل الرب نصرا مبينا بإعجوبة بعد المذبحة التي لحقت أهل انطاكية ، ذلك أنه كان روجر المذكور عندما عرف بزحف الترك ضده أخبر ملك القدس بذلك بوساطة مراسليه ، وطلب منه الاسراع لنجدته ، لأن الأتراك كانوا يزحفون ضده بجيش جرار ، وأوقف الملك جميع أشغاله ، وكان قد خرج آنذاك للقتال ضد أهل دمشق على مقربة من نهر الأردن ، وقد اصطحب معه البطريرك وحمل صليب الصلبوت ، وبعدما طارد الأعداء بكل نشاط ونفاهم عن الحقول في مناطقه ، بادر مسرعا بدون تلكؤ لمد يد العون إلى أهل أنطاكية ، وأخذ معه أيضا أسقف قيسارية ، وهو الذي حمل فيما بعد على الأعداء بكل شجاعة وهو يرفع صليب الصلبوت ، يضاف إلى هؤلاء أحضر الملك معه كونت طرابلس ، وبذلك اجتمع معهما مائتان وخمسون فارسا .

ولدى وصول الملك إلى أنطاكية بعث بوفد إلى أهل الرها يأمرهم

بشكل ملزم بالاسراع بالزحف للانضمام إلى الحملة المزمع شنها ضد الأتراك . وبعدما التحق بالملك جنود انطاكية الذين كانوا قد فروا من المعركة السالفة الذكر ، أو بالحري نجوا من براثن الموت ، وقع القتال واحتدمت المعركة في أحواز بلدة اسمها زردنا ، وهي على مسافة أربعة وعشرين ميلا من انطاكية ، وكان وقتها عدد فرساننا سبعمائة ، وعدد الترك عشرين ألفا ، واسم قائدهم غازي (ايلغازي) ويخيل لي أن علي عدم اغفال ذكر ما قاله واحد من الأتراك عندما لاحظ أن واحدا من فرساننا ينطق باللغة الفارسية ، فقد توجه إليه بالخطاب قائلا: « اسمع أيها الافرنجي ، الحمق أنت لتجهد نفسك عبثا ، لن يكون لكم فوز علينا ابدا ، لأنكم قلة ونحن كثرة ، والحق أقوله لك إن ربكم قد تخلى عنكم لعلمه أنكم لا تطبقون نواميسه حسبما أوجبه عليكم ، ولا تحفظون الأيمان والصدق فيما بينكم ، وعليه من المؤكد أننا سنغلبكم في الغد ونهزمكم » ، واأسفاه ما أعظم خزي المسيحيين وأشد عارهم إذ يعيرنا من لا دين له في ديننا ، ومن أجل هذا يتوجب علينا أن نغرق في الخجل ، وأن نبكي بحسرة ونتوب ، ونزيل آثامنا .

القتال والنصر الذي حزناه بفضل صليب الصلبوت واستقبال الصليب في أنطاكية :

ونشب قتال عنيف في اليوم التالي ، ولم يحسم لصالح أي طرف من الطرفين ، وطال العراك حتى أرغم الرب القدير الأتراك على الفرار ، بعدما شحن المسيحيين بالحماس وزودهم ضدهم ، وذلك على الرغم من أن الأتراك كانوا عندما هاجموا المسيحيين في البداية قد مزقوا صفوفهم وبعثروهم إلى زمر صغيرة طاردوها حتى أبواب انطاكية ، ومع أن المسيحيين لم يتمكنوا من لم شتاتهم والاحتشاد ثانية ، فقد شتت الرب الأتراك وهزمهم ، فالتجأ بعضهم إلى داخل

مدينة حلب طلبا للأمان ، وتابع آخرون فرارهم إلى ديارهم في بلاد الفرس .

فضلا عن هذا كله ، أظهر ملك القدس وكونت طرابلس ومعهما رجالهما أنهم أتباع مخلصون لصليب الصلبوت العالي المجد ، فقد حملوه معهم إلى المعركة كعبيد للرب ، ودافعوا عنه بشجاعة وثبات ولم يتخلوا عنه ، لقد صمدوا بكل رجولة ، ودافعوا عن مواقعهم في ساحة الوغى ، وبقدرة هذا الصليب الغالي والعظيم القدسية ، اختطف الرب عبيده ، من قبضة الجنس التركي المقيت ، وصان شعبه وادخره لمهمة مقبلة في خدمته .

وبعدما رابط الملك في أرض المعركة لمدة يومين ، وعندما لم يجد أن أحدا من الأتراك قد عاد إلى القتال ، حمل صليب الرب ، وتوجه يريد أنطاكية .

فخرج بطريرك أنطاكية ليتلقى الصليب العظيم القدسية والملك ورجال الاكليروس الذين حملوه ، وقدم الجميع الشكر للرب ، وسكبوا عذب الثناء على الرب الكلي القدرة الذي منح النصر للمسيحيين ، بقوة الصليب العظيم القدسية ، وأعاد الصليب إلى بلاد المسيحيين سليما ، لم يمسسه أحد بأذى ، فبكى الجميع خشوعا ، وأنشدوا فرحا ، وجثوا مرارا متعبدين أمام الصليب الجدير بالاحترام والتبجيل ، ثم نهضوا مجددا رافعين وجوههم لتقديم الشكر .

شعر :

ظهرت الشمس مرتين في برج العذراء
عندما التهبت هذه المعركة التي هزم فيها الفرثيون
وفي تلك الأونة كان الهلال قد أضاء عشر ليال .

استقبال صليب الصلبوت في القدس :

بعدما استجم الفرنجة في أنطاكية لفترة وجيزة ، قرروا العودة إلى القدس ومعهم صليب الرب المبارك ، وحسب الأصول بعث الملك بالصليب إلى القدس بعدما كلف بهذه المهمة العدد اللازم من الجنود ، وقد دخل هؤلاء به إلى المدينة المقدسة مسرورين ، وكان ذلك في اليوم الذي احتفلوا فيه بعيد تقديسه ، مثلما فعل الامبراطور هرقل من قبل ، عندما استرده من بلاد الفرس ، ولقد استقبل أهل القدس جميعا الصليب بكل غبطة وسرور يفوق الوصف .

الملك يحصل على إمارة أنطاكية :

واقتضت الضرورة وقتها أن يبقى الملك في أنطاكية بهدف منح أراضي الذين توفوا من النبلاء إلى الأحياء وفقا لأصول الناموس ، ولكي يجمع بين الأرامل ـ فقد وجد منهم الكثيرات ـ وبين أزواج يكنون لهن المودة ويقدمن لهم الطاعة ، وبغية اعادة تنظيم الكثير من الشؤون واعادة وضع الأمور في نصابها ، ذلك أن بلدوين كان حتى ذلك الحين ملكا للقدس فقط ، لكن وفاة روجر أمير انطاكية جعلت منه ملكا لأهل أنطاكية أيضا ، وسيدا لهذه المملكة الثانية .

لهذا إنني أحث الملك ، وأتوسل إليه ، أن يحب الرب بكل جوارحه وعقله وقوته ، وأن يكرس نفسه كلية عبدا مطيعا للرب ، ويحمده على ما أعطاه ، وأن يعترف ـ وقد وجد في الرب صديقا حميما ـ أنه عبد الرب بلدوين مثلما رفعه هو' لقد جعل الرب الآخرين ملوكا لملكة واحدة ، في حين ملك الوضيع ، فمن الذي رفعه الرب من أسلاف بلدوين مملكتين ، وقد استحوذ عليهما بدون خداع أو سفك دماء وبدون معاناة التقاضي ، بل بسلام وبارادة الرب .

- ٢٨٧٣ -
لقد أعطاه الرب البلاد الشاسعة الممتدة من مصر إلى بلاد الجزيرة ، ومد الرب يده نحوه بسخاء ، فعليه أن يحذر وألا يمد يدا حاقدة نحو الرب الذي يعطي كثيرا ، ولا يهتم بسفاسف الأمور ، وإذا أراد بلدوين أن يكون ملكا ، فعليه أن يبذل جهده في سبيل الحكم بالعدل .

وعاد الملك من انطاكية إلى القدس ، وذلك بعد قيامه بعدد من الانجازات ، وقد تم تتويجه مع زوجته بالتاج الملكي يوم عيد الميلاد في مدينة بيت لحم .

اعفاءات من الضرائب :

في عام ١١٢٠ لتجسيد الرب ، أعفى الملك بلدوين الثاني من جميع الضرائب كل من رغب في احضار الحنطة والشعير والبقول إلى مدينة القدس ، وأصبح للسراسنة كما للمسيحيين الحرية في الدخول إليها والخروج منها وشراء ما أرادوه ممن أرادوا ، ثم إنه ألغى الضريبة المعتادة على الموازين والمكاييل .

الأتراك يحتشدون والملك يحمل عليهم :

بعدما أمضينا ستة أشهر من تلك السنة في القدس ، وصلت رسل أنطاكية تعلن للملك ولجميع الحضور منا ، أن الأتراك قد عبروا نهر الفرات ، ودخلوا إلى أراضي سورية مثلما فعلوا من قبل .

وعقد الملك بعض المداولات حسبما أملته الضرورة ، ثم توسل إلى البطريرك بكل تواضع وإلى رجال الاكليروس أيضا أن يعهد إليه بحمل صليب الرب الظافر ، وقال : إنه ينبغي أن يتقوى به مع

رجاله أثناء التحضير للمعركة ، فهو قد اعتقد أنه لن يكون بالامكان طرد الأتراك وابعادهم عن البلاد التي بدأوا بالفعل بتدميرها ، بدون معركة ضارية ، وبما أنه لم يثق بقوته ولا بكثرة الرجال الذين هم في صحبته ، فقد آثر أن يستحوذ على ذلك الصليب ومعه عون الرب ورعايته ، وفضله على عدة آلاف من الرجال .

ولهذا السبب نشب خلاف حاد بالرأي بين الذاهبين إلى المعركة وبين الذين سيبقون في القدس ، حول وجود الصليب في هذه الأزمة التي واجهتها المسيحية ، وفيما إذا كان من الأفضل حمل الصليب إلى أنطاكية ، وحرمان كنيسة القدس من هذا الأثر الثمين وقلنا واأسفاه ماذا نفعل لو سمح الرب أن نفقد الصليب أثناء القتال مثلما فقد الاسرائيليون مرة تابوت الرب ، (صموئيل الأول : ١٠/٤ - ١١) .

ولماذا نكتب المزيد ، لقد أرغمتنا الضرورة ، وعلمنا العقل ، ففعلنا ما لم نرغب وقررنا أن نفعل ما لم نبتغ ، وبعدما ذرفت الدموع الغزيرة عبادة للصليب ، وأنشدت التراتيل تمجيدا له ، والملك والبطريرك والناس جميعا وقوفا حفاة الأقدام ، رافقوه إلى خارج المدينة ، وغادر الملك به وهو يذرف الدموع ، وعاد الناس إلى المدينة المقدسة خسارى ، ووقع هذا في شهر حزيران .

وقصد الملك انطاكية ، التي كان الأتراك يتحرشون بها آنذاك ، عن قرب الى حد أن سكانها كانوا لايتجرأون على الابتعاد عنها مسافة أكثر من ميل ، وعندما سمع الاتراك باقتراب الملك ، تخلوا عن المنطقة فورا وغادروها الى مدينة حلب ، حيث اعتقدوا أنها أسلم لهم ، وهناك انضم اليهم ثلاثة آلاف جندي من أهل دمشق.

غير أنه بعدما زحف الملك ضدهم بكل جسارة واقترب منهم لكي يشتبك بهم وينشب القتال معهم ، وبعدما قتل وجرح العديد من

الطرفين بالنشاب ، رفض الأتراك اعطاء المعركة والدخول باشتباك عام ، وهكذا عاد رجالنا أدراجهم بعد ثلاثة أيام من المناوشات غير الحاسمة ، عادوا إلى انطاكية ، كما وعاد معظم الأتراك إلى بلادهم في فارس .

وبعد أمد أعاد الملك الصليب المقدس إلى القدس باجلال مـوائم ، لأنه بقي هو هناك في انطاكية لكي يحمي البلاد ، ولقد استقبلنا صليب الرب العالي المجد بكل سرور وغبطة ، وكانت عودته إلى القدس في اليوم الثالث عشر قبل مطلع شهر تشرين الثاني .

الملك يحمل على أهل دمشق ويدمر قلعتهم :

في سنة ١١٢١ لتجسيد الرب ، في اليوم الثالث قبل السابع من تموز حشد الملك رجاله من البلاد مما بين صيدا ويافا ، وعبر نهر الأردن ، ثم زحف ضد ملك دمشق الذي كان يحدث الدمار ــ مع حلفائه العرب ــ في بلادنا المجاورة لطبرية دون أن يلقى مقاومة أحد ، وعندما عرف صاحب دمشق أن ملكنا كان يقترب منه ومعه جيشه ، قوض على الفور خيامه ، وتجنب القتال وانسحب ملتجئا الى دياره .

وبعدما طارد ملكنا العدو لمدة يومين اثنين ، دون أن يجسر العدو على القتال ، تراجع ملكنا وتحول نحو قلعة حصينة كان طغتكين صاحب دمشق قد أمر ببنائها في السنة المنصرمة وذلك بقصد ايذائنا ، وقد قدرنا أنها تبعد ستة عشر ميلا عن نهر الأردن ، والقى الملك الحصار عليها ، وهاجمها بالآلات واستولى عليها بالقوة ، وسمح بعد استسلامها لحاميتها المكونة من أربعين تركيا بالمغادرة وفقا لشروط اتفق عليها ، ثم دمرها حتى سواها بالأرض .

وقد دعا سكان تلك المناطق هذه القلعة باسم جرش ، وكانت تقع داخل مدينة شيدت في غابـر الزمـان ببهـاء وروعة ، وفي مـوقع حصين ، وقد بنيت من حجارة مربعة كبيرة ، وبعد ماقدر الملك مدى المشاق التي واجهها في احتلال ذلك الموقع ، ومدى صعوبة تـزويد القلعة بالرجال والمؤن اللازمة أمر بتدميرها ، ومن ثم بعودة رجـاله الى ديارهم .

وتدعى هذه المدينة غيراسا (جرش) ، وقد شهرت فيما مضى في بلاد العرب ، وهي واقعة على مقربة من جبل جلعـاد في بـلاد قبيلة ماناسيس .

شعر :

« تصرمت هذه السنة بالسعادة من جميع النواحي
وبأمان وازدهار ووفرة بالثمار من كل صنف » .

حملة الملك على كونت طرابلس ثم على الأتراك

في سنة ١١٢٢ لتجسيد الرب ، تم تعيين أسقف صور واسـمه أودو أسقفا لمدينة القدس ، فكان أول شخص مـن العـرق اللاتيني يتولى ذلك المنصب .

ثم توجه الملك الى عكا حيث حشد هناك رجـاله مـن الفـرسان والرجالة ، وزحف أولا نحو طرابلس ، على رأس جيشه كله حاملا صليب الصلبوت معه ، وقـد أراد أن ينتقـم للأذى والاهـانة اللتين الحقهما به بونز كونت تلك المنطقـة ، وذلك بـرفضه الخضـوع اليه مثلما كان برترام والده قد فعل من قبل .

وبعدما أمكن التوفيق بينهما ، ظهر هناك أسقف بعث بـه أهـل انطاكية ، وقد حـث هـذا الملك على التـوجه بسرعة الى انطـاكية ليغيثها من الأتراك ، وكان هؤلاء يعيثون دمارا في المنطقـة دون أن يوقفهم أي قائد مسيحي .

وتحرك الملك فور سماعه بذلك ، واصطحب ثلاثمائة من فـرسانه المنتخبين واربعمائة من خيرة مشـاته الذين جلبهـم مـن مـكان اخر ، وعاد بقية رجاله الى القدس أو الى ديارهـم ، ووصـل الملك الى حيث سمع أن الأتراك قد تجمعوا وألقـوا الحصـار على قلعـة اسمها زردنا ، لكن هؤلاء تخلوا على الحصار وانسـحبوا فهـم لم يرغبوا في مواجهة الملك ، ولما سـمع الملك بـذلك قصـد مـدينة انطاكية ، لكن مالبث الأتـراك أن رجعـوا مجـددا ، واسـتأنفوا مشروعهم ، ولما سمع الملك بأخبار هذا الحال ، زحف ضدهم بدون تريث ، ولكن هؤلاء القوم لكونهم فرثيين حقيقيين في القتال والعتاد والمناورة ، ولتميزهم بعدم الاقـامة الطـويلة في أي مـوقع (فهـم يديرون بأسرع مما يمكن تصوره وجوههم مرة وأعقابهم مرة أخرى لمن يقابلهم ، فيفرون بغتة متـظاهرين بـالياس ثـم يكرون فجـأة ويعيدون الهجوم) لأنهم لم يدربـوا أنفسـهم على القتـال وهـم منحصرون في مكان محدد ، كانوا يتجنبون المواجهـة كليا ويفـرون كما لو أنهم أصيبوا بالهزيمة .

فلتحل البركة على راية الصـليب العـظيم القـدسية ، ذلك المدد الموجود في كل مـكان لجميع الراشـدين ، فهـو الذي يدعم المؤمنين ويمنحهم حمايته وسلوانه ، فقد أذن بعودة مسـيحينا الى ديارهـم دون أن يلحقهم أذى ، وقد قدر تعـداد الأعداء بحـوالي عشرة آلاف جندي ، في حين كان عددنا ألفا ومائتين باستثناء الرجالة .

وبعدما عاد الملك الى طرابلس بصحبة صليب الصـلبوت ، طـرأ مالدى الى عودته مع بعض رجـاله الى انطـاكية ، لكن الصـليب

المقدس حمل الى القدس بغبطة فائقة ، وهكذ أعيد الى مقره باجلال عظيم ، وكان ذلك في اليوم الثـاني عشر قبـل مـطلع شـهر تشرين الأول .

شعر :

« كان ذلك الوقـت الذي يحمـل فيه بـرج الميزان السـاعات المتكافئة .
المتكافئة بالعدد مثلما هي متشابهة بالطول ».

اسر كونت الرها :

وفي تلك الآونة وقع جـوسلين كونت الرهـا بـالأسر وكان معـه غاليران قريبه ، وقد قتل مالايقل عن مائة من رجال جوسلين ، فقد داهمهم كمين لبلك الذي كان أحد الأمراء.

وانقضت هذه السنة مثل السنة المنصرمة بوفرة بالانتاج مـن كل الأصناف ، ممـا جني في الحقـل ، وبيع مـكيال القمـح بدرهم ، والأربعين بقـطعة ذهـب ، ولم تشـن في تلك الآونة بلدان المشرق ولامصر اية حروب .

توطيد السلام بين البابا والامبراطور :

في عام ١١٢٣ لتجسيد الرب ، في الخمس عشرية ، الأولى رجع الوئام بين هنري ملك المانيا والبـابا كالكسـتوس ، فـالحمد للرب ، حيث توحد ثانية العرش والكنيسة في المحبة .

- ٢٨٧٩ -

استعدادت أهل البندقية للقدوم بسرعة الى القدس :

الهم اهل البندقية في تلك الأونة بالابحار باسطول عظيم الى سورية بغية - بعون الرب - تعزيز القدس والمناطق المجاورة ، وذلك كله لمنفعة المسيحية وتمجيدها ، وكانوا قد غادروا بلادهم في السنة الفائتة ، وامضوا الشتاء في جزيرة كورفو ، مترقبين موسما موائما لعبور البحر .

وكان قوام اسطولهم مائة وعشرين سفينة ، عدا القوارب والزوارق الصغيرة ، وكانت بعض السفن من ذوات المناقير (شواني) وبعضها الآخر مراكب تجارية ، كما وكان بعضها الآخر له ثلاثة صفوف من المجاذيف شيدت وفق هذه الأنماط ، وحملت السفن خشبة كبيرة يمكن للنجارين الافادة منها ببراعة في صنع آلات الحصار ، التي يمكن بوساطتها تسلق الأسوار المرتفعة للمدن والاستيلاء عليها .

موعد ابحارهم :

وما ان حل الربيع ، وانفتح طريق البحر أمام السفن حتى بادر البنادقة في تنفيذ العهود التي التزموا بها برسوخ أمام الرب ، فبعدما تزودوا بما لزمهم من مؤن وفيرة لأغراض الرحلة، اضرموا النيران في الأخصاص التي امضوا فيها الشتاء والتمسوا عون الرب ، ثم صدحت أبواقهم بابتهاج ورفعوا أشرعتهم .

وقد أوقع مشهد السفن السرور في نفوس الذين رأوها عن

كثب ، ذلك انها طليت بألوان مختلفة ، وكان على ظهورها خمسة عشر الف مقاتل من البنادقة والحجاج الذين الحقوهم بهم ، وفضلا عن هذا كله حملوا معهم ثلاثمائة حصان .

ومالن هبت ريح شمالية لطيفة حتى انفصلوا عن معابرهم الخشبية بكل مهارة وتوجهوا نحو ميثون ومن ثم الى رودس .

واقتضت الضرورات أن يسافروا مجتمعين لامتفرقين ، وتعين عليهم – بسبب تقلب الرياح – ممارسة بعد النظر وتغيير خط مجراهم حتى لايتفرقوا فجأة ويبتعد بعضهم عن بعض ، ولهذه الأسباب ابحروا لمسافات قصيرة وخلال النهار فقط لافي الليل ، وكانوا يتوقفون وينزلون الى اليابسة في مراسٍ عديدة لقضاء حاجاتهم اليومية وتأمين المياه العذبة لهم ولخيولهم حتى لايعانوا من العطش .

بلدوين يقع في الأسر واستبداله برجل يدعى يوستاس :

وحدث في تلك الآونة أن وقع بلدوين ملك القدس في الأسر ، وكان الذي اسره هو الأمير بلك الذي سلف له واسر جوسلين وغاليران ، من قبل ، ولم يكن بلدوين يتوقع ذلك ، ولم يكن مستعدا له ، ومامن امر افرح الكفار اكثر من هذا وارهب المسيحيين وافزعهم .

وبعدما وصلتنا الاخبار الى القدس تقاطر الجميع الى مؤتمر عقد في مدينة عكا للتداول فيما ينبغي عمله والتشاور ، فكان أن وقع اختيارهم على رجل اسمه يوستاس ، وكان شجاعا وامينا ومستقيم الخلق ويتملك انذاك قيسارية وصيدا ، فنصبوه حاميا

- ٢٨٨١ -

للبلاد وقائدا للمملكة ، وكان الذي توصل الى هذا القرار بطريرك القدس ومعه أعيان رجالات البلاد ، وامر أن يسري مفعول هذا الاجراء حتى يتيقنوا بشكل قاطع من مصير ملكهم المتوج .

كانت هذه صورة الأوضاع في منتصف أيار عندما سمعنا بغتة ان المصريين قد وصلوا عسقلان بقوتين حشدوا احداهمابحرا و الثانية قادوها برا ، فقررنا تحضير سفينة صغيرة عالية السرعة لارسال الرسل الى اسطول البنادقة لمناشدتهم الاسراع في الابحار وإغاثتنا والتفريج عنا في المخاطر التي أحاقت بنا .

حصار يافا ثانية من قبل المصريين والحاق الأضرار الشديدة بأهلها :

ثم اندفع المصريون نحو مدينة يافا ، وانطلقوا من سفنهم في موكب كبير وابهة رائعة تعزف أمامهم الأبواق النحاسية ، ثم أحاطوا بالمدينة وحاصروها ، وشرعوا بدون تأخير في نصب آلات دك الأسوار وغيرها من المعدات التي كانوا قد أحضروها معهم على ظهور سفنهم الكبرى ، وهاجموا المدينة من جميع النواحي وضيقوا الخناق عليها ، وقذفوها بحجارة من أحجام لم يسبق لها مثيل ، ذلك أنهم امتلكوا مجانيق عظيمة القوة ، قذفوا منها حجارة

الى مسافة أبعد من مدى النشاب ، وشن رجالة العرب او السودان الذين أحضروهم معهم و برفقتهم حشد من الفرسان ، هجوما شديدا على أهل يافا ، و من كلا الجانبين رمى بعضهم بالحراب و بعضهم بالحجارة ، و رمى آخرون بالنشاب و تمكن الذين كانوا يدافعون عن المدينة بكل رجولة من الداخل من قتل بعض المهاجمين في الخارج بالطعنات المتوالية .

وحمل السودان في أيديهم دروعا بها غطوا انفسهم

- ٢٨٨٢ -

واحتموا ، ودابت نساء يافا على تقديم العون المتـواصل لسـكانها الذين كانوا يقاتلون بكل شجاعة ، فقـد قـام بعضـهن بتـزويدهم بالحجارة وبعضهن الآخر تولى جلب الماء للشرب .

وبعد قتال استمر خمسة أيام ألحق المسلمون القليل من الأضرار بالأسوار ، مع أنهم دمروا الكثير من الشرافـات في أعلى الأسـوار بعد قذفها بالحجارة ، ثـم كان أن بلغهـم نبـأ اقتـراب قدومنا ، فأوقفوا القتال وعزفوا بالأبواق اشارة لذلك وفـككوا الات الحصار ثم نقلوها الى السفن .

ولو أنهم ملكوا الجرأة على إطالة القتال ولم ينسحبوا لاسـتولوا على المدينة بكل تأكيد ، وذلك لقلة عدد المدافعين عنها ، ثـم لأنهـم كانوا بالفعل قد حفـروا حـول السـور انفـاقا هنا وهناك أملين في اقتحامه بكل سرعة ، علما أنه كان بصحبتهم اسـطول مـكون مـن ثمانين سفينة .

معركة ضد الأتراك ـ المسيحيون ينالون النصر بفضل صليب الصلبوت :

بعدما تأكد قومنا من صـحة الأخبـار التـي حملهـا نقلة الأقاويل ، وأيقنوا من اقتراب المخاطر احتشدوا من جميع الأمـاكن ووقف جيشهم أمام إحدى القلاع واسمها قاقون ، فقد قـدموا مـن طبرية وعكا وقيسارية والقدس ، وبعدما جلبوا صليب الصلبوت الى مكان الحشد بادر قومنا الى قتال العدو قرب مدينة الرملة القريبة من اللد .

أما نحن الذين بقينا في القدس مـن لاتين وإغريق وسريان ، فلم

نتوقف عن الدعاء لأخواننا الذين واجهوا المحنة ، وقدمنا الصدقات للمحتاجين ، وقمنا ايضا بزيارة جميع كنائس المدينة المقدسة حيث سرنا في موكب خاشعين ونحن حفاة الأقدام .

واستيقظ قادتنا مع انبلاج الفجر ، فأمروا رجالهم الذين اصطفوا امامهم بانتظام في كتائبهم ، بالزحف نحو مدينة الرملة ، وبعدما منح البطريرك بركاته وغفرانه نشب القتال قرب اسدود ، وكانت هذه من قبل إحدى المدن الفلسطينية الخمسة ، وتدعى الآن (ايبنيوم) وقد تضاءل الآن شأنها وباتت قرية صغيرة .

ولم يطل القتال في هذه المعركة ، إذ ما أن رأى الأعداء رجالنا المسلمين يزحفون نحوهم بثبات ونظام رائع ، حتى شرع فرسانهم بالفرار ، ولم يتوقفوا كأنما اصابهم مس من جنون ، فقد دب فيهم الهلع بدلا من التحكم في عقولهم ، وجرى ذبح مشاتهم ، وخلفوا على أرض المعركة جميع خيامهم ومقتنياتهم من كل صنف ولون ، ولقد انتزعنا منهم ثلاث رايات وعدد كبير من العربات المحملة بالمتاع ، وذلك بالاضافة الى اربعمائة جمل وخمسمائة حمار .

ومن بين الستة عشر الف من الأعداء الذين قدموا الى القتال وشاركوا في المعركة قتل ستة الاف ، وبالمقابل قتل عدد ضئيل من رجالنا ، وكان عدد رجالنا هؤلاء حسب بعض التقديرات ثمانية الاف ، غير انهم كانوا شجعانا ، على درجة عالية من البراعة في القتال ، ملهمين واثقين بالرب وبمحبته ومعتمدين كليا على هذه الثقة .

شعر :

ظهرت الشمس اثني عشرة مرة في برج الجوزاء
عندما هلك القوم المتوحشون بقدرة من الرب
وطرحت جثثهم على سهول ارض فلسطين
وغدت طعاما للذئاب والضباع .

استقبال أهل القدس لصليب الصلبوت :

بعدما حاز المسيحيون على النصر في المعركة ، بقوة الرب وتعظيما لاسمه وتمجيدا للمسيحية ، رجع البطريرك الى القدس ومعه صليب الصلبوت ، وقد استقبل بموكب حافل ، وتلقي خارج باب برج داود ، ونقل بأعلى درجات التبجيل الى داخل البازيليكا في قلب كنيسة قيامة الرب « وقدمنا الشكر للرب القدير على بركاته وكنا ننشد « الشكر للرب » .

وصول البنادقة ومعركتهم البحرية مع المسلمين :

وصلتنا في اليوم التالي لهذا النصر المبين اخبار اخرى اثلجت صدورنا ، فقد سمعنا أن أسطول البنادقة قد دخل الى عدد من المراسي الفلسطينية ، وكانت الشائعات قد توقعت وصوله منذ فترة مديدة ، وحال وصول الدوج (دومنغوميشيل) قائد أهل البندقية وأمر اسطولهم الى عكا ، أعلم على الفور بالذي حدث في يافا في البحر والبر ، واخبروه كيف أن المصريين أوقعوا بعض الدمار بقدر ما استطاعوا ثم غادروا عائدين بعدما نفذوا مهمتهم ، واذا رغب الدوج في مطاردتهم فبإمكانه إدراكهم بعون الرب.

و على الفور تداول الأمر مع بحارته و تشاور ، فقسم اسطوله الى أقسام ، وتولى هو شخصيا امرة عمارة بحرية منه ، وأبحر نحو يافا ، ثم بعث القطع الأخرى الى عرض البحر ، وكان هذا دهاء منه وخداعا بغية جعل المسلمين يظنون أنها توجهت الى قبرص لجلب الحجاج من هناك .

وعندما رأى المسلمون ثماني عشرة سفينة من اسطول البنادقة تقترب منهم ، شرعوا بالتهليل ، وكأن المغانم وقعت فعلا بأيديهم ، واستعدوا للابحار نحوها لمنازلتها وقتالها بشجاعة في المعركة .

وتظاهر رجالنا بالخوف من القتال ، وكانوا بالفعل يخدعون الأعداء وينتظرون بدهاء وصول العمارة البحرية الأخرى التي كانت تفوق الأولى عددا ، ومكثوا يترقبون التحاقها بمؤخرة الاسطول ولهذا لم يجنحوا الى الفرار ولم يقدموا على القتال حتى شاهد المسلمون السفن تلتحق بمؤخرتنا واشرعتها منشورة ، ومجاذيفها مشدودة .

وعندما حدث ذلك ارتفعت معنويات البنادقة فانقضوا بضراوة على عدوهم وكانت شجاعتهم تجل عن الوصف ، ولقد حاصروا سفن الأعداء من كل جانب ، حتى لم يعد أمام أي منها مخرج ، وفي الحقيقة لقد تم حصر المسلمين بطريقة مذهلة حتى انه لم يتح لا للسفن ولا للبحارة النجاة من أي اتجاه ، في حين ركب أهل البندقية ظهور سفنهم وأمعنوا في بتر أوصال رجالهم .

من المحال تصديق هذه الحقيقة ، لأن ما من أحد سمع بمثلها من قبل ، فقد تلطخت أقدام المهاجمين بالسفن بالدماء ، وبذلك أمكن الاستيلاء على هذه السفن المحملة بالثروات الهائلة ، وبعدما ألقيت

جثث القتلى خارج السفن كنت ترى البحر وقد صبغت مياهه بالأحمر الى مسافة اربعة اميال .

ثم حدث أنه بعدما أبحر رجالنا حتى ما بعد عسقلان يبحثون ويستطلعون الأوضاع اكتشفوا وجود عشر سفن اخرى محملة بالمؤن من مختلف الأصناف ، وكانت قادمة نحوهم ، وكانت هذه السفن تحمل قطعا خشبية عظيمة الطول ومستقيمة مناسبة لصنع الآلات الحربية ، فاستولوا على هذه السفن واستحوذوا على ما حملته من معدات حربية وذهب ونقود فضية وتوابل وأصناف عديدة من العطور .

ثم أحرقوا على رمال اليابسة بعض السفن التي جنحت الى الشاطىء ، غير أنهم أحضروا اكثرها الى عكا دون أن تمس بأذى ، وهكذا كافأ الرب عبيده بأضعاف مضاعفة من العطايا الوفيرة .

لم يتخاذل أهل القدس مع أن ملكهم كان أسيرا :

طوبى لقوم الرب دوما معينهم ، طوبى للأمة التي الرب الهها (المزامير : ٣٣ / ١٢) فقد قال الوثنيون : « لنخرج الآن ونبيد الأمة المسيحية ابادة كاملة ونمحو ذكرها عن وجه البسيطة ، فالمسيحيون الآن بلا ملك ، وهم أشبه بأعضاء الجسد الذي بلا راس » حقا قالوا هذا غير أنهم نسوا أن الرب مليكنا .
لقد كنا قد فقدنا بلدوين ، لكننا اتخذنا الرب ملكا لنا جميعا وتضرعنا اليه وقت حاجتنا ، فبه انتصرنا باعجاز ، فلعل الذي فقدناه عرضا لم يكن ملكا ، فالذي أحرز النصر لنا مؤخرا ليس هو ملك القدس فحسب بل ملك الدنيا بأسرها ، وعلينا أن نعترف بحق انه كان لدينا في المعركة فعلا ملك ، وهو لدينا الآن ولسوف يكون

دومـــا لدينا ، ذلك أننا ســـنؤثره في جميع مســــــاعينا على جميع الآخرين ، « فـــالرب قـــريب مـــن كل الذين يدعونه ، الذين يدعونه بحق » (مزامير : ١٤٥ / ١٨) .

لقد تجلى علينا فرآنا في محنتنا نعاني من سوء العذاب ، فغمرنا برافته وترفق بنا لخضوعنا وأطلق سراحنا ، « فمبـــارك الرب الذي لم يسلمنا فريسة لاسنانهم » (مـــزامير : ١٢٤ / ٦) لقـــد قـــاتل معنا ضد اعدائنا ، وسماته أن يغلب دوما ويقهر ابدا ، فهـــو يقهـــر ولا يقهر ، وهـــو لا يخـــدع ، إنه الملك بحـــق ، ذلك انه يحـــكم بالعدل ، وكيف حقا يكون ملكا من تتغلب عليه عيوبه دومـــا ، وكيف يمكن لانسان أن يدعي الملك إذا ما داب على تجاوز القـــانون دائمـــا وأبدا ؟ ذلك أن الذي لا يراعي ناموس الرب ولا يحافظ عليه ليس له أن يطاع ، لأن الذي لا يخاف الرب سوف يخاف الانسان الذي هـــو عدوه ، أما من كان زانيا وحانثا بقسمه وفـــاسقا فقـــد خسر لقـــب الملك ، وهل يصح أن نثق بمحتال مخادع ، فإن رضي به من لم يتسم بالتقوى فكيف يصـــغي اليه الرب ويســـتمع ؟ فمـــن كان ســـالبا للكنائس ، ظالما للفقراء ، لا يحكم بـــل يمـــارس الطغيان ، فلنتعلق بالملك في عليين ، ولنضع ثقتنا فيه وأملنا ، فهو لن يخيب مسعانا في الآخرة .

وفاة يوستاس وخلافة وليم له :

مات في هذه الفترة الصعبة يوستاس الذي كان قد اختير وصـــيا على البلاد ، وحدث ذلك في اليوم الســـابع عشر قبـــل بـــداية شـــهر تموز ، ثم استقر القرار على اســـتخلاف وليم بـــوريس ، الذي كان يمتلك طبرية في ذلك الحين .

- ٢٨٨٨ -

اطلاق سراح الملك بلدوين من الأسر :

برحمة من العناية الربانية ، نجا في منتصف شهر أب ، بلدوين ملك القدس من أغلال بلك وسجونه ، فقد كان قد اعتقله في احدى القلاع الكبيرة (خرتبرت) ، وكان موقع هذه القلعة حصينا منيعا يصعب الاستيلاء عليه لعلوه الكبير وارتفاعه ، وكان مع بلدوين في الأسر جوسلين كونت الرها والآخرون سواه ، والحديث عن هذه القضية قد يطول لكنه مغلف بالتبريكات الربانية والعناية العلوية وموشح بالمعجزات .

فبعدما أصابهم الوهن وتعبوا كثيرا في أسرهم في تلك القلعة لأمد طويل دون تلقي أية مساعدة من أصدقائهم ، بعد هذا شرعوا يتدارسون فيما بينهم جميع صنوف الحيل والمخارج وتأمين الخطط التي تساعد على خلاصهم من هناك ، ولذلك دابوا على طلب العون من أصدقائهم أينما وجدوا وراسلوهم بوساطة مبعوثين مؤتمنين ، وبذلوا قصارى جهدهم للتآمر مع الأرمن الذين كانوا يقطنون من حولهم في سبيل تحقيق هذه الغاية ووعدوا أنهم إذا ما تمكنوا من الحصول على العون من أصدقائهم في الخارج ، فسوف يظل الأرمن أعوانهم المخلصين وسوف يحافظون على ذلك .

وبعدما تم الاتفاق على ذلك ، وبعد تبادل الهدايا ومختلف الوعود ، وتبادل حلف الايمان ، جرى بعث خمسين رجلا من مدينة الرها ، وتحرك هؤلاء نحو القلعة بكل دهاء وبراعة ، حيث قدموا متنكرين بزي رعايا يتنقلون ويبيعون السلع ، وعندما سنحت الفرصة تحركوا حتى وصلوا الى أبواب القلعة الداخلية .

وبينما كان شحنة القلعة جالسا يلعب الشطرنج بدون احتراز قرب البوابة مع واحد من الرجال المخلصين لنا ، اقترب منه عملاؤنا

بكل حذر وبمنتهى المكر وكأنهم يودون تقديم شكاية له من مظلمة احاقت بهم ، لكن مالبثوا ان تخلوا عن حذرهم ووثبوا بدون خوف وقد اشهروا خناجرهم فقتلوا الشحنة فورا ، واستولوا على الحراب التي وجدوها هناك وفتكوا بالحرس وذبحوهم بكل رجولة وبلا تردد .

ودب الهرج والمرج هناك وسادت الفوضى وانتشرت في الداخل والخارج ، وكل من بادر الى مشهد الأحداث سرعان ما عوجل فلقي مصرعه ، والحق كان هناك قرابة مائة من الاتراك ، ومع هذا تم اطلاق سراح الملك بالحال ، وكان بعض الأسرى ما يزالون بالاصفاد عندما تسلقوا السلالم الى قلة القلعة ، وهكذا كشفت الحقيقة ، فقد كان في القلعة نفسها زوجة بلك مع عدد كبير أخر من الرجال المقربين اليه كثيرا وذوي المكانة لديه ، ولهذا ما لبث الأتراك ان احاطوا بالقلعة وطوقوها من جميع الجوانب ومنعوا من كان في داخلها من الخروج منها ومن كان خارجها من الدخول اليها ، ونفذوا ذلك بكل صرامة وشدة ، واوصدت الأبواب واحكم اغلاقها بالمسامير .

كونت الرها ينجو من الأسر

ما اظن أن علي الالتزام بالصمت حيال مصيبة تراءت لبلك وكانت اشبه بطيف خيال ، فقد تراءى له (حسبما روى هو نفسه ذلك فيما بعد) أن جوسلين سوف يقدم على قلع مقلتيه ، فأخبر مفسري الاحلام بذلك على الفور ، ورغب أن يعلم منهم تفسير هذا الحلم ، فقالوا له : « حقا سوف يحل ذلك بك ، أو ما لا يقل عنه سوءا إذا ما وقعت بين يديه » وما أن سمع ذلك حتى بادر بلك بارسال عدد من رجاله لقتل جوسلين ، و كان هذا قد نجا بحمد الرب ، وتخلص من الأسر بالطريقة التي سوف نصفها ونحكيها الآن :

عقد بلدوين مشاورات جادة مع جميع رجاله ، وبحث عن الوسيلة المجدية التي يمكن أن تنقذهم من الأسر ، وعندما خيل اليهم أن الوقت الموائم قد جاء ، وضع اللورد جوسلين حياته على حافة الموت ، وأودع ذاته بين يدي خالق الاكوان وتسلل من القلعة يتبعه ثلاثة من الخدم ، ومر جوسلين بين صفوف حشد الأعداء في ضوء القمر ، وكان يتملكه الخوف مثلما تدفعه الجراة ، وما لبث أن ارجع واحدا من الخدم الى الملك وحمله خاتمه ليظهر له أنه شق طريقه عبر المحاصرين وفقا للاتفاق المعقود بينه وبين بلدوين .

وبعد فرار واختباء ومسير في الليل اكثر منه في النهار وصل اخيرا الى نهر الفرات ، وقد اهترات نعلاه واوشك ان يكون حافي القدمين ، وبسبب عدم امتلاكه لقارب يركبه ، ومع انه لم يكن يحسن العوم ، قام بنفخ قربتين من الجلد كان قد حملهما معه ، ووضع نفسه فوقهما ، ورمى بذاته في النهر ، وقد بذل رفيقاه كل جهد للحفاظ عليه ، وتمكنوا بعون الرب من احضاره سالما الى الشاطىء .

وكان التعب قد هده بعد هذه الرحلة الفريدة ، واضناه الجوع ، وعطش عطشا شديدا ، واستولى عليه الضيق ، ولم يكن احد حوله ليقدم له يد العون ، وبعدما شعر بالتعب الشديد والانهاك اثقله النعاس ، فسمح لنفسه بالنوم تحت شجرة جوز وجدها هناك ، والتحف ببعض الأغصان المقطوعة والعليق حتى لا يتعرف عليه من يراه ، وامر واحدا من خدمه أن يبحث عن الأهالي ويتوسل اليهم ليعطوه اويبيعوه خبزا بأي ثمن ، ذلك انه كان يتضور جوعا .

وفي حقل مجاور وجد الخادم ريفيا ارمنيا يحمل بعض التمر وعدد من عناقيد العنب ، وبعدما بادره بالكلام بكل حذر جلبه معه لمقابلة

سيده ، ذلك ان جوسلين كان بوده ـ لشدة جوعه ـ الحصـول ولو على مثل هذا الزاد .

وما أن اقترب الفلاح من جوسلين حتى عرفه ، فوقع عند قـدميه وحياه قائلا : تحياتي اليك يا جوسلين ، فارتاع هذا لما سمعه فهـو لم يرغب قط بسماع ذلك ، فأجابه«انا لست من تمنيت بمخـاطبتك ، أعان الرب جوسلين حيث كان»فأجابه . الريفـي : «أتضرع اليك أن لا تنكر هويتك ، فانا أعرفك تمام المعرفة ، ولكن أعلمني مـا الذي جرى لك في هذه الديار ، وارجوك الا تخشى مني أو تتوجس شرا ».

فأجابه الكونت إرث لحالي أيهـا الغـريب وأشـفق علي ، إنني اتوسل اليك الا تخبر اعدائي بالذي أصابني ، وخـذني الى مـكان أمن ، فتستحق أجرا على ذلك هذه القـطعة مـن النقـود ،ذلك انني هارب بمعونة الرب ، بعدما نجوت من أسر بلك و قيوده ، من داخـل القلعة التي تدعى خرتبرت ، و الواقعة في الجزيرة في ذلك الجانب من الفرات

ولسوف تحسن صنعا لو أنك قمت بمساعدتي في وقـت حـاجتي للمساعدة حتى لا اقـع مجـددا بين أيدي بلك وأواجـه الهـلاك المحتوم ، وإذا ما رضيت وقدمت معي الى قلعتي في تل باشر فلسوف تتحسن أحوالك وتعيش عيشا رغدا الى اخـر أيام حياتـك ، وبناء عليه أخبرني ما الذي تملكه في هذه المنطقة حتى اعوضه عليك وأزيدك عن طيب خاطر في مقاطعتي إذا ما رغبت .

فرد عليه الفلاح : أنا لا اريد منك شيئا سوى أن اقـودك بـأمان الى حيث تشاء ، فـأنا انكر كيف تعـاطفت معـي في أحـد الأيام وشـاركتني في تناول الطعـام ، ولذلك إنني مسـتعد لرد الجميل اليك ، ولدي يا مولاي اللورد زوجة وطفلة صـغيرة وحمـار صـغير واختي وثوران ، وهـاانذا أضـع نفسي كلية تحـت تصرفـك وبامرتك ، فأنت رجل عاقل مدبر ، ولسوف أمضي معك بكل ما أملك

الآن ، يضاف الى هذا لدي ايضا خنزير صغير سوف اطهـوه الآن واحضره لك .

فأجابه جوسلين : لا ياصاحبي ، إنه ليس من عادتـك أن تـأكل خنزيرا كاملا في وجبة واحدة ، فلاتثر شكوك الجيران بك .

وجمع الأرمني كل مـا كان لديه ثـم غادر معـه حسـبما اتفقا ، وركب الكونت على ظهر الحمار الصغير ، مع انه كان ممـن اعتاد على امتطاء أفخر البغال ، ووضع أمامه طفلة الفلاح الصغير وهكذا فإن الذي لم يكن والدها حقا حملها كما لو كان والدها ، وقد فعل ذلك ، مع أنه لم يكن له ابنة من صلبه ، حتـى يجعـل الذين لا يعرفون يخيل اليهم انه راغب حقا في أن تكون له ذرية .

غير أنه عندما بدات الطفلة بالصراخ والبكاء قلق جوسلين ، ذلك انه لم يتمكن من اسكاتها بأي وسيلة ، ولم تكن هناك مرضعة تتولى ارضاعها أو تغني لها ، ففكر في أن يتخلى عن هذه الرفقة حتـى لا يتعرض للخطر ، وان يتابع سيره وحيدا بأمان ، لكنه عندمـا أدرك أن ذلك قد يزعج الفلاح ، آثر عدم ازعاجه وثابر في تنفيذ المهمة التي اخذها على عاتقه .

ولدى وصوله الى تل باشر جرى استقباله مع ضيوفه بـكل فـرح وسرور ، فابتهجت زوجته ، وهلل أهل بيته ، ولا يمكننا أن نشـك بحجم البهجة التي شعر بها الجميع ولنا أن نتصور كم مـن دمـوع الفرح قد ذرفت انذاك ، وكم كان حجم التنهدات هناك ايضا ، امـا الفلاح فقد أعطي بدون تقاعس ـ مكافأة طيبة ، ومنح بدل زوج من الثيران زوجين .

ولأن الكونت جوسلين لم يتمكن من البقاء طـويلا بين أصـحابه واله فقد توجه فورا الى انطـاكية ، وسـافر منهـا مبـاشرة الى

القدس ، وهناك قدم الشكر للرب الذي تفضل عليه برحمته ، ووهب القيدين اللذين حملهما معه ليعلقا عطيه منه بكل تبجيل على الجبـل الذي صـلب فيه المسـيح ، وذلك تـذكارا لأسره وتمجيدا لخلاصه ، وكان أحدهما من الحديد والآخر من الفضة .

وبعد ثلاثة أيام غادر القدس بـاتجاه طـرابلس للحـاق بمـوكب صليب الصلبوت الذي سبق وأرسل الى هناك ، ذلك أن جيش الرب كان في طريقه مع الصليب الى خـرتبرت قلعـة بلك ، حيث كان الملك وعدد من رفاقه محبوسين لكن غير مقيدين بالسلاسل ، لأنهم كانوا آمنين داخل الحصن .

مبارك هو الرب الذي يبسط ارادته وسلطته على العالمين ، فهـو حين يشاء يطرح الجبار من العلياء ويرفع الوضيع من الرغام ، ففي الصباح كان بلدوين ملكا يحـكم ، وفي المسـاء أصـبح عبـدا يخدم ، والذي حدث لجوسلين لا يقل عن هذا ، ومـن الواضـح انه ليس في هذا العالم شيء مؤكد أو شيء ثابت ، فـلا شيء مـرغوب فيه يدوم طويلا ولهذا ليس مـن الخير أن يتلهـف الانسـان على متـاع الدينا ، بل من الأفضل أن يتجه بقلبه نحـو ربـه ، ودعونا لا نركن الى متاع الدنيا حتى لا نخسر الحياة الأبدية في الآخرة .

شعر :

حسب تقديري أتممت أنا الآن سنتي الخامسة والستين
غير أنني لم أرقط ملكا مثل هذا طريح السجن
ولست أعلم فيما إذا كان ذلك يعني شيئا ولكن الرب يعلم .

- ٢٨٩٤ -

حملة أهل القدس واعتقال الملك بلدوين ثانية :

وبينما كان رجال القدس يزحفون نحو مكان متفق عليه ، انضم اليهم رجال طرابلس ثم رجال انطاكية في انطاكية ، غير انهم عندما وصلوا جميعا الى تل باشر ، علموا أن الملك الذي كان محاصرا في قلعته خرتبرت قد وقع بالأسر ثانية ، وعندما عرفوا ذلك غيروا خططهم ، وصدرت الأوامر بالعودة فورا ، ورغبة منهم في اكتساب شيء ما لأنفسهم ، صدحت الأبواق مؤذنة بالتحرك ، لكن نحو مدينة حلب ، وقد دمروا واتلفوا كل ما وجدوا خارج اسوارها بعدما أرغموا بعنف الذين خرجوا الى قتالهم على التقهقر الى داخلها ، وبعد أن مكثوا هناك اربعة ايام لم ينجزوا خلالها شيئا ، استقر قرارهم على العودة الى بلادهم لأنهم بدأوا يعانون من شح المؤن ، ومع هذا فقد بقي جوسلين في منطقة انطاكية .

وبعدما رجع رجال القدس ووصلوا الى عكا ، وقبل أن يثيروا انتباه المسلمين في الجوار ، عبروا نهر الأردن فجأة ، وبعد أن تجولوا على عجل في المنطقة التي يحدها جبل جلعاد ووادي عربة ، أسروا عددا كبيرا من المسلمين من الجنسين ، واستولوا على كثير من الدواب والماشية ، ثم عادوا بعد ذلك واتجهوا نحو منطقة طبرية القريبة منهم ، واصطحبوا معهم قافلة عظيمة من الجمال والماشية وكذلك الأطفال والبالغين ، وبعدما وزعوا الغنائم فيما بينهم حسب الأعراف والعادات ، احتشدوا في القدس من جميع الأنحاء ، ثم أودعوا صليب الصلبوت ، الذي كانوا قد حملوه معهم ، في مكانه .

ولزاما علي أن أعود الآن الى صلب الموضوع الذي ابتعدت عنه لبعض الوقت .

- ٢٨٩٥ -

كيف حاصر بلك الملك واعتقله ثانية :

ما إن سمع بلك بما جرى في خرتبرت ، وعلم بخبر نجـاة الكونت جوسلين من الأسر ، حتى بادر بـالذهاب الى هناك بـأقصى سرعة أمكنته ، وخاطب الملك بمعسول الكلام وطلب منه أن يسلمه القلعة ، مقابل أن يسمح له ـ بعد تقديم رهائن مختارة ـ بالمغادرة بأمان ، ثم يؤمن سفره الى الرهـا أو أنطـاكية ، وتهـدد بلدوين أنه اذا لم يستجب فلسوف يلحق الشر بأحدهما أو بهما معا .

ورفض الملك فـاستشاط بلك غضـبا ، وهـدد بـاعتقال الملك والاستيلاء على القلعة بالقوة ، والانتقام من أعدائه بشكل محتوم ، وبوضع دعائم الخشب داخل الفجوات التي أحدثت تحـت الأسـوار لكي تسند المذشئات التي فوقها ، ثم أمر بجلب الأخشاب ورمي النار فيها ، وعندما احترقت الدعائم هبطت الأسوار وانهار البرج القريب من النار محدثا ضجيجا هائلا .

وتصاعد الدخان وامتزج بالغبار ، لأن الانقاض غطت الحـريق ، لكن بعدما التهمت النيران ما تحت الأنقاض وظهرت ألسـنة اللهـب للجميع ، أصيب الملك بالذهول ، وتولته الدهشة ، فهذه الأحـداث لم تدر بخلده ولم تكن بالحسبان ، وخابت آماله وهبـطت عزيمتـه الى الحضيض ، فقد شل هذا الدمار حركته وأصابه مـا حـدث بـرعب شديد ، وهكذا فقد شجاعته مع رجاله ولم يعد مسيطراً على نفسـه فاستسلم مع رجاله الى بلك ، ولم يأمل برحمة بلك بل بـالعقاب على ما جنت يداه وأيديهم معه .

وصفح بلك عن بلدوين وأبقاه على قيد الحياة وفعل الشيء نفسـه مع واحد من أبناء أخي الملك وكذلك مع غاليران ، أما الأرمـن الذين قدموا العون الى الملك فقد شنق بلك بعضهم ، وضرب بعضهم حتـى

الموت وشطر بعضهم الآخر بالسيف الى نصفين ، ثم نقل الملك مـــع ثلاثة من رجاله من القلعة واخذهم الى مدينة حران .

لقد صعب علي التيقن من حقيقـــة مـــا حصـــل هناك ، لأن هـــذه الأحداث وقعت بعيدا عني ، ومع هذا فقد دونت هنا ــ بكل ما أوتيت من دقة ــ الذي أخبرني به أخرون .

شعر :

انتهت هذه السنة بشح في الأمطار ، منذرة بالقحط
وسبب ذلك كثيرا من الآلام الى أهل القدس
وقد مضى علينا حتى الآن أربع وعشرين سنة
منذ قيام حملة الحجاج الشهيرة التي قـــدمت مـــن جميع البلدان .

التحضير لحصار صور :

في سنة ١١٢٤ لتجسيد مولانا المســـيح احتفلنا بميلاد المخلص في بيت لحم وفي القدس حسب الأصول ، وقد شـــارك دوج البندقية مـــع رجاله في هذه المراسم واحتفلوا بخشوع ، وتم بعـــد هـــذا الاتفـــاق طوعا ، وبرضى من الطرفين ، وتوكيد ذلك بالايمان على حصار امـــا مدينة صور أو عسقلان بعد عيد الغطاس (٦ كانون الثاني) .

وكنا نفتقر الى الأموال ، وهذا ما أقعدنا عن العمل ، ومـــع ذلك جمعنا في تلك الآونة مبلغا كبيرا من المال اقترضناه من الناس فـــردا فردا بهدف الدفع للفرسان و الرجالة المأجورين ، حيث لم يكن من

الممكن تنفيذ هذا الحصار المقترح بـــدون دفـــع الأمـــوال الى الرجال ، كما اضطررنا الى رهن أنفس زخارف كنيسة القدس حتى نحصل على القروض من المسلفين.

وحسب الاتفاق اجتمع الجميع مـن كل حـدب وصـوب في المكان المحدد.

شعر:

عندما انتعش برج الدلو بحرارة الشمس للمرة الثالثة.
غادر الناس جميعا القدس لمقابلة العدو
وحصل ذلك يوم الأحد ، غرة الشهر القمري.

حصار صور على يدي البطريرك والبنادقة :

بعدما وصلوا الى عكا ، أعدوا مـع أهـل البندقية مـا لزم مـن ترتيبات للزحف نحو صور والقيام بحصارها، وفي اليوم الخـامس عشر قبل بداية شهر آذار طوق البطريرك وبصـحبته جميع أتبـاعه والدوج ومعه بحارته وسفنه مدينة صور .

شعر :

عندما دخلت الشمس في برج الحوت.

ولدى سماع رجال عسقلان ، الذين لم يسـتطيعوا كبـح جمـاح صفاقتهم بذلك ، لم يترددوا في أن يلحقوا بنا أعظم ما استطاعوا من

الأذى ، وقسموا جيشهم في أحد الأيام الى ثلاثة أقسام ، وقادوا القسم الأكبر من كتائبهم نحو القدس ، وقتلوا ساعة وصولهم بوحشية ثمانية رجال وجدوهم يشربون النبيذ خارج المدينة.

وما أن اكتشف أمر قدومهم حتى صدحت الأبواق من فوق برج داود لاعلامنا بذلك ، وخرج فرنجتنا والسريان للقائهم والتصدي لهم ، وقاوموهم بكل بسالة ، وبعدما أنهك كل طرف نفسه في مواجهة الطرف الآخر في قتال استمر ثلاث ساعات ، انسحب أهل عسقلان ، وقد اعترتهم الكآبة ذلك أنهم حملوا معهم عددا كبيرا من الجرحى.

وطاردهم رجالنا الى مسافة قصيرة ، لكنهم لم يتجرأوا على ملاحقتهم الى مدى بعيد لافتقارهم الى الفرسان ولخشيتهم من وجود كمين ، ومع ذلك أحضروا معهم في النهاية سبعة عشر رأسا من رؤوس الأعداء وعددا مماثلا من الخيول ، ويقينا إنه لو كان لدينا فرسان لما نجا من الأعداء إلا قلة ، لكن فرساننا كانوا مع الجيش ، ثم قدمنا الحمد للرب حق الحمد على الدوام.

صور وشهرتها :

في تلك الأثناء كان أهل صور محصورين مطوقين داخل مدينتهم ، ولم يكونوا يطلبون السلام ولا هم خضعوا وسلموا ، بل اعتادوا لوفرة ثرواتهم ، وللدعم والعون الذي كان يأتيهم عن طريق البحر على الغطرسة.

وهذه المدينة هي أوسع مدن أرض الميعاد ثراء وأعظمها صيتا باستثناء حاصور التي ملكها جابين ملك الكنعانيين ، وكان ذلك في قديم الزمان ، وهي التي دمرها يشوع فيما بعد ودمر معها مدنا

اخرى كثيرة (يشوع : ١١ / ٤١،) ومن جانب آخر ذكر يوسفيوس أنه كان فيها ثلاثة آلاف مركبة حديدية وثلاثمائة ألف رجل مسلح ، وعشرة آلاف فارس ، وقاد جيشها سيسرا .

وأقام الفنيقيون هاتين المدينتين : صور وحاصور على اليابسة ، واشتهرت صور بتجارة المفرق وأكثر بتجارة الجملة الكبيرة (أشعيا : ٢٣ / ٨) واشتهرت الثانية بكثرة سكانها ، وفي الوقت الذي وقعت فيه صور على طرف البحر وقعت حاصور على المرتفعات .

وشيد الفنيقيون صور زمن هرقل عندما حكم جدعون في اسرائيل (يهودا : ١٦ / ١١ / ٤٠ ، ٧ / ٨) ذلك أن هذه المدينة في بلاد الفنيقيين ، وهي المدينة التي ذكرها أشعيا وأنبها على غرورها (أشعيا : ٣٣) وفيها صباغ الأرجوان الممتاز ، والى ذلك يرجع قولهم :« صباغ أرجواني صوري » وتعني كلمة صور الممر الضيق ، وهي تدعى « سور » بالعبرية .

واستولى شلمنصر ـ ملك الآشوريين ـ على صور خلال حروبه التي شنها على سورية وفينيقية وذلك في الفترة التي حكم فيها اليوليوس هناك ولأن أهل صور رفضوا الخضوع لملك آشور فقد حاصرهم مدة خمس سنوات ، وعن هذا كتب مناندر وأسهب أيضا يوسفيوس في الكتابة عن هذا الموضوع نفسه .

وعبر الصوريون البحر في تلك الآونة تحت امرة اليساديدو ابنة بيلوس وأسسوا مدينة قرطاج في افريقية ، ويذكر المؤرخ أورسيوس أن موقعها قد أحيط بسور امتد ثلاثين ميلا ، وكان بلا مداخل ، ويكاد البحر أن يطوقها من جميع الجهات ، وكان عرض مرساها ثلاثة أميال ، وشيد سور قرطاج من الحجارة المربعة ، وكان عرضه ثلاثين قدما وعلوه أربعين ذراعا .

- ٢٩٠٠ -

وقد شغلت قلعتها مساحة تزيد على الميلين ، وكانت تدعى برسه ، لقد أنشأت اليسا قرطاج قبل تأسيس روما بسبعين سنة ، وفي السنة السبعمائة بعد انشائها دمرت ، حيث دمر أولا سورها الحجري برمته ، وجاء قدرها المحتوم على يدي بابلوس سكيبو الذي عمل قنصلا لروما لمدة سنة ، وظلت تحترق بعد تدميره لها ببؤس لمدة سبعة عشر يوما كاملا .

من استولى على صور أو حاصرها في الماضي:

ووهن امر صور السالف ذكرها ، وبقيت غير آهلة بالسكان لمدة سبعين سنة ، حسبما ورد في سفر أشعيا (أشعيا : ٣٣ / ١٥، ١٧) ، وكان عندما تمرد أهل قبرص على صور قهرهم الملك اليوليوس ، كذلك هاجم شلمنصر ملك آشور صور ثانية ، ثم انسحب ، وذلك في الوقت الذي استسلمت له فيه مدينتا صيدا وعرقة – التي تدعى أكتيبس – وكذلك صور القديمة ومدن أخرى كثيرة .

ولما لم تخضع له صور ، زحف ضدها بوساطة اسطول تألف من ستين سفينة وتسعمائة مجذاف ، كان قد زوده بهم الفنيقيون ، فتصدى لهم الصوريون بااثنتي عشرة سفينة ، ومزقوهم وبددوا شمل سفنهم ، وأسروا منهم خمسمائة رجل ، ولهذا طارت سمعة صور وعظم صيتها .

وعاد ملك آشور وأقام مراكز حراسة على نهر المدينة وقنواتها ليحول بين الصوريين وبين جر المياه وشربها ، وصبر الصوريون على هذه المحنة مع أنها طالت مدة خمس سنوات ، حيث كانوا يشربون المياه من آبار حفروها ، وكل هذا جاء مدونا حول شلمنصر ملك آشور في وثائق صور .

وهذا الملك هو الذي حاصر السامرة واستولى عليها في السنة السادسة لحكم الملك حزقيال ، وهو الذي حمل اسرائيل الى السبي في آشور(الملوك الثاني: ١٧ / ٣ -١٨٦ ; ٩ - ١١)وكان الذي حكم قبل شلمنصر فول ملك الآشوريين (الملوك الثاني: ١٥ / ١٩) وبعده تغلا فلا سر ملك آشور الذي استولى على قادش وحاصور في نفتالي قرب بانياس ، وجلعاد ، والجليل بأسره ، وسبى أهلها الى آشور (الملوك الثاني: ١٥ / ٢٩) ثم جاء سرجون ملك آشور ، وهو الذي بعث ترتان ليحارب أشدود وقد استولى عليها ترتان (أشعيا : ٢٠ / ١ - في سنة قدوم ترتان الى أشدود حين بعثه سرجون ملك آشور ، فحارب أشدود أخذها) وهكذا دمرت أرض الميعاد بسبب خطايا أهلها ، وتعرضت للسبي على يد الآشوريين أولا ثم على يد الكلدانيين .

وحاصر نبوخذ نصر ملك كلدان وبابل مدينة القدس ، واستولى عليها ، ولهذا لجأ الملك صدقيا الى الفرار ، غير انه وقع بالأسر على مقربة من أريحا ، ثم حمل الى ملك بابل الى البلدة التي تدعى ربلة في بلاد حماة ، ويذكر جيروم أن حماة الكبرى في أنطاكية ، وحماة الصغرى في أبيغانيا ، وهناك أمر نبوخذ نصر بقلع عيني صدقيا وبقتل بنيه في حضرته ، ثم حضر نبوزرادان قائد شرطة الملك ، وأحرق بيت الرب وبيت الملك ، وهدم جميع أسوار القدس المحيطة بها .

وبعد أمد من الزمن جاء الملك الاسكندر فحاصر صور واستولى عليها ، كذلك أخضع صيدا وقبل ذلك دمشق ، كما احتل غزة بعد حصار دام شهرين ، لكنه كان قد حاصر صور لمدة سبعة أشهر ، ثم توجه الاسكندر بسرعة نحو مدينة القدس حيث استقبل بكل حفاوة وتكريم ، ولذلك خلع على الكاهن الأعظم ، واسمه جيدوه أسمى درجات الشرف ، ودخل الاسكندر منفردا ، فقدم التبجيلات اللائقة لجيدوة ، الذي وضع على رأسه قلنسوة وارتدى ثوبا ارجوانيا

مذهبا ، وحمل صفحة ذهبية خط عليها اسم الرب ، وبعدما تدبر الاسكندر أمور القدس قاد جيوشه ضد المدن الأخرى .

وبعد سنين طوال ، وبسبب آثام اليهود تحدى أنطيخوس أبيفانس ناموسهم ، وقمع جماح المكابيين بشدة ، وجاء بعده بومبي فأطاح بأهل القدس بشكل محزن ويبعث على الأسى ، وأخيرا جاء فسباسيان وابنه تيتوس ، وقد دمر تيتوس القدس دمارا شاملا ، وهكذا نجد أن القدس والمناطق المحيطة بها والتابعة لها عانت كثيرا وتألمت في تعاقب الأحداث القديمة وحتى يومنا هذا .

وجل أراضي فلسطين مع جزء من فينيقية ، التي نالت اسمها من فونكس أخو قدموس ، هي جرداء قاحلة ، ثم هناك السامرة وأراضي الجليل ، وتقسم بلاد الجليل الى قسمين : الجليل الأعلى والجليل الأدنى ، ويحدهما من الجانبين فينيقية وسورية .

ويمتد الجزء الواقع فيما وراء الأردن طولا من مقاورير الى فحل وعرضا من عمان الى الأردن ، وتحده شمالا فحل وغربا الأردن ، وجنوبا بلاد موآب وشرقا العربية وعمان وجرش ، وتقع السامرة مابين يهودا والجليل ، وتمتد يهودا عرضا مابين الأردن ويافا ، وتقع مدينة القدس في وسطها وهي سرة البلاد .

ويمتد الجليل الأدنى من طبرية الى زيلون فعكا والكرمل وجبال صور ، ويضم : الناصرة ، وصفورية ، وهي بلدة منيعة ، وطابور وقانا ، ومدنا أخرى كثيرة ، ويحده لبنان ومنابع نهر الأردن التي تدعى الآن بانياس أودان ، أو قيسارية فيليب وتقع حوله بلاد الطراخونيين وبلاد الأنباط ، والى الجنوب منه السامرة وسيزيوبولس التي تعرف باسم بيسان

وتحد يهودا مدينة بير السبع ، وتضم يهودا تمنة واللد ويافا ويبنا ، وتكوه والخليل واشتول ، وزورا وكثيرا غيرها .

وبعدما سلكت سبلا متشعبة أعود الآن الى صلب الموضوع بعدما ابتعدت عنه فترة طويلة .

انتصار أهل انطاكية على الترك ومقتل بلك :

في الوقت الذي كنا فيه نعمل بكل نشاط خارج صور ونجهز آلات الحصار بالعناية اللازمة ، لم يتوقف بلك عن قيادة جيشه وأحلافه ضدنا لقتالنا ، فوصل الى مدينة منبج ، قادما اليها من مدينة حلب وكان ذلك في أوائل شهر أيار ، وكان برفقته خمسة آلاف فارس وسبعة آلاف راجل ، وعندما رفض صاحب منبج تسليمها له دعاه بلك الى الاجتماع به خارج المدينة ، وهناك غدر به وقطع رأسه .

ثم حاصر بلك المدينة دون تمهل ، ووصل الخبر الى جوسلين ، وكان آنذاك في انطاكية ، فاندفع نحو منبج ومعه رجال انطاكية ، ومع أن جيش المسيحيين كان قليل العدد ، غير أن جوسلين لم يخش من الزحف ضد حشود الكفار ، ولم يمض وقت طويل حتى نشبت معركة حامية الوطيس .

وبعون الرب هزم الترك ثلاث مرات ، غير انهم ظلوا يقاتلون بكل جسارة بعد هذه المرات الثلاث ، وقاد بلك ــ الذي اصيب بجرح مميت ــ القتال وهو يعاني من سكرات الموت ، وعندما اكتشف رجاله ذلك فر منهم من استطاع الفرار ، وتهيأت أمامه السبل ، والحق أن عددا كبيرا ممن تمكن من الفرار لم يتمكن من النجاة ، ولقد روي أن ثلاثة آلاف فارس منهم لاقوا حتفهم ــ غير ان عدد الرجالة لم يعرف بالضبط ــ وقد سقط من فرساننا ثلاثون قتيلا ، وكذلك ستون من رجالتنا الذين كانوا يسوقون الدواب .

وأراد جوسلين أن يتأكد من وفاة بلك ومن عدم نجاته ، فتفقد رجاله جثث القتلى وبحثوا بينها حتى عثروا على جثة بلك ، وقد

تحققوا منه بالشارات المألوفة على درعه لمن كان يعــرفها ، وقــطع رجل رأس بلك ، وحمله الى جــوسلين مهنئا ، فتســلم منه أربعين قطعة نقدية ، وفاء بوعد كان قد قطعه له .

وأمر جوسلين بالحال بحمل رأس بلك الى انطاكية ، مؤشرا على نصره ، ثم بعثه الينا ، وكان الرجل الذي حمل رأس بلك الى صور والقدس داخل جراب ، قد روي لنا جميعا الرواية ووصف مــاحدث لأنه كان ممن شهد هذه المعركة الجديرة بالذكرى .

وفي الحقيقة كان هذا الرسول تابعا لجوسلين ، وبمــا أنه حمــل هذا النبأ المفرح الى جيشنا المعسكر أمــام صــور ، فقــد خلع عليه سلاح فارس ، فترقى من مرتبة تابع الى مرتبة فارس ، وكان الذي منحه المرتبة كونت طرابلس .

وحمدنا جميعا الرب وشكرناه لأن بلك ذلك التنين المخيف المرعب والهائج الذي ظلم المسيحية وداس عليهــا ، قــد أخمــدت أنفــاسه أخيرا .

شعر :

أشرقت الشمس تسع عشرة مرة في برج الثــور عندمــا خــربلك صريعا ، بعدما خانه الحظ .

انظر وتمعــن كيف تحقـــق تفســـير الحلم الذي ذكرناه مـــن قبل ، الحلم الذي روى وصفه بلك وهو يتنبأ بموته وكان ذلك بعــدما نجا جوسلين من الموت بأعجوبة ، وفي الحقيقة لقد حطمه جــوسلين تحطيما كاملاً وهشمه إذ جرده من الرأس والأعضاء .

شعر :

لارأى بلك ولاسمع ولاتكلم ولامشى ولم يبق له موضع في الأرض ولافي السماء ولا في البحار .

الذي جرى اثناء حصار صور

عندما اخلد الذين القوا الحصار على صور الى الراحة في احد الأيام ، اغتنم الصوريون الفرصة واجتمعوا من ترك ومسلمين ، وفتحوا ابواب البلد على مصاريعها وانقضوا بسيوف مصلتة على اشد آلاتنا قوة ومناعة ، وقبل أن يتمكن رجالنا الذين كانوا يحرسونها من حمل سلاحهم ، داهمهم الأعداء وأبعدوهم عنها بعدما اثخنوهم بالجراح ، ثم اشعلوا النار في الآلات ، وكانت هذه الآلات تستخدم لتدمير الأسوار وابراج المدينة برميها بالحجارة واحداث ثغرات في وسائل دفاعها .

وقد خسرنا في هذا الانقضاض ثلاثين من رجالنا ، لكن العدو خسر ضعف ذلك العدد ، كما واصاب اهل المدينة رجالنا بجراح كثيرة والحقوا بهم خسائر جمة من خلال الرشقات المتوالية بالنبال والحراب والحجارة من أعالي السور .

وابحر في اثناء هذا كله جماعة من البنادقة لم يتجاوز عددهم الخمسة في مركب صغير ، فواتاهم ـ كالعادة ـ الحظ السعيد ، وسطوا على دار صغيرة على مقربة من السور ونهبوها ، وقطعوا راسي رجلين وجدوهما هناك ، وعادوا أدراجهم على الفور فرحين مسرورين بغنيمتهم المتواضعة ، ووقع هذا الحادث في اليوم الحادي عشر قبل بداية شهر حزيران .

لكن ذلك لم يكن كبير النفع ، فقد تمكن بعض الصوريون قبل ذلك بوقت قصير من سرقة قارب في احدى الليالي ، وسحبوه الى مرسى المدينة ، ذلك أن مثل هذه الأمور تحدث كثيرا في مثل هذه المناوشات .

شعر :

يخفق انسان وينجح أخر ، ويفرح انسان ويبكي أخر .

اغارة اهالي عسقلان المدمرة

لم يتوقف أهالي عسقلان عن التحرش بنا ، ولمعرفتهم بقلة عددنا ظنوا أنهم قادرون على اضعافنا وانزال الدمار الشديد بنا ، وبالفعل دمروا قرية صغيرة في أحواز القدس تدعى البيرة واحرقوها ، وحملوا معهم ماوجدوا من أسلاب هناك وذلك مع قتلاهم وعدد كبير من الجرحى ، وكانت النساء قد لجأن مع الأطفال الى برج شيد هناك في ايامنا ، فضمنوا بذلك النجاة بأرواحهم ، ثم طاف العسقلانيون وجاثوا خلال الديار ينهبون ويقتلون ويأسرون ويسرقون ويحدثون مااستطاعوا من دمار ، ولم يجدوا من يصدهم ، فقد كنا جميعا منهمكين بحصار صور ، ننتظر العون من السماء لانجاز مهمتنا بعون الرب وتدبيره ، وكان الوضع صعبا ولم يكن بمقدورنا الاستمرار في تحمل عناء الليل وجهد النهار .

وبينما كنا ننتظر بأذان مشنفة سماع أي همسة من أخبار مفرحة ، اذا نحن بثلاثة رسل يصلون من لدن البطريرك حملوا منه رسائل مستعجلة تعلن سقوط صور لنا ، ولدى سماع هذه الأنباء ارتفعت الأصوات مجلجلة وقامت ضجة عالية تدل على الفرح الزائد

والغبطة المتناهية ، واخـذ الجميع بـالحال ينشـدون « الحمـد للرب » وقرعت النواقيس ، ومشى موكب نحو معبد الرب ، ورفعت الاعلام على الأسوار والابراج ، وعرضـت الزينات الملونة في جميع الطرقات . ورفعت ايات الشكر ، واجزلت العطايا للرسل ، وتبادل الوضيع والرفيع التهاني ، وابتهجـت الفتيات ورفعـن أصـواتهن بالغناء .

لقد حق للقدس أن تفرح مثل الوالد وتسر بابنتها صـور ، وقـد جلست الآن عن يمينها متـوجة حسـبما يليق بمـن هـو في منزلتها ، بينما ندبت مصر وبكت فقدان هيبتها ، التي كانت الى أمد قريب سندا لها ، واسفت على اسطولها المعتدي الذي كانت تسيره كل عام ضدنا .

ومع أن مكانة صور تدنت وانخفضت في الابهة الدنيوية ، فـالحق يقال انها ارتفعت وترقت في المنزلة الربانية ، فبينمـا كان لهـا أيام الكفار إمام أو قاضٍ في مركز السـلطة ، سـوف يكون لهـا رئيس اساقفة أو بطريرك تمـاشيا مـع تقـاليد الأبـاء في الأعراف المسيحية ، وحيثما كان هناك مشايخ ائمة سيكون رؤساء أسـاقفة يعينوا لحـكم المقـاطعات ، وحيثمـا كان هناك حـاضرة أو مايسمى « أم قرى » سوف يشرف مطران على ثلاثة مدن او اربعة داخل مقاطعة الحاضرة الأم .

وحيث وجد كهنة أو كونتـات في البلدان الصـغيرة سـيتم رسـم أساقفة ، زد على هذا لقد عرف الرهبان وباقي رجال الاكليروس في بعض التنظيمات الرهبانية الأقل شأنا « بمحـامى الشـعب » ولم تكن هذه التسمية من باب الحماقة ابدا .

-٢٩٠٨-

استسلام مدينة صور :

عندما أدرك ملك دمشق ان الاتراك والمسلمين قد احتجزوا في مدينة صور ومالهم من قبضتنا مناص اثر ان يفتديهم احياء ولو ببعض المهانة على أن يبكيهم أمواتا ، لذلك استفسر بوساطة بعض الوسطاء العقلاء عن امكانية خروج قومه ومعهم جميع مقتنياتهم امناء من المدينة ومن ثم تسليمها إثر ذلك خالية الينا .

وبعدما تساوم الطرفان حول هذا الأمر لفترة طويلة ، تبادلا الرهائن ، وغادر المسلمون المدينة ودخلها المسيحيون بأمان ، وقضت الشروط بالسماح لمن اراد من المسلمين البقاء في المدينة والعيش بأمان .

شعر :

ظهرت الشمس احدى وعشرين مرة في برج السرطان .
عندما انتزعت صور مستسلمة مقهورة .
وحصل ذلك بعد سبعة أيام من اول تموز .

لهذا يجب علينا الا نكف عن ـ لابل الا نتردد في ـ أن ننشد الرب حاميا رؤوفا ومعينا لنا في أوقات الشدة ، وأن نتوسل اليه في الصلوات حتى يصغي الى تضرعاتنا ، ولقد فعلنا ذلك بالقدس وطبقناه حقا بوساطة زياراتنا المتلاحقة للكنائس ، وبذرف الدموع ، وتقديم الصدقات ، ولجم الأجساد بالصيام ، وأعتقد انا أن الرب المطل من عليائه لن يغادر قبل أن يترك وراءه بركة (يوئيل : ٢/١٤) ولسوف يسمع صلواتنا .

تتواءم كل سلطة زمنية في مقام عزتها مع المرتبة التي

تمثلها ، ففي المقــام الأول هناك أغســطس أو الامبــراطور ، ثــم القياصرة ، ثم الملوك والدوقات والكونتات ، فهذا مــاقاله البــابا كليمنت ، وأنا كليت وانيسيت وغيرهم كثير .

حمدا للرب في الأعالي الذي أعاد صور الينا ، لابقوة الرجال بل بعفو الخاطر وبدون سفك للدماء ، فصور مدينة نبيلة ، شديدة المنعة يصعب كثيرا الاستيلاء عليها لو لم يمد الرب عليها يمينه .

لقد خذلنا اهل انطــاكية وتخلوا عنا في هــذه المســألة ، فــلاهم امدونا بالعون ولاهم رغبوا في حضور هذه المعركة ، ولتحل البــركة على بونز كونت طرابلس ، فقد كان حليفا أمينا مخلصا لنا ، ونأمل من الرب أن يصلح مابين كنيســتي انطــاكية والقــدس ، بعــدما اختصمتا حول صور ، ثــالثهما في المكانة ، فقــد قــالت الكنيســة الأولى : إن صور كانت تــابعة لهــا أيام اليونان ، بينمــا قــالت الكنيسة الثانية : إن مركزها قد ازداد قوة بالامتيازات التي خصها بها البابا في رومــا ، ذلك أن مجمــع أوفيرن ، ذلك المجمــع النافــذ الكلمة ، الذائع الصيت ، كان قد اصــدر بــالاجماع قــرارا بــدون معارضة ، قضى بوجوب الاحتفاظ بأية مدينة عبــر البحــر العــظيم يمكن انتزاعها من براثن الكفار الى أبد الدهر ، زد على هــذا أعيد تثبيت هذا القرار وسلم به الجميع في مجمع انطــاكية الذي تــرأسه أسقف لى بوي ، أضف الى ذلك : إن القدس هي البقعة التي استلم فيها غودفري والأمير بوهموند بلديهما من البطريرك ديمبرت محبــة بالرب ، وقد ثبت البابا باسكال هذه الامتيازات ، وفعــل ذلك مــن حين لآخر ، ونقلها الى كنيسة القدس ، ولســوف تتمتــع كنيســة القدس بحقوق هــذه الامتيازات ، مســتندة الى ســلطان كنيســة روما ، وستفعل ذلك أبد الدهر ، ووردت هذه الامتيازات في الوثيقــة التالية :

- ۲۹۱۰ -

امتيازات البابا باسكال :

من باسكال خـادم عبيد الرب الى اخيه العـظيم التبجيل غوبلين بطريرك القدس ، والى خلفائه في القوانين الكنسية .

تتغير ممالك الأرض وفقا لتبديلات الأزمان ، لهذا السبب إنه من المؤلم أن تتغير حدود الأبـرشيات الكنسـية وتنقـل في معـظم المقاطعات ، وكانت حـدود الكنائس الآسـيوية قـد وزعت في قـديم الزمان وفقا لقواعد محددة مثبتة ، وقد أخل بقواعد هذا النظام تدفق شعوب شتى تدين بأديان مختلفة ، وبما أن كل من مدينتي انطـاكية والقدس والمقاطعات والمناطق المجاورة لهما قد اسـتردتا ـ بحمـد الرب ـ في زماننا الى سلطة الأمراء المسيحيين بات مـن الضروري أن نضع يدنا على هـذا التغيير والتحـول الربـاني ، وأن نتـدبر ماينبغي أن نتدبره بما يوائم هـذا الزمـان ، وبناء على ذلك : إننا نمنح كنيسة القدس جميع المدن والمقاطعات التي امتلكت ببركة الرب وبحكمة الملك بلدوين ، وبدماء الجيش الذي كان بامرته .

وبناء عليه اننا نضـفي عليك ونمنحـك ياغوبلين ، وأنت الأخ العزيز والشريك في الأسقفية ، والى من يخلفـك ومـن خـلا لك الى كنيسة القدس المقدسة ، بموجب هذا المرسـوم ، سـلطات الحـكم والتصرف بحقوق البطركية والمطـرانية في جميع المدن والمقـاطعات التي أرجعتها البركات الربانية الى سـلطان الملك المذكور ، أو قـد تتلطف وتتحنن في اعادتها في المستقبل .

ذلك انه من اللائق أن تحظى كنيسة قيامة الرب بالاجلال الجديرة به وفقا لرغبات جند الدين ، وأن تنعم الآن بعدما تحررت من براثن الاتراك والمسلمين بأكبر قدر من التبجيل على أيدي المسيحيين .

- ٢٩١١ -

توزيع الأراضي حول صور :

وسويت المشاكل في صور وفق قواعد الأصول ، وقسمت الممتلكات الى ثلاثة اقسام متساوية ، بحيث أعطى اثنان منهم الى سلطة المدينة ، أما الجزء الثالث فقد اعطي الى البنادقة ، وقد وقع هذا الجزء داخل المدينة وحول المرفأ ، وفي الحقيقة منح للبنادقة نتيجة لتنازلات متبادلة ، تم الاتفاق عليها واحدا إثر الآخر ، وقضى التقسيم باحتفاظ كل فريق بحصته حقا وراثيا مؤبدا ، وبعد هذا عاد الجميع الى بلادهم ، فقد عاد البطريرك وجند القدس الى القدس حيث استقبل رجال الاكليروس والشعب الصليب المقدس بالاجلال اللائق .

الشارات التي ظهرت في تلك الآونة :

ظهرت لنا الشمس في تلك الآونة بلون باهر لمدة ساعة ، ومالبثت ان تبدلت بجمال ارجواني غير مألوف ، ثم انقلبت الى شكل قمري ، كما لو كانت في حالة كسوف مزدوج ، وقد وقع ذلك في اليوم الثالث قبل منتصف شهر أب ، عندما أوشكت الساعة التاسعة على الانغلاق .

وعليك الا تدهش لدى رؤية الشارات في السماء ، لأن الرب يظهر أياته هناك كما يظهرها على الأرض فكما يصنع في السماء يفعل على الأرض يبدل ويدبر الأمور حسب مشيئته ، وصحيح أن جميع الأمور التي يصنعها الرب رائعة حقا ، فان الرب نفسه الذي يصنع هذه الأمور يفوقها روعة ، وانني اتوسل اليك ان تتمعن بالأمور ، وتفكر مليا وتتبصر كيف حول الرب في زمننا هذا الغرب نحو الشرق .

ذلك ان الذين كانوا غربيين بـــاتوا الآن شرقيين ، والذي كان روميا او فرنجيا قـد تحـول في هـذه البـلاد الى جليلي او فلسطيني ، ومن قدم من الرايم أو تشارترز صار الآن مـن اهـالي صور أو انطاكية ، ولقد نسينا الآن اماكن ولادتنا فهي قد باتت الآن غير معروفة لدى الكثيرين منا ، ونادرا مايرد ذكرها .

ويمتلك بعضنا الآن البيوت والمساكن بالميراث ، كما اتخذ بعضنا زوجاتا لهم لا مـن بنات جلدتهـم ، بـل مـن السريانيات أو الأرمنيات ، بل وحتى من نساء السراسنة اللواتـي حظين ببـركة العماد ، وقد يسكن مع الواحد منا ختنة او زوجة ولده ، أو ابنه ان لم يكن ابـن زوجتـه أو زوج امـه ، ولدينا الآن احفـاد أولاد وأحفاد ، ويعتني بعضنا بـزراعة الكرمـة ، ويحـرث أخـرون الحقول .

وأخذ الناس يلجأون الى اعتماد التعابير من لغـات شـتى ، كذا استعمال البيان في التحادث فيما بينهم ، فقد غدت كلمات كثيرة من لغات مختلفة ملكية مشتركة تعرفها كل امة ، ويوحد الدين فيما بين الذين جهلوا أصلهم ، وحقا صح ماورد في الكتاب « الذئب والحمل يرعيان معـا والأسـد يأكل التبـن كالثور » (أشعيا : ٦٥ / ٢٥) وأصبح الذي ولد غربيا كمن ولد هنا ، ومن ولد أجنبيا صار مثل ابن البلد .

وينضـم الينا بين أونة واخـرى اقـرباؤنا وابـاؤنا وذوونا ، مضحين ـ وان كان على مضض ـ بكل ماملكت ايديهـم فيما مضى وقد جعل الرب الذين كانوا فقراء في الغرب اثرياء في هـذه الديار ، والذين كان لديهم قليل من مال امتلكوا الآن هنا مالايحصى من القطع الذهبية ، ومن لم تـكن لديهـم دار امتلكوا بنعمـة الرب مدينة .

فلماذا اذن يرجع الى الغرب من وجـد الشرق هـكذا ؟ فـالرب

لايريد أن يعاني من العوز والفاقة الذين كرسوا انفسهم على اتباعة بصلبانهم حتى النهاية .

فانت ترى اذن ، ان هذه اية خارقة ، ينبغي على العالم بـأسره ان يبدي اعجابه بها ، فمن الذي سمع بأمر مثل هذا ، فالرب يرغب في أن يغذينا جميعا ويقربنا منه لنكون أعز اصدقائه ، ولأنه يرغب في هذا ادنا نتوق شوقا اليه بشكل مطلق ، ونحـن نقـوم بمـا ينال ...اه بقلب تغمره المحبة والخضوع حتى نتولى الملك معـه الى أبـد الآبدين .

اطلاق سراح الملك من الأسر وحصار مدينة حلب :

بفضل من الرب القدير ، أطلق سراح ملك القدس من الأسر على يد الترك ، في اليوم الرابع قبل مطلع شـهر ايلول ، بعـدما أمضى في السجن نيفا وستة عشر شهرا ، ونظرا لأنه توجب عليه تقديم رهائن مختارة مقابل اطلاق سراحـه ، أنه لم يمض حـرا طليقـا بـدون مثبطات ، فقد ارغم هو والرهائن على القلق حـول مسـتقبل مبهـم يحفه الغموض .

وبعد هذا بوقت قصير ، واثر عقد بعض المداولات ، سارع الملك ـ بحكم الضرورة ـ الى حصـار مـدينة حلب ، وقصـد بـالقاء الحصار عليها اما ان ينتزع اطـلاق سراح رهـائنه امـا بـوساطة السكان انفسهم او امكانية احتلال المدينة ، لانها كانت تعاني مـن المجاعة ، فهو قد علم فعلا انها كانت تشكو من شح الغذاء .

وتبعد هذه المدينة قرابة الأربعين ميلا عن انطاكية الكبرى ، فهنا جعل ابراهيم ـ وهو في طريقه من حران الى بلاد كنعان ـ رجـاله يرعون الماشية في هذا المرتع الخصب ، وقـد رعى منهـا الحـوامل

والتي سـوف تحمـل العجـول ، وهنا قـام بحلب الحليب في الدلاء ، وتخثيره ، ثـم عصر الخثـارة في اكياس وصـنع الجبنة منها ، فقد كان ابراهيم موسرا لديه من المقتنيات من كل صنف .

وفي اليوم الثالث عشر قبل مـطلع شـهر كانون الثـاني تـوفي البـاباكالتكستوس وفي عام ١١٢٥ لتجسـيد مخلص الدنيا ، في الخمسعشرية الثالثة حاصر ملك القدس ورجـاله مـدينة حلب مـدة خمسة أشهر ، غير أنه لم ينجز شيئا ، فقد عبر الأتـراك ــ وهـم يقظين كعادتهم ــ نهر الفـرات ، نهـر الجنة العـظيم (سـفر التكوين : ٢ - ١٠ - ١٤) وزحفوا بسرعة قصوى نحو مـدينة حلب بهدف فك الحصار عنها ، وذلك انهم كانوا يخشون ان تسـقط حلب بعد امد قصير ان لم يغيثوها بـالسرعة العـظمى ، فقـد كان قومنا قد اخذوا بحصارها منذ مدة طويلة .

لقد كان هناك سبعة الاف فارس من الأعداء معهم نحوا من اربعة الاف جمل محملة بالقمح وغير ذلك من المؤن ، وعندما اخفق رجالنا في الانتصار على الأعداء اضطروا الى رفع الحصار والانسـحاب في اليوم التالي الى الأثارب ، وهي أقرب موقع حصـين وقـع تحـت سيطرتنا ، وبعد ماطاردتنا مجموعة من الأتـراك لمسـافة قصـيرة فقدوا اثنين من أشجع رجالهم ، حيث سـقطا عن فـرسيهما فلقيا حتفهما ، وفقدنا نحن أحد تابعي المعسكر مع ستة خيام .

ووقع هجوم الأتراك في ليلة اليوم الرابـع قبـل بـداية شـهر شباط ، ولأن الأتراك بـاغتونا فقـد وجـدونا غير محتـاطين واربكونا .

وانه لمقيت جدا ان يجري الحديث عن هـذا الحـدث ، وانه لمعيب جدا وشائن أن يعرف ، ثم انه ممل ومقيت ان يسمع ، ولكنني أنا الذي أرويه لن أحيد عن الحقيقة ، وماذا اذن ، من الذي يستطيع ان

يقاوم مشيئة الرب ، فضلا عن هذا لقد صدق المثل الذي ضربه رجل حكيم حين قال :« الحوادث التي ماتزال في بطن الغيب لاتمنع ، ولاهي تسمح لنفسها في ان تهزم » وفي الحقيقة كان لابد لهجوم العدو هذا من الوقوع ، لكن مامن أحد توقع ذلك سلفا ، ولو تم توقعه قبل وقوعه لما وقع مطلقا ، اذ ان الفكرة في الذهن تؤدي الى لاشيء الا اذا وجدت ارادة العمل ، ولو تنبأ أحد بالهجوم لأدى الحال الى نقضه ،ولو نقض ماكان وقع .

وانسحب الملك بلدوين اخيرا الى انطاكية ، وذهب معه جوسلين ، وأما الرهائن التي قدمها الملك وقت اطلاق سراحه من الأسر فلاهم أعيدوا ولاهم افتدوا ، ومالبث ان عاد اهل القدس الى القدس وكذلك أهل طرابلس الى ديارهم .

ويكبح التدبير الرباني جماح من أفلح وفقا لمعايير القيم البشرية حتى لايغمره الغرور ، كما انه يغبط الاشرار بحق حتى لايتمتعوا برفاهية الرخاء المديد .

ومن الذي يمنح كل خير ومن الذي يطرد كل شر غير الرب ، موجه النفس وسلوانها الذي يبصر من عليائه في السموات ، ويدرك الأمور كلها ، فمنذ أمد قصير أعطانا نحن المسيحيين بنعمة منه ، مدينة صور المجيدة الجبارة ، وانتزعها من ايدي الذين تملكوها ، وراق له الآن أن يسحب يده .

لعله ادخر كرمه للذين عظم ايمانهم من المزارعين ليتعهدوه بالعناية ، ولمن توفرت لديهم الرغبة والمقدرة على جني الثمار الوافرة منه في الموسم المناسب ، والحق يقال : ان بعض الناس اذا مازادت ثرواتهم قلت افعالهم ، وهم لايقدمون الشكر المتوجب عليهم لواهب كل الخيرات ، فضلا عن أنهم يقترفون الاثم ويخادعون

عندما يكذبون على الرب مرارا في تلك الامـور التـي وعدوا بهـا في صلواتهم ، لكنهم بخداعهم مايخدعون الا انفسهم .

استقبال الملك في القدس بفرحة عظيمة :

بعد أسر دام عامين على ايدي الكفار ، وبعد ما قيد بـالسلاسل بوحشية ، عاد الملك الى القدس ، ولقد اسـتقبلناه جميعـا في اليوم الثالث قبل الخامس من نيسان في موكب رائع ، وكان قدومه مجرد زيارة فبعدما أمضى بيننا فتـرة وجيزة رجـع مسرعا الى انطـاكية إستجابة لدعوة تلقاها منها ، فقد دمر الأتراك تلك البلاد وكان اكبر قادتهم البرسقي الذي قاد ستة الاف فارس .

البنادقة يدمرون في طـريق عودتهـم الى بـلادهم جـزر الامبراطور :

وصلتنا الأخبار في تلك الآونة أن البنادقة ، قاموا وهـم بـرحلة عودتهم الى بلادهم بعد الاستيلاء على مدينة صـور بـالاغارة على جزر الامبراطور (البيزنطي) التي مروا بها فأحدثوا فيها دمـارا وتنكيلا ، وهذه الجـزر هـي : رودس وميثـون ، وسـاموس وشـيوس ، فـدكوا الأسـوار وحملوا معهـم الفتيان والفتيات الى السبي والعذاب ، ونهبوا الأموال والأسـلاب مـن كل نوع ، ولما لم يكن بمقدورنا تغيير هذه الحقيقة بعد سماعنا لها ، بـكينا لما حـدث بحرقة ولامست الشفقة شغاف قلوبنا .

فقد تمرد اهل البندقية على الامبراطور ، واشتد غضبهم وحقدهم عليه ، فاستشاط منهم غضبا ، ثم احتدم غيظ كل طرف منهما على

الطرف الآخر ، وباتا عدوين لدودين حقا ، ولكن « ويل للعالم من العثرات ، ويل لذلك الانسان الذي تأتي به العثرات » (متى : ١٨ / ٧) فاذا كان الخطأ من جانب الامبراطور فهو اذن المبادر بالسوء ، واذا كان من جانب البنادقة فهم قد جلبوا على انفسهم هلاك الجحيم .

وفي الحقيقة تنبع جميع الآثام من الرعونة والعجرفة ، أولايكون الانسان متعجرفا عندما يأثم ويفعل ماحرم الرب ، فقد كان هدف البنادقة الثأر لأنفسهم ، وكان غرض الامبراطور الدفاع عن نفسه ، وهو يقول ان ذلك اكثر انصافا ، بيد ان الأبرياء الذين وقعوا في الوسط بينهما يعانون من الشقاء لذنوب لم يقترفوها ويهلكون من غير حق .

لكن مالذي يمكن ان يقال عن الذين لاينفكون عن القيام بأعمال القرصنة ، فيوقعون كل مايمكنهم من اضرار بحجاج الرب الذين يركبون البحر يريدون القدس ويتكبدون الجهود الشديدة والعناء محبة بالخالق ؟ واذا حقت البركة للودعاء (متى : ٥ / ٧٢) فأي رحمة تحق لفاقدي الضمير ؟ انهم ملعونون من الكنيسة ومحرومون ولسوف يهلكون غير تائبين من غدرهم وآثامهم ، وعندي إن هؤلاء القوم سوف يلقون في الجحيم وهم على قيد الحياة (المزامير : ٥٤/٦) فهم لم يطيعوا الرسل ، وتمردوا على البطريرك ولم يعبأوا به ، واستهانوا بكلام الآباء المقدسين .

وانا أعرف ماينبغي ان يقال فيهم ، ولست خائفا من ان اقوله ، ولسوف يأتي اليوم الذي سيسمعون ذلك من الرب ، وذلك القاضي العادل والحاكم الصارم لاأعرفكم ، من اين انتم (لوقا : ١٣ / ١٢) انتم يامن تطلبون ان يفتح لكم الباب ، انكم قد اتيتم متأخرين ولم تجلبوا معكم خيرا ، وان الباب

قد اغلق (متى : ٢٥ / ١٠) لم تشاؤوا أن تصغوا الي فيما مضى ، اما آلآن ماأظن انه جدير بي أن أصغي اليكم ، وأنا الذي كنت مره قد دعوتكم بان قلت: « تعالوا » اقول الآن بحق « اذهبوا » (متى : ١١ / ٢٨ ، ٢٥ / ٤١) «أقول مااقول امين ولن أغير ماقلت بأي حال من الأحوال » وأقول : ان ماتبقى لهم وينتظرهم رهيب لايطاق ولسوف يكتب الشقاء السرمدي على الذين استحقوه .

اما الآن فسأتابع سرد الأحداث بتسلسلها الزمني ، وحتى أحقق ذلك ولكي لاأقطع مسار الحديث فسوف أعتني بتدوين كل حادث بايجاز .

المضار التي أحدثها البرسقي والحرب التي شنت ضده :

لذلك كله فان البرسقي الذي ذكرنا من قبل طرفا من اخبار شجاعته ووصفنا تجرده من المبادىء والاخلاق ، اقدم بعدما تزايدت قوة جيشه تدريجيا يوما اثر آخر ، على محاصرة مدينة اسمها كفر طاب واستولى عليها بعد الحصار ، فاستسلمت له ، وسلمها وتنازل عنها الرجال الذين تركوا فيها للدفاع عنها ، ذلك انه لم يعد في مقدورهم الحفاظ على مواقعهم وقتا اطول ، ولم يبق لديهم امل في استلام العون من اي مصدر كان ، فلا الملك وصل اليهم ولا كونت طرابلس الذي اصطحبه معه.

فضلا عن هذا كله لم يكن مع الملك سوى حفنة من رجال القدس ، فقد كان اهل القدس قد اصابهم الانهاك لشدة الجهد الذي بذلوه الآن وفي العام المنصرم ، فكيف كان بمقدور الذين ماكادوا يستريحون في بيوتهم شهرا واحدا ان يحتملوا مثل هذا الجهد المتواصل ، يقينا انه لقاسي القلب كل امرىء لاتتحرك في نفسه عواطف الرحمة نحو الذين

-٢٩١٩-
يعيشون حول القدس ، الذين يتحملون الشقاء العظيم ويعاذون ليلا ونهارا في خدمة الرب ، والذين يتساءلون - خشية - وهم يغادرون منازلهم عما اذا كانوا سيرجعون اليها ابدا ، واذا مضوا بعيدا كانوا بحكم الضرورة يحملون الاثقال من الاوعية والمؤونة.

واذا كانوا من الفقراء سواء من الفلاحين او من الحطابية فقد يقعون في الاسر او يقتلون على ايدي السودان في كمائن في الوهاد والاحراج ، ويباغتهم المصريون بغارات من البحر او من البر من هذه الناحية ، اما من ناحية الشمال فكان الاتراك يفاجئونهم ، وفي الحقيقة ان اذاننا مشدفة لسماع زعيق الابواق ، فلعل الحرب قام ضجيجها وجلجلت في الخارج - ، ولو اننا لن نزلق نحو العاصي لغدونا حقا اخلاء الرب بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى.

وبعد ما اجتاح البرسقي اراضي سورية المجوفة ضرب الحصار حول قلعة زردنا ، وهو طامع في الاستيلاء عليها والحصول على كل مايتهيأ له ، غير انه اخفق في الوصل الى ماصبا اليه لذلك زحف على رأس جيشه نحو مدينة اعزاز واوشكت على السقوط ،ودنا وقت الهجوم الحاسم على حاميتها ، اذا بملكنا يصل على رأس ثلاثة عشر فيلقا من رجالنا معبئين في ترتيب كامل للمعركة ، فقد اتخذ رجال انطاكية مواقعهم على الميمنة ووقف كونت طرابلس مع كونت الرها في اليسرة ، وكان موقع الملك في الساقة حيث وجدت كثافة التجمعات.

وكان الاتراك منقسمون الى احدى وعشرين فيلقا ، لذلك كان عددهم بالفعل متفوقا كثيرا ، وسحبوا قسيهم وفوقوها مشدودة الاوتار بعد أن نقلوها من ايديهم وأقروها على سواعدهم ، ثم هاجموا رجالنا ولم يلبثوا ان انقضوا عليهم بسيوف مشهرة حيث اشتبكوا معهم في قتال التحامي قريب.

ولم يتردد ملكنا طويلا اثر مشاهدته لما حدث فانقض على الاتراك متسلحا ومحميا بالصلوات وبشارة الصليب ، صارخا: « الرب يساعدنا» وفعل ذلك وسط صدح الابواق والضجيج المرتفع ، وامر رجاله في ان يحذوا حذوه ذلك انهم لم يقدموا على المبادرة بالهجوم ومباشرة القتال قبل ان يصدر الملك اوامره بذلك.

والحق يقال ، قاوم الاتراك في البداية بكل بسالة ، غير انهم ضعفوا ، ولحقهم الوهن بقدرة خالق الاكوان ، ودب فيهم اليأس ، ونشرت الملحمة العظمى الفوضى بين صفوفهم ، فولوا الأدبار ، وفر منهم من استطاع الفرار.

شعر :

طلعت الجوزاء خمس مرات
عندما وهبنا الرب هذا النصر

وقد وقعت هذه المعركة - التي سوف يخلد ذكراها تمجيدا للرب - في اليوم الثالث ، قبل منتصف حزيران اللافح .

عدد القتلى في هذه المعركة :

من غير الممكن معرفة عدد القتلى او الجرحى في هذه المعركة معرفة حقيقية ، ويندرج هذا على اي معركة اخرى ، لأن الاعداد الكبيرة يمكن تقديرها فقط ، وعندما يتفوه مختلف اصحاب المصنفات والكتاب بالكذب والبهتان ، فمرد ذلك في الواقع الى التزلف والمداهنة فهم يسعون الى اغداق المديح على رجالات بلادهم المنتصرين والى الافراط والمبالغة في اطراء قوة

بلادهم ، حتى ينتفع من نلك أجيال الحاضر والمستقبل ، وبناء عليه من الجلي بكل وضوح ان يقدموا على المبالغة في تقدير عدد القتلى من الأعداء ، وتقليل – ان لم يحذفوا كلية – أرقام الخسائر التي تحل بأصدقائهم ، فالكذب يتماشى هنا مع هذه القحة .

وعلى الرغم من هذا كله ذكر لنا الذين شهدوا هـذه المعـركة أن ألفي تركي لاقوا حتفهم ، وبذلك شهد أيضا الأتراك الذين فروا مـن القتال ، وقد هلك عدد هائل من الخيول من الطرفين نتيجة الانهـاك او بسبب العطش الشديد ، فقد كان يوم الملحمة قائظا وزادته شـدة الجهود ورفعت من حـرارته ، وكانت معـركة شـديدة قـد وقعت ، أصاب فيها قوم جنات النعيم وهلك آخرون ، وهـرب قـوم وطاردهم آخرون ولم ينج من المضـار أحـد ، فـاحمرت الحقـول وصبغت بـدم الهـالكين الطـرقات ، وتـلألأت الدروع والسابغات ، وأشعت الخوذ وأسنة الرماح وألقي بالمعدات البـراقة على الأرض في كل جانب ، فقد رمى واحد بدرعه وقذف آخر بكنانته أو قوسه .

ولم يرغب البرسقي في ادخار جهده للقتال ، لكن طغتكين آثر أن يقيم حافي القـدمين في دمشـق وان يحـافظ على ملكه بحـذر وحكمة ، وخسر الأتراك في المعركة خمسـة عشر اميرا ، ولم نفقـد أكثر من عشرين رجلا ، كان خمسة منهم فقط من الفـرسان وكان قوام جيشنا قبل المعركة ألف ومـائة فـارس مـع ألفين مـن الرجالة ، بينما كان لدى الأتراك خمسة عشر ألف مقاتل .

فدية ابنة الملك :

عبر البرسقي نهر الفرات ، بعـدما تسـكع في ديارنا لعـدة أيام فقط ، وقد رجع الى بلاده دون أن يحمـل الى أصـدقائه في المشرق (فارس) المجد والفخار ، بل نقل معه الفجيعة والعـار ، فهـذا الذي قدم الى هذه الديار مهـددا متـوعدا انكفـأ ـ بفضـل الرب ـ محروما من الشفقة مدحورا .

وسارع الملك بدوره بالذهاب الى القدس بعدما دفع فـدية ابنتـه التي كانت في الخامسة من عمرها ، فقد كانت رهينة وكذلك دفع عن عدد من خدمه الذي كانوا في الأسر ، لقـد مضى الى القـدس ليقـدم الشكر للرب ويخصه بالحمد ، فبعدما سحق وداسته الأرجل لفتـرة مديدة ، ونزلت به عجلة الحظ الى الحضيض حتى ان كاد يسـتسلم في بؤس وخزي ، أعادته مشـيئة الرب الآن قـويا ، وأرجعـت اليه مجده الخالص .

شعر :

لقد انقضت الآن ستة أضعاف العشرة مع ضعفي الثلاثة أعوام منذ أن ولدت الى يومنا هذا

لعل الرب يقضي بالشيء نفسه ويحكم فيما تبقى من أيام حياتي .

- ٢٩٢٣ -

القلعة التي شيدها الملك :

شيد الملك في شهر تشرين الأول من هذا العام ، قلعة في الجبال الواقعة فوق بيروت في منطقة عظيمة الخصب وسماها قلعة جبل غلافينوس وذلك اشتقاقا من « ديغلاديو » ذلك ان من يحكم عليه بالاعدام في بيروت كانت تقطع رأسه هنا ، وبعدت هذه القلعة عن بيروت ستة أميال وكان الفلاحون السراسنة يرفضون في الماضي دفع الخراج عن أراضيهم ، أما الآن فقد أرغموا على فعل ذلك .

حملة الملك والمعركة مع الأتراك :

قام الملك بعد هذا مباشرة بالاعداد لحملة على دمشق في سورية ، ذلك ان السلام بينه وبين طغتكين قد خرق ، فاحتل ودمر ، وخرب ثلاثا من أغنى القرى ، ثم عاد نحو بلاده ومعه من الغنائم كلما تمكن من حملة ، وبعد ما قسم المغانم ووزعها بين الفرسان وسواهم ممن كان معه ، وفقا للقواعد العادلة المرعية ، وجه قواته في اليوم التالي في حملة نحو بلاد الفلسطينيين .

وكانت في تلك الآونة قد تجمعت قوات جديدة في عسقلان ، وكان قد جرى ارسالها من القاهرة ، وخيل لقواتنا من الفرسان ـ وهي راغبة في اظهار شجاعتها على أراضينا ـ انها سوف تنتصر الآن ، ولما رأى أهالي عسقلان المدينة المذكورة رجالنا يتقدمون بأعلام منشورة خرجوا للتصدي لهم بكل جسارة ، وهم يطلقون الصرخات العالية .

ولم يكن الملك – دهاء منه – قد تقدم بعد نحو الصف الأمامي حيث رجاله ، وتلكأ في الساقة حتى يقدم يد العون عندما تقتضي الضرورة ، فيما لو جرب بعض رجاله الفرار خلسة ، وهاجم فرساننا الذين كانوا في الصفوف الأمامية العدو وبضراوة لاتصدق ، ذلك أنه لم تعوزهم الشجاعة ، وحملوا وهم يصرخون « الرب يعيننا » فسحقوا العدو ، وحسب معلوماتي انه لو توفر لنا بضعة رجال آخرين جاهزين في ذلك الموقع ، لأمكنهم بكل تأكيد اختراق عسقلان مع الذين اشتركوا في المطاردة .

وندب وبكى من بقي من أهالي عسقلان على قيد الحياة ، على مقتل اكثر من أربعين من خيرة رجالهم ، وقد أصيبوا بصدمة هائلة نتيجة لهذه النكبة ، التي لم تكن بالحسبان ، وبعدما صدحت الأبواق ايذانا بوقف القتال ، أراح الملك رجاله تلك الليلة خارج المدينة على مقربة منها ، وفي الوقت الذي رقد فيه رجالنا ببركة الرب ، امضى العدو ليلته ساهدا تعيسا ، وكما قال يوسفيوس :« من عظمت ثقته بنفسه قل احتراسه ، بيد ان الخوف يعلم الحكمة » .

وينبغي ان ننوه أن فرساننا الذي كانوا في المقدمة في ذلك اليوم لم يعثروا على أية فريسة حول المدينة ، فقد كان أهل عسقلان قد أخفوا بتدبر قطعانهم ذلك أنهم كانوا قد أخطروا بقدوم الملك.

المسلمون يبعثون بالرسائل بوساطة الحمام:

من عادات المسلمين الذين يسكنون فلسطين نقل الحمام من مدينة الى أخرى لكي تحمل الرسائل في عودتها الى المدينة التي كانت مؤخرا موطنا لها ، فترشد هذه الرسائل – التي تكتب عادة على

ورق ، وتعلق بأقدام الطيور — من يعثر عليهـا ويقـرأها الى الذي ينبغي عمله إثر ذلك ، ومن الجلي أن هذا قد حدث في هذ ه المناسبة.

تنوع العادات:

تختلف العادات وتتبـاين التقـاليد حسـب تعـدد البلدان وتنوعها ، فلفرنسا عادات خاصة وكذلك لانكلترا ومصر والهند لكل منها عادات أخـرى ، وكذلك تختلف البلدان عن بعضـها بـالطيور والاشجار ، فأنا لم أشـاهد في فلسـطين الحـوت ولا سـمك الجلكي ، ولم أر بين طيورها غراب العقعق ولا الشـادي ، وفيهـا حمر وحشية ، وقنافذ شوكية ، بالاضافة الى الضباع التي تحفـر قبور الأموات ، ولم أجـد بين شـجرها شـجر الحـور والبندق والبيلسان والآس البري ولا القبقب.

انواع مختلفة من الافاعي والبهائم في بلاد المسلمين

رأينا جميعا مؤخرا حـول نابلس حيوانا لم يعـرف انسـان منا اسمه ولم يسمع به من قبل ، له وجه كذكر الماعز ، ورقبـة كرقبـة الحمار الصغير ، وأظلاف مشقوقة وذيل كذيل العجل (تيس) وهو أكبر من الكبش.

وفي مصر حيوان آخـر يدعونه هناك « الكمير » وهـو طـويل في مقدمته وليس في مؤخرته ، وقد اعتادوا أن يلقـوا عليه أيام الأعياد أنفس الأردية بالاضافة الى أشياء فخمة أخرى مما كانوا يرغبون في تقديمه الى أميرهم ، وهنالك أيضا التمساح ، ذلك الحيوان الشرير الرباعي الأقـدام ، الذي يعيش على اليابسـة وفي الأنهـار بإلفـة متساوية ، وليس لديه لسان ، بل يحرك فكه العلوي فتطبق عضـته بقوة هائلة واحكام ، وهو ينمـو حتـى يفـوق طـوله العشرين

ذراعا ، ويبيض بيضا مثل الوز ، ويفقس صغاره فقـط في المواقـع التي لا يصل اليها النيل ، عند ارتفاعه في مده ، وهو مسلح بمخالب ضخمة جدا ويعيش في المياه اثناء الليل بينمـا يتمـدد على اليابسـة اثناء النهار ويغلفه جلد خشن ثخين.

ويوجد من هذه الرباعية الأقدام في واحد مـن جـداول قيسـارية فلسطين ، ويقال أنها أحضرت بـالخداع والمكر مـؤخرا مـن النيل ذاته ، لذلك هي كثيرا ما تلتهـم الآن الحيوانات الأخـرى وتسـبب كثيرا من الأذى في تلك الأنحاء.

أما جاموس النهـر (سـيد قشـطة) فيعيش في نهـر النيل فقط ، وكذلك في الهند ، وهو يشبه الفـرس في ظهـره وعرفـه وفي صهيله وشموخ أنفه وانشقاق حوافره ، والتصاق أسنانه والتـواء ذيله ، ومن عادته الرعي في حقول القمح في الليل ، تجده يقترب منها مشيحا بوجهه عنها مكرا وخديعة ، ويخلف وراءه أثرا مضللا حتى لا ينصب له أحد فخا في طريق عودته ، ويفوق جسـد هـذه الحيوان الفيل ضخامة ، ولقد خلق الله جميع الحيوانات صغيرها وكبيرهـا والذي يرضيه مما خلق لا بد أن يرضينا ، ولهذا وجب علينا أن نقدم له الحمد والشكر.

وفم التنين صغير ، وهو لا يستخدمه للعض لأنه نوع مـن أنواع المسالك يتنفس هذا الحيوان من خلاله ، ومنه يبرز لسانه ، ولهـذا فإن سمه في ذيله وليس في أسنانه ، وهو لا يسبب الأذى باللدغ بـل بالدق والالتفاف والعصر ، ويمكن أن ينحت حجر برأسه ، والتنين هو أكبر الأفاعي على الاطلاق ، إن لم يكن أكبر الكائنات الحية على وجه البسيطة ، وكثيرا ما يغرى لمغادرة كهفه الى العـراء ، فتثـور وقتها في الجو ضوضاء كبيرة ، ولهذا الحيوان عرفا ، ثم إن كل مـا يقبض عليه يهلك حالا ، وفي الحقيقة إن الفيل على ضخامة حجمه لا يأمن من شره ، وهو يتوالد في الهند وفي السودان في حرارة الصيف

الدائم ، ويكمن متربصا حول الممرات التي تمر بها الفيلة ، ويربط أقدام ضحيته ويعقدها فتهلك خنقا وهو ليس لديه أرجل.

ويوجد الرخم في سكيثيا الآسيوية (شمال البحر الأسود) وهو طائر شديد التوحش معتوه يتخطى حدود الجنون ، ثم هنالك « الهركانيون » وهم جنس وحشي يسكن الأدغال ، تعج بلادهم بالبهائم الوحشية العملاقة ، ومن بينها النمور ، ويمتاز هذا النوع من الحيوانات بترقيطاته الصفراء اللامعة ، ولست أدري ما الذي يمده بالسرعة في العدو ، أهي رشاقة حركته الطبيعية ، أم هو عزمه وتصميمه ، وما من شيء يركض سريعا قبله فلا يستطيع النمر أن يلحق به بسرعة ، ومامن شيء يسبقه النمر فيستطيع أن يلحق به.

ويوجد في « هيركانيا » فهود تغطيها بقع صغيرة ، ويروي أن قطعانا من الحيوانات الأخرى تتأثر بشكل عجيب برائحتها ومنظرها ، وعندما تشعر هذه الحيوانات بوجود الفهود تحتشد مع بعضها على شكل قطيع ، وعندها لا تخاف سوى من منظر أنياب الفهد ، وتقتل الفهود بالسم أكثر منها بالسلاح ، وذلك لتشبثها الشديد بالحياة.

ويشابه الجمل البغل ببروز شفته العليا ، وهو لهذا لا يقرر أن يرعي إلا إذا مشى الى الخلف وتتكاثر الحرباء ، وهو حيوان رباعي الأقدام في الهند على الأكثر ، والحرباء تشبه السحلية ، غير أن اقدامها مستقيمة وطويلة وتلتصق ببطنها ولها ذيل طويل أعوج ، ومخالب تنحني برقه ، والحرباء ذات مشية بطيئة وجسد خشن ، وجلد كجلد التماسيح ، وفمها فاغر على الدوام وليس لها فائدة تعد ، ويعافها الغراب الأسود ، وهي تقتل من يميتها فإذا ما قتلها الغراب قتلته ، لأن الغراب اذا التهم من جسد الحرباء لقمة صغيرة يموت لتوه ، على أنه في هذه الحال للغراب علاج يتماثل بتناوله الى الشفاء ، وهو ورق الغار ، وليس في جسد الحرباء لحم ، ولا في احشائها طحال ، وهي تكتسب لون ما يحيط بها.

شعر :

هي تدعى سلمندر بالاغريقية وستيليو باللاتينية
وتلك الستيليو الملتهبة هي السلمندر الحرباء الخشنة.
لديها ثلاثة أسماء ولكنها شيء واحد فقط.

وهنالك طير يدعى الفرس المجنح ، مع انه ليس له من صفات الفرس غير الآذنان ، وهنالك أقوام طوال القامات قادرون على امتطاء الفيلة بسهولة كما لو انها خيول ، وهؤلاء من الجنس الأبيض في صغرهم غير أنهم يزدادون سوادا مع تقدمهم بالسن.

ويفوق الوحش الأبيض جميع حيوانات البرية في سرعته ، وهو بحجم حمار الوحش وله عجز كعجز الوعل وصدر كصدر الأسد وأقدام كأقدامه ، ورأس كرأس الغرير ، وحوافره مشقوقة ويمتد فمه من أذن الى أذن ، وله عظام متصلة بدل الأسنان ، وكذلك شكله من الناحية الأخرى وصوته يقلد صوت الانسان.

ويتوالد بينها وحش يدعى المنتقيور ، وله ثلاثة صفوف من الأسنان تنطبق وتستعمل بالتناوب ، وله وجه كوجه الانسان ، وعينان براقتان ، ولون دموي أحمر ، وجسد مثل جسد الأسد ، وذيل شائك فيه زعانف مثل العقرب ، وله صوت صفيري كأنه نغم الناي ، وهو يسعى بشراهه في طلب اللحم البشري ، كما أنه خفيف الحركة ويستطيع أن يقفز بعيدا ، فلا تستوعبه أوسع الأماكن ولا تعيقه أشد العراقيل.

من ذا الذي يستطيع أن يفقه آيات الرب أو يسبر غورها ، في تعددها وعظمتها في خضم بحر الحياة الشاسع الواسع حيث تعيش شتى أنواع الحيوانات والزواحف التي تفوق الحصر؟ ولقد اقتبست الذي أوردته هنا على ايجازه من الكاتب سولينوس الذي فاق على

الباحثين همة ومهارة ، أمـــا مـــا وجـــده الاســـكندر الكبير في الهند وشاهده هناك فسوف أحكيه فيما بعد ، أو على الأقل سأروي بعضا منه.

لقد شارف هذا العام الآن على الانتهـاء فليمض الرب في حــكمه على سنة هذا الزمن ، ويندمج الآن هذا العام في العام المقبل.

حملة ملك القدس على ملك دمشق:

في عام ١١٢٦ لتجسيد مولانا ، وخـــلال الخمس عشرية الثـــالثة بعد الاحتفال بعيد الميلاد في القدس ، حشد الملك جيشه بهدف شـــن هجوم على ملك دمشق ، وبعدما أعلن المستنفزون التعبئة ، تحركت الطاقة البشرية في مملكة القـــدس ، تحـــركت بـــرمتها فـــرسانا ومشاة ، وزحــــف رجـــال يافـــــا والرملة وكذلك اللد عبـــــر نابلس ، وساروا على طريق بيسان بينما سار رجـــال عكا وصـــور على الطريق الشمالية.

وتحت قيادة الملك عادروا بلدة صفورية ، وكان جبل طـــابور على يمينهم ، ووصلوا الى طبـــرية ، وهناك انضـــم اليهـــم رجـــــال القدس ، ثم عبروا جميعـــا نهـــر الأردن ، واســـتراحوا بـــأمان في معسكرهم.

شعر:

عم الهدوء والسكون في تلك الليلة الصافية.
وأضاءت الأهلة القمر السادس عشر

وعند بزوغ الفجر زعقت الأبواق اشارة الرحيل ، ليغادر الرجال معسكرهم ، فكان أن قوضوا خيامهم واستعدوا جميعا لاستئناف المسير ، ووضعوا أثقالهم وأمتعتهم على ظهور بغالهم وجمالهم وبقية دواب التحميل ، مما أثار كثيرا من الجلبة ، وتعالت الأصوات ونهقت الحمير وصهلت الخيول وارتفع رغاء الجمال ، ثم بدأ الكشافة في استطلاع الممرات للمشاة ، وعندما زعقت البوقات ، اختار الرجال بكل عناية أفضل الطرق لزحفهم.

وبعدما توغلوا في بلاد الأعداء ، وافقوا بعقل على الزحف بأعلام منكسة ، ولبسوا دروعهم خشية أن يباغتهم خطر ليس بالحسبان ، ثم اجتازوا شعاب وادي الراحوب ودخلوا الى منطقة دمشق وقضوا ليلتين خلف الوادي ، وينبع من هنا جدول يجري نحو بيسان من خلال بحر الجليل ثم يصب بالأردن ، وبعد هذا دمروا حصنا عبروه في طريقهم ، وهكذا وصلوا الى موقع حصين اسمه سالومي ، فخرج السريان والنصارى الذين قطنوا هناك في موكب لاستقبال الملك.

وأقبلوا بعد ذلك على واد اسمه « مرج الصفر » وذلك هو المكان الذي ضرب الرب فيه الرسول بولس ، و فقد بصره لمدة ثلاثة أيام (أعمال الرسل : ٩ / ٣ ــ ٩) وهناك توقفوا لمدة يومين ، ومن هناك شاهدوا خيام أهل دمشق الذين يتربصون هناك بانتظار جيشنا.

وعاد (بوري) ابن الملك طغتكن بعد أن كان غائبا ، حيث جمع بهمة ونشاط قوة مكونة من ثلاثة آلاف فارس ، حشدها من جميع الجهات ، والتحق بوالده استعدادا للمعركة ، وكان وصوله في اليوم الذي تقدم على المعركة.

وفي الحال تم ترتيب فرساننا ورجالتنا في اثني عشر كردوسا وهي طريقة تمكنهم من أن يدعم واحدهم الآخر عند اقتضاء الضرورة ، وبعدما شارك الجميع في القداس وتناولوا خبز الشركة المقدس ، ضموا صفوفهم على خط القتال ، ثم شرعوا في القتال وهم ينادون « الرب يعيننا » .

وهلل الأتراك أيضا وقاتلوا بشجاعة وعنف ، ودهشوا للبسالة التي أبداها هؤلاء الذين استخفوا بهم وكأنهم كانوا قد قهروهم فعلا ، فتخلت عنهم شجاعتهم ، وعزموا على الفرار بعدما خارت عزائمهم ، فانهزم طغتكين وكذلك فعل ابنه ، واشتد الحال وزاد الضغط على رجالنا وبات عليهم أن يحتملوا فوق القدرة على الاحتمال ، ومع هذا ارتفعت شجاعتهم وازدادت أكثر فأكثر ، وهكذا ظلوا ثابتين صامدين في عزيمتهم.

على أن وابلا من سهام الأتراك انهمرت على المسيحيين فما سلم جزء من أجسادهم من كدم أو كلم ، والحق يقال لم يشهد رجالنا قط معركة أشد عنفا أو أعظم هولا ، لهذا كانوا يتراكضون محتدين ، وقد تعالى صخب المعركة حولهم وحمي وطيسها ، وتعالت زعقات الأبواق وأصوات النفر .

وفي ذلك الوقت طوق الأتراك رجالنا ، وأصابوا عددا كبيرا منهم بجراح ، فلاذوا بالفرار لكنهم بعدما جربوا ذلك لمسافة أربعة أميال عطفوا رؤوس خيولهم ورجعوا على الأتراك كما وجب عليهم[1] ولزم ، وباشروا القتال وقد ارتفعت حماستهم واشتد اقبالهم على الحرب .

شعر:

وافق يوم المعركة المقدس هذا يوم الذكرى السنوية
لاعتناق بولس دينه ، بولس الذي اصطفاه الرب.

وذشب قتال هذه المعركة في الساعة الثالثة من النهار ، ووضعت العتمة حدا له بنصر منحنا اياه الرب.

المعركة محفوفة بالمخاطر ، والفرار عار وخزي فاضح ، ولكن قد يكون من الأنسب أن يعيش المرء مستضعفا على أن يموت ويندب موته الى الأبد ، لهذا آثر الأتراك الفرار لكي يحافظوا على حياتهم ، وفي الحقيقة لاقى أكثر من ألفي فارس تركي حتفهم على أرض المعركة فضلا عن الرجالة الذين لم يرد ذكرهم ، وفقدنا نحن أربعة عشر فارسا وثمانين من الرجالة.

وكان تصرف مليكنا في ذلك اليوم رائعا ، ومثله كان تصرف فرسانه ورجال معسكره جميعا ، حيث أن الرب القدير كان معهم بذاته ، وفر ملك سورية وكل من تمكن من اللحاق به ، وعاد مليكنا الى القدس وقد امتلأ نشوة بظفره.

وبعد صدور الأوامر بالعودة حاصر رجالنا حصنا كان فيه ستة وتسعون رجلا ، فاستولوا عليه وقتلوهم كما استولى الملك على حصن آخر كان فيه عشرين تركيا ، قد التجأوا اليه ، وعندما تيقن هؤلاء أن رجالنا بدأوا بالحفر حول الحصن وبنزع الحجارة الكبيرة من السور استسلموا وتخلوا عن حصنهم المنيع الى الملك لشدة خوفهم ، وأذن لهم الملك بالمغادرة حسب اتفاق التسليم ، ثم هدم الحصن ، واملت تدميره ضرورات المصلحة ، ذلك أن حصانته كانت ستغوي الكثيرين بالتمرد ، إذ كان من الممكن أن يصلح ملجأ أمينا لمن يملكه ، فيصمد فيه فيكون مصدرا للريبة والقلق لمن يهاجمه.

علني أسبب الضجر للسامعين لروايتي لو أنني حكيت كل التفاصيل التي حدثت في الحرب أو نتجت عنها ، سواء بالعنف أو بالحيلة ، فقد أحضر أهالي دمشق معهم شبانا انتقوهم لرشاقتهم في الحركة ، وكانوا مسلحين ، وقد امتطوا الخيول وراء الفرسان الأتراك ، وفور مقابلة الأعداء ترجلوا بسرعة وقاتلوا كمشاة ، بينما تابع الفرسان الذين أحضروهم القتال في الجانب الآخر.

حصار مدينة رفنية ونهر سبتكس:

كتب الأوائل « ليس هناك شيء مبارك من كل ناحية » وهكذا ليس من الممكن أن تكون البركة الكاملة قد حصلت في هذه المعركة ، إذ أننا فقدنا أربعة عشر من خيرة فرساننا وذلك بالاضافة الى بعض الرجالة الشجعان ، لكن ذلك لا يذكر أمام المذبحة التي حلت بين صفوف الأعداء .

وتفسر كلمة دمشق بأنها « شرب الدم » أو « تقبيل الدم » ، فقد قرأنا أنه في دمشق جرى سفك دم هابيل ، وبالفعل إن أهل دمشق قادرين على الاغتسال بدم القتلى ، بل أكثر من هذا قادرين على أن يشربوا من دم انفسهم بأن يطرحوا انفسهم متمددين ووجوههم منبطحة على الأرض.

وأخيرا عاد الملك مع جيشه الى القدس حيث أمضى الجميع ذلك اليوم في اجازة ، وفي تقديم صلوات الشكر ، وبعد أمد وجيز استجاب الملك لتوسلات كونت طرابلس ، وزحف لاعانته في حصار بلدة تدعى رفنية تقع على سفح جبل لبنان ، وحسبما ذكر يوسفيوس في هذه المنطقة « ما بين أرشاص ورفنية يجري نهر له صفة فريدة عجيبة ، ذلك أنه سريع التيار عندما تتدفق مياهه ، غير

أن ينابيعه تنضب بعد ستة أيام حتى يبدو موقعه وكأنه قد جف وفي اليوم السابع وبدون أي سبب ظاهر يرتفع ماء النهر ثانية ، ولقد وجد أنه يعيد تكرار هذه العملية على الدوام وحسب الوتيرة نفسها ، ولذلك دعي هذا النهر بالنهر السبتي ـ سبتكس ـ نسبة الى السبت ، وهو اليوم السابع من الاسبوع ، وهو أيضا اليوم الذي يقدسه اليهود.

وبالفعل قضى الأمير طيطس بعض الوقت حول بيروت ، ثم غادرها وهو يثني على هذا المشهد الذي فاق بروعته كل ماشاهده في المدن السورية التي زارها ، وقد ازداد اعجابه بهذا النهر (فوار الدير) ورأى ظاهرة جديرة بالتقدير العفوي.

شأن نهر آخر

ويحكي المؤرخ نفسه خبر أعجوبه أخرى ، فيقول إنه على مقربة من مدينة عكا كان هنالك جدول (نهر النعامين) ضئيل المياه كثيرا ، يبعد حوالي ربع ميل عن المدينة ويدعي « بيلوس » وهو قرب كنيسة ممنون ، وهو بالفعل جدير بكل اعجاب ، لأنه على شكل واد مستدير ، وهو ينتج رملا زجاجيا ، وبعد أن تأتي المراكب اليه وتنقل الرمل منه يعود الموقع فيمتليء بالرمل ، وتحمل الرياح بطبيعتها رمالا أخرى من التلال المحيطة بالوادي ، والذي يثير عجبي فوق هذا كله ، انه كلما طرح جزء من ذلك الرمل الزجاجي الى حافة المكان عاد ثانية ليصبح رملا عاديا.

الاستيلاء على مدينة رفنية :

سقطت رفنية التي تقدمت مني الاشارة اليها باقتضاب على

النحو التالي: بعدما حاصر الملك والكونت المسلمين داخلها لمدة ثمانية عشر يوما ، وبعد قذفها بشدة بحجارة المجانيق استسلم سكان المدينة وغادرها دون أن يمسسهم أذى ، ووقع ذلك في أخر أيام أذار ، وهكذا تسلم كونت طرابلس المدينة وبات سيدها منذ ذلك الحين وقد اعاد تحصينها ، لكن ملك القدس رجع الى القدس.

وفاة الأمبراطور الروماني:

فيما كنا نحتفل بعيد الفصح (١١ ــ نيسان ١١٢٦) في القدس نقل إلينا الحجاج أخبارا أفادت بوفاة الأمبراطور الروماني(هنري الخامس ــ ت ٢٣ / ٥ / ١١٢٥) واضافت أن دوق سكسوني المدعو لوثير قد ارتقى عرش الأمبراطورية .

شعر :

عندما توفي هنري اثار برج العذراء
وإثر ذلك حكم لوثير ابن الدوق وغدا ملكا .

حملة الملك على المصريين:

شرع الملك بعد فترة وجيزة في إعداد حملة من مدينة صور ، وهبط نحو سورية السفلى (الشمالية) بعد أن خلف وراءه قسما من فرسانه واصطحب معه القسم الآخر ، وقد فعل ذلك على الرغم من سماعه بأقاويل حكت عن استعدادات للمصريين للحرب ، وبوشوك زحفهم ضدنا .

فلقد عزم على المبادرة إلى الموقع الذي سمع أن العدو سوف يهاجمه ، فالملك بلدوين كان مثله مثل الخنزير الكاسر ، وقد أحاطت به الكلاب من كل جانب تنهشه بعضاتها المتوالية ، فاضطر أن يدافع عن نفسه ويضرب يمينا ويسارا ، وينقض عليهم مكشرا عن أنيابه بكل شراسة ، وحسبما اعتدنا القول : « تمتد اليد إلى حيث يوجد الألم »

وكان الأتراك قبل وصول الملك إلى هناك قد احتلوا موقعا يشبه القلعة ، ولما كان ذلك الموقع مصدر ازعاج للأتراك فقد توجب علينا استرداده ، وكان جنودنا قد تسللوا منه بمهارة فائقة خلال الليل ناشدين النجاة ، وقد خلفوا وراءهم فيه أزواجهم وأولادهم ، ذلك انهم أثروا إنقاذ بعضهم على فقدان الجميع .

وفي منتصف تموز من ذلك الصيف بدأ مذنب بالظهور مابين الشرق والشمال ، وقد ظهر قبيل الفجر وظل شعاعه يسطع حتى حوالي الساعة التاسعة ، ثم بدأ مثل ضوء خافت ، وبذلنا جهدنا لمدة ثمانية عشر يوما حتى ندرك مغزاه ، فلم نستطع فسلمنا ذلك إلى خالقنا أجمعين .

وحاصر الأتراك في تلك الأونة بلدة الأثارب ، وكان البرسقي ابرز قادتهم ، وما أن سمعوا بمقدم ملكنا الذي كان يتعقب خطاهم ، حتى انسحبوا إلى مواقع دفاعية اكثر امانا ، وقد أحبطت مخططاتهم لأنه لم يكن لديهم ما يزيد على ستة الاف جندي ، ولهذا عاد الملك إلى انطاكية .

الأسطول المصري :

بعدما جدد المصريون في هذا العام اسطولهم وحشودهم ابحروا

تدفعهم ريح جنوبية ودخلوا إلى بـلاد الفلسـطينيين ، ومـروا أولا بالفرما فالعريش فغزة ثم عسقلان ، وكذلك يافـا وقيسـارية وعكا وصور ، فاستطلعوا المنطقة وتفحصوا الشاطىء خلسة حتى حـدود مدينة بيروت ، وتصيدوا وفتشوا من مرفأ إلى مرفأ ليروا فيمـا إذا كان بإمكانهم العثور على مايعود عليهم بـالمنفعة وعلى المسـيحيين بالضرر ، ولما كانوا آنذاك قد أخذوا يعـانون كثيرا مـن شـح المياه العذبة ، فقد اضطروا إلى النزول على اليابسة لكي يملأوا أوعيتهـم من الجداول والينابيع وحتى يطفئوا ظمأهم .

واستاء سكان المدينة المذكورة من ذلك ، وخرجوا على الفور بكل جسارة وقاموا بدون تردد بشن هجوم عليهم ، وكان قد انضم إليهم بعض المسافرين الذين صدف وجـودهم هناك ، وسـقط مـن أولئك القراصنة مائة وثلاثين قتلى أو أنهم أصـيبوا بجـراح قـاتلة ، وفي الحقيقة نزل خمسة آلاف من الأعداء إلى اليابسة ، وغادروا سفنهم ليقاتلوا رجالنا ، علما بأنه بقي في السـفن مـن تـولى العناية بهـا وحـراستها ، وكان عدد السـفن اثنتين وعشرين سـفينة ثـلاثية المجاذيف ، وثلاث وخمسين سفينة من أنواع أخرى .

وكان أعداؤنا قساة القلوب غلاظا ، لم يكن في قلوبهم شفقة على من استطاعوا أن يخضعوا لسيطرتهم ، يجـدون متعـة بممـارسة وحشيتهم على بني جلدتنا .

ونحن نحمد الرب لأنهم لم يحققوا فائدة تـرجى في هـذه المرة ؛ حيث تمكن فرساننا برماحهم وقسيهم ونبالهم من صدهم ثم قذفوهـم إلى البحر ، وانزلوا بهم هزيمة نكراء لم تكن عندهـم بـالحسبان ، فنشروا أشرعتهم بدون تباطؤ ، وانحرفوا متجهين نحو طـرابلس ، ثم قبرص .

- ٢٩٣٨ -

رحلة بوهيموند الأصغر :

وكان الحجاج والمراسلون قد نقلوا إلينا في ذلك العام مرارا وتكرارا تقارير أعلنت عن حضور بوهيموند الأصغر ، غير أن مانقلوه قد خدعنا وكان مجرد شائعات ، لأن بوهيموند خاف من الأسطول المصري ، أو الأصح اسطول القراصنة الذي علم انه قد انتشر في البحر ، وفي الوقت نفسه كان بوهيموند شديد القلق على بلاده نفسها ، فقد خشي انه إذا لم يحكم حفظها بين اتباعه فقد يفقدها بالمراوغة والاحتيال ، وبمختلف اساليب المكر والخداع ، وفعلا ورد في امثال الفلاحين . « من لديه جار سيء فصباحه سيء » .

وبعدما أعد بوهيموند لرحلته مرارا تمكن اخيرا ان يجمع في اوترانتو - إحدى مدن ابوليا - اكبر عدد استطاعه من السفن لقد جمع إثنتين وعشرين سفينة ، كانت عشر منها من النوع الطويل المزود بالمجاذيف ، وسارع بالتحضير لرحلته ، وفعل ذلك بعدما اودع بلاده وتركها لدوق ابوليا ، بعدما انتقاه وعينه وريثا له فيما لو تقدم عليه بالوفاة ، ومنحه الدوق بدوره الحق ذاته وثبته له عن طيب خاطر ، فيما لو كان الدوق أول من سيفارق الحياة بينهما ، وتم إبرام ذلك بحضور وجهاء القوم من الجهتين وشهادتهم .

وهكذا ابحر بوهيموند في اواسط ايلول ، فمر بشيكلادس الموزعة حول سطح البحر ، فأتى إلى ميثون فرودس وبامفليا وليسيا ، ووصل في عباب الأمواج إلى أدريا التي تملأ بالرعب قلب كل من يبحر إليها ، ثم مر بأنطاكية الصغرى فأنطاكية الكبرى فأسوريا ، ثم مدينة سلوقية ، وكانت وقتها قبرص عن يمينه ، ثم بطرطوس فمدينة بلنياس التي باتت خرابا ، فكانت عن يمينه .

ونشر في تلك الفترة كثير من الناس الجشعين المتقلبين ، الذين وصلوا مؤخرا من وراء البحار ، حكاية روجوا لها بيننا في القدس افادت ان بوهيموند قد نزل إلى اليابسة فعلا في انطاكية ، بيد انهم تاهوا فيما قالوه ، مع انه خيل إليهم أنهم قالوا الحقيقة ، وسبب ذلك انهم سافروا مع بعض رجاله حتى وصلوا إلى بارتا برفقة الصقور والبزاة وصيادي الطيور والكلاب التي بعث بها مقدما .

المخاطر التي تعرض في البحر :

كثير هي المصاعب والمخاطر التي تواجه من يركب البحر ـ إذا ماشاء الرب بها وسمح ـ فقد تنقطع المرساة وتنفصل ، وقد يتحطم عمود الشراع ، أو مؤخرة السفينة المعكوفة المزخرفة ، أو قد تنفصم السلسلة المعدنية .

وعندما تغير الريح اتجاهها ، يراقب البحارة مؤشر دليل اتجاه الريح ليتأكدوا من أن السفينة تسير بالاتجاه الصحيح ، وهناك دوما خطر من أن تفقد مجراها في الليل ، وعندما تختفي النجوم وراء السحب ، أو عندما تجري فوق الصخور ، فهناك خطر محدق بحدوث الغرق والهلاك (أعمال الرسل : ٢٧ / ٢٠ ، ٢٩ ـ ٣٠) وكما في البر كذلك توجد المخاطر في البحر .

ولماذا نستغرب ما يجري لنا ، إذا ما تذكرنا حطام سفينة القديس بولس ؟ فقد القى ملاحوه الفادن كي يقيسوا به عمق البحر ، ولو لم يشاهد ملاك الرب في محنته لانقطع رجاؤه بالنجاة (أعمال الرسل ٢٧ / ٢٣ ـ ٢٨) .

البحر العظيم :

اعتاد عدد كبير على مصادفة المخاطر في خليج أدريا ، فقد تهب الرياح شديدة من جميع الاتجاهات ، وتهبط من الجبال نحو الوديان ، ثم تنحرف بين الشعاب المنخفضة وتتجمع في إعصار في الخليج ، وإذا قابل البحارة في بعض الأحيان سفينة قراصنة ، فقد تسلب اموالهم ويحل بهم الدمار بدون شفقة ، اما الذين يعانون من ذلك كله محبة بالرب ، فهل تخيب امالهم قط في ثوابه ؟ .

ودعنا نذكر بضع كلمات عن البحر : علينا الا نغفل عن ذكر مصدر البحر المتوسط ، فبعضهم يعتقد أنه ينشأ من مضائق قادس ، وليس له مصدر غير مصب البحر المحيط الهائل ، اما الذين يعتقدون عكس ذلك فيذكرون أن تدفقه كله يأتي من مضائق بنطش ، ويدعمون ذلك بحجة راسخة أن المد من بنطش لايرتد رجوعا ابدا .

وعلى هذا لنرفع أيات الحمد والشكر إلى خالق الأكوان الذي « ثبت حدود البحر ووضع له تخوما ومداخل ، إذ قال له : إلى هنا تأتي ولاتتجاوز ، وهنا تتخم كبرياء لججك » ، وحين يندفع البحر هائجا مائجا باتجاه الشاطىء يتكسر إلى زبد ترده أدنى العقبات عن الشاطىء .

ثم ما الذي يمنع البحر الأحمر ــ اللهم إلا إذا نهت إرادة السماء عن ذلك ــ من أن ينضم إلى البحر المصري في سهول مصر ، حيث انه يقع في منطقة اكثر انخفاضا من الوديان ، المنبسطة التي تتصل به ؟ واخيرا ورد في الكتب ان إثنين من الملوك رغبا في وصل هذين البحرين حتى يصب احدهما بالآخر ، وكان اولهما سيسوتريس المصري ، وثانيهما دارا الفارسي ، وقد أراد هذا الأخير ــ نظرا لأنه تفوق على الملك المصري سلطة ومقدرة ــ أن ينجز ما سعى إليه ذاك .

ويدل هذا على أن المحيط الهندي ، الذي يقع فيه البحر الأحمر هو أعلى ارتفاعا من البحر المصري ، الذي يقع على مستوى أشد منه انخفاضا وليس على المستوى ذاته ، ولعل كل واحد من الملكين قد تخلى عن المشروع لكي يمنع البحر من أن يجري من مستوى مرتفع إلى مستوى منخفض ، فيفيض بذلك ويغمر البلاد ، وقد ورد هذا في مذكرات امبروز ، في حين يذكر سولينوس غير ذلك .

كم هي عجيبة اذن اعمال الرب ، غير ان اعجب منها من خلقها ودبرها ، وإذا مابدا بعضها قبيحا في أعيننا فعلينا أن نثني عليها على الرغم من ذلك ، لأن خالق الكون قد ابدعها . لقد زودنا الرب بالدواء في حشرة البق (المنزلي) فتقدم هذه الحيوانات الدواء احيانا ، وتسبب الأمراض في أحيان أخرى أو قد تحدث الوفاة ، فهي تعطي الشفاء حينا والضرر حينا أخر ، ويحكى أنه إذا ما اعد ترياق مضاد لسموم لدغة الثعبان من لحم الثعبان وحده فهو ضار ، لكنه ناجح ومأمون إن مزج بمواد أخرى .

اصناف الثعابين :

أما الباسيليق فطوله نصف قدم ، وهو ابيض مثل تاج الأسقف وله رأس مخطط ، وهو لايكتفي بتدمير الانسان والحيوان فقط بل يتعدى ذلك إلى الأرض نفسها فهو يلفحها بالسموم ، وحيثما يكون يخلف وراءه مكمنا قاتلا تذوي فيه الأعشاب والأشجار وتموت ، وهو يلوث الجو ذاته ، فلا يستطيع طائر ان يطير فيه بأمان لأنه يفسده بنفسه الموبوء .

وعندما يزحف الباسيليق يتحرك نصف جسده وينتصب النصف الباقي قائما ، حتى الثعابين ترتعد لسماع فحيحه فتمعن في الفرار

شاردة لاتلوى على شيء ، والذي يقتله الباسيليق بلدغة منه لا يأكله حيوان بري ولايقربه طير ، لكن ابن عرس يتغلب عليه ، لذلك يضعه الناس في جحره .

وصحيح أن أهل بيرغمون قد وضعوا في المعبد الذي جملته يدا ايلييس رفات باسيليق سددوا سيسترتيوم (عملة رومانية) كاملة ثمنا له بغية طرد العنكبوت حتى لايغطي المعبد بنسيجه ولئلا تقطنه الطيور .

أما المثنية فلها راسان إثنان ، يقع ثانيهما في الذيل ، وللمقرنة اربعة قرون قصيرة وهي تطمر جسدها بعناية في الرمل ، ثم تبرز قرونها حتى تبدو وكأنها غذاء وبذلك تتخفى فتقتل الطيور ، وتمتص الحمراوية الدماء بعد اللسع ، وهي تمتص الحياة من مجرى الدم في العروق ، وتصيب البرستا من تلدغه بتورم عظيم فيموت ، ويحل التعفن عادة بعد التورم ، وهناك افاعي اخرى كثيرة لها أسماء مختلفة ، ومهما تباينت أسماؤها فكل منها يسبب الموت بطريقة مميزة .

أما العقرب والسنقور والسلحفاة فهي جميعا من صنوف الديدان لا الثعابين ، وإذا ما زحفت هذه المخلوقات القذرة فخطرها أقل ، وليس لديها أي مشاعر إلا إذا هامت تبحث عن وليفها .

ويسطع ظهر السقلطة بضروب الالوان ، ويأسر جمالها من يبصرها ، اما العطشاوية فتسبب العطش القاتل بلدغتها ، وتقتل النوامه بتسبيب النوم ذلك ان النوم يؤدي إلى الوفاة مثلما حصل مع كليوبترا ، ولن نأتي على ذكر أنواع الثعابين الأخرى لأن لدغتها قابلة للعلاج .

ولاتقل هذه الأعاجيب ادهاشا عما شاهده الاسكندر الكبير في

الهند ، فقد قال لمعلمه ارسطو ولوالدته اوليمبيا : « ماكنت لأصدق بوجود كل هذه الأنواع من الأعاجيب لو لم اشاهدها بنفسي » والحق يقال كان هذا الملك رجلا رائعا بكل ماتعنيه هذه الكلمة : كان رجلا عاقلا مدبرا في كل اموره نشيطا في همته وقويا في سلطانه ، ولم يكن كالريشة الطائرة ولا كالقش العائم .

وصول بوهيموند الأصغر ابن الدوق بوهيموند واستقباله في انطاكية :

وكان بوهيموند قد تأخر في إقلاعه في ذلك العام عما كان متوقعا حتى خيل للناس انه لن يحضر حسبما أعلن وراج بينهم ، ولكن كما ورد في قول النبي ارميا : « ليس للمرء طريقه ، وليس لانسان يمشي أن يهدي خطواته ، ولكن الهدى يأتي من الرب » (ارميا : ١٠ / ٢٣) فلقد خدعتنا أوهامنا وخابت أمالنا ، والأمور لاتجري وفقا لأطماع البشر بل حسبما يقضي به الرب جزاء عادلا لهم .

وقد انتعشت قلوبنا عندما اخبرنا ملكنا في رسائله إلينا في القدس عن وصول بوهيموند إلى انطاكية .

واستقبل الجميع بوهيموند عند قدومه إلى أنطاكية بسرور عظيم ، وسار الملك في موكب حافل واستقبله بحرارة وسط هتافات الناس المتوالية ، وعلى الفور عقد الملك و بوهيموند اجتماعا ، وإثر ذلك أعطى الملك الأمير بوهيموند بلاده بأسرها ومنحه إحدى بناته زوجة له .

شعر :

انظر ترى الختن وترى الصهر : الوالد والابن
فليوقر أحدهما الآخر ليزيد بذلك كلاهما منعة .

وبعدما تمت رسوم الزفاف عقد القران بالطريقة القانونية ، وجـرى تنصيب بوهيموند أميرا وهو جـالس على عرشـه ، وخلع عليه رداء الامارة الجميل ، وبعد ذلك اجتمع النبـلاء فـأقسموا له يمين الولاء الذي حق عليهم لكونهم رجاله ، وعاهدوه على طاعته والقيام بخدمته اعتبارا من ذلك اليوم ، وأنجز هذا كله بحضور الملك وبرضاه .

وعاد الملك إلى القدس بعدما تمت هذه الأمور .

شعر :

سطع برج السرطان بين نجوم السماء
وقت استقبال بوهيموند أميرا لأنطاكية

وقد انحسر الآن مدار هذا العام ، واستعد لبداية عام جديد .

وباء الجرذان :

في عام الف ومـائة وسـبعة وعشرين لتجسـيد الرب ، وفي الخمسعشرية الخامسة ظهرت حشود من الجرذان في بلاد فلسـطين بأعداد هائلة ، حتى أن بعضا منها قبض على مؤخرة ثور وخنقـه ، والتهمته والتهمت معه خمسة اكباش مخصية ، وبعدما نشرت هـذا الدمار في أعماق ديار عكا اتجهت أخيرا نحو جبال صـور بحثـا عن

- ٢٩٤٥ -

المياه ، ومن هناك طرحتهم إلى الوديان بالآلاف التي لاتعد ولاتحصى ريح عاتية ، وعاصفة ضـارية وبيلة ، وبقيت تلك المنطقـة مـوبوءة بجثثهم المهترئة .

انتهى هنا تاريخ الحملة الى القدس الذي كتبـه فـولتشر أوف تشارترز .

الحواشي والهوامش

يوميات صاحب اعمال الفرنجة

١ ـ الكتاب المقدس ـ العهد الجديد : ١٦ / ٤٢ .
٢ ـ من المرجح أن المقصود بهذا بلاد فرنسا ، مما يوحي بأن صاحب الكتاب جاء من إيطاليا ، هذا وسبق لنا نشر أجزاء هامة من خطبة أوربان الثاني التي القاها في مجمع كلير مونت سنة ١٠٩٥ م لدى دعوته للحروب الصليبية .
٣ ـ أعمال الرسل : ٩ / ١٦ .
٤ ـ لوقا : ٢١ / ١٥ .
٥ ـ متى : ٥ / ١٢ .
٦ ـ كذا ، ولم يحدث أن سافر شارلمان إلى القسطنطينية ، ولقد قيل بأن اشاعة راجت أثناء الدعوة للحروب الصليبية فيها بأن شارلمان عاد إلى الحياة وسار على رأس حملة صليبية نحو القسطنطينية .
٧ ـ ٢٩ ـ ايلول ١٠٩٦ م .
٨ ـ المعني هنا جميع بلدان السلطنة السلجوقية لاخراسان المعروفة لدى المسلمين .
٩ ـ وصل هذا إلى القسطنطينية قبل بطرس بفترة وجيزة .
١٠ ـ كذا في الأصل ، ومفيد مراجعة هذه المعلومات على ما قدمته أنا كومينا ، ذلك أن جوتيه كان ما يزال في القسطنطينية .
١١ ـ يحسن العودة إلى رواية أنا كومينا حول أسباب عودته وغاياته .
١٢ ـ هو أدهمردي مونتيل ، أسقف بوي اختاره البابا نائبا عنه في رعاية الحملة الصليبية وقيادتها .
١٣ ـ هو ابن وليم أخي روبرت جسكارد .
١٤ ـ هو ابن وليم الفاتح لانكلترا ، البكر .
١٥ ـ أخو ملك فرنسا فيليب الأول ، راجع ما جاء حوله في رواية أنا كومينا .
١٦ ـ رواية أنا كومينا حول هذا الموضوع أكثر تفصيلا واقناعا .
١٧ ـ يراجع في هذا الشأن ما أوردته أنا كومينا ، مع اعتبار محاولات الامبراطور إجبار غودفري وسواه من قادة الفرنجة على تقديم يمين الولاء له ، ومن ثم العبور إلى البر الآسيوي .
١٨ ـ كان أهل أمالفي في ايطاليا قد تمردوا على الحكم النورمندي ، وكان بوهموند مع غيره من الامراء النورمنديين يقاتل ضدهم عندما وصل المتطوعة من الفرنسيين وسرعان ما أعجب بوهموند بفكرة الحروب الصليبية ، فقرر الالتحاق بالحركة ، وأخذ الطريق نحو العاصمة البيزنطية ، وقد قصت علينا أنا كومينا أوفى التفاصيل حول نشاطاته .
١٩ ـ في تارنت وأوترانتو في ايطاليا .
٢٠ ـ يلاحظ اشارة صاحب المذكرات لنفسه وجماعته .
٢١ ـ كذا ، وكان بوهموند عدوا للامبراطور البيزنطي خاض ضده عددا من الحروب قبل قيام الحروب الصليبية .
٢٢ ـ أي شباط لسنة ١٠٩٧ .
٢٣ ـ لعل صاحب الرغبة في الاغارة هو تانكرد .

٢٤ ـ في مقدونية الشرقية .
٢٥ ـ اسمها الآن كيشان ، ووصلوا إليها في أول نيسان سنة ١٠٩٧ م .
٢٦ ـ ١ ـ نيسان ١٠٩٧ م .
٢٧ ـ في رواية لنا كومينا تفاصيل أوفى حول زيارة بوهموند للقسطنطينية .
٢٨ ـ تتعارض هذه المادة مع ما جاء في بقية المصادر ، ولا ندري أمرد ذلك إلى صاحب المذكرات ، ام انها اقحمت بالنص لصالح بوهموند .
٢٩ ـ ١٤ ـ أيار ١٠٩٧ .
٣٠ ـ يعرف أيضا باسم ستيفن ، وهو زوج اديلا ابنة وليم الفاتح .
٣١ ـ مثل هذا قالته لنا كومينا ، وبناء عليه قدر البعض عدد الفرسان بأكثر من مائة الف .
٣٢ ـ التفاصيل التي أوردتها لنا كومينا حول حصار نيقية وسقوطها أوفى ويمكن الركون إليهـا ، لكن مع الاخذ بعين الاعتبار قيام الخلافات إثر ذلك بين الامبراطور البيزنطي والفرنجة ، وأثر هذا واضح على رواية صاحب المذكرات هذه .
٣٣ ـ رؤيا يوحنا اللاهوتي : ٦ / ١٠ .
٣٤ ـ يرى بعضهم انها قرب بلدة أسكي شهر ، بينما يذهب رنسمان إلى ان اسم المكان « ساري سو » .
٣٥ ـ هو جسر جكسو عند بلدة ليوك ، فهناك توقف الصليبيون للتشاور .
٣٩ ـ لاشك انهم كانوا يهتفون بعبارة « الله أكبر » .
٣٧ ـ اي جيش صنجيل .
٣٨ ـ هذا صدى لمقوله ترددت في أيام الحروب الصليبية من أن التركمان والفرنجة من أصل واحد .
٣٩ ـ انظر صفحات من تاريخ الامة الارمنية ـ تأليف عثمان الترك ـ ط . حلب : ١٩٦٠ ص ١٣٢ ـ ١٣٤ .
٤٠ ـ هي مدينة كومانا ، وكان التركمان بزعامة أسرة الدانشمند قد حاصروها قبل وصول الفرنجة .
٤١ ـ سبق له عمل مرتزقا في الجيش البيزنطي .
٤١ ـ كان ذلك يوم ١٣ تشرين الاول ١٠٩٧ م .
٤٢ ـ يرجح أن هذا كان يوم ٢٠ تشرين أول .
٤٣ ـ أي العاصي .
٤٤ ـ أي يوم ٢١ تشرين أول .
٤٥ ـ ٢٩ كانون أول ١٠٩٧ م .
٤٦ ـ ذكر ابن الاثير في كتابه الكامل في التاريخ في حوادث سنة إحدى وتسعين وأربعمائة : « وقيل إن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزة ، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم ودخول الاقسيس (اتسز بن أوق) إلى مصر وحصرها ، فخافوا وأرسلوا الى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه ويكونوا بينهم وبين المسلمين » . الكامل ٨ / ١٠٨٦ .
٤٧ ـ ٩ شباط ١٠٩٨ .
٤٨ ـ من الجنوية الذين قدموا بأسطولهم يوم ١٧ تشرين ثاني ١٠٩٧ . ٤٩ ـ يوم ٦ آذار ١٠٩٨ م .
٥٠ ـ انظر متى : ٢٥ / ٤١ .
٥١ ـ ٧ آذار ١٠٩٨ م .
٥٢ ـ من أنواع العملة لتلك الفترة .
٥٣ ـ هذه واحدة من الشهادات المعبرة عن شره الصليبيين ومدى وحشيتهم وحقدهم .

٥٤ ـ ٨ ـ اذار ١٠٩٨ م .
٥٥ ـ كان ذلك يوم ٥ ـ نيسان ١٠٩٨ م
٥٦ ـ كذا والمرجح أنه أرمني الاصل ، واسمه عند ابن الاثير روزبه وعند ابن العديم في زبدة الحلب ، فيروز ، وعند ابن القلانسي ، نيروز ، ولعله الصواب ، ومفيد هنا التذكير بضرورة مقابلة رواية صاحب اليوميات بما أوردته انا كومينا .
٥٧ ـ ليلة ٢ ـ ٣ حزيران ١٠٩٨ .
٥٨ ـ غالبا ما يستعمل صاحب اليوميات هذه العبارة ليعني بها واحدا من نورمان ايطاليا .
٥٩ ـ في المصادر الاسلامية ما يفيد أن يغي سغان سقط عن ظهر جواده ميتا أثناء فراره ، فمر به بعض الأرمن فعرفه فحمل رأسه إلى الفرنجة
٦٠ ـ يريد به السلطان السلجوقي بركياروق بن ملكشاه ـ انظر كتابي تاريخ العرب والاسلام ٣٣٣ .
٦١ ـ أي يوم ٥ حزيران ١٠٩٨ م
٦٢ ـ لعله كان أحد الابرجة التي قامت عند مدخل جسر العاصي .
٦٣ ـ أي المعركة التي هزم فيها كربوقا ، وسياتي خبرها مفصلا ، ووقعت في يوم ٢٨ حزيران
٦٤ ـ يوم ٦ حزيران
٦٥ ـ اسمه أحمد بن مروان ـ انظر زبدة الحلب لابن الحلب :٢ / ١٢٩ ـ ١٣٨ .
مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية : ٢٣٦ ـ ٢٤٢ .
٦٦ ـ يشك بصحة هذه الرواية ، وهناك صدى للأساطير الاغريقية عن وجود نهر اسمه الامازون في آسية الصغرى عاش حوله جماعة من النساء اللواتي كن مقاتلات لم يعش بينهن أحد من الرجال
٦٧ ـ كذا ، والرسالة اختراع محض في الاسلوب والافكار ، وفيها جهل فاضح ، فمن هم هؤلاء الأرباب والآلهة وديانة الاسلام ديانة توحيدية ؟! .
٦٨ ـ المزامير : ٦٧ / ٣١ .
٦٩ ـ مزامير : ٧٨ / ٦ .
٧٠ ـ رسالة بولس إلى أهالي رومية : ٨ / ٩ .
٧١ ـ رسالة بولس إلى أهالي رومية ٠ ٨ /١٧
٧٢ ـ التثنية : ١١ / ٢٤ .
٧٣ ـ لاشك أن هذه المحادثة من ابداع خيال صاحب اليوميات ، وهي ذات أهداف دعائية
٧٤ ـ سفر الخروج : ٢٠ / ١١ .
٧٥ ـ الثالث لوصوله إلى أنطاكية أي حزيران ١٠٩٨ م .
٧٦ ـ مزامير : ٧٤ / ٤ .
٧٧ ـ شهر بكثرة رؤاه حتى قيل بأن عددها بلغ خمسا كان أولاها في ٣٠ كانون أول ١٠٩٧ ، وثانيتها يوم ١٠ شباط ١٠٩٨ ، والثالثة يوم ٢٠ آذار ، والرابعة أثناء ذهابه إلى قبرص ، والخامسة يوم ١٠ حزيران ١٠٩٨ .
٧٨ ـ أثناء اشتداد حصار كربوقا لانطاكية يوم ١٠ حزيران .
٧٩ ـ تبعا لصاحب المذكرات قتل غودفري هذا في معركة دوريليوم وهذا يعني أنه لم يكن في المدينة .
٨٠ ـ يرى البعض أن كاتب هذه اليوميات كان بالأصل كاتبا له ، وقد كانت المودة بين هذا الكونت والامبراطور البيزنطي قوية ، فقد لاحظ الامبراطور حب الكونت للظهور فاهتم بهذه الناحية وأحسن استغلالها .
٨١ ـ دعت بعض المصادر اللاتينية هذا الجبل باسم الجبل الاحمر ، وأنه هو الذي يشرف على سهل أنطاكية الشمالي .
٨٢ ـ كان هذا كله قبل سقوط أنطاكية للصليبيين ، ولعل فراره في طريق العودة باتجاه

القسطنطينية كان يوم ٢ - حزيران .

٨٣ - اسمها الآن آق شهر ، ويستدل من رواية أنا كومنينا أن الامبراطور البيزنطي قدم إلى هذه المدينة وهو في طريقه إلى انطاكية لنجدة الفرنجة .

٨٤ - غوي بن روبرت جسكارد النورمندي ، كان أخا ليوهمند من أم ثانية ، اشترك مع أبيه سنة ١٠٨٤ في حملته على بيزنطة ثم هجر أباه والتحق بالامبراطور البيزنطي ودخل في خدمته ، هذا وقد تعرضت أنا كومنينا لمسألة عودة الامبراطور وعدم متابعة زحفه نحو انطاكية .

٨٥- تتباين الروايات حول هذه المسألة ، فمن متحدث عن مسمار إلى حربه أو غير ذلك ، وأن القضية برمتها خداع واختراع ، وقد يكون هذا ، وهو يدل على براعة متناهية ، ذلك أن العلاج أفاد وقاد الى رفع معنويات الفرنجة مما أعانهم على هزيمة كربوقا ومتابعة الزحف حتى القدس ، وحدث العثور على الحربة يوم ١٤ حزيران .

٨٦ - يتعارض هذا مع ما أوردته أنا كومنينا وسواها .

٨٧ - أورد ابن الاثير في الكامل : ٨ / ١٨٦ - ١٨٧ . رواية تتوافق مع هذه الرواية حيث تحدث أولا عن مسألة الحربة والعثور عليها وما أعقب ذلك من صيام واحتفالات ثم قال: « فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين بين خمسة وستة ونحو ذلك ، فقال المسلمون لكربوقا: ينبغي أن نقف على الباب فنقتل كل من يخرج ، فإن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل ، فقال: لاتفعلوا أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم ، ولم يمكن من معاجلتهم ، فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين ، فجاء اليهم بنفسه ومنعهم ونهاهم ، فلما تكامل خروج الفرنج ، ولم يبق بانطاكية احد منهم ضربوا مصافا عظيما ، فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوقا اولا من الاستهانة بهم والاعراض عنهم ، وثانيا من منعهم عن قتل الفرنج ، وتمت الهزيمة عليهم ولم يضرب منهم بسيف ، ولاطعن برمح ، ولارمى بسهم».

٨٨ - كذا ولعله اخترع لغايات دعائية.

٨٩ - توجه كل منهم إلى منطقة اختص بها قبل معركة انطاكية ، فعاد بوهموند إلى اسية الصغرى ، وذهب غودفري إلى الرها - أورفا - حيث كان أخوه بلدوين .

٩٠ - أي تل منس .

٩١ - يوم ١١ - أيلول .

٩٢ - كان اسم الرجل الذي جرى اختياره « بطرس الناربوني » وهو أسقف لاتيني جرت سيامته في بلاد الشام .

٩٣ - ٢٨ - تشرين ثاني ١٠٩٨ م .

٩٤ - من الملاحظ أن الفرنجة تفوقوا أيام الحروب الصليبية بتقنية بناء الابراج الخشبية الضخمة العالية التي كانوا يحصلون على الخشب اللازم لصنعها من السفن الايطالية وسواها، وغالبا ما كان ارتفاع البرج اعلى من الاسوار للبلدة المهاجمة ، وزود كل برج متحرك بوسائل الهجوم وكباش دك الأسوار وغيرها من الآلات ، وغطي بالصفائح المعدنية وجلل بالليد المبللة بالخل للحيلولة دون احتراقه ، وطور المسلمون في هذه الفترة تراكيب فعالة من النيران الحارقة ووسائل أخرى للحيلولة بين الابراج المتحركة وبين الوصول إلى الاسوار .

٩٥ - طلب تأخير موعد استئناف الزحف نحو القدس .

٩٦ - أي قصر يغي سفان وبقاع أخرى ، وكان بوهموند يرغب بالانفراد في تملك انطاكية .

٩٧ - من ١٧ إلى ٢٢ كانون الثاني ١٠٩٩ م .

٩٨ - من ٢٩ كانون ثاني حتى ١٤ شباط ١٠٩٩ م .

٩٩ - يريد بها قلعة حصن الاكراد .

١٠٠ - جناح الدولة حسين ، انظر ترجمته .

١٠١ - فخر الملك ابن عمار.

١٠٢ - أي عرقة .

١٠٣ ـ في العاشر منه .
١٠٤ ـ في تاريخ وليم الصوري اسمه روبرت وكان قسيسا نورمنديا من اسقفية روان .
١٠٥ ـ ١٢ حزيران ١٠٩٩ م .
١٠٦ ـ الاول من آب ١٠٩٩ م .
١٠٧ ـ ٩ ـ آب ١٠٩٩ م .
١٠٨ ـ لاشك أن هذا من ابداع خيال الكاتب ، ومع هذا يروي العليمي في الأنس الجليل ١ . ٣٠٨ خبر هزيمة الافضل ويقول : « وكان عند الافرنج شاعر منتجع إليهم ، فقال يخاطب ملك الافرنج واسمه صنجلي :

نصرت بسيفك دين المسيح
فلله درك من صنجلي

وما سمع الناس فيما روي
بأقبح من كسرة الافضل

فتوصل الافضل إلى ذبح هذا الشاعر » .
١٠٩ ـ الثاني عشر من شهر آب ١٠٩٩ م .

أنا كومينا

١ - يرى ستيفن رنسمان أن معنى هذه العبارة « بطرس الصغير » وقد يكون هذا ، إنما قد شتهر الرجل عن طريق المصادر الأخرى باسم « بطرس الناسك » .

٢ - كذا ، ولا شك أن مثل هذه الافكار لاتستحق الرد ، والمثير للانتباه هنا صدورها عن الاميرة أنا كومينا ، وليدة الغرفة الارجوانية في القصر الامبراطوري في القسطنطينية ، وصاحبة الثقافة العالية والمكانة الرفيعة ، ولا شك أنها شهادة تدل على مدى تعصب بيزنطة والعالم المسيحي ضد الاسلام انذاك ، انها بحق وثيقة معبرة عن المشاعر الصليبية المتعصبة بشكل أعمى .

٣ - منطقة في الشمال الغربي من بلاد الاغريق ، بين بلاد بندوس وبحر ايونيان ، ومعنى اسم هذه المنطقة « البلاد المتوسطة » وهي بلاد جبلية ، قليلة الخصب ، مشهورة بكثرة قطعان الخيول فيها .

٤ - غودفري دي بولليون ، ودوق مناطق اللورين السفلى .

٥ - وصل الصليبيون إلى العاصمة البيزنطية في الاول من شهر آب ١٠٩٦ ، وعبروا مضيق البوسفور في اليوم السادس منه ، وحدث هجومهم على نيقية - إزنيق حاليا في تركيا - التي كانت مقر السلطان قلج أرسلان ، في شهر أيلول .

٦ - هيوج أمير فيرما ندوس الابن الأصغر لهنري الاول ملك فرنسا ، وأن اميرة كيف ، وعلى الرغم من إدعائه ودعواه العريضة غير العادية فإن أثره في السياسية الفرنسية يكاد أن يكون غير ملحوظا .

٧ - هو وليم أمير ميلون ، لقب بالنجار كما يبدو لقوته .

٨ - قدمت من البابا إلى الجنود الذين توجهوا للقتال ضد المسلمين .

٩ - يقع هذا المكان قرب بوسا ، فكاباليون وبوسا هما اسمان لمدينتين في تلك المنطقة ، وإنني لآمل أن يتوجه إلي واحد من الناس بالنقد لاستخدامي هذه الاسماء البربرية ، مشوهة نص تاريخي ، إنما حتى هومر نفسه لم يرفض الاسماء البوتونية ، وفي سبيل الدقة آتي على ذكر عدد من البربر . أنا كومينا .

١٠ - هناك بعض الشكوك حول هذا الرجل الذي تدعوه أنا أيضا باسم بنتازاس ، ويذهب بعض الباحثين إلى أنه هو ريموند بروفانس ، حيث أن عبارة بنتازاس تقابل عبارة بروفانس ، وتستخدم أنا أحيانا عبارة « صنجيل » مع شيء من التشويه ، فريموند عرف باسم « سانت جايل » وكتب العرب اسمه « صنجيل » وسيرد ذكره كثيرا ، خاصة فيما يتعلق بمدينة طرابلس .

١١ - من العبارة اللاتينية Excussatan وهو عبارة عن قارب حفظ كما يبدو من قبل القائد في المرتبة الثانية .

١٢ - ٦ - كانون أول ١٠٩٦ م .

١٣ - إن القوس العقار هو سلاح خاص بالبرابرة ، ويكاد يكون غير معروف بالنسبة للاغريق ، وحتى يشد هذا القوس ، لايقوم الانسان بشد الوتر بيده اليمنى بينما يدفع بالسهم بعيدا عن القوس بيده اليسرى ، فهذا السلاح الذي يرمي السهام إلى مسافة بعيدة جدا ، يحتاج الانسان في شده إلى أن يستلقي إلى الارض على ظهره ، وتقوم كل قدم من قدميه بالضغط بشدة على نصف القوس ، بينما تقوم اليدان بالشد بكل قوتهما باتجاه الجسم ، ويوجد في منتصف الوتر فتحة تشبه الاسطوانة مقطوعة إلى نصفين ، ومرتبة من أجل الوتر نفسه ، ويؤتى بعد هذا بسهم مناسب ، طوله يساوي المسافة ما بين الوتر ومنتصفه الوتر ويرمى من هذه الفتحة بجميع أنواع الرمايات ، صحيح أنها أسهم قصيرة ، لكنها مثقلة برؤوسها الكبيرة ، ويعطي الوتر أثناء الرماية قوة هائلة إلى حد أن الرمية يمكن أن تخرق الترسة والدروع الحديدية الثقيلة ، وتستمر منطلقة لمسافة بعيدة ، لذا لايمكن مقاومة هذه الرمايات ، ومن المعروف أن سهما من هذا النوع يمكن أن

يخرق جسم تمثال من البرونز ، وعندما تتم الرماية ضد سور بلدة كبيرة ، فإما أن يظهر طرف السهم من الجانب الآخر للجدار ، أو يدفن داخل السور ، ويختفي كليا ، إن هذا هو القوس العقار ، فهو كما رأينا آلة رهيبة ، والتعس هو من يرمى بها ، ذلك أنه يموت دون أن يشعر بالرمية ، ودون دراية بقوة الضغط الدافع لها . أنا كومينا .

١٤ ـ تختلف عادات اللاتين فيما يتعلق بالرهبان عن عاداتنا ، فنحن ملتزمون بأحكام القانون ، وبتعاليم الانجيل التي تقول : « لاتلمس ، لاتزمجر ، لاتحارب ، لأنك معمد ، لكن البرابرة اللاتين ، ترى أحدهم يحمل قطعة من الآثار المقدسة ويشد ترسا الى يساره ، ويمسك رمحا بيمناه ويتقرب الى جسد الالهة المقدسة ، ويحدق بالدم ويسفكه حتى يصبح هو نفسه ، رجلا دمويا » كما يقول داوود في المزامير ، وعلى هذا فان هذا الجنس تراه متدينا بقدر اهتمامه بالحرب ، وعلى هذا فاللاتيني هو رجل عمل أكثر منه رجل رهبنة ، ويرتدي ثوب الكهنوت ، ويحمل المجذاف ، جاهزا للملاحة أو للحرب في البر والبحر سواء ، إن أحكامنا كما سلف بي القول صادرة عن هارون وموسى ورهباننا الكبار ـ أنا كومينا .

يلاحظ أن أنا كومينا نقلت نص الانجيل بتصرف حيث النص « لاتمس ولاتذق ولاتجس » رسالة بولس إلى أهل كولوسي : ٢ / ٢١ .

١٥ ـ موقع تعذر تحديده .

١٦ ـ قصر بلا شيرين .

١٧ ـ بني منذ زمن بعيد من قبل أحد الأباطرة ـ أنا كومينا .

١٨ ـ اشارة إلى ثورة آل كومنين .

١٩ ـ الثاني من نيسان ١٠٩٧ كان يوم خميس أيضا .

٢٠ ـ الاليانة (ترجمة انكليزية) : ٤ / ١٢٣ .

٢١ ـ المقصود بالشاعر هنا هو هومر ، لكن يلاحظ أن أنا كومينا تنقل عنه بتصرف .

٢٢ ـ ما من شيء يقيني معروف حول راؤول هذا .

٢٣ ـ كرس القديس ميخائيل ، راعي الدير الذي عرف باسم القديس اغناطيوس بطريرك القسطنطينية وقد دفن هناك .

٢٤ ـ الاليانة : ٢ / ٤٦٨ ـ الأوديسا . ٩ ; ٥١ .

٢٥ ـ لربما كان هذا المعبد في سواسون .

٢٦ ـ هو ريموند كونت تولوز ومركيز بروفانس ، كان يأمل بقيادة الفرنجة جميعا في معاركهم ، وبذلك كان منافسا لبوهوند ، وهذا ما نراه واضحا في كتاب أعمال الفرنجة ، التالي لهذا الكتاب .

٢٧ ـ في نيسان ١٠٩٧ م .

٢٨ ـ في أيار ١٠٩٧ م .

٢٩ ـ هي الآن قرية متواضعة في تركيا على مقربة من استانبول اسمها « إزنيق » وكانت أثناء الحملة الأولى للصليبيين حاضرة دولة سلاجقة الروم

٣٠ ـ كان السلطان قلج أرسلان بعيدا آنذاك في الشرق يحارب ضد الدانشمند صاحب ملاطية ، ولربما أساء تقدير حجم الخطر الفرنجي ، وأعطى القصص حول الخلافات بين الفرنجة والامبراطور الكسيوس حجما أكبر مما تستحق ، وكان في داخل نيقية في ذلك الوقت زوجته وأولاده ونخائر ، مما يؤكد ثقة السلطان ويقينه أن المدينة لايمكن قهرها .

٣١ ـ أخذ هذا البناء اسمه منذ زمن مضى ، عندما جرت ترقية مانويل المشهور ، والد الامبراطور السابق اسحق كومنين مع أخيه جون (وهو جدي من جهة أبي) ، إلى مرتبه إمرة الشرق كله ، وذلك من قبل الامبراطور باسيل ، وكان قصده وضع حد للحرب مع سكليروس إما عن طريق القوة ، أو باجباره على طلب المصالحة من خلال العمل الدبلوماسي ، وحيث أن سكليروس كان رجل حرب ، يحب سفك الدماء ، فإنه رحب بالحرب أكثر من السلم ، ولهذا كان هناك كل يوم اشتباك عنيف ، ولم يكتف سكليروس برفض المهادنة بل قاتل بقسوة أشد وشجاعة أعظم

للاستيلاء على نيقية ،و تمكن بواسطة المجانيق من تحطيم شرفات السور وهدم الجزء الأكبر من هذا البر ، مما سبب ميلان بقية اجزائه ،حتى بدا و كانه راكع على ركبتيه ولهذا عرف منذ ذلك الوقت باسم غونتار ـ انا كومينا ـ .

لقد تحدث المؤرخ البيزنطي ميخائيل بزللوس في الجزء الاول من تاريخه عن حملة باسيل ضد سكليرس . انظر ص : ٣٠ ـ ٣٢ من الترجمة الانكليزية ط . لندن ١٩٦٦ .

٣٢ ـ القنال الضيق بين جزيرة يوربيا والبر الاغريقي ، مشهورة بتياراتها .

٣٣ ـ بحيرة أسكانيا إلى الغرب من المدينة .

٣٤ ـ يبدو أن زاخاس هذا كان من المرتزقة التركمان العاملين لدى الامبراطور وسيرد اسمه بعد قليل ص ١٥٧ ، وقد أخذ يعمل لحسابه الخاص ضد الامبراطور .

٣٥ ـ قيل بأنها كانت ابنة زاخاس ، انظر ص ١٥٨ المقبلة .

٣٦ ـ فراغ بالأصل .

٣٧ ـ في منطقة أسكي شهر الحالية في تركية ، ووقعت المعركة يوم الاول من تموز سنة ١٠٩٧ م ، فقد بدأ بوهموند زحفه يوم ٢٦ حزيران ، وتبعه البقية يوم ٢٨ ثم ٢٩ وهكذا .

٣٨ ـ لربما المقصود هنا ملك غازي كمشتكين بن الملك دانشمند الذي توفي سنة ١١٨٤

٣٩ ـ الاليانة : ٥ ; ٢٩٩ .

٤٠ ـ وصل الفرنجة إلى انطاكية يوم ٢١ تشرين أول ١٠٩٧ م ، وسقطت المدينة لهم في الثالث من حزيران سنة ١٠٩٨ م .

٤١ ـ قيل اسمه فيروز ـ أو نيروز ، ارمني الاصل ، تظاهر بالدخول في الاسلام وبالطاعة والاخلاص ليغي سفان والي انطاكية ، واضمر له العداوة والحقد .

٤٢ ـ برج الأختين ، وقد درس رذسمان بشكل واف أخبار سقوطه معتمدا على مختلف الروايات ، وذلك في المجلدة الاولى من كتابه تاريخ الحروب الصليبية ، والكتاب مترجم من الانكليزية إلى العربية .

٤٣ ـ هي مدينة أزمير الحالية بتركيا .

٤٤ ـ لم استطع ضبط الصيغة التركمانية الصحيحة لهذين الاسمين ، فالاسم الثاني اسم مركب من عبارتين هما : تنجري ، وبيرمس ، وأعرف أن تنجري كلمة تركية مغولية تعني رب السماء ، لكنني غير متأكد من الشطر الثاني « بيرم » ؟

٤٥ ـ تدعى أحيانا باسم عرب سوس ، ولها ذكر في المصادر المبكرة التي تتحدث عن أخبار الفتوحات الاسلامية ، وهي مدينة أهل الكهف في بعض المصادر الجغرافية العربية .

خ٤٦ ـ اسمها الآن بولفادين في تركيا .

٤٧ ـ اسمها الآن علي شهر في تركيا .

٤٨ ـ اسمها الآن آق شهر .

٤٩ ـ التحق كل من وليم أوف غرانتمسنيل مع ستيفن أوف بليوس وبيتر اليفاس بالامبراطور في حوالي منتصف حزيران ١٠٩٨ م .

٥٠ ـ سقط بالاصل ، والجدير بالذكر هنا انه يحول بيننا وبين معرفة مصير الاسرى ، وما فعله الامبراطور بهم .

٥١ ـ في كنيسة القديس ـ القسيان ـ بطرس في انطاكية .

٥٢ ـ تتحدث أنا هنا عن مسامير ، لكن اللاتين يتحدثون عن حربة أو رمح مقدس .

٥٣ ـ من الملاحظ أن أنا تمزج هنا بين بطرس الناسك ، وبطرس بارثلميو ، وأدهمر أسقف بوي ، وتحسن العودة إلى رواية صاحب يوميات أعمال الفرنجة .

٥٤ ـ روبرت كونت فلاندر .

٥٥ ـ سقطت في ١٥ تموز سنة ١٠٩٩ م .

٥٦ ـ سبق لأنا أن أشارت في الفصل السابق ـ الكتاب العاشر ـ إلى أن عدد الكونتات الذين

وقعوا في الأسر وحملوا إلى مصر هو / ٣٠٠ / .

٥٧ ـ بني الحصن على تلة الحجاج خارج طرابلس ، ودعاه العرب باسم حصن ـ أو قلعة ـ صنجيل .

٥٨ ـ مات في ١٨ تموز لسنة ١١٠٠ ، ربما بسبب إصابته بسهم .أو إصابته بالتيفوئيد ، وقد دفن في كنيسة القيامة .

٥٩ ـ الذي كان أنذاك في منطقة الرها ، ـ أنا كومينا .

٦٠ ـ يوم ٢٥ كانون أول لسنة ١١٠٠ م .

٦١ ـ يبدو أن معظمه كان من اللومبارديين .

٦٢ ـ كان هدفهم انقاذ بوهموند الذي وقع في الأسر لدى التركمان في شهر آب .

٦٣ ـ يوم ٢٣ حزيران سنة ١١٠١ م .

٦٤ ـ تعرف هذه المعركة باسم معركة المرزبان ، وقد وقعت في خريف سنة ١١٠١ ، وفيها قتل حوالي أربعة أخماس الجيش الصليبي .

٦٥ ـ هي بافرا الآن على فم نهر هاليس .

٦٦ ـ وليم جوردان كونت سردينية .

٦٧ ـ كان قسطنطين حاكم قبرص أنذاك ـ أنا كومينا .

٦٨ ـ تتابع أنا فيما يلي سرد أخبار حوادث وقعت في ١٠٩٨ ـ ١٠٩٩ ، وهي اسوء الحظ عادة سيئة من عاداتها .

٦٩ ـ هو ديمبرت رئيس أساقفة بيزا ، جرى تعيينه بطريركا على القدس من قبل البابا أوربان الثاني سنة ١٠٩٨ م ، إثر موت ادهمر أوف لي بوي ، وجعلت أنا التي كانت تكره رجال الدين اللاتين ديمبرت يبدو وكأنه المسؤول عن تنظيم الاسطول البيزي .

٧٠ ـ ولد لاندولف في ايطاليا ، ولاشك أنه كان يفهم طرائق عمليات البحرية اللاتينية .

٧١ ـ تستعير أنا أوصافها من هومر .

٧٢ ـ هوميروس ـ الاوديسا : ٣ / ١٧١ .

٧٣ ـ إلى الغرب من صقلية .

٧٤ ـ اسمها الحالي كورغوس .

٧٥ ـ تعالج الأميرة أنا الآن حوادث سنة ١١٠٤ ، علما بأن السفن الجنوية كانت تجوب بحار المنطقة منذ سنة ١٠٩٧ م .

٧٦ ـ لآسية الصغرى .

٧٧ ـ ميناء من موانىء العصور الوسطى كان يقع إلى الجنوب الغربي من مدينة طرسوس ويبعد عنها مسافة / ١٥ / ميلا ، وقد حل محله ميناء مرسين الحالي في تركية .

٧٨ ـ لم تأت المصادر اللاتينية على رواية هذه القصة ، ولهذا يرى البعض أنها محض اختراع ، ولربما كانت من ابداع خيال أنا كومينا ، علما بأن بوهموند كان قادرا على مثل هذه الأعمال .

المحتوى